الحرب والسلم

(الكتاب الأول)

إلياذة العصور الحديثة



ليو تولستوي

الحرب والسلم (الكتاب الأول)

إلياذة العصور الحديثة

تأليف
ليو تولستوي



الحرب والسلم (الكتاب الأول)

ليو تولستوي

War and Peace (Book 1)

Leo Tolstoy

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩ ٢٠٧٨ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الروسية عام ١٨٦٩.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٥٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠.

المحتويات

نَقَلَ هذا الكتابَ إلى اللغة العربيَّة نخبَةٌ من أسرة «دار اليقظة العربيَّة للتأليف والترجمة والنشر بسورية»، استنادًا إلى الترجمتين الفرنسيَّة والإنجليزيَّة، ورُوجِع النص الأخير على الأصل الروسي.



الجزء الأول



نابليون «هذا المسيح الدجال».

الفصل الأول

وصيفة الإمبراطورة

صباح يوم من حزيران ١٨٠٥، أرسلت آنا بافلوفنا شيرر Anna Pavlovna Scherer، وصيفة شرف الإمبراطورة ماري فيودوروفنا Marie Fiodorovna المفضَّلة، خادمًا يرتدي بزة حمراء رسميَّة يحمل بطاقات إلى كل أصدقائها دون استثناء جاء فيها ما يلي:

> إذا كانت الرغبة في قضاء السهرة عند مريضة مسكينة لا ترعبك، ولم يكن لديك ما تفعله خيرًا من ذلك، فإنه سيَفتِنُني يا سيدي الكونت — أو يا أميري — أنْ أستقبلك بين الساعة السابعة والساعة العاشرة.
>
> آنيت شيرر

أُصِيبت آنَّا بافلوفنا منذ بضعة أيام بعارض سعال كانت تسميه «كريب» Grippe؛ رغبةً منها في إيراد كلمة جديدة لم يَذِعِ استعمالها ويَشِعْ بعد؛ فكان هذا العارض سببَ تنويهها بالمرض في رقاع الدعوة.

كان الأمير بازيل Basile — الشخصية السامية المرموقة — أوَّل من حضر حفلتها من المدعوين، كان يرتدي حُلة البلاط الموشاة، المزينة بالأوسمة، وجوارب حريرية تُبرِز ساقيه من خفَّين رشيقَيْن، وكان وجهه ذو القسمات الخدَّاعة مشرقًا.

استقبلته آنا بافلوفنا بالعبارات التالية:

«إذن يا أميري، إنَّ جنيس[1] ولوك[2] Gênes, Lucques أصبحتا الآن إقطاعيتين من أملاك أسرة بونابرت. أخطرك بأنك إذا لم تبلغني أننا أعلنَّا الحرب، أو سمحت لنفسك بالاستمرار في تخفيف حدة فواحش هذا الدجَّال وقساواته — ولعمري إنني أُومِن بما أقول — فإنني سأتنكر لك، لن تكون صديقي بعد ذلك ولا خادمي المطيع كما تقول. اه، مرحبًا، مرحبًا! أرى أنني أخيفك، اجلس وحدِّثني عن الأخبار.»

أجابها الأمير غير آبه باستقبالها: رباه، يا للحدة اللاذعة!

كان يعبِّر عن خواطره، ويُفكِّر بتلك الفرنسية التي درج كبارُ رجالات البلاط الروسي على التحدث بها، مُدخِلًا عليها تلك النَّبرةَ المترفعة، والمخارِجَ الرَّخوةَ التي يمتاز بها أولئك الذين أفنوا العمر في المجتمعات الراقية، وكانوا ذوي حظوة في البلاط.

أحنى رأسه المُضمَّخ بالعطور والأدهان على يد آنَّا بافلوفنا وقبَّلها، ثمَّ تهالك بخفَّة على الأريكة.

استطرد يقول بلهجته تلك وبصوت يخفي لامبالاةً أقرب إلى التهكم وراء ستار من التأدب واللطف: طَمْئِني صديقك قبل كل شيء، أخبريني كيف حالك يا صديقتي العزيزة.

فأجابت آنَّا بافلوفنا: كيف يحسن حال المرء … إذا كان يتألم معنويًّا؟ هل يمكن للمرء أنْ يحتفظ بهدوئه في أيامنا هذه إذا كان طيِّبَ القلب؟ أعتقد أنك ستمكث عندي طوال السهرة؟

– وحفلة المفوضية الإنجليزية؟ إننا في يوم الأربعاء، ينبغي أنْ أظهر هناك كذلك، ستأتي ابنتي لتصطحبني.

– كنتُ أعتقد أنَّ حفلة اليوم قد أُجِّلت، أعترف لكَ بأن كل هذه الحفلات والمظاهر المصطنعة أخذت تصبح تافهةً باردة.

---

[1] جنيس مدينة ذات مرفأ على خليج جنيس، عاصمة ليجورجيا في إيطاليا. وهي مدينة من حيث موقعها ومتاحفها ومَرْفَؤُها وتجارتها وصناعاتها وإنتاجها. اسمها بالإيطالية «جنوا». احتلها الفرنسيون عام ١٨٠٥ وألحقوها بمملكتهم. سكَّانها ٦٣٤٠٠٠.

[2] لوك مدينة إيطاليَّة مشهورة بزيت الزيتون، تعداد سكانها ٨٠٠٠٠. (أسرة الترجمة)

أكَّد الأمير، الذي كان كالساعة الدقَّاقة، يبدي آراءً بحكم العادة، كان كثيرًا ما يزعجه شخصيًّا أن يراها تحمل على محمل الجد: لو علموا أنَّ هذه هي رغبتكِ، لأجَّلوها بلا شك.

– لا تعذبني! والآن، ماذا قرَّرُوا بشأن برقية نوفوسيلتسوف Novossiltsov؟ إنكَ تعرف كل شيء.

أجاب الأمير بلهجة باردة متبرمة: ماذا أقول لكِ؟! لقد قرَّروا أنَّ بونابرت قد أحرق سفنه، وأعتقد أننا في سبيل إحراق سفننا كذلك.

كان الأمير بازيل يتكلم دائمًا بتثاقلِ الممثل الذي يؤدي دورًا دقَّقه ومحَّصه مائة مرة من قبل، أمَّا آنَّا بافلوفنا فكانت على العكس؛ شديدةَ الاندفاع والتحمُّس رغم أعوامها الأربعين.

أصبحت حالة التحمس عندها ميزة اجتماعية تُعرف بها، حتى إنها أحيانًا كانت تبدي ذلك الحماس مرغمةً؛ إرضاءً لرغبة معارفها، فكانت الابتسامة الصغيرة التي تشرق أبدًا على محياها — رغم ما بينها وبين تقاطيع وجهها المكدود من بعض التنافر — توحي، شأن الأطفال المدلَّلين، باعتراف صريح بخطئها اللطيف؛ ذلك الخطأ الذي كانت لا تريد ولا تستطيع الرجوعَ عنه، ولا تؤمن بضرورة تقويمه.

ثارت آنَّا بافلوفنا في سياق هذا الحديث على السياسة، وهتفت مسخطة: آه! لا تحدِّثني عن النمسا؛ قد لا أكون مطَّلعةً على الحقائق، لكن النمسا لا تريد الحرب ولم تُرِده قَط. إنها تخوننا. إن على روسيا وحدها مهمَّةَ إنقاذ أوروبا. إن محسننا[٣] يعرف المهمَّة السامية التي هو مدعو إلى إنجازها، وسيكون مخلصًا لمهمته. هذا هو الأمر الوحيد الذي أُومِن به. إن عظيمنا،[٤] إمبراطورنا الباهر، مدعو للقيام بأجمل دور في العالم. إنه شديد الصلاح، غاية في الشهامة، حتى إنَّ الله لن يتخلى عنه أبدًا، سوف يحقق مهمته ويبخرها، فيسحق آفةَ الثورة التي أصبحت الآن أشدَّ خطرًا وأكثر رعبًا، بعد أنْ تجسَّدت في شخص هذا السَّفَّاح الأثيم. إنَّ علينا نحن — ونحن وحدنا — أنْ نشتري حياة العدل. مَن الذي نستطيع الاعتماد عليه؟ إنَّ إنجلترا — بتلك العقليَّة التجاريَّة التي تهيمن عليها — لا تفهم ولن تفهم عظمة

[٣] ألقاب كانت تُطلَق على الإمبراطور أسوةً بـ «مولانا»، «سيدنا» … إلخ التي تُطلَق عندنا. (أسرة الترجمة)

[٤] ألقابٌ كانت تُطلَق على الإمبراطور أسوةً بـ «مولانا»، «سيدنا» … إلخ التي تُطلَق عندنا. (أسرة الترجمة)

نفس الإمبراطور ألكسندر Alexandre[٥] ونفسيته النبيلة؛ لقد رفضت إخلاء مالطة، إنها تحتجُّ وتتهمنا بإضمار بعض النوايا. ماذا قالوا لنوفوسيلتسوف؟ لا شيء! إنهم لم يفهموا، ولا يمكنهم أنْ يفهموا نزاهةَ إمبراطورنا وتجرُّدَه، وأنه لا يهدف إلى أي غنْم شخصي، بل يريد خير العالم. وبماذا وعدوا؟ بلا شيء! إنهم لن يتقيَّدوا بوعد حتى ولو قطعوه على أنفسهم! لقد أعلنت بروسيا أنَّ بونابرت لا يُقهَر، فإذا آمنا بما أعلنت، كان معناه أنَّ أوروبا كلها لن تستطيع الصمود في وجهه. إنني لا أصدق كلمة واحدة من تخريف هاردنبرغ Hardenberg[٦] أو هوغويتز Haugwitz.[٧] إنَّ حياد بروسيا العتيد ليس إلَّا شَرَكًا. إنني أُومِن بالله وحده وبمهمة إمبراطورنا الرحيم السامية، إنه سينقذ أوروبا!

توقَّفت فجأة، وكانت أول مَن ابتسم لتحمُّسها، فقال الأمير وهو يبتسم بدوره: لعمري، لو أنكِ أُرسلتِ بدلًا من عزيزنا وينتز نجيرود Wintzingerode[٨] لأمكنكِ انتزاع موافقة ملك بروسيا انتزاعًا. إن لكِ بلاغةً! هل ستقدِّمين لي قدحًا من الشاي؟

– على الفور.

ثمَّ استطردت وقد عاد إليها هدوءُها: وبهذه المناسبة، عندي شخصيتان هامَّتان جدًّا ستحضران اليوم: الفيكونت مورتمارت Mortemart[٩] — وهو حليف جماعة مونتمورانسي

---

[٥] إسكندر الأول، إمبراطور روسيا منذ عام ١٨٠١. وُلِد عام ١٧٧٧ وتوفي عام ١٨٢٥، وقد حارب نابليون الأول، فهزمه هذا في معارك: أوسترليتز Austerlitz، وإيلو Eylau، وفريدلاند Friedland، فعقد معه صلح تيلسيت Tilsit، غير أنه عاد يعلن الحرب عليه عام ١٨١٢. (أسرة الترجمة)

[٦] الأمير شارل أوغست دو هاردنبرغ، سياسي في خدمة حكومة بروسيا، مثَّلها في مؤتمر فيينا. وُلِد عام ١٧٥٠ وتُوفي عام ١٨٢٢. (أسرة الترجمة)

[٧] الكونت هنري دو هوغويتز، سياسي بروسي وقَّع مع فرنسا معاهدةَ بال Bale. وُلِد عام ١٧٥٢ وتُوفي عام ١٨٣٢. (أسرة الترجمة)

[٨] فرديناند دو وينتز نجيرود، فيلد ماريشال وسياسي روسي، وهو أحد قُوَّاد جيش الغزو الروسي خلال معارك عام ١٨١٤. وُلِد عام ١٧٧٠ وتوفي ١٨١٨. (أسرة الترجمة)

[٩] أسرة مورتمارت أسرة فرنسيَّة عريقة، انحدر منها الأميرال دو فيفون De Vivonne ومدام دو مونتيبان، محظية لويس الرابع عشر واسمها الكامل: فرانسواز آتينائيس مركيزة روشوشوارت، وُلِدت عام ١٦٤١ وتوفيت عام ١٧٠٧. (أسرة الترجمة)

Montmorency[١٠] بواسطة جماعة روهان Rohan،[١١] ومن ألمع الأسماء في فرنسا وخيرة المهاجرين الحقيقيين — ثُم الرئيس الروحي موريو Abbé Morio. هل تعرف هذا الدماغ الألمعي؟ لقد استقبله الإمبراطور، هل تعرفه؟

– آه، ستسعدني معرفته!

واستطرد بلهجة رشيقة، وكأنه تذكَّر فجأةً أمرًا جوهريًّا كان الواقع الأقوى لزيارته: وبهذه المناسبة، هل صحيحٌ أنَّ الإمبراطورة الأم تدعم ترشيح البارون فونك للسكرتارية الأولى في فيينا؟ إنَّ هذا البارون سيد مفلس كما يبدو.

كان الأمير بازيل يتطلع إلى هذا المركز لتنصيب ابنه فيه، بينما كان بعضهم يستغل وساطةَ الإمبراطورة ماري فيو دو روفنا لتعيين البارون فيه.

أجابت بلهجة مكتئبة باردة: إنَّ سيدي البارون دو فونك de Funke قد أوصيَ به إلى الإمبراطورة الأم من قِبل أختها.

لما نطقت آنَّا بافلوفنا باسم الإمبراطورة، أعرب وجهها فجأةً عن احترام وتبجيل عميقَيْن مخلصَيْن، لا تخالطهما سحابة من الشَّك، وكانت دائمًا تتخذ مثل ذلك الطابع التمجيدي كلما تحدَّثت عن تلك الشخصية السامية التي تحيطها برعايتها وحمايتها.

استطردت وقد أظلمت نظرتها من جديد: لقد تفضَّلت جلالتها وأحاطت البارون بتقديرها البالغ.

لزم الأمير صمتًا خليًّا، فأرادت آنَّا بافلوفنا — بما طُبِعت عليه من إحساس مرهف، وما جُبِلت عليه من طباع السيدة العريقة في شئون البلاط — أنْ تُشعِر الأمير بأنه تجاوز حدود اللباقة في التحدُّث عن شخصٍ تحميه الإمبراطورة، باللهجة والعبارة التي تحدَّث بهما، وتوخَّتْ في الوقت ذاته أنْ تغريه بالفشل الذي مُنِي به، فقالت: ولكن على ذكر أسرتك،

---

[١٠] أسرة مونتمورانسي أسرة فرنسيَّة شهيرة، تحدَّر منها رجال مشاهير تبوَّءُوا المركزَ العسكري الأوَّل في فرنسا، حتى أن جاء ريشيلو فألغى ذلك المركز. ومن أشهر أفراد هذه الأسرة: ماتيو الأوَّل على عهد لويس السابع، وماتيو الثاني، وآن الأول وهو أحد كبار مستشاري الملك فرانسوا الأول والملك هنري الثاني، وهنري الأول، وهنري الثاني؛ وكانوا جميعًا رؤساء الجيوش الفرنسيَّة في عهودهم. (أسرة الترجمة)

[١١] روهان بلدة فرنسيَّة تعدادها ٥٦٨ شخصًا (سابقًا)، سُمِّيَ الجنرال الفرنسي هنري دوقًا لها على عهد لويس الرابع عشر، وانحدرت منهما أسرة عريقة. (أسرة الترجمة)



سهرة آنا شيرر.

هل تعرف أنَّ ابنتك منذ أنْ بلغت سن الرشد وانطلقت في المجتمع، أصبحت مطمعَ الأنظار وقِبلتَها؟ إنهم يجدونها كالنهار المشرق.

انحنى الأمير للتدليل على امتثاله وامتنانه.

وبعد فترة صمت، اقتربت آنَّا بافلوفنا من الأمير وعلى شفتيها ابتسامة أنيسة، وكأنها تَلفتُ انتباهَه إلى أنَّ المواضيعَ السياسيَّةَ والاجتماعيَّةَ أتاحت السَّبيلَ للمُناجَيات الوديَّة الخاصَّة.

أردفت تقول: إنني أحدِّث نفسي غالبًا، بأنَّ الحياة تبدو أحيانًا باغية في تقسيم السعادة.

وأضافت عرضيًّا — بلهجة لا تدع مجالًا للرد — وهي تُقطِّب حاجبَيْها: لِمَ حباك القدَرُ بولدَيْن فاتنين جميلين — باستثناء آناتول، ولدك الأصغر الذي لا يعجبني مطلقًا — ولدَيْن على هذا القسط من اللطف والجمال؟ إنك أقلُّ الناسِ اهتمامًا بهما، حتى إنك لا تستحقهما.

فأجاب الأمير: ماذا أستطيع؟ قد يقول لافاتر Lafater[١٢] إنني محروم من الحَدَب الأبوي.

– كُفَّ عن الهزل، إنني أرغب في التحدُّث إليك جديًّا، هل تعرف أنني غير راضية عن صغيرك؟

وعلت وجهَها سحابةٌ من الغم، وأردفت: لقد تحدثوا عنه في حضرة صاحبة الجلالة الإمبراطورة — والحديث بيننا — وقد أشفقوا عليكَ ورثوا لحالكَ.

ولما لم يُجِرِ الأمير جوابًا، حضَّته على الجواب بنظرة من عينيها، فعبس الأمير وقال أخيرًا: ماذا تريدينني أنْ أفعل؟ لقد بذلت كل ما في وسعي كأبٍ لتثقيفهما، إنهما ليسا إلَّا سخيفَيْن أحمقَيْن؛ إنَّ هيبوليت سخيف هادئ على الأقل، أمَّا آناتول، فإنه سخيف طائش عربيد.

وابتسم ابتسامةً أكثر تبرمًا من العادة، بينما ارتسمت على أطراف شفتيه خطوطٌ عميقة، تُنبِئ بغضبةٍ مُرَّة، وأضاف: هذا هو الفارق الوحيد بينهما.

قالت آنَّا بافلوفنا وهي ترفع إليه عينين حالمتين: لِمَ يُنجِب الأشخاص الذين من نوعك أولادًا؟ لو لم تكن أبًا، لَمَا وجدتُ شيئًا آخذُه عليك.

– إنني خادمكِ المخلص، أستطيع أنْ أُصرِّح لكِ وحدكِ بأن أولادي هم قيود وجودي وحياتي، إنهم مصدر عذابي، إني أرى الأمور على هذه الصورة، ماذا تريدين؟

صمت، وأشار بيديه متممًا حديثه، معلنًا استسلامه لمصيره القاسي. فاستغرقت آنَّا بافلوفنا في التفكير: ألم تخطر ببالك فكرة تزويج «أناتولك»، هذا الولد الضال؟ يشاع أنَّ العانسات مهووسات بالزواج. إنني لم أشعر بعدُ بمثل هذا الضَّعْف، لكنني أعرف فتاةً ما، جعل أبوها حياتها جحيمًا، إنها قريبة لنا؛ إحدى أميرات بولكونسكي.

كان جواب الأمير بازيل إشارةً من رأسه، أعرَبَ بها ببداهة الرجل الراقي الخبير عن استيعابه الغاية والعرض، واستتلى مسترسلًا في سياق آرائه الكئيبة قائلًا: أتعرفين أنَّ هذا الـ «آناتول» يكلِّفني أربعين ألف روبل كل عام؟

---

[١٢] جان كاسبار لافاتر، فيلسوف وشاعر وأستاذ لاهوت بروتيستانتي، وُلِدَ في «زيوريخ» سويسرا عام ١٧٤١، وتوفي عام ١٨٠١، وهو مبتدع «الفيزيونيومونيا»، أو علم الفراسة؛ «الحكم على المرء استنادًا إلى تقاسيم وجهه». (أسرة الترجمة)

وصمت فترةً ثم عاد يقول: ماذا يحدث إذا استمرَّ الحال خمس سنين على هذا المنوال؟ هذا ما يجنيه المرء عندما يكون أبًا! هل أميرتك شابَّةٌ غنيَّة؟

– إنَّ أباها غنيٌ بقدْرِ ما هو بخيل، إنه يقطن في الريف، إنه ذلك الأمير بولكونسكي العتيد، الذي ترك الخدمةَ منذ عهد الإمبراطور المرحوم، والذي كانوا يلقبونه بملك بروسيا. إنه شديد الذكاء، لكنه شاذٌّ سيئ العِشرة، والصغيرة المسكينة تعيسة تعاسةَ الحجارة، إنَّ لها أخًا تزوَّج مؤخرًا بليزمينن وهو مرافق كوتوزوف، إنني أنتظره هذا المساء.

أمسك الأمير فجأةً بيد مخاطِبته، وأدناها — والله أعلم بالسبب — حتى لامست الأرض وقال: أصغي إليَّ يا عزيزتي آنيت، رتِّبي لي هذه المسألة، فأكون خادمك المطيع إلى الأبد: (أ ... ب ... د)، كما يكتب إليَّ وكيلي في تقاريره. إنها غنيَّة ومن أسرة جيدة، وهذا كل ما أبغيه.

وانحنى بحركاته الرفيعة الكيِّسة التي يمتاز بها وحده، على يد وصيفة الشرف ليقبِّلها، وراح يهزُّها فترة طويلة، وهو جالس على أريكته يتأملها عن البعد.

قالت آنَّا بافلوفنا ساهمة: انتظر، سأتحدث هذا المساء إلى ليز، زوجة بولكونسكي الشاب، ولعلني أستطيع تسوية هذه القضية. إنني سأقوم بتدريبي الأول كفتاة عانس في إقامة أول زواج لواحد من أعضاء أسرتك.

الفصل الثاني

بيير

أخذ بهو آنَّا بافلوفنا يعجُّ بالمدعوِّين، اجتمعت فيه صفوة الطبقة الأرستقراطيَّة في بيترسبورج، من مختلف الأعمار والمشارب؛ أشخاص تربط بينهم رفعة الحسب، رغم فوارق الأعمار وتباين الآراء. جاءت هيلين الجميلة — ابنة الأمير بازيل — لتصحب أباها إلى حفلة السفارة الإنجليزيَّة، ترفل في ثوب خاص بالحفلات، ينُمُّ عن الترف والثراء العريضَين اللذين تنعم بهما صاحبته، ووصلت الأميرة الصغيرة الشابة بولكونسكي، التي اشتهرت بأنها أجمل نساء بيترسبورج، وأكثرهنَّ فتنة، والتي تزوجت في الشتاء الماضي وباتت تنتظر مولودًا؛ مما اضطرها إلى اعتكاف الحفلات العامَّة، والاقتصار على الظهور في الحفلات العائليَّة الودِّيَّة، التي تجمع طائفة من المقربين. وجاء الأمير هيبوليت — ابن الأمير بازيل — بصحبة مورتمارت وقدَّمه للموجودين. ثمَّ تلاهما الأب موريو وفي أعقابه عدد من عِلية القوم وخِيرة أهل الثراء والنسب.

كانت آنَّا بافلوفنا تسأل كل وافد جديد: «ألم ترَ بعدُ عمتي؟» أو: «أَلَا تعرف عمتي؟» ثم تمضي به بعد ذلك وعلى وجهها طابع جدي رزين، إلى عجوز قصيرة القامة، مُزمَّلة بشرائط ضخمة، خرجت من غرفة مجاورة عند وصول طلائع المدعوين؛ فتقدِّم الزائرَ إليها، وهي تنقِّل بصرها ببطء بينه وبين الـ «ماتانت»[1] ثمَّ تنسحب من فورها.

وكان كل مدعو يتقدم إليها بتهانيه التقليديَّة، وبالعبارات اللائقة بالمقام، بصدد تلك العمة المجهولة، التي لم يكن أحد يشعر بحاجة إلى معرفتها، أو يبدي رغبته بتلك

---

[1] درجت الطبقة الأرستقراطيَّة في روسيا على إقحام كلمات فرنسيَّة في حديثها بالروسيَّة، دلالة على تثقُّفها؛ إذ كانت اللغة الفرنسيَّة تُعتبر لغة الطبقة الراقية. وقد أدخلت آنا في حديثها كلمةَ «ماتانت» (عمتي) لهذا الغرض. (المترجم)

المعرفة، فتعلن آنَّا بافلوفنا — بهيئتها المتطيرة الخطيرة — موافقتها على تلك الإطْراءات التي يغدقها المادحون. وكانت «الماتانت» تبدأ حديثها، مع كلٍّ من المقدَّمين إليها، بعبارة تقليديَّة متعلقة بصحتهم، وصحتها الشخصيَّة، وصحة جلالتها الإمبراطوريَّة التي كانت — ولله الحمد — أحسن في ذلك اليوم، فكان كل واحد منهم ينسحب مستأذنًا — دون أنْ يبدي عجلةً وتلهفًا على الانسحاب من باب المجامَلة والأدب — وهو يتنفس الصُّعَداء كمَن تخلَّص من واجب مَقيت عسير، فلا يعود إلى حضرتها طيلة السهرة.

كانت الأميرة بولكونسكي تحمل معها أشغالها في كيس صغير من القطيفة المدبَّجة بالذهب، وكان طيف من الزغب يظلل شفتها العليا اللطيفة، التي كانت قصيرة بعض الشيء، ولكنها تنفرج بشيء كثير من العذوبة، وتبرز بانضمامها إلى الشفة السفلى تشذرًا أكثر فتنةً وإغراء، فكانت تلك العيوب الطفيفة — تلك الشفة القصيرة وذلك الفم المنفرج — تُضفِي عليها، كما هو الحال لدى النساء الفاتنات الجميلات، جاذبيةً خاصَّة وجمالًا لا يصلح بغيرها، وكان كلُّ مَن ينظر إلى تلك الأم المنتظرة، المملوءة حيويَّةً وصحة، وهي تحتمل أعباءَها برضًى ونشاط؛ يشعر بالغِبْطة والسرور يملآن قلبه، فكانت دقائق قليلة بصحبتها تكفي ليشعر الكهول والشباب الجامدون المتضجرون، بأنهم أضحَوْا في مثل حالها من النشاط والغِبْطة. وكان كلُّ مَن لاحظ، وهو يتحدث إليها، تفتُّحَ ابتسامتها المشرقة إثْرَ كل كلمة، وعايَنَ لمكان أسنانها البيضاء المستمر؛ يعتقد أنه في تلك الأمسية أكثرُ عذوبةً ورقَّةً من أي يوم مضى. كذلك كان اعتقاد كل المدعوين.

دارت الأميرة الصغيرة حول المائدة بخطوات نشيطة متهادية وكيسُ أشغالها في يدها، ثمَّ جلست على مقعد قرب «السماور» الفضي، وهي ترتِّب ثوبها بهدوء، وكأنَّ الأمر يتعلق بحفلةِ سَمَرٍ ستتذوقها كما سيتذوقها كلُّ مَن حولها ويحيط بها؛ ثمَّ فتحت حقيبة يدها وقالت، وكأنها توجِّه حديثها إلى كل واحد بالذات: لقد جئتُ معي بأشغالي.

ثمَّ أعقبت موجة حديثها إلى ربة البيت هذه المرَّة: حاذري يا آنيت أنْ تُعِدِّي لي حيلةً ماكرة، لقد كتبتِ لي تقولين إنها سهرة صغيرة لطيفة، انظري إلى زينتي المتواضعة.

ومدَّتْ ذراعيها لتُرِيَها ثوبَها الرَّشِيق الأشْهَب الموشَّى بالخرز، والذي كان يحدِّق به شريطٌ عريض يمتد حتى أسفل الصدر.

فأجابت آنَّا بافلوفنا: لا تراعي يا ليز، ستكونين أبدًا أجملَ الموجودات.

استطردت ليز موجِّهة حديثها إلى أحد الجنرالات بلهجتها العذبة الرقيقة: أتدري أنَّ زوجي قد هجرني مفضِّلًا التعرُّض للقتل؟!

ثم خاطبت الأمير بازيل بقولها: قُل لي، لِمَ هذه الحرب الملعونة؟

ودون أنْ تنتظر جوابًا، استدارت نحو هيلين الجميلة، ابنة الأمير بازيل، فغمغم هذا في أذن آنَّا بافلوفنا قائلًا: يا لها من شخصيَّة فتَّانة، هذه الأميرة الصغيرة!

وبعد فترة من دخول الأميرة، وصل شابٌّ متينُ البنيان ضخمُ الجثَّة، ذو شعر حليق ونظارتين، وسراويل فاتحة من أحدث طراز، وصدارة عالية، و«فراكًا» بلون القرفة؛ كان ذلك الفتى الضخم ابنًا غيرَ شرعي للكونت بيزوخوف؛ وهو تلك الشخصيَّة المشهورة على عهد كاتيرين، الذي كان يقضي آخر أيامه في موسكو. كان الفتى قد أُنشِئ خارج البلاد وعاد منذ حينٍ إلى روسيا، فلم ينخرط في خدمة الجيش، وكانت تلك الليلةُ أولَ عهده بالظهور في المجتمعات الراقية، استقبلته ربةُ الدار بالتحية التي توجِّهها إلى أحطِّ زوارها شأنًا، ولم يمنع ذلك الاستقبالُ الفاتر من أن تشفعه آنَّا بافلوفنا بإظهار ذلك التبرم الذي يبدو على وجه المرء أحيانًا، عندما يصادف أمرًا مزعجًا يتنافى مع كل ما يحيط به. كان الفتى يجمع بين السذاجة والفِطنة، والذكاء والارتباك، فكانت هذه الميزة التي ينفرد بها سببَ ذلك النفور الذي قُوبِل به، أضِفْ إلى ذلك شكلَه العام الذي أحدث أثرًا كبيرًا في نفوس الرجال الحاضرين.

قالت آنَّا بافلوفنا — وهي تتبادل نظرةً قلِقة مع «الماتانت» بعد أنْ قدَّمت إليها الزائر الجديد: إنه لَجميلٌ منكَ يا سيد بيير أنْ تحضُر لزيارة مريضة مسكينة.

غمغم بيير ببضع كلمات غير مفهومة، بينما كانت نظراته تدحج وجوه المجتمعين بقحة. حيَّا الأميرةَ الصغيرة بابتسامة مرحة، كما يحيِّي المرءُ أحدَ معارفه المقرَّبين، ثمَّ اقترب من العمة، ولم يكن قَلَقُ آنَّا بافلوفنا دون مبرر؛ إذ إنَّ السيد بيير ترك العجوز الطيبة قبل أنْ تنتهي من نثرها الموفَّق عن صحة صاحبة الجلالة الإمبراطورة.

فاستوقفته آنَّا بافلوفنا مذعورةً وقالت له: هل تعرف الأب موريو؟ إنه شخصيَّة هامَّة.

– نعم، لقد سمعت شيئًا عن تصميمه حول السِّلْم الدائم، إن المشروع مثيرٌ للفضول لكنه لا يبدو عمليًّا.

قالت آنَّا بافلوفنا؛ رغبةً منها في التلفُّظ بأي شيء: هل تظن ذلك؟

وأرادت العودة إلى واجباتها كربَّة منزل، لكن بيير ارتكب خطأً جديدًا مناقضًا لخطئه الأول تمامًا؛ ففي المرة الأولى غادر محدِّثتَه دون أنْ ينتظر نهايةَ حديثها، وها هو الآن يستوقف محدِّثةً ثانية رغم إرادتها! وقف أمام آنَّا بافلوفنا، مُطرِق الرأس مباعدًا بين

ساقيه الضخمتين، يَعرض عليها الأسباب التي من أجلها يبدو تصميم الأب موريو خياليًّا تمامًا.

قالت آنَّا بافلوفنا باسمة: سوف نتحدث عن ذلك فيما بعد.

وبعد أنْ تركت الفتى الذي لا يعرف كيف يتصرف، عادت إلى واجباتها كمضيفة، وكلها عيون وآذان، مستعدة للتدخل أينما وجدتْ أن الحديث قد خَمدت حِدَّته أو خَبَتْ نارُه، مثلها كمثل معلم النسيج، الذي يروح ويجيء بعد ترتيب عمَّاله، مشرِفًا على أنواله وآلاته، حتى إذا توقَّف دُرَّار أو ندَّ عن آخر صوت غير طبيعي، أو علا صرير أو بدا خلل، هرع إلى مكان العطب والخلل يُصلِحه، فيُوقِف هذا، ويُسيِّر ذاك. كذلك كانت آنَّا بافلوفنا تتجول في بهو منزلها، مقتربةً من الحلقات الصامتة، تزكِّي الحديث بين أفرادها أو الجماعات الصاخبة، تهدِّئ من حدتها وثورتها؛ فتُلقِي كلمة هنا وتنقل شخصًا إلى هناك، معطيةً آلة الكلام الظروف الدقيقة المواتية التي تتطلبها المناسبات لاستمرارها على العمل، غير أنَّ تلك العناية الفائقة وذلك النشاط المختلف من جانبها، لم يفلحا في تبديد الكآبة التي أحدثها وجود بيير. تابعتْه بنظرة قلق، فرأتْه يتجه نحو الحلقة التي انتظمت حول مورتمارت، ثمَّ ينتقل منها حيث كان موريو يسهب في الحديث. كانت حفلة آنَّا بافلوفنا أول حفلة يحضرها السيد بيير، الذي تلقَّى علومه خارج روسيا، وكان يعرف أنَّ كل «أضواء» بيترسبورج على موعدٍ للتلاقي فيها، فكان أشبه بالغلام في دكان بائع الألعاب، يحدِّق فيما حوله بإعجاب وافتتان، كان يخشى دائمًا أنْ تفوته بعض البحوث الرصينة المتعقِّلة التي يمكنه أنْ يفيد منها، فلمَّا رأى شخصياتٍ مرموقةً، شديدة الاعتداد، مجتمعة في ذلك المكان، توقَّع أنْ يصغي إلى روائع فكرية وعلميَّة، وبدت له المناقشة المستعِرَة بين الأب موريو والمحيطين به مهمةً، فانضمَّ إلى المجتمِعين، متحيِّنًا الفرصةَ التي يَتُوق إليها كلُّ شاب للإدلاء بوجهة نظره.

الفصل الثالث

مقتل الدوق دانجيان[1]

سارت الأمور في حفلة آنَّا بافلوفنا على أحسن حال؛ كانت الدرارات تسير في كل أرجاء المصنع، دون توقُّف ولا تصادم، في منتهى النظام والترتيب، باستثناء «ماتانت» التي لم يبقَ لها مَن تتحدَّث معه، إلَّا سيدة متقدمة في السن، ذات وجه ناحل جرحته الدموع، كانت تبدو مضطربةً غير مستريحة إلى الوسط اللامع التي كانت فيه. انقسم المدعوُّون إلى ثلاث جماعات: الأولى وجُل أفرادها من الرجال، يتزعَّمها الأب موريو؛ والثانية وقد ضمت معظم الشباب، سطعت فيها الأميرة الجميلة هيلين، وقد جلست على عرش الجمال إلى جانب الأميرة الفاتنة بولكونسكي، فبدت متوردةَ المحيَّا، شديدةَ اللطف، أشدَّ نعومةً مما يسمح به سنُّها؛ وكان محور الالتفاف في الجماعة الثالثة مورتمارت وآنَّا بافلوفنا.

ومما لا شك فيه أنَّ الفيكونت الشاب، ذا المظهر الأنيق، والقسمات الدقيقة، والأساليب اللطيفة، كان يعتقد أنه شخصيَّة شهيرة لامعة؛ لذلك فإنه لم يترفَّع عن إرضاء فضول جماعة النبلاء الملتفِّين حوله، أدب وحُسن تصرُّف. وكذلك لم يفُتْ آنَّا بافلوفنا بدورها أن تقدِّمه إلى مدعوِّيها بما يليق به من اعتبار، وكما أنَّ الطاهي البارع، يقدِّم لزبائنه طبقًا يعتبره خارق اللذة، لو قُدِّم في مطعم قذر لَمَا أثار غير الاشمئزاز والتقزُّز، كذلك قدَّمت آنَّا بافلوفنا لمدعوِّيها الفيكونت الشابَّ أوَّلًا، ثمَّ الأب موريو، كما تقدِّم ألوانًا مفضَّلةً من الأطعمة انتُقِيت بعنايةٍ وتدقيقٍ خارقَين.

[1] الدوق دانجيان وُلِدَ في شانتيلي وهو ابن لويس هنري جوزيف، أمير كوندي. وُلِدَ عام ١٧٧٢، وقد اختُطِف من الأراضي الألمانيَّة تنفيذًا لأمر بونابرت، وأُعدِم رميًا بالرصاص في فانسين عام ١٨٠٤. (المترجم)

دار الحديث أوَّلًا في دائرة مورتمارت عن مقتل الدوق دانجيان.

فأكَّد الفيكونت أنَّ الدوق قضى ضحيةَ طِيبة قلبِه ونُبله، وأنَّ في مقتله موجبات خاصَّة، تتعلق بغلِّ بونابرت.

– آه! حدِّثْنا بذلك يا فيكونت.

كانت آنَّا بافلوفنا هي التي هتفت بتلك الجملة، وقد أطربها أن لاحظت أنَّ في جملتها تلك: «حدثنا بذلك يا فيكونت» على بساطتها، وقْعًا يحمل بين طياته صدَى أسلوب التحدث على طريقة لويس الخامس عشر.

انحنى الفيكونت دلالة الاحترام للمتكلمة، وقد انطبعت على ثَغْره ابتسامةٌ مهذبة، فبادرت آنَّا بافلوفنا على الفور إلى تشكيل حلقة حول الفيكونت الشاب، ودعت الموجودين إلى إعارة حديثه آذانًا صاغية.

قالت لأحدهم: لقد كان الفيكونت معروفًا بصورة خاصَّة من قِبل سمو الدوق.

وإلى آخَر: إنَّ الفيكونت محدِّث لبق بارع.

وإلى ثالث تحضُّه بقولها: ما أسرع ما يعرف المرءُ الرجلَ الممتع الصحبة!

وهكذا قدَّمت الفيكونت سلوانًا لمجتمعها الراقي، على ألْيق مظهر وأفضله، كما يُقدَّم طبقٌ من اللحم المشوي الحار، وقد ذُرَّ عليه البهار وأنواع المشهِّيات.

وابتسم الفيكونت ابتسامته العذبة الرقيقة، واستعدَّ للشروع في حديثه.

هتفت آنَّا بافلوفنا بالأميرة الجميلة التي كانت على مقربة منها، وسط فريق من المعجبين: تعالي هنا يا عزيزتي هيلين.

نهضت الأميرة هيلين، وعلى ثَغْرها تلك الابتسامة المشِعَّة، ابتسامة المرأة الجميلة المكتملة الأنوثة، التي كانت تشرق على وجهها منذ أنْ دخلت إلى البهو. مرت وسط الرجال الذين راحوا يفسحون لها الطريق وهي تجرُّ وراءها ثوبها الأنيق الموشَّى بالزهور، فيُحدِث حفيفًا خافقًا، واختالت مزهوَّة بكتفَيْها البضَّتَيْن الجميلتَيْن، وشعرها المتموِّج، وجواهرها المتلألئة، شامخة الرأس، لا أحدًا بنظرتها، بينما كانت ابتسامتها تغمر الموجودين، وبدت كأنها تراعي أنْ يتأمل كلٌّ منهم قامتها الفارعة، وكتفيها المنسجمتين، وعنقها وظهرها العاريين، البارزين بسخاء خلال فتحة الثوب، وفق مبتكرات ذلك العصر. اقتربتْ من آنَّا بافلوفنا وكأنها تجر في أعقابها كل روعة الحفل وبهائه. كانت هيلين على قسط كبير من الجمال، بعيدة عن أسباب التجمل والتبرج، تبدو مشفقة من سلطان جمالها المفرط الخارق، وكأنها تبحث عبثًا عن وسيلة تخفِّف من بَغْيه وطغيانه.

كان كلُّ مَن يلقاها لا يتمالك نفسه عن القول: يا للبهاء والجمال!

فلمَّا جلست أمام مورتمارت، وطَلَعَتْ عليه بابتسامتها الخالدة، أجفل الفيكونت وكأن الدهشة قد عقلت لسانه، وأطرق مبتسمًا.

قال وهو ينحني: سيدتي، إنني مشفق على وسائلي في حضرة الجمال الطاغي d'Enghien.

أغفلت الأميرة الرَّدَّ على إطرائه، وأسندت ذراعها المتناسقة على نضد صغير، وانتظرت باسمة. لبثتْ طيلةَ المدة التي استغرقتها وقائعُ القصة منتصبةَ الجسد، ترتب ثنيات ثوبها، أو تتأمل تارةً ذراعَها المستديرة البديعة، التي كان ثقلها على النضد يخفق في تشويه شكلها الخميل الشهي، وطورًا عنقَها الأثيل الفتَّان، الذي كانت تعانقه قلاداتها الماسية. وفي المواقع المثيرة من القصَّة، كانت عيناها تشخصان إلى وجه آنَّا بافلوفنا مستفسرتين، فتنقل هذه انطباعاتها بإخلاص، لكن تقاطيعها سرعان ما تنبسط بابتسامة ملائكيَّة.

تركت الأميرة الصغيرة مائدة الشاي على أعقاب هيلين، وهي تهتف بها: انتظريني ريثما آخذ أشغالي.

ثمَّ توجهت إلى الأمير هيبوليت قائلة: ففيمَ تفكر؟ جئني بحقيبتي اليدوية!

أحدث تأهُّب الأميرة للانتقال من مكانها، وما أشفعته بحديث وأعقبته بضحكات وزَّعتها على من حولها؛ لَغَطًا في حلقة مورتمارت، فلمَّا جلست بين أفراد الجماعة الجديدة، وأصلحت من زينتها، قالت وهي تستعيد أشغالها: هكذا، لقد أخذت مكاني، يمكنك أنْ تبدأ قصتك.

وتبعها الأمير هيبوليت — حامل الحقيبة — في حلِّها الجديد، وجاء يجلس على مقعد دفع به إلى مقربة منها.

كان بين «هيبوليت الجذَّاب» وأخته هيلين الفاتنة شَبَه بيِّن واضح، لم يمنع أنْ يكون الأخ شديد البشاعة، رغم وحدة التقاطيع؛ لقد كانت قسمات هيلين مضاءة أبدًا بتلك الابتسامة الرصينة الفتية الخالدة، التي تشع حبورًا، وتُعرِب عن استمتاع ببهجة الحياة، على عكس أخيها الذي كانت قسماته مكفهرة مظلمة، وقد انسدل عليها حجاب من الغباء، فأصبحت تنُمُّ عن زهو متجهم ثابت. وكان تكوين هيلين الكامل الذي أبدع الفنان في صوغه وتركيبه، يتناقض مع جسد هيبوليت الأعجف النحيل، فكان وجهه أبدًا متقلصًا، تحيط بأنفه وفمه وعينه خطوطٌ تدل على شراسة طبعه، أمَّا ذراعاه وساقاه فكانت تتخذ أبدًا وضعيات مقتبسة منفرة.

لم يكن يجلس في مقعده، حتى بادر يثبت عوينته، وهي الحركة الملازمة التي بدونها ما كان يستطيع البدء في الحديث.

قال مستفسرًا: أهي قصة أشباح؟

فأجاب المحاضر وهو يهز كتفيه بِحَيْرة: كلا يا عزيزي.

قال الأمير معلِّلًا سؤاله: ذلك أنني أَمْقُتُ قصص الأشباح.

كانت لهجة الأمير تدل على أنه لا يتحرى الدقَّة في عباراته، وأنه يفهم مرامي أقواله بعد أنْ يصرفها، وكان يتحدث بتأكيد حاسم، حتى إن المستمع لَيَحارُ في أخذ عباراته على محمل الرشد أو الدعابة. كان يلبس جوارب حريريَّة، وينتعل خفين، ويرتدي «فراكًا» أخضر قاتمًا، وتحته سراويل اصطُلح على تسميتها: فخذ جنية مروعة.

استطاع الفيكونت أخيرًا أنْ يروي الحكاية بحماس يتناسب مع خطورتها، ولم تكن الأحدوثة جديدة أو غريبة. كانت خلاصتها أنَّ الدوق دانجيان الذي جاء سرًّا إلى باريس لزيارة المدموازيل جورج، وجد عندها بونابرت الذي كان حائزًا على عطف الممثلة الشهيرة، والتفاتتها كذلك، فانتاب بونابرت إغماء جعله تحت رحمة خصمه، الذي عزف عن الإفادة من الفرصة وانتهازها، وقد سبَّب نُبلُه ذاك مقتلَه بعدئذٍ؛ لأنه بإغضائه عن قتل بونابرت في نوبة من النوبات التي كان فريسةً لها، ترك لبونابرت إمكانيةَ رسمِ الخُطَّة للانتقام من الدوق بقتله.

كانت الأحدوثة على شيء من الإثارة، خصوصًا في الجزء الذي يصف لقاءَ الخصمين الفجائي، وقد أحدثت هذه الناحية تأثيرًا في السيدات، فهتفت آنَّا بافلوفنا وهي تستفسر الأميرةَ الشابَّة بنظرة من عينيها: بديع، أليس كذلك؟

فغرزت هذه إبرتها في أشغالها؛ دلالةً على أنَّ تلك القصة الممتعة لا تسمح لها بالاستمرار في عملها، وقالت مؤيدة: رائع!

شكر الفيكونت الأميرة بابتسامة على إطرائها الصامت، الذي أحسن تقديره، وهمَّ بمعاودة الحديث عندما لاحظت آنَّا بافلوفنا أنَّ الشاب، الذي كانت تخشى سوءَ تصرُّفه وصدور حماقة عنه، مشتبكٌ في نقاش صاخب حامي الوطيس مع الأب موريو، فهرعت من فورها نحو الجبهة المهددة.

والحقيقة أنَّ السيد بيير كان في تلك الأثناء، يتباحث مع موريو حول التوازن الأوروبي، فراح هذا يعرض على الفتى مشروعَه العتيد عن السِّلْم الدائم، وقد أخذ بحماس الشاب الساذج وحميته المتوقدة. وشدَّ ما راع آنَّا بافلوفنا أن وجدت أن كان في ذلك النقاش راضيًا، يصرف فيه حماسًا وتقبلًا.

كان موريو يقول: إنَّ العلاج الوحيد هو التوازن الأوروبي وحقوق الأفراد، فإذا قامت دولة كبرى قويَّة كروسيا المتهمة ببربريتها، وتزعَّمت حِلفًا غرضه إيجاد التوازن في أوروبا، فإن تلك الدولة تستطيع إنقاذ العالم؛ إذ كانت لا تغذي نوايا مضمرة.

– وكيف تجد ذلك التوازن؟

همَّ بيير بمتابعة حديثه، لكنَّ نظرةً قاسية من آنَّا بافلوفنا التي تدخَّلت في تلك اللحظة، أرغمَتْه على الكفِّ عن الاسترسال.

قالت تسأل الأب موريو: كيف تجد الجو هنا؟ هل تحتمله؟

فانطبع وجه الإيطالي المتحول، بطابع اللطف والإيناس الذي ينفرد به في حضرة السيدات، وأجاب: إنَّ جمالَ المجتمع الذي أسعدني الحظ أنْ أُستَقبل فيه، ورِفعتَه وميزاته ورقيه، شدهتني وأذهلتني، حتى إنني لا أجد بعدُ متسعًا للتفكير في المناخ.

وحاذرت آنَّا بافلوفنا أنْ تترك موريو وبيير معًا، ولم تجد بُدًّا من اجتذابهما إلى حلقتها؛ ليتسنى لها وضعهما تحت رقابتها الصارمة.

الفصل الرابع

الأميرة دروبتسكوي

في تلك اللحظة دخل إلى البهو زائرٌ جديد، هو الأمير الشاب آندريه بولكونسكي، زوج الأميرة الشابة، وهو فتًى جميل الطلعة، متوسط القامة، ذو قَسَمَات واضحة جامدة. كان كل ما فيه، اعتبارًا من نظرته المنهكة المظلمة وحتى تثاقل مشيته واتزانها، يوحي بنقيضٍ عنيف لحيوية زوجته اللطيفة، ولا شك أنَّ زبائن آنَّا بافلوفنا وعباراتهم كانوا معروفين منه، حتى إنه كان يشعر بضجر وسأم قاتلَين من الكلام معهم أو الاستماع إلى أقوالهم. كان واضحًا أنه ما كان يميل إلى أحد من أولئك الأشخاص المملين أو يهتم به، بما في ذلك زوجته، التي ما إنْ وقع نظره عليها حتى عجا وجهه واستدار على الفور، وبعد أنْ قبَّل يد آنَّا بافلوفنا، راح يتفحَّص وجوه المدعوين بعينين نصْفَ مغمضتين.

سألته آنَّا بافلوفنا: هل تنضم إلى صفوف المقاتلين يا أميري؟

فأجاب بولكونسكي بالفرنسيَّة وهو يحاول تقليد أبناء السين: إنَّ الجنرال كوتوزوف انتقاني مرافقًا له.

– وليز زوجتك؟

– ستعتزل في الريف.

– أَلَا تخجل لحرماننا من زوجتك الفاتنة؟

هتفت الأميرة تنادي زوجها، بتلك اللهجة اللعوب التي تخاطب بها الغرباء: آندريه، لو علمتَ بالقصة الرائعة التي رواها الفيكونت لنا منذ حينٍ عن بونابرت والمدموازيل جورج! ليتك سمعتها.

قطَّب الأمير حاجبيه وأشاح عنها، وفي تلك اللحظة اقترب منه بيير، الذي كان يتابعه منذ دخوله بنظرة وديَّة مغتبطة، وأمسك بذراعه، فلم يستدرْ بولكونسكي، ولكن وجهه

اتخذ طابع الاشمئزاز حيال ذلك المتطفل، غير أنه ما كاد يشاهد وجه بيير المبتهج، حتى ابتسم بدوره ابتسامةً مرحِّبة، لم يكن ينتظرها أحد.

قال له: كيف؟! هل بدأت تَندمِجُ في الأوساط الرَّاقية أنت أيضًا؟!

فأجابه بيير: كنت أنتظر أنْ أراك. هل أستطيع دعوة نفسي إلى تناول طعام العشاء عندك؟

فاه بهذه الجملة الأخيرة بصوت منخفض بُغيةَ عدم التشويش على الفيكونت يجتر قصته العتيدة.

فأجابه الأمير آندريه ضاحكًا: كلا، مستحيل!

بينما كانت يده التي ظلَّت تضغط على يد بيير تُشعِره بأن الدعوة للعشاء طبيعيَّة لا تتطلب توكيدًا.

همَّ أنْ يضيف بضع كلمات جديدة، غير أنَّ الأمير بازيل وابنته نهضا في تلك اللحظة، فاضطرَّ الشابان إلى إخلاء الطريق لهما.

قال الأمير بازيل يخاطب مورتمارت، وهو يمسك بذراعه بحركة وديَّة ليمنعه من النهوض لتشييعه: اعذرني يا حبيبي الفيكونت؛ إنَّ حفلة السفارة الإنجليزيَّة المزعجة أفسدت عليَّ سروري، وأرغمتني على مقاطعتك.

ثمَّ التفت إلى آنَّا بافلوفنا وأردف: إنني شديد الأسف إذ أضطر إلى مغادرة حفلك البهيج.

شقَّت هيلين طريقها بين صفَّي المقاعد، وهي على أحسن حال من الإشراق والبهجة، فلمَّا وصلت إلى حيث كان بيير واقفًا، راح هذا يتأمل جمالها بعينين ارتسم فيهما إعجابٌ قريب من الهلع.

قال بولكونسكي: إنها رائعة الجمال.

فغمغم بيير مؤيدًا: نعم إنها جميلة جدًّا.

قبض الأمير بازيل على ذراع بيير واستدار إلى آنَّا بافلوفنا وقال: أرجو أنْ تروِّضي لي هذا الدب، إنه يقطن عندي منذ شهر، مع ذلك فإنني أراه للمرة الأولى في المجتمع. إنَّ صحبة النساء الذكيات لا يضاهيها مثيلٌ في تهذيب نفوس الشباب وصقلها.

وعدت آنَّا بافلوفنا باسمه بأن تهتم ببيير، الذي كانت تعرف صلةَ القربى التي تربط أباه بالأمير بازيل.

هرعت السيدة المسنَّة التي كانت في صحبة «الماتانت» لتلحق الأمير بازيل، عند الرَّدْهة اختفى من وجهها الهضيم الذي قعرته الدموع، كالوقار الذي يتطلبه ذلك الوسط، وحلَّ محله القلق والذعر.

قالت وهي تجري وراء الأمير: أليس لديك ما تقوله لي بشأن بوريس يا أميري؟ إنني لا أستطيع البقاء في بيترسبورج أكثر مما مكثت. لو خبر سار تحملينه إلى ولدي المسكين؟

وعلى الرغم من أنَّ الأمير كان يصغي إليها ببرود خالٍ من التهذيب، يتضح عن نفاد صبر وتذمر، فإن السيدة المسنَّة كانت تبسم له بلطف عميق مسكِّن؛ لتحمله على الإصغاء إلى قولها حتى مضت في إلحاحها إلى الإمساك بذراعه.

أردفت ضارعة: لن يكلِّفك التحدث عن ابني إلى الإمبراطور كثيرًا، إن حكمة واحدة منك، يَدخل ابني بعدها في عداد الحرس.

أجابها الأمير بازيل: سأعمل ما في وسعي يا أميرة، صدقيني، غير أنه من العسير بالنسبة لي أنْ أتحدث إلى الإمبراطور، إنني أوصيك أنْ تعمدي إلى رومیانتسیف Roumiantsev، عن طريق الأمير جوليتسين Golitsyne. إنَّ ذلك سيكون أدعى إلى النجاح.

كانت تلك السيدة المسنَّة — وهي إحدى أميرات دروبتسكوي Droubetskoi — تحمل واحدًا من أكبر الأسماء في روسيا، لكنَّ الفقر اضطرها إلى اعتزال المجتمعات، ففقدت باعتزالها علاقاتها السالفة، وقد جاءت إلى بيترسبورج على أمل الوصول إلى وعد جازم بنقل ابنها الوحيد إلى ملاك الحرس، وقد حضرت تلك الحفلة دون أنْ تُدعى إليها؛ بُغيةَ لقاء الأمير بازيل فيها، وكانت هذه الغاية وحدها هي التي حملتها على الإصغاء بصبرٍ نافد إلى قصة الفيكونت، وقد أخافها جوابُ الأميرة في بادئ الأمر؛ إذ أفصح وجهها الذي ظلَّ محتفظًا ببقايا جمالها الغابر، عن انفعال يشوبه الذعر، لكنها سرعان ما استعادت ابتسامتَها وازداد ضغطها على ذراع محدِّثها بعصبية مكتومة.

قالت: أصغِ إليَّ يا أميري، إنني لم أسألك قط معروفًا، ولن أسألك كذلك مِنَّة، إنني لم أذكِّرك قط بالصداقة التي كان أبي يكنُّها لك، غير أنني أستحلفك الله أنْ تتوسَّط الآن من أجل ابني.

ثم أردفت بكلمات متتابعة متلاحقة تقول: سأعتبرك المُحسِن المنَّان الذي غمرني بمعروفه. لا تغضبْ، عِدْني فقط. لقد قابلت جوليتسين فرفض.

واستطردت ضارعة مبتهلة وهي تحاول الابتسام رغم حجاب الدمع الذي كان يغمر مآقيها: كنْ ذلك الغلامَ الطيب الذي كُنْتَه من قبل.

هتفت الأميرة هيلين التي كانت تنتظر أمام الباب، وقد أدارت رأسها الجميل فوق كتفيها المتناسقين الرشيقين: أبتاه سوف ... سوف نتأخر عن الموعد.

كان النفوذ في «العالم» الراقي ذخيرةً طيبة يجدر الاحتفاظ بها، وإلَّا فإنها سرعان ما تتبخر فيفقر صاحبها؛ لذلك كان الأمير بازيل شديدَ الشحِّ على ذخيرته تلك، قلَّما يمدُّ يدَه إليها، وهو على تمام الثقة من أنه لو حاوَلَ صرفها في التوسُّط لمصلحة كلِّ مَن يلتمسون منه وساطةً ما، وجد نفسه صبيحة ذات يوم عاجزًا عن سؤال أي شيء لمصلحته الشخصيَّة. مع ذلك، فإن نداء الأميرة دروبتسكوي المُلِح، خلق في نفسه شيئًا من التبكيت والتعنيف الخفي، لقد نطقت الأميرة العجوز بالصواب: إنَّ أباها كان صاحبَ الفضل؛ إذ قاد خطوات بازيل الأولى في طريق الرفعة والسمو الذي بلغ إليهما. أضِفْ إلى ذلك أنه لاحَظَ من مظاهر تلك السيدة وتصرُّفاتها، أنها من تلك النسوة أو الأمهات اللاتي يُتَابعن السيرَ وراء غايتهن، ويعملنَ المستحيل في سبيل تحقيقها، حتى إذا تعثَّرنَ بقصبة أو تصدى لهنَّ كائن، أشبعنَه تقريعًا ولومًا في كل لحظة، وأوسعنَه تعنيفًا، فكان هذا الاستنتاج الواضح الصحيح سببًا في حسم الموضوع.

استطرد بلهجة مرِحة كان معروفًا بها، تخللتْها سحابةٌ من الإرهاق: عزيزتي آنَّا ميخائيلوفنا، يستحيل عليَّ تقريبًا إرضاء رغبتك، مع ذلك فإنني سأبذل المستحيلَ لأثبت لكِ ودِّي المخلِص، وتمجيدي لذكرى المرحوم والدك واحترامي له. أعدك بأن يُنقَل ابنك إلى الحرس، فهل يرضيك ذلك؟

– يا صديقي الطيب، إنك مُحسِن ذو الفضل العميم علينا! ما كنتُ أنتظر منك غير ذلك، كنت أعرف أنك طيب.

انحنى الأمير يحاول الانسحاب؛ فقالت الأميرة العجوز: ثمة كلمة أخرى، أرجوك.

وتردَّدت برهة ثمَّ أردفت: عندما ينتظم في سلك الحرس، أرجو أنْ تتفضَّل بالسؤال من ميخائيل إيلاريونوفوتيسن كوتوزوف — هو صديق لك — أنْ يُدخِله في عداد مساعديه، وعندئذٍ سأَقَرُّ عينًا ولن أسألك ...

ابتسم الأمير بازيل لهذا المشروع الجديد.

– لا أستطيع أنْ أقطع لكِ وعدًا. لو أنك تدركين مدى المضايقات التي يتعرَّض لها كوتوزوف منذ أنْ عُيِّن «جنرالًا أعلى» لَعذَرْتِني. لقد قال لي بنفسه إنَّ كل نسائنا الفاضلات في موسكو، تآمَرْنَ عليه ليُدخِل أبناءَهن في عداد مساعديه.

– كلا، كلا يا صديقي الطيب، يا صاحب الفضل عليَّ، لن أدعك قبل أنْ تمنحني وعدًا.

كرَّرت هيلين الجميلة نافدة الصبر: أبتاه، سوف نصل متأخرين.

فقال الأمير: إلى اللقاء، أترَينَ أنني على عجلة من أمري!

– اتفقنا إذن، ستتحدَّث إلى الإمبراطور.

– بلا شك، أمَّا كوتوزوف، فإنني لا أَعِدُ شيئًا بصدده.

فألحَّت الأميرة بابتسامةِ فتاةٍ لعوب فاتنة، ابتسامةٍ متنافية متنافرة مع تقاطيع وجهها التالف، بقدر ما كانت أليفة مع ذلك الوجه من قبل: بلى، بلى يا بازيل.

كان واضحًا أنها تناست تمامًا سنَّها المتقدمة، وأنها لجأت بحكم العادة إلى كل مواردها الأنثويَّة السابقة، لكنْ ما إن خرج الأمير، حتى استعاد وجهُها طابعَ البرود الذي كان موسومًا به من قبل، عادت تلتحق بالمدعوين الملتفِّين حول الفيكونت الذي كان لا يزال يتابع خطابته، وتصنَّعت الإصغاء إلى أقواله، مُتحيِّنةً لحظةَ الانصراف، وقد باتت تَتُوقُ لها، بعد أنْ أنجزت مهمتها.

الفصل الخامس

نقاش حول بونابرت

استقصت آنَّا بافلوفنا تقول: إذن، ما قولك في أضحوكة التنصيب الأخيرة في ميلان، ومهزلة شعبَيْ جينس ولوك الجديدة، اللذين جاءا يرفعان ولاءَهما إلى السيد بونابرت الجالس على عرش، معلنَيْن عن عواطف الأمم وتمنياتها؟! مدهش! أليس كذلك؟ بل إنه يكاد يثير الجنون! حتى ليُظن أنَّ العالَم أجمع قد فقد عقله.

طافت ابتسامة على وجه الأمير آندريه وحدَّق في وجه آنا بافلوفنا بنظرة ثابتة، قال وهو يردِّد كلمات بونابرت: نعم، «لقد أعطانيها الله والويل لَمَن يمسُّها» Dieu me la donne; gare à qui la touche. يقال إنه كان رائع الجمال وهو يردِّد هذه الكلمات.

وعاد يكرر هذه الجملة بالإيطاليَّة: Dio miLa do: na, guai a chi la tocca، واستطردت آنَّا بافلوفنا قائلة: آمل أنْ تكون هذه العمليَّة بمنزلة النقطة التي يطفح بها الوعاء، إنَّ الأمراء أصبحوا لا يطيقون احتمال هذا الرجل الذي يهدِّد كل شيء.

فقال الفيكونت بلهجة أنيسة ولكن هادئة: الأمراء؟ إنني لا أتحدث عن روسيا بالطبع. الأمراء يا سيدتي! ماذا فعل الأمراء للويس السادس عشر، للملكة، أو لمدام إليزابيث؟

ثمَّ استطرد بثورة وحماسٍ وانفعالٍ: لا شيء! صدِّقيني إنهم الآن يُلاقون عقابهم على خيانتهم لقضية آل بوربون الأمراء؟ إنهم يوفدون رسلًا يحملون تمنياتهم وتهانيَهم للمغتصب.

ندَّتْ عن صدره زفرةُ حقدٍ عميقة، واعتدل في مجلسه من جديد، التفت الأمير هيبوليت — وكان حتى تلك اللحظة محتميًا وراء عوينته ليتاح له تأمل الفيكونت على هواه — إلى الأميرة الصغيرة فجأة، وطلب إليها إبرةً راح يرسم بها على المائدة شعارَ أسرة كوندة، وراح يفسر لها رموزَها بجدٍّ واندفاع وكأنها سألته ذلك، بينما كانت الأميرة تصغي إليه والابتسامة مشرقة على وجهها.

أردف الفيكونت بحماس متزايد، شأن الرجل الذي لا يأبه الإصغاءَ إلى الآخرين ويتبع ما عدا ذلك سياقَ آرائه وحده في المسألة التي يلمُّ بها كلَّ الإلمام، ويتفهمها أكثر من أيٍّ سواه.

إذا لبث بونابرت على العرش عامًا آخر، فإن الأمور لن تتوقف عند هذا الحد. إنَّ الدسائس والقسوة والنفي والتنكيل، ستدمر المجتمع الفرنسي — وأقصد المجتمع الراقي — تدميرًا لا رجعة بعده وعندئذٍ …

وهزَّ كتفَيْه دلالةً على اليأس، وأنهى حديثه تلك النهايةَ الصامتة. وهمَّ بيير، الذي أثار ذلك الحديثُ اهتمامَه، أنْ يُدلِي بدلْوِه فيه، غير أنَّ آنَّا بافلوفنا التي كانت تراقبه بشدة لم تترك له مجالًا للحديث.

شرعت تقول بذلك الطابع الخطير، الذي كانت تُضفِيه على وجهها كلما تحدَّثت عن الأسرة الإمبراطوريَّة: لقد أعلن الإمبراطور ألكسندر أنه سيترك للفرنسيين حريةَ انتقاءِ نوع الحكم، إنني واثقة من أنه إن يُطِحْ بالمغتصب الجائر، وينقذ الأمَّة منه، فسيلقي الشعبُ بنفسه بين ذراعَيْ حاكمِه الشرعي.

فاهت آنَّا بافلوفنا بالجملة الأخيرة إرضاءً لشعور المهاجر النبيل.

قال الأمير آندره: لا أظهر ذلك، لقد سارت الأمور شوطًا بعيدًا، كما يؤيدني في قولي سيدي الفيكونت، حتى بات يتعذر إحياء الماضي وبعْثه من طيات النسيان.

فتدخَّل بيير قائلًا — وقد قفزت الدماء إلى وجنتيه: أريد أنْ أقول إنَّ الطبقة النبيلة كلها قد انضمت إلى بونابرت.

فأجاب الفيكونت دون أنْ يرفع أبصاره إلى بيير: إنَّ هذه آراء بونابرتية. من العسير على المراقب الآن استنباطُ عقليةِ البلاد الحقيقيَّة، وهي على حالة البلبال الحاضرة.

قال الأمير آندره، بابتسامة هازئة: لقد قال الأمير بونابرت: «لقد دَلَلْتُهم على طريق المجد فلم يسلكوه، فلما فتحتُ لهم رَدْهاتي، هرعوا إليها زَرَافاتٍ زَرَافات.» ولستُ أدري إلى أي مدًى حقَّ له أنْ يقول مثل هذا القول.

كان الأمير آندره لا يَشْعُر بميل إلى الفيكونت الشَّاب؛ لذلك فقد كان يهدف إلى إيلامه بإيراد أقوال بونابرت وتأييدها، ولو كان يتظاهر بعدم التحدث إليه.

أجاب الفيكونت معقِّبًا على أقوال الأمير: ليس له أيُّ حقٍّ في التلفُّظ بتلك الأقوال؛ منذ مقتل الدوق كفَّ المعجبون به — أتفهم — عن التطلع إليه بتلك النظرة التي يمجِّد الإنسانُ بها أحدَ أبطاله.

وأردف موجِّهًا حديثه إلى آنَّا بافلوفنا بصورة خاصَّة: حتى ولو أنه كان بطلًا في نظر بعضهم، فإنه منذ مقتل الدوق ازداد عدد الشهداء في السماء واحدًا كما نقص عدد الأبطال، فخسرت كذلك بطلًا.

قابلت آنَّا بافلوفنا وصحبها تلك الكلمات بابتسامة مؤيدة، استطاع بيير على أثرها أنْ يحشر نفسه في الحديث، دون أنْ تستطيع آنَّا بافلوفنا التصدي له لمنعه من إثارة المواضيع غير اللائقة التي كانت تخافها.

قال السيد بيير: إنَّ إعدام الدوق دانجيان كان ضرورة حكوميَّة، وفي رأيي أنَّ «نابليون» يتحمَّل وحده مسئوليةَ هذا العمل. قد أوردت دليلًا واضحًا على سمو نفسه وعظمتها.

غمغمت آنَّا بافلوفنا مروعة: رحماك يا رب، اللهم رحماك!

وقالت الأميرة الصغيرة وهي دائمة الابتسام، وقد ازدادت تعلقًا بأشغالها: كيف ترى يا سيد بيير أن القتل دلالةٌ على عظمة النفس ونُبْلها؟!

وانطلَقت الآهات وآيات الدهشة من مختلف الحناجر والأفواه.

بينما هتف الأمير هيبوليت وهو يضرب على فخذه متحدثًا بالإنجليزية: إنها نظرية قاضية!

أمَّا الفيكونت، فقد اكتفى بهز كتفَيْه مستعيضًا بتلك الحركة عن كل جوابٍ تنازَلَ بالرد به على أقوال بيير.

سرَّح بيير نظره بين السامعين خلال نظارتيه ومن فوقهما، فكانت نظرة متباهية منتصرة.

أردف يقول مغامرًا بكل شيء، مندفعًا بلامبالاة وراء فكرته: سأشرح الأمر، لقد فرَّ آل بوربون أمام الثورة وسلَّموا البلاد للفوضى، أمَّا نابليون، فإنه على العكس، استطاع أنْ يفهم الثورة وأنْ يسيطر عليها؛ فما كان يستطيع، والحالة هذه، أنْ يَضعَ حياةَ فردٍ واحد في الكفَّة المقابلة لكفَّةِ المصلحة العامة.

قالت آنَّا بافلوفنا محاوِلةً تسويةَ الأمر: لو أنك انتقلت يا سيد بيير إلى المائدة الثانية …

غير أنَّ بيير كان كالعاصفة التي نشطت من عقالها، لا يسمع ولا يصغي. استطرد معقِّبًا: نعم، إنَّ «نابليون» عظيم؛ لأنه استطاع السيطرةَ على الثورة. لقد خنق سيئات الثورة وأبقى جوهرَها الطيِّب؛ مساواةَ المواطنين، وحريةَ القول والصحافة. ولهذه الأسباب وحدها، استولى على السلطة العليا.

فقال الفيكونت مناقشًا: لا شكَّ أنه لو أعاد السلطة — بعد أنْ حصل عليها — إلى أيدي أصحابها الشرعيين بدلًا من أنْ ينتهز فرصةَ وصولها إلى يديه لارتكاب جريمة قتل؛ لأسميته رجلًا عظيمًا ولا شك.

– إنَّ ذلك مستحيل أصلًا، إنَّ الأمَّة لم تعهد إليه بمقاليدها إلَّا لينقذها من آل بوربون، ولأنها رأت فيه رجلًا عظيمًا يستحق ثقتها. لقد كانت الثورة خطوة جبَّارة.

كان بيير بإصراره على إبداء رأيه على هذا الشكل، يعبِّر عن رغبته العميقة في إبداء الرأي النزيه بعيدًا عن الموجبات والاعتبارات الأخرى، مدفوعًا بحَمِيَّة الشباب.

كرَّرتْ آنَّا بافلوفنا مُغْضَبة: الثورة خُطوة جبَّارة؟! قتل الملك والتجاوز على سلطته؟! هلا انتقلت إلى المائدة الأخرى بعد كل هذا!

ألمح الفيكونت، وهو يفضح ابتسامة وديعة: العقد الاجتماعي!

بينما انطلق بيير يدافع عن نفسه: إنني لم أخصَّ مقتل الملك بالقول. إنني أتحدث عن الأفكار …

فقاطعه الفيكونت بابتسامة هازئة وصوت ساخر: نعم، أفكار السلب والقتل وقتل الملوك …

– إنَّ هذه الحوادث — ولا أفكر أبدًا في إنكار وقوعها — لا تشكِّل كلَّ الثورة وأهدافها. إن روح تلك الثورة وجوهرها هي حقوقُ الإنسان، وإلغاءُ التقاليد البالية، والمساواةُ بين المواطنين. لقد أقام نابليون هذه المبادئَ بكل معانيها وقوتها.

فقال الفيكونت بمقْتٍ، وقد قرَّر أخيرًا أن يُشعِر ذلك الغِرَّ بكل السخف الذي في تلك الآراء والأفكار التي يتشدَّق بها: إنَّ الحرية والمساواة كلماتٌ طنَّانة ضخمة استُغِلت استغلالًا بشِعًا. مَن ذا الذي لا يحب الحرية والمساواة؟! لقد كانت منذ الأزل من تعاليم سيدنا المخلِّص، ولكن هل جعلتِ الثورةُ الرجالَ أكثر سعادة؟! على العكس، إننا نحن أولاء الذين أردنا الحريَّة، ونابليون هو الذي دمَّرها وحطَّمها.

كان الأمير آندره يسرِّح نظره باسمًا بين بيير والفيكونت، ومنهما إلى وجه ربة الدار، كانت هذه — رغم ممارستها تقاليد المجتمعات وإتقانها ضبط أعصابها — قد فقدت بادئ الأمر كلَّ سيطرتها على أعصابها، وكادت أن تعلن عن سخطها وتنكُّبها سبيل المضيفة اللبقة، لكنها عندما وجدت أن الفيكونت مورتمارت ظلَّ محتفظًا بهدوئه ولامبالاته، إزاء آراء الشاب الدنسة — تلك الآراء التي فات أوان كَبْتها وخنقها — استعادت شجاعتَها ولجأت إلى الهجوم.

قالت تنفيذًا لخطتها الجديدة: ولكن يا سيدي بيير العزيز، كيف تفسِّر لجوء رجلك العظيم إلى إعدام دوقٍ، بل — لنقُلْ — رجل عادي، مخلوقٍ إنساني بسيط، دون أن يُحاكَم الرجلُ التعِس، أو أن يكون مذنبًا؟

فأعقب الفيكونت قائلًا: وإنني بالمثل أتُوق إلى معرفة التفسير الذي سيقدِّمه السيد عن حادثة ١٨ برومير،[1] أليس في ذلك الحادث ما يشبه دور المشعوذ؟! إنها سرقة وشعوذة لا تشبه مطلقًا تصرُّف الرجال العظام.

أضافت الأميرة الصغيرة التي سَرَتْ رعشةٌ ظاهرة في كتفيها: والسجناء الذين قتَّلهم تقتيلًا في أفريقيا؟ إنه لَأمر مريع!

فأيَّد الأمير هيبوليت قائلًا: لقد أحسنتِ القول، إنه دنيء، إنها دناءة.

حار السيد بيير فيمَن يصغي إليه؛ لذلك فقد اكتفى بأنْ راح يتأمل مُعارِضيه مبتسمًا. أبدلَت ابتسامةُ بيير سحنتَه تبديلًا كاملًا؛ إذ تحوَّل وجهه، الذي كان يحتفظ أبدًا بتقاطيعه الخطيرة الكئيبة، إلى وجه طفل يفيض بالبراءة والطِّيبة، على عكس ما جرت العادة عليه عند ذوي القَسَمات الجدية الوقورة، الذين لا تختلف تقاطيع وجوههم عادةً إذا ما ابتسموا. كان بيير في ابتسامته تلك، أشبه بالطفل الذي يطلب الصَّفْح.

استنتج الفيكونت — الذي يرى بيير للمرة الأولى — أن ذلك الثوري المتعصِّب، تنحصر خطورته في كلماته فحسب، فران صمتٌ عام.

وعندئذٍ قال الأمير آندره مثيرًا الموضوعَ من جديد: كيف تريدون منه أن يجيب على كل السائلين معًا؟! إنني أعتقد — على العموم — أنه يجب أن تحوي أعمالُ رئيسِ دولةٍ ما، طابعَ الإنسان العادي وطابعَ رئيس الجيش إلى جانب صفات الإمبراطور.

هتف بيير مؤيدًا، وقد سرَّه ذلك الدعم الذي هبط عليه على غير انتظار: طبعًا، طبعًا.

استطرد الأمير آندره محاولًا التخفيف من عدم خرق بيير: ينبغي أنْ تعترف بأن نابليون — بوصفه إنسانًا — رجلٌ عظيم في موقعة جسر آركول ومستشفى يافا؛ حيث مدَّ يده إلى الموبوئين، ولكن … ولكن تصرُّفات أخرى صدرت عنه، يصعب — ولا شكَّ — تبريرُها.

---

[1] شهر برومير هو الشهر الثاني من التقويم الثوري في فرنسا، وهو يقابل من ٢٣ أو ٢٢ تشرين الأول، ولغاية ٢٠ أو ٢١ تشرين الثاني. (المترجم)

أشار الأمير آندره بعد ذلك إلى زوجته ونهض مستأذنًا، ولكن الأمير هيبوليت نهض فجأةً، وانتصب بقامته الفارعة، داعيًا بحركات من يده، أن يجلسوا جميعًا للإصغاء إلى ما يقول.

شرع يقول: آه! لقد قصَّ عليَّ بعضهم اليومَ حكاية موسكوفية رائعة، أرى ألَّا أحرمكم من الاستمتاع بها. أرجو أن تعذرني يا فيكونت؛ إذ يجب أن أقصَّ الحكايةَ باللغة الروسية، وإلا فقدتْ روح النكتة التي تزكِّيها.

وراح الأمير يتكلَّم الروسيةَ بلغة سقيمة، حتى لَيُخيَّل إلى مَن يستمع إليه أنه فرنسي لَمَّا يمضِ عامه الأول في روسيا بعدُ. مع ذلك، فقدْ أصغى إليه استجابةً إلى الرغبة التي أعرب عنها بكل شخصيته.

– توجد سيدة في موسكو، وهي شديدة الخجل، شاءت أن تستخدم خادمين ليقفا على الحاجز الخلفي من عربتها، وألَحَّتْ في أن يكونا طويلَي القامة؛ لأن تلك كانت رغبتها، والمسألة تتعلق بالذوق، وكانت لديها وصيفة طويلة القامة أيضًا، قالت ...

وهنا توقَّف الأمير هيبوليت، وراح يبحث عن الجُمَلِ التي ستساعده على التعبير وإتمام القصة. استطرد: قالت ... نعم قالت للوصيفة: «يابْنتي، البسي ثوب الخادم الأحمر الرسمي، وتعالَيْ معي وراء العربة، لنقوم بالزيارات.»

وانفجر الأمير هيبوليت ضاحكًا قبل أنْ يشعر المستمعون برغبة في الضحك؛ فكانت ضحكته المسبقة ذات أثر سيئ، على عكس ما كان يَنتظر. بينما تنازل بعض الأشخاص، ومن بينهم آنَّا بافلوفنا والسيدة العجوز، بإبداء شبح ابتسامة.

استطرد: فمضت، وهبَّت ريحٌ عاتية، فأطارت قبعة الوصيفة، فتهدَّل شعرها الطويل على كتفَيْها.

وانتابته موجة ضحك عنيف، استطاع خلالها أن يتمتم: «فعرف كل الناس أن ...» دون أن يستطيع إتمامَ أقصوصته.

وهكذا انتهت الحكاية الرائعة. وعلى الرغم من أن أحدًا لم يفهم لِمَ روى تلك «النكتة»، ولا سبب إصراره على روايتها باللغة الروسية، فإن آنَّا بافلوفنا والآخرين قدَّروا للأمير هيبوليت حُسن تصرُّفه، لتبديد الوجوم والامتعاض اللذين أحدثهما حديث السيد بيير الشائك. وتبعثر النقاش والحديث بعد ذلك، واقتصر على شئون الحفلات الراقصة التي أُقيمت والتي ستقام، والمراقص والمناسبات التي يمكن للمجتمعين أن يلتقوا خلالها في الأيام المقبلة.

الفصل السادس

الصديقان

بدأ المدعوون يغادرون الدار بعد أن قدَّموا — كلٌّ بدوره — احترامهم وتهانيَهم لآنَّا بافلوفنا على حفلتها الممتعة، غير أنَّ بيير أخفق في مجاراة الآخرين في هذا التصرف. كان بجسده الضخم، وقامته الطويلة، وتكوينه المتين، ويديه الحمراوين؛ لا يعرف كيف يدخل أحدٌ «الصالوناتِ» بقدر ما كان يجهل كيف ينسحب منه؛ أيْ إنه ما كان يعرف توجيهَ بعض العبارات اللطيفة قبل مغادرته الحفلَ البهيج الذي كان فيه، وكان إلى جانب ذلك ساهمًا بعض الشيء، حتى إنه لَمَّا نهض يغادر البهو، تناول بدلًا من قبعته قبعةً مثَلَّثة لأحد الجنرالات، راح يعبث بزينتها حتى رجاه صاحبها أن يعيدها إليه، لكن سذاجته وتواضُعه وطِيبة نفسه كانت ضمانًا كافيًا لتغطية جهله وشروده وشذوذه في الأوساط الراقية، وهكذا منحته آنَّا بافلوفنا الغفران عن أخطائه وقذفته بإشارةٍ من رأسها.

قالت تودِّعه: آمل أنْ أراك قريبًا، لكنني آمل كذلك أن تكون قد أبدلتَ آراءك يا سيد بيير بانتظار اللقاء التالي.

فاكتفى بالانحناء ومعاودة الابتسام جوابًا على قولها، وكأنه كان يقول: «إنَّ آرائي هي بانتظار، ولكن انظري أي شاب شجاع أكون.» وبدا على الموجودين، اعتبارًا من آنَّا بافلوفنا نفسها، أنهم فسَّروا ابتسامته على هذا النحو.

وفي الرَّدْهة، راح الأمير آندره — وهو مستدير الظهر للخادم ليضع له معطفه على كتفَيْه — يُلقِي أذنًا صاغية لثرثرة زوجته مع الأمير هيبوليت، الذي كان ينظر إليها بقِحَةٍ خلال نظَّارته، ويتفرَّس في تقاطيعها.

قالت الأميرة الصغيرة موجِّهةً حديثها إلى آنَّا بافلوفنا: عودي إلى البهو يا آنيت، ستصابين بالبرد.

ثم أضافت بصوت منخفض وهي تودِّعها: لقد اتفقنا.

كانت آنَّا بافلوفنا قد وُفِّقت خلال السهرة — في الإسرار إلى ليز — بأنها تُفكِّر في منح أخت زوجها خطيبًا يضاهيها في المركز، ممثلًا في شخص الأمير آناتول، فأعقبت آنَّا على قول الأميرة بلهجة مماثلة: إنني أعتمد عليك يا عزيزتي، اكتبي له وأخبريني كيف ينظر الأب إلى هذا الموضوع. إلى اللقاء.

وعادت إلى الغرف الداخلية.

انحنى الأمير هيبوليت ليهمس إلى الأميرة بكلمات في أذنها، وكان هناك خادمان ينتظمان؛ أحدهما خادم الأميرة وبين يديه «شال»، والآخر تابع للأمير يحمل «رودنجوتًا»، وكانا يرقبانهما، وهما يتحدثان بالفرنسية، ويتظاهران بفهم تلك الكلمات رغم جهلهما التَّامِّ باللغة الفرنسية، وكان من عادة الأميرة أن تتكلم وهي تبتسم، وتصغي وهي فاغرةُ الفم، تتصنع الدهشة.

كان الأمير هيبوليت يقول: إنني سعيدٌ لعدم ذهابي إلى حفلة المفوضية، إنَّ المرء يتضجر هناك، إنَّ سهرتنا هنا كانت ممتعةً للغاية، أليس كذلك؟

فأجابت الأميرة وهي تطوِّف ابتسامة على شفتيها: يقولون إنَّ الحفلة الراقصة ستكون فيها أجملُ نساء المجتمع.

فقال الأمير هيبوليت معقِّبًا وهو يضحك: لن يحضرنها كلهن؛ لأنك لن تكوني موجودة.

وانتزع الدثار من يد خادمها بشيءٍ من العنف، وراح يساعد الأميرة على وضعه، فلما انتهى من مهمته، أبقى يديه برهةً وكأنه يطوِّق الأميرةَ بهما، ولم يكن من السهل التنبؤ بحقيقة الدوافع لتلك الحركة؛ أكانت مُبيَّتة أم من باب الخطأ، لكن الأميرة أفلتت من يديه برشاقة ورِقَّة وهي تبتسم، والتفتت إلى زوجها. كان الأمير آندره يبدو تعبًا نعسًا وعيناه نصف مغمضتين.

سأل زوجته وهو يشملها بنظرة: أأنتِ متأهبة؟

ارتدى الأمير هيبوليت «رودنجوتَهُ» بعجلة — وكان من أحدث طراز ينسدل حتى كعبيه — وهرع يتبع الأميرة وهو متضايق من طول المعطف وانسداله، فلحق بها أمام الباب الخارجي، يساعدها خادمها على الصعود إلى عربتها.

هتف بصوتٍ أجشَّ كالح لتصرُّفه في ذلك المساء: إلى اللقاء أيتها الأميرة.

انزوت الأميرة في ركن العربة المظلم وهي تسوِّي ثوبها، بينما راح الأمير آندره يحسِّن وضع سيفه ليجلس إلى جانبها. كان الأمير هيبوليت يزعجه ببشاشته وتصرُّفه.

قال له الأمير آندره بلهجة جافَّة ليفسح له الطريق: اسمح لي يا سيدي.

وأردف الأمير بولكونسكي بلهجة وديعة لطيفة مغايرة للهجته الأولى: إنني أنتظرك يا بيير.

وضرب الحوذي الخيول بسوطه، فقفزت تجرُّ العربة بضَجَّة وصَخَب، بينما لبث الأمير هيبوليت أمام الباب، يضحك تلك الضحكة المتقطعة، بانتظار الفيكونت الذي كان قد وعده بإعادته إلى مسكنه.

ولما جلس الفيكونت إلى جانب الأمير هيبوليت قال: إذن يا عزيزي، إن أميرتك الصغيرة رائعة رائعة! رائعة جدًّا!

ثم قبَّل أطراف أصابعه وأردف: وفرنسية تمامًا.

فانفجر هيبوليت ضاحكًا، بينما تابع الفيكونت قائلًا: إنكَ — لو علمتَ — مرعب بطابعك البريء الذي تتصنَّعه. إنني أشفق على زوجها، ذلك الضابط الصغير، الذي يتظاهر وكأنه ولي عهد!

فقال الأمير هيبوليت وهو يغرق في الضحك من جديد: لقد كنتَ تزعم أنَّ النساء الروسيات لا يساوين النساءَ الفرنسيات، وفاتك أنَّ الأمر مَنوطٌ بحُسْن التصرف والتعقُّل في معاشرتهن.

دخل بيير — شأن الخبير بمسالك البيت المطَّلع على عادات أهله — مكتبَ الأمير آندره قبل أن يدخله ذاك، وارتمى على أريكة بحكم عادته، ومدَّ يده إلى أول كتاب وقعت عليه، وكان «تأويل» قيصر، وراح يتصفَّحه كيفما اتفق، معتمدًا بمرفقيه على الأريكة، وعندئذٍ دخل آندره.

ابتدره هذا وهو يفرك راحتيه البيضاوَين الصغيرتين: لقد أثَّرت الآنسة شيرر في هذه الليلة، حتى إنها ستقع فريسةً للمرض ولا شك.

فاستدار بيير بكل جسمه ليبتسم للأمير بوجهه المنبسط المنتعش، فندَّ عن الأريكة صرير تحت ثقل وزنه الجبار. قال وهو يلوِّح بيده بلامبالاة: أتدري بأن مشروع هذا الـ «موريو» جدير بالإلفات لولا أنه يخطئ فقط في الوسائل التي ستؤمِّن تنفيذه. إنَّ السِّلْم الدائم ممكن التحقيق، ولكن … لست أدري كيف أعبِّر عن رأيي … على كل حال، ليس التوازن السياسي هو الوسيلة المنشودة.

كانت تلك البحوث السلبية لا تَستلِبُ اهتمامَ الأمير آندره، قال مستفسرًا: اعلم يا عزيزي أنه لا يمكن للمرء دائمًا أن يفصح عن سريرته وحقيقة آرائه. هل قررت أخيرًا الانخراط في عداد فرسان الحرس، أم في السلك السياسي؟

تربع بيير على الأريكة وأجاب: لست أدري حقيقةً ماذا سيكون من أمري، إنني أرى أن كلًّا من هاتين الناحيتين تعبس لي ولا تشجعني.

– مع ذلك، ينبغي أن تسلك اتجاهًا معينًا؛ فإن أباك ينتظر.

كان بيير قد أُرسِل إلى خارج البلاد منذ أن بلغ العاشرة تحت رعاية مدرِّبه ومرشده، وكان من الآباء الروحيين، فلما بلغ العشرين من عمره استدعاه أبوه إلى موسكو، وأعفى المرشد من مهمته وقال لابنه: «امضِ الآن إلى بيترسبورج، وانتقِ لنفسك المركز الذي يحلو لك، وستراني موافقًا سلفًا على انتقائك، ها هي ذي النقود اللازمة، وإليك رسالةَ توصيةٍ للأمير بازيل. اتصل بي دائمًا، وأطلعني على كل جديد، وسأساعدك في كل ما يقتضي التدخل والمساعدة.» وقد قضى بيير نيفًا وثلاثة أشهر وهو يفكر في انتقاء المركز الذي يتعشقه؛ لذلك راح آندره يسأله رأيه.

قال بيير وهو يمر بيده على جبينه فجأةً، وأفكاره عالقة بالأب موريو: لا شك أنه ينتمي إلى محفلٍ ماسوني.

فاستوقفه الأمير بإشارة من يده وأعقب: دَعْكَ من هذه الترهات ولنتحدث جديًّا، هل بحثت مسألة الحرس الراكب؟

– كلَّا، لكنني أهدهد فكرةً وانتني في هذه البرهة، أودُّ أن أعرضها عليك؛ إننا الآن في حرب مع نابليون، ولو أن الحرب كانت حرب تحرير، لَكنتُ أول مَن انخرط في عداد المحاربين، أما وأننا سنكون سائرين على أعقاب بريطانيا والنمسا ضد أقوى رجل وأعظم رجل في العالم، فإن هذا لا يروق لي.

اكتفى الأمير بهز كتفيه جوابًا على تلك الآراء الصبيانية. كان يشعره بتلك الحركة بأن أقواله لا تستحق جوابًا أحسن من ذلك الجواب؛ إذ ماذا كان يستطيع أن يقول جوابًا على مثل تلك الاستنتاجات الساذجة؟ وأخيرًا قال: لو أنَّ كل محارب كان يسير مدفوعًا بمبادئ يؤمن بها، لَمَا وقعت حرب قط.

فأجاب بيير معقبًا: ولَكان الأمر خيرًا وأفضل.

ابتسم الأمير موافقًا وقال: لا شَكَّ، لكن ذلك لن يقع أبدًا.

– إذن، لِمَ تذهب إلى الحرب؟

– لماذا؟ الحقيقة لست أدري؛ لأنه يجب أن أذهب، ثم لأنه …

وتردَّد الأمير برهة، ثم أردف: لأن الحياة التي أعيشها هنا لا تروق لي.

الفصل السابع

زوجة الأمير

تناهى إلى سمعه حفيفُ ثوبٍ في الغرفة المجاورة، فانتفض الأمير شأن النائم الذي أُوقِظ في غير رفق، وعادت تقاطيع وجهه تتخذ ذلك الطابع الذي بدت عليه في حفلة آنَّا بافلوفنا، بينما أصلح بيير من جلسته، دخلت الأميرة. كانت قد أبدلت ثوبها الرسمي بآخَرَ منزلي، لكنه لم يُنقِص شيئًا من بهائها ورشاقتها، فنهض الأمير وقدَّم لها مقعدًا وهو يهش لها، فتهالكت جالسةً عليه.

قالت باللغة الفرنسيَّة — كعادتها: إنني أتساءل دائمًا كيف لم تتزوج آنيت حتى اليوم. إنكم جميعًا حمقى أيها السادة؛ لأنكم لم تظفروا بها. اعذروا حديثي، ولكنكم لا تفقهون شيئًا في شئون النساء. يا لك من مشاكس مُنازل يا سيد بيير!

أجاب بيير دون أنْ يفضح ذلك الارتباك الذي يعرو عادةً كلَّ شاب عندما يتحدث إلى سيدة شابة: إنني كنت منذ حين أخاصم زوجَك لأنني لا أفهم سببًا لرغبته في الذهاب إلى الحرب.

انتفضت الأميرة، وقد أصيبت في أدق عواطفها. أجابت: إن هذا ما دأبتُ أقوله له بدوري! إنني لا أستطيع أنْ أفهم السببَ الذي يجعل الرجالَ عاجزين عن الاستغناء عن الحرب. ما هو السبب الذي يجعلنا — نحن النساء — لا نشعر بأية رغبة في ذلك أو حاجة به؟ هيا، كنْ محكمًا، إنَّني لا أَنِي أكرِّر على مسامعه بأنه هنا مساعد لعمه، وأنَّ مركزه لامع ممتاز، وأنَّ كل الناس يعرفونه ويقدِّرونه. لقد سمعت منذ أيام عند آل آبراكسين سيدةً تسأل: «أهذا هو الأمير آندره الشهير؟»

وأعقبت تقول ضاحكة: أقسم لك بشرفي على ذلك، أنه يُستقبَل أحسن استقبال أينما ذهب. إنَّ في مقدوره أنْ يصبح تابعًا للإمبراطور، إنك تعرف أنَّ جلالته وجَّه إليه الحديثَ

بكل انشراح وبشاشة. لقد كنَّا نقول — آنيت وآنَّا — إن من السهل تدبير الأمر ليصبح تابعًا للإمبراطور، فما رأيك؟

سأل بيير دون أنْ يجيب على السؤال؛ لأنه ألقى نظرة على وجه الأمير فاستنتج أنَّ الحديث لا يروق له: متى ستذهب؟

هتفت الأميرة بلهجة الطفل الذي أفسده الدلال، تلك اللهجة التي كانت تستعملها في حفلة آنَّا بافلوفنا وهي تتحدث مع هيبوليت، والتي كانت لا تتفق مع ذلك الجو العائلي الذي كان بيير يبدو جزءًا منه: آه! لا تحدِّثني عن ذلك الرحيل، لا تحدِّثني عنه! لا أريد أنْ أسمع كلمة عنه! عندما فكرتُ منذ حين في أنني سأضطر إلى قطع كل علاقاتي العزيزة الثمينة. ثم هل تعرف يا آندره ...؟

وغمزت لزوجها بعينها ونظرت إليه خلال أهدابها نظرةً حافلة بالمعاني، وأردفت تغمغم وهي ترتعد: إنني خائفة، خائفة!

فنظر إليها الأمير بدوره وكأنه أُذهِل لوجود شخص ثالث في الغرفة معه ومع بيير، وسألها بلباقة يشع منها البرود: ممَّ تخافين يا ليز؟ لست أفهم.

– كذلك هم الرجال؛ أنانيون! نعم، نعم، إنكم أنانيون. إنه يهجرني لمجرد هوًى، والله يعلم السبب، وينفيني وحيدة في الريف.

فقاطعها الأمير آندره بوداعة: مع أبي وأختي! أرجو ألَّا تنسَي ذلك.

– سأظل مع ذلك وحيدة بدون أصدقائي. ورغم هذا فإنه يريدني على ألَّا أكون خائفة!

ارتفع صوتها وبدت شفتها القصيرة التي كانت تسبغ عليها طابعًا من الوداعة، تحمل الآن شبهًا قويًّا بالحيوانات القاضمة. صمتت وقد قدَّرت أنه من غير المستحسن أنْ تُلمِعَ أمام بيير إلى أن حالة الأمومة التي تنتظرها هي السبب الوحيد في انفعالها.

قال الأمير ببطء دون أنْ يشيح ببصره عنها: لستُ أفهم حتى الآن ماذا يخيفكِ.

احمرَّ وجه ليز وهتفت وهي تلوِّح بيدها؛ دلالةً على نفاد صبرها: آه يا آندره، لشدَّ ما تبدَّلت! لقد تبدَّلتَ تبدُّلًا جسيمًا!

– لقد منعكِ طبيبكِ من السهر، فيحسُن بكِ أنْ تستريحي.

لم تُجِب ليز، غير أنَّ شفتها القصيرة المظللة ارتعشت فجأةً، بينما وقف الأمير وراح يذرع الغرفةَ بلامبالاة.

كان بيير يلقي عليهما خلال عدسات نظارتيه نظراتٍ كلُّها دهشة. تظاهر أنه ينهض لمغادرة المكان، غير أنه أبدل رأيه وعاد إلى مقعد.

قالت الأميرة الصغيرة فجأةً وقد شوَّه وجهَها الجميل تقلُّص باكٍ: لا يهمني حضور بيير وإصغاؤه، لقد مرَّ عليَّ وقت طويل أردت خلاله أنْ أسألك: لِمَ تبدَّلتَ كل هذا التبدُّل حيالي يا آندره؟ ماذا جنيتُ؟ إنك انخرطتَ في الجيش، وفقدت كل شفقة عليَّ، فلماذا؟

هتف الأمير: ليز!

كانت تلك الكلمة تحمل رجاءً وتهديدًا، وعلى الأخص، كانت تُبرز تأكيدًا بأنها ستندم على أقوالها، غير أنها استرسلت تتدفق الكلماتُ من فمها متلاحقة: إنكَ تعاملني كمريضة، أو كما تعامل طفلًا، إنني أرى ذلك بوضوح، فهل أنتَ أنتَ، لم تتبدَّل عمَّا كنتَ عليه منذ ستة شهور؟

صرخ الأمير بلهجة حاسمة واضحة: ليز، كُفِّي أرجوكِ.

نهض بيير الذي كان انفعاله وتأثُّره يزدادان باطِّراد، واقترب من الأميرة.

كان يبدو على استعدادٍ للبكاء، لشدَّ ما كان منظر الدموع يؤلمه: هدِّئي روعك يا أميرة، إنك تتخيلين أشياء وهميَّة، إنني أنا الآخر تعرضت لمثل هذا ... لأني ... كما ترين ... آه! اعذراني. إنَّ وجودي غير مرغوب فيه بينكما، اهدئي أرجوكِ ... إلى اللقاء.

أمسك بولكونسكي بذراعه مستوقفًا وقال: لحظة واحدة يا بيير، أظن أنَّ الأميرة من الطِّيبة بحيث إنها لن تحرمني من سروري برفقتك.

غمغمت الأميرة خلال دموع الغضب التي عجزتْ عن قهرها وتبديدها: بلا شك، لن تحرمك. إنه لا يفكر إلَّا في نفسه.

كرَّر الأمير بصوت يُشعِر بنفادِ صبرِ صاحبه: ليز!

بدت الأميرة منقلبة السحنة؛ تبدَّد شكل السنجاب الغضوب وحلَّت محله أمارات ذعر مُحزِن يستدرُّ الرثاء، وألقت عيناها الجميلتان نظرةً مختلَسة إلى الأمير، فيها عبارات الخضوع، بينما انطبع وجهها بطابع الكلب المذعور، الذي جاء يبصبص قرب سيده، محنيَّ الرأس.

زفرت وقالت: رباه! رباه!

وأمسكت أطراف ثوبها بيدها، واقتربت من زوجها، فقبَّلت جبهته، فنهض هذا وانحنى على يدها، فقبَّلها بوقار كما يفعل المرء مع السيدات الغريبات، وقال: عِمِي مساءً يا ليز.

الفصل الثامن

نجوى

صمت الصديقان، فلم يجرؤ أحدهما على البدء بالحديث. كان بيير يرقب الأمير آندره الذي كان يُخفِي عينيه بيده.

قال هذا أخيرًا وهو يتأوَّه: هيا بنا نتناول العشاء.

ونهض متجهًا نحو الباب.

دخل الصديقان إلى غرفة طعام أنيقة تنبئ بذوق رفيع، كان كل ما فيها من مفروشات وفضيات وآنية وخزف يحمل طابع الجدة الذي يدل على حداثة إنشاء المسكن، وبينما كانا يتناولان الطعام، توقف آندره فجأةً، وأخذ رأسه بين يديه وهو فريسةُ انفعالٍ لم يشهد بيير صديقَه في مثله من قبل، وقال بلهجة الرجل الذي قرَّر أخيرًا أنْ ينفث عمَّا في صدره: لا تتزوَّجْ أبدًا يا صديقي، تلك هي النصيحة التي أُسدِيكَها، لا تتزوَّجْ قبل أنْ تتأكد من أنك لن تستطيع أنْ تعمل غير ذلك، وقبل أنْ تنقشع عن عينيك سحابةُ تعلُّقِك الغريزي بالمرأة التي أُولِعتَ بها، التي تكون قد أعْمَتْ بصيرتك وجعلتك لا تراها على حقيقتها. إنك بغير ذلك في خطأ مروع لا يمكنك تلافيه، تزوَّجْ متأخرًا بقدر ما تستطيع، وَلْيكن عندما تصبح غير صالح لأي شيء، وإلَّا فإن كلَّ ما في نفسك من نُبْل وعظمة وطموح سيتبدد، سترى نفسك كذلك غائصًا في تُرَّهات وسخافات. نعم، سترى نفسك كذلك! لا تنظر إليَّ بمثل هذا الذهول. إذا كانت في نفسك آمال للمستقبل، وتزوَّجتَ قبل تحقيقها، يحسُن بك عندئذٍ أنْ تستعِدَّ للحداد على طموحك؛ لأنكَ ستشعر في كل خطوة بأن الأبواب كلها مغلقة في وجهك، باستثناء أبواب الأبْهَاء و«الصالونات»؛ حيث ستكون معدودًا كأول سخيف، أو كأول خادم في البلاط. نعم، إنَّ الأمر كذلك.

وأشفع جملته هذه بإشارة أبلغ من الحديث.

نزع بيير نظَّارتيه، واتخذت سحنته طابعًا جديدًا مضيئًا بالذكاء، وراح يتأمل صديقه بذهول.

أردف الأمير آندره: إنَّ زوجتي مخلوقة ممتازة، نادرة بين النساء اللاتي لا يخشى المرء معهن على سعادته زوالًا؛ مع ذلك، ربّاه! كَم أعطي وبِكَمْ أضحي لأكون غير متزوج بها! إنك أول مَن أبثُّه هذه النجوى، والوحيد الذي سيسمعها؛ لأنني أحبك.

وكلما استغرق الأمير في الحديث، ازداد بُعدًا عمَّا كان عليه في بهو آنَّا بافلوفنا؛ حيث كان متهاويًا على مقعده يغمغم ببعض العبارات باللغة الفرنسيَّة، وأماراتُ الإجهاد واضحةٌ في عينيه نصف المغمضتين، كانت عضلات وجهه العابس كلُّها تنتفض بانفعال، وعيناه اللتان كانتا منذ حين خابيتين، تشعَّان في تلك اللحظة ببريق متَّقد مشتعل، كانت بَلادته في الحالات الطبيعيَّة تتحوَّل في تلك اللحظات من الانفعال المَرضي إلى لون من جنون التيقُّظ.

أردف يقول: هل يدهشكَ أنْ تراني أتحدث بهذا الشكل؟ إنها — كما ترى — مأساة حياتي، إنكَ تحدِّثني عن بونابرت ومركزه، ولكن بونابرت كان حرًّا عندما تابَعَ هدفه حتى بلغه، إنه لم يكن يفكِّر إلَّا في غايته، وبذلك وصل إليها. إنك إذا ارتبطتَ بامرأة، كنت أشبهَ بالمحكوم عليه، المغلولِ إلى سلسلة، فقُلِ الوداع أيتها الحرية والكفاءات والآمال؛ واقبعْ في ظل تبكيتِ الضمير؛ لأنك ستفقد هذه المزايا إلى الأبد. إنَّ المنتديات والهذر والحفلات والغرور، والبؤر الاجتماعيَّة، هي الدائرة الكريهة الفاسدة، التي لا أعرف كيف أخرج منها؛ وهذا هو السبب الذي من أجله أمضي إلى الحرب، إلى أعظم حرب، إلى أعظم الحروب، وأنا لا أعرف شيئًا لأنني لا أصلح لشيء. إنني لطيف جدًّا، ولاذع جدًّا! وهكذا يصغون إليَّ راضين عند آنَّا بافلوفنا. آه! من ذلك المجتمع الأحمق الذي لا تستطيع زوجتي عنه ابتعادًا! أولئك النسوة اللاتي … ليتك تعرف مَن مِن أولئك النسوة الراقيات المرموقات … وكل النساء! إنَّ أبي على حق، إنَّ المرأة عندما تُرى على حقيقتها، لا تزيد عن كونها أنانية مغرورة، محدودة خرقاء تمامًا، لكنها في المنتديات تُضفِي على نفسها لونًا آخر، غير أنك إذا أمعنتَ النظر فيها، وجدتها لا شيء، لا شيء، لا شيء!

ثمَّ أعقب يقول ناصحًا: لا تتزوَّجْ يا عزيزي، كلا، لا تتزوَّج.

قال بيير: كيف؟! أهو أنت الذي تحكم على نفسك بالعجز، وتزعم أنَّ حياتك محطته! لكن هذا لعمري عجيب! يمكنك أنْ تتطلع إلى كل شيء، وأنت …

لكنه لم يعقِّب، كان صوته يدل دلالة واضحة على التقدير العميق الذي يكنُّه لصديقه، وعلى أي مستقبل زاهر يعتقد أنه بالِغُه.

كان بيير يتساءل: «كيف يستطيع آندره أنْ يخفض من قيمة نفسه!» كان الأمير آندره بالنسبة لبيير مثالًا للكمال والنضوج؛ ألم يكن يرى فيه الصفات الممتازة التي كان بيير لا يملك منها شيئًا، والتي كان يعتقد أنها كلها مدينة لفضيلة هامَّة رئيسيَّة؛ وهي سمو النفس؟!

كان بيير معجبًا بالهدوء الذي يبديه الأمير في علاقاته مع الأشخاص من مختلِف الطبقات، وببداهة عقله، وتنوُّع معلوماته، وغزارة علمه، وهو الذي قرأ كل شيء، وعرف كل شيء، وألمَّ بكل شيء، أَضِفْ إلى ذلك قدرتَه على العمل والإبداع. وإذا كان بيير قد شعر من قبلُ بدهشةٍ لَميل صديقه إلى كل ذلك قدرتَه على العمل والإبداع، وإذا كان بيير قد شعر من قبلُ بدهشة لميل صديقه إلى التحليق الفلسفي، الذي كان عنده يبلغ ذروته، فإنه كان يرى في ذلك الشرود لونًا من السمو، أكثر مما كان يعتبره نقيصة مرذولة.

ولكي تسير العربة سيرًا حسنًا، ينبغي أنْ يُعنى بتشحيم عجلاتها، وكذلك فإن أشد العلاقات صراحةً وأعمقَها، بحاجةٍ إلى رعايتها بالمديح أو التقريظ.

قال الأمير آندره: إنني رجل مقضي عليَّ. ولكن ماذا يُجدِي الحديث عني؟ وصمت برهة ثمَّ أردف وهو يبتسم لفكرةٍ ما أشعرتْه ببعض العزاء: لنتحدَّثْ عنكَ أنت.

انبسطت أسارير بيير، عندما طافت تلك الابتسامة على وجه صاحبه، وقال مشرقَ الوجه، خليَّ الفكر: وبماذا أتحدث عن نفسي؟ مَن أنا؟ ابن سِفَاح!

واحمرَّ وجهه إثرَ تلفُّظه بتلك الكلمة، حتى شحمة أذنَيْه، وأردف: رجل لا اسمَ لي، ولا ثروة. ثمَّ مع ذلك …

لم يُتم جملته، بل غيَّر سياق أفكاره وأعقب: إنني حر راضٍ عن نفسي. وبهذه المناسبة، عندي ما أسألك رأيك فيه جديًّا.

نظر الأمير إلى صديقه بعينين حانيتين، غير أنَّ تلك النظرة الوديَّة الملاطفة كانت دليلًا واضحًا على رفعة شأنه وسموه، قال: إنك عزيز عليَّ قبل كل شيء؛ لأنك — بين كل أفراد عالمنا — مخلوقٌ حيٌّ، فانتقِ أي مركز تشاء، إنه سيان، ولكن كفَّ عن الاختلاط بآل كوراجين. فهل هنا بُغيتك، تلك الحياة التي تشبه حياة الصور المتحركة.

قال بيير وهو يهز كتفيه: ماذا تريد يا عزيزي؟ إنَّ النساء يا عزيزي هنَّ النساء!

– النساء الراقيات لا بأسَ بهنَّ، أمَّا نساء كوراجين، فهنَّ نساء وخمر! في الحقيقة إنني لا أفهمك.

كان بيير — وهو الذي يقطن عند الأمير بازيل — قد راح يرود البؤر التي قاده إليها آناتول هذا، هو الذي يعمل أبوه على تحسين سلوكه، بتزويجه من أخت الأمير آندره.

قال بيير وكأن فكرة سعيدة طارئة قد راودت رأسه: أتدري بأنني أناقش نفسي منذ أمد بعيد، وأخرج بمثل هذه النتيجة؟ إنَّ هذا اللون من الحياة يمنعني من التفكير ومن اتخاذ أي قرار. إنني أشعر بآلام في رأسي، وبجفاف في كيس نقودي. لقد دعاني الليلةَ آناتول، لكنني لن أذهب.

– أتقسِم بشرفك؟

– أقسم بشرفي.

الفصل التاسع

رهان

لم يخرج بيير من دار صديقه إلَّا بعد أن تجاوزت الساعة الواحدة صباحًا، كانت ليلة جميلة بيضاء كما لا يُرى مثلها إلَّا في بيترسبورج في شهر حزيران، استقل بيير عربةً، وأراد الذهاب إلى مسكنه، لكنه كلما ازداد اقترابًا منه، ازداد شعوره بالعجز عن قضاء ساعات جميلة، تشبه الغسق أو الفجر أكثر مما تشبه الليل، النوم والراحة. كان البصر يمتد بعيدًا في تلك الشوارع المقفرة. تذكَّرَ بيير وهو في طريقه أنَّ جماعة المقامرين الذين كانوا سيجتمعون تلك الليلة عند آناتول كوراجين، ينهون سهرتهم عادةً بأكؤس من الشراب، سيتبعها لون من التسليات التي كان يقدِّرها.

راح يحدِّث نفسه: «ماذا لو مررتُ على منزل كوراجين؟» لكنه تذكَّر فجأةً الوعدَ الذي أعطاه للأمير آندره، وشعر كذلك فجأةً — كما يحدث للأشخاص المحرومين من الاتزان — برغبةٍ مُلِحة في تذوُّق لذائذ هذا النوع من الحياة الفاسدة، فأعدَّ عُدَّتَه واتخذ قراره. بدا له أنه مرتبط بموعد مسبق مع آناتول، وأن العهد الذي قطعه للأمير آندره يفقد قيمتَه إزاء الوعد المسبق. راح يفكر: إن كل وعود الشرف تلك لا قيمةَ لها ولا وزن؛ لأنها أشياء شَرْطية، تفقد اعتبارها عندما يفكِّر المرء أنه قد يموت غدًا، أو أنه سيجد نفسه في موقفٍ يفقد فيه حتى الشعورَ بالشرف وبقلة الشرف. كان ذلك النوع من المناقشة والحكم مألوفًا عند بيير، وبسببه كانت مشاريعه وقراراته تتبدَّد، وهكذا مضى إلى منزل كوراجين.

وصل أمام البناء الفسيح الملاصق لثُكْنة فرسان الحرس، حيث كان يقطن آناتول، فتخطَّى بيير المدخل المضاء وصعد السُّلم، فوجد الباب مفتوحًا. لم يصادف أحدًا في الرَّدْهة التي كانت الزجاجات الفارغة مبعثرة في أرجائها، والمعاطف تتدلى على المشاجب، والأحذية الواقية للأخفاف ملقاة بغير انتظام. كانت رائحة الخمر تفوح في المكان، وأصوات صخب

بعيدة تبلغ المسامع. لا شك أنَّ اللعب والعشاء كانا قد انتهيا، غير أنَّ المدعوين ما كانوا قد تفرَّقوا بعد.

خلع بيير معطفه ودخل الحجرة الأولى، حيث كانت بقايا الطعام لا زالت على المائدة، وكان هناك خادم يفرغ في جوفه بقايا الأقداح في منجاة العيون، وكان ضجيج ضحك وصيحات، وصوت أقدام وهمهمة دب، ترتفع بوضوح من الغرفة الثالثة، حيث كان حوالي عشرة شباب، واقفين أمام نافذة مفتوحة، يصخبون ويهذرون، بينما راح ثلاثة آخرون يعبثون مع دب صغير، فيحمله أحدهم من سلسلته ويوهم الباقين بإلقائه عليهم.

صاح صوت: إنني أراهن بمائة روبل على ستيفنس.

– دون أن يتمسك بشيء، أليس كذلك؟

– وأنا أراهن على دولوخوف، كن شاهدًا يا كوراجين.

– هيا دعوا الدب جانبًا، إن في الموضوع رهانًا.

– دفعة واحدة، أليس كذلك؟ وبدون ذلك تحدث الخسارة.

صاح صاحب الدعوة، وهو شابٌّ جميل يرتدي قميصًا رقيقًا، مفتوح الياقة: هولا، إليَّ بزجاجة! أياكوف، إليَّ بزجاجة!

ولما وقع بصره على بيير، هتف: لحظة واحدة أيها السادة، هو ذا صديق قلبي، ها هو ذا بيتروشا العزيز!

صاح صوت يتناقض باتزانه مع كل الأصوات المخمورة: تعالَ إلى هنا، واحكم في الرهان.

كان المتكلم ضابطًا في فيلق سنميونوفسكي، قصير القامة، ذا عينين بلون أزرق فاتح، وكان يشاطر آناتول في مسكنه.

قال بيير وهو يسرِّح نظرة لاهية فيما حوله: ما هو الموضوع الذي تبحثون؟ إنني لا أفقه شيئًا.

– انتظروا، إنه ليس ثملًا. هولا، إليَّ بزجاجة! اشرب قبل كل شيء.

وبينما راح بيير يعب قدحًا إثرَ قدح، كانت عيناه ترقبان من زاويتهما وجوهَ المدعوين السكارى؛ الذين تجمهروا قرب النافذة، وأُذُناه تُصغيان إلى أقوالهم. كان آناتول يتابع صبَّ الخمرة في القدح، وهو يشرح له أنَّ دولوخوف تراهن مع أحد المدعوين؛ الإنجليزي ستيفنس — وهو ضابط في البحرية — على أن يشرب زجاجةً من الروم دفعةً واحدة، وهو جالس على حافة هذه النافذة من الدور الثاني، وساقاه مُدلَّاتان إلى الخارج.

قال آناتول وهو يقدِّم لبيير القدح الأخير: هيا، انزع الزجاجة! لن أدَعَكَ قبل أن تنتهي من شربها!

فأجاب بيير وهو يدفعه جانبًا: كلَّا، إنَّ فيما شربتُه الكفاية!

واتجه نحو النافذة.



دولوخوف يراهن.

أمسك دولوخوف بذراع الإنجليزي وراح يخاطب المدعوِّين مخصصًا بينهم آناتول وبيير، شارحًا بدقة مفرطة شروطَ الرهان.

كان دولوخوف ذاك شابًّا في الرابعة والعشرين، أمْيل إلى القِصر، ذا شعر أجعد وعينين تمتازان بزُرقة فاتحة، كان ككلِّ ضباط المدفعية، حليق الشارب، فكان فمه — وهو الجزء الأكثر تعبيرًا في وجهه — يبدو مكشوفًا، يَظهر خط الانحناء فيه بدقة رائعة مليحة، كانت الشفة العليا تسقط على الشفة السفلى الغليظة مشكِّلة زاوية حادة كلها، بينما لبثت الزاويتان تُظهران ضحكة مزدوجة ثانية، فكان تكوين ذلك الوجه، المتفق مع تلك النظرة التي لا تخلو من قِحَة معنوية، يستوقف الانتباه. وكان ذلك الشابُّ محرومًا من الثراء والعلاقات الرفيعة. مع ذلك، فقد كان يشارك آناتول في مسكنه، ويلقي بالمال

من النوافذ! كان يُحسِن فرْضَ احترامه على آناتول وكلِّ الآخرين، يشرب وكأنه قِربة هائلة، فلا يفقد اتزانَه أبدًا، وكان كوراجين ودولوخوف أمراءَ الشبيبة اللامعة في بيترسبورج.

بعد أن أتيا بالزجاجة، راح الخادمان المروعان بثورة الهرج والصخب والنصائح التي كانت تُلقَى إليهما من كل مكان، يحاولان جاهِدَيْن إنزال إطار النافذة؛ ليستطيع دولوخوف الجلوس على حافتها الخارجية، فاقترب آناتول بخطورة الغازي الفاتح؛ كان في مظهره ما يدل على رغبته في تحطيمِ شيءٍ ما.

أزاح الخادمين جانبًا، وراح يجذب الإطارَ بقوة، لكن هذا لم يَلِنْ تحت الضغط، ولو أن جانبًا من زجاج النافذة قد تحطَّم.

قال بيير: هيا، جرِّبْ أنتَ أيها الرجل القوي.

أمسكَ بيير بمراقي الإطار وجذبها، فكاد أن يخلع النافذة كلها.

صاح دولوخوف آمِرًا: اخلعها، وإلا فإنهم سيدَّعون أنني استندتُ إلى درفة أو إلى جزء منها.

قال آناتول: إنَّ الإنجليزي ينفخ أوْداجَه، أليس كذلك؟ هل انتهيت من النافذة؟

فأجاب بيير: لقد انتهيت.

راح يرقب دولوخوف وهو يتقدم من النافذة والزجاجة في يده، فكان يرى منها السماء الصافية الأديم؛ حيث يختلط ضياء المساء مع طلائع النهار.

قفز دولوخوف إلى النافذة والزجاجة في يده وصاح آمرًا: اصمتوا!

كان واقفًا على حافة النافذة ووجهه إلى المتفرجين، فصمت الجميع استجابةً لرغبته. أردف قائلًا بِلُغة فرنسية سقيمة ليفهم الإنجليزي: إنني أراهن بخمسين روبلًا أو بمائة إذا شئت!

فقال الإنجليزي: بل بخمسين.

– لِيكُنْ. أراهن بخمسين روبلًا، على أنني سأتجرَّع زجاجةَ روم دفعةً واحدة، وأنا جالس في هذا المكان (وانحنى ليدلَّ على المكان الذي سيجلس فيه) دون أن أستند إلى شيء. هل اتفقنا؟

فقال الإنجليزي: اتَّفَقنا.

التفتَ آناتول إلى ستيفنس، وأمسك بزر «فراكه»، ثم هبط بنظرته نحوه — لأن الإنجليزي كان قصيرًا — وراح يكرِّر عليه بالإنجليزية شروطَ الرهان، غير أنَّ دولوخوف استنفر مجددًا انتباهَ الموجودين، وهو يقرع بزجاجته على طرف النافذة وهتف: أصغوا

إليَّ! دقيقة واحدة! أصغِ يا كوراجين، إذا قام بعضكم بمثل هذا العمل، فإنني سأدفع له مائة روبل، هل فهمتم؟

أشار الإنجليزي برأسه أنْ نعم، دون أن يفهم من إشارته أنه يوافق على ذلك الرهان الجديد أم لا. راح يشير بالحركات والإشارات إلى أنه فهم المراد، غير أنَّ آناتول لم يدعه قبل أن أنهى إليه الترجمةَ الحرفية للشروط؛ كافة أقوال دولوخوف. هرع شاب في مقتبل العمر — نحيل الجسم، جندي بسيط في الحرس، كان قد خسر تلك الليلةَ في المقامرة — إلى النافذة وأطلَّ إلى الخارج، صرخ وهو يتأمل بلاط الشارع من عَلٍ: هو! هو! هو! …

زمجر دولوخوف وهو يدفع الجندي نحو الغرفة: استعِد!

فقفز الجندي، وقد أربكه المهمازان، فكاد أنْ يسقط على الأرض.

وضع دولوخوف الزجاجة على حافة النافذة لتكون في متناول يده، ثم تسلَّق النافذة بحذر. اعتمد بيديه على الإطار، ودلَّى ساقَيْه إلى الخارج، ثم انتقى مكانًا مناسبًا، فجلس وأفلتَتْ يداه الإطار. التفت يمينًا ويسارًا وأمسك بالزجاجة. وعلى الرغم من أنَّ خطوط النهار كانت قد وضحت، فإن آناتول جاء بشمعتين أوقدهما ووضعهما إلى يمين دولوخوف وشماله؛ حتى يستطيع المراقبون رؤيةَ أية حركة تصدر عن يديه، فأضاء بذلك قميص المراهن الأبيض وشعره الأجعد، وجعله هدفًا ميسور المراقبة. واحتشد المتفرجون، والإنجليزي في المقدمة، يتطلَّعون بلهفة. وكان بيير يضحك دون أن ينطق بكلمة. وفجأةً اندفع أكبر الموجودين سنًّا، وعلى وجهه أماراتُ الغضب والذعر، وهتف وهو أكثر الحاضرين اتزانًا: إنه جنونٌ أيها السادة، سوف تُدَقُّ عنقه!

وهمَّ بإمساك قميص دولوخوف ليمنعه عن القيام بما هو في سبيله، لولا أن أمسك به آناتول وقال: لا، لا تمسه؛ لأنك ستخيفه … فيسقط من حالق، وعندئذٍ … هن؟ …

أدار دولوخوف رأسه ليصحِّح من وضعيته اعتمادًا على يديه، وقال وهو يدفع بالكلمات خلال شفتيه المطبقتين: إذا شاء أحد أن يتدخل في شئوني، فسأجعله يقفز من هذا الفراغ. لنبدأ الآن!

استدار نهائيًّا نحو الشارع بعد أن تخلَّى عن كل سند، ولبثَ في جلسة على حافة النافذة المنحرفة إلى الخارج، والزجاجة مرفوعة إلى فمه، وذراعاه إلى أعلى؛ ليحافظ بهما على توازنه. كان أحد الخدم منحنيًا يجمع حطام الزجاج المتناثر، فلبث في وضعيته المنحنية، وعيناه شاخصتان إلى النافذة تلتهمان ظهر دولوخوف، وانتصب آناتول على مدى قامته وراح يحملق بعينيه. أما الإنجليزي فقد راح ينظر حوله وهو يعفر وجهه،

وراح الشاب الجندي يحتمي في ركن وقد تهالك على أريكة وأدار وجهه إلى الجدار، بينما حجب بيير وجهه بيده وقد علتْ شفتيه ابتسامةٌ منسية تعبِّر عن الذعر والخوف. وجمد المتفرجون ووجموا، فرفع بيير يده عن عينيه؛ كان دولوخوف محتفظًا بوضعيته تلك، لكنه كان شديد الانحناء إلى الوراء، حتى إن خصلات شعره كانت تلامس ياقة قميصه. كانت الزجاجة تفرغ من محتوياتها، مرغِمةً رأس المراهن على الانحناء أكثر فأكثر، رافعةً معها اليدَ التي تقبض عليها، وهي تهتز بحكم المجهود الذي يبذله صاحبها. أخذ بيير يحدِّث نفسه قائلًا: «ما أطول هذه الفترة!» خُيِّل إليه أن نصف ساعة قد انقضت منذ أن بدأ دولوخوف في عملية شرب الروم. وفجأةً، قام دولوخوف بحركة عنيفة إلى الوراء؛ كانت رعدة عصبية تُحرك ذراعه بما يكفي ليفقد الجسد المتمركز على الحافة المنحدرة اتزانه. راح يتأرجح بمجموع جسده؛ الرأس والذراع المتزايدة الاهتزاز بتأثير المجهود المبذول، وكادت اليَدُ الأخرى أنْ تمسك بإطار النافذة، لكنها انكمشت في آخر لحظة، فأغمض بيير عينيه من جديد، وقرَّر ألَّا يفتحهما بعد ذلك، لكنه شعر فجأةً بحركة غير اعتيادية حوله، ففتح عينيه متسائلًا، شاهد دولوخوف وقد سحب وجهه وبان السرور عليه، واقفًا على حافة النافذة.

هتف معلنًا نجاحه، وهو يلقي بالزجاجة إلى الإنجليزي الذي تلقَّفها قبل أن تسقط على الأرض: إنها فارغة!

وقفز دولوخوف إلى أرض الغرفة، تنبعث من فمه رائحةٌ قويَّة، طغى فيها الروم على كلِّ الخمور الأخرى التي تناولها من قبل. هتفوا به من كل صوب: مرحى! يا لَلرَّجل المتين! إنه لَرهانٌ رائع!

بينما أخرَج الإنجليزي كيس نقوده، وراح يَعدُّ المبلغ، ولبث دولوخوف يرمش بعينيه دون أن ينبس بكلمة.

وفجأةً اندفع بيير نحو النافذة وصاح: أيها السادة، مَن يعقد رهانًا معي؟ سأعمل مثل ما عمل دولوخوف، بل إنني لا ألحُّ في صدد الرهان! أعطوني زجاجةَ روم وسأشربها على حافة النافذة. هيا، إليَّ بزجاجة! زجاجة!

ابتسم دولوخوف وصاح مشجِّعًا: هيا، امضِ في عزمك!

غير أنَّ الاعتراضات انبعثت من جانب؛ هتف قائلٌ: ماذا دهاك؟ هل جُننت؟ هل تظن أننا سندعك تنفِّذ عزمك؟ أنت الذي تُصاب بدوار لمجرد صعودك سُلَّمًا!

صرخ بيير وهو يضرب المائدة بقبضة يده: كلَّا، كلَّا! إليَّ بزجاجة، زجاجة! سأفرغها!

وتسلَّق النافذة، فقبضا على ذراعيه، لكن ذلك الجبَّار سرعان ما تخلَّص من معارضيه وأبعدهم عنه، فانكمشوا أمام قوته.

قال آناتول: كلَّا، لن تستطيعوا حمله على العدول هكذا. انتظروا؛ سوف أجعله يتراجع. اسمع، إنني أقبل المراهنة معك ولكن غدًا. أما الآن، فَلْنذهبْ إلى لرس.

فهتف بيير: حسنًا، هيَّا بنا! ولنأخذ معنا الدب ميشكا.

وحمل الدب حملًا، وراح يدور به في فراغ الغرفة.

الفصل العاشر

حفلة آل روستوف

برَّ الأمير بازيل بوعده الذي قطعه للأميرة دروبتسكوي في حفلة آنَّا بافلوفنا بشأن ابنها الأوحد بوريس؛ إذ وافق الإمبراطور الذي تحدَّثُوا إليه عن الفتى أن يُنقل استثنائيًّا إلى ملاك الحرس مكان حامل العلَم في فيلق سيميونوفسكي. غير أنَّ آنَّا ميخائيلوفنا لم تستطِعْ — رغم كل الجهود والمحاولات — أن تجعل ابنها يُقبَل في دائرة أركان حرب كوتوزوف، لا بصفة مساعد ولا كملحق بسيط، فانتقلت إلى موسكو، بعد انقضاء فترة قصيرة على الحفلة العتيدة، التي أنفذت الشطرَ الأول من خطَّتِها فيها؛ ونزلت عند أقاربها الأغنياء؛ آل روستوف، الذين درجت عادتها على الحلول بينهم، والذين نشأ عزيزها بوريس في بيتهم منذ طفولته، وظل يقطن عندهم حتى أصبح مؤخرًا حامل العلَم في فيلق الحرس، بعد أن كان في الجيش. وكانت فرقة بوريس قد بقيت في موسكو بانتظار أن تلحق بالفيلق الذي غادر بيترسبورج في العاشر من شهر آب في طريقه إلى رادزيوِيلو Radziwilow.

وكان آل روستوف يحتفلون ذلك اليوم بعيد القدِّيسة ناتالي، التي كانت ربة البيت وابنتها الصغرى تحملان اسمها، فكان رَتَلٌ متواصلٌ من العربات الأنيقة متوقفًا منذ الصباح أمام مسكنهم في شارع بوفارسكايا Povarskaià العتيد، الشهير في كل موسكو. وفي البهو كانت الكونتيس روستوف بصحبة ابنتها البكْر — وهي مخلوقة رائعة الجمال — تستقبل السَّيْلَ المتدفق من الزوار. كانت الكونتيس سيدةً في الخامسة والأربعين من عمرها، ذاتَ وجه نحيل يضفي عليها مسحةً شرقية، أرهقتها اثنتا عشرة ولادةً متتابعة، وترك طابع الكدِّ والتَّعب على تقاسيمها. وكانت حركاتها التعبة وأسلوبها البطيء في الحديث — نتيجةً لذلك الإرهاق — تعطيها لونًا من الوقار يفرض الاحترام على الآخرين. كانت الأميرة دروبتسكوي — نظرًا للأُلفة التي بينها وبين أصحاب الدار — تستقبل كذلك المدعوين كما لو كانت في بيتها، وتزكي الحديث. أمَّا الشبان من آل الدار، فكانوا

منصرفين عن الجو الرسمي، وكان الكونت يستقبل المدعوين ويشيِّعهم، داعيًا إياهم إلى تناول العشاء تلك الليلة.

كان يقول: تشرَّفت جدًّا يا عزيزتي أو يا عزيزي (وقد درجت عادة الكونت على أنْ يخاطب الجميع بـ «يا عزيزتي» أو «يا عزيزي» دون استثناءٍ أو تقديرٍ لمركز الشخص الاجتماعي) إنني أشكرك باسمي الشخصي، وأشكرك باسم اللتين نقيم الحفلَ من أجلهما، لا تتخلف عن العشاء؛ لأنني سأعتبر ذلك إهانة لي يا عزيزي، إنني أرجوك بإخلاص، وأدعوك باسم كل الأسرة.

كان يوجه هذا القول إلى الجميع، بصرف النَّظرِ عن كلِّ الاعتبارات الأخرى، دون أن تتبدَّل تعابير وجهه المنتفخ البشوش الحليق بتأنق، ويصافح الجميع بتلك اليَدِ القوية، وهو يكرِّر انحناءةً إثر أخرى. وكان كلما شيَّعَ زائرة، عاد قربَ التي أو الذي بقي في البهو، فيُدنِي مقعدًا بيُسْر الرجل الذي يحب أنْ يحيا حياة جميلة ويستمسك بهذا الشرط، ويجلس بنشاط متباعد الساقين، ممدًّا يديه على ركبتيه، ولان وهو ينتقل ببشاشة ومرح، يبدي تنبؤات عن الطقس، ويُسدِي النصائح حول الصحة، تارةً بالروسية وأخرى بالفرنسية؛ فرنسيته البغيضة القبيحة المطبوعة بالجرأة والطلاقة. ثم يعود ثانيةً — رغم تعبه — فيرافق الأشخاص، بحرص رب الدار الذي يضحي بالكثير في سبيل إتمام واجباته؛ فيشيِّع الزائر وهو يكرر دعوته للعشاء، ويسوِّي بيده شعيراته الشهباء القليلة المبعثرة على رأسه الأصلع. وكان أحيانًا — عند عودته من الرَّدْهة — يقوم بجولة بين بيت النباتات وجناح الخدم؛ ليدخل إلى قاعة الطعام الكبرى، التي تغطي قطعُ الرخام جدرانَها وأرضها، فيعاين المائدة المهيَّأة لثمانين مدعوًّا، ويلقي نظرة على أعمال الخدم، الذين كانوا يحملون الأطباق والأواني الخزفية والفضية، ويرتِّبونها على المائدة، أو يبسطون عليها الأغطية الموشَّاة؛ فينادي دميتري فاسيلييفيتش Dimitri Vassilvitch؛ وهو نبيل أخنى عليه الزمن، فأصبح يشرف على المؤنة وشئون مالية الكونت، فيقول له: انتبه يا ميتا، وافتح عينيك، اسهر على أن يكون كل شيء على أكمل وجه. ويضيف، عندما يتأمل المائدة الجبارة ذات الأطراف التي تسمح بتبديل طولها وَفْقَ رغبة صاحبها وعدد الآكلين، بنظرة ابتهاج: ممتاز! عال! إنَّ المائدة المنسقة تنسيقًا جميلًا، هي الأساس الأهم في حفلات الطعام. هيَّا، هذا حسن! ويعود إلى البهو وهو يزفر بارتياح.

أعلن تابع الكونتيس بصوت مدوٍّ راعد: ماري لفوفنا كاراجين وابنتها!

فقالت الكونتيس بعد لحظةِ تردُّد، وبعد أن غمست إصبعَها في علبة صَعُوطها المذهَّبة، التي تحمل صورة زوجها: إن هذه الزيارات ستسقمني وتقتلني! هيا، لنستقبل هذه المتظرفة المتصنعة، أدخِلها.

كانت بتلك اللهجة الآمرة، التي خاطبت بها التابع، كأنها تقول: «خلِّصني من ذلك، طالما أنت موجود!»

دخلت سيدة بدينة ضخمة، مترفعة الحركات، تتبعها ابنتها، بوجهها السمين الممتلئ المشرق، ترفلان في أثوابهما.

قالت أصوات نسائية بحماسٍ تُقاطِع بعضها بعضًا، وتمتزج بحفيف من الأثواب وضجيج القواعد: عزيزتي الكونتيس، لقد مضى زمن طويل ... لقد كانت ملازِمةً فراشها، طفلتي المسكينة ... في حفلة آل رازوموفسكي ... والكونتيس آبراكسين ... لقد كنت سعيدة جدًّا ...

وهكذا بدأت الثرثرة الطبيعية الاعتيادية، التي تطوف بالموجودين للوهلة الأولى ريثما تنهض المضيفة مُحْدِثةً لجَبًا وتقول: «إنني مُفْتتَنة بزيارتك ... صحة الماما ... والكونتيس آبراكسين ...» ثم يمر الصخب وحفيف الأثواب حتى يبلغ الرَّدْهة، وهناك ترتدي السيدة المشيعة دِثارَها وترتحل. يبدأ الحديث يدور حول الحدث الأول في العالم الراقي، وهو مرض العجوز الثري الكونت بيزوخوف، الذي كان من أجمل رجال عهد كاتيرين، والذي تصرَّف ابنه غير الشرعي بيير بتلك الطريقة الزرية المخجِلة، في حفلة آنَّا بافلوفنا شيرر.

قالت الزائرة الجديدة: إنني أَرثِي للكونت المسكين، إنه في حالة المرض التي هو فيها يتعرض لخطر الموت متأثرًا بفعالِ ابنه الطائشة.

سألت الكونتيس متظاهرةً بأنها تجهل تلك القصة التي سمعتها أكثر من خمس عشرة مرة: أية تصرُّفات طائشة؟

فاستطردَت الزائرة تقول: تلك هي قطوف التثقيف في هذا العصر، لقد تُرِك هذا الفتى لنفسه عندما كان في الخارج، وها هو الآن في بيترسبورج يرتكب — كما يقال — حماقاتٍ مروعةً، حتى إنَّ الشرطة اضطرت إلى إبعاده.

هتفت الكونتيس بدهشة: صحيح؟!

فتدخلت الأميرة دروبتسكوي قائلة: لقد أساء انتقاء أصدقائه، فلم يجدْ خيرًا من ابن الأمير بازيل، وآخَر يُدعى دولوخوف، لقد ارتكب ثلاثتهم — كما يقال — شتى أنواع الموبِقات، ونَجَمَ عن ذلك أنْ عُوقِب دولوخوف بإنزال رتبته من ضابط إلى جندي، وأن

أُبعِد بيزوخوف الشاب إلى موسكو، أما آناتول كوراجين، فقد اضطر هو الآخر إلى مغادرة بيترسبورج، ولولا تدخُّلُ أبيه ومركزُه، لَانتهت قضيته إلى ذيول خطيرة.

سألت الكونتيس مستفسرة: ولكن ماذا عملوا حتى استحقوا هذا؟

فأجابت الزائرة بلهجة التأكيد تقول: إنهم أشقياء حقًّا، وعلى الأخص دولوخوف، رغم أنه ابن ماري إيفاثوفنا دولوخوف، وهي شخصية محترمة. تصوَّري أن ثلاثتهم قد حصلوا — والله أعلمُ بالمكان — على دب، أرادوا حمله معهم في عربة إلى حيث يقطن بعض الممثلين، فلما تدخَّل رجال الشرطة بُغيةَ إعادتهم إلى صوابهم، اصطدموا بضابط القسم، فألقوه أرضًا، وربطوه ظهرًا لظهر مع الدب في نهر «الموييكا»، فراح الدب يسبح حاملًا ضابط الشرطة على ظهره.

هتف الكونت وهو يغرق في الضحك: تصوَّري موقفَه يا عزيزتي!

– يا له من أمر مريع! ما الذي تراه مُضحِكًا في الأمر يا كونت؟

غير أن النساء أيضًا لم يستطعْنَ — رغم تلك الملاحظة — الإبقاءَ على سيماء الجد في وجوههن.

استتْلَتْ مدام كاراجين: لقد لاقوا مشقة كبيرة في إنقاذ المسكين. تصوَّروا أن صانع تلك الفضيحة هو ابن الكونت سيريل فلاديمير وفيتش بيزوخوف، إنهم يزعمون أنه جم التهذيب والذكاء، هذه هي الحدود التي تقود إليها الثقافاتُ في الخارج، آمل ألَّا يستقبله أحد هنا رغم ثرائه، لقد أرادوا أن يقدِّموه إليَّ فقلت: كلَّا، شكرًا، إن عندي بنات.

سألتها الكونتيس وهي تنحني عليها: ثروته! ولكن أين تلك الثروة؟

وتظاهرت الفتيات الشابات بعدم الإصغاء، بينما استطردت الكونتيس: ليس للكونت سيريل إلا أولاد غير شرعيين على ما أعتقد، ولن يُستثنى بيير هذا من ذلك.

هتفت مدام كاراجين بلهجة مستهزئة: أولاد غير شرعيين! أعتقد أنَّ للكونت عشرين واحدًا على الأقل!

واعتقدت الأميرة دروبتسكوي أنَّ الفرصة مواتية لإظهار علاقاتها ومعلوماتها، فقالت بصوت منخفض، وعلى وجهها أماراتٌ توحي بأنها تعرف الأصول والفروع: إليكم المسألة؛ إنَّ سُمعةَ الكونت سيريل معروفة، ولا شكَّ أنه لا يعرف عددَ أبنائه، غير أنَّ بيير هذا مفضَّلٌ مصطفًى بينهم.

– أتعرفون أنَّ هذا العجوز الأنيق كان في العام الماضي على أحسن حال، وأنني لم أرَ قط أجمل منه رجلًا؟

فأجابت الأميرة دروبتسكوي وهي تعود إلى موضوعها: أوه! لقد تغيَّر كثيرًا، كنت أقول إذن إن بيير مفضَّل ومقرَّب إليه، ولقد عُني بتثقيفه، وكتب بشأنه إلى الإمبراطور، فإذا وقعت فاجعة — وهو في أرذل العمر وأسوأ النهايات، حتى إنهم استدعوا لوران من بيترسبورج — فإن ثروته، وتعدادها أربعون ألف نفس وعدد من الملايين، ستئول حتمًا إلى بيير، ويسبِّب ذلك خسارةَ الأمير بازيل الذي يُعتبر وريثًا مباشرًا عن طريق زوجته، كما حدَّثني بنفسه. إنَّ معلوماتي إذن مُستقاة من مصدر ثقة. أضِفْ إلى ذلك أنني، عن طريق أمي، أُعتبر — حسب العُرْف المتَّبَع في بريطانيا — حفيدةَ الكونت سيريل، ويُعتبر بوريس ابنَه بالمعمودية.

تفوَّهت بجملتها الأخيرة دون أن يبدو عليها أنها تتعمَّد أمرًا من وراء ذلك.

قالت مدام كاراجين: إنَّ الأمير بازيل هنا منذ البارحة في جولة تَفتيشيَّةٍ كما يشاع.

فأجابت الأميرة: نعم، ولكن التفتيش — والحديث بيننا — ليس إلا ذريعة، أما سبب سَفَرِه الحقيقي، فهو مرضُ الكونت سيريل الخطير.

هتف الكونت روستوف فجأةً: لقد تحدَّثتِ بالصدق يا عزيزتي، إنَّ الحكاية مضحكةٌ مسلِّية.

لكنه لما رأى الزائرة لا تصغي إليه، مال إلى الفتيات الشابات، وأردف: لا شك أنَّ موقف الضابط المسكين كان مضحكًا.

وأشفع قوله بإشارات من يديه، للدلالة على مدى سخط الضابط وغيظه المكتوم، وانفجر ضاحكًا ضحكة مجلجِلة مدوِّية؛ ضحكةَ رجلٍ أمضى كل عمره بين الطعام الجيد والشراب الأجود، فتجاوَبَ لها جسدُه السمين المنتفخ.

ثم اختتم حديثه قائلًا: لقد اتفقنا إذن، سوف ننتظرك لتناوُل العشاء معنا.

الفصل الحادي عشر

ناتاشا وبوريس

ران السكوت لحظةً، فلم تستطعِ الكونتيس إخفاء دلائل الارتياح الذي ستشعر به، إذا ما غادرتها الزائرة منصرفة، رغم الابتسامة المشجِّعة التي كانت توقفها عليها.

أخذت الآنسة كاراجين تستفسر أمها بالنظر، وتتأهب لمغادرة المكان، حينما ارتفع فجأةً صوت خطوات متهافتة، آتية من الغرفة المجاورة، ثم ارتطام مقعد منقلب، وفجأةً فُتِح الباب، وظهرت على عَتبتِه فتاةٌ في الثالثة عشرة من عمرها، تُخفِي وراءها شيئًا في طيَّات ثوبها القصير، المصنوع من قماش «الموصلين» الفاخر. توقَّفت الفتاة في مكانها، وقد أدهشها أن تكون اندفعت في جريها إلى ذلك المكان. وفي ذات اللحظة، بدا وراءها طالب ذو ياقة خمرية اللون، وضابط من الحرس، ثم فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، وغلام يرتدي سراويل قصيرة، ذو وجنتين مضرجتين ممتلئتين.

قفز الكونت فورًا، وراح يتأرجح في مشيته، ويلف ساقًا على ساق، ويباعد بين ذراعيه؛ ليقطع الطريق على الفتاة، صرخ وهو يضحك: آه! ها هي ذي بطلةُ حفلتِنا! يا فتاتي الصغيرة العزيزة!

وتصنَّعت الكونتيس الغضبَ وقالت: هناك وقت لكل شيء يا عزيزتي.

وأعقبت تخاطب زوجها: إنكَ تُفسِدها كثيرًا يا إيلي.

هَتَفَت مدام كاراجين: مرحبًا يا عزيزتي، أهنِّئك.

ثم أعقبت تخاطب الأم: يا لها من فتاة لطيفة!

لم تكن الفتاة الصغيرة، ذاتُ العينين السوداوين والفم الكبير، على شيء من الجمال، ولكنها كانت تتفجَّر بالحياة. كان انطلاقها في الجري قد بعثر خصلات شعرها الأسود، المنسدل إلى الوراء، وأبرزَ كتفيها الناحلتين تحت ثوبها. كانت ذراعاها الدقيقتان عاريتين، وساقاها الصغيرتان تبرزان خلال سراويل من «الدانتيلا» تصل حتى حذاءَيْها المكشوفين.

كانت في ذلك السن الباسم الذي لا تكون الفتاة فيه طفلة، ولا تكون الطفلة فيه في مصافِّ الفتيات الشابات. أفلتت من الكونت، وهرعت تخفي وجهَها البسَّام المتورِّد في ثوب أمها، التي لم تفلح ملاحظتها القاسية في ترويعها. كانت — ولا شك — تفكِّر في أمرٍ مضحك مثير؛ إذ إنها أخرجتْ من بين طيَّات ثوبها لعبةً وغمغمت تقول: أَلَا ترين؟ لعبتي ... ميمي. أَلَا ترين؟

وعجزت الصبية ناتاشا عن متابعة حديثها؛ إذ اجتاحتها موجة الضحك التي سَرَتْ منها إلى الآخرين، عندما أطلقت ضحكة رنَّانة، تجاوبت أصداؤها في القاعة، واستجاب لها الموجودون بما فيهم الزائرة ذات المظاهر المتعالية.

قالت الأم وهي تتصنع الغضب: اذهبي، اذهبي واحملي معك هذه السماجة.

ثم خاطبت مدام كاراجين قائلة: إنها صغرى بناتي.

سألتها هذه متقربةً: قولي لي يا صغيرتي ناتاشا، ما هي قرابتك مع هذه الميمي؟ إنها — بلا ريب — ابنتك؟

كانت تعتقد أنها بذلك السؤال تتقرَّب من الفتاة، لكن دعابتها السمجة لم ترُقْ لناتاشا التي ألقت عليها نظرةً قاتمة دون أن تجيب.

وفي تلك الأثناء، احتلت الشبيبة: بوريس (وهو الضابط ابن الأمير دروبتسكوي)، ونيكولا (وهو الطالب ذو الياقة الخمرية وابن الكونت البكر)، وسونيا ابنة أخت الكونت، وبيتروشا الصغير (وهو أصغر أبنائه)؛ مكانَها في البهو. كانت وجوههم تطفح بالابتسام والإشراق، رغم أنهم بذلوا جهودًا جبارة لكبْتِ ضحكاتهم؛ احترامًا للرسميات التي يقتضيها الموقف. كان يبدو على وجوههم بوضوح أنهم كانوا في تلك الحجرات البعيدة غارقين في مشاريعَ أكثرَ تسليةً وقبولًا ألفَ مرةٍ مما عليه الحال في البهو الكبير، من ثرثرات ولغط، وحديث عن الطقس وعن الكونتيس آبراكسين وآخِر الفضائح. كانوا يتبادلون نظرات متآمرة وهم يكتمون ضحكاتهم.

كان الشابان، الضابط والطالب، صديقَيْن منذ الطفولة، وكان كلاهما يتمتع بجمال بديع، لكنهما كانا يختلفان عن بعضهما اختلافًا مرموقًا؛ كان بوريس طويل القامة، أشقر، ذا تقاطيع دقيقة متناسقة ومنبسطة. أما نيكولا، فكان على العكس، قصيرَ القامة، أجعد الشعر، ذا سحنة مشرقة مطبوعة بحَمِيَّة شديدة فوَّارة، كانت شفته العليا مظلَّلة بشارب خفيف أسود، تضرج وجهه عندما دخل إلى البهو، وراح يحاول عبثًا تبريرَ سلوكه. أما بوريس، فكان على العكس، لقد استعاد هدوءَه بسرعة، وعاد إليه بِشْره، فراح يروي

القصةَ بصوتٍ مِلْؤُه المجون والسكون. قال إنه عرف تلك «الميمي» صبيةً جميلةً سليمةَ الأنف، لكنه — ولدهشة — وجدها بعد خمس سنوات قد شاخت بسرعة، حتى إنها حطَّمت جمجمة نفسها. وبعدئذٍ ألقى على ناتاشا نظرةً لم تستطِعْ هذه احتمالها، فاختلست نظرةً إلى وجه أخيها الذي كانت ضحكته مكتومةً تهز جسده بعنف، وهو مغمض العينين، وفجأةً قفزت هاربةً من القاعة، وقد فقدت السيطرة على نفسها نهائيًّا، غير أنَّ بوريس لم يتحرك. قال يخاطب أمه: كنتِ تريدين الخروج للنزهة يا أماه، فهل أجهز لكِ العربة؟

وابتسم لأمه ابتسامة محببة ردَّتْها له من فورها بأجمل منها، وقالت: هو ذاك، اذهب واقطر الخيول إليها.

ومضى بوريس بخطوات هادئة يبحث عن ناتاشا. أما الشاب القصير، فإنه جرى على أعقابهما وعلى وجهه آياتُ التبرُّم، شأن من أغضبه بعضُهم بإزعاجه في غمرة أعماله الهامة، بتفاهات!

الفصل الثاني عشر

ثرثرة وحديث

باستثناء الآنسة كاراجين، وابنة الكونتيس البكر، التي كانت تزيد على أختها بأربع سنين، وتُقلِّد حركات الكبار المسنين؛ لم يبقَ في البهو ممثِّلًا عن الشبيبة إلا نيكولا وابنة عمه سونيا، تلك السمراء النحيلة، رقيقة العود، التي كانت تحيط رأسَها بضفيرة ثقيلة من شعرها دارت حوله دورتين، وجاءت تنعقد أخيرًا عند منبت الشعر. كان جلدها زيتوني اللون، فاتحًا عند وجهها، على عكس ظهوره الصارخ عند عنقها وذراعيها العاريين، اللذين أهزلتهما «العصبية»، لكنها لم تكن خاليةً من الجاذبية والبهاء. كانت خفيفةَ الظل، لَدْنَةَ الأعضاء مرِنتَها، تعطيها بعض الحركات التي لا تخلو من مكرٍ مظهرَ القطة الصغيرة الجميلة التي لا زالت خشنة بعض الخشونة، ولكنها بالمقابل تبشِّر بمستقبل يُنْبئ بأنها ستصبح هرَّة بديعة فتَّانة. تظاهرت بأنها تشعر باهتمام للحديث العام الدائر بالبهو، لكنها لم تستطع التمويه على أحد، بأن تجعل ابتسامتها — التي كانت منطبقةً على شفتَيْها — تُشعِر بذلك الاهتمام، خصوصًا وأن تبادُل النظرات بينها وبين ابن عمها — تلك النظرات التي كانت ترمقه بها خلال أهدابها الطويلة — أظهرَ بوضوحٍ أنَّ القطة الصغيرة لم تمكث هناك إلا لتمرح مع ابن عمها الذي يتعشَّق حياة الجيش، حالما يحذوان حذوَ بوريس وناتاشا، فيخرجان بدورهما من البهو ليختليا ببعضهما، مُضلِّلَيْن الكبارَ الذين يتحدثون في البهو.

كان الكونت العجوز يحدِّث السيدةَ كاراجين مشيرًا إلى ابنه: نعم يا عزيزتي، ها هو ذا صديق بوريس، لقد رُقِّيَ صديقه إلى رتبة ضابط، فلم يرغب «نيكولاي» في البقاء متخلفًا؛ لذلك فقدْ أهمل دراسته وأباه الهَرِم، والتحق بالخدمة يا عزيزتي. كان ينتظره مركز ممتاز في الإدارة، يبشِّر بمستقبل بسَّام، يا لها من صداقة جميلة! أليس كذلك؟

قالت مدام كاراجين: يزعمون أنَّ الحرب قد أُعلنت.

فأجاب الكونت: إنهم منذ زمن يتشدَّقون بهذا القول، حتى باتت أعصابنا مرهقة من كثرة التكرار.

وكرر ملمِّحًا إلى جملته الأولى: يا للصداقة الجميلة! أليس كذلك؟ لقد دخل في فيلق الخيَّالة.

لم تستطع مدام كوراجين التخلص من ورطتها إلا بهز رأسها، فبان نيكولا يجيب بدلًا عنها في شيء من الاحتداد؛ إذ بدا تفسير أبيه لسلوكه على شيء من القسوة. قال: ولكن، لا علاقة للصداقة بالأمر، إنَّ الجيش يجتذبني، وهذا هو السبب.

وألقى على ابنة عمه وعلى الآنسة كاراجين نظرةً، فأيَّدتاه كلتاهما بابتسامة.

قال الكونت وهو يهز كتفَيْه: إنَّ الكولونيل شويبرت مدعو لتناول العشاء عندنا، إنه قائد فرسان بافلوغراد، إنه عندما ينهي عطلته سيأخذ ابني الشقي معه، ماذا أقدر أنْ أعمل؟

كان يتكلم بلهجة مازحة، لكنه كان واضح الانشراح للحادث الوشيك.

قال الابن: أكرر عليك القول يا أبي، إنك إذا كنت لا ترغب في ذهابي، بقيتُ في جانبك، غير أنَّ الحظيرة العسكرية هي وحدها التي تروق لي. إنَّ السياسة والإدارة لا تصلحان لي؛ لأنني لا أستطيع إخفاء عواطفي وشعوري.

لم يكُفَّ لحظة — خلال هذا القول — عن النظر إلى الفتيات بتظرُّف الشباب الجريء، وكانت القطة الصغيرة تلتهمه بنظراتها، تكاد أن ترتمي عليه، وأن تكشف عن طبيعتها المكبوتة.

قال الكونت العجوز: لا بأس، ذلك حسن! ينبغي على كلِّ حال أن يتبع طموحه، إن بونابرت هو الذي يدير رءوسهم جميعًا؛ ملازم أول يصبح إمبراطورًا! إن هذا هو حلمهم، أليس كذلك؟ ليكن، على مشيئة الله.

أنهى الكونت كلماته دون أن يلاحظ الابتسامة الساخرة التي رفرفت على فم مدام كاراجين.

وتحوَّل موضوع حديث الكبار إلى بونابرت وقضاياه الشائعة، فانتهزت جولي — ابنة مدام كاراجين — هذه الفرصة، والتفتت إلى روستوف الشاب تقول بحنان: كم كان مؤسفًا أنك لم تحضر الخميس المنصرم إلى حفلة آل آرخاروف! لقد سئمت جدًّا بدونك!

جلس نيكولا بجانب جولي التي لم تكن تقلُّ عنه ابتسامًا، كان حديثها قد أرضى غروره، فجلس إلى جانبها وعلى شفتَيْه تلك الابتسامة؛ ابتسامة الشباب الماجن، وراح

يتحدث معها حديثًا خاصًّا، لم يلحظ خلاله أن تظرُّفه المبتذَل كان وقْعَ الحسام في قلب سونيا التي كانت تتحرَّق من الغيرة، وتحاول عبثًا إخفاءَ ما بها بإظهار الوداعة والانشراح. وفجأةً، رفع أبصارَه إلى وجهها؛ وعندئذٍ صعقته سونيا بنظرة تتصارع العاطفة فيها مع الغضب والغيظ، ثم أمسكت دموعها بجهد بالغ، واستبْقَتْ على شفتيها طيفَ ابتسامة وغادرت البهو، فخبا حماس نيكولا دفعة واحدة. قطع حديثه مع جولي حالما أُتِيحَ له ذلك دون أن يخدش شعورَها، ومضى وعلى وجهه أماراتُ القلق، يبحث عن سونيا.

قالت آنا ميخائيلوفنا مشيرةً إلى نيكولا الذي كان يغادر القاعة: كما تبدو أسرارُ الشبيبة مفضوحةً ظاهرة! إن قرابةَ العمومة جوارُ خطر!

فقالت الكونتيس، عندما خبا الإشعاع الذي تسلَّل إلى القاعة مع الشبان الذين غادروه: نعم.

ثم أجابت على سؤال لم يكن أحد قد طرحه عليها، بل كانت تشعر بإلحاحه يؤرِّقها: كم من مزعجاتٍ وقلقٍ احتملنا حتى باتوا اليومَ يشيعون في نفوسنا بعض البهجة! ثم إنَّ هذه البهجة يُفسِدها الخوف؛ أيْ إننا لَنقضي حياتنا كلها في العذاب؛ لأنه في مثل هذه السن يتعرَّض الشبان والفتيات لأشد الأخطار.

قالت الزائرة: إنَّ الأمر متوقف على تربيتهم.

أجابت الكونتيس، وهي تتصور أنَّ أولادها لا يُخفون عنها سرًّا — شأنَ كثير من الأمهات: لا شكَّ! لقد كنتُ دائمًا صديقةَ أولادي، وهم يثقون بي ثقةً عمياء، سأكون أبدًا موضع سرِّ فتياتي. أما نيكولا، فإنه بطبيعته الثائرة مُرغَمٌ على أن يُرفِّه عن نفسه على شكلٍ ما، ككل الشبان، لكنه لا يمكن أن يتجاوز الحدودَ كأولئك السادة في بيترسبورج. إنني واثقة من ذلك.

وأيَّدها الكونت بقوله: نعم، إنهم ذوو طبيعة ممتازة (وكلمة «ممتازة» هذه، كانت تعطي للكونت حَلًّا لكثير من المسائل الشائكة) صدقي، إنه يريد الالتحاق بقطعات الخيالة! ماذا تريدين مني أن أعمل يا عزيزتي؟

قالت مدام كاراجين: يا لها من مخلوقة رائعة؛ ابنتك الصغرى! إنها جيَّاشة كالبارود.

فقال الكونت: نعم كالبارود، إنها تشبهني، ويا لجمال صوتها يا عزيزتي؟ صحيح أنها ابنتي، ولكن الحقيقة هي الحقيقة، ستصبح مغنية حقيقية، سالوموني الثانية، إننا نعطيها دروسًا على يَدِ إيطالي.

– أليست في سنٍّ مبكِّرة بعد؟! يقال إنَّ دروس الغناء في مثل هذه السن تتلف الصوت.

هتف الكونت: كيف مبكِّرة؟ ألم تتزوج أمهاتنا في سنِّ الثاني عشر أو الثالث عشر؟!

وقالت الكونتيس، وهي تعلن عن ابتسامة مشرقة لأم بوريس: وها هي ذي ببوريس! افتحي عينيك قليلًا!

وعادت إلى شاغلها الرئيسي في الموضوع وأردفت: لو أنني شددت المراقبة عليها وضعتها من ... لَكان الله وحده يعرف ماذا يمكن أن تعمل في الخفاء معه (كانت تريد أن تقول أنهما كانا سيتعانقان ويقبِّلان بعضهما)، أما على هذه الحرية التي أطلقها لها، فإنني أعرف كل مشاريعها وأفكارها، إنها تأتيني كل مساء لتقصَّ عليَّ كلَّ ما يقع لها في بحر النهار، قد أكون مخطئة في تصرفي الذي قد يفسدها، لكنني لا أبالي، إنَّ هذا خير من النتائج الأخرى على ما يبدو لي، لقد راقبت البكر مراقبةً شديدة من قبل.

فقالت البكر، الكونتيس فيرا الجميلة، باسمة: نعم، لقد أُنشِئت على نمطٍ مختلف تمامًا.

كانت الابتسامة التي من عادتها أنْ تجمِّل الوجوه، تُضفِي على فيرا لونًا عكسيًّا غير طبيعي، منفرًا تقريبًا. كانت فيرا جميلةً ذكيةً مثقفةً وحسنةَ التربية، وكان لصوتها وقْع جميل؛ مع ذلك، فإن ملاحظتها — رغم ملاءمتها وصحتها — أَلْقَت على السامعين وشاحًا من الفتور، فنظروا إليها جميعًا، ابتداءً من الكونتيس ومدام كاراجين، نظرة مستنكرة مستغربة.

قالت مدام كاراجين: إنَّ الأمهات يسْعَيْنَ دومًا إلى إنشاء أبكارهن بكل تدقيق وعناية وحرص.

قال الكونت: آه، نعم يا عزيزتي؛ إذ ما فائدة الإنكار؟ لقد تصرَّفتْ كونتيستي الصغيرة حيال فيرا بحرص زائد وعناية دقيقة.

ثم تمالك نفسه وأردف، وهو يغمز لابنته بنظرة ودِّيَّة لطيفة: ثم إنَّ التجربة نجحت نجاحًا باهرًا.

نهضت الزائرات، ووعدن بالعودة لتناول العشاء.

قالت الكونتيس، بعد أنْ شيعتهن حتى الباب: يا لها من أساليب وتصرُّفات سخيفة! هل يُسمَح للمرء البقاء كل هذا الوقت؟! لو لبثنَ وقتًا آخر لَنَبَتَتْ لهن جذورٌ هنا!

الفصل الثالث عشر

غرام الصغار

لم تذهب ناتاشا بفرارها الأهوج بعيدًا، اختبأت في بيت النباتات تنتظر بوريس، وراحت تُصِيخ السمعَ إلى الضجيج الذي كان يتعالى من البهو. أدركها الملل، فراحت تريح ساقًا وتعتمد على الأخرى، وقد نفد صبرها، وكادت أن تبكي. وفجأةً، تناهى إلى سمعها صوتُ خطوات متزنة، لا بطيئة ولا سريعة، عرفت ناتاشا منها أنَّ فتاها يقترب من مكانها، فاختبأت وراء أُصص الزهور.

وقف بوريس في منتصف الحديقة الشتوية، وراح يتفحص أركانها بأبصاره، وينفض الغبار عن كمه بطرف سبابته، ثم اقترب من المرآة الكبيرة، وراح يتأمل طلعته البهية فيها. لبث برهةً أمام المرآة، ثم ابتسم ومضى إلى الباب الآخَر. كادت ناتاشا أن تناديه، لكنها فكَّرت في نفسها برهةً، وقالت في سرها: «كلَّا، ليبحث عني!» ولم يكَدْ بوريس يغادر بيت النباتات حتى دخلت سونيا فجأةً، مضرجة الوجه، تُتمتِم خلال دموعها وتلعن. همَّت ناتاشا للوهلة الأولى أن تُلقِي بنفسها على عنق ابنة عمها، لكنها تمالكت أعصابها من جديد، وراحت من مخبئها تراقب سير الحوادث بسكون المتآمرين. شعرت بسرورٍ لم تعهد مثله من قبل، وهي تتأمل تتابُع الأحداث دون أنْ يراها أحد. رأت أن سونيا — التي لم تكفَّ عن اللعن والبكاء — ترقب بلهفةٍ بابَ البهو، الذي لم يلبث نيكولا أنْ بدا على عتبته.

جرى نحوها وهو يقول: سونيا! ماذا بك؟ هل يجوز لكِ أن …

فأجابته، وهي تنشِجُ بالبكاء: ليس بي شيء، دعني. ليس بي شيء، دعني.

– بلى، إنني أعرف ما بك.

– أتعرفه؟! حسنًا، هذا أفضل! امضِ إلى صديقتك الأخرى!

أمسك نيكولا بيدها، فلم تمانع سونيا، وكفَّت عن البكاء، فقال: سونيا! كلمة واحدة فقط. إنك تتخيلين أشياء سخيفة، هل يجوز لنا أنْ نتعذَّب من أجل هذه التفاهة؟!

لبثت ناتاشا جامدةً في زاويتها، ملتمعةَ العينين، مبهورةَ الأنفاس، تراقب ذلك المشهد بلهفة وتلذُّذ.

راحت تتساءل: تُرى، ماذا سيحدث؟!

استطرد نيكولا يقول: سونيا، ماذا يهمنا؟ العالم؟! ألستِ كل شيء بالنسبة لي؟! سوف أثبت لكِ ذلك.

– إنني لا أحب أن تتحدث هكذا.

– صفحًا وعذرًا، لن أعود إلى مثله.

ثم جذبها إلى صدره وقبَّلها.

فقالت ناتاشا في مخبئها تحدِّث نفسها: «آه! كم هذا لذيذ!» فلما غادرت سونيا غرفةَ النباتات بصحبة نيكولا، غادرت مكانها تبحث عن بوريس.

قالت له بلهجة فيها طابع الجدِّ والمكر: بوريس، تعالَ، لديَّ ما أقوله لك. تعالَ من هنا، من هنا.

وعادت معه إلى الحديقة الشتوية، وجذبته إلى حيث كانت مختبئة وراء أُصص الزهور، فتبعها بوريس باسمًا، قال: حسنًا، ماذا هناك؟

كانت شديدةَ الانفعال، متحفِّزةَ العواطف، فراحت تفحص ما حولها بعينيها، ولما وقع بصرها على دميتها التي كانت ملقاةً على أحد الصناديق، التقطتها وقالت له: قبِّلْ ميمي.

لم يُجِب بوريس، لكنه كان يدقِّق في وجهها المتيقظ بنظرة ودية. قالت وهي تُلقي بدُميتها بعيدًا: أَلَا تريد؟ إذن، تعالَ من هنا.

وتغلغلت بين النباتات، وهمست: اقتربْ، ازددْ قربًا!

أطبقت بيديها الاثنتين على أشرطة ثوبه، وراح وجهها المحموم يزداد خطورةً وقلقًا.

تمتمت وهي تكاد أنْ تبكي من الانفعال: وأنا! أَلَا تريد أن تقبِّلني؟

وأشفعت قولها بغمزةٍ مُغرية.

فاحمرَّ وجه بوريس وقال: كم أنتِ مضحكة!

انحنى على ناتاشا، فازداد وجهه احمرارًا، لكنه لم يجرؤ على تقبيلها.

وفجأةً، قفزت فوق أحدِ الصناديق، وبذلك استطاعت أنْ تنوف عليه؛ وعندئذٍ، ألقت بذراعيها العاريتين حول عنقه أسفل رأسه، وأرسلت شعرها إلى الوراء بحركة عنيفة من رأسها، ثم أكبَّتْ بوجهها عليه، وقبَّلته في شفتيه.

ونفرت إثرَ ذلك بين أُصص الزهور، وانتظرت عند الطرف الآخر من الغرفة، مُطرِقةَ الرأس.

قال بوريس: ناتاشا، إنك تعرفين أنني أحبك ولكن ...

فقاطعته قائلة: هل تهواني؟

– نعم، إنني أحبك، لكنني أرجوكِ ألَّا نعود إلى مثل ذلك. لننتظرْ أربع سنين أخرى، وعندئذٍ سأطلب يدك.

فكَّرت ناتاشا برهة، وقالت وهي تَعدُّ على أصابعها: ثلاثة عشر، أربعة عشر، خمسة عشر، ستة ... ليكن! اتفقنا!

كان السرور يشرق على وجهها الذي عاد إلى بهائِهِ وصفائه.

قال بوريس: لقد اتَّفَقنا.

فقالت الفتاة: إلى الأبد! حتى الموت!

وأمسكت بذراعه وهي شديدة الاغتباط والبهجة، وراحت ترافقه في طريقها إلى مخدعها.

الفصل الرابع عشر

الصديقتان

أعيت تلك الزيارات المملة الكونتيس روستوف، فأمرت الحاجب بألَّا يُدخِل عليها أحدًا، على أنْ يدعو كل الزوار الذين سيتقدَّمون بتهانيهم — دون تفضيل — إلى تناول العشاء على مائدتهم ذلك المساء. كانت تتلهَّف للبقاء وحيدةً مع صديقة طفولتها، الأميرة دروبتسكوي، التي لم تكن قد تحدَّثت إليها بحُرية منذ أنْ عادت من بيترسبورج، ولبثت آنا ميخائيلوفنا تحتفظ بعذوبة تقاطيعها، التي لم تخلُ من طابع اليأس والشكوى، وقرَّبت مقعدها من زميلتها. قالت: سوف أتحدث إليكِ بكل إخلاص، إننا لا زلنا صديقتين حميمتين كما كنا من قبل، أليس كذلك؟ إنني أقدِّر صداقتك حقَّ التقدير من أجل ذلك.

واسترَقَتْ نظرةً إلى حيث كانت فيرا وتوقَّفت، فضغطت الكونتيس على يَدِ صديقتها، وقالت تحدِّث ابنتَها الكبرى التي لم تكن — ولا شك — شديدةَ العطف عليها: فيرا، أَلَا تستطيعين الفهم؟! أَلَا تشعرين بأن وجودك بات فائضًا؟! اذهبي إلى حيث شقيقاتك أو …

لم تَستعِذبْ فيرا الملاحظة، لكنها مع ذلك لم تعترِضْ إلا بابتسامة فيها لامبالاة وترفُّع، قالت وهي تنهض: لو نوَّهتِ لي بذلك من قبل، لَكنتُ الآن بعيدة عن هنا يا أماه.

وبينما كانت تجتاز غرفةَ الجلوس قاصدةً غرفتها، توقَّفت عندما رأت أمام كل نافذة اثنين يتناجيان، فابتسمت بمرارة. كان نيكولا جالسًا إلى جانب سونيا، يقرأ عليها باكورة نَظْمه الذي استلهمه منها وينسخه. أما بوريس وناتاشا فكانا يتجاذبان أطراف الحديث. صمتوا جميعًا عند ظهور فيرا، وراحت الفتاتان العاشقتان تنظران إليها بضِيقٍ وتبرُّم، دون أنْ تذهب البشاشةُ عن وجهَيْهما، وبدا ذلك المشهد المؤثر المضحك متنافيًا مع ذوق فيرا التي قالت موبِّخة: كم مرة رجوتكما ألَّا تمسَّا أشيائي! إنَّ لكما غرفتكما الخاصة.

فأجاب نيكولا متوسلًا، وهو يغمس الريشة في الدواة التي حاولت رفعها من أمامه: لحظة واحدة فقط.

قالت فيرا: لا شكَّ أنَّ الذوق يعوزكم! إنَّ دخولكم إلى البهو مثلًا لم يُخجِلكم، لقد شعر الجميع بالخجل لتصرُّفكم.

كانت الملاحظة محِقَّة. رغم ذلك — أو لعله بسبب ذلك — لم يُجِبِ الأربعةُ إلا بتبادل النظرات.

أردفت فيرا: ثم في مثل سنكم! أية أسرار يمكن أن تكون بينكما، أو بين ناتاشا وبوريس؟ إنْ هذه إلا سخافات وترهات!

تدخَّلت ناتاشا في الموضوع، وسألتها بلطف وهي مستعدة لمقابلتها باللطف واللين: ماذا يعنيك كل هذا يا فيرا؟

– إنَّ كلَّ هذا سخيف، وإنني لَأخجلُ منكم، ما معنى هذه الأسرار؟

أجابت ناتاشا في شيء من الانفعال: لكلٍّ أسرارُه، إننا لا نتدخَّل في شئونك مع بيرج وما تفعلينه معه!

أجابت فيرا: لا ينبغي إلا هذا! وكأنَّ في سلوكي ما يُؤخَذ عليه! انتظري قليلًا، سوف أقول لـ «ماما» كيف تتصرفين مع بوريس.

قال بوريس: إنَّ ناتالي إيلينيتشا تتصرَّف تصرُّفًا ممتازًا معي، إنني لا أستاء من تصرُّفها.

هتفت ناتاشا بصوت متهدج من الانفعال: اصمت أنت يا بوريس، إنك شديد «الدبلوماسية»، وقد بدأ هذا يزعجني!

وكانت كلمة «الدبلوماسية» شائعة، ومن أحدث طراز بين الأولاد الذين كانوا يعطونها معنًى خاصًّا.

أردفت تهاجم فيرا بشدة قائلة: ماذا تريد مني هذه؟ إنك لا تفقهين شيئًا، إنك لم تحبي أحدًا قط، إنك محرومة من القلب، إنك لست إلا مدام دوجانليس[١] — وهذا كان اللقب الذي اصطلح نيكولا على إطلاقه على أخته لتجريحها — إنَّ غاية سرورك هي تسبيب الإزعاجات والإساءات للآخرين. هيا اذهبي إلى بيرج، وتظرفي ما شئتِ معه.

– إنني، على كل حال، لا أجري راكضةً وراءَ شابٍّ أمام المدعوين.

---

[١] هي السيدة ستيفاني فيليسيتي دوجانليس، مدرِّسة أبناء الدوق دورلبسان، ومؤلفة كُتب عن التربية (١٧٤٦–١٨٣٠)، والتورية ظاهرة في هذه التسمية. (المترجم)

قال نيكولا: ها قد بلغتِ غايتك من الكلام، إنكِ أسففتِ بحقِّنا جميعًا، ولقد أفسدتِ مرحنا. هيا بنا إلى غرفة الأطفال.

ونفر الأربعة وكأنهم رف طير مذعور، فلاحقتهم فيرا بقولها: بل إنكم أنتم الذين وجَّهتم إليَّ إسفافًا وحماقات، إنني لم أخاطِب أحدًا بمثلها.

وتعالت من وراء باب الحجرة المغلَق أصواتٌ هازئة تقول: مدام دوجانليس! مدام دوجانليس!

غير أنَّ فيرا الجميلة لم تبالِ بذلك، لقد أرضاها أنها أحفظتهم وأحنقتهم، فابتسمت وتوقَّفت أمام المرآة تُصلِح من غطاء رأسها (إيشارب) وزينتها. ولما انعكس بهاء وجهها على صفحة المرآة، ازداد إشراق وجهها، وتزايدت برودتها.

خلال ذلك، كانت الصديقتان تتناجيان في البهو. كانت الكونتيس تقول جوابًا على حديث الأميرة: آه يا عزيزتي! إنَّ في حياتي أيضًا كثيرًا من الأشواك، إننا إذا لبثنا على ما نحن عليه من إنفاق، فلن تلبث ثروتنا حتى تنضب بعد قليل، والخطأ في هذا خطأ النادي وطِيبة قلبه. إننا لا نعرف الراحة والهدوء حتى في الريف؛ حفلات وصيد وقنص، واللهُ يعرف ماذا أيضًا! ولكن ما فائدة التحدث عني؟ أنبئيني كيف تتدبرين شأنك؟ أتدرين يا آنيت أنني أُعجَب بك غالبًا؟ امرأة وحيدة وفي مثل سنك، تجري من مكانٍ إلى آخر، من موسكو إلى بيترسبورج، فتحدِّث الوزراء وكلَّ أفراد الطبقة الراقية، وتجد دائمًا اللهجة المناسبة للحديث. حقًّا إنني معجبة بك. إنني لَأرتبك أشدَّ الارتباك لو وجب عليَّ فعل ذلك.

أجابَتِ الأميرة: آه يا عزيزتي! اشكري الله على أنه أراد لك أن تبقَيْ جاهلة، ألمُ الترمُّل وبؤسه، وشقاء الوحدة وفقد السَّنَد، وعلى ذراعَيْك ابنٌ تحبينه لدرجة العبادة. إنَّ التعاسة مدرسةٌ ممتازة.

وأردفت في شيء من الفخار: إنَّ دعواي قد هذَّبتني وعلَّمتني. إنني عندما أضطر إلى مخاطبة شخصية رفيعة، أرسل إليه كلمة على بطاقة: «إن الأميرة فلانة، ترغب في رؤية سيدي فلان أو فلان.» ثم أستقل عربةً، وأذهب إلى حيث أراه، وأعيد الكرَّة مَثْنى وثُلاث، حتى أظفرَ بما أريد. إنَّ ما يقوله الناس وما يتخرَّصون به عني لا يهمني في شيء.

– ومَن التمستِ من أجل بوريس؟ ها هو ذا ضابط في الحرس، بينما صغيري نيكولا قد انخرط صف ضابط فقط في فيلق الخيَّالة. إنَّ ابني لا يجدُ مَن يدعمه ويزكِّيه. مع مَن تحدَّثتِ بشأن ابنك؟

قالت آنا ميخائيلوفنا بلهجة متباهية: مع الأمير بازيل، يا له من رجل ظريف! لقد قبِل طلبي من فوره، وتحدَّث إلى الإمبراطور.

نسيت الأميرة، وهي تتحدَّث عن انتصارها، مبلغَ الضراعة والتوسُّل والإهانة التي لحقت بها، والتي يرجع إليها الفضل في نجاحها.

سألت الكونتيس: الأمير بازيل؟ أَلَم يَهرم بعد؟ إنني لم أرَه منذ أن كنَّا نتقابل في حفلاتنا لدى آل رومیانتسيف، قد يكون نسيني.

وأردفت بابتسامة مَن يُحيِي ذكرياته العذبة: لقد كان يغازلني!

أجابت آنَّا ميخائيلوفنا: إنه لا زال كعهدكِ به؛ لطيفًا، صدوقًا. إنَّ العظمة والمراكز الجليلة لم تفعل فعلها في نفسه. لقد قال لي: «إنني آسف إذا كنتُ لا أستطيع من أجلك شيئًا كثيرًا، ولكن مُريني يا أميرتي العزيزة، أَمتثِل.» نعم، إنه رجلٌ وَدودٌ وقريبٌ مُمتازٌ. إنك تعرفين يا ناتالي حبي لولدي، وتعرفين أنني لا أتراجع عن شيء في سبيله.

وصمتت برهةً، ثم أضافت بلهجة حزينة كئيبة وبصوت منخفض: ولكن للأسف، أراني في وضعية مريعة سيئة، إنَّ دعواي لا زالت حيث هي، لم تتقدم، وهي تستنفد كلَّ ثروتي، وإنني الآن لا أملك شَرْوَى نَقير لأدفع لابني بوريس تجهيزاته.

وأخرجت منديلها لتجفِّف دموعها واستطردت: إنني في حاجة إلى خمسمائة روبل لهذه الغاية، بينما لا أملك إلا خمسة وعشرين روبلًا، تلك هي وضعيتي. إنَّ أملي الوحيد هو عند الكونت سيريل بيزوخوف، فإذا ما شاء أن يساعد ابنه في المعمودية — إنه شبين بوريس إذا كنتِ لا تعلمين — وإجراء مرتَّب معين له، فإن كلَّ جهودي تكون قد ذهبت هباءً؛ لأنني لن أستطيع تجهيزه.

راحت الكونتيس بدورها تشاطِرها البكاء، لم تتلفظ بكلمة، ولكنها كانت تفكِّر.

تابعت آنا ميخائيلوفنا تقول: إنني أحدِّث نفسي غالبًا، ولعله حديث سيئ، فأقول: إنَّ الكونت سيريل يعيش وحيدًا في زاويته، وهو جمُّ الثراء واسعُ الغنى. فلِمَ يعيش إذن؟! إن الحياةَ ليست إلا عبئًا بالنسبة إليه، أمَّا في سن بوريس …

قالت الكونتيس: سوف يترك له — ولا شك — شيئًا.

– عِلْم ذلك عند الله يا صديقتي الحميمة! إنَّ الرجال الأغنياء والسادة العظام أنانيون بفطرتهم. على كل حال، سأذهب مع بوريس لأراه وأتحدَّث إليه بصراحة. ليتحدثوا عن تصرُّفي بما يشاءون، لست مبالية؛ لأن مستقبل ولدي يتوقف على ذلك.

ونهضتْ واقفة، وتابعت: إنَّ الساعةَ الآن الثانية، وحفلتُك تبدأ في الرابعة؛ وإذن، فإن لديَّ ما يكفي من الوقت.

واستدعت ابنها على الفور، شأن السيدة التي عادت لتوِّها من العاصمة وهي عارفة بقيمة الوقت، وانصرفت تشيِّعها الكونتيس حتى الردهة.

وهمست في أذن الكونتيس محاذِرةً أن يسمع ابنها: وداعًا يا صديقتي الطيبة، تمنَّيْ لي حظًّا سعيدًا.

وظهر الكونت في تلك اللحظة، فقال وهو على باب غرفة الطعام: أتذهبين لزيارة الكونت سيريل يا عزيزتي؟ إذا كانت صحته أحسن، أرجو أن تدعي السيد بيير باسمي. لقد جاء قبل هذه المرة إلى دارنا، ورقص مع الأولاد. لا تنسَيْ دعوته يا عزيزتي، لقد وعد «تاراس» أن يتجاوز حدودَ ما عرفناه عن براعته حتى الآن. سوف نرى، إنه يزعم أنه سيقدِّم لنا الليلة عشاءً يفوق ما كان يمكن أن يقدِّمَه الكونت أورلوف بالذات، وأنتِ تعرفين حفلات الكونت أورلوف، صديق كاتيرين المفضَّل الذي يُنهِي الآن أيامه في أملاكه الشاسعة الغنية في «سان سوسي» قرب موسكو.

الفصل الخامس عشر

آنا ميخائيلوفنا

درجت عربة الكونتيس روستوف — التي استقلتها الأميرة دروبتسكوي وابنها — في طريقٍ نُثِر عليه التبن، قبل أنْ تدخل إلى حديقة فندق بيزوخوف الذي كان الكونت يقيم فيه.

قالت الأميرة، وهي تسحب يدها من ثنية كمِّها وتضعها على يَدِ ابنها بحركة لطيفة مفعمة بالحنان: يا عزيزي بوريس، كن رفيقًا يا ولدي وامتثِلْ للواقع، إنَّ الكونت سيريل شَبينُك يا عزيزي، ومستقبلك كله يتوقَّف عليه، تذكَّر ذلك يا ولدي، وكن رفيقًا كما تحسن أن تكون.

فأجابها بوريس بلهجة باردة: ليت هذا الخنوع يعود بشيء من الفائدة! لكنني مع ذلك أعدك أنني أمتثل نزولًا عند رغبتك فقط.

وعلى الرغم من أنَّ خادم الباب رآهما يهبطان من عربةٍ تدل على أن أصحابها من السادة المبجَّلين، فإنه راح يحدِّق بقِحَة في وجه الأم وابنها، اللذين دخلا مباشرةً إلى الشرفة دون أن يُبلِغا عن قدومهما، ووقفا بين ذَيْنِك الصفَّين من التماثيل الجميلة البديعة التي تحفُّ بها، وبعد أنْ نظر إلى ثوب السيدة بإشفاق، سألها عما تريد، وهل ترغب في رؤية الأميرات أو الكونت، فلما عرف أنها تريد مقابلة الكونت، أبلغها أنَّ سعادته سيئ الصحة لا يستقبل أحدًا.

فقال الابن وهو يقطِّب حاجبَيْه: حسنًا، هيا بنا إذن!

فضرعت إليه الأم تقول: يا صديقي!

وأشفعت قولها بلمس ذراعَيْه، ولعلها بتلك اللمسة كانت تستوحي الهدوء، أو شحْذ القوى.

صمت بوريس، وراح يستفسر أمه بنظره دون أنْ يخلع معطفه، فقالت هذه تخاطب خادم الباب بلهجة لبِقة: يا صديقي الطيب، إنني أعرف أنَّ الكونت سيريل فلاديميروفيتش مريض جدًّا، ومن أجل هذا جئت. إنني لن أزعجه، يا صديقي. أودُّ فقط أنْ أرى الأمير بازيل سيرجيئفيتش، وأعرف أنه هنا، فتفضَّل بإبلاغ وصولنا إليه.

فجذب خادم الباب حَبلَ الجرس بشراسة، واستدار يقول لخادم آخر ظهر على الباب، يرتدي سراويلَ قصيرة وأخْفافًا: إنَّ الأميرة دروبتسكوي ترغب في مقابلة الأمير بازيل سيرجيئفيتش.

كان الخادم الثاني يطل من فوق الحاجز استجابةً لنداء الجرس، فلما أنهى إليه خادم الباب الأمر، عاد إلى الداخل، أما الأميرة فإنها راحت تسوِّي ثوبها وترتِّبه، وهي واقفة أمام إحدى مرايا البندقية الشهيرة، كانت معلَّقة على الجدار، ثم راحت ترتقي السُّلَّم — المغطَّى بقطِع السجَّاد النفيسة — ببسالةٍ رغم حذاءَيْها الباليَيْن.

قالت لابنها، وهي تضغط من جديد على يده: لقد وعدتَني يا عزيزي، فلا تنسَ.

فتبعها الابن بهدوء مُطْرِقَ الرأس.

دخلا إلى بهوٍ يؤدِّي إلى جناح الأمير بازيل، فلما وصلا إلى منتصف القاعة، همَّا بالسؤال من خادمٍ عجوز بادَرَ لاستقبالهما، غير أن أُكرة أحد الأبواب أُدِيرت، وظهر على عتبة الباب الأميرُ بازيل بثياب المنزل، لا يزيِّن صدره إلا وسام واحد، معلَّق على سترته المخملية القصيرة. كان يودِّع رجلًا أسمر جميل الطلعة، هو الطبيب لوران الشهير الذي استُقدِم من بيترسبورج.

سأله الأمير: أهو إيجابي؟

فأجاب الطبيب، وهو يلفظ الكلمات اللاتينية على الطريقة الفرنسية: يا سيدي الأمير، إنَّ الحال خطير ولكن …

– حسنًا، حسنًا.

ولما وقعت أبصاره على آنا ميخائيلوفنا وابنها، استأذن من الطبيب، وتقدَّم منهما بوجهٍ طافح بأمارات الاستفهام، وفجأةً امتلأت نظرةُ الأميرة بكآبة الحزن العميق، فلم يخفَ ذلك التحول المفاجئ على بوريس، الذي وجد صعوبةً كبرى في إخفاء ابتسامته.

قالت الأميرة دون أنْ تبالي بالنظرة الباردة الجارحة التي كان الأمير بازيل يصعَقُها بها: أية مناسباتٍ سيئة شاءت أن تجمعنا من جديد! يا أميري، كيف حال مريضنا العزيز؟

انتقلت تلك النظرة الفاحصة إلى بوريس، الذي انحنى بأدب، غير أنَّ الأمير لم يُلقِ بالًا إلى تحيَّته، واستدار إلى آنا ميخائيلوفنا، فأجاب على سؤالها بغمغمة وهزة رأس لا تبشِّران بخير عن صحة المريض.

هتفت الأميرة: يا ألله! إنَّ هذا مريع، إنه مخيف.

ثم استتلت وهي تشير إلى بوريس: أقدِّم إليك ولدي بوريس، لقد ألحَّ في أنْ يحضر بنفسه لشكرك.

فعاد بوريس إلى الانحناء من جديدٍ بتأدب واحترام.

استطردت الأميرة تقول: ثِقْ تمامًا يا أميري من أنَّ قلبي كأمٍّ لن ينسى لك أبدًا ما فعلته من أجلنا.

وأخيرًا نطق الأمير فقال، وهو يُصلِح من وضع ياقة سترته: إنني سعيد يا آنا ميخائيلوفنا الطيبة؛ لأنني استطعت أن أُحسِن إليك.

قُدِّر أن عليه — هنا في موسكو — أن يعامل محميته بشيء من الترفع؛ لأنه وحيد معها، وقُدِّر أيضًا أن تكون وسائله الآن أكثر شدةً وجلاءً مما كانت عليه في بيترسبورج عندما كان في حفلة آنيت شيرر، فقال لبوريس بلهجة صارمة: كن ضابطًا ممتازًا، ينبغي أن تكون جديرًا بـ... إنني سعيد جدًّا من ناحيتي. هل أنت في عطلة هنا؟

حشا الأمير بازيل جملته الأخيرة بأقصى ما في طاقته من مظاهر العظمة، فأجابه بوريس دون أن يبدي ترددًا إزاءَ لهجة الأمير المرتفعة المهينة أو الرغبة في متابعة الحديث: إنني يا صاحب السعادة أنتظر الأمر لألتحق بمركزي الجديد.

كانت لهجته متزنة مهذبة، حتى إنَّ الأمير راح ينظر إليه باهتمام ملحوظ.

– هل تقطن عند أمك؟

فأجاب بوريس، دون أن ينسى إضافة كلمة «صاحب السعادة»: إنني أقطن عند الكونتيس روستوف.

فتدخلت آنا ميخائيلوفنا قائلة: أتتذكر أنه إيليا روستوف الذي تزوَّج ناتالي شينشين.

فقال الأمير بصوته وحيد النغمة: أعرف، أعرف، إنني ما استطعت أبدًا أنْ أفهم كيف أن ناتالي وافقت على الزواج بهذا الدب القذر! إنه شخص سخيف ومضحك تمامًا، ومقامر على ما يقال.

فأعقبت آنا ميخائيلوفنا بلهجة وابتسامة دمثتين، وكأنها توافق على حُكمه على الرجل، ولكنها تلتمس منه الصفح والعفو عن عجوز مسكين: لكنه رجل باسل جدًّا يا أميري.

وعادت تسأل بعد لحظةٍ صمتٍ ساعدتها على أنْ تطبع وجهَها بطابعِ ذعرٍ عميق: ما رأي كلية الطب؟ وتقصد الطبيب.

فقال الأمير: هناك أمل ضئيل.

– وأنا التي كنت مُزمِعةً على شكر «عمي» على كل ما أحاطني وأحاط بوريس به من عطف وحُسن التفات.

وأضافت بعد حين، وكأن الخبر سيسُرُّ الأميرَ بازيل معرفتُه: إنَّ بوريس ابنه في المعمودية!

فقطَّب الأمير حاجبَيْه، وراح يفكِّر ولا شك في أنه سيرى في هذين الدخيلَيْن دعيَّيْن آخرين في ميراث الكونت بيزوخوف، وأدركتْ آنا ميخائيلوفنا ما يجول في خاطره، فبادرت تطمئنه بقولها: إنني إذا كنت هنا، فما ذلك إلا لمحبتي لـ «عمي» وإخلاصي له (وعادت تضغط على كلمة عمي بتأكيد لبِق) إنني أعرف عقليته النبيلة الصريحة، غير أنني أعرف أنَّ الأميرات وحدهن بجانبه، وهن شابات صغيرات في السن.

واقتربت منه لتهمس في أذنه بصوت خافت: هل قام بآخِر واجباته يا أميري؟ كم هي ثمينة هذه اللحظات الأخيرة! فإذا كانت صحته منحدرة إلى هذا الدرك السيئ، فيجب حتمًا إعداده، ولا شيء أخطر من هذا.

وأعقبت تقول بعد فترة صمت، وهي تشفع قولها بابتسامة عذبة: إنك تدرك يا أميري أننا، معشر النساء، نعرف كيف نتصرف في ظروف عصيبة كهذه. يجب أن أراه، إنه واجب مؤلم لكنني تعوَّدتُ الألم.

وفهم الأمير — كما حدث من قبلُ في حفلة آنيت شيرر — أن من العسير التخلُّص من آنا ميخائيلوفنا، فقال: إن مقابلتك له، يا آنا ميخائيلوفنا العزيزة، قد تُثقل عليه. لننتظرْ حتى المساء، لقد أكد الأطباء أنه ينتظر نوبة …

– أن ننتظر يا أميري؟ لكن مستحيل! فكرْ، إنَّ هذا الأمر متعلق بخلاص روحه. آه كم هي مؤلمة واجبات المسيحي!

فُتِح باب الجناح الخاص، وخرجت منه واحدة من الأميرات، وهي ابنة أخت الكونت، ذات وجه بارد جامد عابس، تعطي ساقاها القصيرتان اللتان تحملان قامتها الطويلة لونًا من الغرابة والشذوذ للناظر المتفحص. الْتفَتَ الأمير بازيل إليها، وقال: حسنًا، كيف حاله؟

فقالت ابنة الأخت، وهي تتفرَّس في وجه آنا ميخائيلوفنا، وكأنها تنظر إلى سيدة مجهولة: لا زال كما هو، إنَّ هذا الضجيج، كما تعلم …

ورمقت الزائرة بنظرها ولم تُعقِّب.

اقتربت هذه منها منبسطة الأسارير خفيفة الخطى، وقالت بتودُّد: آه، عزيزتي! لم أكن أعرفك، لقد وصلت للتوِّ، وإنني في خدمتك لمساعدتك في العناية ب «عمي».

ثم رفعت عينيها إلى السماء بإشفاق وأردفت: إنني أتخيَّل مدى ألمك.

لم تتعطف الأميرة بالجواب ولا بمجرد الابتسام، وانسحبت لفورها، فنزعت آنا ميخائيلوفنا قفَّازيها، وراحت تجلس على مقعد وثير وكأنها في «أرض محتلة»، ودَعَتِ الأميرَ بازيل إلى الجلوس بقربها، ثم قالت تخاطب بوريس وهي تبسم: سأرى الكونت عمي يا بوريس، فامضِ إلى لقاء بيير خلال هذا الوقت يا صديقي، ولا تنسَ أن تُبلِغه الدعوة التي وجَّهها إليه آل روستوف.

ثم أردفت تحادث الأمير: إنَّ آل روستوف يدعونه لتناوُل العشاء لديهم، أعتقد أنه لن يذهب، أليس كذلك؟

فأجاب هذا بلهجة حادَّةٍ منفعلة: لِمَ لا يذهب؟ سأكون سعيدًا إذا خلَّصتِني من هذا الفتى. إنه لا يتحرك من هنا رغم أنَّ الكونت لم يطلبه حتى الآن مرةً واحدة، ولم يسأل عنه، أو يُعرِب عن رغبته في رؤيته.

وهز كتفيه، وجاء خادم يقود بوريس من باب آخَر يؤدِّي إلى سُلَّم جديد؛ ليقوده إلى حيث كان بيير كميرييوفيتش.

الفصل السادس عشر

بيير وبوريس

كان تصرُّف بيير ونوع الحياة التي اندمج فيها في بيترسبورج قد منعاه حتمًا عن انتقاء السبيل الذي يرتضيه للبلوغ إلى مستقبله المنشود؛ فقد كانت القصةُ، التي رَوَوْها لدى آل روستوف عن تصرُّفه، حقيقةً لا زيف فيها. كان الشاب قد عاد من بيترسبورج، بعد أن أُبعِد من هناك لاشتراكه في شدِّ وثاق ضابط القسم إلى ظهر الدب، وقبع في منزل أبيه. كان واثقًا من أنَّ القصة ستُثار في موسكو، فتعطي للأوساط النسائية، التي كان على أسوأ العلاقات معها، مادةً غنية للحديث، تساعد على النيل منه وإفساد علاقته مع أبيه. مع ذلك، فإنه لم يتردَّد عن المثول من فوره في حضرة أبيه، فوجد الأوانس الثلاثة في البهو، وهو مركز اجتماعهن المفضَّل. كانت كبرى الأميرات — وهي التي شهدناها منذ حين تتقابل مع آنا ميخائيلوفنا فتعاملها تلك المعاملة المهينة — فتاةً صارمة، طويلة القامة، تُعنى عناية خاصة بملابسها، وكان دأبها القراءة بصوتٍ مرتفع.

أما الأميرتان الأصغر سنًّا، فكانتا تشتغلان في أعمال الإبرة على مناسج صغيرة. كانتا وديعتين لطيفتين، تشبه إحداهما الأخرى، حتى إنَّ كثيرًا من الناس كانوا يخلطون بينهما، لولا «حسنة» كانت على وجنة إحداهما. حيَّاهن بيير تحية مهذَّبة رقيقة، لكنهن استقبلنَه وكأنه شبح أو مصاب بالطاعون. توقَّفت الكبرى عن القراءة، وحملقت بعينيها في وجهه بذعرٍ دون أن تتلفَّظ بكلمة، واتَّخذَت الثانية موقفَ أختها الكبرى، فنقلت التعابيرَ التي كانت مرتسمة على وجهها بكل أمانة، وأبرزتها على وجهها. أما الثالثة، تلك التي كانت «الحسنة» التي على وجهها تميِّزها عن أختها، فقد انحنت على منسجها لتُخفِي ابتسامتها، وقد تأكَّدَ لها أنها ستشهد موقفًا ممتعًا يتفق مع مزاجها المرِح. سحبت خيطَها الصوفي، وراحت تتظاهر بالاهتمام بنقوشها وترتيبها، وهي تجهد في كبتِ القهقهة التي تكاد تفلت من حنجرتها.

قال بيير: عِمي صباحًا يابْنة العم، أَلَا تعرفينني؟

– بل إنني أعرفك أكثر مما تظن، نعم أكثر …

سأل بيير، دون أن يَرْتبك رغم أسلوبه الخائب الفاشل الطبيعي: كيف حال الكونت؟ هل أستطيع أنْ أراه؟

– إنَّ الكونت يتألم جسديًّا وعقليًّا، وإنني أرى أنك عملت كل ما ينبغي لمضاعَفة آلامه المعنويَّة وزيادتها خطورةً.

كرر بيير سؤاله: هل أستطيع أن أرى الكونت؟

– إحم! إذا أردت أن تقتله أو أن تعجِّل بنهايته، فإنك — ولا شك — تستطيع أن تراه.

ثم أردفت تخاطب أختها لتنوِّه لبيير بأنهن كنَّ يعملْنَ للتخفيف من الآلام التي كان هو يثيرها، وكأنه يتلذَّذ بزيادة حدتها: أولجا، انظري إذا كانوا قد هيَّئوا شراب عمنا.

فخرجت أولجا، ولبث بيير ينتظر برهة، ثم انحنى للشقيقتين وهو ينظر إليهما، وقال: سأمكث في غرفتي، ولكما أن تُبلِغاني عندما يتيسَّر لي أنْ أراه.

وانسحب من البهو تُشيِّعه ضحكةُ ذاتِ «الحسنةِ» المجلجلةُ التي كانت — رغم قوتها — تُعتبَر مكتومة مراعاةً للظرف الدقيق المحيط بصاحبتها، تلك الشيطانة التي لا تعرف غير المرح.

وفي اليوم التالي وصل الأمير بازيل، وأقام لدى الكونت، فاستقدم بيير وقال له: يا عزيزي بيير، إذا تصرَّفتَ هنا تصرُّفك في بيترسبورج، فإن نهايتك ستكون سيئة، هذا كل ما أقوله لك. إنَّ الكونت مريض، بل مريض جدًّا، فلا تحاولْ أن تراه أو أن تتصل به.

ومنذ تلك اللحظة، لم يَعُد أحد يهتم ببيير الذي لازَمَ جناحَه في الدور الثاني من الفندق.

ولما دخل بوريس عليه، كان بيير يذرع غرفتَه بعصبيةٍ وانفعال، فيتوقَّف حينًا في إحدى الزوايا، ويحدِّق من فوق نظارتَيْه في الجدار، أو يقاتل بذراعه عدوًّا غير منظور، وكأنه يشطره بسيفٍ إلى شطرين، ثم يعود إلى مشيته التي تتخللها حركاتٌ عنيفة من الذراعين، وهزَّاتٌ من الكتفين، وكلماتٌ متفككة لا ارتباط بينها.

كان يقول مشيرًا بإصبعه إلى لا شيء، وكأنه يهدِّد عالمًا خفيًّا، وهو مقطب الحاجبين: لقد عاشت بريطانيا، ولقد حُكِم على بيت[1] بوصفه خائنًا للأمة ولحقوق الأشخاص بـ…

كان يتخيل نفسه في تلك اللحظة نابليونًا حقيقيًّا، «نابليون» بالذات، سيد لندن، بعد اجتياز البادوكاليه إلى بريطانيا في تلك المحاولة الخطيرة، والحكم على بيت بعقوبةٍ لم يجدْ وقتًا لتحديدها؛ لأنه توقَّف عندما رأى ضابطًا شابًّا، مهيب الطلعة، يدخل إلى غرفته فجأةً. لم يعرف بوريس للوهلة الأولى؛ لأنه تركه غلامًا في الرابعة عشرة من عمره، فنسيه تمامًا. مع ذلك، فقد استقبله مصافِحًا ببشاشة، وهو يبسم له ابتسامة ودية، مدفوعًا بطيبة نفسه البديهية، التي تجعله ينظر إلى كل الناس من زاوية بريئة مرِحة.

قال بوريس بلهجته المتزنة، وهو يقابل ابتسامته بمثلها: هل تذكرني؟ لقد جئنا — أمي وأنا — لنقدِّم تمنياتنا للكونت، لكن صحته ليست على ما يرام كما يقولون.

فأجاب بيير، وهو يتساءل عبثًا أين ومتى رأى هذا الشاب من قبل: نعم، إنَّ صحته — كما يبدو — ليست على ما يرام، إنهم يزعجونه غالبًا.

أدرك بوريس أن بيير لم يعرفه، مع ذلك فقد ظلَّ ينظر في عينيه دون ارتباك، ودون أن يقدِّم نفسَه إليه، قال — بعد فترة صمت طويلة أزعجت بيير: إن الكونت روستوف يرجوك أن تتناول طعام العشاء عنده بعد قليل.

فهتف بيير مسرورًا: آه، الكونت روستوف! إنك إذن إيلي، ابنه! تصوَّرْ أنني لم أعرفك للوهلة الأولى، هل تذكر نزهاتنا على جبل العصافير مع مدام جاكو؟ إن ذلك ليس قديمَ العهد.

فأجابه بوريس بهدوء، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ مواسيةٌ لا تخلو من طابع السخرية: إنك تخطئ، إنني بوريس بن بوريس ابن الأميرة آنا ميخائيلوفنا دروبتسكوي، أما روستوف الشاب فاسمه نيكولا، وأما إيلي فهو أبوه، وأنا لم أعرف مدام جاكو من قبلُ …

انتفض بيير وراح يلوِّح بيديه باضطراب، وكأنه يطرد ثَوْل نحل أو ذباب تجمَّع حوله، وأُرتِجَ عليه لحظة، ثم قال: آه، ويحي! إنني أخلط بين الأشياء! إنَّ لي عددًا كبيرًا

[1] ويليام بيت الصغير، ابن اللورد شاتام، وزير دولة بريطاني، وُلِدَ في هاي عام ١٧٥٩، وتوفي عام ١٨٠٦، وكان عدوًّا لدودًا للثورة الفرنسية، نظم ثلاثَ محالَفات ضد فرنسا، لكنه أخفق في إحباط انتصارات نابليون وفي إنقاذ الاقتصاد الإنجليزي المؤقَّت الذي هبط إلى الحضيض. (المترجم)

من الأقارب والمعارف في موسكو! إنك إذن بوريس. حسنًا، لقد اتفقنا. حدِّثني عن رأيك في غزوة بولونيا، إنَّ الإنجليز لن يصمدوا طويلًا إذا تخطَّى نابليون بحر المانش، أليس كذلك؟ إنني أعتقد أنَّ المسألة ممكنةَ التنفيذ شريطةَ ألَّا يرتكب فيلنوف[٢] حماقات وأخطاءً.

كان بوريس لا يقرأ الصحف؛ لذلك فقد كان لا يعرف شيئًا عن غزوة بولونيا، ويجهل حتى مؤدَّى اسم فيلنوف. قال بلهجته الهازئة الهادئة: إن الحفلات والولائم تشغلنا هنا أكثر مما تشغلنا السياسة؛ لذلك فإنني لا أستطيع أن أكوِّن رأيًا بصددِ قضيةٍ أجهلها. إن موسكو مدينة المهذارين قبل كل شيء، إنهم لا يتحدثون الآن إلا عن الكونت وعنك. إنَّ النميمة طبعٌ متأصِّل في النفوس.

ابتسم بيير ابتسامته البريئة الصريحة، كان ينتظر أن يحدِّثه بوريس بكلماتٍ قاسية يندم على قولها، غير أنَّ بوريس نطق بكلماته بصوتٍ واضح جافٍّ وهو لا يني يحدِّق في عينَيْ بيير بجرأة. أردف يقول: نعم، إنَّ الثرثرة عمل الموسكوفيين الوحيد، إنهم يتساءلون الآن لمن سيترك الكونت ثروتَه، رغم أنه قد يعيش حتى بعد أنْ نموت نحن، وهو الأمر الذي أتمنَّاه من صميم نفسي.

قال بيير، وهو يزداد خوفًا من أن ينزلق بوريس في منحدر خطر عسير، لا يجد منه خلاصًا: نعم، إن كلَّ هذا مزعج وأليم.

أضاف بوريس معقبًا، وقد احمرَّ وجهه قليلًا دون أن تتبدَّل لهجته، أو أن يتغير أسلوبه: يمكنك أن تصدِّق أنَّ كل الناس يأملون في أن يبلغوا نصيبًا من ثروته، بل إن عددًا منهم قد أصبحت الفكرة في رأسهم ثابتةً متركزة.

فقال بيير في سرِّه: «ها قد وقع المحذور!» بينما أردف بوريس: أود بهذه المناسبة أن أُبلِغك — تفاديًا لأي سوء تفاهم يقع — أنك تخطئ خطأً فاحشًا إذا وضعتنا، أمي وأنا، في عداد هؤلاء الناس الذين حدَّثتك عنهم. إننا فقراء جدًّا، لكنني أستطيع أن أؤكد لك — باسمي على الأقل — أنني لا أعتبر نفسي قريبًا لأبيك لمجرد كونه من ذوي الغنى واليسار، وإننا، أمي وأنا، لا نتسول ولا نتقبَّل أبدًا شيئًا منه.

لبث بيير برهةً قبل أن يستوعب غاية الفتى من حديثه، فلما فهمها، اندفع من مجلسه على الأريكة، وأمسك برسغ بوريس بحماسته الخرقاء المعروفة عنه، وقد احمرَّ

[٢] بيير دو فيلنوف، أميرال فرنسي، وُلِد في فالانسول (الألب الواطئة) عام ١٧٦٣، وتوفي عام ١٨٠٦، هزمه نيلسون الإنجليزي في معركة الطرف الأغر (ترافالفار). (المترجم)

وجهه حتى فاق تضرجه اللون الذي اصطبغ به وجه محدِّثه، وغمغم بخجل وغضب: ولكن ماذا ... هل حقيقةً أنني ...؟ من الذي يفكر في هذا؟ إنني أعرف تمامًا ...

كان بيير يهدف إلى طمأنة بوريس وتهدئة خاطره، غير أن هذا قاطعه ليهدئ من ثائرته بقوله: إنني مسرور لأنني قلت لك ما قلت، فاعذرني إذا بدا لك قولي مزعجًا، آمل ألَّا أكون قد جرحتُك أو أهنتك، إن مبدئي هو التحدث أبدًا بكل صراحة. حسنًا، أي جواب أحمله إلى آل روستوف؟ هل تقبل دعوتهم؟

استعاد بوريس هدوءه وبشاشته بعد أن تخلَّص من واجبٍ شاقٍّ أدَّاه، وأحسن تصرُّفًا في إيضاح اللبس الذي قد يحيط به في بال الآخرين.

قال بيير، وقد استعاد بدوره اتزانه بعد لَأْيٍ: أصغِ إليَّ، إنك مدهش، إن ما قلتَه لي منذ حين حسن ومقبول، إنك لا تعرفني ولا شك، لقد انقضى زمن طويل لم نرَ بعضنا خلاله، زمن يعود إلى الطفولة؛ لذلك فقد كان بمقدورك أن تعتقد أنني ... إنني أفهمك، إنني أفهمك تمامًا. صحيح أنني ما كنت لأتصرف على هذا النحو؛ لأن الشجاعة الكافية تعوزني، لكنني مع ذلك راضٍ عما قلت وسعيد بمعرفتك، إن ما خمَّنته بصددي غريب!

صمت برهة، ثم أردف ضاحكًا: إنَّ هذا لا يهم، سوف نتعرَّف على نفسيتنا مستقبلًا بشكل أوضح.

وضغط على يده بشدة وأعقب: أتدري أنني لم أرَ الكونت بعد؟ إنه لم يستدعِنِي، رغم أن حالته الصحية تُقلِقني وتزعجني كثيرًا. لكن ما العمل؟

سأل بوريس وهو يضحك: إنك تعتقد إذن أنَّ اجتياز بحر المانش من قِبَل نابليون أمرٌ ممكن؟

أدرك بيير أنَّ بوريس يغيِّر الحديث، ويوجِّهه وجهة أخرى، ولما كان الموضوع الذي تطرَّق له يستأثر بكل اهتمامه وميله، فقد راح بيير يشرح مثالبَ المحاولة ومحاسنها، شرْحَ الخبير المتعمق.

وجاء خادم من طرف الأميرة يستدعي بوريس، فوعده بيير قبل ذهابه أن يحضر مأدبة روستوف؛ ليتاح له الاختلاط به، وشدَّ على يده مصافِحًا وهو ينظر إليه خلال نظارتَيْه بتودُّد وأُلفة، فلما ارتحل بوريس، عاد بيير يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، لكنه بدلًا من أن يحارب خصومًا مجهولين وأن يقاتلهم، كان يبسم مبتهجًا لذكرى الشاب البهي، الذي تتساوى بداهته بطلاقة لسانه واتزانه، وراح بيير يكرر في نفسه — شأن كل الشباب عندما يناقشون في خلواتهم آراءً عرضت لهم — رغبته في أن يصبح صديقَ بوريس، استجابةً للشعور الذي أحسَّ به نحوه، والذي كان يلحُّ عليه بالتقرُّب من الضابط الشاب.

وبينما كان بيير يناقش نفسه على ذلك الشكل، كان الأمير بازيل يشيِّع الأميرة، وهي تجفِّف عيونها بمنديلها وتقول: إنه أمر مريع مفزع! لكنني سأقوم بواجبي مهما كلَّفني القيام به من ثمن، سأسهر عليه عندما يقتضي الأمر السهر؛ إذ لا يمكن أن ندعه يقضي دون أن يعترف، إنَّ اللحظات ثمينة جدًّا. ما تنتظر الأميرات؟! لعلَّ الله يلهمني سبيل إعداده لملاقاته. وداعًا يا أميري، وليساعدْك الله!

– الوداع يا سيدتي الطيبة.

وغادرها الأمير، وكرَّ عائدًا إلى مخدعه.

وبينما كانت تصعد إلى العربة مع ابنها، راحت تحدِّثه قائلة: إنه في حالٍ مؤلم محزن، إنه لا يستطيع التعرُّف على أحد تقريبًا.

سأل بوريس: أودُّ أن أعرف بدقةٍ النوايا المبيَّتةَ نحو بيير؛ لأنني لا أفقه من الأمر شيئًا، ما هي الترتيبات المنويُّ اتخاذها بشأنه؟

– إنَّ الوصية ستُطلِعنا على كل شيء، يا صديقي. إنَّ مصيرنا كذلك متوقِّف عليها.

– لكن ما الذي يدعوكِ إلى الاعتقاد بأنه سيترك لنا شيئًا؟

– آه يا صديقي! إننا في فقر مدقع وهو في غنًى وثراء واسعَين.

– لكن هذا لا يفسِّر الأمر، إنه ليس سببًا كافيًا يا أمي العزيزة.

فزمجرت الأميرة: آه يا رب، كم هو في حالة سيئة! رباه!

الفصل السابع عشر

الصديقة المخلصة

بعد ذهاب آنا ميخائيلوفنا وولدها، لبثت الكونتيس روستوف فترة طويلة وحيدة في البهو، غارقة في تفكير عميق، ولم تلبث أن حزمت أمرها على شيء فقرعت الجرس، غير أنَّ الوصيفة أبطأت في المثول في حضرتها؛ مما أسخطها وأثار حفيظتها، فلما كرَّرت القرع ودخلت الوصيفة، صاحت بها غاضبة: ما معنى هذا يا عزيزتي؟ إذا «شئتم» ألَّا «تقوموا بواجبكم»، فسأعرف كيف أجد «لكم» مكانًا آخر!

كانت الكونتيس ثائرة الأعصاب متألمة لحزن صديقتها الأميرة وفقرها المخجل، وكانت دلائل سخطها وثورتها تتجلى في أسلوب كلامها مع خادمتها — لغة الجمع — وفي إضفاء لقب «عزيزتي» عليها.

قالت الوصيفة معتذرة: أرجو أنْ تغفر لي سيدتي.

– اطلبي إلى الكونت أن يتفضَّل برؤيتي.

جاء الكونت بعد قليل يتأرجح في مشيته كعادته، وعلى وجهه أمارات الجد والاهتمام، ابتدرها قائلًا: آه يا عزيزتي الكونتيس الصغيرة! يا لَلطَّعام الفاخر الذي سنقدمه! لقد تذوقته بنفسي، إنني أحسنت صنعًا بإعطائي ألف روبل لتاراس، إنه يستحقها!

جلس قرب زوجته وشعره الأبيض متمرد على رأسه، واعتمد مرفقيه على ركبتيه وقال: ماذا ترغبين يا عزيزتي الكونتيس الصغيرة؟

– حسنًا، إليك ما أريد …

وابتسمت وهي تشير بسبابتها إلى صدارة زوجها، وقالت: ما هذه اللطخة التي على صدارتك؟ أتعشم أن تكون من مرق الطعام!

وعاد الحزن يسدل أستاره على وجهها فأعقبت: إليك ما أريد؛ إنني في حاجة إلى المال.

فأخرج الكونت حافظة نقوده، وهو يقول: حالًا، حالًا. آه أيتها الكونتيس الصغيرة!

غير أنَّ الكونتيس الصغيرة قاطعته قائلة: ذلك أنني في حاجة إلى أكثر من المعتاد، إلى خمسمائة روبل.

وراحت تدلك بمنديلها المصنوع من قماش «الباتيست» اللطخة التي على صدارة زوجها، فهتف هذا: فورًا يا عزيزتي، فورًا.

وصاح شأن من تعوَّد أنْ يهرع الناس تلبيةً لأول نداءٍ يصدر عنه: هولا، ليأتِ أحد! ابعثوا في طلب ميتيا.

ودخل ميتيا بخطواته الخفيفة المكتومة، وكان فتًى فقيرًا تعهَّده الكونت وأقامه أمينًا على بيته فقال له الكونت: اسمع يا عزيزي، ائتني بـ... — وراح يفكر برهة — بكم؟ آه، بسبعمائة روبل، نعم سبعمائة روبل، واحذر أن تكون أوراقًا قذرة أو ممزقة كما حدث في المرة الأولى، أريدها جديدة كل الجدة؛ لأنها للكونتيس.

فأعقبت الكونتيس، وهي تزفر زفرةً حرى: نعم، أرجو ذلك يا ميتيا، اعمل على أن تكون جديدة ونظيفة.

سأل ميتيا: متى تريدها يا صاحب السعادة؟

ولما رأى أنَّ الكونت بدأ يتنفس بصعوبة، وهو نذير غضبه، أردف يقول مستدركًا: لا تنزعج، لقد أسأتُ الفهم، إنك تريدها فورًا، أليس كذلك؟

– نعم، نعم، أحضرها وأعطها للكونتيس.

فمضى ميتيا بخطواته المتلصصة المكتومة، فقال الكونت بعد خروجه: يا له من كنز ثمين! إنه يعرف دائمًا كيف يتدبر الأمر، إنني أمقت أن يعترضني معترض؛ لأنني أعتقد أنَّ كلَّ شيء ممكن تنفيذه لما تتوفر الرغبة الصادقة.

قالت الكونتيس: آه من المال يا كونت! كم يسبب المال آلامًا في هذا العالم! ليتك تدري مبلغ حاجتي إلى هذا المبلغ التعس.

فقال الكونت، وهو يقبِّل يَدَ زوجته قبل أن يعود إلى مكتبه: نعم يا عزيزتي الكونتيس الصغيرة، إننا نعرف سخاءكِ وكرمك.

ولما عادت آنا ميخائيلوفنا من زيارتها للكونت بيزوخوف، كان المبلغ قد أصبح في حوزة الكونتيس، وقد وضعته على نضد قريب، وغطَّته بمنديلها، غير أن انفعال الكونتيس واضطرابها لم يَخفيا على عيني آنا ميخائيلوفنا الحاذقة.

سألت الكونتيس: ما أخبارك يا عزيزتي؟

– آه من الحال السيئة التي بلغ إليها! إنَّ حالته شديدة السوء، حتى إنني لم أستطع البقاء إلا دقيقتين ولم أحدِّثه إلا بكلمتين!

مدت الكونتيس يدها إلى النضد فجأة، وقالت: آنيت، بحقِّ السماء لا ترفضي.

تضرج وجهها بلون أرجواني يناقض خطورة تقاسيمها المهزولة التي عملت بها يد السنين تخريبًا وترميمًا واضحين.

فهمت آنَّا ميخائيلوفنا غاية صديقتها، فانحنت تتحين الوقت المناسب لترتمي على عنقها تقبِّله، قالت الكونتيس: قدمي المال إلى بوريس من جانبي ليُعد تجهيزاته.

بكت آنَّا ميخائيلوفنا وهي تعانق الكونتيس، فشاركتها هذه في البكاء، بَكَتَا تحنانًا لطبيعة قلبيهما وللتَّفاهُم الوثيق الذي يربط بينهما، وبكتا لأن المال، ذلك الشيء الحقير، قد تدخَّل شخصًا ثالثًا في صداقتهما التي ترجع إلى أيام الطفولة؛ وكذلك بكتا أسفًا وهما تفكران في شبابهما الضائع الزائل، غير أنَّ الدموع كانت حبيبة إلى نفسيهما، كانت تفرِّج عن كربتهما وتواسيهما.

الفصل الثامن عشر

ماري دميتربيفنا

كان عدد من المدعوين في البهو الكبير يحيط بالكونتيس روستوف وبناتها، وكان الكونت قد رافق الرجال إلى مكتبه، ووضع رهْنَ تصرُّفهم مجموعته الثمينة من الغلايين، وكان يخرج من حين إلى آخر ليستعلم عما إذا كانت «هي» قد وصلت. كان آل روستوف ينتظرون مَقْدِمَ ماري دميتربيفنا آخروسيموف المُلقَّبة بالتنين الرهيب، وهي امرأة محرومة من الثراءِ والألقابِ، لكنها استطاعت أن تشُقَّ لنفسها طريق الشُّهرةِ بفضل صراحتها المخيفة وبدانتها. كانت ماري دميتربيفنا معروفة من الأسرة المالكة، وفي موسكو كلها وبيترسبورج، وكانت تُروى عنها أقاصيص في المدينتين، تجعل الناس يُعجبون بها ويسخرون سرًّا، ويُقدِّرونها ويهابونها دون أن يجدوا جرأة على بهتها بسخريتهم.

كان الرجال يتحدثون عن الحرب في مكتب الكونت العابق بدخان اللُّفافات، كانوا يعرفون أن الحرب قد أُعلنت رسميًّا، غير أنَّ أحدًا لم يقرأ بعدُ الصيغةَ الرسمية لإعلانها، وكان الكونت جالسًا على أريكة شرقية بين اثنين من المُدخِّنين، لا يدخن ولا يتحدث، بل يلتفت تارةً إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، ويراقب مدعويه بسرور واضح، ويصغي إلى مناقشاتهم بانتباه واهتمام؛ ليرى مآل الأمر بينهم، استعدادًا لإثارة نقاش جديد، عند صدور أول بادرة تهدد بخفوت احتدام النقاش.

كان أحد الاثنين الجالسين إلى جانبيه مدنيًّا ذا وجه صفراوي، أجرد، مُجعَّدَ الوجه، ذا مظهر أنيق رغم تقدُّمه في السن، وتخليفه الشباب وراءه، وكان يجلس على الطريقة الشرقية، وكأنه في بيته، وفي زاوية فمه مبسم من الكَهرمانِ، يجذب خلاله أنفاسًا متلاحقة وهو يغمز بعينيه، وكان هذا الرجل الناضج واحدًا من أبناء عم الكونتيس، اسمه شينشين، وهو عزَب عجوز، يُعتبر في أندية موسكو لسانًا سليطًا مُسلطًا، وكان الكونت ينظر إليه نظرةً توحي بتفوقه على مُحدِّثِه الآخر، الذي كان ضابطًا في الحرس، نَضِرَ الوجه، مورَّد

الوجنتين، شديد التأنق والترفع، مَعْنيًّا كل العناية بهندامه ومظهره، يمسك بغليونه في منتصف فمه، محاذرًا بتبديل مكانه، وتمتصُّ شفتاه القرمزيتان خلال القصبة نفحات خفيفة من الدُّخانِ، يرسلها من فمه على حلقات متلاحقة رقيقة، كان هذا الزائر هو الملازم بيرج، من فيلق سيميونوفسكي؛ الذي كان عليه أن يلتحق بالجيش مع بوريس، والتي كانت ناتاشا تسمِّيه: «خطيب فيرا» إمعانًا منها في إثارة أختها الكبرى.

كان الكونت كله آذانٌ صاغية وعيونٌ متطلعة، وكان أجمل ما يستأثر بانتباهه بعد لعب[1] الورق، هو الإصغاء إلى حديث المتناقشين، خصوصًا عندما يكون سبب إثارة اثنين من أبلغ المحدِّثين.

قال شينشين بلهجته الساخرة: إذن يا فتاي الطَّيب، يا ألفونس كارليتش شديد الإقدام، إنك تتوقع أن تقتطع إيرادات على حساب الدولة، وأقصد أنك تود الاستئثار بربح على حساب غيرك؟

كان شينشين يجمع بين الكلمات القروية والعامية في الروسية، وبين العبارات المنتقاة باللغة الفرنسية، وكان أسلوبه في الحديث يمتاز بطابع السخرية، أجابه المُلازمُ: كلا يا بيوتر نيكولائيتش، إنني أزعم فقط أن سلاح المدفعية يعطي فوائد جَمَّةً تفوق على ما يعطيه سلاح الفرسان، خذ حالتي مثلًا ...

كان بيرج يتحدث أبدًا بلهجة دقيقة مُتَّزنةٍ شديدة التهذيب، لكنه لا يتحدث إلا عن نفسه، فإذا دار الحديث حول مواضيع أخرى لا علاقة له بها، صمت هادئًا لا يريم، ولا يبدي أو يُحدث حوله أي امتعاض، ولو استمر على سكوته ساعات طويلة، أما إذا كانت شخصيته موضوع الكلام والبحث، فعندئذٍ يستفيض ببلاغة واسترسال وطلاقة، والسرور بادٍ على مُحيَّاهُ.

– إنني في حالتي، يا بيوتر نيكولائيتش ... لو كنت مثلًا في سلاح الفرسان وفي رتبتي الحالية كملازم، فإنني ما كنتُ لأتقاضى أكثر من مائتي روبل كل ثلاثة أشهر، بينما يزيد مرتبي حاليًّا في سلاح المدفعية على المائتين والثلاثين روبلًا.

وأشفعَ عبارتَه بابتسامة وديعةٍ، وجَّهها إلى شينشين والكونت، شأن الرجل الذي لا يشك أبدًا في أن خصوصياته لا تُشكل أقصى رغبات أنداده من بني البشر.

---

[1] جاء في الأصل تعبير Jeu de boston، ويراد بذلك لُعبة «الباصرة» المعروفة عندنا. (المترجم)

عاد بعد فترة صمت يتابع حديثه قائلًا: أَضِفْ إلى كل ما قلت أنني، بانضمامي إلى سلاح الحرس، أكون مرموقًا، وتكون المراكز الشاغرة أكثر حدوثًا مما هي عليه في سلاح المدفعية، ثم ألا ترى، يا بيوتر نيكولائيتش، أنني ما كنت لأستطيع شيئًا بمائتين وثلاثين روبلًا لو كنت في سلاح الفرسان؟ أما في وضعي الحاضر، فإنني أَدَّخِرُ مرتبي، بل وأرسل منه إلى أبي.

ومن جديد انبعثت من فمه حلقات من الدخان، راحت تتصاعد متلويةً، غمغم شينشين، وهو ينقل مبسمه إلى زاوية فمه أخرى: وهكذا يتم التوازن. إن المثل يقول: إنَّ الألماني ينسج الخزَّ من سوق القمح.

وغمز بعينيه للكونت، فانفجر هذا ضاحكًا، وهرع عدد آخر من المدعوين، اجتذبهم مرح شينشين وحماسه، أما بيرج فإنه لم يعبأ بالسخرية، ولا بفتور المستمعين، بل ازداد انطلاقًا في حديثه، وراح يؤكد أن انتقاله إلى سلاح الحرس أكسبه مرتبةً تفوَّق بها على أقرانه، وأنه في أوقات الحرب يكون قائد السَّريةِ شديد التعرض للخطر، وبذلك تُتاحُ له — هو بيرج — إمكانية الارتقاء إلى رتبة رئيس، بوصفه أقدم ملازم في الفِرقةِ، هذا إلى جانب الحب الذي يتمتع به من كافَّةِ أفراد الفيلق، ورضاء أبيه عن وضعه الحاضر. وكان بيرج، وهو يصرح بكل هذه الأمور، يشعر بمرح حقيقي وسرور شديد، كانا يجعلانه مُرتابًا في أن يكون للآخرين من بني الإنسان أية مصالح غير مصالحه الخاصة. مع ذلك، فقد كانت لهجته الرقيقة المتزنة، بالإضافة إلى أنانيته الساذجة، تخفف من غلواء المستمعين.

أنزل شينشين قدميه على الأرض، وتناهض وهو يقول لبيرج مربتًا على كتفه: حسنًا يا فتاي الطيب، هناك شيء واحد أثق به، وأتأكد منه، وهو أنه بمقدورك أن تفتح لنفسك الطريق سواء كنت في المُشاةِ أو الخيالة.

فطفح وجه بيرج بالسعادة، بينما راح الكونت ومدعووه يغادرون المكتب للانتقال إلى البهو.

بلغ المدعوون تلك الفترة التي تسبق اقتراب موعد الطعام، والتي جرت العادة على ألا يثيروا خلالها مناقشات طويلة، بينما يحاولون التظاهر بأن سكوتهم وجمودهم، لا يرجعان إلى لهفتهم على الانتظام حول المائدة، كان المضيفون ينظرون إلى باب البهو، ويتبادلون النظرات بين الحين والحين، بينما يحاول المدعوون جاهدين معرفة سبب التأخير، وهل مَردُّهُ انتظار أصحابِ الوليمة وصولَ قريبٍ رفيعِ المقام، أو تمهُّلهم ريثما ينضج لون معين من الطعام، تأخر الطهاة في تحضيره.

دخل بيير في تلك اللحظة بالذات، ومضى يجلس — بتصرفه الأخرق — على مقعد في منتصف البهو، معرقلًا بجلوسه عليه سير المدعوين وانتقالهم، حاولت الكونتيس أن تدخل معه في حديث، لكنه أجاب على كل أسئلتها بكلمات صغيرة مقتضبة، وهو يسرِّح حوله الطرف من وراء نظارتيه، باحثًا بنظرة ساذجةٍ عن شخص معين، فسبَّب تصرُّفه تشويشًا عامًّا شعر به كل الحاضرين باستثنائه هو، كان جُل المدعوين يتأملون بفضولٍ ذلك الفتى الوديعَ، ويتساءلون كيف استطاع مُتثاقِل مثله أن يعتدي بالضرب على ضابط بوليس.

سألته الكونتيس: هل وصلت لتوِّك؟

فأجابها، وهو ينقِّب بأبصاره في زوايا البهو: آه، نعم يا سيدتي.

– ألم ترَ زوجي بعد؟

أجابها بابتسامة في غير موضعها: كلا يا سيدتي.

– لقد عدتَ من باريز على ما أعتقد؟ إنه لأمر مثير! أليس كذلك؟

– كل الإثارة.

فهمت آنًّا ميخائيلوفنا من النظرة التي خَصَّتها بها صديقتها، أنها تستنجد بها لتحل عُقدةَ لسان هذا الشاب، فاقتربت من بيير وراحت تسأله عن أبيه، لكنها — كما كان حال الكونتيس — لم تظفر منه إلا بأجوبة قصيرة مغمغمة، وكان المدعوون يثرثرون بينهم، فيعلو لغطهم تارةً، وينخفض أخرى، ويصغي المرء إلى «آل رازوموفسكي … لقد كان ذلك رائعًا … إنك ذات فضل … الكونتيس آبراكسين»، تتردد على ألسنة المتحدثين، وفجأةً نهضت الكونتيس، وانتقلت إلى صالة الرقص.

سُمع صوتُها وهي تسأل: ماري دميترييفنا؟

وصوتٌ آخر قويٌّ يجيب: هي بذاتها.

ودخلت ماري دميترييفنا إلى البهو.

نهضت كل الشابات والسيدات — ماعدا المُسنَّاتِ منهن — لاستقبال القادمة، وقفت ماري دميترييفنا على عتبة الباب، وراحت تشمل الحشد بنظرة مترفعة، وهي تُسوي أكمامها بتؤدة، وكأنها تريد حسرها عن ذراعيها. كانت ضخمة الجثة، متينة التكوين، يشمخ رأسها باعتداد واعتزاز بخصلات الشعر الأصهب التي تكلله.

قالت القادمة بصوت جهيرٍ خطيرٍ ساد على الضجيج المُنبَعِث: عيدًا سعيدًا لسيدة الدار وأولادها.

وأردفت بالروسية التي لا تعرف لغةً سواها، تخاطب الكونت الذي كان يقبِّل يدها: وأنت أيها الفاسق العجوز، إنك مُتبرم بالحياة في موسكو، أليس كذلك؟ إنك لا تجد كلابًا تضنيها بالصيد والقنص، لكنك يا صديقي لن تستطيع إلا تقبُّل الواقع؛ لأن عصافيرك تنمو (وأشارت بيدها إلى الفتيات الصغيرات) فإذا شئت أم أبيت، فإنه يجب عليك أن تجد لهن أزواجًا.

والتفتت إلى ناتاشا التي كانت تقترب منها بجرأةٍ لتقبِّل يدها، وقالت: باه! أهذه أنت، أيتها القوقازية؟

وراحت تجري بيدها على شعرها ملاطفةً وهي تناديها بكلمة «قوقازيَّة»، التي درجت على إطلاقها عليها، وأعقبت: إنك ماجنة يا فتاة، لكن ذلك يرضيني.

وأخرجت من حقيبة يدٍ ضخمةٍ قرطين ذهبيين مصنوعين على شكل إجاصة، فأعطتهما لناتاشا التي طغى البِشر على وجهها، فأشرق واصطبغ بحمرة السرور والفرح، ثم استدارت تخاطب بيير مضفيةً على صوتها نبرة مرحةً لا تتفق مع لهجته: آه! تعالَ هنا أيها الباسل، تعالَ إليَّ أيها العزيز.

وشمرت عن كُمَّيْها بحماسةٍ وحميةٍ، وعادت تخاطب بيير، الذي خطا نحوها بضع خطوات، وهو ينظر إليها ببراءةٍ خلال نظارتيه: اقتربْ، اقتربْ أيها الباسل القوي! لقد كنتُ الوحيدة التي قالت لأبيك كل حقائقه عندما كان في أوج جبروته وسلطته، فلا تنتظرْ مني أن أرْتبك في حضرتك.

وصمتت صمتًا لم يجرؤ أحد على قطعه؛ لأن الموجودين أدركوا من سياق حديثها أن ما فاهت به حتى الآن ليس إلا استهلالًا لما بعده.

أردفت بسلاطتها تقول: يا للفتى الوديع! لعمري إنه أمر مُخجِلٌ. إن أباه على فراش الموت، والسيد يلهو ويعبث، ويتسلى بشد وَثاق ضباط البوليس إلى ظهور الدببة! إنه مخجل، يا فتاي! مخجل. يُستحسن أن تنخرط في الجندية.

وأدارت له ظهرها، وقدَّمت ذراعها إلى الكونت الذي كان يجد صعوبة في كتم ضحكته.

قالت مستطردة: حسنًا، لقد أزِفَت ساعة الطعام، ألا تعتقد؟

سارت مع الكونت في الطليعة، تتبعها الكونتيس متأبطة ذراع زعيم في الجيش، وهو شخصية لها خطورتها؛ لأن نيكولا كان سيلتحق بفيلقه تحت إمرته. وجاءت آنا ميخائيلوفنا برفقة شينشين، وبيرج مع فيرا، بينما كان نيكولا يرافق جولي كاراجين، التي كانت مُشرِقةَ الوجه بالابتسام، وتبعتهما أزواج أخرى على طول قاعة الرقص. أما

الأولاد ومعلِّموهم والمربيات، فقد جاءوا في نهاية الرتل دون ترتيب ولا انسجام، وهرع الخدم وصدحت الموسيقى، بينما أخذ المدعوون أمكنتهم وسط ضجيج المقاعد الذي أعقبه السكون، ولم تلبث أصوات الملاعق والسكاكين ولغط الحديث أن غطى أصوات الموسيقى، وطغى على صوت خطوات الخدم الخفيفة، وهم يهرعون في غدوهم ورواحهم، وفي الطرف الأقصى من المائدة جلست الكونتيس، وإلى يمينها ماري دميترييفنا، بينما جلست آنا ميخائيلوفنا وبقية السيدات إلى يسارها. أما في الجانب الآخر، فقد كان الكونت قابعًا إلى يسار الزعيم ويمين شينشين والرجال الآخرين، وكان الشُّبانُ والفتيان الصغار يشغلون وسط المائدة — فيرا إلى جانب بيرج وبيير إلى جانب بوريس — بينما في الجانب الآخر، احتشد الأطفال مع معلميهم ومربياتهم، وكان الكونت لا يفتأ يملأ أقداح جيرانه بالأنبذة، دون أن ينسى نصيبه منها، وهو ينقِّل طرفه بين حين وآخر إلى زوجته وقَلَنْسُوَتِها المرتفعة ذات الأشرطة الزرقاء السماوية، التي تنعكس خلال زجاج الأواني البلورية المرتبة على المائدة، وكانت الكونتيس بدورها تُلقي نظرات حافلة بشتى المعاني إلى وجه زوجها عبر المائدة، متخطية ثِمارَ الأناناس، دون أن تنسى واجباتها كمضيفة لَبِقَةٍ.

كانت جمجمة زوجها ووجهه المتضرجين يبدوان لها متنافرين مع لون شعره الأشهب، وكانت الأصوات في رُكْنِ السيدات خافتةً رتيبة، على عكس ركن الرجال، الذي كان النِّقاش فيه يحتدم أكثر فأكثر، يعلو فيه بصورة خاصة صوت الزعيم الذي كان يشرب الأقداح دون مزج، ويأكل بِنَهَمٍ وشهية اتخذهما الكونت أمثولةٍ طَلَبَ إلى مدعويه الاحتذاء بها. وكان بيرج — وعلى فمه ابتسامة حانية — يفسر لفيرا طبيعة الحب؛ تلك العاطفة السماوية التي لا علاقة لها بالأرض، بينما كان بوريس يُطلع صديقه الجديد بيير على أسماء المدعوين، وهو يتبادل النظرات المختلسة مع ناتاشا الجالسة قُبالته، وكان بيير يتفحص كل هذه الوجوه الجديدة، ويتحدث قليلًا ويأكل كثيرًا، حتى إنه لم يَستبعد من قائمة الطعام الحافلة إلا لونًا واحدًا فقط، ولم يرفض لونًا من الخمر، مِمَّا كان رئيس الخدم يقدِّمه من زجاجته الملفوفة بالمنشفة، فكان يصغي بغموض إلى أسماء الأنبذة المقدمة: «دري مادير، توكاي، نبيذ الرين … إلخ.» وكان أمام كل مدعو أربعة أقداح من البلور النقي، تحمل شعار الكونت، وقد أُعدت لأربعة أنواع مختلفة من الخمور، فكان بيير يقدم لرئيس الخدم أول كأس تقع عليه يده، فيملؤها هذا له ليفرغها في جوفه بحبور واضح، ويعود إلى تصفُّح وجوه المدعوين بنظرة تزداد التماعًا. وكانت ناتاشا — وهي تجلس قبالته — تنظر إلى بوريس كما تنظر الفتيات في سن الثالثة عشرة إلى الشاب الذي

يعتقدن أنهن يعشقنه، والذي تبادلن معه قُبلتهن الأولى، فكانت إحدى تلك النظرات تهيم ضائعة؛ لتتوقف على بيير، الذي كان يحسُّ برغبة في الضحك، دون أن يدري له سببًا، كلما وقع عليه نظر تلك الفتاة المنتعشة اليقْظى بوجهها الناطق الضاحك.

وتشاء الظُّروفُ أن يكون نيكولا بعيدًا عن سونيا، يتحدث مع جولي كاراجين، وعلى وجهه تلك الابتسامة المغتصبة. وعلى الرغم من أن سونيا كانت تتظاهر بالابتسام هي الأخرى، فإن الغيرة كانت تنهشها، فكانت تشحب وتحمرُّ طورًا فطورًا، وتحاول التقاط نُتف من حديثهما. أما المربية فكانت تحضن الأطفال بنظرة قلقة، وهي على استعداد للانقضاض على أي منهم، إذا جرؤ على مقاومة رغبتها. وكان المعلم الألماني يحاول — بمشقة كبيرة — أن ينقُشَ على لوح ذاكرته أسماء الأطعمة والخمور التي تُقدَّم على المائدة؛ ليتسنى له وصف كل ذلك بأدق تفاصيله في رسالته المقبلة التي سيرسلها إلى ذويه في ألمانيا. فلما مرَّ رئيس الخدم وراءه، حاملًا زجاجته الملفوفة بالمنشفة، دون أن يصُبَّ في قدحه منها، شعر بجرح في كرامته؛ لأنه أسيء فهمه، فهو ما كان يريد الخمر لإرواء عطشه أو لإشباع جشعه، بل إنه كان يود تذوُّق كل الأنواع؛ إرضاءً لرغبة الاطلاع في نفسه وزيادة معلوماته!

الفصل التاسع عشر

حول المائدة

كان الحديث يزداد اضطرامًا في زاوية الرجال على المائدة، وكان الزعيم يؤكد أن الحرب قد أُعلنت رسميًّا في بيترسبورج، وأن نسخة من مرسوم إعلان الحرب قد أُرسلت بالبريد إلى حاكم موسكو العسكري، وأنه اطَّلع على تلك النسخة بنفسه.

هتف شينشين: هل تستطيع أن تحدثني بالسبب الذي من أجله نعلن الحرب على بونابرت؟ أيُّ شيطان أثيم يدفعنا إلى إعلانها؟ لقد أَخْمَدَ من قبل ثورة النمسا، وأخشى أن يكون دورنا قد حَلَّ.

استاء الزعيم — وهو ألماني طويل القامة، متين البنيان، مضرج الوجه، عسكري غيور ووطني — لمزاعم شينشين، فأجابه قائلًا — بلكنة أجنبية ظاهرة على مخارج كلامه: لأي سبب يا سيدي العزيز؟ إن الإمبراطور يعرف السبب، إنه يقول في بيانه إنه لا يستطيع البقاء متفرجًا على الأخطار التي تُهدِّدُ روسيا وتحيق بها، وإن سلامة الإمبراطورية وكرامتها وصحة التعاقد والارتباطات …

وضغط على هذه الكلمة، وكأنه يشير إلى أنها تحوي على مفتاح السِّرِّ، ثم راح — بذاكرة الرجل الرسمي التي لا تخون — يتلو المقطع الأول من البيان:

> … ورغبة الإمبراطور المقررة في تحقيق السلم في أوروبا على قواعد مَتينةٍ، دفعته إلى إرسال جزء من الجيش خارج الحدود الروسية، والارتباط بتعاقد جديد لينفِّذ رغباته وأهدافه.

وأضاف قائلًا: هذا هو السبب يا سيدي العزيز.

ونظر إلى الكونت منتظرًا موافقته على قوله، وأفرغ قدحه في جوفه بأسًى.

أجاب شينشين، وهو يعجو وجهه: هل تعرف المثل القائل: «من الخير أن يعنى المرء «بملفوفه»، على أن يُصابَ بالنوائب والمحن»؟ إن هذا المثل ينطبق علينا انطباقًا كليًّا، لقد كان سوفوروف[1] جبارًا قويًّا، مع ذلك فقد هُزم هزيمة نكراء، فأين نحن الآن من سوفوروف؟ وأين مثله بيننا؟ إنني أتساءل وأسألك الجواب.

كان شينشين — كعادته — يقفز من الفرنسية إلى الروسية وبالعكس. أجابه الزعيم — وهو يضرب المائدة بيده: ينبغي أن نحارب حتى آخر نقطة من دمائنا، وأن نموت في سبيل إمبراطورنا إذا اقتضى الأمر، وأن نناقش الأمور على أضيق مدًى ممكن.

وضغط كذلك على المقطع الأخير، وأردف مكرِّرًا: نعم على أضيق مدًى ممكن؛ وعندئذٍ سيسير كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟

وراحت عيناه تبحثان من جديد عن موافقة الكونت وتأييده، ثم استرسل قائلًا: إننا معشر الجنود القُدامى نفكر بمثل هذه العقلية فقط! فما رأيك أيها الجندي الشاب والفتى الغض؟

كان السؤال الأخير موجهًا إلى نيكولا الذي ما إن شعر بأنهم يتحدثون عن الحرب حتى أغفل صديقته واندفع، بكل حواسِّه، مصغيًا إلى ما يدور من حديث حول هذا الموضوع، قال مجيبًا على السؤال بحماس بيِّن: إنني من رأيك تمامًا.

ثم أزاح الصِّحافَ والأقداح من أمامه بجرأة الرجل الذي يتهدده خطر ماحق، وأضاف: نعم، إنني مقتنع بأن على الروس، إما أن ينتصروا وإما أن يموتوا كِرامًا.

كانت العبارة الطنانة شديدة الوقع في ذلك الجو، لكنه شعر بعد فوات الأوان أنها لا تنسجم مع الجو، كما لا حظ المدعوون؛ لذلك فقد بان عليه الارتباك، فقالت جارته جولي تؤيده: إن ما قلته لرائع جميل!

أما سونيا، فإنها عندما سمعته يتكلم على ذلك النحو، اقشعر جسمها، وتضرج وجهها، حتى إن عنقها لم ينجُ من تأثير القشعريرة، وغدا أُرجوانيًّا.

وكان بيير يصغي إلى آراء الزعيم، فأيَّده بإشارة من رأسه، وقال: إنه لعمري رأي سديد ناضج.

---

[1] ألكسندر سوفوروف، أو سافاروف، جنرال روسي وُلد في موسكو عام ١٧٢٩ وتوفي عام ١٨٠٠، أخمد الثورة في البولونية عام ١٧٩٤، وحارب ضد جيوش الثورة في إيطاليا، وحاز على انتصار حاسم في ماسيفا «زوريخ». كان جنرالًا ماهرًا ممتازًا، لكنه كان ذا عقلية شاذة غريبة. (المترجم)

بينما هتف الزعيم — وهو يضرب المائدة بقوة وشدة فاقتا ما بدر منه في المرة السالفة: إنك جندي حقيقي، أيها الشاب!

غير أن صوت ماري دميترييفنا الخفيض ارتفع فجأةً من الطرف الآخر للمائدة مجلجلًا، قالت تسأل العسكري الكبير: ما هذا الصَّخَبُ؟ لِمَ تضرب على المائدة؟ مع من تظُنُّ نفسك الآن؟ هل تعتقد أنك أمام الفرنسيين في هذه اللحظة؟

فأجاب الزعيم باسمًا: إنني لا أقول غير الصدق.

وهتف بها الكونت من مكانه مفسرًا: إننا كنا منهمكين في التحدُّثِ عن الحرب يا ماري دميترييفنا، ذلك لأن ابني سيشترك فيها، هل تفهمين؟ ابني، نعم، نيكولا.

فأجابت ماري دميترييفنا بصوت بلغ طرف القاعة الأقصى دون أن ترفعه: وماذا في ذلك؟ إن لي أربعة أولاد في الجيش، مع ذلك لست أبكي من أجلهم؛ لأننا جميعًا بين يدي الله، فهنا يموت حي وهو على فراشه، وهناك يحارب بعضهم دون أن يُصابَ بأي أذًى، وهكذا …

– لا شَكَّ، لا شك.

وبعد هذا الفاصل، عاد كل من الفريقين إلى حديثه الخاص، دون أن يعير ما يقوله الآخرُ التفاتًا. وفي تلك اللحظة، كانت ناتاشا تنظر إلى أخيها مُتحديةً وهو يقول لها: لن تجرُئي على ذلك السؤال، كلا لن تجرُئي …

وكانت تجيبه مُصرَّةً مُعتدَّةً بنفسها: بل أجرؤ!

وأشرق وجهها بتصميم جريء عاتٍ، فنهضت وألقت نظرة على بيير تدعوه للإصغاء إلى ما ستقول، ثم التفتت إلى أمها، وقالت بصوتها الصبياني، محاوِلة اجتذاب انتباه أمها والسامعين: أُمَّاهُ!

فسألتها الكونتيس مذعورة: ماذا هناك؟

لكنها لَمَّا قرأت على وجه ابنتها بوادر محاوَلة ماكرة خبيثة، نظرت إليها بصرامة، ودَعتها إلى الصمت بحركة من يدها، وأعقب ذلك صمت. لكن الصغيرة لم تلبث أن انطلقت تسألها بلهجة حازمة وكلمات متلاحقة: أماه، ماذا سيُقدَّمُ لنا قبل انتهاء الطعام؟

لم تجد الكونتيس مبرِّرًا للغضب، بينما رفعت ماري دميترييفنا إصبعها مهددة، وقالت مغمغمة: حاذري يا «قوقازية»، اهدئي!

وراح المدعوون ينظرون إلى الوالدين، وموقفهما من سؤال ابنتهما؛ ليتصرفوا بما يتناسب والمقام، فإن غضبا أظهروا استياءهم، وإلا ابتسموا مبتهجين.

فقالت الكونتيس: انتظري برهة.

ازداد صوت ناتاشا ارتفاعًا، وقد تأكدت من أن رعونتها هذه لن تسبب لها أي عقاب: أماه، ماذا سيقدم لنا قبل انتهاء الطعام؟

كان بيتيا الضخم وسونيا لا يكادان يكبتان ضحكتهما، أمَّا ناتاشا فقد قالت لأخيها مُباهيةً — وهي تطيل التحديق في وجه بيير: ها قد سألتها!

قالت ماري دميترييفنا مجيبة: ستقدم «البوظة»، لكنك لن تُطعمي منها.

ولما كانت ناتاشا متأكدة من أنها لن تُعاقَبَ، تجرأت على الصمود أمام «التنين» بالذات، قالت: أية «بوظة» يا ماري دميترييفنا؟ إنني لا أحبها مع الفانيليا.

– بل ستكون بالجزر!

فصاحت العابثة — بصوت أقرب إلى الصُّراخ: غير صحيح! أي نوع من «البوظة» يا ماري دميترييفنا؟ أي نوع؟ أريد أن أعرف.

فانفجر السامعون بالضحك اعتبارًا من ماري دميترييفنا نفسها، وحتى الكونتيس التي كبتت ما في نفسها، ولم يكن جواب «التنين المرعب» هو الذي أثار تلك العاصفة الهوجاء من الضحك، بل كانت جرأةُ الفتاة الخبيثة، التي عرفت كيف تصمد أمام «التنين» في غير وجل، هي السببَ.

ولما أُبلغت أن «البوظة» ستكون بالأناناس، تظاهرت ناتاشا بالرضى. وطاف الخدم بالشمبانيا قبل تقديم «البوظة»، وعُزفت الموسيقى «بَشْرَفًا» آخر، فمضى الكونت إلى زوجته يعانقها، فجدد المدعوون تمنياتهم بمناسبة ذلك العيد، وقُرِعت الأكؤس، وشُربت الأنخاب؛ أنخاب الكونتيس والكونت وأولادهما، ثم عاد الخدم إلى النشاط، وعلا صخب المقاعد، وارتفعت جلبتها، وغادر المدعوون قاعة المائدة بالترتيب الذي نهجوا عليه عند دخولهم، مع فارق واحد؛ وهو أن وجوههم كانت متضرجة من أثر الخمر الجيدة المُعتَّقة، وانتقلوا إلى البهو الكبير، حيث مكث فيه الذين كانوا فيه من قبل، بينما قصد الرجال إلى مكتب الكونت ليعودوا إلى أحاديث ما قبل الطعام.

الفصل العشرون

آلام العشاق

نُصبت موائد لعب الورق، ونُظمت الجماعات، وانقسم الموجودون بين البهو والمخادع والمكتبة.

كان الكونت يمسك بالأوراق في يده على شكل مروحة، ويغالب النعاسَ الذي تسلط عليه، بحكم اعتياده على النوم بعد الطعام، واجتذبت الكونتيس الشباب والشابات إلى الأرغن «والبيانو»، فمضت جولي، استجابةً للرغبة العامة، تعزف على الأرغن قطعة متنوعات، ثم اتحدت مع الشابات، ووجهن جميعًا دعوتهن إلى ناتاشا ونيكولا ليشتركا في غناء قطعةٍ ما؛ نظرًا لِمَا عُرف عنهما من مَيلهما للموسيقى، وموهبتهما الطبيعية في هذا المضمار.

شعرت ناتاشا بالاعتداد والفخار؛ لأنها عوملت معاملة الأشخاص الكبار، ودُعيت للغناء بالإجماع، لكنها — مع ذلك — أحست بشيء من الارتباك.

سألت: ماذا سنغني؟

فأجابها نيكولا: أغنية «النبع».

– حسنًا، لنشرع، تعالَ يا بوريس إلى هنا. لكن أين سونيا؟

ولما رأت ناتاشا أن صديقتها اختفت، هرعت تبحث عنها، فلما لم تعثر عليها في غرفتها ولا في غرفة الأولاد، اعتقدت ناتاشا أنها — ولا شك — مُختفيةٌ فوق الصندوق في المَمْشَى، لقد جرت عادة فتيات آل روستوف الصغيرات على الانزواء فوق ذلك الصندوق، كلما أردْن أن ينفثن عن صدورهن. وقد صدق حدسها؛ إذ إن سونيا — دون اعتبار ما قد يصيب ثوبها الجميل الرقيق الوردي من أذًى — كانت مستلقية على صدرها على فراشٍ من الزغب، مخطَّطٍ قذر، عائد للمربية، وموضوع فوق ذلك الصندوق، وقد دفنت وجهها بين يديها، وراحت تبكي بكاءً مُرًّا، اهتزت له كتفاها الدقيقتان العاريتان. تخلَّت

ناتاشا عن بهجة العيد التي كانت فائضة على وجهها، والتي لم تبارحها طِيلةَ ذلك النهار، وشخصت أبصارها، وسرت رعشة في جسدها، وهبطت زاويتا فمها، هتفت: سونيا، ماذا بك؟ ماذا حدث بالله؟ هئ، هئ، هئ!

وانقلبت سِحنتُها، وتشوه فمها الكبير، تبعًا للتقلُّصِ الذي اعترى وجهها، فبدت شديدة البشاعة، وراحت تنتحب بدورها كطفل صغير، دون أي سبب، إلا لأن صديقتها تبكي. ودت سونيا أن ترفع رأسها لتجيب على سؤال صديقتها، لكنها لم تجد القوة الكافية على ذلك، فراحت تزيد في البكاء ممعنة في إخفاء وجهها، جلست ناتاشا وهي باكية أيضًا على الفراش الأزرق، وأخذت صديقتها بين ذراعيها، وأخيرًا، استعادت سونيا بعض شجاعتها، فتناهضت، وراحت تمسح دموعها في غير عناية، استعدادًا لشرح ما يحزنها، قالت: إنَّ نيكولا سيذهب بعد ثمانية أيام ... لقد تلقَّى أمر المسير العائد إليه ... لقد حدثني بذلك ... لكنني لست أبكي من أجل هذا، ولكن ...

وأبرزت لها ورقة كانت تخفيها في يدها، عرفت ناتاشا من النظرة الأولى أنها تحوي على الأبيات التي كتبها نيكولا بعد أن نَظَمَها متغزلًا بسونيا — لكنك لا تستطيعين أبدًا ... بل لا يستطيع أحد أن يدرك مبلغ نُبْلِ نفسه!

ولما تذكرت تلك النفس النبيلة، عادت إلى البكاء من جديد، أردفت بعد لأيٍ: إنك سعيد أنت ... ولستُ أشعر بالغيرة منك ... إنني أحبك وبوريس حبًّا جمًّا، وهو لطيف، ولا شيء يعترض زواجكما ... أما نيكولا، فهو ابن عمي ... وينبغي لنا الحصول على إذن خاص من الأسقف إذا أردنا الزواج ... وهو يستطيع أن يرفض إعطاءنا الإذن الخاص ... ثم إذا تحدث بعضهم إلى أمي (وكانت سونيا تعتبر الكونتيس أمًّا لها، وتدعوها كذلك) فإنها ستقول إنني أحطم مستقبل نيكولا، وإنني عديمة الشعور، ناكرة الجميل ... مع ذلك، يشهد الله (ورسمت إشارة الصليب على صدرها) على أنني أحب ماما وأحبكم جميعًا ... غير أن فيرا ... ولكن لماذا؟ ماذا عملت لها؟ إنني شديدة الاعتراف بجميلكم جميعًا، حتى إنني على استعداد للتضحية بكل شيء من أجلكم، لكن ليس لدي شيء ...

وأُرتِجَ عليها، فأخفت وجهها من جديد بين راحتيها، وعادت إلى الفراش تلتجئ إليه، فراحت ناتاشا تعزِّيها أجمل عزاء، غير أن وجهها كان ساهمًا، ينبئ بأنها تفهم أحزان صديقتها على الوجه الصحيح.

هتفت فجأةً، وكأنها اكتشفت سبب حزن ابنة عمها: سونيا! لقد تحدثت فيرا معك بعد الطعام، أليس كذلك؟

– نعم، إن هذه الأبيات كتبها نيكولا بيده، وقد نسخت بنفسي أبياتًا أخرى، وقد وجدتها على طاولتي، فقالت إنها ستعطيها لـ «ماما»، ثم قالت لي: إنني عاقَّةٌ، وإن ماما لن توافق أبدًا على زواجنا، وإنه سيتزوج جولي، ألم تري أنه كان يغازلها طيلة النهار؟ ناتاشا، لِمَ تعذبني على هذا الشكل؟

وعاد إليها البكاء على أشُدِّهِ، فأنهضتها ناتاشا، وأحاطتها بذراعها، وهي تبتسم خلال دموعها، وراحت تعمل على تهدئة خاطرها: لا تصدقيها يا عزيزتي سونيا، لا تصدقيها، تذكَّري حديثنا مع نيكولا في المخدع. هل تذكرين، ذات مساء بعد العشاء؟ لقد قررنا آنذاك كيف ينبغي أن نتصرف في الأمر ليتحقق لنا المستقبل المنشود، لقد نسيت التفاصيل، لكن كل شيء سيسير وَفْقَ ما اتفقنا عليه، أتذكرين؟ إن أخا العم شينشين قد تزوج ابنة عمه لأبيه. ونحن، إننا جميعًا تابعون لهذا التسلسل العائلي. إن بوريس يقول إن كل شيء سهل ميسور. لقد حدثته بكل شيء كما تعلمين. إنه لَطيف جدًّا وذكي جدًّا. هيا يا سونيا، لا تبكي يا عزيزتي، يا حبيبتي (وعانقتها وهي تضحك) إن فيرا خبيثة، فلا تصغي إليها، لن تقول: شيئًا لـ «ماما»، وسوف نسوي كل شيء، إن نيكولا هو الذي سيتحدث إلى ماما، تأكدي من ذلك، ولا تفكري قط في جولي.

وقبَّلت جبينها، فنهضت سونيا، وعادت الحياة إلى القطة الصغيرة، فالتمعت عيناها، وبدت على أُهبةٍ للقفز على أرجلها المرنة، وللعب بكرة الصوف، والبصبصة بذيلها، وبكلمة موجزة، بدت القطة الصغيرة مستعدة للعودة إلى طبيعتها المرحة.

قالت سونيا، وهي تسوي ما فسد من زينتها وشعرها بسرعة: أتعتقدين ذلك؟ حقًّا؟ كلام شرف؟

فأكدت ناتاشا قائلة، وهي تسوي خصلة من الشعر أفلتت من ضفيرة ابنة عَمِّها: كلام شرف!

وراحتا تضحكان بمرح.

– والآن، هيا بنا نغنِّي «النبع».

– هيا بنا.

لكن ناتاشا توقَّفت فجأةً، وقالت: أتعرفين، إن هذا الضخم بيير، الذي كان جالسًا قبالتي على المائدة، يبدو غريبًا مضحكًا، إنني أتسلى بالنظر إليه!

وراحت تجري في المَمْشَى، واندفعت سونيا على آثارها بعد أن نزعت الزَّغبَ العالق بثوبها، وأودعت في صدرها الضامر الهزيل الورقة الحاوية على الأبيات الشعرية، تبعت ناتاشا نشيطة، خفيفة الحركة، فلحقت بها قبل أن تغادر الممشى.

غنَّى الشبان والشابات الأربعة أغنية «النبع»، بناءً على طلب المدعوين، فصفقوا لهم طويلًا، ثم غنى نيكولا وحده قصيدة كان قد تعلَّمها حديثًا:

عندما يلمع القمر في السماء الصافية،
يفكر العاشق الحزين بقلق،
لا بد من وجود مخلوقة على الأرض،
يستجيب قلبها لنداء أشواقي،
وعلى أرغنها المرتعش
تمرر أصابعها المرتعدة،
وتدعوني بحب مدنف
وهي مستعدة لاستجابة رغباتي الملتهبة،
وبعد انتظار يوم أو اثنين
سيفتح النعيم أبوابه …
أسفًا! إن أملك خائب،
وصديقك المسكين لن يكون بعدُ في الوجود!

لم يكن قد انتهى من أغنيته بعد، حتى كان الشبان في القاعة الكبرى يتأهبون للرقص، وكان أعضاء الفرقة الموسيقية يضبطون الإيقاع بأقدامهم؛ استعدادًا للشروع في العزف.

خلال ذلك، كان شينشين في البهو داخلًا مع بيير في بحث سياسي عميق، أضحى بعد ذلك بحثًا عامًّا، كان شينشين يرغب في استطلاع رأي شاب ناشئ تثقف خارج البلاد وعاد إليها بمعلومات جديدة، وكان بيير متضايقًا في مجلسه، يتوق إلى التخلص من ذلك الجَوِّ المقبض، وما إن عَزَفَت الموسيقى المقاطع الأولى، حتى دخلت ناتاشا واتجهت نحوه مباشرةً.

قالت الفتاة ضاحكة: لقد أوعزت إليَّ أمي أن أستبقيك للرقص.

فنهض بيير، وقد تضرج وجهه حتى حاكى حُمرةَ وجهها، وأجاب: إنني أخشى أن أُفسد الحركات الراقصة، لكنني أقبل إذا وافقتِ على أن تكوني أستاذتي.

واضطر إلى الانحناء؛ ليستطيع إعطاء ذراعه القوية إلى الفتاة النحيلة الصغيرة.

استمر بيير يرافق فارسته طيلة الوقت الذي لبثت الفرقة الموسيقية تعزف خلاله، وكانت ناتاشا تكاد أن تطير فرحًا؛ لأنها كانت تراقص «شابًّا حقيقيًّا» عاد منذ قليلِ

وقتٍ من «الخارج»، فكانت تحاكيه في حركاته، وترافقه على مرأًى من الموجودين، وكأنها سيدة كبيرة! ولما أعطتها إحدى الآنسات مروحتها على سبيل الإعارة راحت تستعملها وفق أحدث الأساليب الاجتماعية الراقية — دون أن يُعرفَ أين ومتى تعلمت تلك الأساليب — وهي تبسم لبيير من ورائها، وتتحدث معه على أحسن ما يكون الحديث من الجد.

وصدف أن كانت الكونتيس روستوف تجتاز القاعة في تلك اللحظة، فقالت تشير إلى ابنتها: ولكن ما هذا؟ انظروا إلى هذه!

فأجابت الفتاة، وقد تصعَّد الدم إلى وجهها: ثم ماذا يا أماه؟ لِمَ تسخرين مني؟ أية غرابة تجدينها في مظهري؟

وعندما عزفت الموسيقى رقصة الأيقوسية الثالثة، ارتفع من المكتب — حيث كان الكونت يلعب الورق مع ماري دميترييفنا — ضجيج مقاعد وجلبة خطوات؛ إذ نهض الأشخاص المسنون ومعظم المدعوين من ذوي الحيثيات الذين شعروا بحاجتهم إلى الحركة وترويض أطرافهم، فأودعوا في جيوبهم نقودهم وحافظاتهم واتجهوا نحو قاعة الرقص على شكل رتل؛ كل فارس يرافق مراقصته، فجاء الكونت مع ماري دميترييفنا في الطليعة، وهما على أحسن مزاج، ثنى الكونت ذراعه وقدَّمها بأدب جم إلى مراقصته، ونصب قامته واتخذ طابع المرح مُتصابيًا، ولما انتهت الحركة التصويرية الأخيرة من تلك الرقصة، صَفَّق بيده وهتف مشيرًا إلى السُّدة، مُحدِّثًا عازف الكمان الأول: هل تعرف «دانيللو كوبر» يا سيميون؟

والدانيللو كوبر هي إحدى الحركات التصويرية لرقصة إنجليزية، كان الكونت في شبابه يتعشقها ويميل إلى رقصها دائمًا، وقد امتازت هذه الرقصة بسرعة الحركة، ووجوب استعمال الخفة في التَّنقل، هتفت ناتاشا وهي تطلق ضحكة مدوية امتلأت القاعة بصداها، وتنحني فيلامس رأسها المتوج بالشعر الجميل ركبتيها: انظر إلى بابا!

نسيت تمامًا وهي في سياق مرحها أنها تراقص «شابًّا حقيقيًّا».

والحقيقة أن كل الحاضرين، راحوا ينظرون إلى ذلك العجوز المرِح، الذي كان إلى جانب مُراقِصتِه الضخمة، التي تفوقه طولًا، ويبرز رأسها اعتبارًا من العنق فوق هامته، يكوِّر ذراعيه، ويضبط الإيقاع، فيهز كتفيه، ويقرع الأرض بقدمه، وعلى شفتيه ابتسامة مرحة تضفي على وجهه بهجة ومرحًا، ملفتًا انتباه الحشد المتفرِّجِ إلى المشهد الممتاز الذي هو في سبيل عرضه عليهم، فلما صدحت الموسيقى بمطلع الرقصة الرشيقة، فُتحت الأبواب كلها، وأطلت منها وجوه مشرقة باسمة تتطلع بانتباه ولَذَّةٍ إلى ذَيْنِك الراقصين،

فكان الخدم والرجال من جهة، والنساء من جهةٍ أخرى، يراقبون جميعهم الكونت وهو يعود إلى أيام الصبا.

هتفت المربية الواقفة قرب أحد الأبواب: آه، إن سيدنا نسر حقيقي!

كان الكونت يرقص برشاقة تثير الإعجاب، وكان يعرف ذلك عن نفسه، أما الفارسة فكانت على عكس ذلك، سيئة الحركة، تُفسد الرقصة دون أن تُبالي بأخطائها، فكانت جثتها الضخمة الهائلة منتصبة ثابتة في مكانها، وذراعاها الهائلتان منسدلتين بلا حراك إلى جانبيها بعد أن تخلصت إحداهما من الحقيبة الضخمة، التي ما فتئت تُلازِمُها، بإعطائها إلى الكونتيس، ولم يكن إلا وجهها القاسي، الذي يمتاز بجماله، يتابع الرقصة بالبِشر المنتشر على قَسَماتِهِ، فكانت ابتسامتها متسعة تكاد تشمل الوجه كله، ورأسها مرتفع إلى الوراء باعتداد متشامخ، أما الكونت، فكان على العكس، يرقص بكل جسده الممتلئ، لكنه على الرغم من أن كل حركة من حركاته الرشيقة وخطواته المتَّزِنة البديعة كانت تثير إعجاب المتفرجين، فإن أقلَّ حركة أو اهتزاز من كتفَي ماري دميترييفنا أو قدميها، كانت تُحدث تأثيرًا مماثلًا في نفوس المتفرجين، الذين كانوا سعداء لرؤيتها في ذلك الوضع؛ تُسخِّرُ جثتها الضخمة، وتتساهل رغم صلابتها المعروفة، وكانت الرقصة تزداد حيوية ونشاطًا، حتى إن الراقصين الآخرين ما كانوا يستطيعون اجتذاب انتباه أحد، وعلى الرغم من أن الكونت وماري دميترييفنا كانا محطَّ أنظار الجميع، فإن ناتاشا كانت تتهافت على المدعوين واحدًا تلو الآخر، فتجذب هذا من كُمِّه وتلك من ثوبها، لتنبههم إلى «البابا» وهو على حاله تلك، وكان الكونت خلال فترات من الراحة يتنفس بصعوبة، ويوحي للعازفين سواء بالإشارة أم بالقول أن يضاعفوا سرعة العَزْفِ؛ الأمر الذي كان يزيده نشاطًا ومرونة واندفاعًا، فيدور تارةً على رأسي قدميهِ، وطورًا على كعبيه حول الراقصة البدينة. وأخيرًا، وبعد أن قادها إلى مجلسها، قام بالحركة الأخيرة؛ بأن رفع ساقه المرنة إلى الوراء، معتمدًا على ساقه الأخرى، وانحنى حتى أصبح جسمه زاوية قائمة على ساقه، ورسم بيده اليمنى دائرة متسعة انتزعت عاصفة من التصفيق والضحكات التي كان صوت ناتاشا واندفاعها يبرزان خلالها. وكان الراقصان المُجِدَّان على آخر رمق، فتوقفا وراحا يجففان أيديهما ووجهيهما بمناديلهما الفاخرة.

قال الكونت: كذلك كنا نرقص من قبل يا عزيزتي.

فأجابت ماري دميترييفنا، بعد أن استجمعت أنفاسها بصعوبة وراحت تحسر الكُمَّيْنِ عن ذراعيها: ذلك هو ما يسمُّونه «دانيللو كوبر».

الفصل الحادي والعشرون

المؤامرة

وبينما كان المدعوون يرقصون «الإنجليزية» السادسة في منزل آل روستوف، وقد راح الموسيقيون يخطئون في الإيقاع لشدة التعب، والخدم والطهاة يهيئون العشاء، أصيب الكونت بيزوخوف بنوبته السادسة، أعلن الأطباء أن الأمل الأخير قد ضاع، لذلك فقد لَجَئوا إلى أخذ اعتراف المريض «ومناولته» وهو فاقد الوعي، وراحت الاستعدادات للمرحلة الأخيرة تُتَّخذ، وسط الطقوس الدينية المرعية، وسادت الفوضى الطبيعيةُ في مثل هذه الظروفِ الفندقَ كلَّه، وهُرع متعهدو الدفن إلى الأبواب لاصطياد ذلك الصيد الثَّمين، فراحوا يحاصرون مداخل الفندق، ويختفون كلما وصلت عربة بعض السادة أمام الباب، وجاء حاكم موسكو العسكري بنفسه يودِّع صفي كاترين الثانية العتيد الوداع الأخير، بعد أن أقام مساعديه وحُجابه في الفندق؛ ليطلعوه أولًا فأول على أخبار المريض وتطوراته.

كانت قاعة الاستقبال الفخمة تعجُّ بالناس، فلما خرج الحاكم العسكري من غرفة المريض، بعد أن مكث مختليًا به نصف ساعة، نهض الموجودون في قاعة الاستقبال منطلقين، لكن الحاكم مرَّ بين المحتشدين متحاشيًا الرَّدَّ على تحياتهم، وعلى أسئلة الأقارب والأطباء ورجال الدين، وكان الأمير بازيل، الذي نحل وشحب خلال الأيام الأخيرة، يرافق الحاكم ويهمس في أذنه من حين إلى آخر بكلمات معينة، ولما ودَّع الحاكم بعد أن شيعه إلى الباب، عاد الأمير يجلس وحيدًا في البهو، وقد وضع ساقًا فوق ساق، وأسند مرفقيه إلى ركبتيه، وأخذ رأسه بين يديه، ولم تمضِ بُرهةٌ حتى نهض، وسار بخطوات عصبية لم يسبق أن ظهرت في مِشيته من قبل، وهو يُلقي حوله نظرات قلقة، فقطع الممشى الذي يفصل بين أجنحة المسكن وغرفه الداخلية، ومضى إلى مخدع كُبرى الأميرات.

خلال ذلك كان الزُّوارُ يتحدثون بأصوات خافتة في القاعة الكبرى، التي كان يضيئها نور خفيف، ومن حين إلى آخر، كان الباب المؤدي إلى غرفة المُحتضِر يُحدث صريرًا خافتًا،

كلما فُتح ليخرج منه بعضهم، فتعود الآراء إلى الاحتدام، وترتفع الأبصار إلى وجه الخارج بقلق واكتئاب.

قال عجوز يرتدي ثياب رجال الدين، يخاطب سيدة بجانبه جلستْ تُصغي إليه ببراءة وسذاجة: إن لكل مخلوق أجلًا، لا يستطيع تجاوزه.

فسألت السيدة، وهي تُضفي على أقوالها صبغة كنائسية: ألم يَفُتِ الوقت بعدُ لتَلْقينه الصلوات الأخيرة؟

ولما كان يبدو على وجهها جهلها التام بما تقول، أجاب رجل الكنيسة مغتمًّا وهو يمر بيده على رأسه الأصلع، الذي ما زالت خصلات من الشعر مبعثرة في أطرافه: يا سيدتي العزيزة، إنه طقس ديني كبير.

وفي الطرف الأقصى من الغرفة، ارتفعت أصوات تقول: من هو هذا؟ الحاكم العسكري؟ إنه يبدو شابًّا!

– بل إنه تخطى الستين. يُقالُ إنَّ الكونت فَقَدَ القدرة على التعرف على الأشخاص، سوف يلقنونه الصلوات الأخيرة.

– إنني أعرف واحدًا لُقِّنَ سبع مرات وعاش بعدها.

خرجت ثانية الأميرات من غرفة المحتضر، وراحت تجلس قرب الطبيب لوران، الذي كان متكئًا على نضد في جلسة مريحة، تحت صورة كاترين الثانية.

أجاب على سؤال يدور حول الطقس طرحته الأميرة عليه: جميل جدًّا يا أميرة، جميل جدًّا، إن القاطن في موسكو يعتقد أنه يعيش في الأرياف.

– أليس كذلك؟ هل نستطيع أن نعطيه ما يشرب؟

علت وجه لوران أمارات التفكير، سألها: هل أخذ جرعة الدواء؟

– نعم.

نظر لوران إلى ساعته وقال: خذي قدحًا من الماء المغلي، وأضيفي إليه قليلًا من المسحوق الذي أعطيته لك.

وأشفع قوله بحركة من إبهامه وسَبَّابتِه، ليشير إلى الكمية الضئيلة التي يجب أن تضعها في قدح الماء.

قال طبيب ألماني لأحد المساعدين العسكريين: لم يسبق مثيل لهذه البادرة؛ إذ لم ينجح أحد بعد النوبة الثالثة قط.

فقال الضابط المساعد: لقد كان معنيًّا به عناية شديدة!

ثم أضاف هامسًا: لمن ستئول ثرواته؟

فأجاب الألماني بلغته المحطمة الركيكة وهو يبتسم: لن ينقص الأدعياء والراغبون فيها.

شخصت عيون الاثنين إلى الباب الذي كان يصرُّ من جديد، وتابعت الأبصار الأميرة، وهي تحمل للمريض الوصفة التي أشار بها لوران، فاقترب الألماني من زميله الشهير، وسأله بفرنسية تظهر فيها رطانة أجنبية مضحكة: هل يطول به الأمر حتى الغد؟

فزمَّ لوران شفتيه، وراح يحرك سبابته أمام أنفه حركات سلبية، وقال بتؤدة: كلا، لن يتأخر أكثر من هذا المساء.

وأشفع رأيه الحاسم بابتسامة مُهذَّبةٍ مقنعة وابتعد.

كان الأمير بازيل يفتح الباب المؤدي إلى غرفة الأميرة، وكانت هناك شمعتان تحترقان أمام الصور المقدسة، فتعطيان ضوءًا شاحبًا خافتًا، والمباخر والزهور تملأ الغرفة التي تتزاحم فيها الدواليب والمناضد والخزائن، وكان يُرى من وراء سِتر من القماش، أطراف سرير مرتفع ذي فراش من الريش، فلما فُتح الباب نبح كلبٌ صغير: آه، أهذا أنت يابْن عمي؟

نهضت الأميرة وصقلت شعرها الذي جرت عادتها على ترجيله دون عقص ولا حزم، حتى وكأنه ملتصق بفروة رأسها التصاقًا، سألته: ماذا هناك؟ لقد أخفتني.

فأجاب الأمير وهو يتهاوى على المقعد الذي بارحته الأميرة: لا شيء، لقد جئت لأتحدث معك بأمور مهمة يا كاتيش. ربَّاهُ! إن الحرارة عندك خانقة! تعالي نجلس ونتحدث.

وكلمة كاتيش، هي التحريف لتصغير كاترين على الطريقة الفرنسية، وكاترين هو اسم الأميرة الكبرى.

قالت الأميرة وهي تجلس قُبالةَ الأمير وعلى وجهها البارد برودةَ الصخر طابعٌ من الجمود: لقد ظننت أن أمرًا قد وقع. كنت أريد النوم قليلًا يابْن عمي، لكنني لن أستطيع.

– حسنًا، وماذا بعد يا عزيزتي؟

طرح الأمير ذلك السُّؤالَ بعد أن استجاب لحركته الغريزية، التي درج عليها كلما استغرق في التفكير العميق، فأخذ يد الأميرة، وأنزلها نحو الأرض، وكانت عبارته «وماذا بعد يا عزيزتي؟» تحمل معاني كثيرة، كان كلاهما يفهمها دون حاجة إلى إعلانها وإظهارها.

راحت الأميرة تُحدِّجُ الأمير بعينيها الكئيبتين، بنظرةٍ خاليةٍ من المعاني والتعابير، وقد انتصب جذعها الأعجف، الذي يعوزه التناسق مع ساقيها القصيرتين، هزت برأسها، وألقت نظرةً إلى الصور المقدسة، وزفرت.

وكانت تلك الحركة تعني: إما شدة الحزن، وإما الرغبة في راحةٍ تستحقها، غير أن الأمير اعتبرها دلالةً على التعب، فقال مواسيًا: أتعتقدين بأن الحال ليست أليمة بالنسبة لي أيضًا؟ إنني منهوك كحصان البريد، رغم ذلك، يجب أن أتحدث معك حديثًا غايةً في الخطورة والأهمية.

صمت الأمير بازيل، بينما أخذت وجنتاه تتشنجان دوريًّا تشنجات عصبية، تُضفي على وجهه بشاعةً ونفورًا، لم يسبق للمجتمعات الراقية أن شهدت مثلها عليه. كانت في عينيه تعبيرات غير معهودة فيهما؛ إذ كان الخوف يتنازع فيهما مع الوقاحة والعُتُوِّ، وكانت الأميرة تنظر بانتباه إلى الأمير بازيل، وهي تربتُّ على رأس كلبها الصغير، الذي حملته على ركبتيها بيدين جافتين ناحلتين، بدا أنها لن تقطع الصمت ولو دام يومًا كاملًا؛ لذلك اضطر الأمير بازيل — بعد صراع داخلي مرير — إلى الشروع في الحديث والبدء به، قال: أصغي إليَّ يا أميرتي، وابنة عمي العزيزة كاترين سيميونوفنا، ينبغي للمرء أن يفكر في كل شيء في ظروف كهذه، ينبغي التفكير في المستقبل وفيكن. إنني أحبكن جميعًا، كما أحب أبنائي، وأنتِ لا تجهلين ذلك.

لَبِثَت الأميرة جامدة الوجه، تتأمله بنظرتها القاتمة، بينما أردف الأمير دون أن ينظر إلى وجهها، بعد أن دفع نضدًا صغيرًا بحركة عصبية: وأخيرًا ينبغي أن أفكر في أسرتي، إنك تعرفين يا كاتيش أنك أنتِ وأختيك وزوجتي الوريثاتُ الوحيدات المباشرات لثروة الكونت، إنني أعرف أنه يصعب عليك البحث في كل هذا، ويؤلمك مجرد التفكير فيه، إن ذلك هو شعوري كذلك، غير أنني يا صديقتي أقترب من الستين، ويجب أن أكون مستعدًّا لكل شيء، هل تعرفين أنني أرسلت في طلب بيير؟ لقد أصر الكونت على إحضاره وهو يشير إلى صورته.

راح الكونت يستفسرها بعينيه دون أنْ يستطيع التأكد من أنها تفكر فعلًا فيما قاله لها، أم أنها تنظر إليه نظرة مجردة.

قالت تجيبه: إنني لا أطلب إلى الله يابْن عمي إلَّا أمرًا واحدًا؛ وهو أن يُشْفِقَ عليه، ويمنح روحه الطاهرة سلامة التحرُّرِ من …

فقال الأمير فاقد الصبر — وهو يمر بيده على رأسه الأصلع، ويعيد النضد بانفعال إلى مكانه الأول: نعم بلا شَكٍّ، ولكن … ولكن، إنك لا تجهلين أن الكونت حرَّر وصية في

الشتاء الأخير، جعل بيير بموجبها الوريث الوحيد لكل ثرواته وأملاكه، حارمًا كل الورثة المباشرين الآخرين.

فقالت الأميرة ببرود: وصايا، لقد حرَّر أكثر من وصية! لكنه ما استطاع إقامة بيير وريثًا شرعيًّا، إن بيير ولد طبيعي!

جذب الأمير بازيل النضد إليه، وضغطه على صدره بشدة، وراح يتحدث باندفاع وسرعة، قال: ما رأيك يا عزيزتي، إذا كان قد حرَّر ملتمسًا إلى الإمبراطور؟ إن إقامة شرعية بنوة بيير ستُمنح له — ولا شكَّ — نظرًا لخدماته الجليلة السابقة للعرش!

ابتسمت الأميرة ابتسامة الذي يعرف أكثر مما يظن المتحدثون، بينما استطرد الأمير وهو يمسك بيدها قائلًا: إنني مُحدِّثُك بأكثر من ذلك؛ لقد حصل على تأييد جهات مسئولة متعددة على مُلْتَمَسِه، لكنه لم يرسله بعد إلى الإمبراطور، غير أن جلالته أعلم بسير الأمور وبرغبة الكونت، والأمر الآن متوقف على معرفة مصير ذلك الملتمس، وهل أُبلغ إلى الإمبراطور أم أُتلف؟ فإذا لم يكن قد أُتلف بعد، وقُضي الأمر (وزفر زفرة ليصبغ على عبارة «قُضي الأمر» المعنى الذي يهدف إليه) واطلعوا على وصية الكونت وملتمسه بين أوراقه، فإن رسالته ستُرفع إلى الإمبراطور حتمًا، وسينظر جلالته في طلب الكونت بعين الاعتبار، ويؤيد شرعية انتساب بيير إلى الكونت، فيصبح — عندئذٍ — الوريث الأوحد.

سألت الأميرة التي كانت ضحكتها تنبئ بأنها تصدِّق كل شيء إلا هذا: والقسم الذي يعود إلينا؟

– ولكن يا «كاتيشتي» المسكينة، إن ذلك واضح وضح النهار، إنه سيصبح الوريث الشرعي، فلا يمكن أن تنالي شيئًا، فابحثي إذن عما إذا كانت الوصية والرسالة قد كُتِبتا، وإذا كانتا قد أُتلفتا أم لا. فإذا كانتا منسيتين في مكانٍ ما، لسببٍ من الأسباب، فيجب اكتشاف مكانهما مهما كلف الأمر؛ لأن ...

فقاطعته الأميرة بابتسامة ساخرة، دون أن تتبدل نظرتها الجامدة، وصاحت: هُراء! إنني امرأة وأنت تعتقد أن كل النساء سخيفات، مع ذلك، فإن لي من العقل ما يكفي لإقناعي بأن الابن غير الشرعي لا يمكن أن يرث. إنه ابن سِفَاح.

أرادت بهذه الكلمة أن تبيِّن للأمير حقيقة بيير، لتثبت له فساد نظريته، غير أن الأمير لم يقتنع، قال يناقشها: ولكن يا كاتيش، كيف لا تفهمين — رغم ذكائك المُتَّقِد — أن الكونت إذا مُنِحَ إذنًا يسمح له باعتبار بيير ابنًا شرعيًّا له، فإن هذا يصبح على الفور كونت بيزوخوف، والوريث الأوحد؟! فإذا كانت الوصية والرسالة سليمتين لم تُتلفا، فلن

يبقى لكِ إلا أن تعزِّي نفسك بأنك قُمتِ بواجبك حيال الكونت قبل وفاته، إلى آخر ما هنالك، إن ذلك واضح.

قالت الأميرة بتلك اللهجة التي تعْمد إليها النساء عندما يتعمدن إبراز شيء يعتقدن أن فيه ما يشير إلى الذكاء المفرط أو يتعمدن تجريح الشخص المخاطَب به: إنني أعرف أنه حَرَّرَ وصية، لكني أعرف كذلك أن تلك الوصية لا قيمة لها، فهل تعتقد أنني حمقاء يابْن عمي؟

استطرد الأمير بلهجة منكدة: يا عزيزتي كاترين سيميونوفنا المحبوبة، إذا كنتُ قد جئتُ للقائك، فإنني لم أهدف إلى مُبارَزتِك بالفكر والدهاء والخدع، بل لأتحدث إليك عن مصالحك كما يتحدث المرء مع إحدى قريباته، مع قريبة حقيقية طيبة ممتازة، إنني أكرر لك للمرة العاشرة يا عزيزتي، أنه إذا كان الملتمس المُوجَّه للإمبراطور، ووصية الكونت لصالح بيير، موجودين بين أوراقه، فإنك لا أنت ولا شقيقاتك يمكنكن أن تعتمدن على الإرث، وإذا كنتِ لا تصدقينني، يمكنك السؤال من الأشخاص المختصين المسئولين، لقد تحدثت منذ حين إلى ديمتري أونوويئيتش — وهو محامي الكونت — وقد أيَّد رأيي بكليته.

ولعل أفكار الأميرة اتجهت فجأةً وجهة جديدة؛ إذ امتقعت شفتاها الرقيقتان، رغم تلك النظرة الثابتة التي لم تبارح عينيها الشاخصتين، فلما تحدثت، كان لصوتها وقْع أدهشها — قبل غيرها — ما اعتراه من تأثر.

قالت: سيكون الأمر على خير ما يُرامُ، إنني لم أحلم بشيء، ولا أحلم قط بشيء.

ثم أبعدت الكلب الصغير من حجرها، وراحت تسوي ثنيات ثوبها. أردفت: هذه هي إذن مكافأته لأولئك الذي ضحوا بكل شيء من أجله، لا بأس، إن هذا رائع، لست في حاجة إلى شيء يا أمير.

فاعترض الأمير بازيل على قولها، دون أن تتنازل بالإصغاء إليه: لكنكِ لستِ وحيدة؛ هناك أخواتك.

– كان ينبغي أن أعرف من قبلُ أنني لن أحصد في هذا البيت إلا الدناءة والحسد والرياء والشغب والعقوق، نعم، أسوأ أنواع العقوق.

سألها الأمير وقد عادت التشنُّجاتُ العصبية إلى وجنتيه، أقوى من المرة السابقة: هل تعرفين مكان الوصية؟

– آه، كم كنت حمقاء! يا لها من حماقة أن يستسلم المرء للناس، ويحبهم ويضحي بنفسه من أجلهم! إن النفوس الدنيئة وحدها هي التي تنجح في هذه الحياة، إنني أعرف مصدر هذه المزعجات.

أرادت أن تنهض، غير أن الأمير استبقاها، فألقت عليه نظرة غَضْبَى، وبدا على وجهها أنها تخَلَّتْ عن كل حُسْنِ ظنها في الجنس البشري.

– لم نخسر شيئًا بعد، يا صديقتي، إنك تذكرين يا كاتيش، أن كل ذلك وقع على حين غِرة، في لحظة من لحظات الغضب، وتحت تأثير المرض، ثم أُهمل كل شيء ونُسي، وواجبنا يا عزيزتي هو تصحيح هذه الخطيئة، وتخفيف عذاب ساعته الأخيرة، بأن نسمح له بإبطال هذه الظلامة، وألَّا ندعه يموت وهو يفكر في أنه تسبب في آلام الناس وتعاستهم ...

فأعقبت كاتيش مُتمِّمَةً حديثه: الناس الذين ضحوا بكل شيء من أجله.

وحاولت النهوض من جديد، فعاد الأمير يستوقفها مرة أخرى، أردفت وهي تزفر متلوعة: وهذا هو الأمر الذي لم يقدِّره حق قدره قط.

ثم أضافت: حسنًا يابْن عمي، إن هذا يعلِّمني بأنه ليس في هذا العالم مجال لانتظار المكافآت، بعد أن حُرم العالم من الشرف والعدل، إن هذا العالم الدَّنيء مِلْكٌ للأوباش والخُبثاءِ.

– هيا هدئي رَوْعَك، إنني أعرف قلبك الطيب.

– آه، كلا، إنني لست طيبة!

كرر الأمير: إنني أعرف قلبك الطيب، وأقدِّر صداقتك، وأرجو أن تبادليني هذا الشعور الطيب، اهدئي ولنتحدث بتعقُّلٍ، طالما أن الوقت لم يدركنا بعد؛ إذ لعل أمامنا يومًا كاملًا وقد تكون ساعة واحدة، حدثيني بكل ما تعرفينه عن الوصية، اذكري لي أين هي؛ إذ ينبغي أن تكوني على علم بذلك، سوف نُطلع الكونت عليها، لعله يكون قد نسيها، فيبدي رغبة في إتلافها، اعلمي جيدًا أن رغبتي الصحيحة هي تنفيذ إرادته بكل أمانة وإخلاص، ومن أجل ذلك جئت إلى هنا؛ لقد أتيت لأساعدك وأساعده معًا.

– إنني أفهم كل شيء الآن، إنني أرى الجهة التي تسببت بكل هذه المضايقات، نعم إنني أرى بوضوح.

– لكن الأمر لا يتعلق بذلك يا عزيزتي.

– إنها محميتك، عزيزتك الأميرة دروبتسكوي، تلك المخلوقة اللعينة، تلك المرأة الذرية التي لا أرتضي بمثلها وصيفة لي.

– إننا نُضيع الوقت عبثًا.

– آه، دعك من هذا، لقد تَسلَّلَتْ إلى هنا في الشتاء المنصرم، وروت للكونت عنا جميعنا أكاذيب مروعة — وبصورة خاصة عن صوفي، حتى إنني أخجل من إعادة أقوالها — فنجم عن ذلك أنه رفض رؤيتنا خلال مرضه، ولبث يبعدنا عنه خمسة عشر يومًا، إنني واثقة من أنه كتب تلك الوصية البغيضة الجائرة في تلك اللحظة، ولقد ظننت بكل سخف أنها لا قيمة لها!

– ها قد وصلنا إلى النقطة الهامة، لِمَ لمْ تُحدثيني بهذا الأمر من قبل؟

– إن الوصية في حافظة أوراق جلدية، مع تعليمات أخرى، والحافظة موضوعة تحت وسادته.

وأعقبت الأميرة متغاضية عن الرَّد على سؤال الأمير: إنني الآن أرى الأمر بوضوح.

ثم صرخت مُحنقةً، وقد خرجت عن طورها: إنني إذا كنت أعترف بخطيئة أحمل وِزْرَها، فإن خطيئتي الوحيدة ستكون الحقد الذي أحمله لتلك الحقيرة، ماذا تفعل هنا؟ لِمَ تدخل إلى هذا المكان؟ إنني أسألك! ولكن صبرًا، سوف أقول لها رأيي فيها، ولن أتحدث بصوت خفيض!

الفصل الثاني والعشرون

آنا ميخائيلوفنا

بينما كانت تلك الأحاديث تدور، والمؤامرات تُحاكُ في قاعة الاستقبال وغرفة الأميرة في فندق الكونت بيزوخوف، كانت عربة بيير التي أُرسلت لنقله تُقله وبصحبته آنَّا ميخائيلوفنا، التي قررت مرافقته، واعتبرت ذهابها معه ذا منفعة لها، دخلت العربة فناء الفندق، ومرت على الطريق المفروش بالتِّبنِ، فخفتَ ضجيج عجلاتها، ولاحظت آنا ميخائيلوفنا أن رفيقها الذي كانت تتوجه إليه بعبارات التعزية نائم في زاويته، فأيقظته وترجَّلت من العربة بصحبته، ولما صحا بيير واستعاد حواسَّه، راح يفكر للمرة الأولى في المقابلة التي ستتمُّ بينه وبين المحتضر.

لاحظ أن العربة وقفت أمام سُلَّم الخدم بدلًا من وقوفها أمام المدخل العام، ولما ترجَّلَ منها بدوره، لاحظ أن رجلين في ثيابٍ مدنية اختفيا مسرعين في ظلال الجدار، فتوقف لحظة، أتاحت له أن يرى عددًا آخر من الرجال، مختبئين في فراغات الأبواب وخلف الأعمدة، غير أنه لم يُعِرهم التفاتًا أو انتباهًا، أسوة برفيقته آنا ميخائيلوفنا وبالخادم المرافق، وشعر الرجال المختفون كذلك بلامبالاة القادمين، فسهَّل ذلك مهمتهم إلى حدٍّ كبير، تبع بيير رفيقته التي كانت ترتقي بمرونةٍ السُّلم الحجري الضَّيِّق، الذي ينيره نور خافت، وهي تحثه على الإسراع باللحاق بها، وعلى الرغم من أن بيير لم يفهم السبب الذي من أجله كان يذهب لمقابلة المحتضر، ولا الداعي لدخوله عن طريق سُلَّم الخدم، فإنه قدَّر أن لهفة آنا ميخائيلوفنا وثباتها كانا كافِيَيْن لكي «يكون الأمر ضروريًّا»، ولما بلغ منتصف السُّلم، كاد أن يسقط متدحرجًا إلى الأسفل، لاصطدامه بأشخاص يحملون دِلاءً، كانوا ينزلون السلالم بضجيج وصخب، تُحدثهما أحذيتهم العالية، التصق هؤلاء بالجدار ليسمحوا له ولرفيقته بالمرور، دون أن تعبِّر وجوههم عن أية دهشة، لالتقائهم بالسادة على سُلَّم الخدم.

سألت آنا ميخائيلوفنا أحدهم: هل يقود هذا السُّلم إلى شَقَّةِ الأميرات؟

فأجاب الخادم بصوت مرتفع ولهجة قوية، وكأن المحاذير التي كانت تضطره إلى خفض صوته قد انعدمت: نعم. إن الباب الأيسر يقود إلى جناح الأميرات يا سيدتي الطيبة.

ولما وصلا إلى البسطة، قال بيير متسائلًا: لعل الكونت لم يستدعِني، ماذا لو قصدت إلى غرفتي توًّا؟

توقفت آنا ميخائيلوفنا لتسمح لبيير باللحاق بها، وقالت وهي تلمس ذراعه كما فعلت منذ ساعات مع ابنها: أواه، يا صديقي! ثق أنني أتألم مثلك، ولكن كن رجلًا.

فقال بيير وهو ينظر إليها بوداعة خلال نظارتيه: الحقيقة أنني أُحسن صنعًا بالذهاب إلى غرفتي والانسحاب فورًا.

– آه يا صديقي! انسَ الإساءات التي وقعت لك حتى الآن، واذكر أنه أبوك. ولعله في النَّزْعِ (وأطلقت زفرة) لقد أحببتك لفوري كما أُحب ابني، فثق بي يا بيير، ولن أنسى مصالحك.

لم يفقه بيير شيئًا من مرميات حديثها، غير أنه ازداد قناعة بأن الأمر «ينبغي أنْ يكون كذلك»، تبعها بدَعة، وكانت قد شرعت تفتح الباب.

كان الباب يؤدي إلى رَدْهَةٍ، وقف في إحدى زواياها خادم الأميرات العجوز، ينسج جوربًا من الصوف، لم يكن بيير قد دخل من قبلُ هذا الجزءَ من الفندق، أو فكر في وجوده، وظهرت وصيفة تحمل زجاجة ماء على طبق، فتقدمت آنا ميخائيلوفنا منها، وسألتها عن غايتها، وهي تكرر عبارات «أيتها الطيبة» و«عزيزتي»، استفسرت عن صِحَّةِ سيداتها، ثم قادت بيير عبر ممشًى مرصوف بالبلاط، كان الباب الأيسر فيه يؤدي إلى غرف الأميرات، وكانت الوصيفة في عجلتها — والعجلة كانت على أشُدِّها ذلك اليوم في الفندق — قد نسيت إغلاق ذلك الباب عندما خرجت منه؛ مما أتاح لبيير ولآنا ميخائيلوفنا أن يُلقيا نظرة عادية لا إرادية إلى الغرفة ومحتوياتها، شاهدا الأمير بازيل يتحدث بصوت خافت وباهتمام بالغ مع كبرى الأميرات، فلما وقع بصرهما على القادمين، ألقى الأمير نفسه إلى الوراء بحركة تَدُلُّ على نفاذ الصبر، بينما نهضت الأميرة فجأة، وصفقت الباب بقوة وشراسة وغضب.

كانت تلك الحركة تنافي الهدوء الطبيعي، الذي كانت كاتيش تظهر عليه عادةً، وكذلك كان رعب الأمير لا يتفق مع هدوئه وخطورة حركاته، حتى إن بيير شعر بالفارق الشاسع، فوقف يسائل رفيقته بنظره، أما آنا ميخائيلوفنا، فإنها لم تعرب عن أية دهشة،

بل اجتاحت وجهها ابتسامة غامضة، كانت إلى جانب الزَّفْرةِ الثائرة التي ندَّت عن صدرها، كل ما يشهد بأنها كانت تتوقع كل هذه الأمور.

قالت وهي تحثُّ الخُطَى مسرعة: كن رجلًا يا صديقي، سوف أسهر بنفسي على مصالحك.

لبث بيير لا يفقه من تلك المُعضلةِ شيئًا، كان يتساءل في سره: ماذا تريد أن تقول بعبارة «سأسهر على مصالحك»؟ ولما لم يجد جوابًا اكتفى بالقول: «إن الأمر ينبغي أن يكون كذلك.»

قادهما المشى إلى قاعة كبرى نصف مُضَاءةٍ، تتصل بقاعة استقبال الكونت، كانت من تلك القاعات الفخمة الأنيقة الباردة التي يعرفها بيير حق المعرفة، والتي لم يكن قد دخل إليها إلا عن طريق السُّلم الكبير، وكان في وسط تلك القاعة مغطس فارغ، وكان الماء مسفوحًا على قطع السجاد حوله، مرًّا، وهما في طريقهما يمشيان على رءوس أقدامهما، بخادم وشماس يحمل مبخرة، لكن هذين لم ينتبها إليهما، وأخيرًا دخلا إلى قاعة الاستقبال التي يعرفها بيير تمامًا، والتي تمتاز بنافذتين على النمط الإيطالي، ومخرج يؤدي إلى الحديقة الشتوية، وكان تمثال نصفي لكاتيرين الثانية يجثم فوق قاعدة من الرُّخام، وصورة الكونت مسندة إلى قدمي الإمبراطورة الكبيرتينِ، وكان في القاعة جمْع غفير من الناس يتحدثون بأصوات منخفضة، فلما دخلا توقف المتحدثون عن متابعة أحاديثهم، وصَوَّبوا إليهما نظراتهم التي راحت تتصفَّحُ وجه تلك السيدة الشاحب المهدم بالدموع، وإلى جانبها ذلك الفتى الضخم الفارع الطول، الذي كان يتبعها بسكون وهو مُطْرِق الرأس.

أزِفَتِ اللحظة الحاسمة، فشاعت قسمات آنا ميخائيلوفنا انعكاسات تنبئ بحلولها، دخلت دون أن تترك بيير، متظاهرةً بمظهر السيدة رفيعة الشأن القادمة من بيترسبورج التي عركتها الأعمال، وتسلحت بنشاط جَمٍّ لم تشعر بمثله من قبل، كانت في تلك اللحظة لا تخاف من لقاء أحد، خصوصًا وأنها كانت تصطحب الشخص الذي طلب المحتضر رؤيته، ألقت نظرة عَجْلَى على الحاضرين، فلما وقع بصرها على رجل الدين الذي درج الكونت على الاعتراف أمامه، اقتربت منه بخطًى قصيرة متلاحقة دون أن تبالغ في الانحناء أو بالتظاهر بشديد التضاؤل أمام مركزه الروحي، فتقبلت بركاته على تلك الصورة المحترمة وبركة مرافقيه من رجال الدين، وقالت لهم: حمدًا لله لأنكم جئتم في الوقت المناسب، إنَّ كل الأسرة كانت تخاف أنْ يكون الوقت قد أصبح متأخرًا.

ثم أضافت بصوت منخفض تقول: إنَّ هذا الشاب ابن الكونت، يا لها من لحظات مروعة!

واقتربت بعد حين من لوران، وقالت له: عزيزي الطبيب، إنَّ هذا الشاب ابن الكونت. فهل هناك أمل؟

رفع النطاسي عينيه إلى السماء، وهز كتفيه، فكانت تلك الحركات أبلغ من كل جواب، حذت آنا ميخائيلوفنا حذوه فهزت كتفيها، ورفعت إلى السماء عينيها المغمضتين تقريبًا، وبعد أن أطلقت زفرة، عادت تلحق ببيير لتقول له بحنان ممتزج بالحزن والامتثال: لتكن لك ثقة في رحمة الله.

وأشارت إلى أريكة رَجَتْهُ أن ينتظرها عليها، ومضت بسكون إلى الباب الذي كانت الأبصار كلها شاخصةً إليه، ففتحته بحذر، وأغلقته وراءها.

قرر بيير أن يطيع زميلته في كل ما تريد؛ لذلك مضى إلى الأريكة التي أشارت إليها، واطمأنَّ عليها، وما كادت آنا ميخائيلوفنا تخرج من غرفة المحتضر، حتى تعلقت الأبصار بها؛ أبصارٌ مُتطَفِّلَةٌ ومُشفِقَةٌ، ورأى بيير أن كل الموجودين يتهامسون بينهم، ويشيرون إليه بطرف العين في شيء من الفزع واللَّومِ، شعر بهم يُظهرون نحوه عناية لم يعهدها من قبل؛ فالسيدة المجهولة منه، التي كانت مع رجال الدين، نهضت لتقدِّم له مكانها، والضابط المساعد التقط قفازه الذي سقط من يده وقدَّمه إليه، والأطباء صمتوا عند اقترابه، وأفسحوا له الطريق باحترام. ودَّ بيير بادئ الأمر أن يجلس في مكان آخر كي لا يزعج السيدة، وأراد أن يلتقط بنفسه قفازه، وتمنى لو تحاشى لقاء الأطباء الذين ما كانوا يعترضون سبيله، غير أنه شعر فجأةً بشعور غامض يوحي بأن من اللباقة أن تمر تلك الليلة بسلام، وأن يقوم خلالها بالأدوار التي تفرضها الظُّروفُ عليه، والتي ينتظرها الجميع منه، ومن ثَمَّ أن يتقبل من جميع الموجودين هذرهم وتمنياتهم وتعزياتهم، وإذن فقد سَمَحَ للضابط أن يعيد إليه قفازه، وجلس في المكان الذي أخلته السيدة مباعدًا بين يديه في جلسة بريئة تشبه وضع التماثيل المصرية، قرر في نفسه أن كل هذه الأمور ينبغي أن تمر على هذا الشكل، وأنه — تحاشيًا لأي تصرُّف أخرق من ناحيته — ينبغي أنْ يتحاشى ذلك المساء كل ابتكار أو رغبة شخصية، وأنْ يَقْنع بإطاعة من يوجهونه إطاعة عمياء.

لم تمضِ دقيقتان حتى دخل الأمير بازيل مرفوع الرأس وعلى صدره ثلاثة أوسمة ذهبية، كان يبدو كأنه قد ازداد هُزالًا منذ حين، وكانت عيناه أكثر اتساعًا من جري

العادة، عندما راح يديرهما في القاعة ليعثر على بيير، فلما وقعت أبصاره عليه، اتجه نحوه مباشرةً وأمسك بيده — وهو الأمر الذي لم يتعطف أبدًا بعمله من قبل — وهزَّها بعنف، وكأنه يختبر درجة مقاومته، وقال له: تشجع يا صديقي، لقد طلب رؤيتك، وهذا أمر جيد.

ودَّ الأمير بازيل أنْ يبتعد، غير أنَّ بيير قدَّر أن من المناسب أن يطرح عليه سؤالًا، فقال: كيف حال صِحَّةِ ...؟

تردد قليلًا وهو لا يدري هل يجدر به أن يقول «الكونت» أو يقول «أبي».

– لقد أُصيب بنوبة جديدة منذ نصف ساعة، نعم لقد أصيب بنوبة جديدة، فتشجعْ يا صديقي.

واستعملَ الكونت كلمة «ضربة» للدلالة على النوبة، لذلك فقد ظل بيير فترة طويلة وهو يعتقد أن الأمير بازيل أراد بكلمته معناها الحقيقي، كان عقله شديد التشوش والاضطراب قاصرًا في تلك اللحظة عن إدراك مرمى تلك الكلمة؛ لذلك فقد راح ينظر إلى الأمير بهلع حتى تبينت له أخيرًا الغاية الحقيقية من تلك الكلمة، ومضى الأمير بازيل على أطراف قدميه — بعد أن تبادل كلمة مع الطبيب لوران — إلى غرفة المحتضر، وكانت تلك الطريقة الجديدة في المشي جديدة عليه، حتى إن كل جسمه راح يهتزُّ تبعًا لخطاه، وجاءت كبرى الأميرات فتبعته وفي أعقابها عدد من القساوسة والشمامسة ورجال الكونت، وتعالت ضجة وراء الباب، وفجأةً خرجت آنا ميخائيلوفنا، وهي دائمة شحوب الوجه، تحمل تقاسيمها طابع الشعور بالواجب، فهرعت إلى بيير ولمست ذراعيه وهي تقول: إنَّ الرحمة الإلهية لا تنفد ولا تنضب، ستقام الآن طقوس المسحة الأخيرة، فتعالَ.

خطا بيير بضع خطوات على السجادة السميكة المرنة، وبينما كان يجتاز الباب رأى الضابط المساعد، والسيدة المجهولة، وعددًا من الخدم يتبعونه، وكأن الأمر أضحى في تلك اللحظة في غير حاجة للاستئذان.

الفصل الثالث والعشرون

اللقاء الأخير

كان بيير يعرف تمامًا تلك الغرفة الفسيحة التي تغطي أرضها قِطعُ السجاد العجمي الفاخر، والتي قُسمت إلى قسمين بقوس مُرتكِزٍ على أعمدة، كان نور أحمر قوي، نور كنسي، كذلك الذي ينبعث خلال صلاة المساء، يضيء أقصى الغرفة المؤثَّثةِ بسرير كبير من خشب «الأكاجو» «شجرة كابلي» ذي ستائر حريرية، وبخزانة كبيرة محاطة بالصور، وتحت «الأيقونات» التي كانت زينتها الثمينة تلتمع تحت الأنوار كانت هناك أريكة كبيرة من نمط «فولتير»، وقد غُطي مسندها بالوسائد التي كانت أغلفتها النظيفة قد أُبدلت منذ حين بأخرى جديدة، وعلى تلك الوسائد البيضاء كالثلج أُسجي جثمان الكونت بيزوخوف، وقد لُفَّ حتى وسطه في غطاء أخضر نضير اللون، نظر بيير إلى ذلك الوجه النبيل، ذي الجبين العريض الذي تحيط به هالة متناسقة من الشعر الأبيض، وإلى تلك القسمات التي يعلوها الاصفرار المشوب بحمرة خفيفة، والتي حَفرت فيها التجاعيدُ أخاديدَ عميقة واضحة.

كانت يدا الكونت القويتان مسدلتين على الغطاء، وراحتاهما إلى الأسفل، فركز بعضهم بين سبابته وإبهامه اليُمْنَيَيْنِ شمعةً أسندها خادم عجوز انحنى فوق المقعد، بينما أحاط الكهنة بالمقعد، وهم يرتدون الألبسة المزينة، وكانت شعورهم تنسدل تحت تيجانهم المرصعة التي كانت على رءوسهم، راحوا يرتِّلونَ والشموع في أيديهم، ويطوفون ببطء ووقار، ووراء هذا الحفل، جلست الأميرتان، وفي يد كل منهما منديل تُخفي به عينيها، بينما انتصبت أمامهما أختهما الكبرى كاتيش، وعلى وجهها أمارات العزم والخبث، وراحت تنظر بإمعان إلى الأيقونات، وكأنها تريد القول بأنها إذا أشاحت ببصرها عما تنظر إليه فإنها لا تستطيع أن تُسأل عما يصدر عنها. لبثت آنا ميخائيلوفنا شديدة الوقار والرحمة والشفقة واقفة أمام الباب وإلى جانبها السيدة المجهولة.

ومن الجانب الآخر من ذلك الباب، وقف الأمير بازيل على مَقْرُبةٍ من الأريكة وراء مقعد مزين بالنقوش المحفورة ومغطًى بالقطيفة، وقد أدار مسنده إلى ناحيته وأسند يده اليسرى على المسند حاملة شمعة مضاءة، بينما كانت يمناه ترسم إشارة الصليب على صدره كلما رفع أبصاره إلى السماء، أو لمس جبينه بيده. كان وجهه ينبئ بخشوع هادئ، واستسلام لمشيئة الله، وكأنه كان يقول: «إذا كنتم لا تفقهون شيئًا من هذه المشاعر فذلك شأنكم.» ووقف وراءه الضابط المساعد والأطباء والذكور من الخدم يتزاحمون. لقد انتحى الرجال والنساء جانبًا آخر كما هو الحال في الكنيسة.

كان الحاضرون جميعًا يرسمون شارات الصليب على صدورهم، فلا يسمع المرء إلا صلوات وطقوسًا وترتيلًا خافتًا عميقًا متناسقًا، تعقبه بين فترة وفترة زفرات وحركات أقدام، أعربت آنا ميخائيلوفنا عن أنها تفهم وتعي ما تفعل، اجتازت الغرفة الفسيحة حتى بلغت موقف بيير فأعطته شمعة أشعلتها له وراح — مأخوذًا بالملاحظات التي كان يلتقطها على وجوه الموجودين — يرسم بدوره على صدره إشارة الصليب مقتديًا بالآخرين.

كانت الأميرة الشابة «صوفي» ذات الحسنة والخدين الورديين واللهجة الساخرة، تتأمل بيير وهي تبتسم وتخفي وجهها وراء منديلها، عادت بعد فترة طويلة ترفع بصرها إليه ثم تضحك من جديد، كان يبدو عليها أنها لا تستطيع الامتناع عن النظر إليه، ولا أن تنظر إليه دون أن تفقد وقارها؛ لذلك فقد تسللت من مكانها، واختبأت وراء أحد الأعمدة؛ لتحمي نفسها من الإغراء ومعاودة الكرَّة.

وبينما كان الطَّقسُ الدِّيني في أوجِهِ، توقف المرتلون فجأةً، وراحوا يتهامسون، بينما التفتَ الخادم العجوز — الذي كان يسند يد الكونت — نحو السيدات ونهض واقفًا، اقتربت آنا ميخائيلوفنا وانحنت فوق المحتضر، وأشارت بإصبعها من وراء ظهرها إلى لوران أن يقترب، كان الطبيب الفرنسي مستندًا إلى أحد الأعمدة، يَرْقُبُ الحفل الديني دون أن يحمل في يده شمعة شأن ذوي الأديان المختلفة الذين يقدِّرون — رغم اختلاف دينهم — قيمة ما يدور أمامهم من شعائر يؤيدونها بشعورهم الديني دون أن يؤمنوا بها. اقترب الطبيب بخطوات ثابتة ساكنة؛ خطواتِ الرجل الذي في مُقتبَلِ العمر، وانحنى على المريض فأخذ يده بين أصابعه البيضاء المعقدة، وراح يتحسس النبض بصمت وانتباه، أسقى المريض شرابًا، ثم عاد كلٌّ إلى مكانه، وعاد القساوسة إلى إحياء طقسهم الديني، لاحظ بيير أن الأمير بازيل ترك مكانه خلال تلك الفترة، وبدلًا من أن يتجه نحو المريض، مَرَّ

من أمامه، واقترب من كبرى الأميرات، وبعدئذٍ توجه كلاهما إلى السرير الكبير الضخم ذي الستائر الحريرية الذي كان منتصبًا في صدر القاعة، واختفى كلاهما وراء باب المضجع، ثم عاد كلاهما الواحد وراء الآخر حوالي نهاية الحفلة، ومضيا، كلٌّ إلى مكانه، وكان بيير مقتنعًا بأن كل ما يدور أمامه ذلك المساء لا يمكن إلا أن يكون كذلك، ولهذا السبب لم يعلِّق على تلك الحركة وذلك التصرف أية أهمية تُذكر.

توقف الترتيل الديني، واقترب أحد القساوسة من الكونت، وهو في استلقائه لا يفضح بادرة واحدة من بوادر الحياة، فهنأه بالقداس الذي أُجري له، وتكأكأ الموجودون كلهم حول الكونت، وسمع بيير ضجيج الأقدام، وهمسات يطغى عليها صوت آنا ميخائيلوفنا وهي تقول: ينبغي نقله إلى سريره؛ إذ لا يمكن إجراء شيء وهو في مكانه هذا!

وأحاط الأطباء والأميرات والخدم بالمريض إحاطة كُليَّةً، حتى إن بيير لم يعُد يرى رأسه الشاحب المضرج بحمرة خفيفة، المكلل بشعر أبيض؛ ذلك الرأس الذي ظل ينظر إليه طيلة الاحتفال الكنائسي، رغم أن نظرته كانت في كثير من الأحيان شاردة ساهمة، خَمَّنَ من حركات الأشخاص حول الأريكة أنهم يحملون المحتضر؛ لنقله إلى سريره، وسمع صوت أحد الخدم يغمغم: امسك بذراعي، سوف تدعه يسقط …

وأصواتًا أخرى تقول: من الأسفل … واحد آخر …

وارتفعت أصوات الخطى واللهثات، وكأن الحِمل كان أثقل من طاقة الحمالين.

مرَّ حاملو الجسد ومن بينهم آنا ميخائيلوفنا أمام بيير الذي استطاع أنْ يلقي نظرة خاطفة من فوق الأعناق، فرأى هالة الشعر الأبيض المجعد الذي يحيط برأس الكونت، وكتفيه القويتين العريضتين، وصدره المتسع الممتلئ وهم يحملونه من تحت إبطيه، كأن دنو الموت لم يبدل شيئًا من ذلك الرأس المتناسق الجميل الأجبه ذي الخدين الممتلئين، والفم الحساس الجميل، والنظرة الباردة المتعالية، كان ذلك الرأس لا يختلف أبدًا عن الذي رآه بيير منذ نَيِّفٍ وثلاثة أشهر، عندما غادر موسكو إلى بيترسبورج مع فارق واحد، وهو أنه كان في تلك اللحظة يهتز وفق خطوات حامليه، وكانت نظرته الحائرة الشاردة لا تعرف أين تتوقف.

تعالى ضجيج خلال دقائق حول السرير، ثم ابتعد الناس، بينما جاءت آنا ميخائيلوفنا تلمس ذراع بيير، وتقول له: «تعالَ»، فتبعها حتى السرير، حيث أُجلس المريض عليه بشكل أدعى للاحترام والوقار، شكل يتناسب والطقس الديني الذي أُجري له منذ حين، وكان عدد من الوسائد قد رُصَّتْ وراءه لتجعل جذعه منتصبًا، بينما بُسطت يداه على طول راحتيهما

فوق الغطاء الحريري الأخضر على مسافة إحداهما من الأخرى، فلمَّا اقترب بيير، حَدَّجَهُ الكونت بنظرة من تلك النظرات التي لا يمكن لكائن حي في الدنيا أن يحدد قيمتها ومرماها، فهي إمَّا أن تكون لا تعني شيئًا مطلقًا، أكثر من حاجة الإنسان الذي يضطر إلى فتح عينيه أن يلقي ببصره إلى جهةٍ ما، أو على العكس، أن تكون مُحمَّلةً بالمعاني مُفعمَةً بها.

توقف بيير مُتردِّدًا لا يدري ماذا يفعل في ذلك الموقف، والتفت إلى رفيقته مستفسرًا، فأشارت إليه بنظرها إلى يد المحتضر وزَمَّت شفتيها على شكل قُبلة، فتبع بيير النصيحة، ومَدَّ عنقه بتؤدة متجنبًا المساس بالغطاء، وألصق شفتيه على يد المريض المكتنزة، لم تتحرك اليد ولم تتقلص عضلة واحدة في وجه المريض، فعاد بيير يستشير آنا ميخائيلوفنا، التي أومأت له أنْ يجلس على المقعد قُرْبَ السرير، فجلس عليه متأثرًا، وعاد إلى الاستفسار بالنظر من آنا ميخائيلوفنا عما إذا كان أحسن صنعًا بما فعل وفهم مرادها؟ فلما هَزَّت له رأسها موافقة عاد إلى جلسته الكهنوتية الساذجة الشبيهة بالتماثيل المصرية، وهو آسف جدًّا لرؤية جسده الضخم يشغل كل هذا الفراغ، يحاول الظهور في أصغر حجم ممكن، ولما رفع عينيه إلى وجه الكونت، رأى أن هذا يحَدِّقُ بعناد في المكان الذي غادره منذ حين محمولًا، وأما آنا ميخائيلوفنا فكان مظهرها يدل على الأهمية البالغة التي تقلقها على تلك المقابلة النهائية بين الأب والابن، وبعد دقيقتين خالهما ببيير ساعتين طويلتين، انتفض وجه الكونت المجعد فجأةً، وازداد تقلصًا، والتوى فمه الجميل محدثًا صوتًا أجش غير واضح، وعندئذٍ فقط فهم بيير أن أباه على وشك الموت، راحت آنا ميخائيلوفنا تتفحص حدقة المحتضر، محاولة معرفة رغبته من نظرته، أشارت بيدها إلى بيير ثم إلى الشراب فالغطاء، وغمغمت بصوت منخفض تلفظ اسم الأمير بازيل، غير أن قسمات وجه المريض وعينيه كانت توحي بنفاد الصبر، قام بمجهود جبار لينبه الخادم الذي كان لا يفارق سريره من ناحية القدمين.

غمغم الخادم: إنَّ سعادته يرغب في أن نقلبه على جنبه الآخر.

وراح يحاول القيام بتلك المهمة الشاقة التي تقتضيه تحريك جسد ضخم كبير فاقد الإحساس، فنهض بيير ليساعده في مهمته.

وبينما كان بيير والخادم يبدلان وضعية الكونت، راح هذا يحاول عبثًا جذب ذراعه التي ظلت منسدلة لا حياة فيها وراء ظهره، ولعل المريض شاهد نظرة الذُّعْرِ التي ألقاها بيير على ذراعه المشلولة، أو أن فكرة أخرى خطرت في رأسه؛ لأنه راح يتأمل ذراعه الجامدة، ثم وجَّه لبيير المذعور ليعود بنظره إلى ذراعه، وأخيرًا افترَّ ثغره عن ابتسامة

غامضة أليمة، ما كانت تتفق مع طالعه النشيط، بل تبدو سخْريَةً مُرةً من عجْزه التام، شعر بيير فجأةً بانقباض في صدره، ودغدغة في أنفه، وما لبثت الدموع أن طفرت من عينيه.

كان الكونت في تلك اللحظة مستديرًا بوجهه إلى الجدار يتأوَّه.

وجاءت إحدى الأميرات تحل محل آنا ميخائيلوفنا، فقالت هذه لبيير: لعله أغفى قليلًا، هيا بنا.

فتبعها بيير صامتًا.

الفصل الرابع والعشرون

فشل المؤامرة

لم يكن في البهو الكبير إلَّا الأمير بازيل وكبرى الأميرات، كانا جالسين قرب لَوحةِ كاترين الثانية، يتحادثان بحمية، لكنهما توقفا عندما شاهدا بيير ورفيقته.

غمغمت الأميرة: إنني لا أستطيع رؤية هذه المرأة.

وخُيِّل لبيير أنَّ الأميرة أخفت شيئًا ما.

قال الأمير مخاطبًا آنا ميخائيلوفنا: إنَّ كاتيش تقدِّم الشاي في البهو الصغير، فاذهبي إلى هناك يا آنا ميخائيلوفنا وتناولي شيئًا، وإلا فإنك لن تصمدي يا صديقتي المسكينة.

ولم يوجه كلمة واحدة إلى بيير، لكنه ضغط على ذراعه بحنانٍ أسفل الكتف، واقتادت آنا ميخائيلوفنا بيير إلى البهو الصغير.

كان الطبيب لوران واقفًا أمام مائدةٍ مُحمَّلةٍ بأدوات الشاي وألوان الطعام البارد، وقد انتظم حولها كل الأشخاص الذين قضوا الليل في الفندق. قال الطبيب وهو يفرغ قدحه الرقيق المصنوع من الخزف الصيني بجرعات صغيرة: ليس هناك ما يشحذ الهِمَّةَ بعد ليلة بيضاء أكثر من قدح من هذا الشاي الروسي الممتاز.

كان يتحدث بحيوية متزنةٍ دون أن يبدو عليه شيء مما يعتلج في صدره، تذكَّر بيير تلك القاعة الصغيرة المستديرة ذات المرايا والنضد، تذكَّر أنه كان في السنوات القديمة الماضية، عندما كان الكونت يحيي حفلات راقصة، يفضِّل الجلوس في هذا المكان ليراقب السيدات وهن في أبهى زينتهن، عندما يخطونَ بتيهٍ أمام تلك المرايا التي تحيط بها أضواءٌ مُشعَّة، فيتأملن هندامهن وأكتافهن العارية، وأعناقهن التي تحيط بها المجوهرات والماسات الفاخرة الثمينة، فتنعكس الأضواء عليها وتشع إشعاعات تخطف الأبصار، ورأى أنَّ شمعتين بسيطتين كانتا تضيئان تلك القاعة الصغيرة بالذات بدلًا من أنوار أمسِ الساطعة، وأن أقداحًا وصحافًا مبعثرة على تلك النضد التي يحيط بها أشخاص من

كل نوع، مرتدين الألبسة العادية، يهمسون في الظلام وهم يبرهنون بأقوالهم وإشاراتهم على أنهم لم ينْسَوا بعدُ الحدثَ الجسيم الذي وقع منذ حين في غرفة النوم المجاورة. لم يأكل بيير شيئًا رغم شهيته القوية، وبينما كان يلتفت إلى آنَّا ميخائيلوفنا ليسألها بنظرة كعادته، رآها تسير على أطراف قدميها نحو البهو الكبير، فقدَّر من جديد أن الأمر «ينبغي أن يكون كذلك»، وقرر بعد لحظةٍ تردُّد أن يتبعها، ولما تخَطَّى الباب، رآها منتصبة أمام كاتيش وهي محتدمة معها بنقاش عنيف بصوت منخفض، كانت السيدتان تتكلمان معًا في وقت واحد.

قالت كاتيش، وهي مضطربة متطورة كما كانت منذ حين عندما صفقت الباب في وجه آنَّا ميخائيلوفنا: اسمعي يا أميرة … أظنني أعرف ما هو محتشم وما هو غير محتشم.

غير أن آنَّا ميخائيلوفنا أجابت مُلمِّحَةً، وهي تقف بين مخاصمتها والطريق إلى غرفة النوم: ولكن يا عزيزتي فكري في أن تصرُّفك سيزعج عَمَّنا المسكين الذي هو في مسيس الحاجة إلى الراحة، إن التحدث معه في مثل هذا الوقت عن أشياء تخصُّ هذا العالم بينما هُيئت روحه للصعود إلى العالم العُلوي.

كان الأمير بازيل جالسًا على مقعده لافًّا ساقًا على ساق كعادته، وكان حذاءاه المترهلان ينتفضان بحركات تشنجية، وقد اتخذا شكلًا غريبًا، فكانا يبدوان عند أسفلهما أكثر عرضًا من حالتهما الطبيعية، وفيما عدا ذلك، كان يبدو عليه عدم الاهتمام بحديث السيدتين، قال: هيا يا آنَّا ميخائيلوفنا الطيبة، دعي كاتيش وشأنها، إنك لا تجهلين مدى حب الكونت لها.

فقالت كاتيش تخاطب الأمير بازيل، وهي تشير إلى حافظة جلدية مرصعة كانت ممسكة بها في يدها: إنني لا أعرف شيئًا عمَّا جاء في هذه الورقة. على كل حال، إن الوصية الحقيقية موجودة في مكتب الكونت، أما في هذه الحافظة، فإن كل ما فيها عبارة عن ورقةٍ عديمة القيمة.

وأرادت أنْ تتخطى آنَّا ميخائيلوفنا، لكن هذه قفزت قفزة كبيرة ولحقت بها، وعادت من جديد تمنعها من متابعة السَّيرِ.

قالت وهي تستحوذ على الحافظة الجلدية بيد ثابتةٍ حازمة، تُفْصِحُ بأنها لن تتخلى عنها بسهولة: إنني أعرف ذلك يا عزيزتي، يا أميرتي الطيبة، ولكني أرجوك بل أتوسل إليك ألا تزعجي الكونت، وأن توفري عناء ذلك عليه، أستحلفك الله.

فضَّلت كاتيش ألَّا تجيب؛ لأنها لو فتحت فمها لَمَا نطقت — ولا شكَّ — بكلمات ترضي آنَّا ميخائيلوفنا؛ لذلك فقد قام بين المرأتين نضال صامت حول ملكية الحافظة، كانت آنَّا ميخائيلوفنا خلاله تقاوم بضراوة، بينما ظل صوتها محتفظًا بلهجته المهذبة الفاتنة، هتفت تقول: بيير يا صديقي، تعالَ. أعتقد أنه ليس غريبًا عن هذا الأمر العائلي، ما رأيك يا أميري؟

هتفت كاتيش فجأةً بصوت مُرْعِدٍ، بلغت أصداؤه مسامع كل من كان في البهو الصغير، فأفزعت السامعين: ماذا يابْن عمي؟ إنك لا تقول شيئًا! إنك تحتفظ بالصمت، بينما يعلم الله بأمر من يتدخل في شئوننا، ويسمح لنفسه بإثارة فضائح على عتبة المحتضر!

وأردفت بصوت غاضب محنق: أيتها الدَّساسة!

وجذبت بكل قواها حتى أن آنَّا ميخائيلوفنا اضطرت أنْ تخطو إلى الأمام بضع خطوات، وتقبض على ذراع الأميرة؛ خشية أنْ تفلت الحافظة من يدها.

هتف الأمير بازيل باستغراب واستنكار: أوه! إنَّ هذا شاذ! دَعِي الحافظةَ أقول لكِ!

فأطاعت كاتيش ذلك الأمر الحاسم، وهتفت: أنت أيضًا؟!

غير أنَّ آنَّا ميخائيلوفنا لم تخضع للأمر، فقال الأمير: دعي ذلك أقول لك، إنني أتكفل بكل شيء، سأذهب بنفسي لرؤيته، وسأسأله. نعم، أنا! فينبغي ألَّا تقنَيْ بذلك.

فاعترضت آنَّا ميخائيلوفنا: ولكن يا أميري، لقد أقيم له منذ حين أكبر طقس ديني، فدعه في راحة، ما رأيك يا بيير؟

كان الفتى قد اقترب منهما، وراح ينظر بذهول إلى وجه الأميرة المنقلب السحنة، وخدَّي الأمير المتقلصين.

صرخ الأمير بازيل بحزم وقسوة: ستكونين مسئولة عن كل ما يحدث، فكري في ذلك، إنك لا تعرفين ما تعملين.

وصرخت كاتيش: أيتها المرأة الملعونة!

ثم ارتمت فجأةً على آنَّا ميخائيلوفنا، وانتزعت الحقيبة من يدها، فأطرق الأمير بازيل برأسه، وسقطت ذراعاه إلى جانبيه.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب؛ ذلك الباب الرهيب الذي استأثر طويلًا بنظرة بيير، والذي كثيرًا ما كان يوارَب بهدوء، فُتح في تلك اللحظة بعنفٍ حتى اصطفق بالجدار، وظهرت ثاني الأميرات التي هرعت إليهم وهي تضرب كفًّا بكَفٍّ، وتصيح: ماذا تعملون؟! إنَّ الكونت يموت، ومع ذلك تتركونني وحيدة.

سقطت الحافظة من يدَي كاتيش، فانحنت آنَّا ميخائيلوفنا مندفعةً والتقطتها بقوة وركضت إلى غرفة النوم؛ فتبعها الأمير وكاتيش بعد أن سيطرا على اضطرابها، ولم تمضِ لحظات، حتى غادرت كاتيش غرفة النوم شاحبةَ الوجه، مُمتقعته، تعض شفتها السفلى، فلما وقع بصرها على بيير، لم تستطع السيطرة على غضبتها، فصرخت في وجهه قائلةً: لينشرح صدرك، هذا الذي كنت تريده.

واختنق صوتها بالعَبرات، فأخفت وجهها بمنديلها، وجرت مبتعدة.

وظهر الأمير بازيل بدوره مترنحًا في مِشيتِه، وارتمى على الأريكة التي كان بيير جالسًا عليها، وهو يحجب عينيه بيده، ولاحظ بيير أن وجهه شديد الارتعاش، وأن ذقنه كانت ترتعد وكأنه واقع تحت تأثير حُمى خبيثة.

قال الأمير، وهو يمسك بمرفق بيير: آه يا صديقي!

كان صوته ينبئ بنبرة إخلاص وصراحة واسترسال لم يعهد بيير مثلها فيه من قبل، أردف الأمير يقول: آه يا صديقي، كم من خطيئة تُرتكب وخُدعةٍ ودسيسة! وكل ذلك من أجل ماذا؟ إنني تجاوزت الستين يا صديقي، وإنني ... إن كل شيء ينتهي بالموت، كل شيء. والموت يا صديقي أمر رهيب.

اختنق صوته بموجة من البكاء والدموع.

خرجت آنا ميخائيلوفنا من الغرفة بدورها، واقتربت من بيير بخطوات مكتومة خافتة، وقالت تناديه: بيير!

فنظر إليها بيير مُستفسرًا، وإذا بها تنحني على جبينه تقبِّله وتبلله بدموعها، قالت بعد لحظة صمت: لقد قضى ...

راح بيير يحدِّق في وجهها خلال نظارتيه، بينما أردفت تقول: ها، سأصحبك. حاول أنْ تبكي؛ إذ ليس مثل الدموع ما ينفث الكرب.

قادت بيير إلى بهو مظلم، فسُرَّ هذا عندما رأى أن أحدًا لن يرى وجهه، وتركته لحظة هناك ثم عادت لتجده معتمدًا رأسه على ذراعه غارقًا في نوم عميق.

وفي صباح اليوم التالي قالت له: نعم يا عزيزي، إنها خسارة جسيمة حلَّت بنا جميعًا، إنني لا أتحدث عنك، لكن الله سيساعدك لأنك شاب، وقد أضحت بين يديك الآن ثروة هائلة، إن الوصية لم تُفتح بعد، إنني أعرفك معرفة كافية تجعلني متأكدة من أن الثروة المنتظرة لن تدير رأسك، لكن ذلك يفرض عليك واجبات جديدة فينبغي أن تكون إنسانًا.

لبث بيير صامتًا، فأردفت الأميرة تقول: لعلني أقول لك في المستقبل، إنني لو لم أكن موجودة مساء أمس لكان الله وحده يعلم بما كان سيحدث، لقد كان عمي أول أمس

يعدني بألا ينسى بوريس، لكنه لم يجد مُتسعًا من الوقت، فآمل يا صديقي العزيز أن تُنفِّذ رغبة أبيك.

لبث بيير مشدوهًا لا يفقه شيئًا، واكتفى بالنظر إلى آنا ميخائيلوفنا وقد تضرج وجهه وبان الارتباك على قَسَماته.

بعد ذلك اللقاء والحديث، عادت الأميرة دروبتسكوي إلى منزل آل روستوف وأوت إلى سريرها، وبعد أن نالت قسطًا من الراحة، راحت تسرد على مدعويها ومعارفها تفاصيل دقيقة عن آخر لحظات الكونت بيزوخوف، كان المرء، إذا أصغى إليها، يفهم من كلامها أن الكونت مات الميتة التي كانت هي نفسها تتمناها لنفسها؛ إذ إن نهايته كانت مثيرة للشعور، بل وعِبرة وقدوة للناس، أعربت في حديثها عن تأثُّرِها البالغ باللقاء الأخير الذي تم بين الابن وأبيه، حتى إنها لم تتمالك عندما فكرت في ذلك اللقاء من ذرف الدموع، ما كانت ترى أو تستطيع أن تميز من الذي تصرَّف خيرًا من الآخر في تلك المناسبة الأليمة؛ أكان الأب الذي تذكَّر كل الناس في تلك اللحظة الحاسمة وكل الأشياء المحيطة به، فوجَّه إلى ابنه كلماتٍ آيةً في الحنان والعطف، أم بيير الذي صهره الألم والحزن رغم محاولته إخفاءهما بعناية كي يوفر على أبيه مضاعفة آلامه.

كانت آنا ميخائيلوفنا تقول: لقد كان المشهد أليمًا لكنه لم يخلُ من الفائدة، إنه يرفع الروح ويسمو بها، إن رؤية رجال مثل الكونت العجوز وابنه البار تهزُّ المشاعر.

وتحدثت كذلك عن تصرفات كاتيش والأمير بازيل بلهجة فيها هجاء وتوبيخ وتبكيت، غير أنها في تلك المرة كانت تتحدث بصوت منخفض وسرية مُطْلَقَةٍ.

الفصل الخامس والعشرون

الأمير بولكونسكي

كان الأمير نيكولا آندريئيتش بولكونسكي ينتظر في مقاطعته ليسيا جوري — أي الجبل الأقرع — وصول الأمير الشاب آندره وزوجته من يوم إلى آخر، دون أن يُغفل — مع ذلك — النظام الدقيق الذي يتبعه في بيته الكبير الذي يقطن فيه، كان منذ عهد بول الأول، حيث أُبعد إلى أراضيه، يعيش بصورة مستمرة في الريف مع ابنته ماري والآنسة بوريين، وهي الوصيفة المرافقة للأميرة الشابة، وقد ظل الجنرال الأعلى، الأمير بولكونسكي، ملك بروسيا كما كان يسمِّيه الأشخاص العارفون في الأرياف مُعتكِفًا منذ ذلك الحين، فلما فتح له العهد الجديد طريق العاصمتين، ظل مثابرًا على انزوائه في أملاكه، زاعمًا أن الأشخاص الذين يريدون لقاءه يستطيعون قطع أربعين ميلًا للوصول إليه حيث هو في مقاطعة الجبل الأقرع، أما هو، فلم يكن في حاجة إلى شيء أو إلى أي شخص، كان يصرح أبدًا بأن البطالة والاعتقادات الخرافية كانت المصدر الأوحد لكل الشرور والآثام، وأن الفضيلتين الوحيدتين في العالم هما: الذكاء والعمل، فكان يُشرف بنفسه على تثقيف ابنته، وإنماء تَيْنِك الفضيلتين الأساسيتين في نفسها، لبث يعطيها دروسًا في الجبر والهندسة حتى بلغت سِنَّ العشرين، وجهد دائمًا على ألا يدعها تُمضي فترة واحدة من أوقاتها دون عمل تعمله، وكان بدوره لا يهدأ أبدًا، فكان يكتب مذكراته، ويناقش ويحل مسائل رياضية عالية، ويصنع الأواني الفخارية، ويعمل في بستانه، ويراقب أبنيته الكثيرة لأنه كان بنَّاءً كبيرًا.

ولما كان النظام هو الشرط الجوهري الأول في نشاطه وعمله، فإن وجوده كان منظمًا بدقة، حتى في أدق المراحل واللحظات، فكان بذلك يجلس إلى المائدة في مواعيد ثابتة يراعي فيها ليس الساعة فحسب بل الدقيقة أيضًا، ولم يكن قط قاسيًا، غير أن صلابته الملازمة التي لم تكن تفارقه مطلقًا، كانت توحي إلى من حوله — ابتداءً من ابنته وحتى أتفه الخدم — احترامًا مُفزعًا، ما كان يستطيع فرضَه أشدُّ الناس قسوة ووحشية، وعلى الرغم

من أنه كان محرومًا من كل نفوذ جديد، فإن كل حاكم جديد للمقاطعة كان يعتقد عند وصوله أو قبل مغادرته المقاطعة ليحل خلف محله، بضرورة الشخوص إلى منزل الأمير وتقديم تمنياته وواجبات الاحترام إليه، فكان ذلك الموظف الكبير يُضطر إلى الانتظار في قاعة الاستقبال الفسيحة؛ أسوة بالمهندس والبستاني والأميرة ماري نفسها، ريثما تحين الساعة الثابتة لنهوض الأمير من فراشه، وعندئذٍ كان المنتظرون يشعرون، دون استثناء، شعورًا بالاحترام ممزوجًا بإحساس بالرهبة، عندما تُفتح درفتا الباب الضخم المؤدي إلى مكتب الأمير، ليبدو هذا على عتبته بشعره المستعار وقامته الصغيرة، قامة عجوز ذي يدين معروقتين وحاجبين أبيضين كَثَّين يحجبان كلما قطَّبهما نظرتَه المشعة ببريق الذكاء والنشاط والشباب.

ذهبت الأميرة ماري، صباح اليوم الذي كان يُنتظر فيه وصول الزوجين الشابين، إلى قاعة الانتظار كالعادة، في الساعة المعينة لتمنيات الصباح، ورسمت كالعادة إشارة الصليب على صدرها، وقرأت دعاءً صامتًا وابتهالًا سريًّا، كانت كل صباح تدخل تلك القاعة، وتبتهل إلى الله أن يؤازرها خلال المقابلة الرهيبة المنتظرة، فكان خادم عجوز ينهض دون ضجة فيستقبلها ويهمس لها قائلًا: تفضلي بالدخول.

ومن وراء الباب، كان دوي عجلة دائرة دورةً رَتيبةً يُسمع بوضوح، جذبت الأميرة بخوف مصراع الباب الذي كان ينفتح دون عناء، وتوقفت على العتبة، فالتفتَ الأمير إليها، لكنه لم يتوقف عن عمله.

كانت غرفة الأمير الشاسعة تزدحم بعدد من الأشياء التي تحمل طابع الاستعمال الدائم، فالطاولة الكبيرة كانت تنوء بالكُتب والمخططات، وخزائنُ الكُتب العالية تعجُّ بمحتوياتها، وفي قفل كل منها مفتاحه الملائم. وعلى نضد مرتفع يصلح للكتابة إذا كان الشخص واقفًا، كان دفتر كبير مفتوحًا، وبجانبه أدوات الكتابة، أما جهاز صنع الأواني الفخارية، فقد كانت الأدوات المختلفة المبعثرة فوق النشارة التي تغطي مساحة حوله، تشهد بنشاطه المستمر المتنوع المضبوط، كانت حركات ساقه على الدولاب، وضغط يده الناحلة الثابتة تشهد بالقوة العظيمة التي يمتاز بها الأمير في كهولته الناعمة، أدار العجلة بقدمه عدة دورات أخرى، ورفع ساقه عن المحرك، ومسح «إزميله» وألقاه في جيب جلدي مُعلَّقٍ إلى الجهاز، ثم اتجه نحو الطاولة، واستدعى ابنته، فقدَّم لها وجنته المتغضنة لتقبِّلها، وعلا صوته الصارم الذي تلطفه نظرة مفعمة بالحنان والعناية، قائلًا أنْ يباركها؛ لأن عادته جرَت على استنكار مثل هذه الطقوس: هل أنتِ على خير حال؟ اجلسي إذن.

دفع بقدمه مقعده الوثير وأخذ دفترًا من دفاتر الهندسة، وكتب بخط يده فيه، ثم تصفحه وهو يشير بظفره المتين إلى المقطع الذي يريد منها دراسته وحفظه: هذا واجبكِ ليوم الغد.

فانحنَت الأميرة على الدفتر، بينما قال العجوز فجأة: انتظري، لدي رسالة لكِ.

وراح يبحث في جيبٍ محدثٍ في الطاولة عن الغلاف المنشود الذي كان يحمل كتابة نسائية.

ألقى الرسالة على الطاولة، فالتقطتها الأميرة بانفعال وضمَّتها إلى صدرها، وقد تضرج وجهها فجأةً.

قال الأمير، وقد افتر ثغره عن ابتسامة باهتة كشفت عن أسنان صفراء متينة: أهي من «هيلوئيزتك»؟

فأجابت الفتاة بابتسامة ونظرة وجلة: نعم، إنها من جولي.

قال الأمير في غير أنس: سأدع رسالتين أخريين تمران، لكنني سأقرأ الثالثة، إنكن تكتبن لبعضكن سخافات، أتوجس منها خيفةً، لذلك سأقرأ الثالثة.

أجابت الأميرة، ووجهها يزداد حمرةً، وهي تمد له يدها بالرسالة: يمكنكَ قراءة هذه يا أبي.

فأجاب الأمير بلهجة حاسمة، وهو يُبعد الرسالة عنه: الثالثة، لقد قلت الثالثة.

ثم اتكأ على الطاولة، وجذب إليه دفتر الهندسة، وشرع يشرح وهو ينحني فوقه، مستندًا بإحدى يديه على مسند المقعد الذي جلست عليه ابنته: انتبهي يا آنسة، انظري إلى هذه المثلثات، إنها متساوية، لذلك اعتبري أن زاوية أ ب ج …

كانت الأميرة، في جلستها تلك، تحسُّ برائحة التبغ تنفذ إلى صدرها، وتشعر بالعفن الحاد الذي ينبعث من أجسام الكهول يختلط بأنفاسها، كانت ماري تختلس بين الحين والحين نظرات فَزِعَةً إلى عينيه الملتمعتين القريبتين من وجهها، لكنها ما كانت تفقه شيئًا؛ لأن الخوف كان يمنعها من فهم شرح أبيها مهما بلغ من وضوح وإسهاب، وسواء أكان الخطأ مصدره الأستاذ أم التلميذ، فإن ذلك المشهد كان يتكرر كل يوم؛ تضطرب عينا الفتاة وتعجز عن رؤية الأحرف والخطوط وسماع البيانات، فلا ترى إلا ذلك الوجه الأعجف الصارم القريب من وجهها، ولا تُحسُّ إلا بأنفاسه، وبتلك الرائحة التي تنبعث منه، ولا تفكر إلا في الفرار بأسرع ما يمكن، واللجوء إلى غرفتها؛ لتدرس أمثولتها بهدوء، وتحلَّ النظرية الهندسية باطمئنان. وكان العجوز يبرم بها وينفد صبره فيُبعد المقعد

ويقرِّبه بصخب ويكبت غضبه، لكنه في كل مرة كان ينتهي به الأمر إلى الثورة والانفعال والتأنيب، فيلقي بالدفتر إلى كل الشياطين!

أخطأت ماري في جوابها، فصاح الأمير العجوز وهو يلقي بالدفتر بعيدًا ويستدير بغضب: هل يمكن أنْ تكون فتاةٌ أشد غباءً منكِ!

لكنه نهض بعد ذلك وراح يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، ثم اقترب من ابنته وراح يداعب شعرها ملاطفًا، وأخيرًا عاد إلى مقعده وباشر بشرح نظريته مُجدَّدًا.

وبعد أنْ أخذت التلميذة ملاحظاتٍ على النظرية سجَّلها على الدفتر، تأهبتْ للخروج، فقال الأمير: ينبغي أنْ تكوني دءوبة يا أميرة، إنَّ الرياضيات أهم شيء في الوجود، إنني لن أسمح لكِ أن تكوني سخيفةً كَسَيداتنا النبيلات في هذا العصر، سوف تشعرين بميل إلى العلوم الرياضية بعد قليل من الصبر.

ثم أردف، وهو يُربت على وجنتها: وبذلك فقط تخرج التُّرهات والخرافات من رأسك إلى الأبد.

همَّت الأميرة بالخروج، لكنه استوقفها بإشارة، ووضع على النضد المرتفع كتابًا جديدًا لم تُقطع أوراقه بعد، وقال: وهذا أيضًا واحد من «مفتاح السر» ترسله لك صديقتك هيلوئيز، إنه كتاب يؤيد العقيدة الدينية، إنني لا أتدخل في معتقدات أحد، وقد تصفحته فيمكنك أَخْذُه، اذهبي الآن، اذهبي.

وربت على كتفها، وأغلق بنفسه الباب وراءها.

عادت الأميرة ماري إلى غرفتها وعلى وجهها أمارات حزن وشرود ما كانت تفارقه، بل كانت تُضفي على ذلك الوجه المريض محدود الجاذبية والفتنة سِترًا من البشاعة، جلست إلى مكتبها الذي تَراكم فوقه خَليطٌ من الكُتب والدفاتر والمخطوطات يَشهد بأنها على نقيض أبيها؛ لا تحب النظام الذي كان مهووسًا به. وألقت دفتر الهندسة جانبًا، وراحت تفضُّ الرسالة التي بعثت بها صديقة طفولتها المفضلة بصبر نافدٍ؛ لتطَّلع على ما أوردت فيها؛ ولا يفوتنا هنا أن نُنوِّه بأن صديقتها جولي، هي بعينها جولي كاراجين التي مرَّ بنا الدور الذي لعبته في حفلة آل روستوف.

كتبت جولي ما يلي:

> عزيزتي الصديقة الممتازة، إنَّ الغياب أمر مخيف مرعب! لقد قلتُ دومًا إن نصف وجودي وسعادتي كامن في شخصك، وإنه على الرغم من المسافة التي تفرِّق بيننا، فإن قلبينا متصلان برباط لا يُفصم عراه، إنَّ قلبي يتمرد على القدر

فلا أستطيع — رغم المسرَّاتِ التي تحيط بي والتي تساعدني على الترويح عن نفسي — أن أهزم وأبدد لونًا من الحزن الدفين الذي أحسُّ به قابعًا في أعماق قلبي منذ فراقنا، لِمَ يا تُرى لم نجتمع هذه المرة كما وقع لنا ذلك الصيف في غرفتك الكبرى على الأريكة الزرقاء؛ أريكة الاعترافات؟ لِمَ لا أستطيع منذ ثلاثة شهور أن أحصل على قوًى معنويةٍ جديدة أستمدها من نظرتِك شديدةِ الوداعة شديدةِ الهدوء وشديدةِ التعمق، تلك النظرة التي أحببتها حبًّا جمًّا، والتي يُخيل إليَّ أنها ماثلة أمامي ساعةَ أكتب إليك هذه الرسالة!

لما بلغت الأميرة هذا المقطع، رفعت نظرها إلى مرآةٍ مقامة إلى يمينها في فراغ بين نافذتين، فعكست المرآة صورة هزيلةً محزنةً راحت عيناها المكتئبتان تتأملانها بكثير من الأسى والحزن، قالت في سِرِّها: «إنها تمتدحني»، وأشاحت بوجهها عن المرآة لتتابع القراءة، غير أن جولي ما كانت تُغدق المديح الكاذب على أحد وخصوصًا على صديقتها؛ إذ إن عينَي الأميرة الكبيرتين العميقتين كانتا أحيانًا تشعان بإشعاعات دافئة حامية، تسبغ على وجهها المهزول جاذبية يعجز الجمال عن مثلها، ولما كانت الأميرة ماري تعرف أن تلك النظرة الدافئة الفتانة لا تشع من عينيها إلا في أوقاتٍ تكون فيها أبعد الناس عن التفكير في نفسها؛ لذلك فقد كانت لا ترى تلك البادرة أبدًا ولا تعتقد بوجودها، كانت ككل الناس تقريبًا، إذا وقفت أمام المرآة، اتخذت طابع التَّرقُّبِ اللاإرادي الذي يرتسم عادةً على كل وجه أمام المرآة، فكان ذلك الطابع يشوِّهُ حسنها. تابعت قراءة الرسالة:

إن موسكو كلها لا تتحدث إلا عن الحرب، وإن واحدًا من أخوَيَّ أصبح الآن خارج البلاد، أما الثاني فإنه مع فرقة الحرس التي تتجه نحو الحدود. إن إمبراطورنا العزيز قد ترك بيترسبورج وهو يرمي — على ما نمى إليَّ — إلى تعريض ذاته السَّنيةِ لخطر الحرب، فعسى أن يقدِّر الله أن يُسحق الوحش الكورسيكي الذي أقلق سلام أوروبا ودمَّرَهُ، من قِبل الملَك الذي أرسله الله لنا برحمته ملكًا وإمبراطورًا! إن هذه الحرب قد حَرَمتني علاقات حبيبة إلى قلبي، بصرف النظر عن أخوي اللذين يخوضان غمارها، ذلك أن نيكولا روستوف، الشاب الذي دفعته حماسته إلى الانخراط في الجيش وترك الجامعة، قد ذهب في عِدادِ الذاهبين، ثقي يا عزيزتي ماري أنه على الرغم من سنِّه الفتي الرَّيانِ، فإنني أستطيع أن أصرح لك بأن ذهابه سبَّب لي حزنًا كبيرًا، إن ذلك الشاب

— وقد حدثتك عنه في الصيف الماضي — شديد النُّبل؛ نبل يندر أن يلاقي المرءُ مثلَه في هذا العصر؛ حيث نعيش بين شيوخ في العشرين من أعمارهم. إنه طيب القلب جدًّا، صريح إلى أبعد حدود الصراحة، وهو نقي السريرة، شاعري الإحساس، حتى إن علاقاتي معه مهما بلغت من تفاهتها — وكانت علاقات عابرة — كانت أجمل المباهج التي مرت على قلبي المسكين المفعم بالألم.

سأحدثك ذات يوم عن كل ما تحدثنا به عند الوداع، وما دار بيننا خلاله، إنه لا زال حتى الآن عالقًا في ذاكرتي؛ لأنه حدث بالأمس القريب. آه يا صديقتي الحميمة! إنني أغبطك لجهلك المَبَاهج والآلام الممضة التي أتحدث عنها في هذه الرسالة، إنك سعيدة لأن المتأخرات في هذا المضمار هن دائمًا الأكثر سعادة والأشد ساعدًا وقوة! إنني أعرف تمامًا أن الكونت نيكولا صغير جدًّا لا أمل لي في بناء آمالي عليه في شيء أكثر من الصداقة العادية، غير أن تلك الصداقة الهادئة الوادعة، وتلك العلاقات شديدة الطُّهر والشاعرية، كانت كلها من متطلبات قلبي، ولكن لنترك هذا الأمر جانبًا، ولنتحدث في غيره، إن الخبر الأخير الذي يشغل بال أهل موسكو جميعًا وهو موت الكونت بيزوخوف الهرم وإرثه. تصوَّري أنَّ الأميرات الثلاث لم يرثن إلا نزرًا تافهًا، وأن الأمير بازيل حُرِم من كل شيء، وأن السيد بيير قد ورث كل شيء وأصبح — علاوة على ذلك — ابنَ الكونت الشرعيَّ، ومن ثَمَّ الكونت بيزوخوف، مالِك أكبر ثروة في كل روسيا، إنهم يزعمون أن الأمير بازيل لعب دورًا مرذولًا في هذه القضية، وأنه انسحب عائدًا إلى بيترسبورج وهو حائر شديد الخجل.

أصرِّح لكِ بأنني لا أفهم من هذه الأمور شيئًا يُذكر، لكنني أرى وأعرف أنه منذ أن أضحى الشاب الذي كنا نعرفه تحت اسم السيد بيير فقط، كونت بيزوخوف مالك أكبر الثروات الروسية، فإنني أتسلى بالنظر إلى السيدات والأوانس ومراقبة التبديلات والتغيرات في اللهجات وأساليب التحدث التي طرأت على الأمهات اللاتي ينؤن بأعناد بناتهن، البالغات سن الزواج، حيال هذه الشخصية الجديدة الذي ظل يبدو لي رغم ذلك، كما كان من قبل، سيدًا مسكينًا.

ولما كانوا منذ عامين يزعمون دائمًا أنني سأُزَوَّجُ لفلان أو فلان من المجهولين مني، فإن آخر إشاعة راجت في موسكو جعلتني الكونتيس بيزوخوف

المنتظرة، لكنك تشعرين — ولا شكَّ — بشعوري، وتعرفين أنني لا أفكر قط في مثل هذا المركز. ولما كنا نتحدث عن الزواج فإنني أُعْلمك «أن العمة الجماعية» آنا ميخائيلوفنا أسرَّت إليَّ أخيرًا تقول إنَّ هناك مشروعَ زواج يتعلق بكِ يحاكُ في الخفاء، فهل تعرفين الزوج المنتظر؟ خمني، إنه ليس إلَّا ابن الأمير بازيل، الشاب آناتول الذي يفكر أبوه في إيجاد مركز رفيع له، وإقحامه في صُلب المجتمع، بتزويجه من فتاة غنية راقية ومرموقة، وقد وقع اختيارهم واختيار ذويه عليك، ولستُ أدري كيف تنظرين إلى الأمر، لكنني أظن أن من واجبي — رغم السرية التامة التي أحيطُ المشروعَ بها — أن أبلغك وأنذرك بما يقال وما يشاع عن زوجك المُنتظَر؛ إنهم يقولون إنه جميل جدًّا وشاب رديء جدًّا، هذا كل ما أستطيع قوله وما أعرفه عنه.

ولكن كفانا ثرثرة حتى الآن، لقد ملأتُ الورقة الثانية من رسالتي، وها إن أمي أرسلت في طلبي لأذهب معها عند آل آبراكسين، اقرئي الكتاب الديني الذي يبحث في شئون العبادة والذي أرسلتُه لكِ مع كتابي هذا؛ لأنه شديد الرواج عندنا، وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يحفل ببعض الأمور التي يصعب علينا فهمها بإمكانيتنا الإنسانية المحدودة الضعيفة، فإنه كتاب رائع تسمو النفس عند قراءته. وداعًا. احتراماتي للسيد أبيك وتمنياتي للآنسة بوريين. أقبِّلك كما أُحبك.

ملاحظة: أطلعيني على أخبار أخيك وزوجته الصغيرة الفتانة.

جولي

راحت الأميرة ماري تفكر، وأخيرًا ابتسمت وهي شاردة الذهن، وانبسطت أسارير وجهها الذي أضاءه ذلك الإشعاع المُنبعِث من عينيها، نهضت فجأةً ومَضَتْ إلى مكتبها بخطوات ثقيلة، فأخذت ورقة، وراحت يدها تجري بالقلم عليها جريًا؛ كان الجواب الذي حررته ما يلي:

عزيزتي وصديقتي الممتازة، لقد أحدثتْ رسالتك المؤرخة في ١٣ الجاري سرورًا بالغًا في نفسي، إنكِ إذن لا زلت تحبينني يا جوليتي الشاعرية، والفِراق الذي تتحدثين عن كل مساوئه لم يؤثر في نفسك أثَرَه المباشر الطبيعي؛ لأنك لم

تنسَيْني. إنك تشتكين من الفراق، فماذا أقول أنا إذا «جاز لي» أن أشكو، وأنا المحرومة من كل مَن هُم أعزاء على نفسي؟! آه! لو لم يكن لدينا الدين عزاءً، لكانت الحياة شاقة لا تطاق، حزينة كئيبة. لِمَ توقعتِ مني نظرة صارمة عندما حدثتِني عن إعجابك بفتاك الشاب؟ إنني على هذا الأساس، لستُ قوية ولا قاسية إلا على نفسي، إنني أفهم هذه الإحساسات التي تعتلج في نفوس الآخرين، ولما كنتُ لا أستطيع تأييدها، خصوصًا وأنني أشعر بها بنفسي، فإنني لا أحكم عليكم على ضوئها. يبدو لي أن الحبَّ المسيحي فقط، حبَّ المستقبل والآخرة، حبَّ أعدائنا؛ هو الحبُّ الوحيد الأكثر فائدة وجدارة، وهو أجمل حب وأنبل إحساس لا تستطيع العيون الجميلة وأثرها في نفس فتاة شاعرية عاشقة مثلك، أن تُحدث مثلها.

إن موت الكونت بيزوخوف قد بلغنا قبل وصول رسالتك، ولقد حزن أبي حزنًا عميقًا لموته، وقال إنه كان قبل الأخير بين ممثلي القرن المشرق الباهر، وإنه الآن بات يتحين دوره، لكنه سيعمل ما في طاقته لتأخير حلول ذلك الدور ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. ليحفظنا الله من ذلك البلاء المريع! إنني لا أشاطرك رأيك حول بيير الذي عرفته طفلًا، لقد كان يبدو لي دائمًا ذا قلب ودود ممتاز، وهذه الصفة هي التي أقدِّرها أكثر من غيرها في نفوس البشر، أما فيما يتعلق بإرثه وبالدور الذي لعبه الأمير بازيل، فإن الأمر ذو عناء ونصَب للاثنين معًا. آه يا صديقتي الحبيبة! إن كلمة مخلِّصنا الإلهي التي تقول «إنَّ دخول جَمَلٍ في سَمِّ الخياط أسهل من دخول غني في ملكوت السماوات»؛ لَرهيبةٌ في حقيقتها وصدقها، وإنني أشفق على الأمير بازيل وآسَفُ من أجل بيير أسفًا أكثر عمقًا. إنه يافع بعد، تبهره مثل هذه الثروة، فكم من مغريات سيتعرض لها بسببها! لو أنهم سألوني عما أفضِّله في هذا العالم على سواه من الأمور، لقلت إنني أرغب أن أكون أشد فقرًا من أفقر المتسولين.

ألف شكر يا صديقتي العزيزة على الكتاب الذي أرسلتِه لي، والذي هو في أوج رواجه عندكم. ولما كنتِ تنوِّهين بأنه يحوي، بين العديد من الأمور الطيبة التي فيه، على شئون لا يستطيع إدراكنا البشري بلوغ مداها، فإنه يبدو لي عبث الاستغراق وضياع الوقت في قراءة يصعب فهمها، يمكن أن تكون نتيجتها عديمة الجدوى. إنني لم أفهم قطُّ سبب الولع الذي يبديه بعض

الناس في تشويش مداركهم بالتعلق ببعض الكُتب اللاهوتية التي لا تخلع على نفوسهم إلا أطيافًا من الشكوك والارتياب، فيسمو خيالهم ويعطيهم نفسية متعنتة متطرفة، تتناقض مع البساطة المسيحية، لنقرأِ الأسفارَ والإنجيل وأقوال الرسل، ولْنترك البحث في محاولة التعمُّقِ فيما وراء ذلك من أسرار؛ لأننا لا يجوز لنا — ونحن الخاطئون الحقيرون — أن ندخل أو أن نزعم أننا نستطيع الدخول في الأسرار الرهيبة المقدسة التي اختصت بها القدرة الإلهية، طالما أننا نرفُلُ في ثوبنا الجسدي الذي يرفع بيننا وبين الواحد الأزلي ستارًا لا يُخرق، فلنكرس جهودنا إذن لدراسة المبادئ السامية التي خلَّفها مخلِّصنا الرباني وراءه لتكون سُنتنا على هذه الأرض، ولنسعَ في إجادة القدوة وتأثر خطاه الشريفة، ولنضع نُصْب أعيننا أننا كلما اعتدلنا في إرهاق فكرنا البشري الضعيف، كان ذلك أكثر تقبلًا من الله ورضوانًا منه؛ لأن الله يستبعد كل علم لا يبلغ بالمرء إليه، وإننا كلما حاولنا التعمق في الأمور التي طاب له أن يبعدها عن نطاق معرفتنا، أسرع في تقريبها وكشفها بروحه السامية.

لقد حدثني أبي عن الزوج المنتظر، لكنه لم يُسْهِبْ، بل اكتفى بالقول إنه تلقَّى رسالته وإنه ينتظر الأمير بازيل. أما رأيي في مشروع الزواج الذي يتعلق بي، فإنني أعتقد بأن الزواج سُنة ربانية ينبغي على المرء أن يخضع لها، وإنني واثقة من أن الله القدير، إذا فرض عليَّ واجب الزواج والأمومة، فإنه سيعطيني القوة الكافية لأداء تلك الواجبات بكل ما في طاقتي من إخلاص، دون أن أبالي بالاختبار الذي ستجتازه عواطفي حيال الشخص الذي سيصبح زوجي.

لقد تلقيت رسالة من أخي يُعلمني فيها بأنه سيحضر إلى الجبل الأقرع مع زوجته، لكنها ستكون بهجة قصيرة الأمد؛ لأنه سيغادرنا بعدها ليشترك في الحرب التَّعِسةِ التي اندفعنا فيها، والتي لا يعلم إلا اللهُ كيف ولماذا اشتركنا فيها، والحديث عن الحرب لا يقتصر على وسطكم الحافل بالأعمال والمنتديات، بل إنه تعداه إلينا وسط أعمال الحقول وهدوء الطبيعة، كما يتصور أهلُ المدن حياةَ الأرياف. إن الحديث عن الحرب قد بلغ إلينا وأحدث أثرَه السيئ الأليم، وأبي لا يتحدث إلا عن هجوم وهجوم مضاد، وما إلى ذلك من أمور لا أفقه منها شيئًا! وأمس الأول، بينما كنت أتنزه في شارع القرية كعادتي، وقعت أبصاري على مشهد أليم مروع؛ لقد شهدتُ بأم عيني قافلة من المجندين الذين أُدخلوا

في أسلحة الجيش يغادرون القرية إلى مراكزهم التي تنتظرهم، ولو أنكِ شهدتِ مثلي حالة أمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم؛ أولئك النساء المُلتاعات اللواتي شهدن ذهاب رجالهن إلى الحرب، وهن ينتحبن ويبكين، لاعتقدتِ معي أن الإنسانية نسيت قوانين مخلِّصها الرباني الذي بشَّر بالمحبة والعفو عن الإساءات؛ تلك الإنسانية التي باتت تتنافس بينها وتتسابق في التقتيل والتدمير.

وداعًا يا صديقتي الطيبة العزيزة، وليحرسْكِ مخلِّصنا الرباني وأمه الشديدة القدسية برعايتهما القوية المقدسة.

ماري

قالت الآنسة بوريين الضاحكة بصوتها الرخيم الألثغ: آه! هل ترسلين رسالة يا أميرة؟ لقد أرسلت بريدي، لقد كتبت إلى أمي المسكينة.

كانت المرافقة، الآنسة بوريين، فتاة لعوبًا تجر في أعقابها عالمًا من المرح والبهجة يبدد الجو الثقيل المشحون بالأسى الذي تعيش الأميرة فيه.

أردفت الآنسة بوريين، وهي تخفض صوتها: ينبغي أن أخطرك يا أميرة أن الأمير تعرَّض اليوم لنقاش حادٍّ مع ميشيل إيفانوف، وهو الآن متعكر المزاج شديد التضجر والتبرم، وقد رأيت أن من واجبي أن أخطرك بالأمر.

كانت الآنسة بوريين تجد لذة فائقة في التحدث عن مزاج الأمير، حتى إنها عندما كانت تروي للأميرة ماري موضوع النقاش، كان صوتها الرخيم العذب ينطق بالسرور الفائق، غير أن الأميرة لم تكن من رأيها؛ إذ قالت تجيبها: آه يا صديقتي العزيزة! لقد رجوتك من قبل ألَّا تحدثيني أبدًا عن مزاج أبي والحالة النفسية التي يكون عليها، إنني لا أسمح لنفسي أن أنتقده ولا أريد أن يفعل غيري ذلك.

وألقت الأميرة نظرة إلى المنبه، أنبأتها بأنها قد تأخرت خمس دقائق في تطبيق برنامجها العملي، فانطلقت إلى البهو بوجه فَزِعٍ؛ فقد درجت عادة الأمير على نشدان الراحة من الظهر وحتى الساعة الثانية، وكان على الأميرة ماري أن تُمضي ذلك الوقت في دراسة الموسيقى الوترية وتطبيق دروسها على «البيان» الذي في البهو.

الفصل السادس والعشرون

الأب والابن

كان الخادم العجوز غافيًا في مقعده على صوت الشخير الذي اعتاد على سماعه كلما كان الأمير نائمًا في غرفته الرحبة. ومن الجناح الأقصى من البيت، كانت إيقاعات لحن خاص بـ «دوسك» — وهو مؤلِّف موسيقي تشيكي كان ذائع الصيت في ذلك الوقت — تتكرر باستمرار وترديد ممل، لشدة الصعوبة التي كانت تواجه العازفة في إجادة عزف ذلك اللحن الصعب، وتصل إلى أسماع الخادم العجوز خافتة، خلال العديد من الأبواب الضخمة المغلقة التي تفصل بين الجناحين.

وفي تلك اللحظة، توقفت عربتان أمام باب الفناء، إحداهما مغلقة من طراز بيرنين، والأخرى خفيفة مكشوفة من طراز بريتشكا، ترجَّلَ الأمير آندره من الأولى وساعد زوجته الصغيرة على الهبوط، ودعاها لتتقدمه في الممشى، فأخرج الخادم العجوز تيخون رأسه المغطى بشعر مستعار، خلال فرجة قاعة الانتظار، وأبلغ الأمير الشاب بصوت منخفض أن أباه في قيلولته، ثم أغلق الباب، كان يعرف أن أي حدث مهما بلغت أهميته، حتى ولا وصول الأمير الشاب، ما كان يعكر سير برامج الأمير وسياق ترتيب أوقاته، وكان آندره يعرف ذلك كما يعرفه تيخون تمامًا، وقد أقنعته نظرة ألقاها على ساعته بأن الأمير العجوز لم يتبدل قط منذ أن بارحه آخر مرة، فقال لزوجته: سينهض أبي بعد عشرين دقيقة، فلنمضِ الآن إلى جناح ماري.

كانت الأميرة الصغيرة قد ترهلت بعض الشيء، لكن عينيها وشفتها القصيرة الباسمة المظللة بطيف من الزغب كانت تتخذ دائمًا، عندما تشرع في الحديث، ذلك الطابع الوديع الظريف، أخذت تسرِّح الطرف حولها ثم قالت لزوجها بمثل اللهجة التي كانت تخاطبه بها لو أنه كان قد رتَّب حفلًا راقصًا أو أقام عرضًا مغريًا: لكنه قصر منيف، لنسرع، هيا، لنسرع!

كانت تبتسم لكل من كان حولها؛ لزوجها، لتيخون، وللخادم الذي كان يقودهما. أردفت: إن ماري تتمرن على العزف، أليس كذلك؟ حسنًا، ينبغي أن نفاجئها، فلا تثيروا صخبًا.

كان الأمير آندره يتبعها وعلى وجهه طابع أنس يشوبه الغم، قال يحدِّث تيخون الذي تقدَّم منه وقبَّل يده: لقد هرمت يا تيخون!

وبينما كانا على وشك الوصول إلى البهو، حيث راح صوت المعزف يزداد وضوحًا، شاهدا فتاة شقراء صغيرة الحجم جميلة الوجه، تكاد تطير من الفرح، تخرج من باب جانبي، هتفت الشقراء في مرح: آه، يا لسعادة الأميرة! أخيرًا، لقد وصلتما، ينبغي أن أخطرها.

فقالت الأميرة الصغيرة، وهي تعانق الفرنسية الشقراء: كلا، كلا، وحق السماء. إنك الآنسة بوريين. لقد عرفتك فورًا لكثرة ما حدثتْني عنك الأميرة ماري في رسائلها، إنها تكنُّ لك حبًّا عنيفًا، هل تنتظر قدومنا؟

توقف الأمير آندره على باب قاعة الموسيقى، حيث كان ذلك المقطع الشائك لا يني يتكرر ويتردد بإصرار وعناد، وكأنه تطيَّر أمام مشهد محزن يكاد أن يقع.

دخلت ليز، فانقطع اللحن في أدق مقاطعه، وانبعثت صرخة، وصوْت خطَى ماري البطيئة، ورنين القُبَل، ولما حزم آندره أمره على الدخول، كانت أخته وزوجته — وقد انقطعتا عن رؤية بعضهما البعض بعد أن أمضتا فترة قصيرة عقب زواج آندره بليز — تضمَّان بعضهما بعضًا بعنف وشغف، وترشقان القُبل كيفما اتفق، بينما كانت الآنسة بوريين تضغط على قلبها بيدها، وهي تبتسم بغبطة، وتكاد أن تنخرط في البكاء أو تنفجر بقهقهة. قطب آندره حاجبيه وهز كتفيه، كما يفعل الهواة عندما تصك أسماعهم نغمة نشاز، وأخيرًا أفلتت الأميرتان بعضهما، ولكن سرعان ما هوتْ كل منهما على يد الأخرى فأطبقت عليها وكأنها تريد تقبيلها، رغم ممانعة كل منهما لحركة الأخرى، ثم عادتا إلى العناق من جديد، ولشديد دهشة الأمير آندره انخرطتا في بكاء مرير، وهما تتبادلان القُبل، وحزمت الآنسة بوريين أمرها على البكاء، ونفَّذت عزمها، وما كان الأمير آندره يخفي انزعاجه، غير أن الأميرتين كانتا تجدان تلك المكاشفة القلبية أمرًا طبيعيًّا، بل إنهما ما كانتا تظنان أن لقاءهما يمكن أن يتم على أبسط من ذلك الشكل.

لم تلبث الأميرتان أن انتقلتا من النحيب إلى الضحك، فقالتا معًا: آه يا عزيزتي! … آه ماري! لقد حلمت الليلة الفائتة … ما كنت تتوقعين إذن … آه ماري! لقد هزلت … وقد استعدت أنتِ …

قالت الآنسة بوريين، وقد قدَّرت تدخُّلها ضرورة لازمة: لقد تعرفت فورًا على سيدتي الأميرة.

هتفت ماري: وأنا التي ما كنت أتوقع أبدًا! آه! آندره! لم أرَكَ من قبل.

وتعانق الأخ والأخت، فقال لها آندره إنها لا زالت تلك المنتحبة «إياها»، بينما ألقت «هي» نظرة طافحة بحرارة العطف خلال دموعها، نظرة كانت تشع من عينيها الدامعتين فتُكسب وجهها جمالًا وروعة.

كانت ليز خلال ذلك مسهبة في الحديث، وكانت ابتسامتها الرائعة لا تفارق فمها بسبب استمرار هبوط الشفة العليا القصيرة على الشفة السفلى، وكشفها خلال هذه الحركة الرتيبة عن أسنانها البيضاء اللامعة، راحت تروي حادثًا وقع لهما على منحدر سباسكوائي كان يمكن أن يكون ذا نتائج خطيرة بالنسبة لها وهي في حالتها الحاضرة، ثم انتقلت إلى التحدُّثِ عن شئونها، فقالت إنها تركت كل مستلزمات زينتها في بيترسبورج، وإنها لن تجد هنا ما تظهر فيه، وإن آندره قد تبدَّل كثيرًا، وإن كيتي أودنيتسوف قد تزوجت رجلًا هرَمًا، وإنهم وجدوا جديًّا خطيبًا لماري، ولكنها ستتحدث عن هذا الأمر فيما بعد. وكانت الأميرة ماري لا تنبس ببنت شفة خلال ذلك الحديث المختلف المطوَّل، بل كانت عيناها المفعمتان بالحب والحزن شاخصتين إلى آندره، بينما كانت أفكارها تتبع اتجاهًا يختلف كل الاختلاف عن الوجهة التي كانت تسير فيها أحاديث ليز، وبينما كانت هذه تصف آخِر الأعياد التي أُحييت في بيترسبورج، سألت ماري أخاها: هل تذهب إلى الحرب حتمًا يا آندره؟

وزفرت زفرة حرَّى، فانتفضت ليز وأجابت: نعم، بل ومنذ الغد.

ثم أردفت تقول: سوف يهجرني هنا، والله أعلم بالسبب، رغم أنه كان يستطيع أن يحصل على ترقية.

لم تُنهِ جملتها حينما عادت الأميرة ماري، وقد كانت منسجمة مع أفكارها الخاصة، تقول لأخيها وهي تُلقي نظرة ودودًا على قامته المتناسقة: إذن، هل ذلك محقق؟

فأبدلت ليزا طابع وجهها وزَفَرَت مرة أخرى، وقالت: نعم، آه، إنه لأمر مفزع!

انسدلت شفتها العليا فجأةً، فأطبقت على السفلى، وأدنت وجهها من وجه الأميرة، وشرعت تنتحب.

قال الأمير آندره، وهو يُقطِّبُ حاجبيه: إنها في حاجة إلى الراحة، أليس كذلك يا ليز؟ خذيها إلى جناحك بينما أمضي للقاء أبي، كيف حاله؟ هل لا زال كعهدنا به؟

فأجابت ماري برقَّة: نعم، كعهدنا به، بل يبدو لي أنه ساء قليلًا عن ذي قبل، سوف تراه بنفسك.

سأل الأمير الشاب، وقد انفرجت شفتاه عن نصف ابتسامة تدل على أنه — رغم كل الاحترام الذي يكُنه لأبيه — يعرف نقاط الضَّعْفِ فيه: ألا زال مُوْلَعًا بالأوقات الثابتة إياها، وجهاز صُنع الأواني الفخارية، والنزهات في المماشي المشجرة؟

فأجابت ماري: بلى، لا زال يصر على دقة أوقاته، ويغرم بجهازه وبالرياضيات، ودروس الهندسة التي يلقنها لي كل يوم.

كان صوتها الفَكِهُ، وهي تتحدث عن دروسها، يوهم السامع أن تلك الدروس كانت إحدى مباهجها الرئيسية المستظرفة!

ولما انقضت الدقائق العشرون، وأزفت ساعة نهوض أبيه النظامية، جاء تيخون يستدعي الأمير الشاب للقاء أبيه الذي خرق نظام عاداته ابتهاجًا بمَقْدِمِ ابنه، وتفضَّل باستقباله بعد فترة راحة الظهيرة، فلما دخل آندره إلى غرفة الزينة، كان الأمير الشيخ جالسًا على مقعد ضخم من الجلد، مرتديًا قميصًا، مسلِّمًا رأسه لعناية تيخون؛ لأنه كان أمينًا على العادة القديمة، فكان يرتدي أبدًا ثوبًا موشًّى وينثر على شعره الذرور، لم يدخل الأمير على أبيه كما كان شأنه في المجتمعات الراقية؛ شرسًا متطيرًا بوجه مكتئب، بل كان هاشًّا شديد الحيوية، كما كانت عليه حاله عندما التقى لأول مرة بصديقه بيير.

هتف الأمير عند رؤية ابنه الشاب: آه، هو ذا رجل الحرب! لقد صوَّرت إذن لنفسك أنك ستهزم بونابرت؟

وهز برأسه بقدر ما كان تيخون، الذي كان يُضفِّرُ الشريط الذي يثبت شعره، يسمح له به، وأردف: حسنًا، مثلك كمثل الآخرين، فاعمل ما في طاقتك؛ لأننا إذا لبثنا على ما نحن عليه من تصرُّف، فسوف يجعلنا بعد حين في عداد أتباعه!

ثم أضاف، وهو يقرِّب له وجنته: مرحبًا!

كان الأمير الشيخ يزعم أن النوم بعد الغداء من فضة، بينما النوم قبل الغداء من ذهب، وفي الحقيقة أنه كان على أحسن مزاج، ألقى نظرة جانبية نحو آندره، يُظلِّلُها حاجباه الكثيفان المنسقان بعناية، فقبله هذا في المكان الذي عيَّنه أبوه، لكنه لم يُعقب على رأي أبيه، الذي درج على الاستهانة بعسكريي المدرسة الحديثة، وبصورة خاصة ببونابرت.

قال الأمير الشاب — وهو يتابع ببصره بامتثال شديد كل حركة من عضلات وجه أبيه العجوز: هأنذا يا أبي، لقد أتيتك بزوجتي، وهي في حالة خاصة، كيف حالك يا أبي؟

– إن المرض يا عزيزي لا يداهم إلا الحمقى والفُجَّارِ، ولما كنت — كما تعرف — عفيفًا زاهدًا جمَّ المشاغِلِ، أعمل منذ الصباح وحتى المساء، فإن ذلك يجعلني في صحة جيدة.

فقال آندره باسمًا: حمدًا لله وشكرًا.

– لا دخْل لله في هذا الموضوع.

ثم أعقب وقد عاد إلى سخريته المعتادة: هيا حدثني كيف علَّمكم الألمان التغلب على بونابرت، بحسب الجديد المسمى «استراتيجية»؟

فأجاب آندره بابتسامة وديَّة، تنبئ بأن ميول العجوز لا تمنعه من الإمعان في احترامه، وقال: دعني أتنفس يا أبي، لست أدري بعدُ أين سنستقر.

فهتف الأمير وقد أمسك بذراعه، وهو يجذب شريط شعره ليختبر متانته: بل على العكس، على العكس، إن مخدع زوجتك جاهز، سوف تأخذها ماري إليه، سوف تثرثران بكل سرور؛ لأن النساء لا هَمَّ لهُنَّ إلَّا الثرثرة، إنني سعيد باستقبالها، هيا اجلس ولنتحدث، إنني أفهم ماذا يعمل جيش ميخلسن، وكذلك جيش تولستوي. نزول متوافق، ولكن ماذا يفعل جيش الجنوب؟ سوف تبقى بروسيا حياديةً ولا شك، ولكن ماذا عن النمسا والسويد؟ كيف يمكن اجتياز بوميرانيا Pemeranie؟

نهض الأمير وراح يذرع غرفته، يتبعه تيخون الذي كان يقدِّم له قطع الثياب المختلفة ليرتديها، فلم يستطع الأمير آندره أمام ذلك الإلحاح إلا أن يخوض في الحديث، بدأه في شيء من الضجر، لكنه ما لبث أن ثارت حميته وازداد اندفاعه، فراح كعادته، يخلط الكلمات الروسية بالكلمات الفرنسية، وأخذ يعرض على مسامع أبيه خطة المعركة المقبلة؛ سيهدد بروسيا جيش قوامه تسعون ألف رجل ليخرجها عن حيادها، وسوف يجتمع جانب من ذلك الجيش في سترالسوند بجيش السويد، وسوف ينشط للعمل في إيطاليا وعلى الرين مائتا ألف نمساوي، ومعهم مائة ألف روسي، وسينزل في نابولي خمسون ألف روسي، وخمسون ألف إنجليزي، وسيكون مجموع الجيوش التي ستهاجم الفرنسيين، خمسمائة ألف رجل، وستعمل هذه الجيوش في نقاط مختلفة مُتنوِّعة.

كان الأمير الشيخ، مستمرًّا في ارتداء ملابسه خلال الحديث، وهو يتمشى في الغرفة، ما كان يبدي أي اهتمام بما يشرحه ابنه من نظريات، بل كان يبدو وكأنه لا يصغي إلى قوله، فلم يقاطعه إلا ثلاث مرات، وبصورة غير منتظرة أبدًا؛ الأولى عندما صاح قائلًا: الأبيض! الأبيض!

وكان معنى ذلك أن تيخون أخطأ في تقديم الصُّدْرة المطلوبة، والمرة الثانية عندما توقف ليسأله: إذن، هل الولادة قريبة؟

ثم هَزَّ رأسه بعدئذٍ بلهجة المُؤنِّب وهتف: في! في! ... استمر، استمر.

وأخيرًا، بعد أن انتهى آندره من حديثه، أرعد بصوت نشاز محطم يغني: مالبورغ يمضي إلى الحرب.

الله يعرف متى يعود.

أعقب آندره مبتسمًا: إنني لا أزعم أن ما عرضته على مسامعك هو المخطط المثالي الذي أحلم به، لكنني أروي لك ما سيكون، ولا شك أن لنابليون خطته التي تساوي هذه.

فقال الأمير الشيخ مؤيدًا: هيا، إنك لم تطلعني على شيء جديد، هيا إلى مائدة الطعام.

وراح يدندن من جديد: الله يعلم متى يعود ...

الفصل السابع والعشرون

على المائدة

في الساعة المحددة لتناول الطعام، دخل الأمير العجوز قاعة الطعام وهو على أحسن زينة، فالتقى بابنته وزوجة ابنه والآنسة بوريين ومهندسه الخاص الذين كانوا ينتظرون قُدومَهُ حول المائدة، وكان الأمير — انسياقًا مع هوًى في نفسه — يتصل على مائدته ذلك المهندس عديم الشأن، مُضْفيًا عليه شرفًا واعتبارًا، كان الأمير قليل الميل نحو اتحاد الطبقات، وكان يدعو إلى مائدته كبار موظفي المقاطعة في فترات بعيدة، مع ذلك فقط حلا له أن يُظهر في شخص المهندس ميخائيل إيفانوفيتش، الذي كان يمسح أنفه بين الحين والحين بمنديل ذي مربعات، أن كل الرجال متساوون على الأرض، وكان قد ألمح أكثر لابنه أن ميخائيل إيفانوفيتش لم يكن أدنى منهم منزلة في شيء، فكان خلال أوقات الطعام يوجه جُلَّ حديثه إلى المهندس الصامت.

كان أفراد الأسرة ينتظرون قدوم الأمير في قاعة الطعام الكبيرة ذات الجدران المرتفعة أسوة بكل غرف البيت، وكان خادم يقف وراء كل مقعد، ورئيس الخدم واضعًا منشفته على ذراعه، يرقب المائدة، فيعطي بين حين وآخر أوامره بعينيه للخدم، بينما كانت عيناه القلقتان، تتبعان مِشيةَ عقارب ساعة الجدار البطيئة، وتنتقلان منها إلى الباب الذي سيدخل الأمير منه، كان آندره يدقق في إطار كبير مُذهب، لم يره من قبل، يحوي شجرة بولكونسكي السلالية، يرتبط بإطار آخر لا يقل عنه ضخامة، يحيط بصورة أمير مالك، جالس على عرش وعلى رأسه تاج، وهو — ولا شَكَّ — سليل روريك، وأصل أسرة بولكونسكي، كانت اللوحة سيئة التصوير، تَدُلُّ على أنها من صُنع رسام مبتدئ.

كان آندره متعصبًا أمام الشجرة السلالية، يهز رأسه ضاحكًا، وكأنه يعاين رسمًا هزليًّا «كاريكاتوريًّا».

قال لأخته التي كانت تقترب منه: إنني أتعرَّف عليه هنا!

فنظرت إليه ماري مأخوذة، لم تكن تفهم ما يدفعه إلى الضحك.

فقد كان كل ما يعمله أبوها يوحي إليها باحترام عميق.

استطرد آندره يقول: لكل إنسان نقطة ضعفه، كذلك فإن ذكاءً متوقدًا كذكائه قد أُهرق في هذا العمل المضحك الغريب!

ما كانت ماري تتقبل حُكْمًا هَدَّامًا مناقضًا كهذا الحكم، فهمَّت تريد لومه والتعرُّضَ لأسلوبه، لولا أن ترددت الخطوات المنتظرة وعلا وقعها، ودخل الأمير العجوز بمشيته النشيطة الرشيقة، وحركاته الطليقة، وكأنها تعترض على النظام الدقيق الذي يسيِّر الأمور في البيت، وفي تلك اللحظة دقت الساعة دقتين، وردد البهو صدى دقتين أخريين من الساعة المعلقة على جداره، توقف الأمير، وراحت نظرته العميقة القاسية تنتقل بين الموجودين، حتى توقفت على زوجة ابنه، فشعرت هذه بذلك الشعور الذي يندمج القلق فيه بالاحترام، والذي يفرضه وجود الأمير على كل من حوله، وأحست إحساس الرعية المخلصة عند اقتراب المَلِكِ، لاطف الأمير العجوز ليز بأسلوب ينقصه التوفيق، يدُلُّ على قصر باعه في مثل هذه المجاملات، فربت على مؤخرة رأسها ومَسَّ شعرها بيده، ثم قال بصوت أجش: إنني سعيد مفتون.

وبعد أن حدَّق في وجهها مرة أخرى مُتفَحِّصًا، أشاح بوجهه عنها فجأةً، ومضى إلى مكانه على المائدة، وهو يقول: خذوا أماكنكم، خذوا أماكنكم، اجلس يا ميخائيل إيفانوفيتش.

وأشار إلى زوجة ابنه أن تجلس بقربه، فهُرع خادم يحمل لها مقعدًا إلى المكان المعين.

قال العجوز وهو يُشير إلى ضخامة وسط زوجة ابنه: هه، هه! هذا يدل على الإسراع في الواجب. في! في!

وانفجر ضاحكًا ضحكته الجافة الباردة المكروهة، ضحكة تصدر عن فمه، فلا تُشاطِرُهُ العينان فيها، أردف بإلحاح: ينبغي السير بأسرع ما يمكن، أسرع ما يمكن.

لم تسمع الأميرة الصغيرة كلامه، أم لعلها تظاهرت بأنها لم تسمعه، كانت محتفظة بصمت قلِق، قطعتْه مرة لتجيب بابتسامة على سؤال وجَّهه الأمير إليها حول صِحَّةِ والدها، ثم سألها عن معارفها، وعندئذٍ عادت ليز إلى انطلاقها المعهود، فنقلت إليه تمنيات مختلفة وأفرغت ما في جعبتها من هذر العاصمة.

تمتمت: إن الكونتيس آيراكيش، المسكينة، فقدت زوجها، فَبَكَتْه بكل ما في عينيها من دموع.

وبينما كانت ليز تزداد حماسة واندفاعًا، كانت نظرة الأمير إليها تزداد صرامة وقسوة، وفجأةً أشاح بوجهه عنها، وأدار لها ظهره، وكأنه درسها كفاية، وراح يُحدِّث المهندس: حسنًا يا ميخائيل إيفانوفيتش، إن «بونابرتنا» أضحى الآن في حال سيئ! وذلك بالإصغاء إلى ما يقوله الأمير آندره.

كانت عادته عندما يتحدث عن ابنه، أن يشير إليه بالضمير المفرد الغائب، أردف يقول: ستنْقَضُّ عليه زوبعة ثلجية هائلة، ونحن الذين كنا نعتبره مخلوقًا خاليًا من الكفاءة والإمكانيات!

راح ميخائيل إيفانوفيتش يتساءل في سِرِّهِ: عن الوقت الذي استطاع «كلاهما» خلاله التَّحدُّث عن هذه الآراء حول بونابرت، لكنه كان يعرف أن الأمير يستخدمه دائمًا وسيلة وتكأة لإثارة موضوعه المفضل، لذلك فقد راح ينظر إلى الأمير الشاب بدهشة دون أن يعرف نتائج ذلك الموقف على الضبط.

قال الأمير العجوز لابنه وهو يُشير إلى المهندس: إه، نعم، إنه ماهر جدًّا في أمور الحرب والخطط الحربية!

وعادت الأحاديث تدور من جديد حول الحرب، وبونابرت، والقُوَّاد العظام ورجال الدولة المعاصرين، كان يبدو على الأمير العجوز أن كل زعماء العهد الجديد ليسوا فقط غلمانًا صغارًا يجهلون حتى مبادئ الحرب والسياسة، بل إن بونابرت أيضًا لم يكن إلا فرنسيًّا حقيرًا، ما كانت انتصاراته لتدوم لو كان خصومه من طراز بوتيمكين[١] وسوفوروف، وكان كذلك مقتنعًا بأنه لم يكن في أوروبا في الوقت الحاضر عدوان ولا حرب جديرة بالاسم الذي يُطلق عليها، بل إن الأمر كان مقتصرًا على مشهد من مشاهد «كاراكوز»، حيث الرجال يتظاهرون أنهم يقومون بدورٍ جدِّي، وكان آندريه يستقبل تلك السخرية اللاذعة بابتسامة مغتبطة، ويحاول بمكرٍ أن يستزيد أباه منها، وقال يُثيره: نعم، إننا نحب دائمًا تمجيد الوقت الماضي، مع أن «سوفوروفك» سقط في الشَّرَك الذي نصبه له «مورو»[٢] ولم يستطع الخلاص منه كما أعلم.

---

[١] جريجوار ألكسندروفيتش Grégoire Alexandroitch، كان «فيلد ماريشال» ومقربًا إلى جلالة الإمبراطورة كاترين الثانية، وُلد عام ١٧٣٦ وتوفي عام ١٧٩١. (المترجم)

[٢] جان فيكتور مورو Jean Victor Moreau، جنرال فرنسي، وُلد عام ١٧٦٣ وتوفي عام ١٨١٣. قاد جيوش الرين والموزيل الفرنسية عام ١٧٩٦، وحارب في إيطاليا، ثم أصبح قائدًا عامًّا لجيش الرين، وانتصر في

صرخ الأمير العجوز وهو يُزيح صحفته من أمامه، فيتلقفها تيخون برشاقة: من قال لك ذلك؟ من قال لك ذلك؟ سوفوروف! فكر قليلًا يا أمير آندريه؛ إنهما اثنان فقط: فريدريك وسوفوروف. مورو! لكن مورو كاد أن يقع سجينًا لو أن سوفوروف كان مطلق الحرية، غير أن يديه كانتا مغلولتين من قِبل ضباط القيادة الألمان، سوف ترى هؤلاء الضباط الآن، إنهم يخدعون الشيطان نفسه، حتى يجعلوه حمارًا بليدًا، إذا كان سوفوروف لم يستطع أن يتخلص، فهل تعتقد أن ميخائيل كوتوزوف[٣] قادرٌ على ذلك؟! كلا يا صديقي، إنكم بكبار ضباطكم الحاليين وحدهم لن تستطيعوا شيئًا ضد نابليون، إنكم إذا شئتم هزيمته، ينبغي لكم إيجاد فرنسيين «تنكَّروا نهائيًّا لأبناء قومهم، فينقضُّون على أبناء قومهم»، ولهذا السبب أرسلنا الألماني باهلين[٤] إلى أمريكا، إلى يورك الجديدة «نيويورك حاليًّا»؛ للبحث عن الفرنسي مورو.

كان بهذا القول يُلمح إلى العَرْضِ الذي تقدَّم الروس به إلى ذلك القائد الفرنسي للدخول في خدمة روسيا، أردف يقول: يا له من ضلال! هل كان بوتيمكين وسوفوروف وأورلوف[٥] وأمثالهم من الأجانب؟ كلا يا عزيزي، لقد فقدتم عقولكم جميعًا، أو أنني عدت إلى عقلية الطفولة. ليساعدكم الله. وسنرى ... بونابرت عسكري كبير! هم!

قال الأمير آندريه: إنني لا أَزْعُمُ أن كل الخطوات التي اتُّخذت كانت مُجدية وممتازة، لكن رأيك عن بونابرت يُدهشني، اضحك ما شئت أن تضحك، ولكنه عسكري كبير حقًّا.

صرخ الأمير العجوز يستشهد بالمهندس الذي كان يهاجم قطعة الشواء، معتقدًا أنه نُسي تمامًا، وأُهمل في ذلك الحديث: يا ميخائيل إيفانوفيتش، ألم أقل لك إن بونابرت عسكريٌّ كبير؟ إنه هو الآخر يقول ذلك.

معركة هوهنلندن Hohenlinden وكاد أن يصبح منافس بونابرت، فنُفي إلى أمريكا أثر مفاوضاته مع الملكيين، وقُتل بعدئذٍ في معركة دريسد، بينما كان يحارب وطنه في صفوف الروس. (المترجم)

[٣] ميخائيل كوتوزوف جنرال روسي وُلد في بيترسبورج عام ١٧٤٥ وتوفي عام ١٨١٣، كان خصم نابليون عام ١٨١٢ والمنتصر عليه في معركة كراسنوائي Krasnoié. (المترجم)

[٤] الكونت بيير دو باهلين Pierre de Pahlen، حاكم بيترسبورج ورئيس المؤامرة التي أدت إلى قتل القيصر بول Poul الأول عام ١٨٠١، وُلد عام ١٧٤٤ وتوفي عام ١٨٢٤. (المترجم)

[٥] جريجوار أورلوف Grégoire Orlov، صفي كاترين الثانية، وُلد عام ١٧٣٦ وتوفي عام ١٧٨٣ مصابًا بالجنون، أثر طرده من رحمة الإمبراطورة. (المترجم)

فأجاب المهندس: تمامًا يا صاحب السعادة.

عاد الأمير يضحك ضحكته الجافة، وقال: لقد وُلد بونابرت محظوظًا، إنه أولًا يملك جنودًا ممتازين، وهو لم يقابل حتى الآن إلا الألمان، فمن الذي لم يهزم الألمان؟ لم يهزمهم إلا أولئك الذين ما أرادوا أن يحتملوا عناء ذلك؛ لأن الألمان كانوا منذ أن أصبح العالم عالمًا يُهزمون ويُغلبون. إنهم لا يُجيدون إلَّا التَّناحُرَ بينهم، وعلى مثل هؤلاء الحمقى أقام بونابرت مَجْدَه.

وراح الأمير العجوز يشرح بإسهاب الأخطاء الفنية الاستراتيجية التي يعزوها إلى بونابرت، وراح كذلك ينتقد تصرفاته كرجل دولة، أما الابن فقد كان ممتنعًا عن إبداء أي اعتراض، لكنه كان يبدو على وجهه أنه رغم شرح أبيه وأقواله، فإنه لم يكن على استعداد لتبديل رأيه حول ذلك الموضوع، وكذلك كان الأب، لكن الأمير الصغير كان يتأمَّلُ بإعجاب سعة اطلاع العجوز على مجرى الأمور من الوجهتين السياسية والعسكرية في كل أوروبا، والطريقة الدقيقة التي كان يُعالج تلك الأمور بها رغم انزوائه منذ سنين طويلة في الريف.

قال العجوز مُعقبًا: لعلك تتصور أن عجوزًا مثلي لا يمكن أن يفقه شيئًا في الأمور الحاضرة؟ إنك مُخطئ، إن هذه الأمور لا تني تقلقني حتى إنني لا أنام الليل بسببها، إذن أين ظهرت بوادر عسكريك الكبير في الآونة الأخيرة؟

فأجاب الابن: إن شرح ذلك يطول.

فهتف العجوز: حسنًا، امضِ إذن إلى لقاء بونابرتك!

واستدار نحو الآنسة بوريين، وقال: يا آنسة بوريين، هو ذا مُعجب جديد بإمبراطورك القذر.

– إنك تعرف تمامًا يا أميري أنني لست من أنصار بونابرت.

فعاد العجوز يدندن بصوته النشاز: الله يعلم متى يعود.

وأعقبها بضحكة أكثر نشازًا وهو ينهض عن المائدة.

لم تفتح ليزا فمها خلال هذه المناقشة، بل كانت تُلقي نظرات مذعورة تارةً على ماري وأخرى على أبيها، فلما انتهى الطعام، أمسكت بذراع ماري وأخذتها إلى غرفة مجاورة وقالت لها: إنَّ أباك شديد الذكاء، ولعله بسبب ذلك يُشعرني بالخوف.

فأجابت ماري: نعم، إنه شديد الطيبة!

الفصل الثامن والعشرون

الذَّهابُ إلى الحرب

كان الأمير آندره عازمًا على السفر مساء اليوم التالي. مع ذلك، فإن الأب — حرصًا منه على نظام حياته — انسحب بعد الغداء مباشرةً، بينما ذهبت ليز إلى جناح ماري، أمَّا آندره فإنه بعد أنْ عاين عربته الخفيفة وموضع حقائبه وترتيبها، وأعطى الأمر بأن يُقطر الجواد إلى العربة، راح وهو مُرتدٍ ثوب السفر، وقد نزع الزينة التي تُحلى بها أكتافه، يُهيئ حاجاته الأخيرة بمساعدة خادم غرفته في المخدع الذي خُصص له، لم يترك في الغرفة إلَّا الأشياء التي لا يتخلى عنها أبدًا؛ صُندوقًا صغيرًا يحوي على أدوات للزينة مصنوعة من الفضة، وغدارتين تركيتين، وحُسامًا. وكان أبوه قد قدَّم له هذه الأشياء هدية بعد أن أتى بها من أوتشاكوف، فكان يحتفظ بتلك الهدية بعناية فائقة محزومة في قطع من القماش السميك.

لقد جرت العادة على أن يفكر كل رجل قادر على التَّخيُّل، عندما يطرأ على حياته رحيل مفاجئ أو انتقال أو تبدُّل في أسلوب الحياة، وأن تُراود عقلَه أفكارٌ شَتَّى؛ لأن مثل تلك الساعة تكون صالحة جدًّا للبحث في الماضي وإقامة خطط للمستقبل، كذلك كان الأمير آندريه في تلك اللحظة، كان عاقدًا يديه وراء ظهره، يذرع الغرفة من زاوية إلى أخرى وهو شاخص البصر، يهز رأسه بشرود وتحنان، تُرى هل كان يُرهقه الذهاب إلى الحرب ويُخيفه؟ أم كان يُقلقه هجرانه لزوجته؟ لعله كان يفكر في كلا الأمرين معًا. وبينما كان على تلك الحال، تناهى إلى سمعه وقْع خطوات في الرَّدْهةِ، فلم يزعجه أن يُفاجِئه أحد وهو على تلك الحالة من الشُّرود والتفكير، توقف قرب المنضدة، وراح يتشاغل في عقد غِلافِ صندوقه، واستعاد هدوءه وأمارات السكينة المعهودة، وأسدل على وجهه ذلك الحجاب الكثيف الذي لا يمكن للعين أن تستشِفَّ خلاله أفكار صاحبه، كانت الخطوات الثقيلة تُشير إلى مَقْدِمِ أخته ماري.

قالت لاهثة وكأنها قطعت شوطًا وهي تجري: لقد قيل لي إنك أمرت بتجهيز العربة، وأنا التي كنتُ أتحين الفرص للقائك وحيدًا، إن الله يعرف متى سنلتقي من جديد، هل أزعجك قدومي؟

وأضافت وكأنها تُبرر سبب إلقائها ذلك السؤال: ذلك أنك تبدلت كثيرًا يا آندريوشا.

وابتسمت وهي تنطق باسم التدليل الظريف الذي درجت على إطلاقه عليه، ولعلها وجدت أن من الغرابة أن يكون هذا الشاب الجميل، ذو الوجه القاسي الصارم، هو نفسه آندريوشا، ذلك الغلام الماكر الهزيل الذي كان رفيق طفولتها.

سألها بعد أن أجاب على سؤالها الأول بابتسامة يسيرة: أين ليز الآن؟

قالت الأخت وهي تجلس على أريكة قُبالةَ أخيها: إنها شديدة التعب، حتى إنها نامت من فَورِها على أريكة في مخدعي، آه يا آندره! إنها امرأة أثمن من كنز! إنها طفل حقيقي شديد اللُّطفِ والدَّعَةِ، لقد شعرت بميل عنيف نحوها للوهلة الأولى.

لم يُجِب آندريه لكن قسماته فضحت سخرية وازدراءً ارتسما على تقاطيعه، فلم يخفَ ذلك على الأخت، قالت: لنكن متسامحين حيال هفوات الآخرين الصغيرة يا آندره، من ذا الذي يخلو من هفوات؟ لا تنسَ أنها نشأت في بيئة صاخبة راقية، ثم إن حالتها ليست على ما يرام، ينبغي أن نضع أنفسنا مكان الآخرين، فإذا فهمنا كل شيء صفحنا عن كل شيء، فَكِّرْ فيما ينتظر المسكينة عقب لون الحياة الذي أَلِفَتْه، ستجد أن وضعها الحاضر مؤلم، خصوصًا وهي التي ستفترق عن زوجها لتمكث وحدها في الريف.

راح آندريه يبتسم وهو ينظر إلى أخته، كما يبتسم المرء للشخص الذي يعتقد أنه يدرك أفكاره، وقال: لكنك أنتِ أيضًا تعيشين في الريف يا أختاه، فلا تجدين الحياة رهيبة بهذا القدر.

– إن أمري يختلف، فدَعْ عنك الحديث عني أرجوك. إنني لا أستطيع التطلع إلى لون مختلف من الحياة؛ لأنني لا أعرف غير حياتي الحاضرة، فكر قليلًا يا آندريه في الحزن الذي تتعرض له امرأة شابة عصرية تدفن نفسها في الريف، خصوصًا وأن «بابا» مشغول أبدًا وأنا ... أنت أدرى بمبلغ عجزي عن توفير ما تتطلبه سيدة عاشت في أرقى الأوساط، بذلك لن يبقى إلا الآنسة بوريين ...

– إنني لم أستملح هذه الآنسة بوريين قط.

– لا تقُل هذا! إنها فتاة فتَّانة شديدة الطِّيبةِ، تستوجب الرثاء والإشفاق، إنها محرومة من كل سند في الحياة، كل سند، وإذا شئنا أن نتكلم بصراحة، قلت لك إنني في غير

حاجة إليها، بل إنها تزعجني أحيانًا؛ لأن طبيعتي المتطيرة لا تتفق مع مزاجها اللطيف المرِح، ثم إنك لا تجهل — ولا شك — أنني أزداد إغراقًا في تطيُّري، إنني أحب الوحدة. ثم إن أبي يحبها كثيرًا، وهو دائمًا معها لطيف حيالها، كما هو إزاء ميخائيل إيفانوفيتش؛ ذلك لأنهما مدينان لفضله، وكما قال ستيرن:[١] «إننا نحب الأشخاص بسبب ما عملناه في سبيلهم من خير، أكثر مما نحبهم بسبب عملهم الخير لنا»، لقد التقطها أبي يتيمة في الطريق، لكنها ذات قلب طيب، وأبي يحب طريقتها في القراءة، وهي تقرأ له في كل مساء، وتقرأ بصورة ممتازة.

سألها آندريه فجأةً: ألا تعترفين يا ماري بأنك تتألمين أحيانًا بسبب عقلية أبينا؟

ألقى ذلك السؤال على الأميرة ماري في حالة من الذهول أقرب إلى الرُّعْبِ والفزع. قالت: ماذا تقول؟! أتألم؟ أنا؟

– لقد كان صارمًا قاسيًا أبدًا، وقد أصبح كما أعتقد مؤلمًا شديد الإيلام.

لعله كان يريد بتعبيره عن آرائه بهذا الشكل المتحرر وبالتحدث عن أبيه بتلك اللهجة، أن يُربك أخته أو يروِّعها.

قالت ماري وهي تتبع سياق أفكارها أكثر مما تصغي إلى سير المحادثة: إنك فتًى ممتاز يا آندريه، لكنَّ في أحكامك لونًا من التيه والإغراق، وإنها خطيئة كبرى، هل يجوز للمرء أن ينتقد أباه؟ ولو أن ذلك كان مباحًا، فكيف يمكن أن يوحي رجل مثل أبي بغير شعور الاحترام والتبجيل؟ ثق أنني مرتاحة تمامًا وسعيدة تمامًا بقربه، إن غايتي الوحيدة هي أن تكونوا جميعكم سعداء كما أنا سعيدة.

فهزَّ آندريه رأسه بتشكك وارتياب، بينما استطردت ماري: إذا شئت معرفة الحقيقة يا آندريه، فثق أن ما يعذبني ويزعجني في أبي هو لامبالاته حيال الشئون الدينية، لست أفهم كيف يمكن لعقلية نَيِّرَةٍ كهذه أن تتيه إلى هذا الحد، فتمتنع عن رؤية ما هو واضح كنور النهار، إن هذه الناحية هي كل ما يؤلمني، بل إنني في الآونة الأخيرة، اكتشفت بعض التقدُّمِ عنده، فقد أضحت سخرياته أقلَّ شدة، بل إنه وافق على استقبال أحد الرهبان والاستغراق معه في حديث طويل.

[١] لاورنس ستيرن، كاتب إنجليزي وُلد في كلونمل في أيرلندا، وهو كاتب فَكِه مسلٍّ حاذق ساخر ورقيق (١٧١٣–١٧٦٨). (المترجم)

فأجاب آندريه بلهجة جمعت بين السخرية والمودة على صعيد واحد: إه يا عزيزتي! إنني أخشى أن تَحرقي أنتِ والراهب كل جُهدكما عبثًا!

– آه يا صديقي! إنني لا أنفكُّ أبتهل إلى الله، وآمل أن يتقبل ابتهالاتي.

ثم أردفت بعد صمت يسير في شيء من الارتباك والخوف: آندريه، عندي رجاء حار أتقدم به إليك.

– ما هو رجاؤك يا صديقتي؟

– عدني أولًا أنك لن ترفضه، إنه لن يسبب لك أي عناء ولن تخجل منه، ثم إنك تسبغ عليَّ بتقبله عزاءً وسلوانًا.

ثم أردفت وهي تلمس في حقيبة يدها شيئًا كان موضوع رجائها ولا شك، ولكنها ما كانت تريد إظهاره إلا بعد أن تحصل على كلمة أخيها وميثاقه.

– عدني يا آندريوشا.

وراحت تنظر إليه بعينين ضارعتين.

فأجاب آندريه وقد ضمن موضوع رجائها: بل إنني أعدك، ولو كان فيه كبير عناء.

– لك أن تفكر كما تشاء؛ لأنني أعرف أنك وأبي سواء حول هذا الموضوع، لكنني أتوسل إليك أن تفعل ذلك من أجلي، لقد حمله جدنا الأكبر طيلة غزواته وحروبه.

واستبقت يدها في الحقيبة لا تخرجها وأعقبت: إذن هل تعدني؟

– طبعًا أعدك، ما هو الأمر الذي تريدين؟

– آندريه، إنني أباركك بهذه الصورة المقدسة، فعدني بأنها لن تفارقك أبدًا، هل تعد؟

فقال آندريه مجيبًا: إذا كانت لا تزن أرطالًا ثقيلة، وكانت لا تجتذب عنقي بشدة إلى الأسفل، فإنني أود من صميم نفسي أن أُدخل السرور على نفسك.

ولما شاهد ما ارتسم على وجه شقيقته من ألم، أدرك أن دُعابته قد جرحت إحساسها المرهف، فاستطرد مستدركًا بلهجة أخرى: بكل سرور، بل بسرور عظيم يا صديقتي.

قالت بصوت متهدج من الانفعال وهي ترفع راحتيها أمام أنظار أخيها، بحركة وقورةٍ محترمة، وعليها صورة مقدسة قديمة مسودة، يحميها إطار بيضوي جميل، معلقة بسلسلة فضية دقيقة الصياغة: سواء شئتَ أم لم تشأ فإنه سينقذكَ ويُعيدك إليه؛ لأن الحقيقة الوحيدة والغراء الأوحد كامِنان فيه.

ثم رسمت إشارة الصليب على صدرها، وقبَّلت «الأيقونة»، وقدمتها لآندريه، وهي تقول: أرجوك يا آندريه، اعمل ذلك من أجلي.

كانت عيناها الكبيرتان تشعان بذلك الوميض الدافئ الهادئ الذي يجمِّل وجهها الهزيل الناحل المريض، ولما همَّ آندريه بأخذ «الأيقونة» استوقفته؛ فهم مرادها، فرسم إشارة الصليب بدوره، وقبَّل الصورة المقدسة وهو بين ساخر ومنفعل، وقال وقد رَقَّت عواطفه: شكرًا.

فقبَّلته أخته في جبينه وعادت تجلس على الأريكة وران صمت عليهما.

قالت تقطع الصمت المخيم: كن طيبًا ورحيمًا، كما أسلفت وطلبت منك؛ لأنني أعرف أنك كنت كذلك أبدًا، لا تَقْسُ في حكمك على ليز، إنها لطيفة جدًّا وطيبة جدًّا، إن مصيرها الحاضر غاية في الحزن.

– لِمَ تكررين عليَّ هذا القول يا ماري؟ هل قلت لك إنني آخذ على زوجتي مأخذًا ما، أم إنها تسبب في إحفاظي وإزعاجي؟

ظهرت على وجه ماري لطخات حمراء، فصمتت وكأنها أُخذت بخطئها، أردف آندريه: كلا، إنني لم أحدثك قط بشيء من هذا، لكنه نمى إليك من بعضهم، أليس كذلك؟ إن ذلك يزعجني ويؤلمني.

اجتاحت اللطخات الحمراء جبين ماري هذه المرة بعد أن صبغت وجنتيها وعنقها، كانت تريد أن تجيبه، ولكن أُرتج عليها، وظلت الكلمات مُحتبِسةً في حنجرتها، لقد خَمَّنَ أخوها حقيقة ما وقع؛ إذ إنَّ ليز كانت قد حدثت ماري بعد الطعام وسط نوبة من الدموع الهاطلة بأنها تنتظر ولادة عسيرة تخشى ألا تنجو منها، ثم شكت سوء مصيرها وشكت من زوجها وأبيه، وأخيرًا أنهكتها الدموع فاستسلمت للنوم، وقد أشفق آندريه على أخته، فقال: اعلمي جيدًا يا ماري، أنني لا ألوم زوجتي على شيء، ولم أَلُمْها من قبل ولن ألومها في المستقبل، ولا أستطيع من ناحيتي أن أوجِّه لنفسي لومًا على سلوكي حيالها؛ لأن تصرُّفي منطقي ومعقول، ونحن في مثل هذه الظروف الحرجة، مع ذلك إذا شئت أن تعرفي إذا كنت سعيدًا وكانت هي الأخرى سعيدة أجبتك بصراحة أنْ كلا وكلا وكلا، أما ما هو السبب، فلست أدري!

ونهض بعد ذلك، فاقترب من أخته وقبَّلها في جبينها، كانت عيناه الجميلتان تلتمعان ببريق غير معهود، بريق مفعم بالتَّعقُّلِ وطيبة النفس، ولكنه ما كان يوجه أنظاره إلى أخته، بل كان شاخصًا بها إلى الظلمات العميقة البادية خلال الباب المفتوح وراءها.

نهضت ماري فوقفت على العتبة وقالت: آندريه، ليتك آمنت، لكنت توجهت إلى الله طالبًا إليه أن يمنحكما الحب الذي لا تشعران به، ولكانت ابتهالتك قد قُبلت.

– نعم، لعل ذلك صحيح! اذهبي يا ماري سأتبعك بعد حين.

وبينما كان الأمير آندريه يجتاز الممشى الذي يجمع بين الجناحين، ليدخل إلى مخدع أخته، وجد نفسه فجأةً وجهًا إلى وجه مع الآنسة بوريين الضاحكة، فكانت تلك المقابلة الثالثة من نوعها لذلك اليوم في أمكنة منعزلة، كانت الفتاة تبتسم أبدًا ابتسامتها الحية البريئة.

قالت — وقد تخضب وجهها بالحُمرةِ وأطرقت بعينيها دون سبب ظاهر: آه! لقد ظننتك في مخدعك.

اتخذ آندريه فجأةً طابع الغضبان، واكتفى بأن حدج الفرنسية بنظرة ثائرة ملؤها الاحتقار، جعلت الدماء تصعد إلى وجهها، فتحيد عن طريقه دون أن تهمس بكلمة، فلما بلغ غرفة أخته، بلغ مسمعه صوت ليز العاتي، التي كادت تستيقظ حتى راحت تسرد سلسلة من الحوادث الجديدة، وكأنها كانت تريد استدراك الزمن الذي فاتها، والذي قضته في صمت مُطبق، كانت تقول: تصوَّري يا ماري الكونتيس سوبوف العجوز بأقراطها المزيفة وفمها المنضد بأسنان صناعية وكأنها تتحدى السنين. ها ها ها!

كان آندريه قد سمع زوجته تردد هذه العبارة بالذات، وتعقبها بتلك الضحكة بالذات أمام غرباء للمرة الخامسة، فدخل دون ضجةٍ، رأى ليزا جالسة على مقعد، وأشغالها في يدها، مستديرة متوردة الوجه، تثرثر دون توقُّفٍ وتستوحي ذكريات بيترسبورج وحتى نُتفًا من أحاديثها، سألها وهو يداعب شعرها عما إذا كانت قد استراحت من وعثاء السفر، فأجابته إجابة مقتضبة وعادت إلى ثرثرتها.

كانت عربة مكشوفة تقطرها ستة خيول واقفة أمام الباب، وكان ليل الخريف شديد الحلكة، حتى إن الحوذي ما كان يستطيع رؤية عريش العربة، وعلى الممشى المؤدي إلى المدخل، كان عدد من الناس يحملون المصابيح ويعملون، وكانت الأضواء تلتمع خلال كل نوافذ المسكن العليا، وقد تهافت الخدم في الممشى، وكلهم يرغب في تقديم تمنياته للسيد الشاب قبل سفره. أما أهل الدار وميخائيل إيفانوفيتش والآنسة بوريين وماري وليز، فقد كانوا ينتظرون في البهو الكبير عودة الأمير آندريه من لدن أبيه الذي أعرب عن رغبته في لقائه على انفراد لوداعه.

لَّما دخل آندريه مكتب الأمير العجوز، كان هذا مرتديًا معطفًا منزليًّا أبيض، احتفظ به خلال فترة وداع ابنه، وكان يكتب على ورقة، وقد أثبت نظارتيه على أرنبة أنفه، استدار نحوه وقال: هل تذهب الآن؟

وعاد إلى كتابته، فقال الابن: لقد جئت أودِّعك يا أبي.

– حسنًا قبِّلني هنا (وأشار إلى وجنته) شكرًا شكرًا.

– لِأي شيء تشكرني؟

– لأنك تلتحق في الجيش في الوقت المناسب، يا للسعادة! إنك لا تتعلق بثياب امرأتك، إن الواجب قبل كل شيء، فشكرًا شكرًا.

وظل القلم يجري على الورقة بسرعة، حتى إنه كان يغرز فيها أحيانًا أو يلطخها بالحبر، قال الأمير العجوز: إذا أردت أن تقول شيئًا، فقله لأنه لن يزعجني.

– إن الموضوع متعلق بزوجتي. في الحقيقة إنني خجِل إذ أتركها لك وأحمِّلك مسئولياتها.

– ما هذه الفلسفة؟ قُل ما تريد أن تقوله.

– حسنًا. عندما يحين وقت ولادتها، أرجو أن تستدعي مولِّدًا من موسكو. إنني أصر على أن يكون بجانبها مولِّد عند ولادتها.

توقف الأمير العجوز وتظاهر بأنه لم يفهم، ثم حَدَّجَ ابنه بنظرة قاسية، فبدا آندريه مرتبكًا، قال الأمير الشاب: إنني أعرف أن الطبيعة إذا لم تساعد نفسها بنفسها فإن الإنسان لا يستطيع شيئًا حيالها، وإنني أعترف أن هناك حالةً سيئةً بين كل مليون حالة، ولكن ماذا تريد؟ تلك هي فكرتها، وكذلك هو رأيي؟ لقد أداروا رأسها، وحلمت أحلامًا مزعجة، وبالاختصار إنها خائفة.

فغمغم العجوز وهو يُنهي رسالته ويوقِّع عليها توقيعًا ضخمًا: هم، هم! ليكن! ثم التفت فجأةً إلى ابنه، وقال له وهو ينفجر ضاحكًا: إنها مسألة مزعجة، أليس كذلك؟

– أية مسألة يا أبي؟

فأجاب الأب بلهجة مفعمةٍ بالمعاني: زوجتك!

– لست أفهمك.

– والأسوأ يا صديقي الطيب هو أنه لا يمكن قط تبديل شيء، انهض جميعًا سواء، فلا تبتئس، لن أتحدث بالموضوع إلى أحد، وأنت تعرف كيف تتصرف.

ثم أمسك بذراعه بيده الصغيرة النحيلة، وهزه وهو يحدجه بنظرة قاطعة تكاد أن تخترقه من جانب إلى آخر، ودوَّت ضحكته الباردة الجامدة من جديد، فأفلت الابن زفرة أثبتت للأب أنه أصاب الهدف في تخمينه، بينما عاد الأمير العجوز يطوي الرسالة، ويختمها بخاتمه حسب طريقته المألوفة، وقال: ماذا تريد؟ إنها جميلة! فكن مطمئنًا سوف أعمل اللازم.

لم يُجِب آندريه، لقد كان مسرورًا كما كان حزينًا؛ لأن أباه استطاع أن يخترق سريرته ويحدس ما فيها، فنهض العجوز ومَدَّ الرسالة إلى ابنه وقال: أصغِ، لا تقلق مطلقًا على زوجتك؛ لأننا سنعمل المستحيل من أجلها، والآن هذه رسالة إلى ميخائيل لاريونوفيتش، لقد كتبت له طالبًا إليه أن يستخدمك في أحسن المراكز، وألا يستبقيك طويلًا في الأركان العامة؛ لأن هذه المراكز سيئة مكروهة، طَمْئِنهُ بأنني لا زلتُ أذكره، وأحتفظ له بمودتي القديمة، واكتب لي عندما يستقبلك، لا تمكث معه إلا إذا استقبلك استقبالًا يليق بك، إن ابن نيكولا آندريئيفيتش بولكونسكي ليس بحاجة إلى أن يطلب من أحد، مهما سما مركزه، والآن تعالَ من هنا.

كان الأمير العجوز يتكلم بطلاقة عظيمة، حتى إنه ما كان يُخرج نصف الكلمات، لكن آندريه كان معتادًا على أسلوبه، قاده أبوه إلى خزانة، فتحها وجذب درجًا فيها، أخرج منه دفترًا مكتوبًا بخطه الكبير ذي الأحرف الطويلة المشبكة، وقال: لا شك أنني سأموت قبلك، فاعلم أنني سجلت مذكراتي في هذا الدفتر، فينبغي إعطاؤه إلى الإمبراطور بعد موتي، وإليك رسالة ووثيقةُ ملكيةِ جبل الشفقة Mont de pitié، إنها جائزة ثمينة لذلك الذي سيكتب تاريخ معارك سوفوروف، فينبغي أن تنقل هاتين الوثيقتين إلى المجمع العلمي، وهذه أخيرًا ملاحظاتي الشخصية، فاقرأها من بعدي؛ لأنك ستفيد من قراءتها.

حاذر آندريه أن يقول لأبيه إنَّه يُنتظر أن يعيش سنوات طويلة أخرى؛ لأنه كان يعتقد أن ذلك القول خطيئة لا يجب الوقوع فيها، فاكتفى بأن قال ببساطة: ستُنفَّذ كل رغباتك يا أبي.

– حسنًا، والآن وداعًا!

وقدَّم له يده ليقبِّلها، ثم ضَمَّهُ بين ذراعيه، وأردف: تذكَّر شيئًا واحدًا يا أمير آندريه؛ إذا قُتلتَ فإن ذلك سيكون شديد الوقع والألم على قلبي العجوز.

ثم أبدل مكانه وقال بعد صمت: لكنني إذا علمت أنك لم تتصرف جديرًا بابن نيكولا بولكونسكي، فإن ذلك سيكون عارًا عليك!

فأجاب الابن باسمًا: كان يمكنك يا أبي ألا تقول لي ذلك، وأن تثق بأنني سأكون عند حُسن ظنك.

فصمت العجوز، بينما استرسل آندريه يقول: لي رجاء أتقدم به إليك يا أبي؛ إذا قُدر لي أن أُقتل، وولدت زوجتي غلامًا، فأرجو ألا تُبعده من هنا، إنني أريد — كما أسلفت لك أمس — أن يترعرع ويشبَّ في ظلالك، إنني أرجوك بإلحاحٍ ألا تُغفل ذلك.

فقال العجوز مقهقهًا: آه، آه! لا ينبغي أن أدعه لأمِّه، أليس كذلك؟

لبث الرجلان لحظةً يتبادلان النظر صامتين، كان الأب يحدِّق في عيني ابنه، وكان ذقنه ترتعدُ ارتعادةً خفيفة، قال فجأةً: حسنًا، لقد ودعنا بعضنا بعضًا، فامضِ الآن.

ثم كرر بصوت آمر وهو يفتح الباب: امضِ.

تساءلت الأميرتان وهما تشاهدان آندريه خارجًا ووراءه شبح العجوز الغاضب المنفعل، وهو في معطفه المنزلي ونظارتيه، وقد غفل عن وضع الشعر المستعار على رأسه: ماذا هناك؟ ماذا هناك؟

فلم يُجِب آندريه إلا بزفرة، وقال لزوجته بلهجة فيها سخرية باردة: هيا!

كان يبدو أنه يدعوها بتلك الكلمة إلى إلقاء مرثياتها التي يتوقع أن تلقيها!

هتفت ليز وقد شحب وجهها، وراحت تنظر إليه بارتياع: آندريه، أتذهب؟!

فأخذها بين ذراعيه، غير أن ليز أطلقت صرخةً، وهوت على كتفه مغشيًا عليها، فخلَّص نفسه منها، وأسجاها بهدوء على أريكة، وقال لأخته بصوت منخفض: وداعًا يا ماري.

ثم عانقها وقبَّلها قبلات أخوية قلبية، وابتعد بخطوات سريعة.

لبثت ليز مُسجاةً على الأريكة، تغسل الآنسة بوريين صدغيها بالماء، أما ماري فكانت تنظر — بعينين مُفعمتين بالدموع — الباب الذي خرج منه أخوها، فرسمت إشارة الصليب باتجاهه، وعادت تهتمُّ بزوجة أخيها، وارتفع صوتٌ من مكتب العجوز الغاضب، يشبه طلقة الغدارة، ينبئ بأن الأمير العجوز المنفعل يتنخَّم في منديله، وما كاد آندريه يغادر باب المكتب ويبتعد عنه، حتى وُورب الباب، وظهر الأمير العجوز بقامته الصارمة وهو في معطفه المنزلي الأبيض، وقال: هل ذهبت؟ هيا، ذلك أفضل!

وبعد أن ألقى نظرةً غَضْبَى على زوجة ابنه المُغْمَى عليها، هز رأسه بلوم وتثريب، وصفق الباب وراءه.

الجزء الثاني



فرنسيس الثاني.

الفصل الأول

الاستعداد للعرض

في تشرين الأول عام ١٨٠٥ كانت القطعات الروسية تشغل عددًا من قرى ومدن الأرشيدوقية النمساوية، وكانت قوات روسية أخرى تصل باستمرار، وتتمركز قرب حصن برونُّو Bronnau محدثة أضرارًا كثيرةً للسكان، وكان ذلك الحصن مركز القائد الأعلى كوتوزوف.

كانت إحدى سرايا الجيش مستقرةً على بُعد ربع ميل من المدينة، تَنْتَظر قدوم الجنرال القائد الأعلى في اليوم الحادي عشر من تشرين الأول، وكانت تلك السرية — رغم المشهد الطبيعي الغريب الذي يحيط بها من البساتين والأسوار الحجرية وسقوف القرميد، والجبال الرابضة على البعد، ورغم طبيعة السكان التي لا تقل غرابةً عن المشهد الطبيعي، الذين كانوا ينظرون بفضول إلى هؤلاء الجنود — تحمل الطابع التي تتسم به كل فرقة روسية على أرض الوطن عندما تنتظر تفتيش قائدها الأعلى.

أُبلغ ضباط السرية مساء اليوم الأسبق، أنَّ الجنرال القائد الأعلى سيحضر لتفتيش الفرقة المحاربة عندما تصل إلى آخر مرحلة من برنامج سيرها المحدد، وعلى الرغم من أن منطوق الأمر اليومي الذي صدر إلى قيادة الفرقة كان قليل الوضوح، حتى إنَّ قائد الفرقة تساءل عما إذا كان ينبغي للجنود أن يكونوا في ثياب الميدان، أم في ثياب الاحتفالات، فإن مجلس ضباط الكتائب قرَّر أنْ يكون الجنود في ثياب الحفلات على اعتبار أنَّ هذا التصرف لا غبار عليه، وأن استعمال تلك الثياب في الغالب في مثل هذه المناسبات خير من إغفاله.

وعلى هذا، فقد مضت الليلة دون أنْ يُغمض جفنٌ في المعسكر، رغم أنَّ الجنود كانوا قد أنهوا رحلة طولها ثمانية أميال، كان الجنود يُلمعون تجهيزاتهم، ويُعنون بزيهم العسكري، والرؤساء ومساعدو القيادة يحصون الرجال، ويوزعونهم على مراكزهم، حتى إنهم كانوا في الصباح الباكر، قد جهزوا تلك الفرقة التي كان قوامها ألفي رجل، على شكل

دقيق منظم، فكان كل جندي يعرف المكان الذي سيحتله والعمل الذي سيقوم به، وكانت كلُّ التجهيزات نظيفةً لامعةً، وكل الأزرار في أماكنها على الكسوات العسكرية، ولم يعنَ الضباط بمظهر رجالهم الخارجي فحسب، فلو أنَّ القائد الأعلى فكَّر في النظر إلى الألبسة الداخلية، لوجد أن كل جندي كان يرتدي قميصًا داخليًّا نظيفًا، ولتأكد أنَّ في كيس كل منهم الأشياء النظامية بعددها النظامي، غير أنَّ هناك أمرًا واحدًا كان يشغل بال الضباط والجنود معًا؛ ذلك أنَّ أحذية الجنود كانت ممزقةً بالية، وكان النصف الأكبر منهم لا يملك أحذية إلَّا «البقايا» التي ظلت في أقدامهم، ولم تكن الخطيئة في ذلك ترجع إلى آمر السرية، بل كان الخطأ يقع على كاهل مصلحة الإعاشة النمساوية «مهمات الجيش»، التي رغم المطالبات المتكررة والمُلحة، لم تُقدِّم شيئًا إلى الجنود الذين كانوا قد قطعوا أكثر من مائة وخمسين فرسخًا قبل أن يصلوا إلى ختام المطاف.

كان قائد الفرقة جنرالًا[1] ذا حاجبين وسالفين تطرَّق إليهما المشيب، وكان عريض الصدر، ضيق الكتفين، منكمش الجسد، كان لباسه الرسمي جديدًا يحمل ثنيات ضخمة «وكتافتين» مذهبتين، كانتا تساهمان في إظهار كتفيه منتصبتين مرتفعتين، وكان ظهره على شيء من الانحناء، وفي خطوته بعض التراخي، كان يتنزه أمام جبهة الفرق، وكأنه سيد أتمَّ لتوه أجلَّ عمل قام به في حياته، كان يبدو فخورًا مُظفرًا لقيادته فرقةً تفانى من أجلها قلبًا وروحًا، غير أنَّ مشيته المترددة، كانت تعطي أيضًا فكرة أخرى تدل على تمسُّكه بنعيم الحياة وإغراء الجنس اللطيف.

قال يخاطب أحدَ قوَّادِ الكتائب، وهو يبتسم ابتسامة كلها رضًى: حسنًا يا عزيزي ميخائيل دميتريش، أيها الباسل! لقد احتمل كلٌّ منا نصيب رُتبته من أعباء الليلة الفائتة، أليس كذلك؟ غير أن السرية كلها تبدو لي في أوجها كذلك، ألست من رأيي؟

كان ضابط الكتيبة قد أجاب على قائده الأعلى بابتسامة لا تقل انشراحًا وانبساطًا عن ابتسامته، فلما شعر أن الرئيس قد تطرَّق إلى المزاح الجميل أجابه ضاحكًا: إنني أعتقد أننا ما كنا لنقطب وجوهنا ونعبس، ولو كنا في ساحة القتال!

فقال الجنرال مستفهمًا: هم؟

[1] لقد استعملنا في هذا الفصل والفصول التالية الأسماء الأجنبية للرتب العسكرية دون تعريبها؛ لأننا قدَّرنا أنها تغني بالغناية أكثر من مرادفاتها في هذا المضمار. (المترجم)

وفي تلك اللحظة ظهر فارسان على طلايق برونُّو، حيث كان قد أقيم عليها مراقبون بانتظار مقدم القائد الأعلى، كان أحدهما ضابطًا مساعدًا والآخر فارسًا قوقازيًّا، كانت القيادة العليا قد أرسلتهما لقائد السرية؛ ليوضحا له ما غمت من أمر البارحة، أوضح الضابط المساعد للجنرال أن القائد الأعلى يرغب في رؤية السرية على ما كانت عليه حالها عندما وصلت إلى مكانها الحالي، دون أي تعديل أو تبديل؛ أي إنه كان يريد تفتيش الفرقة بألبسة الميدان.

تلقَّى كوتوزوف صباح أمس، أحد أعضاء القيادة المتحالفة «هوف كريجران»؛ جاء من فيينا يرجوه، ويستدعيه للقيام بعملية الالتحاق مع جين ماك[٢] وجين الأرشيدوق فرديناند،[٣] ورأى كوتوزوف أن الالتحاق بِذَيْنِك الجيشين غير مُجدٍ؛ لذلك فقد أراد أن يُظهر للجنرال النمساوي، بين العديد من الآراء المؤيدة لوجهة نظره، الحالة السيئة التي بلغت إليها الجيوش الروسية القادمة من روسيا، ولهذا السبب وحده، كان يريد استعراض الوحدات القادمة التي كانت ستزيد اغتباطه كلما كانت حالته أكثر سوءًا، ولما كان الضابط المساعد يجهل هدف قائد السرية، فقد نقل إليه رغبة القائد الأعلى في لقاء السرية على حالها التي كانت عليها عند بلوغها مرحلتها الأخيرة، وأنه في حالة عدم تنفيذ تلك الرغبة، فإن القائد الأعلى سيكون شديد الاستياء، فهزَّ الجنرال قائد السرية كتفيه، وأطرق برأسه، وباعد بين ذراعيه، وقال بلهجة غاضبة يُحدِّث قائد الكتيبة: ها نحن في موقف سيئ! لقد قلت لك يا ميخائيل دميتريش أن المعاطف واجبة في الميدان، رباه، رباه!

وسار بخطًى حثيثة وصاح بصوته الآمر: يا حضرات قواد الفصائل، أيها النقباء!

ثم استدار إلى الرسول وقال بلهجة امتثالية: هل سيصل سريعًا؟

فأجاب الضابط المساعد: خلال ساعة على ما أظن.

– هل نجد وقتًا كافيًا لتبديل ألبسة الجنود؟

– لست أدري يا سيدي الجنرال.

تقدَّم الجنرال من الصفوف الأولى، وأعطى أمرًا بارتداء المعاطف، فجرى ضباط الفصائل بين الصفوف يُبلغون الأمر، واهتم الرقباء واكتأبوا بسبب سوء حالة معاطفهم،

---

[٢] شارل ماك: جنرال نمساوي وُلد في يينسلنجن عام ١٧٥٢، وتوفي عام ١٨٢٨، طوَّقه نابليون الأول في معركة أولم، فاستسلم دون قتال مع ثلاثين ألف محارب. (المترجم)

[٣] فرديناند الأول؛ إمبراطور النمسا من عام ١٨٣٥ حتى عام ١٨٤٨، وُلد عام ١٧٩٣ وتوفي عام ١٨٧٥، كان لا زال أرشيدوقًا أثناء حملة نابليون. (المترجم)

ولم يلبث المربع المنظم الذي كان يضم جنودًا صامتين نظاميين، أن تعاوج مُدويًّا، فالحركة بين الجنود عادت على أشدها؛ رفعوا أكياسهم عن ظهورهم بضجيج مسموع، وأخذوا يعدون معاطفهم، وارتفعت الأذرع تدخل في أكمام المعاطف.

ولم تمضِ نصف ساعة، حتى عاد المربع إلى الالتئام والصمت بعد أن انقلب لونه من أسود إلى أشهب، وعاد الجنرال بخطواته المتثاقلة، يقف على مقدمة الفرقة ليعاين جنوده عن بُعد، صاح بانفعال: ما هذا أيضًا؟ ما معنى ذلك؟

وتقدَّم بضع خطوات إلى الأمام وهتف: ليحضر رئيس الفرقة الثالثة.

ورددت الصفوف عبارة: قائد السرية الثالثة مطلوب للمثول أمام الجنرال!

بينما راح ضابط تابع يجري باحثًا عن الضابط المتأخر.

فلما بلغت الأصوات المرددة «ضابط الفرقة الثالثة، إلى الجنرال!» مشوهة حتى أصبح النداء: «الفرقة الثالثة للرئيس!» أو «الجنرال للفرقة الثالثة!» الصفوف الخلفية، خرج الضابط المعني بالأمر من الصفوف، وعلى الرغم من أنه لم يكن في شرخ الشباب، ولم تكن من عادته الجري، فقد راح يسير جريًا نحو موقف الجنرال، لكن طريقته في الجري كانت متعثرة حتى إن طرفي حذائيه كانا يصطدمان ببعضهما بين آونة وأخرى، وكانت قسمات وجهه تحمل طابع القلق الذي يتجلى عادةً على وجه التلميذ الذي طُرح عليه سؤال في مادة لم يكن قد قرأها، وكانت لطخات بيضاء تُحلي أنفه الأحمر من شدة الدلك، وفمه المرتعد لا يستقر على حال، فلما كاد أن يبلغ موقف الجنرال، أصبحت أنفاسه مبهورة، وخطواته تزداد بطأً.

حدجه الجنرال بنظرة من رأسه إلى قدميه، وصاح وهو يقدم فكَّه الأسفل دلالة على امتعاضه: ما معنى ذلك؟ لعلك تُلبس جنودك عباءات بيضاء بعد قليل!

وأشار بإصبعه إلى جندي كان يرتدي معطفًا، يختلف لونه عن كل ما حوله من معاطف، وأردف: وأنت؟ أين كنت؟ نحن ننتظر القائد الأعلى، بينما أنت تترك مركزك؟ هم؟! سوف أعلِّمك كيف تجعل رجالك يبدون بمظهر حسن في أيام العرض!

كانت نظرات رئيس الفرقة شاخصة إلى قائده، وهو يحيِّيه بإصبعين لبثتا ممسكتين بحافة خوذته، وكأنه لا يعرف من السلام إلَّا تلك الحركة.

عاد الجنرال يقول بصوت يجمع بين الشدة واللين: تكلم أخيرًا! من هو ذا المتنكر؟ أهو هنغاري؟

– يا صاحب السعادة …

– ماذا «يا صاحب السعادة»؟ يا صاحب السعادة، يا صاحب السعادة! فسر موقفك.



استعراض قرب برونُّو.

– إنه يا صاحب السعادة دولوخوف، الضابط الذي أُنزلت رتبته إلى جندي، كان رئيس الفرقة يتحدث بوجل، فهتف الجنرال: دولوخوف! لقد جعلوا منه جنديًّا وليس ماريشالًا على ما أعتقد. فلِمَ إذن لا يرتدي ألبسة كل الجنود؟

– إن سعادتكم أجزتم له ذلك أثناء المسير.

فقال الجنرال وقد هدأت حدَّتُه بعض الشيء: أجزت؟! أجزت؟! إنكم جميعًا هكذا أيها الشبان: تُقال لكم كلمة فـ...

ثم عاد إلى الاحتداد من جديد وأردف: تُقال لكم كلمة فتجعلون منها ... ماذا؟ هم؟ ألبس جنودك الكسوة المناسبة.

وعاد الجنرال يقترب من الفرق المحتشدة، وهو يجرُّ ساقه كعادته، دون أن يُعقب على قوله إلا بنظرة ألقاها على الضابط المساعد، كان من الواضح أن حالة الغضب التي كان عليها، تُدخل السلوان على نفسه، كان يبدو عليه أنه يعتمد البحث بين أفراد السرية عن سبب آخر يُفتيء غضبه. وبعد أن تقدَّم بملاحظة إلى أحد الضباط بسبب ياقته المستعارة التي لم تكن شديدة النظافة، وآخذ آخر لسوء انتظامه في الصف، وصل إلى الفرقة الثالثة.

كان يفصله خمسة رجال عن دولوخوف الذي كان مرتديًا معطفًا يميل لونه إلى الزرقة. فصاح بصوت مكتئب: ما هذا الهندام؟ ساقك، أين ساقك؟

فعدَّل دولوخوف وقفته ببطء وحدج الجنرال بنظرة جريئة. أردف الجنرال: ما معنى هذا المعطف الأزرق؟ انزع هذا ... أيها الرقيب، ليبدل ثيابه هذا الـ...

فقاطعه دولوخوف بخشونة قائلًا: سيدي الجنرال، إنني مُلزم بتنفيذ الأوامر وليس باحتمال ...

– اصمت! لا يجب الكلام بين الصفوف! اصمت!

فأتم دولوخوف جملته بصوت مرتفع واضح: وليس احتمال الإهانات.

تقابلت نظرات الجنرال بنظرات الجندي. فراح الأول يشد على حزامه بغضب دون أنْ يجرؤ على التفوه بجواب، وأخيرًا قال: تفضَّل بتبديل هندامك أرجوك.

ومضى مبتعدًا.

الفصل الثاني

كوتوزوف

صاح أحد المراقبين على الطريق: لقد جاء!

تضرج وجه الجنرال فجأةً، فجرى إلى حصانه، فأمسك بالسيور بيد مرتعدة، واعتلى صهوته، فلما استوى في مكانه، استلَّ حسامه، وأَشْرَقت أساريره، وقد علا الحزم عليها، وفتح فمه على زاوية استعدادًا لإصدار الأوامر، وانتفضت السرية كالعصفور الذي ينفض ريشه، وتجمدت ساكنةً كقطعة من الصخر.

صرخ الجنرال بصوت مرعد، تَتَجلَّى فيه أصداء الرضى الممزوج بالحزم حيال السرية والامتثال للقائد الأعلى: اسـ...تَـ...عد!

وعلى الطريق العريض المغروس بالأشجار، كانت عربة عالية من عربات فيينا، مطلية بلون أزرق فاتح، تقطرها ستة خيول، تتقدم مسرعةً بصرير خافت وصخب مكتوم، وكان يرافقها حرس كرواتي، توقفت العربة أمام السرية، كان كوتوزوف يتحدث بهدوء مع جنرال نمساوي جالس إلى جانبه بثيابه البيضاء التي كانت أشبه بلطخة وسط الستار الأسود الذي تشكله ألبسة الروسيين، ولما ترجل من العربة بخطاه الثقيلة، كان يبتسم إلى محدثه دون أن يبدو على وجهه أنه يهتم بالألفين من الرجال الذين كتموا أنفاسهم، وشخصوا بأبصارهم إليه وإلى قائدهم المباشر.

دوَّى أمر جديد، فتماوجت السرية، وارتفع بين الصفوف صليل الأسلحة بالتحية النظامية، وأعقب ذلك سكون ثقيل قطعه صوت القائد الأعلى الخافت وهو يحيِّي الجنود، وصوت الجنود يدوِّي مجيبًا: «نتمنى لسعادتكم صحة طيبة.» وعاد السكون والهدوء من جديد، وبعد أن شهد القائد الأعلى العرض العسكري وهو في مكانه، راح يجوس خلال الصفوف مع تابعيه، وهو يمشي جنبًا إلى جنب مع الجنرال الأبيض.

كان قائد السرية، الذي كان منذ حين واقفًا وقفةً دقيقة جامدة يحيِّي بسيفه القائد الأعلى وهو يلتهمه بنظراته، يجري وراءه في تلك اللحظة منحني الجذع، جاهدًا في امتثال لأية إشارة تصدر عن القائد الأعلى، مُبرزًا الدليل الواضح على أنه يقوم بكل واجبات المرءوس حيال الرئيس بسرور يفوق سروره بالقيام بأعبائه كرئيس، وكانت السرية تبدو على أحسن حال بفضل جهوده وصرامته، حتى إنها كانت أحسن السرايا التي وصلت إلى برونُّو، لم يكن بينها أكثر من مائتين وسبعة عشر مريضًا أو متخلفًا، ولم يكن فيها ما يستحق النقد أو القلق إلا مسألة الأحذية.

كان كوتوزوف يتوقف بين الحين والآخر؛ ليوجه بِضعَ كلمات رقيقة إلى الضباط الذين عرفوه خلال حرب تركيا، وكان أحيانًا يتحدث إلى بعض الجنود، كان يهز رأسه بحرارة مرات عديدة خلال استعراضه القوات كلما وقع بصره على أحذية الجنود الخَلقة، فكان يُشير إلى الجنرال الأبيض النمساوي بلهجة من يقول: «إنه لا يوجه اللوم إلى أحد، ولكنه لا يستطيع مشاهدة حال رجاله السيئ دون أن يشعر بالمضض.» وفي كل مرة، كان قائد السرية يندفع إلى الأمام محاذرًا أن تفوته أتفه ملاحظات القائد الأعلى وكلماته، وكان مرافقو القائد الأعلى يسيرون وراءه على مسافة تسمح لهم بالإصغاء إلى كل كلمة يفوه بها بصوت خفيض، وكان تعداد المرافقين يقرب من عشرين رجلًا، كانوا يتحادثون بينهم، ويسمحون لأنفسهم أحيانًا بالضحك. وكان ضابط مساعد جميل يسير في أعقاب القائد الأعلى في الصفوف الأمامية من المرافقين، ذلك الضابط كان بولكونسكي، وكان إلى جانبه صديقه نيسفيتسكي، وهو ضابط مديد القامة قوي البنيان متينه، بسَّام ضاحك الوجه، بعينين دائمتي الاغريراق والجذل، كان يُضحكه ما يصدر عن ضابط مساعد آخر أسمر الوجه مرِح لطيف، ذلك الضابط الأسمر، يحدج ظهر قائد السرية بنظرة ثابتة، ويقلد بكل جد ووقار كل انتفاضة وانحناءة تصدر عنه، فكان نيسفيتسكي يضحك لذلك المشهد الطريف، ويلكز رفاقه بمرفقه ينبههم إلى حركات ذلك الضحوك المسلي.

أخذ كوتوزوف يقابل بلامبالاة ألوف العيون التي كانت تتابعه، وكأنه لا ينفصل عن حدقاتها، فلما وصل قرب الفرقة الثالثة، توقف فجأةً حتى إن تابعيه كادوا أن يصطدموا به بسبب توقفه الفجائي الذي ما كانوا يتوقعونه.

هتف القائد الأعلى محدِّثًا ضابط الفرقة الذي عرفه، والذي كاد المعطف الأزرق أن يسبب له عناءً وتشويشًا: آه، آه تيموخين!

وبدا مستحيلًا أنْ يستطيع المرء الانتصاب أكثر مما انتصب تيموخين خلال فترة الاستعراض كلها، مع ذلك، فإنه وجد وسيلة مكَّنته من أن يضاعف انتصابه عندما سمع القائد الأعلى يوجه الحديث إليه، وكان باديًا عليه استحالة بقائه على ذلك الوضع المستعد زمنًا طويلًا، وفهم كوتوزوف الموقف تمامًا، ولما كان لا يريد إلَّا خير قائد تلك الفرقة، فقد سارع بمغادرته ليسمح له باتخاذ وضعية تريحه، وشاعت ابتسامة على وجهه المكتنز الذي يشوهه جرح قديم.

قال لقائد السرية: هو ذا زميل جديد «لإسماعيل»، إنه ضابط باسل! هل أنت مسرور منه؟

فقفز الجنرال قائد السرية إثر انتفاضةٍ، وخطا إلى الأمام خطوة وقال: شديد السرور يا صاحب السعادة العلية!

بينما نقل الضابط الأسمر المرافق للقائد الأعلى حركات قائد السرية كالمرآة الأمينة التي تعكس الصور الحقيقية للأشياء.

قال كوتوزوف باسمًا: لكلٍّ منا نقاط ضعف في نفسه، أمَّا هو فقد كان يُمالق باخوص[1] أكثر من اللازم.

واستمر في تفتيشه.

لم يجرؤ قائد السرية على الإجابة، وهو الذي راح يسأل نفسه عما إذا لم يكن مسئولًا فعلًا عن ذلك الضعف، وفي تلك اللحظة، أخذ الضابط المرافق الأسمر، لدى مشاهدته رأس قائد الكتيبة ذي الأنف الأحمر القرمزي والبطن المنتفخ المتصلب، يقلد تلك الشخصية تقليدًا بلغ من إتقانه، أن نيسفيتسكي لم يستطع كبت ضحكة مجلجلة، فالتفت كوتوزوف، غير أنَّ الضابط الذي كان يتحكم بسحنته على هواه، اتخذ في تلك اللحظة طابعًا جديًّا خطيرًا بريئًا ومحترمًا، قلَّ أنْ يشاهد مثله على وجه من الوجوه.

كانت الكتيبة الثالثة هي الأخيرة في الاستعراض والتفتيش فراح كوتوزوف يجهد فكره لتذكُّر أمرٍ ما سها عن باله. وعندئذٍ تقدَّم الأمير آندريه من صفوف المرافقين وقال للقائد الأعلى بصوت منخفض باللغة الفرنسية: لقد أوعزتم إليَّ أنْ أذكِّركم بأمر «دولوخوف» الضابط الذي أُنزلت رتبته في هذه السرية.

---

[1] باكوس أو باخوص، إله الخمر عند الرومان. وابن جوبيتر وسيمليه Sémélé، وبذلك يتضح المعنى الذي أراده القائد الأعلى بكلمته. (المترجم)

سأل كوتوزوف: أين دولوخوف هذا؟

فلم ينتظر دولوخوف أنْ يُستدعى عن طريق التسلسل حتى يمثُل بين يدي القائد الأعلى، بل برز من الصفوف فورًا، وجاء ينتصب بوضعية الاستعداد أمام القائد الأعلى، كان شابًّا جميل المحيَّا، أزرق العينين، أشقر الشعر، وكان قبل ذلك قد استطاع استبدال معطفه الأزرق بمعطف الجنود الرصاصي.

سأله القائد الأعلى في شيء من الرقة: هل لك سؤال؟

وقال الأمير آندريه: هذا هو دولوخوف!

– آه! حسنًا، آمل أنْ يردعك الدرس الذي تلقيته، فكن جنديًّا طيبًا والإمبراطور رحيم شفوق، فإذا تصرفت تصرفًا حسنًا، فإنني أنا الآخر لن أنساك.

فشخَص دولوخوف ببصره المشع إلى وجه الجنرال القائد الأعلى في كثير من الجرأة والحزم، كما فعل منذ حين إزاء قائد السرية، حتى وكانت تلك النظرة، قد مزقت حجاب التقاليد التي تجعل البون شاسعًا بين الجندي البسيط والقائد الأعلى الرفيع.

قال بصوت ثابت حازم مسموع: إنني لا أطلب من سعادتكم العلية إلَّا أمرًا واحدًا، وهو أنْ تعطي لي الفرصة لإصلاح خطيئتي، وإثبات تفانيَّ لصاحب الجلالة ولروسيا.

عبس كوتوزوف فجأةً وأشاح بوجهه، بينما أطلت من عينيه تلك الضحكة الهازئة، التي برزت منهما عندما التقتا برئيسه تيموخين منذ حين، ولعله أراد بذلك أن يقول إن كل ما قاله دولوخوف، وكل ما كان يمكن أنْ يقوله، ليس إلَّا أشياء معروفة منذ زمن بعيد ومُكرَّرة ومُملَّة بل وفي غير محلها. ثم مضى متجهًا نحو عربته.

تفرقت السرية إلى فرق صغيرة، واتجهت نحو المعسكرات التي أقيمت لها على مقربة من برونُّو، حيث كان أفرادها يأملون الحصول على أحذية جديدة وألبسة مناسبة، وخصوصًا على الراحة المنشودة بعد تلك المراحل الطويلة من السير الشَّاقِّ، ولما راحت الفرقة الثالثة — وعلى رأسها تيموخين — تُنظم صفوفها استعدادًا للمشي، اقترب الجنرال — الذي جعلته سلامة عواقب التفتيش ميالًا إلى المرح — من الرئيس مُشرق الوجه وقال: آمل ألَّا أكون قد أزعجتك يا بروخور إينياتيتش؟ إنك تفهم ... إن خدمة القيصر ... إن المرء عندما يكون على رأس الفرق يفقد صوابه، فلا يستطيع تنميق كلامه أو انتقاءه. لكنك تعرفني، وتعرف أنني على استعداد لتقديم اعتذاراتي عند الاقتضاء. هيا، أقدِّم لك خالص شكري.

ومدَّ له يده، فأجاب الرئيس — الذي ازداد أنفه احمرارًا — بابتسامة كشفت عن فكه، وفضحت نقص نابين تحطما بضربة من عقب بندقية في معركة إسماعيل: وكيف لا أفهم يا سيدي الجنرال!

– وبهذه المناسبة، قُل للسيد دولوخوف إنني لن أنساه وإنه يستطيع أن يطمئن إلى هذا الأمر، أخبرني ما وددت منذ زمن طويل أن أسألك عنه: كيف يتصرف؟ وما رأيك في سلوكه؟

– إنه دقيق جدًّا في الخدمة يا صاحب السعادة، أما عقليَّته ...

فقاطعه الجنرال قائلًا: حسنًا، أما عقليَّته!

– إنَّ ذلك يتوقف على الوقت يا صاحب السعادة، فهو شابٌّ ذكيٌّ ومهذَّبٌ أحيانًا، وهو على عكس ذلك وحش ضارٍ أحيانًا أخرى، لقد كاد أن يقتل يهوديًّا في بولونيا.

– إنك على حق، ولكن ينبغي أن تُشفق على الشاب في محنته، إن له علامات عالية هامة. كذلك يمكنك ...

فأجاب تيموخين وهو يُبرز ابتسامة تعني أنه فهم غاية رئيسه ورغبته: أمرك يا سيدي الجنرال.

– عال، عال!

سار الجنرال بحذاء الفرقة، وأوقف حصانه إلى جانب دولوخوف، وصاح بصوت تعمَّد أن يسمعه الجنود: حسنًا! إنَّ الأمر على ما يُرام. ليوزَّع على كل جنديٍّ قدح من العرق من جانبي، شكرًا للجميع وحمدًا لله.

ثم تجاوز الفرقة ليقترب من أخرى، بينما راح تيموخين يقول إلى ضابط مساعد له كان إلى جانبه: إنه رجل باسلٌ يمكن التفاهم معه رغم كل شيء.

فأجاب الضابط الصغير: إنه الملك الكبَّا Roi de cour (ويقصد أنه طيب القلب).

كان ذلك اللقب قد أُطلق على الجنرال من قِبل أفراد سريته، وكان إلى جانب ما يحمله من معنًى آخر لترجمة العبارة حرفيًّا، والذي يمكن القول بمقتضاها أنه ملك القلب، يحمل توريةً يتفكَّه بها الجنود.

انتشر المزاح بين الجنود بعد أن عمَّ الضباط جميعًا، فراحت السرية تسير بخطًى نشيطة، والرجال يتبادلون الفكاهات على غرار: كانوا يقولون مع ذلك أن كوتوزوف معورَّ العين.

– لعلك تريد أن تقول إنه أعور العينين معًا!

– أنت مخطئ يا فتى، إنَّ عينيه أحدق من عينيك، لقد دقق في الأحذية والجوارب وتفحصها!

– آه! إنني يا فتاي، عندما عاين ساقي حدَّثت نفسي بمثل هذا.

– هل رأيت النمساوي الذي كان معه؟ يبدو كأنه طُلي بالحبر، إنه أبيض كالدقيق، يا لشدة ما قضى من وقتٍ في تلميع نفسه ذلك الفتى!

– هه يا فيديا، ألم تسمعهم يتحدثون عن الوقت الذي سنقاتل فيه بونابرت؟ لقد كنت قريبًا منهم، يبدو أن بونابرت في برونوف حاليًّا (يعني برونُّو).

– بونابرت في برونوف! من أين جئت بهذا أيها الغرِّيد! إنك لا تعرف أنَّ بروسكو Prascot (ويقصد بروسيا) وحده هو المتعند في الوقت الحاضر، وأن النمساوي يؤدِّبُه ويخرسه، ومتى انتهى منه فسيأتي دور بونابرت، مع ذلك تقول أنه في برونوف! إنك لست ذكيًّا يا فتَى، ماذا لو أنك فتحت أذنيك أكثر من ذلك؟

– آه من المشرفين على الإعاشة! انظر إليهم كيف يستقرون في القرية هناك، إنهم لن يهيئوا لنا الطعام قبل وصولنا.

– لن تحصل حتى على «بسكويتة» أيها اللعين العجوز.

– ومن الذي أعطاك التبغ البارحة؟ هل تذكر ذلك أم لا؟ خذ، خذ مع ذلك، وليباركك الله.

– ليتنا نتوقف فقط، ولسوف نسير هكذا مرحلة طويلة قبل أن نضع لقمة في فمنا.

– هل تريد أن يعطينا الألمان عربات؟ إن ذلك سيكون حتمًا أمرًا جميلًا.

– إننا هنا يا فتاي لسنا إلَّا حفاةَ الأقدام، لقد كنا حتى الآن فتيان التاج الروسي، أمَّا الآن فليس في إلا الألمان.

هتف الضابط الرئيس: ليتقدم المغنون إلى الصفوف الأمامية.

فخرج من الفرقة حوالي عشرين رجلًا، واجتمعوا في الطليعة، والتفتَ إليهم رئيس الفرقة الموسيقية، وهز ذراعه، وردد بصوت مدوٍّ أغنية الجنود التي تبدأ:

أليس الفجر هذا
الفجر الذي ينبلج؟

وتنتهي كما يلي:

نعم حتمًا سوف نحصل،
سوف نحصل على المجد،
مع الأب كامانسكي …

كانت هذه القصيدة قد نُظمت في تركيا، لكنها كانت تردَّد الآن في النمسا بتبديل بسيط في البيت الأخير؛ إذ استُعيض بعبارة «الأب كوتوزوف» عن عبارة «الأب كامانسكي»، التي كانت تنتهي بها في معركة تركيا.

وبعد أن انتهى الجنود من هذا المقطع الأخير، حركوا أيديهم بعنف، وكأنهم يُلقون بشيء إلى الأرض، ونظر قارع الطبل إلى المغنين نظرة قاسية شملتهم جميعًا، فلما تأكد من أن عيونهم شخصت إليه، بدا كأنه يرفع شيئًا وهميًّا فوق رأسه؛ شيئًا ثمينًا غير مرئي، استبقاه لحظة مرفوعًا إلى الأعلى، ثم ألقاه فجأةً بحركة يائسة إلى الأفق البعيد وهتف:

آه، آه، يا كوخي!
يا كوخي الجميل!

ورد عشرون صوتًا بعده:

يا كوخي الجديد!

بينما تقدَّم الضارب على الصنج إلى الأمام مهرولًا، وراح — رغم ثقل تجهيزاته — يسير القهقرى، وهو يحرك كتفيه بحركة دائرية، ويقرع صنوجه بحركة تهديدية. أما الجنود فقد راحوا يضبطون الإيقاع بحركات أذرعهم، ويتقدمون بهمة عالية ونشاط، وهم يقرعون أقدامهم على الأرض. وارتفع بعد قليل صوت عجلات العربة وصريرها، وصوت خيول تخبُّ. كان كوتوزوف وتابعوه عائدين إلى المدينة. أشار الجنرال القائد الأعلى إشارة طلب فيها أن يمشي الجنود بخطوات حرة، وكان وجهه ووجوه تابعيه مشرقة لسماعهم تلك الأغنية، ولرؤيتهم تلك القطعة المرحة الصاخبة، يقودها الراقص الذي يسير في المقدمة. وفي الصف الثاني من ركبه، على الجانب الأيمن، كان جندي ذو عينين زرقاوين، يُلفت النظر بتصرفه الكيِّس الحماسي المتفق مع إيقاع الأغنية، وبنظرة الإشفاق التي كان يُلقيها على كل من الفرسان المتعجرفين المواكبين لركب القائد الأعلى، كان يبدو مشفقًا

عليهم؛ لأنهم لا يسيرون في صفوف الفرقة، جاء أحد أولئك الضباط الفرسان متخليًا عن مكانه في الركب، واقترب من ذلك الجندي الذي لم يكن سوى دولوخوف.

كان ذلك المتخلف — واسمه جركوف — تابعًا من قبل للعصبة التي كان يقودها ويرأسها دولوخوف، وكان قد لاقاه خلال الطريق وتجاهل وجوده، فلما رأى عطف كوتوزوف ولمس ميله إلى ذلك «الضابط المحروم من رتبته»، اقترب منه، وعلى وجهه آيات من السرور.

سأله بصوت أراده أن يعلو على أصوات المغنين، وقد نظم خطوات جواده مع مشية دولوخوف: كيف الحال يا صديقي العجوز؟

أجابه دولوخوف ببرود: كما ترى.

كانت الأغنية الحماسية التي يسير على خطاها الجنود تُضفي معنًى خاصًّا على لهجة جركوف المتواضعة وبرود دولوخوف المتعمد.

قال جركوف: إذن، هل تسير الحال مع الرؤساء على ما يرام؟

– لست أشكو من شيء، إنهم جميعًا أشخاص باسلون. كيف — بحق السماء — تسللت إلى الأركان العامة؟

– لقد نقلوني بصفة ضابط ارتباط.

وصمتا فترةً مصغيين إلى الأغنية التي كان لحنها يثير الحماس في النفوس:

لقد أطلق الصقر،
وطار من اليد اليمنى.

ولولا تلك الأغنية، لكان حديث الصديقين على نمط آخر.

سأل دولوخوف: هل صحيح أن النمساويين قد هُزموا؟

– الله أعلم، ولكن يبدو لي ذلك حقيقة.

قال دولوخوف بصوت يتَّفق مع إيقاع الأغنية: ذلك أفضل.

– تعالَ لرؤيتنا ذات مساء، سوف نلهو على هوانا.

– إنكم إذن تتمرغون على الذهب!

– تعالَ مع ذلك.

– مستحيل! لقد أقسمت ألَّا ألمس الورق ولا الخمر قبل أنْ تعاد إليَّ رتبتي.

– ستعاد إليك في العملية المقبلة.

– عندئذٍ سنرى.

وعاد الصمت بينهما من جديد.

– إذا احتجتَ إلى شيء فتعالَ إلى الأركان، وسنحاول أن نخدمك.

أجاب دولوخوف بابتسامة هازئة: لا تعذبني! إنني إذا احتجت إلى شيء ما طلبته ولكن أخذته.

– آوه! إنك تعلم أنَّ ما أقوله لك …

– وأنا كذلك.

– حسنًا إلى اللقاء.

– راقب صحتك.

وظلت الأغنية ترتفع مقاطعها:

بعيدًا، بعيدًا جدًّا، نحو الوطن …

لَكَزَ جركوف حصانه فثار هذا، وبعد أنْ دار حول نفسه دورتين أو ثلاث دورات دون أنْ يهتدي إلى القائمة التي يجب أنْ يبدأ بها السير، اندفع خببًا على طول الفرقة على إيقاع الأغنية.

الفصل الثالث

هزيمة ماك

عندما عاد كوتوزوف من الاستعراض، دخل إلى مكتبه يرافقه الجنرال النمساوي، بعد أن أعطى الأمر إلى أحد تابعيه، بأن يعرض عليه الأوراقَ المتعلقة بحالة الجنود القادمين من روسيا، والمخابرة الواردة من الأرشيدوق فرديناند الذي كان على رأس الطليعة، فلما جاء الأمير آندريه بالوثائق المطلوبة، رأى الجنرالَ القائد الأعلى وعضوَ القيادة العليا جالسين وراء طاولة يدرسان مخططًا، قال كوتوزوف وهو ينظر إلى بولكونسكي وكأنه يوحي إليه بالانتظار: «حسنًا.» بينما استمر يتابع الحديث الذي كان دائرًا بالفرنسية، كانت لغته المهذبة ونبراته الواضحة، والعناية التي يبديها لتلفُّظ كل كلمة بوضوح، تأسر انتباه سامعه، وتبرهن على أنه يتلذذ بسماع أقواله.

– دعني أقول لك يا جنرال إنَّ الأمر لو كان منوطًا بي وحدي، لكنت منذ زمن بعيد أجريت الاتصال مع الأرشيدوق وفقًا لرغبات جلالة الإمبراطور فرانسوا، ثق بشرفي أنني سأشعر براحة عميقة إذا أسلمت القيادة العليا لقائد أكثر دراية مني واستعدادًا ومهارة، ومثل هؤلاء القواد كثير في النمسا، إنني بذلك أتخلص من مسئولية جسيمة، غير أنَّ ما يحدث يجعل الظروف تقهرنا يا جنرال.

وكانت الابتسامة التي أشفع بها جملته الأخيرة توحي بالقول: «لك ألَّا تصدقني إذا شئت، ولا يهمني إذا صدقتني أم لا، ولكن ليس بين يديك حجة تتذرع بها وهنا جوهر المسألة.»

وعلى الرغم من أن الجنرال النمساوي لم يكن شديد السرور، فقد اضطر أن يدفع إلى كوتوزوف من نوع النقد الذي صرفه له، غير أن لهجته الشرسة المتذمرة، كانت تتنافى مع عروضه المعسولة: كلَّا، كلَّا! إنَّ جلالته يقدِّر تقديرًا عاليًا مساهمة سعادتكم في العمل العام، وأرجو أن تثق بذلك، لكننا نعتقد فقط أن الإمهالات الحالية تَحْرم الجيوش

الروسية المظفرة ورؤساءهم المشاهير أكاليل الغار، التي درجوا على اكتسابها والتحلي بها في ساحات الوغى.

كانت تلك الجملة — ولا شك — جملة مهيَّأة سلفًا، فانحنى كوتوزوف وهو يبتسم وقال: إنني أقدِّر شخصيًّا — والرسالة التي شرفني بها صاحب السمو الأرشيدوق فرديناند منذ حين تؤيد رأيي — أقدِّر أنَّ الجيوش النمساوية التي يقودها رئيس على جانب كبير من المهارة كالجنرال ماك، قد حصلت حتى الآن على نصر حاسم يجعلها — ولا شك — في غير حاجة إلى عوننا.

عبس الجنرال؛ إذ على الرغم من أن هزيمة النمساويين لم تكن قد أُعلنت رسميًّا بعدُ، فإن الإشاعات الكثيرة المزعجة كانت تؤيدها، حتى إن جواب كوتوزوف بدا لهذا السبب لونًا من السخرية، مع ذلك فقد كان وجه القائد الروسي الأعلى يشع بابتسامة بريئة تؤكد براءة قصده، فقد كانت الرسالة التي أرسلها إليه الأرشيدوق فرديناند تصف الحالة الاستراتيجية بأنها ممتازة جدًّا.

قال للأمير آندريه: أعطني الرسالة.

ثم التفت إلى الجنرال النمساوي، فقرأ له المقطع التالي، وقد تقلَّصَت شفته بابتسامة تحمل شيئًا من السخرية:

> إن تركُّز قواتنا التي يبلغ عددها سبعين ألف رجل، قد أُعد وأُنهي على خير ما يرام، بشكل يجعل العدو يتعرض لهجماتنا إذا حاول اجتياز «ليخ»[١] ويُمنَّى بهزيمة محتومة، إننا باحتلال «الأولم»[٢] نحتفظ بأرجحية السيطرة على ضفتي الدانوب، ونستطيع بذلك في كل لحظة أن نجتاز الدانوب إذا لم يحاول العدو اجتياز نهر «ليخ» لنقطع عليه خط مواصلاته، وأن نعود إلى عبور الدانوب مرة أخرى؛ لنَحُول دون نجاح أية محاولة يقوم بها ضد حلفائنا المخلصين، سوف ننتظر بجَلد وبطولة أن ينتهي الجيش الروسي من استعداداته، وأن يتخذ أهبته، وبعدئذٍ سوف نجد سهولة كبيرة بتهيؤ المصير الذي يستحقه العدو باتحادنا معًا.

[١] نهر في بافاريا يمر بمدينة أوجسبورج ويصب في الدانوب، طوله ٢٨٥كم. (المترجم)

[٢] أولم مدينة ألمانية على الدانوب، سكانها ٧٥٠٠٠، بناء كاتدرائيتها على الهندسة القوطية، استسلم فيها الجنرال ماك النمساوي مع ٣٠٠٠٠ جندي دون قتال. موطن العلَّامة أينشتاين. (المترجم)

وأعقب: تفضَّل بالاقتناع بصدق قولي.

وأطلق زفرة ارتياح ونظر إلى الجنرال النمساوي، فأجاب هذا وقد رأى أن المزاح قد دام أكثر مما ينبغي، وأن من الأصوب بلوغ الغاية مباشرةً: لا شك، ولكن ينبغي أنْ نتوقع دائمًا أسوأ العواقب، إنَّ سعادتكم تعرفون — ولا شك — هذه الحكمة القديمة.

وألقى نظرة بديهية إلى مساعد الجنرال، فقاطعه كوتوزوف بقوله: اعذرني يا جنرال.

واستدار نحو الأمير آندريه وأردف يحدثه: اسمع يا عزيزي، اذهب إلى كوزلوفسكي، واطلب إليه التقارير الواردة من جواسيسنا، هذه رسالة الأرشيدوق فرديناند، وهاتان رسالتان من الكونت نوستيتز، خذها معك وكذلك هذه الأوراق لخِّصْها جميعها باللغة الفرنسية، واحمل لي مذكرة واضحة تحمل كل معلوماتنا عن عمليات الجيش النمساوي. إنك تفهمني، أليس كذلك؟ وعندما تنتهي من ذلك، أعطِ المذكرة إلى سعادته.

أشار الأمير آندريه برأسه إشارة يُفهم منها أنه فهم الغاية من الكلمة الأولى ليس ما قاله رئيسه بلسانه فحسب، بل كذلك ما كان يُضمره في نفسه، وجمع الأوراق وحيًّا، ثم انسحب بخطوات خفيفة.

على الرغم من أن الأمير آندريه لم يكن قد مضى على مغادرته روسيا زمنٌ طويلٌ، فإن سحنته وحركاته وتصرفاته خلت كلها من أثر الإنهاك والتفاعل الذي كان مألوفًا عليها، كانت مهماته الجديدة تستأثر بكل انتباهه، وتفتنه بشدة، حتى إنه ما كان يفكر في الانشغال بما يقوله زملاؤه عنه، وكانت نظرته وابتسامته تمتازان بدعة وود لم يُعرفا فيهما من قبل.

كان كوتوزوف قد تلقَّى رسالة الأمير بولكونسكي العجوز وهو في بولونيا، فاستقبل الأمير الشَّابَّ استقبالًا طيبًا، ووعده بألَّا ينساه. وقد بر بوعده؛ إذ اختصه بين كل الضباط المساعدين، فأخذه برفقته إلى فينا، وسلَّمه هناك أكثر المهمات خطورة، وكتب القائد الأعلى كوتوزوف إلى الأمير العجوز بولكونسكي ردًّا على رسالته يقول:

> إن ابنك يبشِّر أن يكون ضابطًا ممتازًا بفضل كفاءاته ودأبه ودقته، وإنني أعتبر نفسي سعيدًا جدًّا إذ أرى مرءوسًا مثله تحت تصرُّفي.

كان زملاء الأمير آندريه في الأركان والجيش — لما كان الحال في بيترسبورج — يشعرون حياله شعورين مختلفين، وينقسمون تبعًا لذلك إلى معسكرين؛ الأول وهو معسكر الأقلية، يعتبره شخصًا بارزًا خُلِق لمستقبل ومصير عاليين رفيعين، وكان أعضاء

هذا المعسكر يصغون إليه، ويُعجبون به، ويسيرون على هُداه، فيتظاهر أمامهم بدوره بمظهر البساطة واللطف. والثاني وهو معسكر الأكثرية، يعتبره باردًا جامدًا مكروهًا، وكان أعضاؤه يمقتونه، لكنه كان يتصرف حيالهم بشكلٍ ما كانوا يستطيعون معه إلَّا أنْ يقدِّروه، بل وأنْ يرهبوا جانبه.

خرج الأمير آندريه من مكتب كوتوزوف، فمر بطريقه على غرفة الانتظار حيث كان زميله — المرافق المنوب كوزلوفسكي — يقرأ كتابًا قرب النافذة.

سأله هذا: حسنًا يا أمير؟

– صدر الأمر بتحرير مذكرة تفسر سبب بقائنا دون نشاط.

فقال كوزلوفسكي: ولماذا؟

هزَّ الأمير آندريه كتفيه دلالة على أنه لا يعرف السبب، بينما استطرد زميله: هل من أخبار عن ماك؟

– كلا.

– إذا كان هُزم حقيقةً فستَرِد علينا أخباره.

قال الأمير آندريه موافقًا: بلا شك.

واتجه نحو الباب، غير أنَّ هذا فُتح فجأةً بعنف وبرز على العتبة جنرال نمساوي مديد القامة في ثوب رسمي يعصب رأسه بوشاح أسود، ويحمل حول عنقه صليب ماري تيرنير، فتوقف الأمير منتظرًا.

قال الجنرال القادم بلهجة تُبرز أصله الألماني: الجنرال الأعلى كوتوزوف؟

ونظر حوله ثم اتجه فورًا نحو باب المكتب.

فأجابه كوزلوفسكي وهو يقف في سبيله بحركة عنيفة: إنَّ القائد الأعلى مشغول، فمن يجب أنْ أُبلغه عنه؟

حدج المجهول ذلك الضابط الصغير من عَلٍ وكأنه يقول: «هل يُعقل ألَّا تعرف من أنا؟!» فكرر كوزلوفسكي بهدوء: إنَّ القائد الأعلى مشغول.

عقد النمساوي بين حاجبيه وارتعدت شفتاه قليلًا، فأخرج دُفَيترًا من جيبه كتب على ورقة منه بضع كلمات بقلم الرصاص، ثم قطعها وأعطاها لكوزلوفسكي، ومضى بخطوات سريعة نحو النافذة، وتهاوى على مقعد هناك وهو يسرِّح طرفه فيما حوله، وكأنه يقول لهم: «لِمَ تنظرون إليَّ على هذا الشكل؟» وبعد برهة مد عنقه وكأنه يهم بالنطق، لكنه استدرك نفسه، فلم يصدر عن حنجرته إلَّا صوت غريب يشبه الدمدمة،

ما لبث أن خنقه أيضًا، وفُتح باب المكتب، وبدا على عتبته كوتوزوف. وعندئذٍ نهض الجنرال المعصوب الرأس محنيًّا ظهره، وكأنه يفرُّ من خطر ماحقٍ، وهُرع بخطوات واسعة، وقال بصوت أجش: إنك ترى ماك التعس!

لبث كوتوزوف للوهلة الأولى جامدًا أمام الباب، ثم اجتاح وجهه غضنٌ مرٌّ كموجة على تقاطيع وجهه، فانبسطت جبهته، وانحنى بامتثال مغمض العينين دون أن يتفوَّه بكلمة، وتنحى عن طريق ماك ليدخل، ثم أغلق الباب بنفسه وراءه.

كانت الشائعات حقيقة؛ فالجيش النمساوي الذي كان مجتمعًا قرب «الأولم» استسلم كله، لم تمضِ نصف ساعة، حتى كان الضباط المساعدون يحملون إلى رؤساء الوحدات تعليمات خاصة، تُشير إلى أنَّ الجيش الروسي سيخرج عن جموده، ويلاقي العدو قريبًا.

وفي الأركان العامة، لم يكن سير العمليات العامة يشغل إلا عددًا محدودًا من الضباط، كان الأمير آندريه في عدادهم، منهم هذا بعد أنْ رأى ماك، واطلع على تفاصيل الهزيمة، أن الحملة قد فشلت تقريبًا، وأنَّ النصر بات أبعد مما كان يُنتظر، تخيل المصير المزعج الذي ينتظر الجيش الروسي في ذلك الموقف الدقيق الحرِج، والدور الذي سيلعبه شخصيًّا في ذلك المصير، فشعر بسرور للإهانة التي مُنيت بها النمسا، تلك الدولة المتباهية، كان ذلك الشعور أقوى منه، وكان يمجد الفكرة التي خطرت بباله، والتي قدَّر على أساسها أنه سيشهد لأول مرة أول لقاء بين الفرنسيين والروس منذ عهد سوفوروف، بعد ثمانية أيام على الأكثر. لم تكن غبطته لتخلو من شعور بالجزع والخوف من أن تتفوق عبقرية بونابرت وتتغلب على الجيوش الروسية الباسلة؛ لأنه ما كان يتوقع أن يرى بطله في خذلان.

أثارت تلك الأفكار عواطفه وقلبت كيانه وحفزته، فودَّ أن ينسحب إلى غرفة ليكتب إلى أبيه رسالته اليومية، لكنه بينما كان يجتاز الممشى، اصطدم بزميله في غرفة نيسفيتسكي وبالمداعب جركوف اللذين كانا على حال من البهجة والانشراح على جري عادتهما، استغرب زميله شحوبَ وجهه والْتِماع عينيه فسأله قائلًا: لِمَ أنت مكتئب؟

– ليس هناك ما يبهج على ما أعلم!

ومن الجانب الآخر من الممشى، ظهر الجنرال النمساوي عضو القيادة العليا يرافقه الجنرال «ستروخ»، الملحق بأركان حرب كوتوزوف للإشراف على شئون تموين الوحدات الروسية، وكان عرض الممشى كافيًا لمرور الجنرالين دون عوائق، غير أن جركوف أبعد نيسفيتسكي بذراعه، وهتف بلهجة تشف عن المبادرة المصطنعة وهتف: ها هما! ها هما! تنحوا، أخْلوا المكان، تنحوا!

أحنقت تلك البادرة من التلطف، الجنرالين القادمين، غير أن جركوف تقدَّم خطوة إلى الأمام، وخاطب أحدهما بابتسامةٍ بَلهاء وبمظهر الرجل الذي لا يستطيع كتمان بهجته: لي الشرف بأن أقدِّم لسعادتكم تمنياتي المخلصة.

وانحنى أمامه انحناءة مضحكة، وهو ينزلق على قدم ثم على الأخرى شأن الأطفال الذين يتدرجون على الرقص، فحدجه عضو الأركان العامة النمساوي بنظرة قاسية، لكن ابتسامته البلهاء طمأنته، فلم يستطع إلا أن يمنحه لحظة من انتباهه، فأشار بطرف عينه إلى أنه يُصغي إلى ما يريد قوله.

كرر جركوف بوجهه المستبشر: تهانئي الخالصة. لقد وصل الجنرال ماك في صحة طيبة باستثناء جرح خفيف هنا.

وأشار بإصبعه إلى جبهته.

فعبس وجه الجنرال وأدار له ظهره ومضى، ولم يكد يبتعد بضع خطوات حتى قال بالألمانية بصوت محنق: رباه! يا للحماقة والسذاجة!

كان نيسفيتسكي يتلوى من الضحك، فأمسك بذراع الأمير آندريه، غير أنَّ هذا الذي غدا وجهه ممتقعًا بعد شحوبه، دفعه عنه بغضب، واستدار نحو جركوف.

كانت دعابته السمجة بمنزلة ضربة قاضية لأعصاب الأمير آندريه، الذي ضعضعت رؤية الجنرال ماك والهزيمة التي مُني بها كيانه وروعة الفكرة التي تمثلها حول مصير الجيش الروسي، قال لجركوف بصوت حازم حاسم، وقد ارتعدت ذقنه لفرط انفعاله: يا سيدي العزيز، إذا كانت مهنة المهرج تروق لك، فإنني لا أستطيع منعَكَ من مزاولتها، لكنك إذا سمحت لنفسك مرة أخرى إظهار مثل هذا التهريج في حضرتي، فسأجد نفسي مضطرًّا لتعليمك وتلقينك مبادئ السلوك.

ذُهل جركوف ونيسفيتسكي لأقوال الأمير آندريه، وراحا يتأملانه، فَاغِرَيِ الفم مُتَّسِعَيِ العينين، قال جركوف: ماذا حدث؟ لقد قدمت له تمنياتي ليس إلا!

فصاح بولكونسكي: إنني لا أناقشك فتفضَّلْ بالصمت.

وأخذ نيسفيتسكي بذراعه وهو تارك جركوف جامدًا في مكانه لا يدري ماذا يقول.

قال له نيسفيتسكي: هدئ روعك يا عزيزي.

قال الأمير آندريه، الذي توقف لفرط انفعاله عن السير: أُهدئ نفسي؟! ولكن من نحن إذن؟ أنحن ضباط نخدم قيصرنا ووطنا ونبتهج للنجاح المشترك، ونأسف للخسارة المشتركة؟ أم نحن خدم لا تهمنا قضايا أسيادنا إلا قليلًا؟

وأضاف باللغة الفرنسية وكأنه يؤيد وجهة نظره: أيُقتل أربعون ألف رجل ويحطم جيش حليفتنا، ونجد مع ذلك مادة للضحك؟! إنَّ مثل ذلك يليق بفتًى تافه كهذا الذي اتخذتَه صديقًا لك، ولكنه لا يليق بك، نعم لا يليق بك.

واستطرد بالروسية متممًا: إنَّ مثل هذه التسليات لا تليق إلا بالأغرار الحمقى.

وانتظر فترة معتقدًا أنَّ جركوف سيجيب على أقواله، غير أنَّ هذا انسحب دون أنْ ينتظر المزيد.

الفصل الرابع

فرسان بافلوجراد

كان فرسان بافلوجراد معسكرين على بُعد ميلين من برونُّو، وكانت الكوكبة التي انخرط في عدادها نيكولا روستوف تشغل قرية سالزنك التي خُصص خير منزل فيها لرئيسها «الكابتين دينيسوف» المعروف بين كل كتيبة الخيالة باسم «فاسكا دينيسوف»، كان نيكولا قد التحق بتلك السرية في بولونيا، ومنذ ذلك الحين ظلَّ يشاطر الرئيس مسكنه.

وفي الحادي عشر من تشرين الأول، في اليوم الذي قلب نبأ انهزام ماك القيادة العامة قلبًا، كانت كوكبة الخيالة لا زالت تقضي أيامها بهدوء، وكأن أفرادها سادة أطربتهم حياة الريف، وعندما وصل روستوف وهو في كامل ثيابه ممتطيًا حصانَهُ إلى مسكن الرئيس بعد أن عاد من مهمة توزيع العلف، وجد أن دينيسوف لم يعُدْ بعدُ مِن سهرته التي قضاها مقامرًا لدى أحد زملائه، ولما وصل إلى مرقاة البيت، أوقف حصانه وطوح بساقه بحركة رشيقة مرنة، ولبث فترة معتمدًا بجسده على الركاب، وكأنه يبارح السرج آسفًا، وأخيرًا ترجل واستدعى الحاجب قائلًا: آه بوندارانكو! هذا أنت أيها الباسل!

وهرع الجندي عدوًا استجابة لنداء روستوف الذي قال معقبًا: خُذِ الحصان في نزهة يا صديقي الطيب.

كانت لهجته تدل على البهجة اللطيفة التي يستطيع الشبان الراقون المنحدرون من أرومات نبيلة إظهارها في ساعات سرورهم.

قال الجندي الصغير وهو يرفع شعره المتهدل بسبب العدو: كما تأمر يا صاحب السعادة.

– انتبه، ولتكن النزهة لطيفة.

وهرع جندي آخر في تلك اللحظة استجابة للنداء، غير أنَّ بوندارانكو كان قد أطبق عنان الحصان، وكان ذلك التبادر والتهافت يدل على أن ذلك الضابط النبيل يعرف

كيف يمنح المكافآت السخية، وأن خدمته تعود بالفائدة على من يتولاها. داعب روستوف حارك جواده، ثم انتقل بيده إلى ردفه يُربت عليه، وظل يتأمله لحظة، ثم قال في سره وهو يبتسم: «رائع! سيصبح حصانًا رائعًا!» ورفع حسامه، وراح يصعد السلالم ورنين مهمازيه يرافق كل خُطْوة من خطواته، وبرز صاحب المسكن على باب الإصطبل وهو يحمل مذراة للدمن، كان ألمانيًّا يرتدي صدارة من الصوف وقلنسوة من القطن، فلما رأى روستوف، طفح وجهه بالحبور، وغمزه بعينه بمودة، وكرر محيِّيًا الشاب بسرور واضح: عِم صباحًا، عِم صباحًا.

فأجاب روستوف بصوت ودود مهذب لطيف: هل بدأت تشتغل؟ ليحيَ النمساويون! ليحيَ الروس! ليحيَ الإمبراطور ألكسندر!

كانت تلك العبارات هي ما سمعه بتكرار يردد على ألسنة الناس هناك، وكان يجد متعة في ترديدها على مسامع صاحب المسكن.

ضحك الألماني وخرج من إصطبله، فرفع قلنسوته وراح يلوِّح بها فوق رأسه ويهتف: وليحيَ العالم أجمع!

فلوَّح روستوف بخوذته ضاحكًا وصاح بدوره: وليحيَ العالم أجمع!

وعلى الرغم من أن هذين الرجلين اللذَين كان ينظف أحدهما إصطبله والآخر يعود من مهمة توزيع العلف، لم يكن لسرورهما أي مبرر خاص، إلا أنهما كانا مع ذلك يتبادلان النظر ببهجة وانشراح، ويتبادلان إشارات قلبية من الرأس واليد ثم ينسحبان: الألماني إلى إصطبله، وروستوف إلى البيت الذي يقطنه مع دينيسوف.

سأل روستوف خادم دينيسوف، وهو ماكر خبيث معروف في كل السرية: أين سيدك؟

– مختفٍ منذ مساء أمس، لا شك أنهم نتفوا ريشه. إنني أعرفه تمامًا؛ فهو عندما يربح يعود مبكرًا منشرح الصدر. أما إذا لم يعُد تلك الليلة، فمعنى ذلك أنه أفرغ آخر درهم في جيبه وأنه سيعود محنقًا غاضبًا. هل أقدِّم لك القهوة؟

– لا مانع.

ولما عاد الخادم لافروشكا بعد عشر دقائق بالقهوة هتف قائلًا: ها هو ذا، حذارِ من غضبته.

نظر روستوف من النافذة، فرأى دينيسوف عائدًا.

كان هذا رجلًا قصير القامة أحمر الوجه أسود العينين ملتمعَهما، ذا شاربين كثَّين وشعر غزير أجعد، وكانت سترته مفكوكة الأزرار، وسراويله هابطة بثنيات منسدلة،

وقبعته مشوهة منحدرة فوق مؤخرة رأسه، كان مكتئب الوجه مطرق الرأس، يتجه نحو مرقاة المنزل.

صاح بصوت غاضب: لافروشكا، ارفع لي هذا يا شديد البلادة!

فأجاب صوت لافروشكا: إنني أدأب على رفع ذلك.

ولما دخل دينيسوف قال: كيف! هل نهضت؟

فأجاب روستوف: لقد عدت من مهمة توزيع العلف، ومررت على فراولين ماتيل.

هتف دينيسوف وهو يلثغ بشكل ظاهر: حقًّا! حسنًا يا عزيزي، لقد تعرضت لخسارة فادحة! إنَّ المرء لا يخطر بباله شؤم كهذا! لقد بدأ الأمر فور ذهابك. هولا، أعطني شايًا!

كان وجهه عابسًا، وفمه منفرجًا قليلًا تظهر خلال فتحته أسنانه القصيرة المتينة، راح دينيسوف يخلل شعره الكثيف الأسود، الشبيه بالغابة الملتفَّة، بإصبعه القصيرة الغليظة.

عاد يقول بعد أنْ مسح على جبينه ووجهه بيديه: يا لها من فكرة سيئة تلك التي حملتني على الذهاب إلى منزل ذلك الجرذ! (والجرذ لقب أحد زملائهما من الضباط)، تصور أنني لم أحصل على ورقة رابحة واحدة، ولا ورقة!

وأخذ الغليون المشتعل الذي كان الخادم يقدِّمه إليه، فعض عليه بأسنانه، ثم ضرب به الأرض وهو يتابع شكواه: إنه ما كان يترك لي إلَّا أتفه الربح، أمَّا الصفقات التي كانت تبشِّر بربح مضاعف، فقد كان يلتهمها وحده باستمرار.

كان التبغ المشتعل قد تبعثر في الغرفة دخانًا، فحطم الغليون وألقاه بعيدًا وصمت فترة ثم قال مخاطبًا روستوف، بعد أنْ خصه بنظرة نشيطة: ليتنا كان لدينا عدد من النساء! ما العمل في هذا الجحر غير الشراب؟ آه! ليتنا دخلنا المعارك وحاربنا بشدة!

وبلغت مسامعه أصوات خطًى ورنين مهاميز تقترب من الغرفة، أعقبها سعال مستكين، فهتف: من هناك؟

فأجاب لافروشكا: إنه وكيل الضابط.

فازداد وجه دينيسوف اكفهرارًا وقال وهو يلقي بكيس نقوده على المائدة وفيه بضع قطع ذهبية: روستوف يا صغيري، اعدد ما في الكيس وأخبئه تحت الوسادة.

وخرج للقاء القادم، فأخذ روستوف يعد المال الموجود في كيس النقود ويفصل القطع الذهبية القديمة عن القطع الحديثة بحركة آلية، بينما ارتفع صوت دينيسوف من الغرفة المجاورة يقول: آه، آه تيليانين! مرحبًا! لقد أُصبت بإحدى هذه الخسارات.

– أين؟ عند بيكوف؟ عند الجرذ، أليس كذلك؟ لقد كنت واثقًا من ذلك.

ولم يلبث أن دخل الملازم تيليانين صاحب ذلك الصوت الرقيق، وهو ضابط من كوكبة روستوف.

ألقى روستوف بكيس النقود تحت الوسادة وضغط على اليد الصغيرة الرطيبة التي مدها الملازم إليه، كان تيليانين هذا قد نُقل من سلاح الحرس إلى سلاح الخيالة لغيرما سبب ظاهر، وكان أصدقاؤه لا يحبونه رغم أنهم لم يكونوا واجدين عليه أي مأخذ، وكان روستوف بصورة خاصة يعجز عن إخفاء كراهيته الغريزية التي كان يُثيرها في نفسه ذلك الضابط، ولا يستطيع السيطرة على أعصابه.

سأل تيليانين: حسنًا، أيها الفارس الشاب، هل أنت راضٍ عن المُهر الذي بعته لك؟

كان تيليانين قد باع إلى روستوف حصانًا صغيرًا هو الذي شهدنا روستوف ينزل عن صهوته ذلك الصباح.

لم يكن ذلك الملازم ينظر إلى الأشخاص نظرة صريحة، بل كانت عيونه تائهةً أبدًا من شيء إلى آخر مما يكون حوله.

أجابه روستوف: نعم، يبدو لي أنه حيوان جيد.

وعلى الرغم من أنه اشترى ذلك الحصان بسبعمائة روبل — رغم أنه لا يساوي نصف ذلك المبلغ — فإنه لم يُبدِ اعتراضًا.

أردف يقول: لكنه يعرج الآن من خلفيته اليسرى.

– لعلَّ حافره قد أصيب، إنَّ الأمر تافه، سأريك كيف تعالج مثل هذه الحالات.

فقال روستوف متلهفًا على التخلص منه: إذن، سأستحضر الحصان.

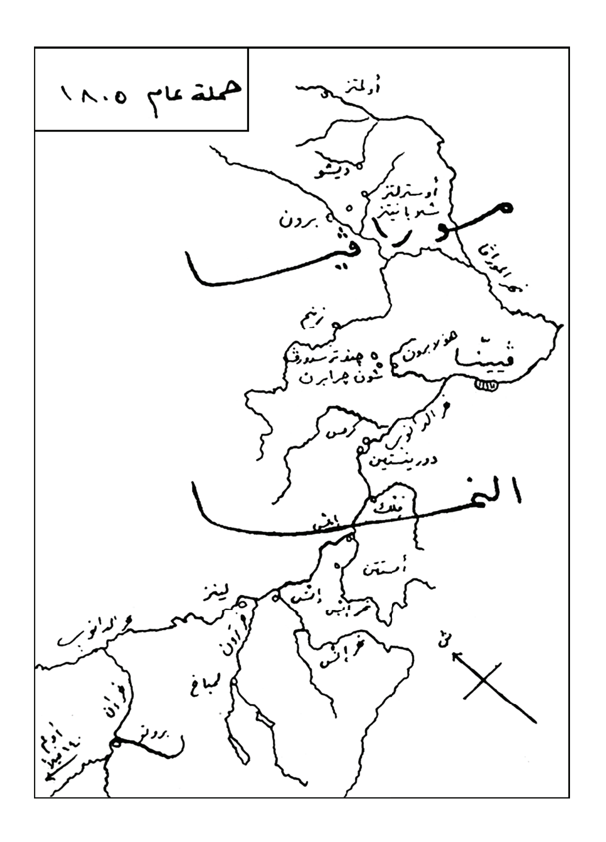
– كما تريد، إنه ليس سرًّا، ولسوف تشكرني من أجل الحصان.

– حسنًا، بيِّن لي كيف تعالج هذه الحالات.

وخرج إلى الممشى ليعطي أوامره، أمَّا دينيسوف فقد كان واقفًا على عتبة الباب يصغي، والغليون في فمه، إلى تقرير وكيل الضابط. فلما رأى روستوف، أشار بإبهامه من فوق كتفه إلى الغرفة التي بقي تيليانين وحيدًا فيها وقال دون أنْ يعبأ بوجود وكيل الضابط: هو ذا فتًى لا يروق لي!

فهزَّ روستوف كتفيه وكأنه يقول: «ولا لي، ولكن ما العمل؟»

ولما عاد روستوف بعد برهة إلى حيث كان تيليانين، كان هذا لا يزال جالسًا في مكانه جلسة اللامبالاة، يفرك يديه البضتين الصغيرتين ببعضهما، فلما رآه عائدًا نهض.



فكر روستوف في نفسه: «حقيقةً إنَّ في العالم رءوسًا لا تروق للناظر إليها بل تنفره.»

سأل الملازم وهو يسرِّح طرفه الشارد حوله: حسنًا، هل أمرت بإحضار الحصان؟

– نعم.

– لنذهب إلى حيث هو، لقد جئت أستفسر من دينيسوف عن أوامر الأمس، هل هي معك يا دينيسوف؟

– ليست جاهزة بعدُ. أين تذهبان؟

– سأُطلع هذا الشاب على طريقة معالجة حافر حصان.

مضيا إلى الإصطبل، فأشار الملازم باتخاذ الترتيبات اللازمة لمعالجة حافر الحصان، ومضى إلى غرفته.

لما عاد روستوف، وجد دينيسوف جالسًا والقلم في يده وزجاجة من العرق أمامه، وإلى جانبها قطع من المصير المحشو، فنظر إلى روستوف نظرة عابسة وقال: إنني أكتب «له».

وبان المرح على وجهه؛ لأنه سيستطيع التعبير بالقول عمَّا كان يود كتابته. واتكأ بمرفقيه على الطاولة وراح يعرض على روستوف محتويات الرسالة. قال: ألا ترى يا عزيزي أننا عندما نمقت إنسانًا تخبو قريحتنا؟ إنَّ الإنسان ليس إلَّا حقارة، لكنه عندما يحب يصبح آلهة ويشعر بنفسه أنه نقي نقاء أيام الخليقة الأولى. من هناك أيضًا؟

ولما رأى لافروشكا مقتربًا هتف به: ليذهب القادم إلى الشيطان! ليس لدي الوقت لاستقباله.

فأجابه الخادم دون أنْ يتأثر بلهجته: من تريده أنْ يكون؟ إنه — ولا شك — وكيل الضابط الذي جاء يسترجع نقوده، لقد استدعيته بنفسك.

عبس دينيسوف وبدا كأنه يهم بالصراخ، لكنه صمت أخيرًا دون أنْ يتفوه بكلمة، ولم يلبث أنْ غمغم بين أسنانه: آه! زوت! كم بقي من مال في كيس نقودي يا روستوف؟

– سبع قطع جديدة وثلاث قديمة.

– يا لها من حالة قذرة!

ثم صرخ في وجه لافروشكا قائلًا: ماذا تفعل جامدًا في مكانك هكذا كجذع الشجرة؟ ابعث إليَّ بوكيل الضابط.

قال روستوف وهو مخضب الوجه بالحمرة: اسمع يا دينيسوف، إذا كنت في حاجة إلى المال فإنني أستطيع إقراضك ما تريد.

فغمغم دينيسوف: إنني لا أحب الاقتراض من أصدقائي، كلا، إنني لا أحب ذلك.

فكرر روستوف: لكنني أقول لك إنَّ المال متوفر معي، ونحن أصدقاء، إنني أعتبر رفضك تجريحًا لي.

– كلا شكرًا.

واقترب دينيسوف من السرير ليأخذ كيس نقوده.

– أين وضعت كيس النقود يا روستوف؟

– تحت الوسادة السفلى.

– ولكن ليس تحتها شيء.

وألقى دينيسوف بالوسادتين إلى الأرض دون أنْ يظهر كيس النقود بينهما.

– ما معنى هذا؟

قال روستوف: انتظر، لعلك تركته يسقط عندما نفضتَ الوسائد.

ورفع الغطاء وهزه ونقَّب في كل مكان، لكن الكيس كان قد اختفى.

– هل تُراني نسيت؟ لكن كلا، بل إنني فكرت في أنك تضع نقودك تحت وسادتك وكأنها كنز. نعم، لقد وضعت كيس النقود هنا.

والتفت إلى لافروشكا وقال: أين الكيس؟

– حيث وضعته صدقني. إنني لا أعرف عنه شيئًا ولم أدخل قط وحدي إلى هنا.

– ولكن ...

– إنك دائمًا هكذا. إنك تُلقي بأشيائك ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال ثم تنسى أين وضعتها.

– نعم، لكنني هذه المرة أذكر مكانها على الضبط؛ لأنني فكرت في قضية الكنز. لا شك أنني وضعتها هنا.

رفع لافروشكا كل ما على السرير ونظر أسفله وتحت المائدة وقلب الغرفة رأسًا على عقب وسيده يتابع حركاته صامتًا، فلمَّا انتهى الخادم من التفتيش وباعد بين ذراعيه وقال إنه لم يجد شيئًا في أي مكان، التفت دينيسوف إلى روستوف وقال له: هيا يا عزيزي، لا تلعب علينا لعب التلاميذ.

شعر روستوف أنَّ أنظار دينيسوف شاخصة إليه، فرفع عينيه فترة ثمَّ عاد فأطرق وقد تخضب وجهه بما تصاعد إليه من دمه، وبدا صدره يعلو وينخفض انفعالًا وكأنه عدا شوطًا بعيدًا، وشعر بغصة في حلقه.

أردف لافروشكا قائلًا: ينبغي أنْ يكون كيس النقود هنا؛ لأن أحدًا لم يدخل هذه الغرفة إلاكما والملازم تيليانين.

فزمجر دينيسوف وقد عبق وجهه بالدم ورفع يده استعدادًا لصفع خادمه: وإذن، تدبَّر أمرك أيها الخبيث، أوجد الكيس! الكيس فورًا وإلا فاحذر العواقب! سوف أنهال عليكم جميعًا بالضرب!

تحاشى روستوف نظرة دينيسوف، فزرر سترته وعلق حسامه إلى منطقته وأخذ قبعته. بينما استمر دينيسوف يصرخ بانفعال متزايد وقد أطبق على كتفي لافروشكا واعتصره بشدة وهو يدفعه نحو الجدار: الكيس، أتسمع، الكيس فورًا!

فقال روستوف: دعه بسلام، إنني أعرف من أخذه.

واتجه نحو الباب دون أنْ يرفع أبصاره. فترك دينيسوف الخادم وفكر فترة، فلمَّا أدرك غاية روستوف، استوقفه بذراعه وصرخ بشدةٍ أبرزتْ عروق عنقه وجبهته كالجبال المشدودة: مستحيل! لن أدعك تقول ذلك، إنك تثير فضيحة يا عزيزي! إنَّ الكيس هنا، سأسلخ جلد هذا الحيوان، لكنه سيجده.

كرر روستوف بصوت متهدج وهو يخطو نحو الباب: إنني أعرف من أخذ الكيس.

فاندفع دينيسوف نحو زميله محاولًا إيقافه وهو يصيح: لا تحاول شيئًا من هذا القبيل، قلت لك لا تحاول!

غير أنَّ روستوف أفلت منه وكأن دينيسوف كان ألدَّ أعدائه، وحدجه بنظرة عميقة في عينيه، مفعمة بالحقد، وقال بصعوبة وألم: زن كلماتك جيدًا، لا يوجد في الغرفة سواي، فإذا لم يكن الكيس مع الآخر فمعنى ذلك ...

ولم يستطع إكمال عبارته، فانصرف مهرولًا. صاح دينيسوف مشيِّعًا: ليركبك الشيطان أنت والآخرين معك!

مضى روستوف إلى حيث يقيم تيليانين، فقال له خادمه: إنَّ الملازم في الأركان.

ولما رأى وجهه المنقلب المتقلص قال يسأله: ماذا حدث؟

– لا شيء.

فأضاف الخادم قائلًا: لو أنك جئت قبل قليل لوجدته هنا.

امتطى روستوف أول حصان صادفه، ومضى إلى الأركان العامة في قرية مجاورة تبعد ميلًا أو أقل من سالزنك، وكان في تلك القرية حان يؤمه الضباط، فرأى روستوف أمام الحان حصان تيليانين. ولما دخل، رأى الملازم جالسًا إلى مائدة حافلة بالطعام والخمر، هتف تيليانين وهو يبسم ويرفع حاجبيه: آه، ها أنت ذا أيها الشاب!

فتمتم روستوف بجهد واضح: نـ...عـ...م.

وجلس إلى مائدة مجاورة.

لم يتوجه إليه بأية كلمة؛ لأن الحان كان يضم اثنين من الألمان وضابطًا روسيًّا آخر غيرهما، وكان السكون مخيمًا فلا تسمع إلَّا قرع السكاكين على الأطباق وحركة فكي تيليانين وهو يمضغ الطعام، فلمَّا انتهى هذا من طعامه، أخرج من جيبه كيس نقود مزدوج، ومد أصابعه المرفوعة بتأنق، فأخرج قطعة ذهبية وقال للنادل: أعد إليَّ الباقي وأسرع.

كانت القطعة الذهبية جديدة، فنهض روستوف واقترب من تيليانين وقال بصوت جامد: دعني أرى كيس نقودك.

فمدَّ تيليانين الكيس إلى روستوف وهو حائر البصر مرفوع الحاجبين، وقال وقد شحب وجهه فجأةً: إنه كيس جميل أليس كذلك؟ نعم، نعم. انظر إليه أيها الشاب.

فحص روستوف الكيس والمال الذي فيه ثم راح يحدق في وجه تيليانين، الذي راح في تلك اللحظة يتظاهر بالدعة وهو لا يفتأ يسرِّح طرفه حوله. قال: عندما ندخل فيِّنا، فإن كل ما في كيسي سيتبخر فيها، أمَّا في هذه الأحجار الصغيرة القذرة، فإن المال لا يفيد في شيء. هيا، أعد إليَّ كيسي أيها الشاب لأنني سأمضي.

لم يتفوه روستوف بكلمة، فاستطرد تيليانين: هل تناولت طعامك؟ إنَّ المرء يجد طعامًا جيدًا هنا. حسنًا، أعطني الكيس.

ومد يده إلى روستوف واستعاد الكيس فأعاده إلى جيب سراويله بهدوء وهو يرفع حاجبيه بلا مبالاة، وكانت شفتاه المنفرجتان تبدوان كأنهما تقولان: «إنني أضع كيسي في جيبي وهو أمر بسيط لكنه لا يخص سواي.»

وأطلق زفرة ورفع إلى روستوف نظرة مختلسة من تحت حاجبيه المرفوعين وقال: حسنًا، ماذا تريد أيها الشاب؟

فاتصل الرجلان بتيار غير مرئي ربط بين نظريهما كالشرارة الكهربائية وانتقل من تيليانين إلى روستوف ثمَّ من روستوف إلى تيليانين وبالعكس، ودام ذلك الاتصال حوالي ثانية، وهتف روستوف وهو يمسك الملازم من ذراعه ويسحبه في شيء من القوة نحو النافذة: تعالَ إلى هنا.

ولما بلغاها، همس في أذنه: إنَّ هذا المال يخص دينيسوف، ولقد أخذتَه …

فاحتجَّ تيليانين: كيف … كيف … كيف تجرؤ؟!

غير أنَّ ذلك الاحتجاج كان يشبه في لهجته صرخة اليأس، وطلب الصفح والغفران. فلما سمع روستوف لهجة الملازم، أحسَّ كأن عبئًا قد أزيح عن كاهله: لم يعُد للشك مكان، شعر بالسرور الغامر وبإشفاق على ذلك التاعس الواقف أمامه، غير أنه كان مرغمًا على الاستمرار في القضية حتى النهاية.

غمغم تيليانين وهو يأخذ قبعته ويتجه نحو غرفة خالية: إنَّ الله وحده يعلم ما سيظن الناس فينا، ينبغي أنْ نتفاهم.

فقال روستوف: إنني أعرف ما أقول، وأنا على استعداد للبرهان عليه.

فتمتم الملازم: ولكن … ولكنني …

كان وجهه ممتقعًا من الخوف، وعضلات وجهه كلها ترتعد، وكانت نظرته تائهة على سطح الأرض لا يجرؤ على رفعها إلى وجه روستوف، أخذ يحاول حبس النشيج في حلقه.

قال وهو يرتمي على مائدة هناك: كونت! لا تضيِّع شابًّا. ها هو ذا المال الملعون خذه.

وألقى على المائدة بالمال ثم أردف: إنَّ لي أبًا عجوزًا وأمًّا مسكينة ...

أخذ روستوف المال وهو يتحاشى النظر إلى وجه تيليانين وهمَّ بالانسحاب دون أنْ يتلفظ بكلمة. لكنه لما بلغ الباب، أبدل عزمه فعاد إليه وقال: رباه! كيف أمكنك أنْ ترتكب مثل هذه الفعلة؟!

كانت عيناه مغرورقتين بالدموع، فاقترب منه تيليانين وقال: كونت ...

فهتف روستوف وهو يتراجع إلى الوراء: لا تلمسني! إذا كنت في عسر فخُذْ هذا المال، احتفظ به.

وألقى كيس النقود على المائدة وغادر الحان جريًا.

الفصل الخامس

الحرب

مساء ذلك اليوم، اجتمع ضباط الكوكبة عند دنييسوف وراحوا يناقشون بحماس.

كان أحد الضباط يقول لروستوف الذي كانت الدماء المتصاعدة إلى وجهه قد أحالته قرمزي اللون: صدقني يا روستوف إنك مخطئ، ينبغي أنْ تقدِّم اعتذاراتك إلى الكولونيل.

كان المتحدث طويل القامة أشهب الشعر ضخم الشاربين عميق تجاعيد الوجه، وكان قد حُرِم من رتبته بسبب أعمال تتعلق بالشرف وعاد فاسترجع رتبته بعد ذلك.

صرخ روستوف: إنني لا أسمح لأحد أنْ يتهمني بالكذب! لقد قال لي إنني أكذب وإنني شوهت قوله، وإن الأمور ينبغي أن تتوقف عند ذلك الحد، إنه يستطيع أن يجعلني على رأس الخدمة كل يوم، وأن يفرض عليَّ عقوبات عسكرية إذا حلا له ذلك، لكن أحدًا لن يستطيع إرغامي على تقديم اعتذاراتي، فهو إذا كان بوصفه زعيمًا يجد من غير اللائق أن يرضي كرامتي، فإنني …

فقاطعه الرئيس كيرستن بصوته العريض المنخفض، وهو يفتل شاربيه الكبيرين: اهدأ يا عزيزي وأصغِ إليَّ، إنك تقول للزعيم إن واحدًا من زملائك قد ارتكب سرقة، وتقول ذلك بحضور ضباط آخرين.

– وهل هو خطئي إذا كان هناك ضباط آخرون؟ يجوز أن التحدث في حضرتهم ما كان ضروريًّا، لكنني لست مداورًا سياسيًّا، لقد دخلت في سلاح الفرسان لأنني كنت أظن أن الرقة وانتقاء العبارات الملقة ليست في شيء من الحسبان. لقد اتهمني بالكذب فليسحب كلمته!

– إنَّ كل ما تقول حسن وصحيح ولا يوجد من يشك في شجاعتك، ولكن المسألة ليست هنا. سل دينيسوف: هل شوهد ضابط صغير يطلب اعتذارًا من زعيم؟

كان دينيسوف يقضم شاربه ويُصغي إلى النقاش مكفهر الوجه، عازفًا عن التدخل فيه، فلما سمع سؤال الرئيس أجاب بإشارة نفي من رأسه، فاستطرد ذاك بإلحاح: هيا يا عزيزي. لقد كنت تتحدث إلى الزعيم عن تلك المسألة اللعينة بحضور ضباط آخرين، فأشار عليك بوجدانيتش (وهو الاسم الذي كان يُطلق على الزعيم بين صفوف الضباط، واسمه الكامل كما سنرى هو: كارل بوجدانيتش شوبرت) بالصمت ليقطع سياق حديثك.

– أي إنه اعتبرني كاذبًا.

– ليكن، لكنك تفوهت أمامه بحماقات وينبغي أن تعتذر عنها.

فصرخ روستوف: أبدًا!

فأجاب الرئيس بصوت صارم: ما كنت أنتظر ذلك منك، إنك ترفض الاعتذار مع أنك يا عزيزي مذنب ذنبًا كبيرًا حيال الزعيم بقدر ما أنت مذنب حيالنا وحيال السرية كلها، كان يجب أن تفكر في الأمر، وأن تطلب المشورة منا فيما يجب أن تتبعه من تصرُّف، وبدلًا من ذلك، أفرغت ما في جعبتك دون حذر أمام ضباط آخرين، فماذا كان يستطيعه الزعيم إزاء ذلك؟ هل كان يستطيع أن يقدِّم ضابطًا للعدالة، فيشوه سمعة السرية كلها؟ هذا هو رأيك أليس كذلك؟ حسنًا، إنه ليس رأينا، وقد أحسن بوجدانيتش التصرف عندما زعم أنك لا تقول الصدق، إن قوله مزعج ولا شك، ولكن الخطأ ليس خطأه يا عزيزي، والآن عندما نرغب في خنق القضية، نراك على العكس تصيح فوق الأسطح، وترفض الاعتذار لمجرد الزهو، كيف تجد أن إبقاءك في الخدمة كل يوم يشكِّل مهانة، ولا تستطيع أن تقدم اعتذارات إلى ضابط عجوز نبيل! إن بوجدانيتش لا يخلو من عيوب، لكنه ليس أقل من زعيم عجوز باسل، ومع ذلك فإنك تتكدر من قوله، ولكن ألا تجد أن تشويه سمعة السرية أمر خطير؟

وراح صوت الرئيس يتهدج وهو يقول: إنك — ولا شك — يا فتاي لست هنا إلا لفترة من الزمن؛ لأنك ستُنقل يومًا لتكون ضابطًا مساعدًا في الأركان، فلا يهمك — والحالة هذه — ما سيحدث بعدك، ولا يزعجك على ما يبدو أن يقال: «إن بين ضباط بافلوجراد لصًّا!» أما نحن، فإن ذلك الأمر على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة إلينا، أليس كذلك يا دينيسوف؟

ظل دينيسوف صامتًا جامدًا، يلقي على روستوف نظرات من عينيه السوداوين اللامعتين بين الحين والآخر، فاستطرد الرئيس: إنك لا تعرف غير الزهو، ولا تريد أن تعتذر، لكننا نحن، معشرَ الجنود القدماء، لقد شببنا وهرمنا في السرية، ونطلب إلى الله أن يمنحنا شرف الموت فيها، لذلك فإن شرف السلاح ثمين عندنا، وبوجدانيتش لا يجهل

ذلك، آه! ليتك تعلم كم نستمسك بشرف السرية! كلَّا يا صاحبي، إنك لا تتصرف تصرفًا لائقًا، إنك لا تتصرف تصرفًا طيبًا، إنني لن أتفوَّه بغير الصدق ولو أزعجك ذلك، إنك لا تتصرف تصرُّف الرجل اللبق!

ونهض الرئيس، وأدار ظهره إلى روستوف، فهتف دينيسوف وهو ينهض عن مقعده: لعمري إنه صواب، هيا يا روستوف، هيا.

كان وجه روستوف خلال ذلك يمتقع ويحمر، ثم يمتقع ثم يحمر من جديد، وكان ينقِّل الطرف دوريًّا بين الضابطين، فقال: ولكن لا أيها السادة، ماذا ستظنون؟ لقد كوَّنتم عني فكرة سيئة. إنني أفهم ذلك. إن شرف السرية متأصل في أعماق قلبي أنا الآخر، ولسوف أبرهن على ذلك بالأعمال. وهو عندي بمنزلة شرف العلَم. ليكن، إنني أعترف بأنني مخطئ (واغرورقت عيناه بالدموع) نعم إنني مخطئ، مخطئ تمامًا. فماذا تريدون غير ذلك؟

استدار الرئيس نحوه وقال وهو يُربت بيده العريضة على كتفه: مرحى يا كونت، إن هذا هو خير الكلام.

وهتف دينيسوف قائلًا: أرأيت، إنه فتًى باسل، لقد قلت ذلك لك من قبل.

فاستطرد الرئيس: نعم يا كونت إنني أفضِّل ذلك، فاذهب يا صاحب السعادة وقدِّم اعتذاراتك.

كان الرئيس يُعطي روستوف كل ألقابه، وكأنه يكافئه على حُسن نيته، فقال روستوف ضارعًا: سأعمل كل ما تريدونه أيها السادة، إنني لن أتفوَّه عن هذا الأمر بكلمة، ولكن لا تطالبوني — بالله — أن أقدِّم اعتذاراتي، إنني لست طفلًا أيها السادة لأسأل العفو.

فانفجر دينيسوف ضاحكًا، بينما قال كيرستن: أنت وشأنك، إن بوجدانيتش حقود، ولسوف تدفع ثمن عنادك غاليًا.

– أقسم لكم أنني لست عنيدًا. لا أستطيع أن أصف لكم شعوري. لكن الأمر، بكل صراحة، يفوق حدود طاقتي.

فأعقب الرئيس: هيا، ليكن كما تشاء. أين اختفى ذلك الحقير؟

فأجابه دينيسوف: لقد ادَّعى بأنه مريض، لسوف يُسرح غدًا بعد تبادل التقارير.

– إن المرض وحده يُفسر اعتكافه.

فزمجر دينيسوف بصوت ضارٍ: سواء أكان مريضًا أم لا، فإنني سأقتله إذا وقع بصري عليه!

– كيف؟ أنت!

وفي تلك اللحظة دخل جركوف فهتف الضباط: لقد صدر أمر السير أيها السادة، لقد استسلم ماك وأبيد جيشه.

– إلى الحرب، إلى الحرب! قدِّموا إليه زجاجة لقاء هذه البشرى، ولكن كيف جئت إلى هنا؟

– بسبب ماك اللعين، إنني لما رأيته عائدًا، قدمت تهانئي إلى الجنرال النمساوي، فشكاني هذا، وكانت نتيجة الشكوى أن أُعدتُ إلى السرية. ولكن ماذا بك يا روستوف؟ إنني أراك على غير حالك.

– آه يا عزيزي! ليتك تعلم في أي بؤرة تردَّينا منذ أمس!

وفي تلك اللحظة جاء الضابط المرافق للزعيم يؤيد الخبر الذي حمله جركوف؛ لقد كان أمر الحركة معطًى ومحددًا بصباح الغد، هتف الضابط: إلى الحرب أيها السادة!

– شكرًا لله، كفانا تعفنًا حتى الآن!

الفصل السادس

بدء زحف كوتوزوف

انثنى كوتوزوف على فيينا وهو يهدم الجسور وراءه، جسور الإيينّ Inn[١] في برونُّو والـ ترون Traun[٢] في لينز.

وفي الثالث والعشرين من تشرين الأول، كان الجيش الروسي يعبر نهر إينس،[٣] وكانت قطع المدفعية والقطعات العسكرية والأمتعة تُنقل تباعًا على طول مدينة «إينس» وعلى جانبي الجسر.

كان الوقت خريفًا والجو معتدلًا وممطرًا، وكانت «بطاريات» المدفعية التي تحمي الجسر، وتشغل مرتفعًا مستديرًا، وكان المشهد الذي يتيحه ذلك المرتفع يضيق حينًا تحت ستار المطر الغزير الهاطل، ويتسع حينًا آخر تحت أشعة الشمس، فكانت الأشياء البعيدة تبدو عندئذٍ واضحة برَّاقة، وكأنها طُليت بطبقة من الدهان اللامع. وكانت المدينة الصغيرة ببيوتها البيضاء وقرميدها الأحمر وكنيستها وجسرها الذي كان الجيش الروسي قابعًا على جانبيه، وموزعًا على قطعات كبيرة؛ تُرى بوضوح أسفل ذلك المرتفع. وعند المنعطف الذي يشكله نهر الدانوب في اندفاعه، كان المُشاهد يرى بعض الزوارق وجزيرة وقصرًا منيفًا وحديقة يحيط بها الماء؛ ماء نهر «الإينس» و«الدانوب» معًا. وعلى شاطئ النهر العظيم الأيسر، كانت مرتفعات خضراء وممرات زرقاء قائمة في الأبعاد الشاسعة المجهولة. وكانت

---

[١] إين: رافد للدانوب ينبع من سويسرا، ويروي أينسبورك وباسوا وطوله ٥٢٥كم. (المترجم)

[٢] ترون: رافد آخر يمر بعاصمة النمسا العليا — لينز — ويصب في الدانوب. (المترجم)

[٣] نهر إينس Enns: أحد روافد الدانوب، يمر بالمدينة المسماة باسمه التابعة للنمسا، وسكانها ٤٢٠٠ نسمة. (المترجم)



عبور نهر إين تحت النيران.

هناك أحراش تشبه الغابات العذراء، تبرز وراءها أبراج دير كبير، بينما كان جنود الأعداء يظهرون وراء تلك المرتفعات بوضوح.

وعلى ذلك المرتفع، أمام «بطارية المدفعية»، كان الجنرال قائد المؤخرة وضابط من بلاط جلالته، يرقبان الأرض حولهما بواسطة منظار مقرب، وإلى الوراء، كان نيسفيتسكي قابعًا في كمين أقيم هناك، لقد أقامه القائد الأعلى في عداد ضباط المؤخرة، وكان القوقازي الذي يرافقه، يقدِّم له قصعة مملوءة بقطع البسكويت وإناءً فيه شراب، وكان نيسفيتسكي يُطعم ضباط البطارية الذين يحيطون به مرحين، وبعضهم على ركبتيه، والبعض الآخر جالس على الطريقة التركية فوق الأعشاب الندية.

قال نيسفيتسكي: إنَّ الأمير النمساوي الذي شيد قصره هنا ذكي بعيد النظر، يا للمركز الرائع! ماذا أيها السادة؟ ألا تأكلون؟

فأجاب أحد الضباط وهو سعيد؛ إذ يتحدث إلى عضو هامٍّ في أركان حرب الجيش: شكرًا جزيلًا يا أمير، في الحقيقة إن الموقع رائع، إننا عندما مررنا بالحديقة شاهدنا خادمين، يا له من قصر منيف!

وقال ضابط آخر يتوق إلى تناول قطعة أخرى من الحلوى، لكنه لا يجرؤ على ذلك، فاضطر إلى التظاهر بتأمل المشهد: انظر أيها الأمير، انظر إلى مُشاتنا كيف بلغوا القصر! ها ثلاثة منهم هناك في ذلك الحقل، وراء القرية، يجرُّون بينهم شيئًا ما. إنهم يحاولون تطويق ذلك القصر، فليوفقهم الله.

فقال نيسفيتسكي وفمه الجميل الندي مملوء بالحلوى: هكذا يبدو لي، أما أنا شخصيًّا، فإنني أفضِّل أن أقوم بجولة إلى هناك.

وأشار بإصبعه إلى الدير ذي الأبراج الذي يبدو مرتسمًا على الرابية، ثم ابتسم، فضاقت عيناه والتمعتا وأردف: إن ذلك سيكون رائعًا، أليس كذلك أيها السادة؟

فانفجر الضباط ضاحكين وقال أحدهم: إن القضية قضية تخويف أولئك الراهبات المتدينات، يقال إن بينهن إيطاليات ناعمات رائعات، إنني أعطي خمس سنين من حياتي عن طيب خاطر لقاء زيارة واحدة أقوم بها إليهن!

فقال أحد المدفعيين معقبًا وهو يمتاز ببسالته وإقدامه: ثم إنهن ينزعجن في وحدتهن.

وفي تلك الأثناء كان ضابط من الحاشية يشير إلى الجنرال بالنظر إلى نقطةٍ ما، فسدد هذا منظاره إلى حيث أشار الضابط.

غمغم الجنرال وهو يُنزل المنظار: لقد انتهى الأمر.

ثمَّ هزَّ كتفيه وأردف: نعم، لقد استعدوا، سوف يطلقون قذائفهم علينا خلال عبورنا، ماذا ينتظر جنودنا؟

ومن الجانب الآخر للنهر، كانت العين المجردة تكتشف «بطارية» عدوة، ارتفع فوقها دخان كثيف أبيض، وارتفع بعد ذلك دوي بعيد مكتوم، أعقبته حركة بين الوحدات الروسية، وقف نيسفيتسكي يتنفس ملء رئتيه، واقترب من الجنرال والابتسامة على شفتيه وقال يسأله: هل ترغب سعادتكم في تناول قطعة؟

فتجاهل الجنرال السؤال وقال: يا للمسألة اللعينة! إن رجالنا متأخرون.

– هل ينبغي أن نهبط يا صاحب السعادة؟

فأجاب الجنرال: هو ذلك، اذهب أرجوك.

وراح يكرر عليه الأوامر التي كان قد أصدرها من قبل بالتفصيل: قُل للخيالة أن يعبروا آخر كل الفرق، وأن يحرقوا الجسر كما أمرت من قبل، ولتُفتش مرة أخرى المواد المشتعلة التي حددت أمكنتها.

فأجاب نيسفيتسكي: مفهوم.

ونادى تابعه القوقازي الذي كان يمسك بعنان جواده، فأمره بحزم الذخيرة والزاد، واعتلى بِخفَّة ظهرَ جواده رغم ثقل جسمه.

قال للضباط الذين راحوا ينظرون إليه باسمين: إنني ذاهب لزيارة المتعبدات كما ترون.

وسلك الطريق الملتوي الذي كان يصعد الرابية المرتفعة.

قال الجنرال لرئيس البطارية: حسنًا يا كابتين، أرنا مدى قذائفك، هيا! لمجرد خداع العدو.

صاح الضابط آمرًا: أيها المدفعيون، إلى قطعكم!

فهرع المدفعيون والرماة على الفور إلى مراكزهم، وراحوا يعبئون المدافع، ودوَّى صوت آمر يقول: القطعة الأولى، أطلق النار!

فتراجع المدفع الأول بعنف، وأرعد بصوت معدني يصم الآذان، ومرت القذيفة فوق رءوس القطعات الروسية المحتشدة عند سفح التل، وهي تصفر صفيرًا قويًّا، لكنها انفجرت على مبعدة من العدو، بعد أن أعلنت عن مكان سقوطها بسحابة خفيفة من الدخان.

ابتهجت القطعات الروسية لسماع الدَّوِي، ونهض الضباط والجند ليشاهدوا بأنفسهم حركات الجنود الآخرين التي كانت واضحة ظاهرة، تقابلها من الجانب الآخر الوحدات العدوة، وفي تلك اللحظة خرجت الشمس من وراء السحب الأخيرة، فكانت تلك الطلقة الوحيدة من المدفع، مختلطة مع بريق الشمس المشع، توحي للنفس ببهجة حماسية رائعة.

الفصل السابع

عبور جسر الإينس

مرت قذيفتان عبر الجسر؛ حيث كانت الحركة على أشدها، وكان الأمير نيسفيتسكي وسط ذلك الازدحام — بشخصه الفخم — مستندًا إلى حاجز الجسر، يضحك وهو ينظر إلى تابعه القوقازي، الذي كان واقفًا على مقربة منه إلى ورائه، ممسكًا بأعنة جوادين، وكلما راح يحاول التقدم، كان الجنود والعربات والحركة الدائمة الصاخبة تعيده إلى مكانه قرب الحاجز، فلم يجد خيرًا من الابتسام يعالج به مشكلته.

صاح القوقازي بجندي كان يدفع بعربته الجنود المشاة، ويهددهم بسحقهم تحت عجلاتها وسنابك الخيل: قُل يا هذا، ألا تستطيع الانتظار قليلًا؟ ينبغي أن تترك المجال لمرور الجنرال، هل فهمت؟

بَيْدَ أن كلمة «جنرال» لم تُحدث أي أثر في نفس الرجل، الذي راح يصيح بالجنود الذين يعترضون سبيله قائلًا: احذروا يا هؤلاء! خذوا يساركم!

غير أن «هؤلاء» كانوا يسيرون كتفًا إلى كتف، تتشابك حرابهم، ويتقدمون كتلة لا سبيل إلى تفريق أفرادها.

كانت أنظار نيسفيتسكي تنتقل من النهر إلى الجسر، فتكتشف هنا وهناك مشاهدَ متماثلة، وإلى الأسفل، كان الإينس يدفع أمواهه الصاخبة المتموجة متتابعة متلاحقة، لتتحطم وتشتبك مع الأوتاد المغروسة في مجراه لإقامة أبنية عليها، وإلى الأعلى، كانت أمواج هائلة تصطخب، أمواج بشرية، ولكنها متشابهة مع أمواج المياه من حيث النتائج والاتجاه. كانت تلك الأمواج سلسلة لا تنتهي من الأكياس والبنادق الطويلة والحراب والخوذات العسكرية بشعاراتها وأربطتها الحلقية، التي تظهر تحتها وجوه ذات خدود ضامرة وأخرى منتفخة، ثم غابة من السيقان المتخبطة في الأوحال اللزجة، ومن حين إلى آخر كانت سحنة أحد الضباط بمعطفه المميز تظهر بين تلك الأمواج البشرية، تدفع

أمامها فارسًا أو تابعًا، أو واحدًا من سكان المقاطعة، كما تدفع أمواهُ النهر قذاةً سقطت في تيارها.

ومن حين إلى آخر، كانت العين تقع على عربة من عربات الضباط، أو من تلك التي تُخصص لنقل الأمتعة، وهي محملة ومُغطَّاة بقماش سميك، يحمي ما فيها ومن فيها فتبدو طافية، أشبه بجذع شجرة عائم في مجرى تيار جارف يتقاذفها على هواه.

قال القوقازي وقد يئس من التقدم: يُخيَّل للمرء أن الحاجز قد دُمر فتدفقت المياه، هل يستمر هذا التدفق طويلًا؟

فأجابه مزَّاح كان يمر في تلك اللحظة مرتديًا معطفه الممزق وهو يغمز بعينيه: إنَّ العدد الذي سيمر قوامه مليون إلا واحدًا!

وكان جندي عجوز، يسير متعقبًا خطى المزَّاح وهو يقول لزميل له بلهجة مفجعة: إذا راح يطلق نيرانه علينا في هذه الساعة، فإننا سننسى حتمًا أن نعنى بقملنا.

والضمير الغائب في هذه الدعابة يرجع إلى العدو.

مضى العجوز، وجاء في أعقابه جندي يعتلي عربة ووراءه جندي يعدو على قدر طاقته؛ ليلحق بالعربة السائرة، ويبحث في محتوياتها، كان يصخب قائلًا: أين أخفيت جواربي بحق الشيطان أيها الحيوان السمج؟

وابتعد هذا كما ابتعدت العربة، وتبعه جمْع من الجنود يبدو عليهم الثمل، وهم يضحكون مبتهجين، كان أحدهم يقول وهو يلوِّح بذراعيه، وياقة معطفه مرفوعة تصل إلى شحمتي أذنيه: وفي تلك اللحظة يا فتاي الصغير كان بودي لو رأيته كيف أهوى بعقب بندقيته على أنفه فحطمها.

فأجابه آخر، وهو ينفجر ضاحكًا: لا شك أن وجهه الآخر أصبح كفخذ الخنزير الشهي!

ومرَّت هذه الجماعة دون أن يستطيع نيسفيتسكي أن يعرف من الذي أصبح «فخذًا» شهيًّا.

ومَرَّ نقيب وهو يزمجر قائلًا: ليقال إن النار في أعقابهم! ألأنه أرسل قذيفة لم تنفجر، باتوا يعتقدون أنهم سيموتون عن آخرهم؟

و«ألأنه» هذه تعني ألأن العدو طبعًا.

فأجابه جندي شاب ذو فم كبير، في كتمان ضحكته: لعمري يا صديقي، إنني عندما رأيت القذيفة تمر أمامي كدت أن أشيح ببصري.

وأردف فخورًا بأنه شعر بالخوف: نعم، ولا شك أنني شعرت برعب مريع!

ومَرَّ هذان المتحدثان كذلك. وجاءت عربة تختلف عن سابقاتها، كانت عربة محلية يقودها ألماني من أهل المنطقة، يجرها حصانان، وقد قطرت إليها بقرة جميلة ملونة ضخمة، كانت العربة تبدو متسعة كمنزل صغير تحمل أفراده؛ لأن ثلاثة نساء كنَّ جالسات على فرش فيها؛ عجوز وامرأة على يدها طفل وفتاة متوردة الوجنتين في صحة جيدة. كانت تلك الأسرة واحدة من عدد كبير، أُرغم أفرادها على إخلاء مساكنهم، ومُنحت لهم تصاريح خاصة بالانتقال.

استدارت الأعين كلها تنظر إلى تلك الأسرة، وكانت البسمات توجه للمرأتين كلما تقدمت عربتهما ببطء شديد بين تلك الجحافل، حتى إن الامرأتين الشابتين كانتا تبتسمان ابتسامة متشابهة، تنُم عن أفكار مثيرة بطرة.

صاح أحدهم بسائق العربة: ماذا أيها الأب المنتفخ، أتجلو عن المكان؟

وقال آخر يسأل الألماني الذي كان مطرق الرأس مكفهر الوجه، يحاول حثَّ الخيول على الإسراع في السير: هل تبيع رفيقتك حقًّا؟

وانبرى صوت آخر يقول: رباه! كم هي مزينة!

– إنها خير رفيقة سكن، أليس كذلك يا فيدوتوف؟

– بل إننا رأينا أجمل منها يا فتاي.

وسأل ضابط ميدان وهو يقضم تفاحته، ويبتسم ابتسامة جميلة لفتاة العربة: إلى أين تمضون هكذا؟

فأغمض الألماني عينيه، وتظاهر أنه لا يفقه شيئًا، فقال الضابط وهو يقدِّم تفاحته للفتاة: خذيها، أتريدين؟

فتقبلتها الفتاة بلطف.

ظلَّ نيسفيتسكي — كالآخرين — يحدج النسوة بعينيه طيلة الوقت الذي استغرقه مرور العربة، فرأى أولئك الجنود، وسمع أقوالهم، ثم توقف الرتل كله، كانت الخيول التي تجر العربة الأولى قد توقفت عند نهاية الجسر، ورفضت كما يحدث غالبًا للحصان الحرون، وسبب ذلك التوقف المفاجئ تجمد السيل العرم الذي كان يترى.

توقف الجنود وهم يحدقون في وجوه بعضهم ويتدافعون، وكل منهم يحاول أنْ يتجاوز الآخر، واختلطت الأصوات: ماذا ينتظرون؟ أليس هناك نظام؟ ألم تنتهِ من الدفع أيها الأحمق؟ أأنت على عجلة من أمرك إلى هذا الحد؟ عندما تشتعل النار في الجسر سيكون الأمر أكثر تسلية. ألا ترى أننا نكاد نسحق ضابطًا؟ ... إلخ.

وبينما كان نيسفيتسكي مستديرًا ينظر إلى أمواه النهر، سمع فجأةً صوتًا جديدًا، يختلف عن الأصوات التي أَلِفها سمْعه حتى تلك اللحظة، رأى كتلة هائلة تقترب مسرعة وتنقض، فتسقط في النهر.

غمغم جندي قريب من هناك، وقد استلفتت الضجة انتباهه: إنه الآن يهتم بنا (العدو).

فأجاب آخَر مازحًا: «إنه» يريد أن يجعلنا نسرع في عبور الجسر.

تأكد نيسفيتسكي أن تلك الضجة الهائلة كانت نتيجة لقذيفة أطلقها العدو، ولما عاد الركب يسير، استوقف تابعه القوقازي وصاح به: إليَّ بحصاني! هيا ابتعدوا من الطريق، دعوني أمُر!

واعتلى صهوة الجواد بمجهود كبير، وهو يُكثر التوبيخ والتأنيب ليشق لنفسه طريقًا، وراح يدفع حصانه غمار الجنود الذين راحوا يفسحون له الطريق مختارين، غير أنَّ تلك الموجة البشرية ارتدَّت إليه فجأةً، حتى إن أقرب الجنود إليه، كاد أن يسحق ساقيه مرغمًا بفعل الازدحام.

وصاح صوت أجش من وراء نيسفيتسكي: هه نيسفيتسكي، هه أيها المنتفخ!

فاستدار هذا مستجيبًا، وإذا به يرى على بُعد خمس عشرة خطوة وراءه، فارسًا أحمر أسود أجعد الشعر، استرسلت قبعته حتى استقرت في مؤخرة رأسه، وعلى كتفيه فروة مربوطة عند العنق، كانت الكتلة البشرية تفصل بينه وبين الفارس، لكنه لم يجد صُعوبةً في معرفته، كان هذا هو فاسكا دينيسوف. زمجر هذا وهو فريسة الغضب: قُل لهؤلاء الأوغاد أن يفسحوا لنا الطريق!

كانت حدقتاه الملتهبتان تدوران في محجريهما، وتلتمعان كالشعلة المستوهجة، وكانت يدُهُ تهز حسامه في غمده وتلوِّح به، وكانت اليدُ حمراء كالوجه.

هتف نيسفيتسكي مرحًا: آه فاسكا! ماذا بك؟

فزمجر دينيسوف بصوت مرعد، وهو يكشف في غضبته عن أسنانه البيضاء: يستحيل إمرار الخيالة!

وهمز حصانه الأصيل الأسود بقسوة؛ ذلك الحصان العربي الذي يفخر به، والذي كان ينصب أذنيه كلما اندفع في غمار الحراب المشهرة، مذعورًا يغمره الزبد، وكأنه لا ينتظر إلا إشارة من فارسه ليقفز فوق الحاجز إلى النهر: يا لقطيع الخراف! أفسحوا الطريق أيتها الحيوانات! أنت يا سائق العربة، قِفْ وإلَّا مزقتك إربًا!

واستل سيفه من غمده، وراح يهدِّد المشاة تهديدًا جديًّا، فذعروا وراحوا يتدافعون ليفسحوا المجال للضابط الفارس الغضوب حتى بلغ مكان زميله.

سأله نيسفيتسكي: كيف حدث؟ إنك لست ثملًا!

– آه يا عزيزي! إنهم لا يعطوننا الوقت الكافي لغسل المرافق! إنهم يُنقلون طيلة النهار بين جانب وآخر، لنحارب إذا كان ينبغي أن نحارب، وإلا فالله وحده يعلم معنى هذا التصرف!

رأى نيسفيتسكي الفروة الجديدة التي يتدثر بها الفارس ولبادة حصانه فهتف: يا للشيطان! ما هذه الأناقة!

ابتسم دينيسوف، وأخرج من جيب منطقته الجلدية منديلًا مضمخًا برائحة عطرية، دفعه تحت أنف نيسفيتسكي وقال: إنك على حق لأننا في يوم المعركة، لقد حلقت لحيتي وتضمخت بالعطور، بل وأكثر من ذلك، لقد غسلت أسناني.

واستطاع هيكل نيسفيتسكي الضخم والقوقازي المرافق يؤزُّهما تصميم دينيسوف وصيحاته وتوبيخاته، أن يُحدث أثره في النفوس؛ مما سهَّل عليهم أخيرًا أن يشقُّوا لأنفسهم طريقًا، ويبلغوا الجانب الآخر من الشاطئ؛ حيث لحقوا بموجة المدفعيين والقناصة الصاعدين، وهناك التقى نيسفيتسكي بالزعيم الذي جاء ينقل إليه الأوامر، فأتمَّ مهمته، وعاد على أعقابه.

بعد أن شق دينيسوف طريقًا لخيالته بمجهود جبار، انتحى جانبًا ليراقبهم وهم يغادرون الجسر، وكان يضبط حصانه بيد متراخية، ويمنعه من الاندفاع وراء الخيول الأخرى، ولم يلبث أن ارتفع وقْع حوافر جياد على أخشاب الجسر، وإذا بالكوكبة منتظمة على صفوف رباعية وضباطها في المقدمة، تجتاز الجسر، وتصعد الجانب الآخر.

خلال ذلك، كان المشاة يناضلون بين الأوحال، ويرمقون الفرسان الرسميين الأنيقين بنظرة فيها عداء معروف عند أسلحة الجيش المختلفة.

هتف أحد المشاة: إن هؤلاء على أحسن حال، وكأنهم ذاهبون إلى عرض عسكري!

فأجاب آخر: ماذا تريد منهم أن يفعلوا غير ذلك؟ إنهم لا يُحسنون إلا هذا.

صاح أحد الفرسان مازحًا، وقد رأى كيف تعثر بأحد المشاة فألقاه أرضًا: أنت يا دافع الحصى بقدميك، اجهد في ألَّا تثير غبارًا.

فأجاب الآخر، وهو يمسح بكمه وجهه الملطخ بالوحل: نعم، هو كذلك، تظاهر بأنك تنقض وأنت على ظهر جوادك، لكنك لو سرت مرحلتين أو ثلاث مراحل والكيس على ظهرك لَمَا كنت متبجحًا هكذا.

وهتف عريف يمازح جنديًّا نحيلًا منحنيًا تحت ثقل كيسه: قُل لي يا زيكين، أهو أنت الذي تليق بامتطاء صهوة جواد؟ وددت لو رأيتك!

فردَّ عليه أحد الفرسان قائلًا: إنَّ خير ما تعمله هو أن تضع له عصاة بين ساقيه، وبذلك يصبح فارسًا جميلًا!

الفصل الثامن

إحراق الجسر

راحت فصائل المشاة والمدفعية، التي كانت محبوسة عند مدخل الجسر، تدفق منه الآن في عجلة كالسائل الذي يندفع خلال القمع. مرت العربات كلها وخف الزحام، وبلغ الضفة الأخرى آخر جحفل، ولم يبقَ إلا فرسان دينيسوف لمقابلة العدو، كان هذا ظاهرًا من أعلى المرتفع المقابل، أما من الأسفل عند الجسر، فلم يكن مكشوفًا بعد؛ لأن النهر كان يسير ملتويًا في مضيق كانت جنباته تقطع الأفق على مسافة لا تقل عن خمسمائة متر، كانت من الأمام مساحة غير مأهولة يجوس القوقازيون خلالها، وفجأةً ظهرت معاطف زرقاء ومدافع فوق تلك المرتفعات التي راح القوقازيون ينحدرون عنها خببًا، كان ضباط دينيسوف وجنوده لا يفكِّرون إلَّا فيما هو كامن فوق الهضبة، وينظرون باستمرار إلى تلك النقاط البادية على الأفق، والتي كانت في حقيقتها كتائب عدوة منتشرة هناك، غير أنهم كانوا يحاولون جاهدين أن يشيحوا بأبصارهم عنها إلى ناحية أخرى، وأن يتحدَّثوا حول موضوعات ثانية، وبعد الظهر، تحسنت الحالة الجوية، وسطعت الشمس، وراحت تسدل إشعاعاتها الوهاجة على الدانوب العظيم والهضبات القاتمة التي تضمه بينها، وكان السكون شاملًا، ومن حين إلى آخر، كان بعض الخيالة يقطعون المسافة الفراغ الممتدة بين الكوكبة والعدو الذي كان قابعًا في أمكنته، لا يندُّ عنه صوت، إلا صيحات تتردد من حين إلى آخر، ونغيرٌ يؤكد وجوده، وكان ذلك السكون يزيد في خطورة الخطِّ المخيف الذي يفصل بين الجيشين العدوين، ذلك الخط الوهمي الذي لم يقطعه أحد من الجانبين.

كان كل رجل يفكر: «إن على خطوةٍ وراء ذلك الخط — تشبه الخُطوَة التي تفصل بين الأحياء والأموات — يقبع المجهول الذي يُحدث الألم والموت، ولكن ماذا يجد الإنسان هناك؟ ومن يجد؟ ماذا هناك وراء ذلك الحقل وتلك الشجرة، وذلك السقف الذي تسطع

الشمس فوقها؟ إن ما هناك مجهول يرغب كل إنسان في معرفته، كان كل إنسان يخشى اجتياز ذلك الخط، ويحسُّ مع ذلك برغبة في اجتيازه، كان كل واحد يعرف أنه سيضطر إلى اجتياز ذلك الخط آجلًا أم عاجلًا، وأنه سيعرف ما هناك، كما يجب ذات يوم أن يعرف ماذا وراء الموت معرفة لا بد منها، مع ذلك فقد كان كل إنسان يشعر أنه صحيح الجسد متَّقدًا حماسًا ومرحًا، وأن من حوله كذلك ممتلئون صحةً وقوةً واندفاعًا»، تلك هي إحساسات كل رجل في حضرة العدو، وتلك الإحساسات تعطي صورة خاصة عقب كل حادث، فتجعل المرء يستقبل ذلك الحادث بنشاط وتعطُّش.

بدت في تلك اللحظة على قمة المرتفع الذي يعسكر العدو فوقه، سحابة خلفتها قذيفة، انطلقت من فوهة المدفع، وراحت تصفر فوق الكوكبة، فتفرق الضباط الذين كانوا مجتمعين في بقعة واحدة، وأخذ كل منهم مكانه على رأس فصيلته، وكان الرجال يحاولون جهدهم استبقاء خيولهم منتظمة الصفوف، وخيَّم السكون من جديد. كانت عيون الفرسان شاخِصةً إلى العدو البعيد، وإلى الرئيس تنتظر الأمر منه، ومرت قذيفة ثانية وثالثة، كانت تلك القذائف تستهدف الفرسان ولا شك، غير أنها طاشت بصفيرها الرتيب مادة فوق الرءوس، وسقطت في مكانٍ ما وراء الكوكبة، كان يبدو على الوجوه عدم الاهتمام بتلك القذائف، ولكن كلما تردد صوت المقذوف ودوًّى، كان الرجال ذوو الوجوه المختلفة المتباينة في ألبستهم الموحدة، يمسكون عن التنفس، وكأنهم ينفِّذون أمرًا صدر إليهم، ويرفعون أجسادهم معتمدين على الركب، كان كل واحد يفحص زميله بزاوية عينه دون أن يدير إليه رأسه، محاولًا معرفة الشعور الذي أحدثه مرور القذيفة في نفسية زميله، وكان كل وجه — اعتبارًا من وجه دينيسوف وحتى وجه قارع البوق — يعبِّر عن الانفعال والعصبية، والصراع العنيف ضد النفس، فيُنظر ذلك التعبير في الخطوط الواضحة المرتسمة حول الذقون وعلى أطراف الشفاه، وكان الرقيب الأول ينظر إلى رجاله بوجه عابس طافح بالتهديد، أما التلميذ الفارس ميرونوف، فكان يحني ظهره إثر وصول القذيفة، بينما كان روستوف الواقف في الجناح الأيسر على حصانه الضعيف ذي المظهر الجميل مستبشر الوجه، وكأنه طالب استُدعي أمام حَشْدٍ غفير ليجوز فحصًا، كان متأكدًا من أنه سيؤديه بتفوق، وكانت نظرته المشعة المبتهجة تبدو كأنها تُشهد الناس على سكونه وهدوئه أمام قصف المدفعية، مع ذلك فإن الخط المعلن عن شعور جديد خطير ظهر رغمًا عنه عند نهايتَي قوس فمه.

صرخ دينيسوف الذي كان يطير من جناح الكوكبة الأيمن إلى جناحها الأيسر متَّقدًا: أيها التلميذ الفارس ميروتوف، لِمَ تُدير رأسك إلى هناك؟ ينبغي أن تنظر إليَّ أنا.

كان فاسكا دينيسوف بوجهه الممتلئ، ورأسه المتوج بشعر أسود، وقامته القصيرة الملفوفة، ويده المعقدة القصيرة المغطاة بالشعر، المتقلصة على مقبض سيفه المشهر، لا يختلف عما كان يبدو عليه عادةً، وخصوصًا في الأمسيات، بعد أن يكون قد أفرغ زجاجتين في جوفه، غير أنه كان أكثر احمرارًا من عادته. وكان رأسه منتصبًا أشبه بالطيور التي تهمُّ بابتلاع الماء الذي شربته، وجسمه ملقًى إلى الوراء، تعصف ساقاه القصيرتان في جنبَي حصانه الأصيل لكزًا دون إشفاق، فيهدب من جناح إلى آخر، ويلقي بصوت أجش الأمْرَ بإعداد الغدارات، فجاء الرئيس الثاني «كيرتين» للقائه فوق فرسه الضخم، كان كيرستين ذو الشاربين الكبيرين وقورًا كعادته، غير أن عينيه كانتا تلتمعان أكثر من المعتاد.

قال يخاطب دينيسوف: ما فائدة إعداد الغدارات؟! إننا لن نشتبك مع العدو، وسوف ترى.

فغمغم دينيسوف مزمجرًا: يا للشيطان! لست أدري ماذا يعملون؟

ثم صاح يخاطب روستوف بعد أن لاحظ الحبور الذي على وجهه: هه يا روستوف! ها إن اليوم المنشود قد أزف!

وأشفع قوله بابتسامة مشجعة، وهو بادي السرور لشجاعة الفتى، بينما امتلأ قلب روستوف غبطة، وفي تلك اللحظة ظهر ضابط المؤخرة على الجسر، فهدب دينيسوف للقائه وقال له: اسمح لي يا صاحب السعادة أن أهاجم، سوف أقذف بهم وأبددهم!

فغمغم الجنرال وقد قطب حاجبه، وكأنه يطرد ذبابة وقحة: إنَّ الأمر كذلك! ماذا تعمل هنا حتى الآن؟ ألا ترى أن المستكشفين ينسحبون، أرجعْ رجالك.

تراجعت الكوكبة، وخرجت سليمة من مدى القذف، وجاءت كوكبة أخرى كانت تستكشف حركات العدو، فمرَّت على الجسر يتبعها لفيف من القوقازيين هم آخر من تبقَّى من الفرسان.

كانت الكوكبتان تنسحبان — بناءً على الأوامر — نحو المرتفعات، وكان الكولونيل كارل بوجدانيتش شوبرت، الذي لحق بكوكبة دينيسوف، يسير الهوينا على حصانه غير بعيد عن روستوف، وكان لا يلقي بالًا إلى الفتى، رغم أن ذلك اللقاء كان الأول بينهما، منذ جدالهما بصدد الملازم تيليانين، كان روستوف يشعر أنه — بصفته في الخدمة — تحت مطلق تصرُّف هذا الرجل الذي أهانه، والذي كان يعترف في تلك اللحظة بأخطائه التي ارتكبها حياله، فكان نظره لا يفارق كتفي الزعيم العريضتين ورأسه الأشقر وعنقه الأحمر، كان يتصور أحيانًا أن بوجدانيتش يتظاهر باللامبالاة ليختبر شجاعته «هو» روستوف، فعندئذٍ يشد قامته، ويسرِّح حوله طرفًا متحمسًا متأججًا، وأحيانًا يظن أن

الزعيم بسيره بالقرب منه، يريد أن يبرهن له على شجاعته، لكنه كان يتصور في بعض الأحيان أن الزعيم الراغب في معاقبته، سيلقي بالكوكبة في هجوم جنوبي، ليمد بعدئذٍ إلى روستوف الجريح يدًا مسترضية، ويعلن أنه نسي ما بينهما من خصومة.

هرع أحدُ الضباط المساعدين على حصانه متجهًا نحو الزعيم، كان ذلك الضابط المقبل هو جركوف الذي أصبح قوامه الممشوق معروفًا لفرسان بافلوغراد، رغم أنه منذ إقصائه عن الأركان العامة، لم يندمج بهم زمنًا طويلًا، كان يقول إنه ليس شديد الحماقة لينخرط في صفوف الفرسان، بينما يستطيع تأمين ترقيته وهو في الأركان دون عمل يُذكر؛ لذلك فقد سعى لنفسه حتى أصبح ضابطًا تابعًا للأمير باجراسيون الذي كان يقود مؤخرة الجيش، وكان في تلك اللحظة قادمًا من لدنه؛ لينقل أمرًا إلى رئيسه السابق.

قال بوجه محزون وهو يتبادل النظر مع زملائه القدماء: أيها الزعيم، لقد صدر الأمر بالتوقف وإحراق الجسر.

فسأل الكولونيل بشراسة مستعملًا اللغة الروسية الركيكة: من الذي أعطى الأمر؟

فأجاب الضابط الرسول بلهجة كلها رزانة وجِد: رباه يا كولونيل! لست أدري من الذي أعطى الأمر، كل ما أعرفه أن الأمير كلفني بأن أقول لك أن على الفرسان أن يتراجعوا على الفور، وأن يضرموا النار في الجسر.

وجاء ضابط آخر من الحاشية بعد جركوف يحمل ذلك الأمر بالذات، وجاء كذلك نيسفيتسكي الضخم الذي كان ثقل جسده الضخم يبهظ الجواد القوقازي الصغير، صاح وهو على مسافة من الزعيم: رباه يا كولونيل! قلت لك أن تحرق الجسر، ثم أراك لا تأتي أمرًا، إنهم على أشد الضيق في الأركان العامة، ينزعون شعر رءوسهم من الغيظ، ولا يفهمون شيئًا من تصرُّفك.

أصدر الزعيم أمره إلى السرية بالتوقف، دون أن تبدو العجلة على تصرفاته، وأجاب قائلًا: لقد حدثتني عن المواد المشتعلة، أما عن حَرْقِ الجسر فإنك لم تحدثني به.

كان نيسفيتسكي خلال ذلك الوقت قد أوقف مطيته، ورفع خوذته، وراح يمس شعره السابح في العرق بيده السمينة الضخمة، قال دهِشًا: كيف لم أحدثك عن إحراق الجسر يا سيدي العزيز! لِمَ إذن وضعت عليه المواد المشتعلة؟!

– عفوًا يا سيدي ضابط الأركان، إنني أولًا لست «سيدك العزيز»، وأخيرًا إنك لم تحدثني بوجوب إحراق الجسر، إنني أعرف واجبي، ومن عادتي تنفيذ الأوامر حرفيًّا، لقد قلتَ إن الجسر سوف يُحرق، أما من سيحرقه، فإنني ما كنت لأعرف ذلك بواسطة روح القدس!

قال نيسفيتسكي وهو يشير بيده دلالة على الخضوع والامتثال: هيا إن المسألة سيان!

ووقعت أبصاره على جركوف فهتف: هه جركوف، ماذا تفعل هنا؟

– مثل ما تعمل أنت، والفرق أنك مبتلٌّ — كما ترى — فهل تريد أن أعصرك؟

أما شوبرت فقد كان يشعر بجرح في كرامته نتيجة لأقوال ضابط الأركان؛ لذلك فقد استمرَّ يناقشه محتجًّا: لقد قلت لي يا سيد ضابط الأركان …

فقاطعه ضابط الحاشية قائلًا: لنجعل يا كولونيل وإلا فإن العدو سيقرِّب قطعاته، ونصبح تحت رحمته.

وصمت شوبرت مرغمًا، وراح ينقِّل طرفه بين ضابط الحاشية وجركوف وضابط الأركان الضخم، فيزداد وجهه اكفهرارًا.

قال بلهجته الوقور التي تُشعر بأنه يقوم بواجبه مهما تعرَّض لمخاصمات وتحرش: ليكن، سأحرق الجسر.

وفثأ غضبه في جنبي جواده؛ إذ راح يضغط عليهما بساقيه القويتين دون رحمة، فطار الجواد به إلى المقدمة، وهناك ألقى الأمر إلى الكوكبة الثانية، التي كان روستوف فردًا منها تحت إمرة دينيسوف، بالتراجع نحو الجسر.

فقال روستوف في سره، وهو يشعر أن قلبه قد أطبقت عليه يدٌ خفية راحت تعتصره: «هو ذاك، إنه يريد اختباري، حسنًا، سأراهن له على أنني لست جبانًا!» وراحت الدماء تضرج وجهه.

ومن جديد عاد الخط الكئيب على وجوه الخيالة المستبشرين؛ ذلك الخط الذي طبع وجوههم بالتَّجَهُّم عندما دَوَّتْ طلقات المدافع، وكان روستوف يحدج وجه خصمه وهو يتوق إلى اكتشاف أية بادرة تدعم ظنونه، غير أن نظرة الكولونيل الصارمة الوقور لم تلتقِ مرة بنظرته، ارتفع صوت الزعيم آمرًا، ورُدِّدتْ أصوات حول روستوف تقول: أسرعوا، أسرعوا!

وبعجلة فائقة، وبين رنين المهاميز وصليل السيوف وصلصلة اللجم، ترجل الفرسان عن ظهور جيادهم وهم حيارى لا يدرون ماذا يعملون، راحوا يرسمون إشارة الصليب على أنفسهم، وقد أخذ منهم الخوف لبقائهم في المؤخرة، ونسي روستوف الكولونيل، وسلَّم حصانه الصغير إلى الجندي الذي يحرس الخيول، وشعر أن قلبه يدقُّ بعنف جَنَبَات صدره، ومر دينيسوف وجسده ملقًى إلى الوراء على عادته هادبًا جواده صائحًا مشجعًا، غير أن روستوف لم يعُد يرى إلا الفرسان الذين كانوا يركضون حوله مرتبكين بمهاميزهم قارعين سيوفهم.

صاح صوت من ورائه: نقالة!

لم يفكِّر روستوف في معرفة السبب الذي من أجله تُطلب النقالة، بل راح يعدو بكل قواه محاولًا الوصول قبل سواه، غير أن قدمه زلت في الطين اللزج عند مدخل الجسر، فسقط على يديه، ومرَّ الآخرون وسبقوه.

سمع صوت الزعيم الذي كان يسير في المقدمة على صهوة جواده قرب الجسر ووجهه الوقور الطافح بالبِشر: من الجانبين أيها الرئيس.

التفت روستوف لينظر إلى خصمه، وراح يمسح يديه الملطختين بالوحول بسراويله، أراد أن يتابع الجري مقدرًا أنه كلما تقدَّم كان ذلك أفضل، غير أنَّ بوجدانيتش صاح بصوت غاضب دون أن يعرفه، أو أن ينظر إلى وجهه: من ذا الذي يجري في منتصف الجسر؟ إلى اليمين، إلى الوراء أيها الفارس التلميذ! ما فائدة التعريض للخطر أيها الرئيس؟

وأردف يخاطب دينيسوف الذي راح يتقدم ممتطيًا جواده فوق الجسر متباهيًا: ترجل يا دينيسوف.

فأجاب فاسكا دينيسوف وهو يستدير في مقعده على صهوة الجواد: إه! إن القذائف تجد دائمًا من تصطدم به!

خلال ذلك وقف نيسفيتسكي وجركوف وضابط الحاشية بعيدًا عن مرمى قذائف العدو، يراقبون تلك القبضة من الرجال بخوذاتهم الصفراء، وستراتهم الخضراء ذات الأشرطة، وسراويلهم الزرقاء، وهم ينشطون قرب الجسر، وينقِّلون طرفهم عبر النهر؛ ليراقبوا المعاطف الزرقاء التي كانت تظهر على البعد والبطاريات المنصوبة التي كان يسهُل تمييزها.

كان كل من الجنود الواقفين على الهضبة المطلة على النهر يتساءل بقلق وهو يرقب عن بُعد اقتراب المعاطف الزرقاء والحراب وقطع المدفعية: «هل يجد الفرسان الوقت الكافي لإضرام النار في الجسر؟ هل سيهاجم الفرنسيون بسرعة، ويسحقونهم تحت وابل رصاصهم؟»

قال نيسفيتسكي: سيتعرَّض الفرسان لضرب عنيف! ها إنهم باتوا تحت رحمة قذائف العدو.

فقال ضابط الحاشية ملاحظًا: لقد أخطأ إذا استصحب كل هذا العدد!

– حقًّا، إنَّ اثنين من الفتيان كانا كافِيَيْنِ.

فاعترض جركوف بلهجته التي تستثير الضحك دون أن يبدو على وجهه أنه راغب فيه: ما هذا القول يا أمير؟ رجلان! أتريد إذن أن يمر صليب القديس فلاديمير تحت أنوفنا؟ سوف يحصل ضحايا بنتيجة هذه العملية، غير أنَّ السرية كلها ستُمنح ذلك الوسام، وسيحمل بوجدانيتش شريطه، إنه يدري ماذا يعمل.

صرخ ضابط الحاشية قائلًا: هه! سيفتكون بهم الآن بطلقات الرصاص!

وراح يشير إلى الأسلحة الفرنسية التي شوهدت تُسحب من المقدمة وتُقطر بسرعة لتوجه نحو فرسان الجسر.

وظهرت فوق الوحدات العدوة التي تضمُّ المدفعية، ثلاث سحب متتابعة، ولما ردد الصدى دوي الانفجار الأول، ارتفعت فوق القطعات العدوة سحابة رابعة، ودوى انفجاران متتاليان أعقبهما ثالث.

زمجر نيسفيتسكي وكأنه يحس بألم محرق: أوه، أوه!

وأمسك بذراع ضابط الحاشية وأردف: انظر، انظر! هو ذا واحد قد سقط.

– اثنان على ما يبدو لي، أليس كذلك؟

فقال نيسفيتسكي وهو يشيح ببصره عن المشهد: لو كنت القيصر لما خضت حربًا.

حُشيت المدافع الفرنسية بسرعة، وكذلك البنادق، وتهافتت المعاطف الزرقاء بخطوات سريعة نحو النهر، وارتفعت سحبٌ أخرى، ولكن على فترات غير منتظمة، وفرقعت طلقات البنادق، غير أن نيسفيتسكي لم يستطع تمييز ما يحدث على الجسر في تلك اللحظة؛ إذ ارتفع فوقه غمام كثيف يُشعر بأن الفرسان الروسيين هناك قد نجحوا في إضرام النار، لم يعُد رماة الأعداء يطلقون النار ليمنعوا إنجاز العملية، بل لمجرد أن أسلحتهم كانت محشوة، وأن أمامهم هدفًا يطلقونها عليه، وقد أفرغوا أسلحتهم ثلاث مرات قبل أن يستطيع الفرسان الروس اللحاق بخيولهم وامتطائها، وطاشت الدفعتان الأُوليان، أما الدفعة الثالثة فقد أصابت فصيلة من الصميم، فقتلت ثلاثة من رجالها.

توقف روستوف في وسط الجسر، لا يدري ماذا يعمل؛ لأن عقلَهُ كان مشغولًا بعلاقاته مع بوجدانيتش، ولم يجد حوله أحدًا يلقاه بسيفه، وهو الذي ما كان يظن أن المعركة يمكن أن تكون خلاف ذلك، وما كان يستطيع المساهمة في إشعال النار؛ لأنه لم يكن يحمل المادة الملتهبة كالجنود الآخرين؛ لذلك فقد وقف في مكانه مترددًا حائرًا، وفجأةً سمع فرقعة تشبه سقوط جوز ناضج، ورأى الفارس القريب منه يسقط إلى الأرض مزمجرًا قرب السياج، فهرع إليه مع بعض الجنود، وعلا صياح أحدهم من جديد: نقالة!

أمسك أربعة رجال بالجريح وأنهضوه، فصاح هذا: أوه، أوه! دعوني بحق السماء.

غير أنهم حملوه، ووضعوه على النَّقَّالة.

التفت نيكولا روستوف، وراح يحدق في النهر الكبير الذي كان يضيع في الأبعاد الشاسعة، وتأمَّل السماء التي كانت الشمس تبدو فيها كالكتلة المتوهجة، بدت السماء لناظرَيه شديدة البهاء في إشراقها البهيج، وأُعجب بجلال الإشعاع الذي تعكسه الشمس، وبدا له ماء الدانوب الملتمع كالمرآة الصقيلة؛ بهيًّا رائعًا. وبدت له التلال التي تصبح قاتمة اللون، كلما ازدادت إغراقًا في البعد وراء الدير، جذابةً بهيجة، والوديانُ غامضةً، وغاباتُ الصنوبر تائهةً وسط الضباب الخفيف بمحاذاة الأفق البعيد. هناك كان السلام والسعادة. أخذ روستوف يحدِّث نفسه: «لو أنني كنت هناك فقط، إذن لَمَا طلبت شيئًا، ولَمَا رغبت في شيء مطلقًا قط. كم من سعادة أجدها في نفسي وفي هذه الشمس! بينما أصغي إلى التأوهات الأليمة المروعة تتردد بقربي. وهذه العجلة وهذا الارتباك. رباه! ها إنَّ أمرًا جديدًا قد صدر، وكل الفرسان ينفرون إلى حيث لا يعلم إلا الله، فلْأركضْ معهم إذن. ها هو ذا الموت فوق رأسي وحولي. لحظة واحدة، ولن أرى بعدها هذه الشمس، وهذه المياه، وهذا الوادي ...»

مرَّت سحابة غطت الشمس، فرأى روستوف نقالات أخرى أمامه. وعندئذٍ اتَّحد الرعب، الذي أحدثه في نفسه تَخوُّفُه من الموت، بحبه للشمس والحياة، وبدت كلها على وجهه في طابع القلق والغم، فغمغم: «آه يا رب! أنت يا من علوت في سمائك، أنقذني وصُنِّي واغفر لي!»

هرع الفرسان إلى خيولهم، فاكتسبت أصواتهم ثقة أقوى، واختفت النقالات من أمامهم، وصاح فاسكا دينيسوف في أذن روستوف: حسنًا يا صغيري، هل استنشقت رائحة البارود؟

فقال روستوف في نفسه: «هيا، لقد انتهى كل شيء، لكنني لست إلا جبانًا، نعم إنني جبان.» وزفر زفرة عميقة، وأخذ عنان جواده من الجندي الذي كان يحرس الخيل، ووضع قدمه في الركاب.

سأل دينيسوف قائلًا: ماذا كان نوع السلاح؟ أهو الرصاص أم القذائف؟

فأجاب دينيسوف: لقد كان يجمع بين كليهما، لقد قمنا بعمل باهر، ولكن يا للمهمة القذرة! حدثني عن هجوم يطربني؛ لأن في الهجوم على الأقل ما يستطيع الإنسان أن يصبَّ عليه نقمة سيفه، أما عمل كهذا، فإنني لست أدري كيف أصفه، يقذفنا العدو برصاصه، فندعه يُتم قذفه جاعلين من أنفسنا هدفًا لمقذوفاته!

ومضى دينيسوف نحو جماعة غير بعيدة عن روستوف تضم الكولونيل وَنيسفيتسكي وجركوف وضابط الحاشية.

فكر روستوف في نفسه: «إنَّ أحدًا لم يلاحظ شيئًا؛ لأن كلًّا مما اعتراني!» والحقيقة أن أحدًا لم يلاحظ شيئًا؛ لأن كل واحد كان يعرف بمحض التجربة الشعور الذي يخلعه اللقاء الأول مع النار.

قال جركوف: سوف نرفع تقديرًا بديعًا رائعًا، لن أُدهش إذا رُقيت إلى رتبة ملازم.

وقال الكولونيل بلهجة المنتصر: بلِّغ الأمير أنني أحرقت الجسر.

– وإذا سُئلتُ عن الخسائر فماذا أقول؟

فأجاب الزعيم بصوت خافت: خسارة لا تُذكر، لقد أصيب فارسان بجراح، وقُتل ثالث على الفور.

كان يعجز عن ضبط أعصابه وكتمان سروره، وبدت له الكلمة الأخيرة شديدة الجمال، حتى إنه فَاهَ بها بلهجة مرعدة والابتسامة تشع على شفتيه: قُتل فورًا.

الفصل التاسع

مهمة بولكونسكي

انثنى جيش كوتوزوف عبر وادي الدانوب يطارده بونابرت على رأس مائة ألف رجل، بينما كان تعداد الجيش الروسي لا يزيد على خمسة وثلاثين ألفًا، وكان السكان يستقبلون المتراجعين المتقهقرين بنظرات عدائية تدلُّ على أنهم لا يثقون بحلفائهم، شعر الجيش المتراجع بنقص في مئونته، فاضطرت القيادة إلى استعمال الأساليب المنظورة في مثل هذه الحالات أثناء الحرب، ولم يكن يجيب على ضغط العدو إلَّا بمعارك من مؤخرة الجيوش، الغاية منها تغطية انسحاب الجيش ومحاولة إنقاذ الأمتعة والمؤن، واشتبك الجيشان في «لامباخ» وفي «آمستيتش» و«ميلك»، وبرهن الروس في هذه المعارك عن شجاعة ومقاومة اعترف خصمهم بهما. مع ذلك فإن تلك المعارك الجريئة اليائسة ما كانت إلا لتزيد في سرعة التقهقر، وكانت الجيوش النمساوية التي نجت من هزيمة «أولم»، واستسلام جيوش ماك، والتي انضمت إلى الجيوش الروسية في برونُّو، قد انفصلت عنها، فوجد كوتوزوف نفسه على رأس وحداته الشخصية المنهوكة المتعبة، فلم يجد سببًا للتفكير في الدفاع عن فيينا. وبدلًا من الهجوم المرتقب بحسب قواعد الفنِّ الحربي الجديد المسمَّى «استراتيجية»، والذي كانت خطته قد عُرضت عليه خلال إقامته في فيينا من قِبل قيادة الأركان العليا الحليفة، فإن كوتوزوف لم يجد لزومًا لإضاعة جيشه كما أضاع ماك جيشه في «أولم»، بل رأى أن خير ما يعمله لسلامة وحداته، إنما هو الاتصال بالوحدات الروسية التي وصلت من روسيا، رغم أنَّ تلك الغاية لم تكن سهلة ميسورة وممكنة.

وفي الثامن والعشرين من تشرين الأول، توقف كوتوزوف على ضفة الدانوب اليسرى، بعد أن جعل النهر فاصلًا بينه وبين القطعات الفرنسية الرئيسية، وكانت الضفة اليسرى

محتلة من قِبل الجيش الذي يقوده مورتير،[1] وفي ٣٠ تشرين الأول، انقض كوتوزوف على جيش مورتييه وهزمه، وكسب الجيش الروسي للمرة الأولى أسلابًا؛ علَمًا ومدفعين، وأسر جنرالين، وللمرة الأولى منذ خمسة عشر يومًا، ظل الجيش الروسي خلالها يقاتل ليغطي انسحابه، تمكَّن أخيرًا أن يحتفظ بساحة المعركة، وأن يجابه العدو، ويُنزل به هزيمة منكرة، كانت وحدات الجيش متعبة، وقد غدت ثياب الأفراد أطمارًا مهلهلة، وخسرت ثلث عددها بين قتيل وجريح ومتخلف ومريض، ولما كانت المستشفيات وأبنية مدينة كريمس Krems الكبيرة المحولة إلى مشافٍ تضيق بالمرضى، ترك كوتوزوف مرضاه الآخرين والجرحى على الضفة الثانية، بعد أن سطر رسالة ناشد فيها إنسانية العدو في معاملة الجرحى والمرضى. مع ذلك، فقد جاء التوقف في تلك المدينة، والانتصار على مورتييه داعمًا لمعنويات الرجال. وراحت الشائعات المشجعة تسري في الجيش حتى بلغت الأركان العامة؛ فمن قائل أن وحدات النجدة تقترب، إلى آخر يؤكد أن النمساويين قد انتصروا بدورهم، وثالث يروِّج أن بونابرت قد استولى عليه الذعر فولى الأدبار.

ظل الأمير آندريه قرب الجنرال النمساوي شميدت طيلة المعركة التي قُتل فيها هذا الأخير، وأصيب الأمير برصاصة خدشت ذراعه بعد أن قتلت مطيته، وقد أكرمه الجنرال القائد الأعلى، فخصه بالذهاب إلى البلاط النمساوي لينقل خبر الانتصار إلى الملك، الذي انتقل مع حاشيته من فيينا التي كان الفرنسيون يهددونها، إلى برونُّو. لم يكن الأمير بولكونسكي تعِبًا، لكنه كان قلِقًا مضطربًا مُثار العواطف ليلة المعركة، كان رغم بنيته الناعمة، يحتمل التعب أكثر من أيٍّ أمتن بنيانًا منه، وقد وصل ليلتئذٍ إلى «كريمس» على صهوة جواده يحمل تقريرًا من دوختوروف للقائد الأعلى كوتوزوف الذي أرسله لساعته إلى برون، فكان الاختيار الذي يقع عليه بانتقائه رسولًا يحمل الأخبار المهمة، يبشِّر بالإضافة إلى الميزات الأخرى التي يمتاز بها ذلك الاختيار، بترقية ومستقبل لامعين للأمير الشَّابِّ.

كانت الليلة حالكة، والنجوم تلتمع على صفحة السماء، والطريق يَرْسُم خطًّا أسودَ على أديم البراري الزَّاهية اللون، التي تغطيها طبقة من الثلج الذي ظل ينهمر طيلة يوم أمس خلال المعركة، وبينما كان يقطع الطريق في عربة البريد الصغيرة، كانت أفكاره

[1] مورتير دو تريفيز ماريشال فرانسا، وُلد عام ١٧٦٨، ومات عام ١٨٣٥ ضحية الآلة القاتلة التي أعدها المتآمر فييشي Fieschi للقضاء على الملك لويس فيليب. (المترجم)

مشغولة في حوادث أمس الرهيبة، كان يستعرض أحيانًا أخطار المعركة، وعبارات الوداع التي خصَّهُ بها القائد الأعلى وزملاؤه، وأحيانًا يتمثل الأثر المفرح الذي ستحدثه أخطار المعركة والنصر الذي أُحرز. كان الأمير آندريه أمام تلك الأفكار، يشعر شعور الرجل الذي شاهد انبثاق الفجر؛ فجر سعادة ظل زمنًا طويلًا يمضه الشوق إليها حتى تحققت بعد موجة انتظار مضنية، كان إذا أغمض عينيه، خُيِّل إليه أنه يسمع صوت الطلقات النارية ودوي المدافع الذي اختلط بقعقعة العجلات وشعور النصر، وكان أحيانًا يتصور أنَّ الروسيين يدبرون فرارًا، وأنه أصيب إصابة قاتلة فمات، لكنه كان يستيقظ منتفضًا، ويتضح له بسعادة تداني سعادته في تخيلاته الأولى البهيجة، أن خيالاته ليست حقيقة، وأنها على العكس تمثل صورة معكوسة؛ لأن الفرنسيين هم الذين لاذوا بالفرار، ومن جديد كان يتمثل ظروف المعركة والجرأة الغريبة التي أظهرها خلالها، وأخيرًا أغفى وهو يهدهد تلك الأفكار الجميلة في مخيلته.

أعقب ذلك الليلَ الحالكَ ساطعَ النجومِ، صبحٌ بهيج مشع، ذابت الثلوج تحت حرارة الشمس، وراحت الخيول تخب مسرعة، بينما كانت الغابات والحقول والقرى المحيطة بالطريق، تمر أمام ناظرَيه بتشابه يربط بين مختلف تلك المشاهد، ولحق الأمير في إحدى مراحل تبديل الخيول بقافلة تضم عددًا من الجرحى الروسيين، كان رئيس القافلة متهالكًا في العربة الأولى، يسب ويصخب ويشتم جنديًّا شتائم قبيحة. كان أولئك الجرحى التعساء، شاحبي الوجوه قذرين، تحيط بأعضائهم المصابة الأربطة والضمادات، وكانوا محشورين في العربات الطويلة بمعدل ستةٍ أو أكثر في كل عربة، تهتز دارجة على الطريق الحجري، كان بعضهم يتحدثون إذ بلغت مسامع الأمير بعض عبارات باللغة الروسية، والبعض الآخر يأكلون الخبز، أما أولئك الذي كانت إصاباتهم خطيرة، فقد كانوا يتأملون — بصمت وبفضول المرضى المتواضع الصبياني — عربةَ البريد التي كانت تمرُّ بهم مسرعة وتتجاوزهم.

أوقف الأمير العربة، وسأل أحد الجرحى عن المعركة التي أصيب خلالها مع رفاقه، فأجاب الجندي: لقد جُرحنا أول أمس في الدانوب.

فأخرج الأمير حافظة نقوده، وأعطى الجندي ثلاث قطع ذهبية، وقال للضابط الذي اقترب منه في تلك اللحظة: إنَّ هذا المال للجميع، تمالكوا قواكم يا أولادي، فإن أمامنا كثيرًا مما نعمل.

سأل رئيس القافلة متلهفًا على الدخول في محادثة: حسنًا يا سيدي الضابط، ما هي آخر الأخبار؟

فهتف يجيب بعد أن أصدر أمره لسائق عربته بالمسير: جيدة.

وراحت العربة تبتعد بالأمير متجاوزة قافلة الجرحى.

كان الظلام مخيمًا عندما دخل الأمير برون، وكانت فوانيس الشوارع مضاءة والأنوار تشع من واجهات الدكاكين ومن وراء النوافذ المرتفعة على جانبي الطريق، وكانت العربات الأنيقة تدرج على أرض الشارع المبلطة محدثة قعقعة ودويًّا، شعر الأمير فجأةً أنه مندمج في ذلك الوسط الجذاب الذي يأخذ بمجامع قلوب العسكريين الوافدين من ساحات القتال، كانت تلك المرحلة الطويلة التي قطعها، وليلة الأرق التي مرت به، عديمة الأثر في أعصابه، فلما اقترب من القصر شعر بنشاط يفوق نشاطه بالأمس، كانت عيناه وحدهما تشعان ببريق محموم، وأفكاره تترى وتتلاحق بوضوح وسرعة خارقين، استعاد في ذاكرته أدق تفاصيل المعركة، فلم تكن تلك التفاصيل غامضة مشوشة، بل كانت واضحة دقيقة وضوح تقرير جدير بأن يُرفع إلى مقام الإمبراطور فرانسوا، أخذ يشعر شعورًا مُسبقًا بالأسئلة العريضة التي ستُطرح عليه، والأجوبة التي سيقدمها، راح يفكر في أنه سيدخل إلى حيث الإمبراطور فور إعلان اسمه، لكنه عند مدخل القصر، التقى بموظف هرع للقائه فلما عرف أنه رسول يحمل نبأ، قاده إلى باب آخر غير مدخل الشرف الذي ولجه من قبل.

قال له الموظف: اتبع الممشى، واستدر إلى اليمين، فستجد هناك الضابط المساعد المنوط به أمر الخدمة في هذه الساعة، وهو الذي سيدخلك إلى مكتب وزير الحربية.

امتثل الأمير، ورجاه الضابط المنوب أن ينتظر لحظة ريثما يحمل النبأ إلى وزير الحربية، وعاد بعد خمس دقائق ينحني أمام الأمير انحناءة عامرة بالاحترام، ويقوده خلال ممشًى إلى مكتب الوزير، والظاهر أنَّ الضابط المنوب أراد بإبدائه مثل ذلك التأدب حيال الرسول الروسي، أن يحبط كل محاولة لنبذ الرسميات جانبًا، وكلما اقترب الأمير من مكتب الوزير، حلَّ شعور الغضب محل التفاؤل والاستبشار، تحول ذلك الشعور بالغضب إلى كراهية واشمئزاز ليس لهما ما يبررهما، غير أن شعور الأمير المبتكر، استطاع أنْ يقدم له أسبابًا وجيهةً، تبرر كراهيته للضابط والوزير، كان يحدِّث نفسه مبررًا شعوره: «لا شك أن الذين لم يستنشقوا رائحة البارود يجدون أن الظفر سهل المنازل!» وعلى هذا، فإنه لما دخل إلى مكتب الوزير، كانت في عينيه نظرة محتقرة، وكانت خطواته قد أصبحت بطيئة متثاقلة، وازدادت كراهيته عندما وجد أن الوزير لبث دقيقتين كاملتين منشغلًا عنه مُغْفلًا وجوده، كان هذا جالسًا وراء منضدة كبيرة بين مشعلين ضخمين من الشمع، ورأسه الأصلع بصدغيه الرماديين يلتمع تحت الضوء، كان يقرأ أوراقًا يسطر

عليها ملاحظاته بقلم الرصاص، ظل منكبًّا على القراءة عندما فُتح الباب، وعلت خطوات الداخلين وباتت مسموعة.

قال الوزير لضابطه المساعد: خُذْ هذا وانقله إلى من يلزم.

ولم يبدُ عليه أنه شاعر بوجود الرسول.

شعر الأمير آندريه أن عمليات كوتوزوف لم تكن موضع عناية الوزير الرئيسية، وأن هذا كان يتعمد استصغار شأنه، فقال الأمير في سره: «مع ذلك، إنني لا أبالي.» أزاح الوزير الأوراق الأخرى وسوَّى منها رزمة بعناية، ثم رفع رأسه، كانت سحنته الساطعة بالذكاء تنبئ بشيء من العبقرية، لكنه عندما استدار نحو بولكونسكي، اختفت تلك المعالم العبقرية الصارمة بحكم عادة مصطنعة، شاعت ابتسامة بلهاء على وجهه؛ ابتسامة طافحة بالخبث، عاجزة عن إخفاء ذلك المكر رغم مهمة صاحبها التي تجعله يستقبل يوميًّا عديدًا من الملتمسين.

سأل الوزير: أأنت قادم من قِبل الجنرال فيلد ماريشال كوتوزوف؟ هل وراءك أخبار طيبة؟ هل تقابلتم مع مورتييه؟ وانتصرتم؟ لقد كان الانتصار في حينه!

وفض الرسالة التي كان كوتوزوف قد أرسلها إليه شخصيًّا. وبدا فجأةً فريسة لكرب شديد، فهتف بالألمانية: آه يا رب، رباه! «شميدت»! يا للتعاسة، يا للتعاسة!

وبعد أنْ قرأ الرسالة وضعها على المنضدة، وراح يتأمل الأمير آندريه بنظرة ساهمة، قال: آه، يا للتعاسة! أتقول إنَّ المسألة حاسمة؟ مع ذلك فقد استطاع مورتييه الإفلات.

وصمت فترة مستغرقًا في تفكيره ثم أردف: سرني أن حملت أخبارًا طيبة، غير أن موت شميدت يجعلنا نعتبر أننا دفعنا ثمن الانتصار غاليًا. إن جلالته سيرغب في لقائك حقًّا ولكن ليس اليوم، إنني أشكرك، اذهب واسترح، ودعني أراك بعد الاحتفال عند المخرج، على كل حال سوف أُخطرك.

واستعاد ضحكته البلهاء التي أفلتت منه خلال الحديث، وقال وهو ينحني انحناءة خفيفة: إلى اللقاء وألف شكر، إن جلالته سيرغب في رؤيتك ولا شك.

ولما خرج الأمير آندريه من القصر، شعر أنَّ كل اهتمامه وابتهاجه بالنصر الذي أحرزته القوات الروسية قد تبخر، لقد أعطى ذلك الكنز إلى وزير الحربية ومساعده المتكلف، نعم لقد ائتمن على الكنز أيديًا لا تستحقه، اتجهت أفكاره وجهة أخرى، وأصبحت المعركة في خياله ذكريات شاحبة قديمة.

الفصل العاشر

بيليبين

حلَّ الأمير آندريه في برونُّو عند صديقه الدبلوماسي الروسي بيليبين، قال هذا وهو يستقبله: آه عزيزي الأمير، لا شيء أمتع عندي من لقائك!

وأمر خادمه فرانز أنْ يحمل أمتعة الأمير إلى غرفة نوم السياسي، استطرد يخاطب الأمير: إذن يا عزيزي، لقد جئت تحمل نبأ النصر؟ رائع! أما أنا فإنني مريض كما ترى.

وبعد أن اغتسل الأمير آندره وأبدل ثيابه، دخل إلى مكتب الدبلوماسي الفخم؛ حيث كانت تنتظره أكلة خفيفة، جلس إلى المائدة بينما انتحى بيليبين مكانًا قرب الموقد.

كان بولكونسكي يشعر بانطلاق بهيج عندما عاد إلى الجو الناعم الرائع الذي اعتاد على مثله منذ نعومة أظفاره، خصوصًا وأنه كان محرومًا من كل وسائل الرفاه والراحة طيلة سفره وخلال مختلف مراحل الغزوة، ثم إنَّ ذلك أثَّر في نفسه أبلغ الأثر، خصوصًا بعد اللقاء الذي وقع بينه وبين الوزير، فكان التحدث باللغة الروسية، أو على الأقل التحدث مع روسي ولو كان باللغة الفرنسية، روسي يشاطر مواطنيه، ولا شك الكراهية العامة التي يحسون بها نحو النمساويين، يخفف بعضًا مما في نفسه.

كان بيليبين في الخامسة والثلاثين من عمره تقريبًا، عزبًا، ومن بيئة الأمير آندريه ووسطه، وكانت علاقاته في المجتمع الراقي في فيينا تماثل العلاقات التي كانت له في بيترسبورج، وقد شعر بولكونسكي بذلك إبان زيارته لفيينا بصحبة القائد الأعلى كوتوزوف، فإذا كان الأمير آندريه يتوقع لنفسه مستقبلًا باهرًا في الجيش، فإن بيليبين كان ينتظره مستقبل رائع كذلك في مضمار السياسة، كان شابًّا حقيقةً، لكنه لم يكن فنيًّا في أجواء السياسة؛ إذ إنه مارس هذا العمل، وهو في السادسة عشرة من عمره، وبدأ في باريز ثمَّ «كوبنهاج»، وهو الآن يشغل مركزًا لامعًا في فيينا، مركزًا حساسًا مهمًّا، وكان السفير الروسي والوزير المفوض للإمبراطورية الروسية يقدرانه حق قدره، ذلك أن بيليبين

لم يكن من أولئك السياسيين الكثيرين الذين يعتقدون أن النجاح في الحياة السياسية رهين بالصفات السلبية التي يجب أنْ يتمتع بها الدبلوماسي، وبالامتناع عن بعض الأمور، والتحدث باللغة الفرنسية بطلاقة، بل كان من أولئك الذين يحبون العمل ويجيدونه، وكان رغم كسله يُمضي لياليَ عديدة وراء طاولة العمل، كان ينجز عمله ويتمَّه بنجاح مهما كان لون ذلك العمل ونوعه، وكان ما يهمه في الأمور ما يجيب منها على «كيف» وليس على «لماذا»، وكان الفن الدبلوماسي يشغل حيزًا ضيقًا في نفسه، لكنه كان دءوبًا على إعداد مذكرة بدقةٍ، وبعبارات منتقاة وفن، حريصًا على إبراز هذه الصفات في كل المخابرات والعلاقات الخطية، فكان إلى جانب براعته في الإنشاء، يُشعر من حوله بتفوقه في تصرفاته وعلاقاته مع الأوساط الرَّاقِية المرموقة.

كان بيليبين ولوعًا بالحديث ولعه بالعمل، شريطةَ أنْ يكون ذلك الحديث فكريًّا عاليًا، فكان في المجتمعات لا يتحدث إلَّا إذا أُتيحت له الفرص لإبراز ملاحظاته العبقريَّة على موضوعٍ ما، فلا يتحدث إلَّا إذا سار الحديث وفق هواه، وكان يرصع حديثه بعبارات بديعية متقنة الصياغة سهلة الفهم، كان يُهيِّئُها عامدًا في مكتبه كما يبدو؛ لتصبح سهلة النقل، فيتاح للأشخاص البارزين في المجتمع وللمزهوين منهم، نقلها من بهو إلى آخر، والحقيقة أن كلمات بيليبين كانت تؤخذ في كل أبهاء فينا؛ حيث كان تأثيرها شديد الوضوح في «الأمور الهامة».

كان وجهه هزيلًا أصفر وهِنًا، تقطعه غضون عميقة، وكان شديد العناية بنظافة وجهه وجسده، وكانت حركات تلك الغضون هي أبرز صفات ذلك الوجه؛ فكانت تارةً تقطع جبينه أفقيًّا، بينما يكون حاجباه في أقصى ما يستطيعان بلوغه من ارتفاع، وأحيانًا أخرى تظهر على خديه بينما يكون حاجباه هابطين، وكانت عيناه الصغيرتان الغائرتان في محجريهما، تنظران إلى المتحدث نظرة صريحة وديعة.

قال يحدِّث الأمير: حسنًا، قُصَّ عليَّ الآن مشاريعك.

فقص بولكونسكي بتواضع تام، ودون أن يشير إلى دوره مطلقًا، تفاصيل المسألة التي ساهم فيها، واللقاء الذي خصه به وزير الحربية، وقال معقبًا: لقد تلقَّوني مع الخبر الهام الذي أحمله كما يُستقبل الكلب العائد من لعبة المطاردة.

فابتسم بيليبين، وانبسطت أسارير وجهه، وقال وهو يتأمل أظفاره عن بُعد، ويغمز بعينه اليسرى: مع ذلك يا عزيزي، فإنني رغم الحب الذي أُكِنُّه للجيش الروسي الأورثوذكسي، أعترف بأن انتصاركم لم يكن من أروع الانتصارات.

واستمر يتحدث بالفرنسية مستعملًا أحيانًا بضع كلمات من لغته الأصلية، كلما أراد أن يضفي على جملةٍ ما طابعًا خاصًّا من الاحتقار، أردف يقول: قُل لي، لقد انقضضتم بكل جيشكم على فيلق مورتييه التعس، مع ذلك فقد استطاع مورتييه ذاك أنْ يَتسلَّل من بين أصابعكم، ثم إنكم تسمُّون هذا نصرًا!

فأجاب الأمير آندريه: إنه على كل حال أحسن من موقعة «أولم»، إذا جاز لنا أنْ نقول ذلك دون تَبجُّح.

– لِمَ لم تأسروا ماريشالًا واحدًا، واحدًا فقط؟

– لأن كلَّ شيء لا يحدث في الحرب كما يتوقعه الإنسان، والحرب والاستعراضات لا يمكن أن يتساويا، لقد كنا نفكر أن نهاجم مؤخرته حوالي الساعة السابعة صباحًا، مع أننا لم نبلغ مكانه في الخامسة مساءً.

سأل بيليبين بابتسامة: ولماذا لم تصلوا في الساعة السابعة؟ كان ينبغي أنْ تصلوا في الوقت المقرر، نعم في الوقت المقرر.

فأجاب الأمير آندريه بمثل لهجته: ولماذا إذن لم تقنع بونابرت عن طريق الدبلوماسيات بإخلاء جينس؟

فقاطعه بيليبين قائلًا: نعم، إنني أعترف بأن أسرَ الماريشالات من أسهل الأمور في نظر من لا يبارح زاويته قرب النار، أليس هذا ما تفكر فيه؟ إنك على حق في تفكيرك، مع ذلك لِمَ لم تأسروا ماريشالًا؟ لا تُدهش إذا قلت لك إن وزير الحربية وصاحب الجلالة الإمبراطور والملك فرانسوا لا يُبدون سرورهم بغير ذلك، أما أنا — وأنا الموظف البسيط في السفارة الروسية — فإنني لا أُسَرُّ، بل ولا أجد حاجة لإظهار سروري، إذا أعطيت خادمي فرانز ثلاثة ماركات، وأرسلته للقاء صديقته في حديقة الألعاب؛ ذلك أنَّ المبلغ لا يمكن أنْ يكون كافيًا لتأمين حاجات فرانز.

وبينما كان جبينه يبدِّد الأخاديد التي ارتسمت عليه، كانت عيناه تتغللان في أعماق الأمير آندريه، فقال هذا: دعني يا عزيزي ألقي عليك بدوري سؤالًا واحدًا، إنَّ دقائق الدبلوماسية تفوق فهمي الضعيف واستيعابي للأمور، فكيف يخسر ماك جيشًا كاملًا، ولا يعطي الأرشيدوقان فرديناند وشارل أية دلالة على حُسن تصرفهما، بل يجمعان الخطأ إلى الخطأ، في حين أن كوتوزوف وحده يتفوق، فيعكر صفو الفرنسيين، ومع ذلك لا يجد وزير الحربية سببًا يدفعه للتعرف على تفاصيل المعركة؟!

– إنَّ هذا صحيح، ولكن يا عزيزي: اهتف ما شئت للقيصر ولروسيا وللدين! إنَّ كل هذا جميل وبديع، لكن أية مصلحة لنا نحن في انتصاراتكم؟ وأقصد أية مصلحة

وفائدة يجنيها البلاط النمساوي؟ أحمل إليهم خبر انتصار واحد من الأرشيدوقين شارل أو فرديناند — وكل أرشيدوق يساوي الآخر — حتى ولو كان انتصارهم على فريق من رجال الإطفاء الذين يرافقون بونابرت، وعندئذٍ تراهم يحتفلون بالخبر بقصف المدافع، بينما يبدو أنكم في انتصاركم هذا لم تنتزعوا الغار إلا لتزعجوهم به، إن الأرشيدوق شارل لا يتحرك والأرشيدوق فرديناند تغمره المهانة، وأنتم تتركون فيينا لمصيرها المحزن وكأنكم تقولون: «إنَّ الله الرحيم يحميكم وذلك يكفي. فليبارككم وليبارك عاصمتكم!» وكان لديهم جنرال واحد عزيز عليهم وهو شميدت، فعرَّضتموه للرصاص الذي قتله، وجئتم بعد ذلك تزعمون أنكم انتصرتم! فكر في الأمر، فكر وأيدني في القول: إن رسالتك كانت شديدةَ الأسى، أليمةَ الوقع، أليس كذلك؟ إنها تشبه العمل المقصود، نعم العمل المقصود، ثم لو أنكم ربحتم معركة، أو ربحها الأرشيدوق شارل بنفسه، فإن ذلك لن يغيِّر سير الأمور العام؛ إذ ما فائدة هذا النصر؟ لقد قُضي الأمرُ، وأصبحت فيينا الآن محتلةً من قِبل الفرنسيين.

– كيف محتلة؟ هل دخل الفرنسيون فيينا؟

– بلا شك، وبونابرت يقطن الآن في قصر شونبرون، بينما سيأخذ عزيزنا الكونت «واربنا» أوامره قريبًا.

شعر بولكونسكي بعجزه عن إدراك حقيقة الأمور التي تُعرض على مسامعه؛ إذ كانت وعثاء السفر وبرودة اللقاء الذي استُقبل بها، والطعام الفاخر الذي التهمه، كافية لإخماد شعوره، استرسل بيليبين قائلًا: لقد قابلت هذا الصباح الكونت ليشتنفلس، فأعطاني رسالةً جاء فيها وصفٌ مسهبٌ لدخول الفرنسيين إلى فيينا دخول الظافرين، لقد دخلها الأمير مورا[1] وكل الحاشية؛ لذلك فإن انتصاركم — كما ترى — فقد طابعه، فلا يمكن والحالة هذه أن تُستقبل استقبال المنقذين.

فقال الأمير آندريه، الذي فهم أخيرًا ضآلة أهمية معركة كريمس إزاء احتلال العاصمة: إن ذلك سيان عندي شخصيًّا، ولكن كيف أُخذت فيينا؟! أين الجسر، وأقصد

[1] يواكيم مورا، صهر بونابرت، وزوج كارولين بونابرت، كان ماريشال فرنسا، وُلِدَ عام ١٧٦٧، وأصبح ملك نابولي عام ١٨٠٨ حتى عام ١٨١٥، واضطرَّ أنْ يتخلى عن ملكه، فلما حاول استعادته، سُجن وأُعدم رميًا بالرصاص عام ١٨١٥. (المترجم)

رأس الجسر العتيد، والأمير دويرسبيرج العظيم؟ أعتقد أنه كان يدافع عن المدينة إذا آمنا بالشائعات التي راجت عندنا.

– إنَّ الأمير دويرسبيرج من هذا الجانب من النهر وهو يدافع عنا نحن. صحيح أنه أسوأ دفاع، ولكنه مع ذلك يحمينا، أمَّا فيينا، فإنها من الجانب الآخر، صحيح أن الجسر لم يسلَّم بعد، لكني لا أميل إلى الظن بأنه سيظل في أيدينا، مع العلم أن الألغام مبثوثة فيه، وأن الأمر بنفسه قد صدر، ولو أن الأمور سارت على غير ذلك، لكُنا نحن في جبال بوهيميا منذ زمن طويل، ولأُخذ جيشكم بين نارين، ولقُضي عليه أسوأ قضاء.

فقال الأمير آندريه: إن ذلك لا يعني على أية حال انتهاء الغزوة.

– بل إنها انتهت إذا شئت أن تصدق رأيي المتواضع، وهذا هو رأي ذوي الرءوس الضخمة هنا، وإن كانوا لا يجرءون على الإفصاح عنه، سوف يقع ما تنبأت بوقوعه من قبل؛ إن مذبحتكم في دورنستين لن تُبدل من الأمر شيئًا، وبصورة عامة لن يكون البارود والنار صاحبَي الكلمة الأخيرة، بل إن الكلمة ستكون للذين اخترعوا البارود والنار.

وبسط بيليبين جبينه بعد أن نجح في تحرير واحدة من عباراته المنتقاة، وصمت برهة ثم أردف: إن كل شيء متوقف على مفاوضات برلين بين ملك بروسيا والإمبراطور ألكسندر، فإذا دخلت بروسيا في حلفنا، شددنا أزر النمسا، وعادت الحرب من جديد، أما إذا رفضت، فلا يبقى إلا الاتفاق على انتقاء المدينة التي ستُسلم للعدو المكتسح.

هتف الأمير آندريه فجأةً، وهو يقبض أصابع يده الرقيقة، ويضرب بها المائدة: يا للعبقرية المدهشة! ويا للرجل السعيد!

قال بيليبين وقد عاد جبينه يتجعد دلالة على أن كلمة أخرى من كلماته ستجد مكانها المفضل في سياق الحديث: بونابرت؟

ثم كرر القول وهو يضغط على المقطع الأول: بونابرت؟ إنه الآن يُشرِّع في قصر شوبنرون قوانينَ جديدةً لتطبق في النمسا، وأرى أن يُحذف من اسمه حرف «الياء» الذي كان في المقطع الأول ليصبح اسمه بونابرت فقط بعد أن كان يُدعى بيونابارت.

فقال بولكونسكي: دعك من المزاح، هل تعتقد حقيقةً أن هذه الحرب ستنتهي؟

– إليك رأيي، إن النمسا التي لم تَعْتَد مثل هذه الحال، ستحاول الانتقام لكرامتها؛ إذ يقال إن المقاطعات قد دُمرت؛ لأن الجيش الأورثوذوكسي مخيف في أعمال السلب، ثم إنَّ الجيش قد هُزم، والعاصمة سُلِّمت، كل ذلك إكرامًا لجمال عيني جلالة ملك سردينيا؛ لذلك يا عزيزي — وأرجو أن يكون الحديث بيننا — أعتقد أنهم يخدعوننا؛ لأنني أشم رائحة مفاوضات بين النمساويين والفرنسيين، ومشاريع سرية للسلم وللصلح المنفرد.

فقال الأمير آندريه: إن ذلك شديد البشاعة! لا يمكن أن يكون ذلك!

فقال بيليبين: من يعش يرَ.

وبسط نهائيًّا تجاعيد جبينه معربًا بذلك عن رغبته في إنهاء الحديث.

ولما اعتكف الأمير آندريه في غرفته التي وُضعت تحت تصرُّفه، واستلقى على الأغطية النظيفة وفراش الريش والوسائد المعطرة، شعر أن المعركة التي حمل أخبارها قديمة العهد عريقة في القِدم، كان ما يشغل ذهنه هو التحالف مع بروسيا وخيانة النمسا وانتصار نابليون الجديد، واستعراض الغد الذي سيمثُل بعده بين يدي الإمبراطور فرانسوا.

لم يكد يطبق عينيه حتى عاد إلى أذنيه قصف المدافع وقعقعة البنادق ودوي العجلات، ومن جديد عاد يرى القناصة ينحدرون من أعلى التل وهم يطلقون بنادقهم، وشعر بقلبه يدق عنيفًا، وأنه تقدَّم إلى الأمام مع «شميدت» والرصاص يصفر حول رأسه صفيرًا جميلًا، فاستسلم للنوم بسرور عنيف متأجج مضاعف لم يشعر به منذ طفولته.

واستيقظ بعد ذلك، فقال لنفسه بابتهاج والابتسامة البريئة مرتسمة على شفتيه: «إه نعم، لقد حصل كل هذا!» وعاد يستغرق في نوم عميق.

الفصل الحادي عشر

الملك فرانسوا

استيقظ متأخرًا، وراح يرتب ذكرياته، تذكَّر بادئ الأمر أنَّ عليه أنْ يتقدَّم ليمثُل بين يدي الإمبراطور فرانسوا، ثم تذكَّر وزير الحربية وتابِعه البشوش الأنيس، وبيليبين وحديثهما أمس. ارتدى ثوبه الأنيق الذي لم يستطع منذ زمن طويل أن يرفل فيه لافتقاره للمناسبة الملائمة، فبدا جميلًا أنيقًا نشيطًا رغم ذراعه المعصوب إلى عنقه، ودخل على بيليبين، فرأى هناك أربعة رجال من السلك السياسي، عرف منهم الأمير هيبوليت كوراجين؛ وهو أحد أمناء السر في السفارة، فقدَّمه بيليبين إلى الآخرين.

كان أولئك السادة الشبان الأرستقراطيون الأغنياء الأنيقون، يشكِّلون في برون، كما كانوا في مشينيا، حلقةً خاصة كان بيليبين يتزعمها ويسمِّيها «جماعتنا»، كانت تلك الجماعة تضمُّ السياسيين وحدهم، مع ذلك فقد كان أفرادها لا يأبهون بالسياسة ولا بالحرب، كانوا يكرسون جهودهم للحياة العامة الرَّاقية، ولبعض العلاقات النسائية ومشاكل المستقبل، استقبلوا الأمير آندريه كواحد منهم في الظاهر، وهو الشرف الذي قلَّ أن يُضْفُوه على أحد، وجهوا إليه عددًا من الأسئلة المهذبة عن حالة الجيش وعن المعركة الأخيرة؛ مما مهَّد الحديث بينهم وبين الأمير، ثم تشعَّب الحديث وتطرَّق إلى نواحٍ عديدة، حتى أصبح ثرثرة ولغطًا كالذي يدور عادةً في الأبهاء والأندية.

قال أحدهم يتحدث عن خطبٍ نزل بأحد زملائه: إن أجمل ما في الموضوع هو أن الوزير المفوض قال له بالذات: إن نقله إلى لندن يُعتبر ترقية، وإن عليه أن ينظر إلى الموضوع من تلك الزاوية، ولكم أن تتصوروا ما اعترى قسمات وجهه من تغييرات، وهو يرى السخرية تُقذف في وجهه على هذا الشكل!

فقال آخر: كلَّا، إن أخطر ما في الأمر هو تصرُّف كوراجين بالمقابل، إنني أسلمكم أيها السادة هذا «الدون جوان»، إنه يرى صديقًا في البؤس، فينتهز تلك الفرصة ليجر إلى نفسه نفعًا! يا له من رجل مخيف!

إن الأمير هيبوليت كان قابعًا خلال ذلك على أريكة من طراز فولتير، وقد رفع ساقيه، فوضعهما على مسندي الأريكة، قال وهو ينفجر ضاحكًا: حدثني عن هذا ...

فهتفت أصوات متعددة تقول: أوه يا دون جوان! أوه أيها المغوي!

قال بيليبين: إنك تجهل ولا شك يا بولكونسكي، أن كل الفظاعات التي ارتكبها الجيش الفرنسي — كدت أقول الجيش الروسي — لا تُعتبر أمرًا مذكورًا إذا قيست بالتدمير الذي يحدثه هذا الرجل بين الجنس اللطيف.

فقاطعه الأمير هيبوليت قائلًا، وهو يحدق في ساقيه المرفوعتين على جانبي الأريكة خلال نظارته: إن المرأة هي رفيقة الرجل.

فانفجر بيليبين و«جماعتنا» ضاحكين، وأدرك الأمير آندره أن هيبوليت هذا — الذي كانت تصرفاته حيال زوجته عند انتهاء حفلة آنيت شيرر قد أثارت، ولشدة خجله، دوافعَ الغيرة في نفسه — ليس إلا مهرجًا يسخر منه أصدقاؤه المجتمعون.

قال بيليبين يهمس في أذن الأمير آندره: ينبغي أن أسليك على حساب كوراجين، إنه لا يقدَّر بثمن عندما يتحدث عن السياسة، سوف ترى بنفسك مسحة الوقار التي ستعلو وجهه.

وجلس قرب هيبوليت، واستجمع غضون جبهته، ودفع الشاب بلباقة نحو حديث السياسة، بينما تجمهر بولكونسكي والآخرون حولهما.

شرع هيبوليت يقول وهو يلقي نظرة دائرية شملت من حوله كلهم: إن مجلس وزراء برلين لا يمكن أن يعبِّر عن رغبة في التحالف، دون أن يعبِّر ... كما جاء في تعليماته الأخيرة. إنكم تفهمون، إنكم تفهمون. ثم إذا كان صاحب الجلالة الإمبراطور لا يناقض مبدأ تحالفنا ...

– انتظر، إنني أفرغ بعد ... إنني أميل إلى الاعتقاد أن التدخل أقوى من عدم التدخل ... و... (وصمت برهة) لا يمكن أن يعزى الأمر إلى عدم تلقِّي برقيتنا المؤرخة في ٢٨ تشرين الأول، إن الأمر سينتهي هكذا.

وترك ذراع بولكونسكي؛ دلالة على أنه قال كل ما كان يريد قوله.

هتف بيليبين وقد انتصبت ذؤابة شعره دلالة على الرضى وانبساط أساريره: آه يا ديموستين،[١] إنني أعرفك من الحصاة التي خبأتها في فمك الذهبي!

أغرق السامعون في الضحك، وقد سبقهم هيبوليت نفسه، وطغت قهقهته على ضحكاتهم، كان يضحك بانشراح غريب، يكاد يكتم أنفاسه رغم محاولاته الفاشلة في كتم تلك الموجة المحمومة الهوجاء من الضحك، التي أبدلت أساريره الجامدة في أغلب الأحيان.

قال بيليبين بعد أن خفَّت حدة الضحك: والآن أيها السادة، أصغوا إلى بولكونسكي ضيفي، وإنني عازم على إشراكه معنا في مباهج مدينتنا الطيبة، ولو أننا كنَّا في فيينا، لاختلف الأمر وكان ميسورًا، أما هنا، في هذا الحجر الملعون الكئيب، فإن الأمر أكثر صعوبة مما يحملني على طلب العون منكم، ينبغي أن نطلعه على أجمل ما في حياة برونُّو من جمال ومتع؛ تعهَّدوا تطويفه على المسارح، وأتعهد أنا بتعريفه على الطبقات الرَّاقية، وأنت يا هيبوليت، فإنك — بديهيًّا — ستقوم بواجبك حياله من الناحية النسائية.

قال واحد من «جماعتنا» وهو يطلق قُبلة على أطراف أصابعه: ينبغي أن تقدِّمه إلى أميلي، إنها دُرة نادرة!

فأردف بيليبين: والخلاصة، ينبغي أن نعيد هذا الجندي الدموي إلى حظيرة العواطف الإنسانية.

فقال آندره وهو يلقي نظرة على ساعته: اعذروني أيها السادة، إنني لن أستطيع — ولا شك — أن أفيد من حسن التفاتتكم؛ إذ ينبغي أن أغادركم الآن.

– وإلى أين تذهب؟

– إلى الإمبراطور.

– أوه! أوه! أوه!

– حسنًا، الوداع يا بولكونسكي! الوداع أيها الأمير! عُد مبكرًا لتناول الطعام، إننا سننتظرك.

---

[١] ديموستين: أشهر خطباء أثينا (٣٨٤–٣٢٢ قبل الميلاد)، كرَّس نفسه طيلة خمسة عشر عامًا لمقاومة فيليب الماسيدواني الذي كان يريد استعباد وطنه، فألقى خطابات شهيرة خالدة ضده، وساهم في معركة شيرونيه، واستمر يكافح بشجاعة بعد موت فيليب، وله تاريخ حافل يشهد ببلاغته وبيانه الرائع، وقد اضطرَّ — سعيًا وراء تحسين صوته وتقوية صدره — أن يكافح ضد نفسه كفاحًا رائعًا، فكان يمضي إلى شاطئ البحر، فيحشو فمه بالحصى، ويتحدث بصوت مرتفع، وكأنه يخطب في جمهور محتشد! ومن هنا وردت التورية في جملة بيليبين في النص، والمراد بها التهكم على كوراجين. (المترجم)

ورافقه بيليبين إلى الرَّدهة وقال له: حاول أثناء مقابلتك مع الإمبراطور أن تضفي أكبر قسط ممكن من المديح على مصلحة التموين وإدارة المراحل.

فأجاب الأمير باسمًا: إنني أودُّ ذلك من صميم نفسي، لكنني عاجز عن ذلك؛ لأن ضميري والحقيقة يَأْبيانِه.

– على كلٍّ حال، ابذل ما بوسعك، وتحدَّث أطول مدة ممكنة، إنه مغرم بالمقابلات، لكنه لا يحب أن يتحدث بنفسه؛ لأنه لا يتقن الحديث، سوف تتأكد من ذلك بنفسك.

الفصل الثاني عشر

جسر تابور

اكتفى الإمبراطور فرانسوا خلال العرض العسكري بإلقاء نظرة مترددة مختلسة على الأمير آندريه الذي كان يشغل مكانًا، احتُجز له في عداد مقاعد الضباط النمساويين، أعقبها بإيماءة من رأسه الطويل، غير أنَّ الضابط المساعد الذي استقبل الأمير بالأمس بتلك الحفاوة والبشاشة، جاءه بعد تلك الحفلة، وحمل إليه بمزيد من التأدب نبأ رغبة جلالته في مقابلته، واستقبله الإمبراطور وهو واقف في منتصف مكتبه، وقبل أن ينطق بكلمة، تبيَّن الأمير آندريه مدى صدق أقوال صديقه بيليبين، وأذهله مظهر الإمبراطور المرتبك الذي كان لا يعرف ما يقول، ولا يستطيع منع الدماء من التصاعد إلى وجنتيه.

سأله الإمبراطور أخيرًا بشيء من التلهف: قُل لي، متى بدأت المعركة؟

فأجابه الأمير آندريه على سؤاله، وأعقب الجواب عدد من الأسئلة التي لا تقل تفاهة عن السؤال الأول: «كيف حال كوتوزوف؟ هل ترك «كريمس» منذ زمن طويل؟» ... إلخ. وكانت لهجة الإمبراطور تنبئ بأن همَّه الأول هو طرح عدد كبير من الأسئلة، أما الأجوبة، فقد كان واضحًا أنه لا يأبه لها ولا يهتم بها.

سأل من جديد: في أية ساعة بدأت المعركة؟

فأجاب بولكونسكي بحماس: لا أستطيع أن أحدِّدَ لجلالتكم بالدقة الساعةَ التي بدأت فيها المعركة على طول جبهة القطعات، لكنني متأكد من أن القتال في «دورنستن»، حيث كنت، بدأ في السادسة مساءً.

وأمل بولكونسكي في أن يستطيع سرد وصف حقيقي للمعارك التي حضرها، وأن يعيد على مسامع الإمبراطور ما هيأه من قبل من جمل لهذه المناسبة، غير أنَّ الإمبراطور قاطعه باسمًا وقال: كم من الأميال؟

– من أين يا صاحب الجلالة وإلى أين؟

– من درونستن إلى كريمس؟

– ثلاثة أميال ونصف يا صاحب الجلالة.

– هل ترك الفرنسيون الشاطئ الأيسر؟

– إن تقارير رقبائنا تفيد بأن آخر الفرنسيين اجتاز النهر ليلًا على نقالات.

– هل هناك علف كافٍ في كريمس؟

– لم يقدموا لنا الكمية التي …

فقاطعه الإمبراطور مرة ثانية ليطرح سؤالًا جديدًا: في أية ساعة قُتل الجنرال شميدت؟

– في السابعة على ما أظن.

– في السابعة؟ إنه لأمر محزن، شديد الحزن!

ثم شكره الإمبراطور، وانحنى إشارةً بانتهاء المقابلة، ولم يكد الأمير آندريه يغادر مكتب الإمبراطور حتى هاجمه الأتباع ورجال البلاط، فأحاطوا به وأمطروه وابلًا من الأسئلة. كانت نظرات أنيسة تحدق به من كل مكان، والكلمات المعسولة المتوددة تقرع أذنيه؛ فالضابط المساعد أخذ عليه عزوفه عن الحلول في القصر، وقدَّم له مسكنه الشخصي لينزل فيه، ووزير الحربية أبلغه بشيء كثير من التأدب، وفي فيض من عبارات التهنئة، أن الإمبراطور أنعم عليه بوسام ماري تيريز من الدرجة الثالثة، ودعاه حاجب من حُجاب جناح الإمبراطورة للمثول بين يدي جلالتها، وأنهى إليه كذلك أنَّ الأرشيدوقة ترغب كذلك في رؤيته، فما كان يدري لمن يعير أذنه، ومن يجيب، أخذه سفير روسيا، وانتحى به جانبًا ليتاح له التحدث إليه بحُرية أكثر.

أحدث نبأ انتصار الروس — على عكس تنبؤات بيليبين — صدًى قويًّا في نفوس أفراد الحاشية ورجال البلاط الذين استقبلوه بكثير من السرور، فأُقيمت الصلوات ابتهاجًا بالنصر، وأُنعم على كوتوزوف بصليب ماري تيريز الأكبر، ومُنح جيشه عددًا من الهبات، وكيلتْ له الإطراءات، وتوالت الدعوات على الأمير آندريه، فاضطر هذا إلى قضاء نهاره كله متنقلًا من مكان إلى آخر؛ استجابة لدعوات كبار الشخصيات المرموقة، وأخيرًا، ذهب إلى إحدى المكتبات ليشتري منها ذخيرة نافعة يفيد منها في حياة الريف التي سيعود إليها عند عودته إلى مركزه في الجيش، فلما عاد إلى مسكن بيليبين، وهو يُعد في مخيلته الرسالة التي سيخطها لأبيه، متضمنة الوصف الدقيق للمعركة والشرح الكافي عن رحلته إلى برون، وجد أمام الباب عربة نقل كبيرة محملة إلى نصفها بالأمتعة.

سأل فرانز، خادم بيليبين، الذي ظهر في تلك اللحظة أمام الباب يجر وراءه حقيبة ضخمة: ماذا هناك؟

فأجاب الخادم بالألمانية، وهو يرفع الحقيبة إلى العربة بمجهود كبير: آه يا صاحب السعادة! إننا نرحل من جديد، إن اللعين على أعقابنا من جديد.

فهتف الأمير مستغربًا: ماذا! كيف! ماذا جرى؟

جاء بيليبين في تلك اللحظة يستقبله، فقرأ الأمير على وجهه — والذي كان منبسطًا في أكثر الأحيان — شيئًا من الارتباك.

قال بيليبين: هيا، اعترف معي أنَّ ذلك روائع! وأعني قصة جسر تابور (أحد جسور فيينا) لقد مروا فوقه دون أي عناء!

فلم يفقه الأمير شيئًا من هذا القول، فسأله بيليبين: ولكن، من أين قدمت إذن حتى تجهل مثل هذا الأمر الذي بات يعرفه كل حوذي في المدينة؟

– لقد خرجت لتوِّي من لدى الأرشيدوقة، لم يحدثني أحد عن شيء من هذا هناك.

– ألم تلاحظ أنَّ كل الناس كانوا يُعدون حقائبهم؟

أجاب الأمير مستغربًا: كلَّا، أبدًا. ولكن ما الخبر؟ ماذا هناك؟

– ماذا هناك؟! هناك أن الإفرنسيين اجتازوا الجسر الذي كان «أوبرسبرج» يدافع عنه، فلم ينسفه، بل ترك مورا يمر فوقه بسلام، فجاء هذا يسعى على طريق برون، سوف يصل الفرنسيون إلى هنا اليوم أو غدًا.

– إلى هنا؟! ولكن، لِمَ لم ينسفوا الجسر خصوصًا وأن الألغام مبثوثة فيه من قبل لهذه الغاية؟

– إنني أسألك ذلك بنفسي، على كل حال، ليس هناك من يعرف السبب، حتى ولا بونابرت بالذات.

فهز بولكونسكي كتفيه وقال مُعقِّبًا: إذا كان الجسر قد اجتيز من قِبل الفرنسيين فقد ضاع الجيش، إن جيشنا إذن يوشك أن يُشطر إلى قسمين.

فأجابه بيليبين قائلًا: تمامًا، أصغِ إليَّ، لقد دخل الفرنسيون إلى فيينا كما حدثتك بذلك، حسنًا، وفي اليوم التالي — أعني البارحة — اجتمع السادة الماريشالات: مورا ولان، وبيليار، وامتطوا صهوات جيادهم، واتَّجَهوا صوب الجسر، لاحظ أن الثلاثة غاسكونيين (من غاسكونيا في فرانسا)، واذكر ذلك، قال أحدهم: «أيها السادة، إنكم تعرفون أن جسر تابور مليء بالألغام، وأن رأس جسر متين جدًّا يتقدمه، وأن خمسة عشر ألف رجل

يدافعون عن رأس الجسر ذاك، وقد تلقَّى هؤلاء المدافعون أمرًا بنسف الجسر، ومنعنا المرور فوقه، غير أن احتلالنا هذا الجسر سيسُر صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون سرورًا عظيمًا، فهيا بنا نحن الثلاثة إذن، ولنحتل الجسر.» فأجابه الآخران: «هيا بنا.» ثم جاءوا فاحتلُّوا الجسر، وها هم الآن يجتازونه مع كل جيشهم فيتجهون نحونا، ونحوكم أنتم ليقطعوا خطوط مواصلاتكم.

فقال الأمير آندريه بلهجة شديدة الخطورة: يا للدعابة الفظَّة!

غير أن بيليبين أعقب يقول: أبدًا، إنني لا أمزح، إنني أروي لك أصدق الأنباء وأشدها وقعًا على النفس، لقد وصل أولئك السادة إذن وحدهم إلى الجسر، يلوِّحون بمناديل بيضاء، فأيدوا أن هدنة قد وقعت وأنهم — هم الماريشالات — جاءوا يتباحثون بدورهم مع الأمير أوبرسبرج، تركهم ضابط الحرس يمرون ويدخلون رأس الجسر، أنهوا إليه آلافًا من الأخبار المثيرة: انتهت الحرب، حدَّد الإمبراطور فرانسوا موعدًا لمقابلة بونابرت، إنهم يرغبون في رؤية الأمير أوبرسبرج. والخلاصة أنهم لم يتركوا مما اشتهر عن الغاسكونيين من مكر وحيلة إلا واستعملوه في تلك المناسبة، فأرسل ضابط الحرس يستشير أوبرسبرج، ويطلعه على ما سمعه، بينما راح أولئك السَّادة يعانقون الضباط ويداعبونهم ويجلسون على المدافع، وخلال ذلك الوقت، جاءت فرقة الفرنسية، فاحتلت الجسر متسلِّلة، فألقت بأكياس المواد المحرقة إلى النهر، واقتربت نحو رأس الجسر، وأخيرًا وصل الجنرال الثاني بشخصه، وأعني عزيزك الأمير أوبرسبرج فون ماتيرن، فراح أولئك السادة يحدِّثونه: «أيها الخصم العزيز! يا زهرة الجيش النمساوي! يا بطل الحروب التركية! لقد انتهت المعارك، ونستطيع الآن أن نمدَّ لبعضنا أيدينا التي امتشقت السيوف حتى الآن. إن الإمبراطور نابليون يتحرق شوقًا للتعرف بالأمير أوبرسبرج.» والخلاصة أنَّ أولئك السادة ليسوا من أهالي غاسكونيا عبثًا؛ إذ أغدقوا على أوبرسبرج معول كلامهم وعباراتهم، حتى إنَّ الرجل العزيز أُخذ بالغرور والمديح، وذلك الرد المفاجئ مع الماريشالات الفرنسيين، وبهرته ألبسة مورا وريش النعام الذي يزين خوذته، حتى إنه نسي واجبه والنار التي كان يجب أن يصبها على العدو.

وقطع بيليبين حديثه عند هذه الجملة رغم الحماس الذي كان يلهب لسانه ويزيد في بلاغته، كان معجبًا بتلك «الكلمة» التي استطاع أن يقحمها في حديثه، ولما تأكد من أن الأمير آندره قد استوعب قوله أردف متممًا: زحفت الفرقة الفرنسية حتى بلغت رأس الجسر، فعطلت المدافع، واستولت على الجسر.

صمت بيليبين برهةً، ثم أعقب وهو فريسة انفعال ظاهر: غير أنَّ أجمل ما في الموضوع هو أنَّ أحد صف الضباط الذي كان منوطًا به إعطاء إشارة نسْف الجسر وإحراقه من مدفعه، اقترب من أوبرسبرج وقال له: «إنهم يخدعونك يا أمير، ها هم أولاء الفرنسيون!» ولما رأى مورا — وهو الغاسكوني القح — أنه إذا ترك ذلك الضابط الصغير يسترسل في حديثه، فإن الخطة كلها ستُحبط، قال موجهًا حديثه إلى أوبرسبرج متصنعًا الدَّهشةَ البالغةَ: «كيف هذا! أتسمح لمرءوس أن يحدِّثك بهذه اللهجة؟ إنني لا أرى في هذا التصرف ما اشتهر عن النظام والطاعة في الجيش النمساوي العتيد!» ألا ترى أنَّ هذا القول يدل على عبقرية رائعة؟ لقد أثير الأمير أوبرسبرج، فأمر بتوقيف الضابط الصغير وسجنه! اعترف معي أن قصة جسر تابور قصة ممتعة رائعة! إن ما عمله أولئك السادة ليس نذالة ولا سخفًا …

قال الأمير آندره الذي تاه خياله في تلك اللحظة؛ ليستعرض المعاطف الرمادية والجرحى، ودخان البارود، وقعقعة البنادق، وأزيز الرصاص، والمجد الذي ينتظره: لعلها خيانة.

– كلَّا ليست خيانة، إنَّ ذلك سيجعل البلاط في موقف سيئ للغاية.

وتوقف بيليبين وكأنه يبحث عن الكلمة المناسبة وأعقب: إنها «ماكية»؛ أي على طريق ماك؛ وبذلك نستطيع القول إننا قد «تمكوكنا» …

وشاعت على وجهه أمارات السرور؛ لأنه توفق في إيجاد الكلمة الفنية المناسبة: «تمكوك»، إنها كلمة جديدة كل الجدة، ولسوف يعيدها الناس من بعده ويكررونها.

اختفت التجعدات والغضون التي استنفرها على جبهته دلالة على قناعته ورضاه، فابتسم ابتسامةً خفيفةً، واستغرق في تأمل أظفاره المصقولة.

وفجأةً نهض الأمير آندره، فسأله بيليبين بلهفة: إلى أين تمضي؟

– إنني عائد.

– إلى أين؟

– إلى الجيش.

– لكنك كنت تريد البقاء هنا يومين آخرين؟

– صحيح، لكنني الآن ذاهب إلى الفور.

وبعد أنَّ أعطى الأمير التعليمات المتعلقة برحيله، انسحب إلى غرفته، ولم يلبث بيليبين أن دخل عليه، قال له: أتدري ما الأمر يا عزيزي؟ لقد فكَّرت في أمرك، لِمَ بحق الشيطان ترحل؟

وأخفى كل تجاعيد جبهته؛ ليقنعه بأن قوله ذاك لا يقبل الجدل، غير أن الأمير اكتفى بنظرة استفهامية طافت بوجهه جوابًا على كلماته.

أردف بيليبين: نعم، ما هي حاجتك إلى الذهاب؟ إنك تقدِّر ولا شك أن واجبك يدعوك إلى مكانك في صفوف الجيش، خصوصًا وأنه الآن في خطر، إنني أفهم ذلك يا عزيزي، إنه من صميم البطولة.

فأجاب الأمير آندريه: أبدًا. لا شأن للبطولة في الموضوع.

– بلى، غير أنك فيلسوف كذلك، فكن إذن فيلسوفًا كما يجب، تَصَوَّرِ الأمور وعاينْها من زاوية أخرى، وسترى أن واجبك يقضي عليك بالبقاء وبعدم تعريض نفسك للخطر على عكس ما ترى الآن، دع التعرض للخطر لأولئك الذين لا يصلحون لشيء. لم تؤمر بالعودة، ولم يُسمح لك هنا بالانسحاب، فيمكنك إذن البقاء معنا ومرافقتنا إلى حيث يقودنا مصيرنا السعيد، يبدو أننا سننسحب إلى أولموتز، إنها مدينة جميلة جدًّا، سنسافر إليها معًا وبراحة تامة في عربتي.

– كُف عن المزاح يا بيليبين.

– بل إنني أحدِّثك كصديق شديد الإخلاص، فكر في الأمر، لِمَ يا تُرى تفضِّل الذهاب في حين أن باستطاعتك البقاء هنا؟

واسترسل بعد أن استجمع غضونه على جبهته: هناك أمران سيُستحق أحدهما؛ إما أن يوقَّع صلح عاجل قبل أن تلحق بقطعتك، وإما أنك ستشهد انسحاق الجيش كله.

واقتنع على ما يبدو بأن نظريته لا تقبل الرد، فانبسطت أساريره، وزال الغضون عن جبينه.

أجاب الأمير آندره بتردد: ليس لي أن أحكم على هذا الموضوع.

بينما كان يحدِّث نفسه قائلًا: إنني إذا كنت أذهب، فإن غايتي هي إنقاذ الجيش.

قال بيليبين مجيبًا: إنك بطل يا عزيزي.

الفصل الثالث عشر

ذهب إنجلترا

في تلك الليلة بالذات، استأذن بولكونسكي وزير الحربية للالتحاق بجيشه، وعاد في طريق الأوبة دون أن يعرف على الضبط المكان الذي سيجد الجيش فيه، وكان أكثر ما يخشاه أن يقع — دون أنْ يدري — بين يدي الفرنسيين على طريق كريمس، أمَّا في برون، فقد كان رجال البلاط جميعهم يُعدون الحقائب الصغيرة بعد أن أُرسلت الأمتعة الثقيلة الضخمة في طريقها إلى أولموتز، ولما اجتاز أتزلسدورف، سلك الطريق التي كانت الوحدات الروسية تسلكه في انسحابها السريع وهي على حال من الفوضى والبلبال، كانت العربات الضخمة تسد الطريق على رحبه، وتمنع مرور أية فصيلة منظمة، فاضطر الأمير المنهوك الجائع إلى طلب حصان من أحد الضباط القوقازيين، فلبَّى هذا طلبه وأرفقه بتابع، ومضى الأمير متجاوزًا خط العربات، يبحث عن الجنرال القائد الأعلى وعن عربته، وكان الضجيج والصخب يصمان الآذان خلال الطريق، تؤيدهما تلك الوحدات المتفككة المشتتة المنسحبة.

تذكَّر في تلك اللحظة مقطعًا عن خطاب بونابرت الذي وجَّهه إلى جنوده في بداية تلك الحرب، وراحت الكلمات تتراقص أمام عينيه: «إن هذا الجيش الروسي الذي نقله ذهب إنجلترا من أقاصي المعمورة، يجب أن نمنيه بمثل ما مُنِّيت به جيوش أولم»، وكانت تلك الجملة — رغم ما فيها من تجريح لكرامته وإهانة لكبريائه — توقظ في نفسه شعورًا بالإعجاب بذلك الرجل العبقري الذي قالها، فراح يفكر: ولو لم يبقَ إلَّا الموت؟ حسنًا، سأعرف كيف أموت كالآخرين إذا دعت الضرورة ذلك!

راح الأمير ينظر باشمئزاز إلى تلك القطعات مُختلَّة النظام متداخلة الأفراد والوحدات، وإلى العربات المبعثرة هنا وهناك، وقطع المدفعية التي تسد منافذ الطريق الزراعية، ويتأمل ذلك الرتل الطويل عن عربات النقل التي كانت تسير في اتجاه واحد وبصفوف متراصة، انتظمت في كل ثلاثة منها أو أربعة، فكانت تشتبك وتتسابق، وتصطدم بعضها ببعض،

وتغوص عجلاتها في الأوحال. كانت الأذن لا تلتقط في غمار تلك الفوضى إلا صرخات وصخب، ينبعثان من كل مكان؛ من الأمام ومن الخلف، يمتزج بهما صرير العجلات، وارتجاج الأعتدة المحملة، ووقْع حوافر الجياد المضطرب، وفرقعة السياط في الهواء، وكان هذا المزيج العجيب من الضجيج يختلط بسباب الجنود والضباط وصيحاتهم وتذمرهم وصراخهم، بين مستنهض للهمم وناقم على سير الأمور، وعلى جانبي الطريق، كانت العين لا تنفك تقع على أفراس نافقة بعضها سُلخت جلودها، وعلى عربات محطمة جلس بالقرب منها كل من كان من قبل راكبًا متنها، ينتظرون بفارغ صبر أن يحصلوا على وسيلة نقل جديدة، وكان هؤلاء المتخلفون خليطًا من جنود تأخروا عن اللحاق بصفوفهم، ومغامرين جاءوا يحومون بُغيةَ الإفادة من مخلفات الجيوش المنسحبة، فكانوا يداهمون القرى القريبة، فيسلبون منها الدجاج والخراف والعلف وكثيرًا من المسلوبات والمؤن، وكان الازدحام يزداد اشتدادًا في كل مرتفع من الطريق أو منحنًى، حتى إنَّ الناظر إلى ذلك الحشد الهائل يخال أن الأرض كلها قد أنبتت جندًا أو أن يوم الحشر قد أزف، وكان الجنود غارقين في الوحول حتى رُكبهم، يحاولون بشِقِّ الأنفس زحزحةَ عربة غائصة العجلات، أو نقل قطعة من المدفعية الثقيلة، وكلما تكرر هذا المشهد تكرر قرع السياط وصهيل الخيول المنهوكة، وتدفَّق سيل السباب والشتائم ممزوجًا بالأوامر والإرشادات من جديد، وينجلي المشهد عن عدد آخر من العربات المحطمة المهشمة وعديد من الخيول النافقة، وكان الضباط المكلفون بحفظ النظام أثناء هذا الانسحاب الصاخب، يروحون ويغدون على خيولهم، فيخترقون صفوفَ العربات الصغيرة والكبيرة، يوزعون أوامرهم ويزعقون، فتضيع أصواتهم وسط هذا الهدير المخيف من أصوات الإنسان والحيوان، فتبدو على وجوههم المنقلبة المكفهرة خيبةُ الأمل المريرة في إيقاف هذه الفوضى أو الحد منها.

كان بولكونسكي ينظر إلى كل هذا الخليط، فتعاوده كلمة بيليبين حينما تحدَّث عن الجيش الروسي بقوله: الجيش الأورثوذوكسي العزيز، قال يخاطب نفسه: «هذا هو إذن الجيش الروسي العزيز!»

كان يأمل في تسقُّط بعض الأنباء التي تمكِّنه من تحديد مكان القيادة العامة؛ لذلك اقترب من إحدى القوافل معتزمًا الاستفسار من قائدها، وفي تلك اللحظة، لمح عربة غريبة الشكل يقطرها جواد واحد، تتقدم في الاتجاه العام، كان يبدو على العربة أنها صُنعت محليًّا بأيدي الجنود، فكانت خليطًا غريبًا من عربة النقل وعربات الركوب الخاصة، رأى

الأمير جنديًّا آخذًا بمقاود الحصان يوجهه، وقد جلست في داخل العربة سيدة ملتفَّة بالشيلان، تحملها صدارة من الجلد، قابعة منطوية على نفسها، كاد الأمير أنْ يتوجَّه بالسؤال إلى الجندي سائق العربة، حينما لفت انتباهه الصراخ الحاد الذي كان ينبعث من صدر المرأة، كان ضابط القافلة المتقدمة ينهال بالسوط على الجندي الذي يقود العربة؛ لأنه كان يحاول تجاوز قافلته وتخطيها، فأصاب السوط الصدارة الجلدية التي تحمي ثياب المرأة من المطر، فراحت هذه تصيح وتزمجر، فلما وقع بصرها على الأمير، أزاحت الحاجز الجلدي وراحت تلوِّح بذراعيها الناحلين مستلفتة انتباهه وهي تصيح: هه، يا سيدي الضابط المساعد … احملني بحق السماء … ماذا سيحصل لي؟ … إنني زوجة طبيب فيلق القناصة السابع … لقد ظللنا في المؤخرة وهم الآن يمنعوننا من المرور.

بينما راح ضابط القافلة الثائر يزعق بالجندي قائلًا: انتحِ جانبًا أو أمزقك! اذهب إلى الشيطان أنت وهذه المتأخرة!

وكررت زوجة الطبيب القائد: احملني يا سيدي الضابط المساعد، ما معنى هذا؟

فاقترب الأمير من الضابط وقال: دَعْ هذه العربة تمر، ألا ترى أن فيها امرأة؟

فألقى هذا نظرة على الأمير، لكنه لم يتنازل بالرد عليه، بل عاد إلى الجندي يصيح فيه: استدرْ وانصرف، وإلا فإنك ستشعر بما يخترق جسدك!

فأصر الأمير وهو يضغط على أسنانه: قلت لك دعها تمر.

وفجأةً استدار الضابط نحوه، وصرخ يعميه الغضب: وأنت، من أنت حتى تُصدر إليَّ الأوامر؟! هه من أنت؟

– إنني أنا القائد هنا وليس أنت، انصرف عن وجهي أو أمزقك!

كان يخاطبه بلهجة المفرد، ويضغط على مخارج كلماته مبالغةً في الازدراء، وبدا أنَّ العبارة الأخيرة التي تفوَّه بها راقت له، خصوصًا بعد أن تعالى من ورائها صوت يقول: لقد لقي الضابط المساعد ما حطم كبرياءه.

وشعر الأمير أن الضابط قد فقد سيطرته على أعصابه، ومن ثَمَّ على كلماته بسبب الغيظ والغضب الشديدين المستوليين عليه. ولما كان في موقف المدافع عن امرأة، فقد بات يخشى أن يؤدي به الأمر إلى عاقبة تجعله أضحوكة للجنود والضباط؛ الأمر الذي كان يتحاشاه ويتجنبه، لكن غريزته تفوقت على عقله في الصراع الباطن الذي قام بينهما؛ فلم يكد الضابط يُتم حديثه حتى كان بولكونسكي ينقضُّ عليه مشرعًا سوطه، وقد انقلبت سحنته من الغضب، هتف الأمير: دع…ها تـ…مر، هل سمعت!

فندَّت عن الضابط حركة قنوط، وبادر إلى إخلاء المكان وهو يزمجر: إنَّ كلَّ الفساد وسوء التدبير مبعثه هؤلاء السادة، هؤلاء الغيد الحسان التابعون للأركان العامة!

سارع الأمير آندريه بمغادرة المكان دون أن يرفع عينيه إلى زوجة الطبيب التي أطلقت عليه اسم منقذها، وبينما كان يستحث جواده لبلوغ القرية التي أجمعت أقوال الجنود على أنَّ الجنرال القائد العام وهيئة أركان حربه يقيمون فيها، راح يستعرض في ذاكرته بازدراء واحتقار تفاصيل الحادث المخجل الذي وقع له منذ حين.

ولما وصل إلى القرية، ترجل عن ظهر جواده، وقصد المنزل الأول سعيًا وراء نيل قسط ضئيل من الراحة، يكون خلالها قد تناول طعامًا، ونسق أفكاره المتزاحمة المضطربة؛ تلك الأفكار الأليمة التي كانت تحزُّ في نفسه، كان يفكر في سره: «إن ما رأيته ليس جيشًا بل عصابة من قطاع الطريق والسفاكين»، وقبل أن يبلغ باب المنزل الذي يقصد إليه، سمع صوتًا مألوفًا يناديه، التفتَ مستطلعًا، فإذا بعينيه تقعان على نيسفيتسكي الجميل واقفًا في فراغ نافذة صغيرة يمضغ شيئًا في فمه الرطب، كان يهتف به ويداه لا تنفكان عن التلويح والتأشير: بولكونسكي، بولكونسكي، هل أنت أصم؟ تعالَ إلى هنا!

قصد الأمير إليه، فوجده مع زميل له من الضباط المساعدين يتناولان طعامهما، ابتدره كلاهما قبل كل شيء مستفسرين عما وراءه من أخبار، وكانت علائم القلق والترقب مرتسمة بوضوح فوق وجهيهما، بل إنَّ وجه نيسفيتسكي الضاحك عادةً، كان دليلًا جازمًا في تلك اللحظة على مدى القلق الذي ينهش فؤاد صاحبه.

سأل بولكونسكي: أين الجنرال القائد الأعلى؟

فأجابه الضابط المساعد: هنا، في البيت.

وسأله نيسفيتسكي بلهفة: وأخيرًا، هل حقيقةً أننا الآن في سبيل الاستسلام وعقد الصلح؟

– إنني أسألك أنت إيضاح ذلك؛ لأنني لا أعرف عن الأمر شيئًا باستثناء المشاق والمتاعب التي لا تحصى، والتي نالتني قبل أن أستطيع الوصول إلى مكانكم.

فقال نيسفيتسكي: ليتك تعرف ماذا يجري هنا يا عزيزي! إنني أحرق الأرم يا عزيزي! لقد كنا نهزأ من «ماك»، وها نحن في موقف أشد بشاعة من موقفه! هيا اجلس واشترك معنا في الأكل.

وقال الضابط المساعد الآخر: إنك الآن يا أمير لن تجد هنا شيئًا حتى ولا مركبة أو أي شيء آخر، أما «بيوتر» فإن الله وحده يعرف أين مضى.

– لكن أين مقر القيادة العامة؟

– إننا في زنائيم.

وأردف نيسفيتسكي: أمَّا أنا، فقد حزمت كل أمتعتي على ظهر جوادين، لقد صنعوا من أجلي برادع ممتازة، ساعدت على تحميل تلك الأمتعة على ظهور الجياد، وبذلك أستطيع الفرار عند الاقتضاء عبر جبال بوهيميا، آه يا عزيزي، إنَّ الموقف ليس مشجعًا. لكن ما بك ترتعد وكأنك مريض؟

نطق نيسفيتسكي بملاحظته الأخيرة حينما رأى الأمير ينتفض فجأةً، وكأن زجاجة من محلول «اليود» قد سُكبت فجأةً على جرح غائر عميق في جسده، فأجاب بولكونسكي: كلَّا، لست مريضًا.

عادت إلى ذاكرته صور مزعجة تمثل زوجة القائد الطبيب ولقاءه معها واشتباكه مع ضابط القافلة.

وفجأةً سأل: ماذا يعمل القائد العام هنا؟

فأجاب نيسفيتسكي: لا أدري عن أمره شيئًا.

فانبرى الأمير آندريه يقول: أما أنا، فإنني أفهم فقط أن كل هذا يثير اشمئزازي واحتقاري.

ونهض من مكانه متجهًا نحو جناح الجنرال القائد الأعلى، وقعت أبصاره وهو في طريقه على عربة كوتوزوف، وخيول الضباط المساعدين التي أضناها التعب، ومرَّ بجماعة من القوزاق المرافقين للجنرال وهم يثرثرون، كان كوتوزوف في تلك الأثناء يتشاور في مقره مع الأمير باجراسيون والجنرال النمساوي ويروذر الذي جاء يحل محل زميله القتيل شميدت. وفي الرَّدهة شاهد الأمير آندريه، كوزلوفسكي الصغير وأمامه أحد ضباط الإعاشة جالسًا على نصف برميل مقلوب رافعًا أطراف ثوبه العسكري، يكتب بسرعة ما يمليه عليه، وكانت تقاسيم وجه كوزلوفسكي المتقلصة تدل بوضوح على أنه لم ينعم بالنوم منذ وقت طويل، ولما وقع بصره على الأمير، حيَّاه بنظرة ساهمة دون أن يرفقها بحركةٍ ما من رأسه، وعاد يملي من جديد: ماذا جاء في السطر الثاني؟ قطعة كييف المهاجمة وقطعة يودولي ...

– عفوًا يا صاحب السمو، لا أستطيع متابعتك إذا ظللت تملي بمثل هذه السرعة.

كان ضابط الإعاشة يغمغم بهذه الجملة بلهجة منقبضة، وهو يرفع عينيه إلى رئيسه.

وفي تلك اللحظة، ارتفع صوت كوتوزوف الغاضب من وراء الباب المغلق يقاطعه صوت مجهول، كانت لهجة تلك الأصوات التي ما كان كوزلوفسكي يعبأ بها وجواب ضابط

الإعاشة الخائر الذي يدل على شدة تعبه وإنهاكه، ومظهر كوزلوفسكي الجالس على الأرض مع ضابط الإعاشة حول نصف برميل مقلوب على بُعد خطوات معدودة من الجنرال القائد الأعلى، بالإضافة إلى أصوات القوقازيين الذين كانوا يضحكون صاخبين تحت النافذة التي كان كوزلوفسكي يجلس بالقرب منها؛ كل هذا أثار اشمئزاز بولكونسكي وامتعاضه، وجعله يترقب أحداثًا مثيرة؛ لذلك فقد راح يمطر كوزلوفسكي بالأسئلة، فقاطعه هذا بقوله: لحظة واحدة يا أمير. (واسترسل في إملائه): موجودات الأمير باجراسيون …

– ولكن ماذا عن الاستسلام؟

– لا استسلام هناك، لقد أُعطيت الأوامر باستئناف القتال.

تقدَّم بولكونسكي من الباب الذي تعالت الأصوات وراءه، غير أن هذه سكنت فجأةً، وفُتح الباب، وبدا على عتبته كوتوزوف بأنفه الأقنى الذي كان يشطر وجهه الممتلئ إلى شطرين، وجد الأمير نفسه وجهًا لوجه مع القائد العام، غير أنَّ تعابير عين الجنرال القائد الأعلى الوحيدة التي لم تُصب بأذًى بعد، كانت تدل على أن خطورة الحالة وأهوالها والتطورات المزعجة التي كانت تتلاحق في تلك الساعة قد أظلمت نظرة القائد الأعلى، وخففت من قوة إبصاره، لقد نظر إلى مرافقه الخاص نظرةً صريحةً دون أنْ يبدو عليه أنه عرفه.

سأل كوزلوفسكي قائلًا: حسنًا، هل انتهى؟

– لحظة واحدة يا صاحب المقام الرفيع.

لم يلبث أنْ ظهر وراء الجنرال القائد الأعلى، رجل ذو وجه جامد قاسٍ، قصير القامة، أعجف العود، لم يزل في سن الشباب، له شخصية تحمل طابعًا شرقيًّا، ذلك هو الأمير باجراسيون.

ولم يشأ الأمير آندريه الوقوف جامدًا إزاء نظرة القائد الأعلى المتجاهلة، فقال بصوت مرتفع وهو يمدُّ يَدَهُ إليه حاملة غلافًا: لي الشرف بأن أقدِّم نفسي.

– آه، هل عدت من فيينا؟ حسنًا، سأراك فيما بعد، فيما بعد.

وخرج القائد الأعلى يصحبه باجراسيون، قال له يودِّعه: وداعًا يا أمير، وداعًا وليحفظك الله، سوف تقوم بمهمة شاقة فتقبَّل تباريكي.

وتمددت قسمات وجه كوتوزوف فجأةً، وتلألأت عَبرات في عينيه، فجذب بيسراه الأمير باجراسيون إليه، بينما راح يرسم بيمناه — التي يزينها خاتم ثمين — إشارة الصليب على جسد الأمير، كان يبدو أن تلك المهمة مألوفة لديه، ولما فرغ، قدَّم خده المنتفخ لباجراسيون ليقبِّله، لكن هذا قبَّله في عنقه.

كرر كوتوزوف قوله وهو يسعى إلى عربته: ليحفظك الله.

ثم استدار نحو بولكونسكي وقال له: اصعد معي.

– يا صاحب السعادة، وددتُ لو استطعت القيام بعمل نافع هنا، اسمحوا لي بالبقاء في معسكر الأمير باجراسيون.

فكرَّر كوتوزوف القول: اصعد.

ولما رأى أن بولكونسكي لا زال مترددًا، أردف يقول: إنني أنا الآخر في حاجة إلى ضباط ممتازين، نعم أنا أيضًا في مثل حاجته.

واحتوتهما العربة التي راحت تدرج بهما فترة طويلة دون أن يتبادلا كلمة واحدة، وأخيرًا قال كوتوزوف: إنَّ أمامنا الكثير مما يجب إنجازه، نعم الكثير.

كانت لهجته تدل على أنه بثاقب نظره قد خمن ما يعتلج في نفس بولكونسكي، وأردف بعد برهة، وكأنه يحدِّث نفسه: إذا أعاد غدًا عُشر فَيْلَقِه سالمًا، أكون لله من الشاكرين.

وبينما كان بولكونسكي يرفع عينيه إلى وجه رئيسه مستفهمًا، استلفت نظرَه محجرُ عين الجنرال الفارغ، وآثارُ الجرح الغائر العميق التي أحدثته الرصاصة التي اخترقت رأسه في معركة إسماعيل، والتي كان الجنرال يعنى بنظافتها ومداراتها، فلم يتمالك أن قال في سره: «لا شكَّ أن من حقه أن يتحدث بمثل هذا الهدوء عن أولئك الذين قُضي عليهم بالموت!»

وأعقب بصوت مرتفع: ومن أجل هذا بالذات يا صاحب السعادة أرجوكم أن ترسلوني إلى هناك.

لم يُجِب كوتوزوف، كان غارقًا في خواطره وتفكيره، وكأنه نسي جملته الأخيرة، وآثارها في نفس مرافقه، فترك نفسه مسترخيًا تؤرجحه اهتزازات العربة، وهي تدرج في الطريق المليء بالأخاديد، ولما استدار نحو بولكونسكي، وكان قد مضى على استغراقه خمس دقائق، لم يكن باديًا على وجهه ظِل من الاضطراب أو التحنان، وبدأ يستجوبه بلهجة ضمَّنها سخرية رقيقة، ويسأله عن تفاصيل مقابلته مع الإمبراطور، وما دار في البلاط حول مسألة كريمس، ولم يفُته أن يستفسره عن عدد من السيدات ممن كانت تربطه بهن أواصر معرفة.

الفصل الرابع عشر

جسر فيينا

في اليوم الأول من تشرين الثاني، حمل أحدُ الرسل إلى كوتوزوف خبرًا على جانب كبير من الخطورة، لقد أكدَّ الرسول أن الجيش بات في حالة شديدة اليأس لا أمل في إنقاذه منها، والواقع أن الخبر كان صحيحًا؛ إذ إن الفرنسيين كانوا قد اجتازوا جسر فيينا بقوات ضخمة، وباتوا يهددون بقطع خط اتصال كوتوزوف بالقطعات الآتية من روسيا، فإذا ظل في كريمس، فإن رجال نابليون المائة وخمسين ألفًا قادرون على قطع كافة خطوط مواصلاته والإحاطة برجاله الأربعين ألفًا إحاطة مطبقة، خصوصًا وأن أولئك الرجال كانوا في حالة من الإنهاك والتعب، يتعذَّر عليهم معها القيام بمحاولات مجدية، وإذن، فإن المصير الذي ينتظر كوتوزوف لا يختلف عن مصير «ماك» في «أولم»، أما إذا ترك طريق أولموتز وابتعد عنه، فإن معنى ذلك أن يتخلَّى كذلك عن آخر أمل له في الاتصال بجيوش «بوكزويفدن»، وأن يتوغل في مسالك مجهولة غير معبَّدة عبر جبال بوهيميا الوعرة، ملاقيًا مع ذلك عدوًّا يفوقه عددًا وعُددًا واستعدادًا ومعنوية. وكان هناك احتمال ثالثٌ، وهو أن يتراجع بجيوشه المنهوكة المحطمة عن طريق كريمس قاصدًا «أولموتز» للتلاقي مع قطعات نشيطة مستريحة قادرة على بعث النشاط في الصفوف، غير أنَّ هذه المحاولة أيضًا كانت تحتمل خطرًا جسيمًا؛ إذ كان يخشى أن يسبقه الفرنسيون على تلك الطريق، وأن يَضطرُّوه على الدخول في معركة غير متكافئة؛ لأنهم سيكونون على تمام الأهبة لها، بينما تكون جيوشه في حالة الانسحاب والمسير، ينوء الرجال تحت أعباء ما يحملونه وينقلونه، ويكونون محاطين بأعداء من كل الجهات يفوقونهم عددًا وعُدة، ويبلغ عددهم ثلاثة أضعاف رجاله أو أكثر.

ولم يكن لكوتوزوف أن يختار؛ لذلك فقد قرر الأخذ بالمبدأ الأخير.

كان تقرير الرسول المخبر — إذا صدق في تقريره — ينصُّ على أن الفرنسيين يحثُّون خطاهم في سير سريع لبلوغ «زنائيم»؛ وهي مدينة واقعة على خط انسحاب كوتوزوف، على بُعد أكثر من خمسة وعشرين مرحلة إلى الأمام، فلو استطاع أن يبلغ هذه المدينة بجيوشه قبل أن يصلها الفرنسيون، أمكنه أن يهيِّئ لرجاله أملًا كبيرًا في الخلاص والنجاة، أما إذا سمح للفرنسيين أن يتقدموه، فإن معنى ذلك أن جيوشه سيحل بها إذلال وخسران، يعادلان ما حلَّ بماك في أولم إن لم يكن فيهما معنى الانهيار التام. لقد كان في بلوغ الفرنسيين تلك المدينة قبل جيوش كوتوزوف، وصْمة عار تلحق بشرف الجيش الروسي؛ وصمة لا يمكن غسلها، غير أنَّ الموقف كله كان في جانب الفرنسيين، لقد كان من المستحيل على كوتوزوف أن يبلُغ بكل جيشه مدينة «زنائيم» قبل الأعداء؛ إذ إنَّ الطريق التي كان هؤلاء يسلكونها من فيينا إليها كانت أقصر من المرحلة التي عليه اجتيازها، وكانت إلى جانب ذلك أحسن تعبيدًا وأيسر تمهيدًا من طريق الجيش الروسي، الذي كان عليه السير في طريق كريمس لبلوغ تلك الغاية.

أصدر كوتوزوف خلال الليل أمرًا إلى جيش باجراسيون — وهو مقدمة الجيش الروسي وتعداده أربعة آلاف جندي — أنْ يتقدم بخط مستقيم عن يمينه مُيمِّمًا شطر طريق كريمس-زنائيم ليبلغ طريق فيينا-زنائيم عبر الجبل، وكان على الأمير باجراسيون أن يقطع تلك المسافة على مرحلة واحدة، وأن يتوقف باتجاه فيينا، وأن يحاول بقدرِ ما يستطيع إيقاف الفرنسيين إذا التقى بهم، أما كوتوزوف فقد اتجه مباشرةً نحو زنائيم مع المعدات والذخائر والمؤن وبقية الوحدات.

وصل باجراسيون إلى «هولَّابرون» بعد أن قطع عشر مراحل عبر الجبل في ليلة ممطرة عاصفة، وفي معيته أربعة آلاف رجل أنهكهم التعب وأضناهم البؤس، حفاة عراة، ضاع ثلثهم في الطريق، وكان وصوله إلى ذلك المكان على طريق فيينا-زنائيم قبل وصول الفرنسيين إليها بساعات معدودة. أما كوتوزوف، فقد كانت مشيته البطيئة، لِمَا ينوء به رجاله من أحمال وأثقال، تتطلب منه يومًا كاملًا ليبلغ زنائيم، ولم يكن ذلك خافيًا على باجراسيون، لقد كان يعرف أن عليه أن يوقف الجيش العدو بكامله طيلة أربع وعشرين ساعة بتلك الشرذمة القليلة من الرجال المنهوكين المحطَّمين، وكان يعرف أن ذلك ضربًا من المحال، غير أنَّ القدر الساخر شاء أن يجعل المستحيل ممكنًا؛ ذلك أن الخدعة الحربية التي مكَّنت القائد الفرنسي مورا من احتلال جسر فيينا دون أن يُطلق رصاصة واحدة، شجعته على إجراء محاولة مماثلة مع كوتوزوف، فلما قابل قوات باجراسيون الضئيلة

على طريق زنائيم، اعتقد أنه إزاء الجيش الروسي بأكمله، فأراد أن يسحقه بضربة واحدة، الأمر الذي كان متعذرًا قبل وصول بقية الجيش الفرنسي الذي كان يصل تباعًا من فيينا. ومن أجل ذلك، عرض على باجراسيون هدنةً مدتها ثلاثة أيام شريطة أن تحتفظ قطعات كلا الجانبين بمراكزها الحالية، وادعى أنَّ هناك محادثات حول عقد الصلح تدور في تلك الأثناء بين الحكومتين، وأن أي إهراق للدماء في تلك المرحلة يُعتبر عملًا غير حكيم، واقتنع الجنرال النمساوي الكونت نوستيتز الذي كان على رأس الخطوط الأمامية الروسية بادعاءات مورا، وانسحب من فوره كاشفًا بذلك جناح باجراسيون، وجاء متحدث آخر يعرض على الجنرال الروسي ذات العرض الذي تَقدَّم به مورا للقائد النمساوي، غير أن باجراسيون أكَّد أنه لا يملك صلاحيات البحث في هذا الأمر، وأن عليه الرجوع إلى رأي الجنرال القائد الأعلى، وأشفع قوله بالعمل؛ إذ بادر لفوره إلى إرسال أحد مساعديه من الضباط إلى مركز القيادة العليا حاملًا معه العرض الفرنسي.

كانت الهدنة بالنسبة إلى كوتوزوف هي الوسيلة الوحيدة التي تمكِّنه من اكتساب الوقت الكافي وإعطاء فترة استراحة لوحدات باجراسيون المنهوكة القوى، وكانت كذلك تساعده على إجراء نقل المهمات وما إليها، وإبعادها مرحلة أخرى، خصوصًا وأن الفرنسيين كانوا يجهلون كل شيء عن هذه التحركات. خلاصة القول: إنَّ ذلك العرض الغريب جاء يحمل لكوتوزوف أملًا ضخمًا في تحسين أوضاعه ومراكز رجاله وإنقاذ الجيش الروسي من الفَناء؛ لذلك فقد أرسل كوتوزوف إلى معسكر الأعداء مساعِدَه العام — وينتزنجيرود — وكلفه، إلى جانب تقبُّله عروض الهدنة المؤقتة، بمناقشة شروط الانسحاب الروسي والاستسلام، وفي نفس الوقت أرسل ضباطًا مساعدين آخرين إلى الخطوط الخلفية؛ ليعملوا على حث الوحدات المكلفة بنقل المهمات على الإسراع بنقلها في اتجاه زنائيم بما أمكن من سرعة، وكان على جيش باجراسيون المحطم المنهوك أن يبقى في مكانه، رغم ما ناله من وصبٍ وإنهاك، ليُخفي عن أعين الأعداء الذين يفوقونه بالعدد والعُدد تفوقًا ساحقًا حركةَ نقْلِ مهمات جيش كوتوزوف وقطعاته الأخرى. وبعبارة أخرى، كان على باجراسيون أن يصمد بأربعة آلاف رجل أمام ثمانية أضعاف هذا العدد من الأعداء في سبيل إنقاذ الأجزاء الكبرى من جيش كوتوزوف.

وقع ما حدسه كوتوزوف؛ فقد أمكن للعرض الذي تقدَّم به للجانب الفرنسي ببحث شروط الاستسلام — ذلك العرض الذي لم يكن يربط كوتوزوف بأية التزامات — أن يشغل الأنظار فترة مكَّنته من نقل المهمات الحربية، أو على الأقل جانب منها، إلى حيث

يجب أن تكون، غير أنَّ خطيئة مورا تجلَّت لعينَي نابليون بونابرت، كان بونابرت في تلك الأثناء معسكِرًا في شونبرن على مبعدة ست مراحل من هولَّابرون، فلما تلقَّى تقرير مرءوسه مرفقًا بمشروع الهدنة، أدرك الخدعة الكامنة وراء ذلك، وكتب للقائد مورا الرسالة التالية:

إلى الأمير مورا
شويبزن، في ٢٥ برومير عام ١٨٠٥ الساعة الثامنة صباحًا

يستحيل عليَّ إيجاد العبارات الملائمة لأُظهر لك شدة استيائي، إنك لا تأمر إلَّا قطعاتي الأمامية، وليس من صلاحياتك أن تعقد أية هدنة دون أمري، إنك بذلك تفوِّت عليَّ ثمرة حرب بأكملها، فاخرق الهدنة على الفور وسِر على العدو، أعلِن لهم أنَّ الجنرال الذي سيوقِّع على شروط الانسحاب لا يحق له اتخاذ هذه الخطوة، وأنَّ إمبراطور روسيا هو وحده صاحب هذا الحق.

مع ذلك فإن إمبراطور روسيا إذا وافق على مثل هذا التصرف، فإنني بالمثل سأوافق عليه، غير أنَّ المسألة لا تتعدى حدود الخدعة، فسِر إلى الأمام، وحطِّم الجيش الروسي. إنك في موقف يمكِّنك من الاستيلاء على مهماته ومدفعيته.

إنَّ المساعد العسكري للإمبراطور الروسي ليس إلا … فالضباط لا وزن لهم عندما لا يملكون صلاحيات معترَف بها، وليس مع هذا أية صلاحية. لقد انطلت الخدعة على النمساويين عندما سهَّلوا لك عبور جسر فيينا، وها إنك تُخدع الآن من قِبل أحد مساعدي الإمبراطور!

نابليون

وبينما كان أحد ضباط بونابرت المساعدين يحمل هذه الرسالة الرهيبة إلى مورا طائرًا على جواده، كان بونابرت، الذي كان في طبعه عدم الركون إلى جنرالاته، يتقدم مع كامل فرقته إلى موقع العمليات العسكرية كي لا يتيح لضحيته فرصة الإفلات من الإفناء الكامل الذي يدخره لها. أما رجال باجراسيون الأربعة آلاف، فقد كانوا في تلك الأثناء يوقدون النيران، ويجففون ثيابَهم بهدوءٍ ودَعَةٍ على لهيبها المتصاعد، لقد أتيح لهم للمرة الأولى منذ أيام ثلاث أن يصنعوا لأنفسهم حساءً ساخنًا، ولم يكن أحدٌ من هؤلاء الرجال المساكين يشك مطلقًا فيما يخبئه له القدر.

الفصل الخامس عشر

تقدم بولكونسكي

وصل الأمير آندريه إلى جرانت حوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر، بعد أن وافق القائد الأعلى كوتوزوف على إرساله للحاق بجيش باجراسيون بعد إلحاح شديد، وقدَّم نفسه لهذا الأخير، وكان الضابط المساعد الذي أوفده بونابرت برسالته السالفة إلى مورا لم يصل بعدُ، والمعركة لم تدُر رحاها بين الفريقين، أمَّا الحالة العامَّة فلم يكن أحد يعرف عنها شيئًا؛ إذ بينما كان بعضهم يتكلم عن الصلح دون أنْ يؤمن به، كان البعض الآخر يتحدث عن المعركة دون أنْ يصدِّق أيضًا بوقوعها أو جدواها. ولما كان باجراسيون يعرف مكانة بولكونسكي عند كوتوزوف، فقد استقبله بحفاوة بالغة وترحاب خاص لم يخلُ من بعض التحفظ، أَعْلَمَه بأن ساعة المعركة باتت قريبة وترك له ملء الحرية في أنْ يشهدها إلى جانبه، أو أنْ يُشرف على انسحاب المؤخرة، وهي مهمَّة تعادل في خطورتها المهمَّة الأولى. وأردف قائلًا وكأنه يُطمئن الأمير آندره: وعلى كل حال، لا أعتقد أنَّ قتالًا ما سينشب اليوم.

بينما راح يحدِّث نفسه بقوله: «إذا كان هذا الضابط من أذناب القيادة العامَّة الذين يسعون إلى نيل وسام، فإنه — على أية حال — سينال ما يزيد في المؤخرة، أمَّا إذا أراد على العكس أنْ يبقى معي، فله أنْ يبقى؛ لأن ضابطًا شجاعًا مثله لا بُدَّ وأنْ يُفيد في شيء.»

لم يُجِب الأمير آندريه على تعليق باجراسيون، بل طلب الإذن منه في أنْ يتحرى وضع الجنود، وأنْ يقوم بجولة تفتيشيَّة على جواده، لقد كان يريد معرفة كافة الأوضاع، وتفاصيل المواقع التي يحتلها الجنود الروسيون؛ ليكون على بيِّنة من الاتجاه الذي يجب عليه سلوكه عندما يستدعيه الموقف القيام بواجبه في المستقبل. وتقدَّم ضابط مرافق ليسير في صحبته، كان هذا شابًّا جميل الطلعة، أنيق الهندام، يحلي سبابته بماسة كبيرة، يتحدث اللغة الفرنسية بركاكة وتقليد رديء.

رأى في كل مكان ضباطًا ساهمين غارقين في تخيلاتهم بوجوه حزينة قلقة، يبدو عليهم أنهم يفتشون عن شيءٍ ما، وجنودًا عائدين من القرية حاملين أبوابًا ومقاعد وحواجز.

قال الضابط المرافق وهو يشير إلى أولئك الجنود: انظر إلى ما يفعله هؤلاء الرجال أيها الأمير، من المستحيل أنْ نتخلص من مثل هذه التصرفات! إنَّ الرؤساء يتركون لهم الحبل على الغارب.

ثمَّ أردف مشيرًا إلى خيمة أقامها أحد الخمَّارين: انظر إلى حيث يصرفون جُل أوقاتهم، لقد عُنِيتُ دائمًا بطردهم من هذا المكان، غير أنني واثق الآن أنَّ الخيمة تعج بهم، لنقتربْ أيها الأمير ولنعملْ على إخافتهم، إنَّ الأمر لن يستغرق أكثر من دقيقة صغيرة.

فقال بولكونسكي الذي لم يكن قد أتيح له من الوقت ما سمح له بشراء بعض المؤن وتناول الطعام: ليكن، وسأنتهز الفرصة لشراء بعض الخبز والجبن.

– لِمَ لم تقُل لي ذلك أيها الأمير من قبل؟ لو أنني عرفت أنك لم تتناول طعامك بعد، لاصطحبتك إلى خيمتي قبل أنْ نقوم بهذه الجولة.

ترجَّل كلاهما ودخلا الخيمة فوجدا فيها عددًا من الضباط جالسين إلى موائد مبعثرة في المكان ووجوههم محمرَّة ومهزولة.

قال الضابط المرافق بلهجة الرجل الذي تعب من كثرة تكرار أمر بعينه دون جدوى: ما هذا أيها السادة؟ كيف يحق لكم ترك مراكزكم وقد أصدر الأمير — ويقصد باجراسيون — أمرًا يحظر وجودكم هنا؟ وأنت يا كابتين توشين، ألا تخجل من تصرُّفك؟

كان الكابتين توشين أحد ضباط المدفعيَّة، وكان قصير القامة، هزيل العود، يرتدي ثوبًا عسكريًّا وسخًا، وكان في تلك اللحظة حافي القدمين إلَّا من جواربه؛ لأنه أعطى حذاءه قبل دخولهما إلى الخمَّار ليجففه له، لذلك فقد نهض مرتبكًا دون أنْ يند عنه حرف واحد.

أردف الضابط المرافق: نعم، كيف لا تخجل من تصرُّفك؟! إنك ضابط مدفعية وكان عليك أنْ تعطي الباقين أمثولة طيبة، هذا عدا عن أنك حافي القدمين! (وهنا ابتسم ضابط المدفعيَّة ابتسامة تائهة.)

وأضاف وقد اتخذ صوته مسمة الأمر: تفضلوا أيها السادة بالعودة إلى مراكزكم جميعًا دون استثناء.

ظلَّ الضابط توشين صامتًا والابتسامة منطبقة على شفتيه، وراح يقفز تارةً على ساقه اليمنى وأخرى على الساق اليسرى، وعيناه تتفحصان تارةً الضابط المرافق، وطورًا الأمير بولكونسكي، كانت عيناه كبيرتين طافحتين بإذكاء وتوقُّد الذهن، فلم يتمالك الأمير

ورفيقه من الابتسام، وأخيرًا غمغم الكابتين توشين: يقول الجنود إنَّ حافي القدمين يستطيع أنْ يقفز أحسن من غيره!

كان الضابط المرتبك يعتقد أنَّ مثل تلك الدعابة خير ما يلجأ إليه للتخلص من ذلك الموقف الحرِج، غير أنه ما كاد ينتهي من جملته تلك حتى أدرك أنه لم يكن موفقًا في مزاحه؛ لذلك فقد تضاعف ارتباكه.

كرر الضابط المرافق جاهدًا أنْ يتخذ صوته لهجة جديَّة: تفضلوا بالعودة إلى مراكزكم.

ظلَّ بولكونسكي يتابع الضابط توشين بنظرته، كان مظهره لا يدل على شيء من وقار الجندي، بل إنه يستطيع القول إنَّ في تصرفاته وحركاته شيئًا مضحكًا، غير أنه كان بنفس الوقت ذا شخصية شديدة الجاذبية.

عاد الضابط المرافق والأمير آندريه إلى حصانيهما يمتطيان صهوتيهما ويتابعان طريقهما.

بلغا مخرج القرية وهناك راحا يلتقيان في كل لحظة بضباط وجنود من مختلف الأسلحة والقطعات ويتجاوزانهم، شاهَدا إلى يسارهما أكوامًا من الطين الأحمر حديثة الصنع، ورأيا جنودًا كثيرين يسترون أجسامهم بقمصانهم البيضاء فحسب رغم لفحات الريح القارصة، يقيمون بسرعة فائقة المتاريس الضروريَّة عسكريًّا، وكان الناظر إلى ذلك المشهد يُخيل إليه أنه إزاء حشرٍ من النمل الأبيض العامل، كان عدد كبير من الأيدي غير المنظورة تَطرح من الخنادقِ المحفورةِ الأتربةَ اللزجة المتراكمة، أتربة حمراء لا تنفك تلك الأيدي الخفية، تقذف بها بانتظام رتيب وعلى دفعات متساوية، اقترب الضابطان من الجنود العاملين وعاينا تلك الخنادق ثمَّ تابعا طريقهما، وفجأةً التقيا بعدد من الجنود كانوا ينحدرون من أعلى مرتفع يتردد الجنود كلهم عليه لإزالة ضروراتهم، فاضطرا إلى حث جواديهما اللذين راحا يتسابقان هدبًا؛ لينقذا نفسيهما من الرائحة الكريهة المنبعثة في الجو حول ذلك المرتفع.

قال الضابط المرافق وهو يسد أنفه بأصابعه كما فعل الأمير: إنَّ أقذار المعسكرات والنفايات كلها تُجمع هنا يا سيدي الأمير.

ولما بلغا المرتفعات التي كانت قبالتها، والتي كان يمكن رؤية الفرنسيين من فوقها، توقف الأمير آندريه وراح يعاين خطوط العدو.

قال مرافقه ودليله وهو يشير إلى نقطة مرتفعة تشمخ على التلال المجاورة لها: لدينا هنا «بطارية» من المدفعية، إنها تحت إمرة ذلك الضابط المضحك الحار حافي القدمين. من هنا، يمكن للمراقب رؤية كل شيء، هيا بنا أيها الأمير.

فقال بولكونسكي محاولًا التخلص من تطفل المرافق: لك مزيد شكري، لكنني أستطيع الآن العودة منفردًا إلى المعسكر، فلا تبتئس من أجلي.

فعاد الضابط المرافق أدراجه بينما مضى بولكونسكي قدمًا إلى الأمام.

كان كلما ازداد اقترابًا من خطوط العدو، ازدادت ملاحظته للترتيب البديع والمعنويات الطيبة التي ينعم بها الجنود الروسيون في الخطوط الأمامية. كان صباح ذلك اليوم قد لاحظ على قوافل المهمات والعتاد التي توقفت قرب «زنائيم» على بُعد حوالي ثلاث مراحل من الفرنسيين الشيءَ الكثير من الفوضى والازدحام، وكذلك كان الحال في جرانت؛ حيث كان المراقب لا يحس إلَّا بالقلق والكآبة، أمَّا هنا، فإن الأمر كان على النقيض من ذلك، فقد كانت الثقة والاعتداد بالنفس يشعَّان من وجوه الرجال رغم أنهم كانوا على قيد خطوتين من العدو. كان أحد الضباط برتبة رئيس، يرافقه أحد الرتباء، يقوم بإحصاء جنوده الذين كانوا في ألبسة الميدان منتظمين صفًّا منسقًا أمامه، فلمَّا وصل إلى نهاية إحدى الفصائل، ضغط بإصبعه على صدر الرجل الأخير منها طالبًا إليه أنْ يرفع ذراعه. وهنا وهناك، كان مئات من الجنود ينقلون الأخشاب والحشائش الطفيلية ليبنوا بها أكواخًا لهم، وهم يضجون بالضحك والانشراح ويتبادلون الدعابات والطُّرف، ومئات أخرى ملتفون حول نار موقدة، بعضهم نازعًا ثيابه يجففها والبعض الآخر في كامل هندامه العسكري إلَّا من جواربهم أو أحذيتهم التي كانوا يرتقونها أو يَخْصفونها، ويلتفون حول حلل الطعامِ والطهاةُ من حولها. وفي كتيبة أخرى كان الطعام جاهزًا والجنود يُمطرون القلل بنظرات نهمة، ويرمقون الصحفة التي كان «عريف» الطعام يحمل فيها عينة من الحساء ليتذوقها رئيس الكتيبة قبل توزيعها على الجنود، فكانت عيونهم تتابع الصحفة وحاملها حتى بلغ إلى حيث كان الرئيس جالسًا على جذع شجرة أمام كوخه. وفي كتيبة أخرى أحسن حالًا من غيرها — لأن كل الفرق لم تكن لتتساوى في توزيع الكحول عليها — كان الجنود يحاصرون أحد صف الضباط، وكان عريض الكتفين شوَّه الجدري أدمة وجهه، الذي كان ينحني في كل مرة ليملأ أباريق الجنود خمرًا، فكانوا فور استلامهم حصتهم يرفعون الإناء إلى أفواههم ويُفرغون محتوياته في أجوافهم دفعة واحدة، ثمَّ يمضون في طريقهم إلى مراكزهم ووجوههم مشرقة منشرحة، وكان بعضهم يتمضمض بالجرعة الأخيرة ثمَّ

يمسح شفاهه بطرف كمه، كان يبدو عليه مزيد من اللامبالاة؛ حتى لَيُخيل للناظر إليهم أنهم جنود في إجازة، أو أنهم يعسكرون في أمكنة هادئة من بلادهم لا يتوجسون خيفة من شيء، وليسوا على مقربة من العدو وفي أمسيةِ يوم يُنتظر في صباح اليوم التالي أن يرقد أكثر من نصفهم على تلك الأرض بلا حراك.

كان معسكر رماة كييف مقامًا إلى جانب معسكر القناصة، وكان جنود رماة كييف من الشبان الأقوياء النشيطين، وكانوا جميعهم منصرفين بالمثل إلى مهمات سلمية لا علاقة للحرب بها، رأى الأمير آندريه — قرب الكوخ الكبير الذي يأوي إليه الزعيم «كولونيل» قائد الفرقة، والذي كان يمتاز عن الأكواخ الأخرى بحجمه وارتفاع سقفه — فصيلةً من الرماة وقد تمدد أمامهم رجل عارٍ عن الثياب، كان اثنان من زملائه يمسكان به بينما راح الباقون ينهالون على ظهره العاري ضربًا بعصي مرنة بإيقاع موزون، كان الجندي التعس يصرخ ملء حنجرته من الألم، بينما كان أحد القواد «ماجور» يذرع الأرض في مقدمة الفرقة وهو يردد دون أنْ يبالي بصرخات الجندي المعاقَب: من العار على الجندي أنْ يسرق، على الجندي أنْ يكون نزيهًا نبيلًا باسلًا، فإذا سرق رفاقه، فإنه يكون عديم الشرف، وإذن فإنه يصبح حقيرًا محتقرًا، تابعوا، تابعوا، تابعوا، اضربوا!

وتَتابع صفير العصي المرتفعة الهابطة، ممزوجة بتأوهات الضحية المصطنعة التي لم تكن لتخلو مع ذلك من شيء من الشراسة.

انفصل ضابط شاب عن موقع الجندي المعاقب وعلى وجهه آيات الإشفاق والارتباك، ورفع إلى الضابط المساعد نظرة متسائلة.

وهلَّ الأمير آندريه إلى الخطوط الأمامية وراح يستعرض خط الجبهة كله، لاحظ أنَّ ذلك الخط كان يتباعد تباعدًا محسوسًا عن العدو في الجناحين الأيمن والأيسر، أمَّا في الوسط، في المكان الذي جرت فيه المفاوضات لعقد الهدنة ذلك الصباح، فقد كان ملامسًا لخطوط العدو، لدرجة كان يُمْكن للجنود من الجانبين أنْ يروا بعضهم وأنْ يتبادلوا الحديث، وكان هناك — قلب الجبهة — إلى جانب الجنود المكلفين بحماية الخطوط، عدد كبير من الفضوليين الذين جاءوا من كلا الجانبين، يعاينون العدو الغريب الشكل، ويتأملون ملابسه وتجهيزاته التي لم يكونوا قد رأوا مثلها من قبل.

لم يفلح الضباط منذ ذلك الصباح في صد المتطفلين رغم الأوامر الصريحة التي تحظر عليهم الاقتراب من الخطوط الأمامية، وكان الحراس ينتظرون بفارغ صبر أنْ يحين موعد استبدالهم، لم يعودوا يأبهون بالفرنسيين، بل أصبحوا في مراكزهم أشبه شيء

بمن يُشرف على عرض منظر نادر، يُبدون الملاحظات على أولئك الوافدين. توقف الأمير آندريه يتأمل الفرنسيين.

قال أحد الجنود وهو يشير إلى أحد الرماة الروس، الذي كان في صحبة أحدِ الضباط يناقش أحدَ الرماة الفرنسيين بحرارة: انظر إلى هذا، إنَّ لسانه مديد جدًّا! وهذا الفتى، إنَّ الفرنسي لا يستطيع متابعته أو التفوق عليه! دورك الآن يا سيدوروف.

فأجاب سيدوروف، الذي كان يمر قرب الجنود ليتكلم بالفرنسية الصحيحة: بل دعني أستمع، لَعَمري إنه يحسن التخلص مع هذا الفرنسي.

كان الجندي الذي راح الجنديان المازحان يشيران إليه هو دولوخوف، لقد جاء مع رئيسه من الجناح الأيسر للجبهة الروسية حيث كانت سريته معسكرة هناك؛ لينعم بالحديث مع الفرنسيين. عرفه الأمير آندريه، فأصاخ السمع محاولًا التقاط ما يدور بينهما من حديث.

كان الكابتين — رئيس دولوخوف — يُهيب به أنْ يستمر في الحديث، بينما كان ينحني على قدر طاقته كي لا تفوته كلمة واحدة من ذلك النقاش الذي لم يكن يفهم من اللغة الذي كان يدور بها حرفًا واحدًا. كان يهتف بدولوخوف: استمِر، استمِر، ولكن بسرعة! أسرِع في النطق أكثر من هذا! ماذا يقول؟

غير أنَّ دولوخوف كان منصرفًا بكليَّته إلى نقاشه مع الجندي الفرنسي، فلم يكن عابئًا برئيسه وملاحظاته، كان الحديث يدور في تلك اللحظة حول المعركة والحرب، وكان ذلك منتظرًا. وكان الفرنسي المتحدث، وهو الذي كان يخلط بين النمساويين والروسيين، يزعم أنَّ الجيش الروسي قد هُزم في «أولم»، وأنه استسلم هناك ولا زال يفر ويتراجع. بينما كان دولوخوف يؤكد له عكس ذلك، ويجزم أنَّ الروس هزموا الفرنسيين وأنهم لا يفكرون في الاستسلام مطلقًا، وأردف يقول: إنَّ لدينا أمرًا بطردكم من هنا، ولسوف نطردكم!

فأجاب الفرنسي باستخفاف: ولكن حاذروا ألَّا نأسركم جميعًا والقوقازيين معكم «على البيعة»!

وانفجر كل من كان في المعسكر الفرنسي ضاحكًا.

ردَّ عليه دولوخوف قائلًا: بل إننا سنجعلكم ترقصون كما رقصتم من قبل أمام سوفوروف!

قال أحد الفرنسيين متسائلًا: بماذا يخرف هذا الروسي؟!

فأجابه آخَر وقد خمن أنَّ الأمر متعلق بحادثة قديمة سابقة: بالتاريخ القديم ... (ثمَّ التفت إلى دولوخوف وأردف) سوف يرى سوفارا «ك» هذا وكل الآخرين ما يخبئه له الإمبراطور.

همَّ دولوخوف بمتابعة الحديث فقال: بونابرت ...

غير أنَّ الفرنسي لم يمهله، بل قطع عليه طريق الاستمرار مغضبًا: ليس هناك بونابرت، بل الإمبراطور.

– ليحل الشيطان إمبراطوركم!

وأعقب باللغة الروسية شتائم قبيحة شائعة على ألسنة الجنود، ثمَّ تنكَّب بندقيته وابتعد.

قال يخاطب رئيسه: هيا يا إيفان لوكيتش.

وقال الجنود الروس: هكذا الحديث بالفرنسية وإلَّا فلا! والآن امضِ أنت يا سيدوروف.

غمز سيدوروف بعينيه ثمَّ راح يتمتم بكلمات مبهمة وهو يخاطب الفرنسيين، متظاهرًا بالإلمام بلغتهم: كاري، مالا، تافا، سافي، موتي، كاسكا ...

كان صوته ولهجته لا يدعان مجالًا للسامع الجاهل للشك في أنه ملم باللغة الفرنسية وقواعدها، وأنه يتحدث عن أشياء دقيقة حساسة.

وانفجر الجنود الروس بضحكة بهيجة صريحة، بلغ من تأثيرها أن انتقلت إلى صفوف الفرنسيين المتجهِّمين، كان يُخيل للناظر إلى ذلك المشهد أنَّ الجانبين باتا على وشك إطلاق بنادقهم في الهواء، وتفجير ذخائرهم استعدادًا للعودة إلى بلادهم، غير أنَّ البنادق لبثت محشوة، ونوافذ إطلاق القذائف ظلت مهيأة معدة، والخنادق والمتاريس محافظة على مظهرها العدائي المهدِّد، والمَدافع موجهة من الجانبين إلى المعسكرَين المتحاربين بعد أنْ سُحبت عن العربات التي تجرها.

الفصل السادس عشر

مدفعية توشين

بعد أنِ استعرض الأمير آندريه الجناحين الروسيين الأيمن والأيسر، صعد إلى حيث أقيمت المدفعية التي قال الضابط المرافق عنها منذ حين: إنها أقيمت في مكان يُشْرف على ساحة المعركة كلها. فلمَّا بلغ المرتفعَ الذي نُصبت المَدافع فوقه، ترجَّل عن جواده بالقرب من المدفع الرابع والأخير في ذلك العش الذي كانت مدافعه مهيأة كلها للانطلاق، وكان أحد الجنود يقوم بالحراسة هناك، فهمَّ بتحية الأمير بسلاحه، لكن هذا أشار إليه أنْ يتابع عمله، فعاد الجندي إلى سيره الوتير الممل في مركز حراسته.

كانت العربات التي تُحمَّل عليها تلك المدافع قريبة من المكان، يليها المزرب الذي تُحفظ فيه الخيول، ثمَّ مركز المدفعيين، وإلى اليسار قريبًا من القطعة الأخيرة، أقيم كوخ صغير حديث البناء، كانت أصوات الضباط وأحاديثهم ترتفع منه.

كان الضابط المرافق على حق في قوله عندما أكد أنَّ موقع المدفعية يُشرف على الساحة كلها ويسيطر عليها، لقد لمس الأمير بولكونسكي هذه الحقيقة بنفسه، وتأكد من أنَّ المدافع قد نُصبت بشكل جعلها تهيمن على كل المواقع الروسية، وعلى جانب غير قليل من معسكر الأعداء. كان إلى الأمام، على خط أفقي ممتد من أحد التلال، يُرى قرية شوينجرابن، وإلى اليمين وإلى اليسار منها كانت الأدخنة المنبعثة من ثلاثة أماكن، مراكز الضباط الفرنسيين، مبيِّنة أنَّ جزءًا كبيرًا من جيشهم يحتل القرية المذكورة وسفح التل الموازي لها. وإلى أقصى اليسار، كان هناك شيء يشبه عشًّا للمدفعية، لم يكن الدخان المتصاعد لِيسمحَ للعين المجردة أنْ تتأكد من صحة الرؤية. وكان الجناح الروسي الأيمن يحتل مرتفعًا صعب التسلق مسيطرًا على المراكز الفرنسيَّة، وكان فرسان الدراجون — وهم فصيلة من فرسان الخطوط الأولى مهمتها الحرب في حالتَي الركوب والترجل — ووحدات المشاة تعسكر هناك. أمَّا المنحدر ميسور التسلق، فقد كان يبدأ من الوسط، أو

على أدق تحديد من حيث قامت وحدة توشين المدفعية، ويتصل بانحداره بالنهير الذي كان يفصل الروسيين عن قرية شوينجرابن. أمَّا الجناح الروسي الأيسر، فكان يرتكز إلى غابةٍ كان المشاة بالقرب منها قد أشعلوا النار ليصطلوها وهم في عملهم المنظم، يقطعون الأخشاب اللازمة لعمليات المعسكر، كان خط العدو أكثر اتساعًا من الخط الروسي وأبعد امتدادًا، وكان واضحًا أنه قادر على تطويق الجنود الروس بسهولة عندما تحين الساعة. أمَّا في مؤخرة الجيش الروسي، فقد كان وادٍ عميق صعب المسالك يقف حائلًا بينه وبين الانسحاب المنظم، وخصوصًا بالنسبة لسلاحَي المدفعية والفرسان.

أخرج الأمير آندريه دُفَيْتِرَهُ واتكأ على أحد المدافع وراح يرسم لنفسه مخططًا عن الوضعية العامَّة، وأضاف بعض الملاحظات بالقلم الرصاص في موضعين من مخططه، كان يهدف منها إلى إنارة سبيل الأمير باجراسيون عند الحاجة، وكانت تلك الملاحظات تنص على أنْ تُجمع كل المدفعية في الوسط، وأنْ ترسَل وحدات الخيَّالة إلى ما وراء الوادي وراء الخطوط الخلفية. كان بولكونسكي مرافقًا للجنراليسيم بصورة مستمرة، وكان مكلَّفًا بتدوين النواحي التاريخية في المعارك؛ لذلك فقد كان اهتمامه منصبًّا على التدابير العامَّة بصورة خاصَّة، وعلى حركات الكتل الكبيرة من الجيوش؛ ولهذا السبب، وجد نفسه في مهمته الحالية مهتمًّا بصورة خاصَّة بالخطوط الرئيسيَّة للعمليَّة المتعلقة بالمعركة المقبلة، مغفلًا التفاصيل، مبينًا طارئَين أو ثلاثة مما يتوقع حدوثه خلال استعار نار المعركة. كان يحدِّث نفسه بقوله: «إذا هاجم العدو الجناح الأيمن، فإن على رماة كييف وقنَّاصة يودولي أنْ يصمدوا في أماكنهم؛ حتى تصلهم الإمدادات التي ستؤخذ من الوسط، وفي هذه الحالة يستطيع فرسان الدراجون أنْ يهاجموا جناحه وأنْ يقذفوا به بعيدًا، أمَّا إذا بدأ الهجوم على الوسط، فإننا سنركز المدفعيَّة الوسطى على هذا المرتفع، وبذلك نغطي انطواء الجناح الأيسر ثمَّ ننسحب بتراجع منظَّم حتى نصل إلى الوادي».

كان خلال هذا الوقت كله، لا ينفك يصغي إلى نقاش الضباط في كوخهم دون أنْ يتفهَّم شيئًا من أحاديثهم، كما يقع غالبًا لكل من ينصرف بكليَّته إلى أمرٍ ما دون أنْ تشاركه فيه كل حواسه العاملة الأخرى. وفجأةً، ارتفع أحد الأصوات بشكل جعله ينصت مرغَمًا إلى ما يقوله، ويرهف حاسة السمع لالتقاط المعاني وتجريدها عن الكلمات، كان ذلك الصوت ذو الإيقاع الجميل مألوفًا على مسامع الأمير، وكان يقول: كلا يا صغيري، لو كان في حدود المستطاع معرفة ما يحدث بعد الموت، لَمَا شعر أحد منَّا بالخوف، نعم، إنه كذلك يا صغيري.

فارتفع صوتٌ آخَر أكثر فتوَّة من الأول يقاطعه: سواء أخافَ المرءُ أم لم يخف، فإن من الواجب أنْ يمر الإنسان بهذه التجربة.

فقال صوت ثالث متفجر بالرجولة أجشُّ خَشٌّ: إنَّ ذلك لا يمنع المرء من الشعور بالخوف! هيه! أيها العلماء المتفذلكون! يبدو أنَّ عِلْمكم كله ناتج عن أنكم تستطيعون أبدًا ابتلاع الطعام وشرب قطرات من الماء بعده!

وانفجر صاحب ذلك الصوت الضخم — وهو (ولا شك) من صفوف المشاة في الخطوط الأولى — بضحكة مدوية، بينما عاد الصوت الأول يقول: نعم، إنَّ ذلك لا يمنع المرء من الشعور بالخوف، إنَّ المرء يخاف من المجهول، نعم إنه لكذلك؛ لأنه مهما حدَّثونا عن صعود الروح إلى السماء، فإننا نعلم أنَّ السماء ليست إلَّا ظاهرة خدَّاعة، ليس فيها إلَّا الفضاء.

ومن جديد قاطَعَ الصوتُ الأجش ذلك المتحدثَ ليقول: هيا يا توشين، ماذا أصابك؟ ذوِّقنا طعم العرق الذي عندك.

وتمتم الأمير آندريه محدثًا نفسه: «آه! إنه الكابتين الذي كان حافي القدمين عند الخمَّار!» تأكدَ الآن أنَّ الصوت الذي كان مألوفًا على سمعه كان صوت توشين، فلذَّ له الإصغاء إلى ذلك الصوت اللطيف الذي يملكه ذلك الرئيس الفيلسوف.

قال توشين: سأقدِّم لكم عرقًا ما شئتم الاغتراف والنهل؛ ولكن فيما يتعلق بمعرفة الحياة المقبلة …

لم يُتَح له الوقت لإتمام جملته؛ ذلك أنَّ صفيرًا عاليًا شقَّ الفضاء وراح يقترب ويتضح ويزداد حدة، ولم تلبث القذيفة تخترق الأرض بشدة قرب كوخ الضباط، وكأنها آسفة على عدم إمكانها التحدث بكل ما كانت تعنيه بذلك الصفير المزعج، وارتفعت من أطراف المكان الذي سقطت فيه شظايا وأتربة ووحول، واهتزت الأرض لتلك الصدمة القاسية، فبدت وكأنها تطلق زمجرة ارتياع.

وكان توشين في تلك اللحظة بالذات، يضع غليونه القصير في زاوية فمه، فاندفع خارج الكوخ، كان وجهه المتقد الذكي شاحبًا بعض الشيء. اندفع وراءه ذو الصوت الأجش الخَشِّ، وكان ضابط مشاة متين البنيان، هرع جاريًا ليلحق بسريَّته وهو يزرر معطفه على عجل.

الفصل السابع عشر

الأمير باجراسيون

اعتلى الأمير آندريه صهوة جواده ووقف به قرب «بطارية» المدفعية، راحت عيونه تتفحص الرقعة الشاسعة المتاحة للنظر، محاولًا اكتشاف مكان القطعة التي أطلقت تلك القذيفة استنادًا إلى الدخان الذي تُخلِّفه عادةً بعد كل طلقة، رأى القطعات العسكريَّة الفرنسيَّة التي كانت حتى تلك اللحظة في جمود تام تَنْشط بالحركة، ورأى كذلك أنَّ هناك عشًّا للمدفعية العدُوَّة إلى يسارهم، كانت سحابة رقيقة من الدخان لا تزال تحلِّق فوق ذلك المكان، ورأى فرنسيين على صهوة الجياد، ولا شك أنهما من الضباط المساعدين في الأركان يتسلقان التل، وفي أسفل التل — قرب السفح — شاهد فصيلة من الجنود تتحرك صاعدة، فقدَّر أنها — ولا شك — أُوفِدَت لتعزيز الجناح القائم هناك، ولم تكد سحابة الدخان المنبعثة عن القذيفة الأولى تتبدد، حتى ارتفعت سحابة ثانية أعقبها دويٌّ عنيف، كانت المعركة قد نشبت! حوَّل بولكونسكي جواده ومضى مسرعًا في طريق «جرانت» للقاء باجراسيون، بينما ازدادت المدفعية حدة من ورائه، كانت الأصوات الجبَّارة هي رد المدفعيَّة الروسيَّة على الأعداء، وفي الأسفل — في المكان الذي قامت فيه المباحثات الأولى — جن جنون البنادق من الجانبين.

كان لوماروا قد سلَّم منذ لحظات كتاب بونابرت الرهيب إلى مورا الذي أصيب في كبريائه، فأراد إصلاح الخطأ الذي تورط فيه، وهكذا أصدر الماريشال مورا أمره إلى جنوده بمهاجمة صدر القوات الروسية، والقيام بحركة الْتفاف حول الجناحين، كان يأمل أنْ يسحق الجيشَ الروسي الهزيل قبل أنْ يحل الظلام ويصل الإمبراطور إلى مكان المعركة.

راح الأمير آندريه يحدِّث نفسه قائلًا: «ها هي ذي إذن المعركة المنتظَرة! ولكن في أية لحظة يُقدر لي أنْ أجد «طولوني»؟[1] وماذا سيكون نوعها على وجه الدقة؟»

شعر بالدم يتدفق بغزارة في قلبه، ولما مرَّ أمام السرايا التي شاهد أفرادها قبل ربع ساعة يتناولون طعامهم هانئين ويشربون الفودكا مستبشرين، رأى الحركة الدائبة السريعة المحمومة عامَّة في كل مكان، والجنود يصطفون حسب نظام المعركة ويعاينون بنادقهم. تأكد من أنَّ الاستفزاز الذي تعتلج به نفسه، يصطخب في كل القلوب من حوله ويبدو واضحًا على الوجوه، كان يبدو على الجنود والضباط على السواء أنهم ينطقون بلسان حال موحد قائلين: «ها هي ذي المعركة أخيرًا! إنها مخيفة لكنها مع ذلك مسلية!»

وقبل أنْ يصل إلى الأكواخ التي كانت قيْد البناء، شاهد في غسق تلك الأمسية من أيام الخريف كوكبة من الفرسان تقترب من مكانه، كان في طليعة الفرسان فارس متدثر بفروة قوقازية وقلنسوة من جلد الخروف، يعتلي صهوة جواد أبيض، كان ذلك الفارس الأمير باجراسيون، فتوقف بولكونسكي بانتظار قدومه، عرفه باجراسيون الذي توقف بدوره على مقربة وأشار له برأسه أنْ يقترب، وظلَّ يراقب ساحة المعركة وهو يصغي إلى تقرير مساعده.

كانت فكرة: «تلك هي إذن المعركة!» مرتسمةً بالمثل على وجه باجراسيون البرونزي القاسي، الذي كانت عيناه المذبذبتان نصف المغمضتين تبدوان وكأن صاحبهما مستغرق في سُبات عميق، أو أنه لَّما يستيقظ من غفوته بعدُ، راح الأمير آندريه يتفحص بفضولٍ قلِق ذلك الوجهَ الجامد، أخذ يحدِّث نفسه: «تُرى بماذا يفكر هذا الرجل الآن؟ وما هي مشاعره؟ هل هناك شيء وراء هذا الوجه المغلق الجامد؟ هذا إذا كان صاحب مثل هذا الوجه قادرًا على التفكير والشعور!» كان باجراسيون يومئ برأسه بعد كل فقرة من تقرير بولكونسكي ويقول: «حسنًا، حسنًا!» وكأنه كان يعرف من قبلُ كلَّ ما يفوه به مساعده، وكل ما يجري في ساحة المعركة، وكان بولكونسكي لاهثًا من جريه على حصانه، فكانت الجُمل تخرج من فمه متلاحقة متعاقبة، أمَّا باجراسيون فعلى العكس، لقد كان يلقي كل

[1] طولون مدينة فرنسيَّة على ساحل المتوسط، سكانها ١٢٥٧٤٢، وهي منطقة بحريَّة كان الملكيُّون قد سلموها للإنجليز عام ١٧٩٣، لكن بونابرت استرجعها منهما وطردهم عنها، فكانت بداية شهرته العسكرية، ولما كان بولكونسكي يعتقد في نفسه أنه سينقذ الجيش الروسي؛ لذلك فقد أراد بكلمة «طولوني» القول: وأنا متى تبدأ الموقعة التي ستخلِّد شهرتي؟ (المترجم)

كلمة من كلمات بتمهل وبطء شديدَين، بتلك اللهجة الشرقيَّة المعروفة لديه، وكأنه كان يقول أنْ لا حاجة إلى الإسراع والعجلة، مع ذلك فقد ترك جواده ينهب الأرض هدبًا ليصل إلى حيث يقوم توشين بمدفعيته، فالْتحق بولكونسكي بأعضاء معيَّته وبينهم ضابط من حاشية جلالة الإمبراطور الروسي، والمساعد الخاص لباجراسيون، وضابط تابع، وضابط ركن كان راكبًا حصانًا جميلًا مولَّدًا من أب إنجليزي العِرق، وأخيرًا موظف مدني، وهو أحد المنشئين طلب السماح له بمتابعة المعركة، يدفعه حب التطلع والفضول. كان ذلك المدني — رجل ضخم الجثَّة منتفخ الوجه — لا يعرف الاستقرار على سرج الجواد، يلقي حوله نظرات يشفعها بابتسامة ساذجة بريئة، ويشكِّل في مجموعه منظرًا غريبًا مضحكًا وهو في معطفه الرث على السرج المخصص للضباط الفرسان، وسط تلك المجموعة من الفرسان والقوقازيين والضباط المساعدين.

قال جركوف لبولكونسكي: هذا هو السيد الذي يريد مشاهدة المعركة، إنه بدأ يشعر الآن بألم في فجوة معدته.

فأجاب المدني بابتسامة مشعَّة جمعت بين المكر والسذاجة: ولكن كلَّا، يا لَلدعابة!

كان يبدو عليه أنه شديد الابتهاج لاعتباره هدفًا يسدِّد إليه جركوف دعاباته، وكان يتظاهر بالبلاهة أكثر من الجد الذي كان حريًّا به أنْ يكون بالِغَه.

قال الضابط الركن بفرنسيته الركيكة: مضحك جدًّا يا سيد الأمير!

كان يعرف كلمة أمير بالفرنسية تسبقها عادةً كلمة أخرى، وكان على حق في هذا، لكنه ما كان يوفق قط في معرفة تلك الكلمة.

بلغ باجراسيون وأفراد حاشيته عش مدفعية توشين، في اللحظة التي سقطت قذيفة على مقربة منهم.

سأل المدني بلهجته الساذجة: ماذا الذي وقع؟

فأجابه جركوف: فطائر فرنسية!

– آه! باه! أبهذه الفطائر يقتلون إذن؟ يا لَلفظاعة!

كان لسانه ينطق بهذه الأقوال، بينما كان جسمه الضخم على استعداد للاهتزاز تحت وطأة ضحكة مدوية، ولم يكد ينجز جملته حتى سقطت قذيفة ثانية يصحبها صفير مريع قطعتْه صدمة ليِّنة مرنة، وإذا بالقوقازي الذي كان قرب الرجل الضخم إلى الوراء قليلًا، يهوي مع حصانه محطمَين، انحنى جركوف والضابط الركن على عنقَي جواديهما وابتعدا بهما، أمَّا المدني، فقد أوقف حصانه وراح يفحص القوقازي بنظرة متطفلة، كان الرجل قد فارق الحياة بينما كان الحصان لا زال يختبط في النزع الأخير.

ألقى باجراسيون إلى الوراء نظرة طارقة، ولما شاهد سبب الاضطراب الذي حدث، استدار بلا مبالاة وكأنه يقول: «هل تستحق مثل هذه التفاهات شيئًا من الاهتمام؟!» أوقف حصانه برزانة الفارس المقتدر الخبير، وانحنى قليلًا ليمتشق حسامه الذي كان بين طيات «فروته»، كان السيف من طراز قديم مختلف عمَّا درجت العادة على حمله في تلك الأيام، تذكَّر بولكونسكي أنَّ سوفوروف كان قد أهدى سيفه إلى باجراسيون خلال الحرب الإيطالية، فكان لتلك الذكرى في ذلك الموقف العصيب أثرًا جميلًا في النفوس، وفي تلك الأثناء، اقترب صحب الأمير من النقطة التي راح يتأمل منها المعركة الدائرة.

سأل باجراسيون جندي «الحرَّاقة»، الذي كان يقوم بواجبه أمام صناديق البارود: من أية «بطارية»؟

كان سؤاله يهدف في حقيقته إلى القول: «آمل ألَّا تكون خائفًا.» وقد أدرك جندي الحرَّاقات — وهو شاب ممشوق القامة أحمر الشعر، خلَّف الجدري آثارًا باقية على وجهه — مضى السؤال كما يريده الأمير، فأجابه وهو يأخذ وضعية الاستعداد بصوت منطلق نشيط: مِن بطارية الكابتين توشين يا صاحب السعادة.

فأجابه باجراسيون بلهجة متزنة: حسنًا، حسنًا.

ثمَّ مرَّ أمام عربات جر المدافع واقترب من المدفع الأخير.

وبينما كان في طريقه إليه، دوَّى انفجار هائل صَمَّ أذنيه وآذان أتباعه، إنَّ المدفع الرابع كان في تلك اللحظة قد قذف ما في جوفه من حمم، ورأى الأميرُ وصحبُه، خلال الدخان الذي ارتفع من حوله، جماعةً من المدفعيين يمسكون بالمدفع المنطلق، محاولين إعادته إلى مكانه قبل الانطلاق، وكان المكلف رقم ١، وهو فتًى عريض الكتفين، مباعد ما بين ساقيه، يمسك بيده الفرشاة المصنوعة من قطع اللباد، والمخصصة لتنظيف «سبطانة» المدفع، يقفز جانبًا قرب عجلة المدفع، بينما وضع المكلف رقم ٢ في فوهة القطعةِ القذيفةَ الثانية، وكان توشين — وهو قصير القامة كما أسلفنا مربوع الجسم — يندفع إلى الأمام مستندًا إلى حاجز العش، يراقب العدو واضعًا يده على جبهته؛ ليركز أنظاره في النقطة التي يحدق فيها؛ فلم يشعر بِدُنُوِّ الأمير باجراسيون.

هتف توشين بصوته الرقيق الذي كان يسعى لجعله خشنًا ما استطاع: أضف خطَّين آخرين إلى مدى الرمي، وعندئذٍ سنصيب الهدف.

كان صوته لا ينسجم مع شخصه، مع ذلك فقد صاح بقوَّة: القطعة الثانية: نار! هيا يا ميدفيدييف!

استدعاه باجراسيون، فاقترب توشين ورفع إلى حاجز خوذته أصابعه الثلاثة بحركة مضطربة غير موفقة، تشبه حركة الراهب عندما يبارك المصلين المؤمنين أكثر مما تبدو تحيَّة عسكريَّة.

وعلى الرغم من أنَّ وظيفة «بطاريته» كانت محصورة في دك صفوف الجنود الزاحفين، فإنه كان يطلق نيران مدفعيته بضراوة على قرية شوينجرابن، التي كانت ظاهرة أمامه، والتي كانت أعداد كبيرة من الجنود الفرنسيين تتحرك حولها ناشطة، ولما لم يجد أحدًا يمده بالتعليمات حول الهدف ونوع القذائف التي يجب أنْ يستعملها؛ لذلك فقد استشار صف الضابط المساعد له، واسمه زاخارتشنكو، الذي كان يقدِّره ويحترم رأيه، وقرر أخيرًا أنَّ من الأصوب قصف القرية وإشعال النار فيها، فقال باجراسيون على عادته بعد سماعه تقرير ضابط المدفعية: «حسنًا، حسنًا!» واستغرق في تأمل ساحة المعركة التي كانت ممتدة بأكملها تحت أبصاره، وبدا كأنه يضع خطةً ما.

كان الفرنسيون قد نشطوا في التقدم على الجناح الأيمن أكثر من أي خط آخر من خطوط القتال، وكانت نيران البنادق على أشُدِّها في الوادي، حيث يجري النهر على مقربة من الربوة التي كانت سرية كييف معسكرة عليها، وكان صوت الرصاص الملعلع يقبض القلب، أشار الضابط الركن ملفتًا انتباه باجراسيون إلى فصيلة من الفرنسيين كانت قد انتهت من التفافٍ حول الجناح الأيمن الأقصى، وراء فرسان الدراجون (التنين)، وإلى اليسار كانت غابة قريبة جدًّا تقطع الأفق البعيد، أصدر باجراسيون الأمر لسريتين من الوسط بالتوجه إلى الجناح الأيمن لتعزيز قواته، وتجرَّأ الضابط الركن وأبدى ملاحظته على هذا التصرف، مبيِّنًا أنَّ سحب السريتين من الوسط سيجعل «البطارية» دون تغطية، غير أنَّ باجراسيون التفت إليه وراح يحدق في وجهه بعينيه الكامدتين دون أنْ يتفوه بكلمة، وبدا للأمير آندريه أنَّ ملاحظة الضابط الركن سديدة لا يمكن الجواب عليها أو نبذها، لكنْ في تلك اللحظة، جاء أحد الضباط التابعين يعلن أنَّ: قائد السرية (الكولونيل) التي تحارب في منحدر النهر، يُعلم القيادة أنَّ الجيوشَ الفرنسيةَ كثيرةَ العدد التي هاجمته أرغمته على الانطواء إلى حيث يعسكر رماة كييف، فأومأ باجراسيون برأسه وأرسل الضابط على جناح السرعة إلى فرسان الدراجون، يحمل إليهم الأمر بالقيام بالهجوم، بينما مضى سيرًا على قدميه نحو الجناح الأيمن، ولم تمضِ نصف ساعة حتى عاد الضابط التابع يقول بأن الزعيم قائد السرية اضطرَّ للانسحاب إلى الجانب الآخر من الوادي؛ بسبب النيران الحامية التي استقبله بها المهاجمون الفرنسيون في حركة انطوائه على مركز رماة كييف،

وأنه وجد ذلك الانسحاب أكثر تعقلًا؛ خشية أنْ يخسر عددًا كبيرًا من جنوده دون جدوى؛ لذلك فإنه أرسل قنَّاصة إلى الغابة ينتشرون فيها ليفاجئوا العدو من مراكزهم الجديدة.

فقال باجراسيون: حسنًا!

وفي اللحظة التي ابتعد فيها عن «البطارية» لعلع الرصاص بشدَّة إلى اليسار في الغابة، ولما كان الجناح الأيسر بعيدًا جدًّا يتعذَّر عليه الوصول إليه شخصيًّا، فقد أرسل جركوف يحمل أمرًا للجنرال الذي يقود ذلك الجناح — وهو ذلك الجنرال الذي قدَّم جنوده إلى كوتوزوف في برونُّو كما يذكر القرَّاء — يقضي بالتقهقر بأقصى سرعة إلى وراء الوادي؛ نظرًا إلى أنَّ الواقع يدل على أنَّ الجناح الأيسر لن يستطيع الصمود طويلًا أمام العدو. أمَّا توشين ولواء التغطية فلم يعُد يفكر فيهما أحد، لاحظ بولكونسكي — وكان يتابع بمزيد من الاهتمامِ المواضيعَ التي كان باجراسيون يتبادلها مع الضباط القادة، والتعليمات التي كان يصدرها إليهم — أنَّ الأمير لم يكن في الحقيقة لِيُصدر أي أمر، بل إنه كان يتعمد إيهام مساعديه وضباطه بأن كل ما كان يحدث بفعل ضغط الظروف وتطوراتها، أو بمحض الصدفة، أو نتيجة للأوامر التي كان ضباطه يصدرونها لرجالهم، لم يكن خافيًا عليه من قبل، بل إنه وقع وسيقع بناءً على رغبته ومعرفته التامَّة به، مع ذلك، وعلى الرغم من أنَّ الأحداث كانت متروكة للظروف دون أنْ يكون لمشيئته أي أثر فيها، فإن مجرد وجود باجراسيون كان يعطي نتائج مدهشة بفضل الأسلوب الذي كان يتبعه وشخصيته الكيِّسة.

كان القوَّاد الذين يلاقونه بوجوه منقلبة متقلصة قلقة، يتركونه مشرقي الوجه متفائلين، وكان الضباط والجنود يحيِّونه بهتافات بهيجة عند مروره، وقد دبَّ النشاط في أوصالهم فجأةً بقدرةِ قادر، ويجدون متعة كبيرة في إظهار براعتهم وشجاعتهم في حضرته.

الفصل الثامن عشر

الهجوم

وصل الأمير باجراسيون وحاشيته إلى النقطة القصوى من الجناح الأيمن، وراحوا يهبطون الطريق المتعرج الذي كان الرصاص يلعلع بشدة عند سفحه وسط سحاب داكن من دخان البارود، وكلما توغلوا في تقدمهم، ساءت شروط الرؤية، لكنهم كانوا يشعرون جميعًا شعورًا عميقًا باقترابهم السريع من مكان المعركة الحقيقيَّة، ولم يلبثوا أنِ التقوا بطلائع الجرحى، كان أحدهم عاري الرأس تغمره الدماء، متكئًا على ذراعَي رفيقين له، كان يشهق ويبصق دمًا، ولعلَّ الرصاصة أصابته في فمه أو في حنجرته، وآخر كان يمشي وحيدًا بشجاعة فائقة، وهو أعزل من السلاح، يزمجر وهو يرفع ذراعه التي كان الدم ينزف منها على معطفه وكأنه يتدفق من إناء طافح، كان وجهه يدل على الذهول أكثر مما يحمل من معالم الألم، ولا شك أنه قد أصيب منذ هنيهة فلم يشعر بعد بالألم.

قطع الأمير وجماعته طريقًا معترضًا ثمَّ أصبح المنحدر شديد الوعورة صعب المسلك، وكانت جثث القتلى مبعثرة فوق المنحدر الذي كانت جماعة من الجنود تتسلقه بصعوبة بالغة، لاهثة الأنفاس، دون أنْ يكونوا جميعهم مصابين بالجراح، ولم يمنعهم التقاؤهم بالجنرال عن إلقاء المواعظ وتحريك الأطراف تبعًا للحديث، وإلى الأمام كان الأمير وجماعته في وضع يساعدهم على تمييز صفوف من ذوي المعاطف الرصاصية اللون. ولما أطلَّ باجراسيون، هرع أحد الضباط يقطع الطريق على الهاربين يأمرهم بالعودة إلى صفوف المعركة، اقترب باجراسيون من الصفوف حيث أزيز الرصاص يطغى على أصوات الأوامر والصيحات، كان الهواء مشبعًا بالدخان، والجنود منقلبي الوجوه وقد تراكم دخان البارود ورشاشه على وجوههم فسوَّدها، وكان بعضهم يحشو بندقيته مستعينًا بعصي خاصَّة، والبعض الآخر يضع «الكبسولات» في أماكنها ويُخرج الرصاص من جيب الذخيرة الجلدي المتدلي إلى نطاقه، بينما كان الفريق الآخر يتولى مهمة إطلاق تلك البنادق، ولكن على من

كانوا يطلقون؟ ذلك ما كان لا يمكن معرفته؛ لأن الدخان الكثيف كان يقف حائلًا دون رؤية الأبعاد، خصوصًا وأنَّ الريح كانت هادئة ساكنة؛ مما ساعد الدخان الكثيف على البقاء على ارتفاعه الخفيض فوق الرءوس، ومن حين إلى آخر، كان نوع من الصفير أو الدندنة المكتومة تطرق الأسماع، راح الأمير آندريه يتساءل وهو يقترب من القطعة المحاربة: «ما هذا على وجه الضبط؟ إنه ليس هجومًا؛ لأن الجنود كانوا جامدين في أماكنهم، وليس تشكيل مربعات منظمة، لقد كان الأمر خلافًا لكل ذلك.»

كان رئيس السرية زعيمًا عجوزًا هزيلًا، كانت أجفانه نصف المغلقة تضفي على وجهه طابع الدماثة والحِلم، اندفع بحصانه إلى حيث كان باجراسيون واستقبله بما يليق به من حفاوة، أشبه بصاحب بيت كريم عندما يحتفي بضيف رفيع الشأن. أطلع الأمير على أنَّ سرِيَّته تعرضت لهجوم من قِبل فرسان الفرنسيين، فصدت الهجوم لكن سريته خسرت نصف تعدادها من الرجال على أقل تقدير، ولجأ الزعيم في بيانه عن صد هجوم الفرسان إلى تعبير فني؛ ليبيِّن ما وقع في سريته من الأضرار، والحقيقة أنه كان يجهل كليًّا مدى الأضرار التي لحقت برجاله خلال نصف ساعة، وما وقع أثناءها، وهل صمدت للمهاجمين أم تنحَّت لهم عن مراكزها، كل ما كان يعرفه هو أنَّ القذائف والقنابل راحت تمطر بغزارة على سريته عند بدء المعركة، ففقد عُشر رجاله، وأنَّ بعضهم صاح بعد ذلك قائلًا: «الخيَّالة!» فراح الروس يطلقون النار وما زالوا يطلقون نيرانهم باستمرار، وإنْ لم تكن في تلك اللحظة على الفرسان الذين تراجعوا قبل ذلك، بل على المشاة الذين اقتربوا من الوادي دون أنْ يقتصدوا هم الآخرون برصاصهم وبارودهم. أومأ باجراسيون برأسه إشارة يُفهم منها أنَّ كل شيء قد وقع طبقًا لِما كان يتوقعه وينتظره، ثمَّ التفت إلى ضابطه المساعد وأمره أنْ يصعد إلى ذروة التل، فيأتي بالسريَّتَين التابعتين لفرقة القنَّاصة السادسة، اللتين مرَّ بهما منذ قليل. بدا على وجه باجراسيون تحوُّل مفاجئ دُهش له الأمير آندريه أسمى دهشة، كانت قسماته في تلك اللحظة توحي بالعزم المتيقِّظ المركَّز؛ شأن الرجل الذي عزم أخيرًا على القفز إلى الماء للخلاص من حرارة يوم قائظ محرق. اختفت نظرته الجامدة الخاملة، وتبدد ذلك المظهر الخدَّاع الذي كان يسلكه في عداد المفكرين الهادئين المتعمقين، واتقدت عيناه ببريق حماسي مشبع بالازدراء، فحاكت عيناه المستديرتان القاسيتان عيون الجوارح، التي تهمُّ بالانقضاض فتشْخَص ببصرها إلى الفريسة غيرَ عابئة بكل ما حولها، وراح باجراسيون ينظر إلى الأمام محدقًا غير حافل بما يدور حوله، كان هذا التحول المفاجئ متنافيًا مع الهدوء المتزن الذي كان يرافق حركاته من قبلُ تنافيًا غريبًا.

راح الزعيم قائد السرية يتوسل إلى باجراسيون بالابتعاد؛ لأن المكان خطير جدًّا، وكان يكرر قوله: «رحماك يا صاحب السعادة، ناشدتك الله»، ويبحث عن عينيه بأنظاره محاولًا التقاءهما علَّ الأمير يقرأ في عينيه ما يهيب به أنْ يبتعد عن المكان، لكن باجراسيون كان شاخص البصر إلى الأمام، فلم يكن يسمع قول الزعيم ولا تأييد الضابط الركن له. أخذ الزعيم يلح على الأمير قائلًا: «رباه، تبيَّنْ ما حولك أرجوك!» ويحاول لفْت اهتمامه إلى الرصاص الذي كان يئز فوق الرءوس ويصفر ويدندن، كانت لهجته مشبعة بإصرار البنَّاء المتذمر الذي يريد أنْ يمنع «معلمه» من استعمال فأسه الخاصَّة، كان يقول: «إنَّ هذا ليس من عملك يا صاحب السعادة، إننا بَلَوْنا هذا العمل فألِفْناه، أمَّا سعادتك فإنك لن تربح من ذلك إلَّا إصابات وجراحًا.» وكان من يصغي إلى حديثه يكاد يظن أنَّ تلك الرصاصات المتطايرة المنتشرة في كل مكان حوله عاجزةٌ عن الإضرار ومسه بسوء، وكانت عيناه نصف المغلقتين تضفيان على حديثه وتوكيداته لونًا من القناعة الصارخة، وانضم مندوب الأركان العامَّة إلى الزعيم مؤيدًا، فكان كل رد باجراسيون أنْ أصدَر أمرًا بالتوقف عن إطلاق الرصاص، وبانسحاب الأحياء من سرية الزعيم؛ لتحل محلهم السريتان الجديدتان. وفي تلك الأثناء هبَّت الريح فأزاحت ستار الدخان الكثيف إلى اليسار وكأن أيدٍ خفيَّة دفعت به بعنف في ذلك الاتجاه؛ وانكشفت لأبصار باجراسيون وصحبه الرابيةُ المقابلة وقد غطاها الجنود الفرنسيون الزاحفون. اتجهت الأنظار كلها بصورة عضوية إلى ذلك الحشد الزاحف، كان العدو يسير في خطوط ملتوية على الطريق الدائرية، كان الناظرون يميزون القلانس ذات الريش، بل ويفرِّقون بالعين المجردة بين الضابط والجندي، ويرون بوضوح العلَم الذي كان يخفق على الصارية.

قال واحد من الأتباع ملاحظًا: إنهم يسيرون سيرًا حسنًا منظمًا.

بدأت مقدمة الزاحفين تنحدر إلى الوادي، فكان تقابُل الفريقين متوقعًا عند سفح المراكز التي يحتلها الروسيون.

عادت فلول السرية المشتتة إلى الاصطفاف بسرعة والانسحاب إلى اليمين باتجاه المؤخرة، دافعة أمامها المتسكعين والمتخلفين من الجنود، واقتربت سريتا فيلق القنَّاصة السادس بنظام جميل، بدأ وقْع أقدامهم الإجماعي الثقيل يتردد ويصك المسامع بإيقاع موزون رتيب، تشترك فيه أقدام القادمين دون استثناء. وصل الجنود الجدد إلى المستوى الذي كان يقف فيه باجراسيون، فكانت السرية اليسرى أقرب من الأخرى إلى حيث وقف الأمين، فأتيح لمرافقيه رؤية قائدها الشاب الجميل، الذي عرف فيه بولكونسكي ذلك

الضابط الذي أفلت جاريًا من كوخ توشين عند انفجار القذيفة الأولى، كان وجهه المستدير مطبوعًا بطابع البلاهة والغبطة معًا، ولعلَّ سعادته في تلك اللحظة كانت راجعة إلى شرف استعراضه من قِبل الأمير وهو على رأس فرقته، ولم يكن إحساس الجنود الآخرين ليختلف عن مشاعر ذلك الضابط الشاب، كان ذلك الضابط يراقب حركاته ووضعيته ولا شيء سواهما، فكان منصرفًا بكليَّته إلى هذه الناحية، كان يرفع ساقيه القويتين دون أنْ يبذل أي عناء، شأن العسكري المحترف، ويضرب بقدميه الأرض؛ حتى لَيُخيَّل للناظر إليه أنه يسبح في بِركة ماء ويطفو عليها جسده، فكانت مشيته الرشيقة الخفيفة غير منسجمة مع إيقاع أقدام الجنود الذين كانوا يسيرون على هدي مشيته، وكان يتدلى إلى منطقته سيفٌ بدون غمد رقيقُ النصل ضيِّقُه — وهو واحد من تلك السيوف المحدودبة التي لا تشبه الأسلحة في شيء — ويدير بصره نحو رؤسائه حينًا وإلى الوراء صوب جنوده أحيانًا، وهو يلوِّح بساعديه القويتين فيتأرجح جسمه المتين على إيقاعها، كان يبذل كل قواه ليبدو العرض الذي يرأسه في أوج الدقَّة والانسجام، ولا شك أنه كان سعيدًا لنجاحه في مسعاه وفوزه في أداء واجبه على الوجه الأكمل، فكان مظهره يوحي بأنه يهتف بانتظام: «شمال ... شمال ... شمال ...» وهو يدق الأرض بيسراه فيتحرك الجدار الحي وفْق ذلك الإيقاع الرتيب، وهكذا كانت تسير مئات من النفوس، رجال ذوو وجوه صارمة، متشابهة رغم اختلاف مشاربهم، أحنوا ظهورهم تحت ثقل أكياسهم العسكرية وبنادقهم، بدا كلٌّ منهم مستجيبًا أثر كل خطوة إلى النداء الخفي المتردد بانتظام: «شمال ... شمال ... شمال ...»

بُهِرت أنفاس ضابط سمين برتبة ماجور وفقد الإيقاع المنظم، فاستدار حول دغل صغير ليصحح من خطوه، وجرى جندي متعب متخلف أجفل رعبًا من تأخره، فالْتحق بسريته راكضًا منتظمًا في الصف الأخير، وسقطت قذيفة مرت فوق رأس باجراسيون قبل أنْ تنقض على السرية المتحركة، فأحدثت أضرارًا جسيمة، غير أنَّ الجدار المتحرك لم يتوقف ولم يضطرب في مشيته الإيقاعيَّة: «شمال ... شمال ...» وكل ما في الأمر أنَّ الضابط الجميل أصدر أمره قائلًا: «تراصُّوا!» كان لصوته وقْع بليغ؛ فراح الجنود يرسمون قوسًا حول المكان الذي سقطت فيه القذيفة؛ ليعودوا إلى نظامهم البديع بعد تخطِّي ذلك العائق غير المنتظر، تخلَّف أحد رؤساء الأفصال، وكان صف ضابط مسنٌّ يزين صدره بالأوسمة، ليحصي عدد القتلى والجرحى، وما لبث أنْ هرع يلتحق بالسرية في مكانه المقرر على الجناح، فبدَّل خطوته لتنسجم مع الإيقاع، واندمج كليًّا مع السائرين وهو يلقي وراءه نظرات غاضبة حانقة، وعاد صوت الخطى: «شمال ... شمال ...» يتردد من جديد معكرًا السكون الثقيل الكثيف، الذي كانت الخطى الإجماعية الرتيبة تقرع الأرض فتبدده.

قال الأمير باجراسيون للجنود: هيا يا أبنائي، تصرَّفوا تصرُّف الأبطال البواسل.

فأجاب الجنود بصوت واحد: سنعمل خير ما في وسعنا يا صاحب السعادة.

وبينما كانوا يهتفون جميعًا، حدج أحدُهم — وهو فتًى عابس الوجه كان يسير إلى اليسار — الأميرَ باجراسيون بنظرة قاتمة، وكأنه يقول: «إننا نعرف ما يجب، يا للشيطان!» وكان آخَر يصيح ملء حنجرته هاتفًا دون أنْ يدير رأسه إلى حيث كان الأمير، وكأنه يخشى أنْ ينسيه ذلك انتظامَ خطواته مع المجموعة السائرة: صدرت الأوامر بالتوقف وبنزع الأكياس عن الظهور.

استعرض باجراسيون الصفوف ثمَّ ترجل عن جواده وسلَّم أعنَّته إلى أحد القوقازيين، بينما ألقى «بفروته» إلى قوقازي آخر، وحرك ساقيه ليعيد إليهما النشاط وسوَّى مِن وضع قلنسوته، كانت الكتيبة الفرنسية الزاحفة، وعلى رأسها ضباطها، قد بلغت في تلك اللحظة حدود المنحدر.

دوَّى صوت باجراسيون الحازم آمرًا: إلى الأمام وبعناية الله.

واستدار فترة نحو جنوده، ثمَّ رفع ساقه اليسرى — وهي ساق فارس لم يُحسن قط السير المنظم — وقرع بها الأرض متقدمًا، ملوحًا بذراعيه، وراح يتقدم نحو العدو فوق أرض مليئة بالأخاديد، شعَر الأمير آندريه بقوًى خفيَّة تدفعه إلى الأمام، فاندفع لاحقًا بالأمير باجراسيون والسعادة ملء إهابه.

كانت تلك المعركة هي التي قال عنها تيير:[١] «لقد تصرَّف الروس ببسالة. وقد شوهدت في تلك المعركة — الأمر الذي يندر وقوعه في الحروب — كتلتان من المشاة تسير كلٌّ منها بحزم وعناد وتصميم نحو الأخرى، دون أنْ تتفكك وحدة صف إحداهما قبل التقائها بالأخرى.» وكتب نابليون عن هذه المعركة في القديسة هيلين — منفاه: «لقد أظهرتْ بعضُ القطعات الروسية شجاعة خارقة.»

أصبح الفرنسيون على مسافة قريبة جدًّا، واستطاع بولكونسكي — الذي كان يسير إلى جانب باجراسيون — أنْ يرى بوضوح حمالات أسلحة الجنود والأشرطة الحمراء

---

[١] أدولف تيير، سياسي ومؤرخ فرنسي، وُلِدَ في مرسيليا عام ١٧٩٧ وتوفي عام ١٨٧٧، مؤلف تاريخ الثورة الفرنسية، وتاريخ القنصلية والملكة ... إلخ. وبدأ محاميًّا في أيكس XA عام ١٨١٩، ثمَّ جاء إلى باريس فاشتغل في الصحافة وأسس جريدة الناسيونال عام ١٨٣٠، وساهم في إقامة الدولة في تموز عام ١٨٣٢، وأصبح وزيرًا ثمَّ رئيس وزراء عام ١٨٣٦ فنائبًا ١٨٤٠، وقام بأعمال مجيدة لوطنه. (المترجم)

التي تزيِّن الأكتاف، بل والوجوه أيضًا. ولاحظ كذلك أنَّ ضابطًا فرنسيًّا حسنًا ذا ساقين ملتويتين يتسلق المرتفع بمشقَّة بالغة، لم يُصدر باجراسيون أي أمر، بل ظلَّ في تقدمه بخطاه المنتظمة على رأس الجنود، وفجأةً انطلقت رصاصة من صفوف الفرنسيين أعقبتها ثانية فثالثة ... ولعلع الرصاص على طول صفوفهم المتفرقة بين سحب من الدخان الكثيف، سقط بعض الجنود الروس، وكان الضابط الجميل — الذي كان منذ حين يسير على رأس جنوده — يستخفه الفرح، فيضبط الإيقاع بنظام مكين في عداد الساقطين، وكان باجراسيون، إثر انطلاق الرصاصة الأولى، قد توقف والْتفتَ إلى جنوده وهتف بصوت قوي: هورَّا!

فرددت الحناجر كلها مثل ترديد الصدى: هورَّا...ا...ا!

واندفع الجنود يتخطون الجنرال ويتدافعون، يتفرجون بالحيوية والحماس، فانحدروا إلى أسفل التل دون نظام، وارتموا على الفرنسيين الذين تفرقت صفوفهم بالمِثل.

الفصل التاسع عشر

جرح روستوف

أتاح هجوم فيلق القنَّاصة السادس انسحابًا منظمًا للجناح الأيمن، بينما كانت مدفعية توشين المغفلة حتى تلك اللحظة، تعرقل تقدُّم الفرنسيين على الخطوط الوسطى؛ لأنهم اضطروا إلى الانشغال بإطفاء الحريق الذي أحدثته مدفعيته في القرية؛ مما أعطى الروسيين الفرصة المواتية للانطواء، وتمَّ الانسحاب عبر الوادي بعجلة صاخبة ولكن دون أنْ يكتسح البلبال والفوضى صفوف الجنود. وبالمقابل، فقد شتت «لانّ»[1] الجناحَ الأيسر الذي كان يضم فيالق كييف وبودولي وفرسان الدراجون، فقد كانت القوة التي تحت إمرته، متفوقة بالعَدد والعُدد على الروسيين، فهاجمتهم وأحاطت بهم من كل جانب، فأرسل باجراسيون الضابطَ المساعد جركوف؛ ليحمل الأمر إلى قائد تلك الفيالق — وكان برتبة جنرال — بالانسحاب فورًا دون تأخير.

اندفع جركوف دون تردُّد، ويده ملتصقة بحاجز قلنسوته بتحية محترمة، يحث جواده باتجاه الجناح الأيسر، لكنه لم يكَدْ يغيب عن أنظار باجراسيون، حتى خانته قواه واستحوذ عليه رعب قاتل جارف، جعله يمضي للبحث عن الجنرال وزملائه القادة في الأمكنة التي لا يمكن أنْ يكونوا فيها، متنكبًا المكان الذي كانت أصوات الرصاص والقذائف تشق فيه عنان السماء. وهكذا، لم يُبلِغ الأمر بالانسحاب!

كانت قيادة الجناح الأيسر مناطة بفعل القِدم إلى الجنرال الذي قدَّم قواته لكوتوزوف قرب برونُّو؛ حيث كان دولوخوف في تلك الأثناء جنديًّا بسيطًا بعد أنْ عوقب بنزع رتبة

[1] جان لان دوق دو مونتوبيللو duc de Montebello، ماريشال فرنسا، وُلِدَ عام ١٧٦٩، وجُرح جرحًا مميتًا أدى إلى وفاته في معركة إسلنج Essleing في ٢٢ أيار عام ١٨٠٩، ساهم في غزوة مصر وساعد بونابرت في انقلابه وتنصيبه إمبراطورًا في ١٨ برومير. (المترجم)

الضابط التي كان حاصلًا عليها، وكان أقصى الجناح يأتمر بأمر كولونيل بافلوجراد، وهو الفيلق الذي يضم في عداده الكونت روستوف، فكان التناحر بين القائدين سببًا في جر سوء تفاهم مدمر؛ لأن كلًّا منهما كان شديد الحقد على الآخَر، وبينما كانت العمليات دائرة بنشاط على الجناح الأيمن، والفرنسيون على وشك التحول للهجوم على الجناح الأيسر وفْق خطة آنية، كان القائدان المتنافسان منهمكَين في جدال ونقاش لم يكن في جوهره إلَّا تبادل عبارات التقريع والتعنيف. أمَّا قطعاتهما، فإنها لم تكن معدَّة إعدادًا طيِّبًا للقتال، خصوصًا وأنهما ما كانا يتوقعان قتالًا في ذلك اليوم بالذات، فكان الضباط والجنود منصرفين إلى أعمالهم العاديَّة السلميَّة، بين فرسان يقدمون العلف لخيولهم، ومشاة يجمعون الحطب للوقود.

كان الزعيم قائدُ الفرسان يقول لضابط تابع للجنرال، ووجْهه شديد الاحمرار من الغيظ: إنني أعترف بأنه أقدم مني بالرتبة فليعمل ما يشاء، لكنني لن أسمح له بالتضحية بفرساني، أيها البوَّاق، اقرع نداء الانسحاب!

غير أنَّ الموقف كان شديد الحرج، والسرعة الكلية متطلَّبة ولازمة؛ فالمدفعية العدوة وطلقات البنادق كانت تتدخل وتمتزج محْدِثة دويًا مريعًا إلى اليمين وفي الوسط، ومعاطف المشاة الفرنسيين التابعين للماريشال لان أصبحت واضحة، وقد بلَغ لابسوها سدَّ المطحنة القريبة ووجهتهم الجناح الأيسر، وبات العدو على صفف مرمى البندقية فقط، فمضى قائد المشاة بمشيته المترددة، إلى جواده فاعتلاه، واتجه مرفوع الجذع متصلِّبَهُ، إلى زعيم بافلوجراد، وتقابل القائدان بعد أنْ تبادلا تحية مهذبة لم تخلُ من غضب عنيف، يحاول كلٌّ منهما حجبه، وقال الجنرال: اسمع يا كولونيل، إنني لن أستطيع إبقاء نصف رجالي في الغابة دائمًا، فأرجوك، هل تسمع؟ أرجوك أنْ تهاجم وأنْ تحتل المكان الملائم في المعركة.

فأجاب الزعيم محتدًّا: وأنا أرجوك ألَّا تتدخل فيما لا يعنيك، لو كنتَ فارسًا …

– إنني أيها الكولونيل في رتبة جنرال دون أنْ أكون فارسًا، وإذا كنتَ تجهل ذلك …

فصاح الكولونيل وقد غدا وجهه بلون الدم: إنني أعرف ذلك تمامًا يا صاحب السعادة، تفضَّل وتنازل بمرافقتي إلى الخطوط الأولى وسترى أنَّ المكان الملائم الذي تتحدث عنه لا يجدي فتيلًا، إنني لن أضحي برجالي لأرضيك أنت.

– إنك تنسى نفسك يا كولونيل، إنني هنا أفكر في كل شيء إلَّا رغبتي ورضائي؛ لذلك فإنني لا أسمح لك بالتكلم على هذا الشكل.

لكز الكولونيل حصانه، فتقبَّل الجنرال التحدي، وعطف جذعه، وزَوَى بين حاجبيه، وتقدم مع غريمه إلى الخطوط الأولى، وكأن خلافهما لا يمكن أنْ يُحسم إلَّا هنا، تحت

وابل المقذوفات النارية. وبينما هما في طريقهما إلى المراكز الأولية، مرت بعض رصاصات إلى جانب رأسيهما، فتوقفا دون أنْ يتفوها بكلمة، لم يُجْدِهما فحص الساحة والأماكن التي تدور فيها المعركة فتيلًا، لقد كان واضحًا لهما في المكان الذي كانا فيه من قبل أنَّ هجوم الفرسان متعذِّر بسبب الأدغال والوديان والمنحدرات، ولأن الفرنسيين كانوا يقومون بحركة الْتفاف حول اليسار، فراح الجنرال والكولونيل يتبادلان نظرة صارمة مفعمة بالخطورة، وكلٌّ منهما يترقب عبثًا أن تبدر عن الآخر أية بادرة تدل على الخوف أو التخاذل، أشبه بِديكَين شرسين قبل المعركة، اجتاز كلٌّ منهما الفحص بنجاح، فلم يَجِدْ أحدهما ما يقوله للآخر، وكان كلٌّ منهما يتحاشى ما استطاع إليه سبيلًا أنْ تبدر عنه بادرة أو حركة يستدل الآخَرُ منها على رغبته في مبارحة خط النار قبله، وكانا على استعداد للبقاء وقتًا طويلًا في مكانهما يختبران شجاعتهما المشتركة، لولا أن انفجرت في الغابة وراءهما مئات من طلقات البنادق رافقها ضجيج وصياح مكتوم، كان الفرنسيون قد انقضُّوا في تلك الأثناء على جنود روسيين يجمعون الأحطاب للوقود، كانت فرصة الفرسان في الانطواء مع المشاة والانسحاب قد فاتت، وكان خط انسحابهم قد قطعه العدو من اليسار، فكان عليهم أنْ يشقوا لأنفسهم طريقًا بالقوة بين صفوف العدو في أرض لا تصلح لجري الخيل.

لم تجد كوكبةُ روستوف إلَّا الوقت الكافي فقط لجمع الصف والوقوف في وجه العدو، وعادت ظروف جسر «الأنز» تمثل في تلك اللحظة؛ إذ لم يكن بين المتحاربين من المعسكرَين شيء يفصلهما إلَّا ذلك الخط المجهول المخيف والرعب الكاسح؛ ذلك الخط الذي يشبه كل الشبه الخطَّ الذي يفصل بين الأموات والأحياء، كان كلٌّ من جنود الفريقين يشعر بذلك الخط الخفي ويتساءل مترددًا هل يجتازه أم يحجم عن اجتيازه، وكيف السبيل إلى الإقدام والإحجام.

هرع الكولونيل، فأجاب غاضبًا على أسئلة ضباطه الذين أقبلوا عليه مستفسرين، وألقى بعدد من الأوامر الغامضة، شأن الرجل الذي يستمسك بيأس مريع بعقليته ورأيه، وعلى الرغم من أنَّ أمر الهجوم لم يؤكده أحد قط، فإن الإشاعة راجت بين الصفوف مؤكدة أنَّ الفرسان يقومون بالهجوم، صدر الأمر: اسـ...تعد!

وأعقب ذلك صليل السيوف وقد أشهرت من أغمادها، غير أنَّ الأمر بالتقدم لم يصدر حتى تلك اللحظة، فلمْ يتحرك أحد قيد أنملة، كانت قطعات الجناح الأيسر كلها بين فرسان ومشاة تشعر أنَّ الضباط أنفسهم عاجزون عن معرفة ما يجب عمله في ذلك الموقف، فسَرَتْ عدوى تردُّد الرؤساء إلى الأفراد أنفسهم.

راح روستوف يحدِّث نفسه وهو يرى أنَّ اللحظة التي سيختبر فيها لذة الهجوم، التي طالما حدَّثه زملاؤه عنها، قد أزفت: «ليقعْ ذلك بسرعة! بسرعة!»

صاح دينيسوف فجأةً: بعناية الله أيها الفتيان، خببًا سرْ!

تماوجت أعناق خيول الصف الأول، وجذب الحصان «شوكا» الأعنة ومضى تلقائيًّا.

شاهد روستوف على مبعدة من صفوف الفرسان الأولى خطًّا داكنًا قائمًا إلى اليمين، لم يتبين معالمه تمامًا، لكنه قدَّر أنْ يكون هو العدو، كانت أصوات البنادق تُسمع بوضوح وإنْ كانت لا زالت بعيدة بَعْدُ، وعلا أمر جديد: خببًا سريعًا سرْ!

شعر روستوف أنَّ شوكا قد مالت مؤخرته ومضى هدبًا، فكان مغتبطًا لتتبُّعه حركات حصانه ومعرفة مؤداها ونتائجها، وازداد انشراحه، شاهد شجرة ضخمة منتصبة بعناد على طريقه، وكانت تلك الشجرة تحتل منتصف ذلك الخط القائم الذي كان يعتقد أنه العدو، وها هو قد اجتاز ذلك الخط المخيف، فلم يحس بالرعب ولا بالخوف، بل على العكس لقد ازداد اطمئنانه وانشراحه، فراح يتمتم وهو يضغط على مقبض سيفه: «آه، سوف أعمل فيهم طعنًا وتقتيلًا!»

انبعث هتاف: «هورَّا» داوٍ، فحدَّث روستوف نفسه: «هيا لِيَصْدِفوني الآن أيًّا كانوا!» ولكز جواده بمهازيه فاندفع شوكا يسابق الريح ويبتعد عن كل الفرسان، وفجأةً ظهر العدو، وتساقط على الكوكبة وابل من الرصاص أشبه بلسعات سوط ذي شُعب، رفع روستوف حسامه متأهبًا للضرب، وفي تلك اللحظة انفصل عنه فارس آخَر كان قد خرج عن الصفوف مثله وسار معه في المقدمة، اسمه نيكيتنكو، وشعر روستوف بأنه محمول باندفاع سرعة وهميَّة ومسمَّر في مكانه بآنٍ واحد، وكأنه في حُلم مخيف، واصطدم به الفارس بوندارتشوك الذي يتبعه، فألقى عليه نظرة غضبى، وجمع جواده ثمَّ مضى مبتعدًا.

تساءل روستوف: «ولكن ماذا بي لا أتحرك؟» وجاءه الجواب على الفور: «لقد سقطتَ، لقد متَّ.» أصبح وحيدًا في ساحة المعركة، فلم يعُد يرى غير الأرض الساكنة وعليها أكواخ مبعثرة، وغابت عن أبصاره الخيول الجارية وفرسانها المُنْحَنون على ظهورها، شعر بدم حار يغسل جسده، فقال يحدِّث نفسه: «كلَّا، إنني لست جريحًا، إنَّ شوكا هو الذي قُتل.» والواقع كان كذلك، فقد حاول شوكا النهوض على قائمتيه لكنه لم يفلح، وعاد يسقط من جديد ساحقًا تحت ثقله ساق فارسه، كان رأس الجواد مخضَّبًا بالدم، وكان الحيوان يتخبط دون أنْ يستطيع الوقوف على قوائمه، أراد روستوف أنْ ينهض ولكنه أخفق

بالمِثل؛ لأن جزءًا من ثوبه كان مشبكًا بالسرج، أمَّا أين مضى الجنود الروس؟ وأين الأعداء في تلك اللحظة؟ ذلك ما كان يجهله؛ لأنه لم يكن يرى أحدًا حوله.

وأخيرًا استطاع تخليص ساقه والنهوض بعد عناء شديد، راح يتساءل: «في أية جهة يقوم ذلك الخط الذي كان يفصل بين الجيشين؟» لكنه أخفق في الإجابة على ذلك السؤال، عاد يناجي نفسه بقلق: «ألا يُحتمل أنْ يكون قد وقع لي حادث مؤسف محزن؟ هل يُنتظر أنْ يقع مثل ذلك الحادث؟ وإذا وقع، فكيف أتصرف؟» كان سبب هذا التساؤل ما لاحظه على ذراعه اليسرى المشلولة من ثقل إضافي في وزنها، كانت يده تبدو غريبة، غريبة عنه، مع ذلك فقد راح يفتش عبثًا عن آثار الدماء، شاهد فرقة من الرجال يقودها رجل يلبس معطفًا أزرق، ويضع على رأسه قلنسوة غريبة، أسمر الوجه، غامق اللون، أقنى الأنف، فهتف مستبشرًا: «آه! أخيرًا لقد أقبل بعضهم! سوف يغيثونني!» كان ذلك الرجل متبوعًا باثنين فقط ثمَّ ما لبث أنِ انضم إليه عدد آخر كبير، كان أحد القادمين يغمغم أقوالًا لم تكن في نبراتها ومخارجها تشبه اللغة الروسية، وكان أولئك الذين يتبعون الثلاثة المتقدمين، قابضين على فارس روسي كانوا يقودون حصانه من أعنته.

فكرَّر روستوف: «لا شك أنه واحد من جنودنا وقد أُخذ أسيرًا. نعم، إنَّ الأمر كذلك. هل سيأخذونني أنا الآخر؟ ولكن من هم هؤلاء؟ أهم الفرنسيون؟ مستحيل!» كان يرى الفرنسيين يقتربون منه وكان يحس — وهو الذي كان يتحرَّق لِلُقْياهم منذ حين — برعب طاغٍ كلما ازدادوا دنوًّا، حتى إنه لم يعُد يصدق عينيه: «تُرى من هم هؤلاء؟ ولماذا يَجْرون؟ هل يتجهون نحوي؟ تُرى هل سيقتلونني؟ يقتلونني أنا الذي يحبني كل الناس حبًّا جمًّا؟!» راح يفكر في حب أمه له، وعطْف أسرته عليه، وفي أصدقائه الخلص، فبدا له مستحيلًا أنْ يعمد العدو إلى قتله، «ولكن، ما العمل إذا كانت تلك هي غايتهم؟» لبث جامدًا أكثر من عشر ثوانٍ دون أنْ يفقه عن الموقف شيئًا، كان الفرنسي المتقدم — ذو الأنف الأقنى — شديد القرب من روستوف، حتى إن هذا كان يستطيع تمييز تقاطيع وجهه.

كانت سحنة هذا الرجل المتقلصة وهو ينقضُّ عليه وحربته على فوهة بندقيته، قد أحدثت في نفس روستوف هلعًا شديدًا فأشهر مسدسه، ولكن بدلًا من أنْ يطلقه على الفرنسي، رماه به ومضى يعدو هاربًا نحو الأدغال، وكأنه أرنب بري وفي آثاره كلاب الصيد، لم يكن في تلك اللحظة متَّقدًا حماسة للقتال كما كان شأنه في معركة جسر «أينز»، بل كان الرعب القاتل مستوليًا على كيانه كله، الرعب من فقد حياته؛ تلك الحياة الفتية

الحافلة بالبهجة والمرح. راح يركض عبر الحقول، ويقفز فوق الحفر فيتخطاها، بمثل الاندفاع الذي يحرك اللاعب الذي يحاول الفوز في مسابقة الحواجز، كان يلتفت بين الحين والحين بوجهه البريء الفتيِّ الذي كساه شحوب الموت، فتجتاح فقرات ظهره قشعريرة باردة ويخاطب نفسه بقوله: «كلَّا، من الخير لي ألَّا ألتفت.» لكنه قبل أنْ يبلغ الدغل، الْتفت مرة أخرى، كان قد أضحى بعيدًا عن الفرنسيين، ورأى في تلك اللحظة الرجل الذي كان في المقدمة يسرع الخطى وينادي زميلًا له بصوت جهير، توقف روستوف وقال لنفسه: «كلَّا، لا شك أنني مخطئ، يستحيل أنْ يكونوا راغبين في قتلي!» شعر أنه عاجز عن السير إلى أبعدَ مما سار إليه؛ لأن ذراعه اليسرى أصبحت شديدة الثقل، وكأن ثلاثين رطلًا قد أضيفت إلى زنتها الطبيعيَّة، كان الفرنسي قد توقف بالمثل وصوَّب بندقيته إليه، فأغمض روستوف عينيه وانحنى على الأرض، وانطلقت رصاصة ثمَّ أخرى مرَّتا فوق رأسه تصفِّران، فاستجمع آخِر قواه، وحمل ذراعه اليسرى بيده اليمنى، ومضى راكضًا متوغلًا في الدغل؛ حيث كان القنَّاصة الروسيون لا زالوا منتشرين فيه.

الفصل العشرون

بسالة توشين

كانت سرايا المشاة التي هوجمت في الغابة على غير انتظار تفر أمام العدو دون نظام ولا ترتيب، وقد اختلطت الأفصال والوحدات فغدت أشبه بقطعان الماشية. ألقى أحد الجنود، في جنونِ الرعب الذي استولى عليه، صرخةً سخيفة ضمَّنها جملة مرعبة شديدة الوقع في الحروب: «لقد قُطع خط تراجعنا!» فأحدثت هذه الكلمات الغبيَّة رعبًا وذعرًا شديدَين في الصفوف، وانتشرت بين الجنود انتشار النار في الهشيم، فراح الفارُّون يصيحون: لقد أحيط بنا! لقد طُوقنا! لقد ضعنا!

وكان الجنرال، الذي بلغت أصوات الرصاص مسامعه، جاء مسرعًا من الخطوط الخلفية، وقد وصل في تلك اللحظة، فقدَّر أن خطبًا جللًا قد وقع في سريته. أقلقه أنْ يُعزى إليه — وهو الضابط القديم المثالي — إهمال في القيادة أو خطأ فيها، وبلغ من اضطرابه وبلباله أنْ نسي عصيان «كولونيل» الفرسان، ونسي كرامته كجنرال، فثبَّت نفسه فوق السرج واندفع بحصانه غير مبالٍ بالخطر ولا شاعر به. اخترق ستارًا كثيفًا من الرصاص المتطاير دون أنْ يصاب لحسن الحظ بأذًى، كان جُلُّ همه منصرفًا إلى شيء واحد؛ معرفة ما يدور في تلك اللحظة بين رجاله مهما غلا الثمن، وإصلاح الوضع ما استطاع إلى إصلاحه سبيلًا، وإنقاذ نفسه والترفع بها عن مزالق الخطأ، وهو الذي أمضى اثنين وعشرين عامًا في الخدمة دون أنْ يتعرض لأي نقد أو لوم.

وبعد أنِ اخترق صفوف الفرنسيين دون أنْ يصاب بأذًى، وصل إلى حدود الغابة التي كان جنوده ينحدرون منها متصامِّين عن سماع الأوامر، وكأن في آذانهم وقرًا، كان ذلك الموقف من تلك الفترات النادرة التي تنتصر فيها البلادة الفكرية وعدم الرويَّة على الرصاص المتطاير المتلاحق، فهل كانت تلك الشراذم المتداخلة المضطربة من الرجال

تصغي إلى أوامر رئيسها وتلبي نداءه، أم أنها ستلقي عليه نظرة لامبالاة وتستمر في فرارها؟ كان الجانب الأخير من هذا التساؤل هو الأكثر توقعًا؛ ذلك أنَّ الجنود، رغم نبرات ذلك الصوت الآمر الذي طالما رهبوه وخشوه، ورغم ذلك الوجه المصطبغ بحمرة قانية لاندفاع الدماء الثائرة فيه، ورغم تهديدات السيف المشرع وقسمات ذلك الوجه العاتي؛ ظلوا في فرارهم، يطلقون النار في الفضاء، ويتصايحون ويرفضون الانصياع للأوامر، لقد كان اتجاه التردد النفسي منصبًّا نحو الذعر والإفلات.

بحَّ صوت الجنرال من الصراخ، وامتلأت حنجرته بدخان البارود المحترق، فتوقف يائسًا تمامًا، بدا له أنه فقد كل شيء، ولكن فجأةً، ودون سبب ظاهر، استدار الفرنسيون الذين كانوا يطارِدون فلول الهاربين، وغادروا حدود الغابة التي ظهرت عليها، بما يشبه المعجزة، فصيلةٌ من القنَّاصة الروسيين. كانت تلك الفصيلة، فصيلةُ تيموخين، هي وحدها التي حافظت على النظام في صفوفها؛ فكمنت في الغابة حتى إذا بلغ العدو مقربة منها، انقضَّت عليه فجأةً، وكان أنِ ارتدَّ العدو مأخوذًا بالمفاجأة، وكان تيموخين مسلحًا بسيفه الصغير فقط، فارتمى على الفرنسيين بجرأة السكير الجنونية، وراح يطلق صرخات مرعبة مروعة، حتى إنَّ هؤلاء لم يجدوا الوقت الكافي لتعرُّف أوضاعهم، فألقوا ببنادقهم على الأرض وولوا الأدبار، وكان دولوخوف في تلك اللحظة متجهًا نحو تيموخين، فقَتل فرنسيًّا في طريقه من مسافة جد قريبة، وكان أول من أطبق على عنق ضابط فرنسي وأخذه أسيرًا، وكان لهذه المفاجأة وقْعها، فارتدَّ الروسيون الهاربون وعادت صفوفهم تنتظم؛ وبذلك رُدَّ العدو، الذي كان يقطع الجناح الأيسر إلى قسمين، على أعقابه مؤقتًا. وهكذا اجتمعت القوات الاحتياطية التي بقيت قريبة في متناول يد الجنرال، وعاد الفارُّون إلى صفوفهم.

كان الجنرال باجراسيون مصحوبًا بالمأجور أيكونوموف يُشرف بنفسه قرب الجسر على انسحاب قطعات جيشه، وفجأةً رأى جنديًّا يقترب منه فيمسك بركابه ويعتمد بجسمه عليه، كان ذلك الجندي مرتديًا معطفًا حائل اللون ميالًا إلى الزرقة من قماش ثمين، ولم يكن يحمل كيسه ولا قلنسوته، لكنه كان يتمنطق بجيب عتاد فرنسي ويحمل في يده سيف الضباط، كان شاحب الوجه معصوب الرأس، وكان يحدج رئيسه بعينين زرقاوين تشع من زرقتهما الباهتة نظرة صافية، بينما انفرجت شفتاه عن ابتسامة، وعلى الرغم من شدة انصراف الجنرال إلى إعطاء أوامره إلى المأجور المرافق، فإن اهتمامه تحوَّل إلى ذلك الجندي الغريب المظهر.

قال دولوخوف بصوت متقطع وهو يعرض جيب العتاد الجلدي والسيف: هاتان غنيمتان يا صاحب السعادة وقد أسرتُ ضابطًا، والفضل لي في صمود سريتنا، وجميعُهم يشهدون لي بذلك، فأرجو أنْ تتفضل سعادتك بتذكُّر ذلك.

فقال الجنرال: حسنًا، حسنًا.

وأراد العودة إلى إصدار أوامره للضابط الركن، غير أنَّ دولوخوف لم يتراجع، بل نزع رباط رأسه وحسر عنه مُظهرًا الدم المتجمد بين شعره وقال: ها هو ذا جرح أصابني من حربة، مع ذلك فإنني لم أخرج من الصفوف، فعسى أنْ تتذكروا سعادتكم ذلك.

كانت مدفعية توشين قد نُسيت تمامًا، ولم يتذكر الأمير باجراسيون أمرها إلَّا عندما لاحظ في آخر المعركة أنَّ قذف المدافع ما زال مستمرًّا في الجبهة الوسطى، فأرسل الضابطَ الركن، ثمَّ أعقبه بالأمير آندريه ليحمل الأمر إلى توشين بالانسحاب بأقصى السرعة، وكانت المدفعية مستمرة في قصف العدو رغم أنَّ جنود التغطية كانوا قد اختفوا بنتيجةِ أمْرٍ لا يَعلم إلَّا الله من أصدره. وإذا كان العدو لم يستولِ عليها بعدُ؛ فذلك لأنه ما كان يعتقد أو يتوقع أنَّ أربعة مَدافع فقط دون جنود للهجوم والدفاع يمكن أنْ تظل تقصف خطوطه بمثل تلك البسالة دون انقطاع، وكان رد الفعل الطبيعي لهذا الوضع أنِ اعتقد الفرنسيون أنَّ معظم قوى الروسيين متركزة في الجبهة الوسطى، فهاجموا تلك النقطة مرتين، وفي كل مرة كانوا يتراجعون مندحرين، تصيبهم حمم أربعة مدافع منعزلة مقامة على ذلك المرتفَع.

أفلح توشين في إشعال النار بقرية شوينجرابن بعد ذهاب الأمير باجراسيون بفترة وجيزة.

أخذ الجنود المكلفون بحشو المدافع وتنظيفها يصيحون: انظر، ها هم يميدون! لقد شبَّت النار! انظروا إلى الدخان! إنه لَهدف محكم! رائع! يا للدخان الكثيف، هم، يا للدخان!

كانت المدافع الأربعة تقذف حممها دون انقطاع، دونما حاجة إلى إصدار الأمر إلى المشرفين عليها، الذين عَرفوا واجبهم وعرفوا أنَّ الهدف هو النار المشبوبة، وكان المدفعيون يعقِّبون على كل قذيفة يطلقونها بعبارات مشجعة، وكأنهم يهيبون بحماستهم ويحثون المدافع على الاستمرار: «هيا، هيا! هو كذلك! بديع، لقد أصاب صميم الجمع!» وساعدت الريح على سرعة انتشار النار وامتداد رقعتها، وراحت الوحدات الفرنسية التي كانت تسد مداخل القرية تتقهقر متراجعة، غير أنَّ العدو انتقم لهذا الخذلان الذي أصابه بأن نَصَب إلى يمين القرية عشرة مدافع راحت تصب حممها على مركز توشين.

كان الفرح الصبياني الذي أحدثه حريق القرية في نفوس جماعة توشين، ودقة تصويبهم نحو الهدف، قد ألهياهم عن المدفعيَّة القويَّة التي نصبها العدو ضدهم، ولم يشعروا بخطرها إلَّا عندما سقطت قذيفتان تبعتهما أربع أخرى فوق مركزهم، فقتلت إحداهما حصانين وأطاحت الأخرى بساق أحد سائقي عربات البارود والقذائف، غير أنَّ هذه المفاجأة المزعجة لم تفلَّ من عزم توشين ورجاله، الذين سرعان ما استبدلوا الجوادين النافقين بآخرَين من الحظيرة القريبة، وأخرجوا الجرحى من الميدان، بل جعلتهم يحوِّلون الهدف الذي كانوا يهاجمونه، ويصبون نيران مدافعهم الأربعة على «البطارية» العشرية، كان ضابط توشين الملازم قد قُتل منذ بدء المعركة، ولم تمضِ ساعة حتى كان سبعة عشر جنديًّا من الجنود الأربعين المكلفين بالعناية بالمدافع قد أُخرجوا من ساحة المعركة لإصابتهم بجراح قاتلة أو عادية، مع ذلك فإن الرجال الباقين لم يفقدوا مرحهم وحماسهم، لقد شاهدوا الفرنسيين يهاجمونهم مرتين متعاقبتين، وفي كلتا المرتين ردوهم على أعقابهم بقصف شديد حَصَدَ صفوفهم.

كان ذلك الرجل القصير ذو الحركات الفاشلة المبتسرة، يطلب إلى تابعه في كل لحظة «أنْ يوافيه بغليون آخر جزاءً له»، ويهرع أثر كل قذيفة تطلقها مدافعه الأربعة، إلى الحاجز الأمامي ليطمئن بنفسه إلى سلامة القذف ودقته، ومعاينة صفوف الفرنسيين وحركاتهم، وهو يظلل عينيه بيده الصغيرة.

كان يصيح: النار أيها الفتيان!

ويمسك بنفسه المدفعَ المتراجع بعد الانطلاق ليعيده بمساعدة رجاله إلى مكانه الملائم، ويحل بيده سُلَّم التصويب والتركيز.

كان توشين يمضغ أبدًا غليونه القصير بين أسنانه، ويجري من مدفع إلى آخر؛ يسدد هذا ويحصي ما يُحشى به ذاك، أو يأمر بإبدال الخيول المقتولة المصابة بجراح، ويلقي أوامره هنا وهناك بصوته الرقيق الأجوف، وقد أصمَّه الدوي المتتابع من المدافع، وأعماه الدخان الكثيف، وكان وجهه يزداد إشراقًا وابتهاجًا كلما استمرَّ في دك صفوف العدو وتحصيناته، وكان إذا جُرح أحد رجاله أو قُتل يقطب حاجبيه ويصب جام غضبه على رجاله السالمين الذين كانوا يتأخرون — كالعادة — في إخلاء الساحة من القتلى والجرحى، وكان الجنود — ومعظمهم من الفتيان الوسيمين كما درجت العادة في المدفعية، حيث الجنود يمتازون عن ضباطهم بالطول الفارع، والأكتاف العريضة، والصدور العامرة القوية — يستشيرونه بأبصارهم، كالأطفال الواقعين في مأزق حرِج، وينقلون على وجوههم بكل إخلاص الأمارات التي تبدو على تقاطعية أثر كل استشارة.

ولعلَّ الفضلَ أنَّ توشين لم يشعر بخوف مطلقًا راجعٌ إلى الدوي المصمِّ الذي كان يرتفع حوله، والحاجة إلى مجابهة كل خطر، فكان احتمال إصابته أو مقتله لا يخطر على باله مطلقًا، بل إنَّ بشاشته وخفته كانتا على العكس بازدياد مستمر، كانت الدقيقة الأولى التي أطلق خلالها قذيفته الأولى على العدو تبدو بعيدة جدًّا عن ذاكرته، ولعله كان يعتقد أنها بدأت البارحة؛ إذ إنَّ تلك البقعة من الأرض التي وجد نفسه فيها ولم يعرفها إلَّا منذ وقت قريب بدت لناظريه مألوفة لديه وكأنه يعرفها منذ الأزل. وعلى الرغم من أنه كان يحس بكل شيء، ويذكر كل شيء، ويفكر في كل شيء، وأنه كان يتصرف على أحسن ما يمكن لضابط ممتاز أنْ يفعله في مثل ذلك الموقف، فإن حاله كانت أقرب إلى الهذيان أو الثمل أو الحُمى.

كانت الانفجارات المدوية التي تُحدثها «بطاريته» الناشطة، وصفير القذائف العدوة، وحركة الجنود المكلفين بصيانة المدافع الدائمة السابحين في عرقهم بوجوههم الأرجوانية، ومنظر دماء الرجال والخيول، ومشهد الدخان الكثيف المرتفع من الأسفل؛ دلالةً على انطلاق قذيفة أو أكثر باتجاههم؛ قذيفة قد تصيب مدفعًا أو رجلًا أو حصانًا، أو ترتطم بالأرض، كل ذلك كان يغذي خياله بشتى المرئيات، ويخلق في رأسه جوًّا خياليًّا وعالمًا سحريًّا غريبًا، كان يرى نفسه متلذذًا بالعيش فيه، وبذلك لم تعُد المدافع الأجنبية في نظره مدافع بالمعنى المعروف، بل غلايين يدخنها مدخِّن خفي غير منظور، يلذ له بين الحين والآخر أنْ يُطلِق منها سحابة نحو السماء.

هتف مغمغمًا: خذ، تلك نفحة جديدة!

كانت تلك النفحة سحابة من الدخان ارتفعت فوق موقع مدافع العدو، وانجابت عنه إلى اليسار تدفعها الريح.

أردف يقول: انتظر الآن الكرة لنلتقطها ونعيدها!

سأل الحرَّاق الذي سمعه يزمجر: ماذا ينبغي أنْ نعيد يا حضرة الضابط؟

– لا شيء، قذيفة!

وأردف قائلًا: دورك الآن يا ماتفييفنا Matvéievna.

كان هذا هو الاسم الذي كان يطلقه مجازًا في خياله على القطعة الأخيرة من مدافعه الأربعة، وهي قطعة قديمة، أمَّا المكلف الأول بالقطعة الثانية — وكان فتًى جميلًا يساعده جندي مدمن — فقد عمَّده في خياله باسم «العم»، لقد كان ينظر إلى ذلك الفتى أكثر من سواه، وكانت حركاته ترضيه وتطربه، وكان الفرنسيون المنشغلون حول مدافعهم على

مرمى بصره، يبدون في ناظريه أشبه بالنمل الدائب، أمَّا لعلعة البنادق التي كانت ترتفع تارةً وتخبو أخرى على سفح التل، فكانت في زعمه تنفُّس مخلوق حي، فكان يصيخ السمع إلى إيقاع ذلك التنفس.

هتف ملاحظًا: هه! ها هو ذا يعاود الكرَّة.

كان يتخيل نفسه في تلك اللحظة عملاقًا جبَّارًا يلقي بيديه الاثنتين القذائف على الفرنسيين.

صاح وهو ينحرف عن مدى تراجع المدفع المنطلق: هيا يا ماتفييفنا، جميل جدًّا أيها العجوز العزيز!

وفجأةً، سمع صوتًا آتيًا من ورائه يصيح: كابتين توشين، كابتين!

فروَّعه أنْ رأى الضابطَ الركن الذي طرده من جرانت واقفًا في تلك اللحظة يناديه بصوت لاهث ويهتف به: ولكن ماذا تعمل؟ هل أنت مجنون؟ هذه هي المرَّة الثانية التي يَصدر إليك فيها الأمر بالانسحاب ومع ذلك …

فكر توشين وهو يرفع إلى رئيسه نظراته الوجلة: «ماذا يريدون مني أيضًا؟» وتمتم وهو يرفع إصبعيه إلى حافة خوذته: أنا؟ أبدًا … إنني …

غير أنَّ الزعيم لم يستطع القيام بمهمته على الوجه الأكمل، ذلك أنَّ قذيفة مرت فوق رأسه فكادت تلامس شعره، جعلته يغطس على ظهر جواده مرغمًا، ولما استعاد وضعيته وهمَّ بالكلام، قاطعته قذيفة ثانية، وعندئذٍ حوَّل عنان جواده وفرَّ هربًا.

راح يصيح وهو يبتعد: انسحبوا، انسحبوا جميعكم!

راح الجنود يضحكون، ولم تمضِ دقيقة واحدة حتى وصل ضابط مساعد يحمل أمرًا مماثلًا، كان ذلك الضابط هو الأمير آندريه.

كان أولَ شيء وقعت أبصاره عليه حصانٌ يصهل قرب المكان والدم ينفر من قائمته المحطمة، وكأنه يَخرج من قناة جارية، ورأى الجثث متناثرة على الأرض بين عربات جر المدافع، والقذائف تمر الواحدة تلو الأخرى فوق رأسه. سَرَتْ في ظهره قشعريرة باردة محمومة، غير أنَّ تلك الفكرة التي أخافته هي ذاتها التي ألهمته الصبر وأمدته بالشجاعة، قال في سره وهو يترجل عن جواده: «لا أستطيع الشعور بالخوف.» نُقل الأمر للضابط توشين وقرر البقاء للإشراف بنفسه على انسحاب المدفعية برجالها، فراح توشين والأمير آندريه، يتخطيان الجثث تحت وابل النيران ويُشرفان على عملية الانسحاب.

قال الحرَّاق للأمير آندريه: يا لَحسن الحظ! إنَّ نَبَالتَكم تختلفون عن السيد الذي كان هنا منذ حين، لقد فرَّ ذاك بأسرع من الريح!

لم يتبادل الأمير آندريه كلمة واحدة مع توشين، كان كلٌّ منهما شديد الانهماك والانصراف إلى مهمته؛ حتى لَيقال إنهما ما كانا يستطيعان النظر حولهما، واضطُرَّ الجنود إلى ترك مدفع معطل وقاذفة القنابل، وبعد ذلك قُطِر المدفعان الباقيان وبدأ الموكب يسير، وعندئذٍ دفع الأمير آندريه حصانه نحو توشين وقال له: هيا، إلى اللقاء يا صديقي.

ومدَّ إليه يده مصافحًا، فأجابه توشين: إلى اللقاء يا عزيزي ويا صديقي الباسل.

وأردف بعد حين، وقد شعر بالعَبرات تندفع من عينيه دون سبب ظاهر وتسيل على وجنتيه: الوداع يا عزيزي!

الفصل الحادي والعشرون

هدوء مؤقت

هدأت الريح وراحت سحب من الغيم الأسود تتداعى منخفضة على ساحة المعركة، وتختلط عند الأفق بدخان البارود الكثيف، وكان اقتراب الظلام يزيد الحريقين المشتعلين في مكانين مختلفين حدة وظهورًا، خَفَتَ قصف المدفعية وتضاءل تدريجيًّا، غير أنَّ لعلعة الرصاص ظلَّت على أشدها عند الخطوط الخلفية، وتزداد عنفًا واقترابًا إلى اليمين، ولم يكد توشين يخلص بمدفعيته متخطيًا خطوط الجرحى، منحدرًا إلى الوادي، مبتعدًا عن منطقة النار؛ حتى التقى برؤسائه وبالضباط المساعدين الذين عرف بينهم جركوف والضابط الركن، كان جركوف قد أُرسل مرتين إلى عش المدفعية الذي يقوده توشين، وأخفق في تَيْنِكَ المرتين في بلوغ الغاية، فلم يصل ولم يُبلغ توشين شيئًا، راح رؤساؤه يعنفونه بحدَّة، ويقاطع بعضهم حديث البعض الآخر وهم يوجهون إليه الملاحظات دون أنْ يغفلوا مع ذلك عن إصدار الأوامر وتوجيهها إلى حيث يجب أنْ تصل، ولم يجرؤ توشين على الاعتراض، ولم يردَّ على اللوم الموجه إليه، خصوصًا وأنه كان يخشى أنْ يفتح فمه استعدادًا للنطق بشيء؛ لأنه كان يحس برغبة في البكاء عند أول كلمة تصدر عنه؛ لذلك فقد اكتفى بالصمت وراح يسير في مؤخرة «بطاريته»، ممتطيًا «كديشته» شأن كل ضباط المدفعية.

وعلى الرغم من أنَّ الأوامر قد صدرت بترك الجرحى في أماكنهم، فإن عددًا غير يسيرٍ منهم راح يزحف في أعقاب الجيش المنسحب، طالبين أنْ يُنقلوا على عربات المدافع، وكان ذلك الضابط الجميل طويل القامة — الذي أفلتَ قبل بدء المعركة من كوخ توشين محاولًا اللحاق بوحدته — مسجًّى على عربة ماتفييفنا وفي أحشائه رصاصة، وعند سفح التل كان أحد الفرسان التلاميذ يحمل ذراعه بيده السليمة، يبتهل إلى توشين أنْ ينقله وهو شاحب الوجه خائر القوى، هتف ذلك الفارس الشاب متوسلًا بصوت خجِل: أيها الكابتين، ناشدتك الله! لقد رُضَّتْ ذراعي ولا أستطيع متابعة المشي، أستحلفك الله!

كان صوت ذلك الشاب الضعيف الشاحب، بما كان عليه من خور وضعف، يدل على أنَّ صاحبه قد لقي حتى الآن رفضًا متكررًا من كل من استنجد بهم، أردف يقول: دعني أجلس أتوسل إليك.

فهتف توشين: خلُّوا له مكانًا، خلوا له مكانًا.

واستدار نحو جنديِّه المفضل وهتف به آمرًا: هه، أنت أيها «العم» افرش معطفًا، ولكن أين الضابط الجريح؟

فأجاب أحدهم: لقد نُقل؛ إذ إنه مات.

– هيِّئوا له مكانًا، هيئوا له مكانًا، اجلس يا صغيري، اجلس، افرش المعطف يا أنتونوف.

لم يكن ذلك الفارس التلميذ إلَّا روستوف، كان ممتقع الوجه، ترتعد ذقنه من الحُمى، وكان يحمل يده المصابة بيده الأخرى، وضعه الجنود على عربة ماتفييفنا، على تلك العربة بالذات حيث رُفع عنها الضابط الميت منذ حين، كان المعطف ملطخًا بالدماء، فتلوثت به سراويل روستوف ويديه.

قال توشين: لكنك جريح يا صغيري.

– كلا، بل مصاب بكسر أو رضٍّ.

– إذن لِمَ هذه الدماء على المعطف؟

فأجاب أحد المدفعيين — وكأنه يعتذر عن المكان القذر الذي هيأه للفارس الشاب: إنه الضابط يا صاحب النبالة، لقد ترك دماءه هنا.

وراح يمسح الدماء بكم معطفه.

استطاع توشين بعد جهد خارق، وبعد اللجوء إلى مساعدة المشاة، أنْ ينقل مَدافعه إلى ضفة الوادي المقابلة؛ حيث بلغ الجيش المنسحب ضواحي جونترسدورف Ganthersdorf، وهنا توقف عن السير، كان الظلام قد هبط بحلكته حتى تعذَّر على الرجال تمييز ثوب الجندي على بُعد عشر خطوات، وكانت طلقات البنادق قد خمدت نهائيًّا، ولكن لم تمضِ فترة حتى عاد الرصاص يئز فجأةً على الجناح الأيمن مصحوبًا بصياح وضجيج، وكانت النيران المنطلقة تضيء الظلام كلما قَذفت البنادق ما في أجوافها، كان سبب ذلك الرصاص المفاجئ الهجومَ الأخير الذي قام به الفرنسيون، والذي أجاب عليه الجنود الروسيون المحتمون في المنازل، هرع الجنود كلهم خارج القرية باستثناء توشين ومدفعيته، ذلك أنَّ توشين أضحى عاجزًا عن الحركة؛ لشدة الإعياء الذي أصابه ذلك اليوم، راح الضباط

والمدفعيون والفرسان يتبادلون نظرات قلقة دون أنْ يتفوهوا بكلمة، ولم تلبث البنادق أنْ صمتت، وارتفع صخب وضجيج مرتفعين، أحدثهما سيلٌ عرم من الجنود العائدين عبر زقاق في القرية، وهم يتناقشون باحتداد ويتدفقون على شارع القرية الرئيسي.

كان أحدهم يسأل زميله: ألستَ جريحًا يا بيتروف؟

وآخر يقول: يا لها من ضربة أليمة تلك التي أنزلناها بهم! إنهم لن يعودوا بعدها إلى الاحتكاك بنا.

وثالث يقول: لا يرى المرء شيئًا في هذا الظلام. لسنا ندري كم ذبحنا منهم، يا للشيطان! أليس مزعجًا ألَّا يرى المرء شيئًا؟ هل من سبيل إلى شرب جرعة خمر أيها الرفاق؟

رُدَّ الفرنسيون نهائيًّا على أعقابهم، ومن جديد راحت مدفعية توشين تحف بها إطارات متراصة من المشاة، تشق طريقها وسط ذلك الليل البهيم، أشبه بملكة النحل وسط ثَوْل حافل كبير.

كانت تلك الرحلة في ذلك الظلام، تشبه تدفق مياه نهر عرم، بما تحدثه حوافر الجياد ولفظ الحديث، وعجلات العربات، ووقْع الأقدام من ضجيج مكتوم، وكانت تأوهات الجرحى وزمجراتهم تطغى على كل ذلك اللفظ الأصم، فكانوا وحدهم يشكِّلون مع تلك الظلمات وحدة متينة العرى، وكأنهم خُلقوا منها وفيها. وفي فترةٍ ما، وقع صخب بين جماعة من السائرين، ومرَّ فارس على صهوة جواد أبيض يتبعه حرس مواكب وهو يتلفظ بكلمات غير واضحة، فانتثرت الأسئلة من كل مكان؛ أسئلة متلهفة طافحة بالتساؤل والفضول: «ماذا قال الفارس؟ هل وجَّه إلينا التهاني على ما عملناه؟ إلى أين نمضي الآن؟ هل نتوقف هنا؟» وأعقب ذلك تدافُع وازدحام دلَّ على أنَّ الصفوف الأمامية قد توقفت، فشاعت بين الصفوف همسات تقول إنَّ الأمر قد صدر بالتوقف، وعندئذٍ توقفت الكتلة البشرية الكبيرة وسط ذلك الطريق الموحل.

أُوقدت النار في مكانين ووضحت الأصوات، وبعد أنْ أصدر الكابتين توشين التعليمات اللازمة لاتخاذ التدابير الملائمة المتعلقة بقضاء الليل في ذلك المكان، أرسل من يستقدم عربة إسعاف أو طبيبًا لمعالجة الفارس التلميذ، وجلس قرب نار أوقدها الجنود على الطريق، فزحف روستوف حتى بلغ مكان توشين، كان قشعريرة الحُمى تجتاح كل جسده؛ بسبب الكسر الذي أصيبت به ذراعه، والبرد والرطوبة اللذان تعرَّض لهما، وكانت ذراعه تؤلمه ألمًا شديدًا أطار النوم عن عينيه، رغم شديد حاجته إليه، فكان يغمض عينيه

حينًا ويحدق بالنار المشبوبة التي كان يُخيل إليه أنها مصبوغة باللون القرمزي حينًا آخر. وبين الحين والحين، كان ينقل بصره إلى توشين الجالس على الأرض على الطريقة التركية محدودب الظهر، ينظر إليه بعينيه الكبيرتين المتوقدتين الطيبتين نظرات مفعمة بالعطف والإشفاق. كان روستوف يشعر في قرارة نفسه أنَّ توشين يود من صميم فؤاده لو يستطيع مساعدته، وأنه يتألم لعجزه عن ذلك.

جلس الجنود المشاة في حلقة دائرية حول النار، فكانت خطواتهم وأصواتهم ترتفع من كل مكان ممتزجة بوقع حوافر جياد الفرسان الذين كانوا يمرون بالقرب منهم. كانت تلك الأصوات والخطوات، ورَدَيَان الخيول في الوحول، وفرقعة الأخشاب المشتعلة في النيران المشبوبة القريبة منها والبعيدة؛ تُشكل إلى حدٍّ ما صوتًا أشبه بتلاطم الموج في محيط لَجِبٍ في ليلة عاصفة، توقف السيل الخفي العرم عن التدفق وسط ذلك الظلام الحالك، وأصبح الحال في تلك الأثناء أقرب شبهًا بالبحر الزاخر المعتكر، الذي يعود إلى السكون والتماوج الهادئ بعد عاصفة عاتية هوجاء.

راح روستوف ينظر ويسمع ما يدور حوله وأمامه دون أنْ يفقه منه شيئًا، واقترب أحد المشاة، فَقَعَى بالقرب من النار ومد يديه يصطلي الدفء وهو يشيح بوجهه قائلًا لتوشين: أتسمح نبالتك؟ إنني كما تراني نبالتك قد أضعتُ سريَّتي فلا أدري أين تركتُها، آمُل ألَّا يزعجك وجودي.

وفي تلك الأثناء، جاء رئيس من سلاح المشاة معصوب الوجه يوجه الحديث لتوشين، طلب إليه أنْ يُبعد مدافعه قليلًا؛ لأنها كانت تعرقل سير عربات مهماته، ثمَّ أعقب ذلك مَقْدم جنديين يتنافسان على مِلكية حذاء يدَّعي كلٌّ منهما أنه له ويَكِيل للآخر السباب.

كان أحدهم يصيح بصوت أجش: هل التقطتَه أنت؟ إنك — ولا شك — أسوأ من ذلك حتى تدَّعي ملكيته!

وجاء جندي هزيل شاحب الوجه، يلف عنقه بجورب ملطخ بالدم، يطلب ماء للمدفعيين بلهجة غاضبة، كان يغمغم بانفعال: إنكم لن تدَعوني على كل حال أَنْفُق ككلب حقير!

أمر توشين أنْ يجاب طلبه، وجاء بعدئذٍ أحد المهزارين، جاء يطلب شعلة نار بقوله: «أريد نارًا صغيرة شديدة الاحمرار لِفتيان الصف.» فلما أجيب إلى طلبه قال: شكرًا يا أبناء البلد، الْبَثوا في أماكنكم دافئين، أمَّا النار فلا تقلقوا من أجلها، سوف نردها لكم … عندما تلد أطفالًا صغارًا!

وابتعد مازحًا وهو يلوِّح بيده قطعة من الخشب المشتعل، وبعد قليل مرَّ أربعة من الجنود كانوا يحملون شيئًا ثقيلًا في معطف تعاونوا على حمله، فتعثَّر أحدهم وتمتم محنقًا: لا بأس، ها هم قد زرعوا الطريق كلها بقطع الحطب، يا للملاعين!

فقال آخر: ما دام أنه ميت، فأية فائدة نجنيها في نقله؟

– إه! لِيحملْكَ الشيطان!

وابتلعتهم الظلمات وحملهم الثقيل.

سأل توشين روستوف بصوت خفيض: وإذن، هل تؤلمك ذراعك؟

– نعم.

تقدَّم أحد الحرَّاقين في تلك اللحظة يقول: إنَّ الجنرال يطلب من نبالتك المثول بين يديه، إنه هنا في الكوخ على مقربة.

فنهض توشين وزرَّ معطفه وهو يقول: على الفور يا صديقي.

وابتعد وهو يُصلح هندامه على قدر استطاعته.

كان الأمير باجراسيون يتحدث مع قواد الأسلحة المتفرقة في كوخٍ أقيم على عجَل لإيوائه قرب حظيرة المدفعيين، كان هناك ذلك الكهل قصير القامة، ذو العينين نصف المغمضتين، يلتهم ضلع خروف مشوي بِنَهَم، والجنرال الذي أمضى في الخدمة اثنين وعشرين عامًا وهو في أحسن هندام، وقد أشرق وجهه أثر العشاء اللذيذ الذي تناوله وأقداح الفودكا التي تلذذ بارتشافها بعد ذلك، وكان هناك كذلك الضابط الركن ذو الخاتم الماسي، وجركوف الذي كان يجعل حوله نظرات كئيبة قلقة، والأمير آندريه ممتقع الوجه تلتمع عيناه ببريق محموم.

وفي زاوية من المسكن المتواضع، أسند علَم اغتصبه الروسيون من العدو، كان المدني الضخم يلمس القماش الذي صُنع منه ويهز رأسه بسذاجة على عادته، لم يكن واضحًا إذا كان مهتمًّا حقيقةً بتحسس قماش العلَم، أم أنه كان مرغمًا على ذلك بسبب حرمانه من ذلك العشاء الشهي الذي لم يُدعَ للمشاطرة فيه. وفي الغرفة المجاورة كان الضباط الروسيون يتفحصون بشوق ضابطًا فرنسيًّا برتبة زعيم أَسَرَهُ فرسان الدراجون، كان الأمير باجراسيون يهنئ قواد القطعات ويسألهم تفاصيل المعركة التي دارت رحاها ذلك اليوم، ويستعلم عن الخسائر التي مُنِي الجيش الروسي المنسحب بها، وكان قائد السرية التي استعرضها كوتوزوف قرب برونُّو يروي للأمير أنه عند بدء المعركة أخلى الغابة من جنوده الذين كانوا يجمعون الأخشاب، وأنه نظَّم صفوفهم؛ حتى إذا مرَّ الفرنسيون

انقضَّ عليهم بِلِواءين كاملين، فقذف بهم إلى الوراء ضربًا بالحراب، وأعقب قائلًا: ما كدتُ أرى لوائي الأول في حالة بلبال وفوضى حتى قلت لنفسي: «دعهم يمرون واستقبِلْهم بعد ذلك بنار حامية الوطيس»، وهذا ما عملته يا صاحب السعادة.

والحقيقة أنَّ ذلك كان ما يريد صُنعه، فكان شديد الأسف لأنه لم ينجح في مسعاه، حتى إنه كان مؤمنًا كل الإيمان بصدق تقريره عن الحوادث، ولعله لم يكن مخطئًا كل الخطأ؛ إذ مَن الذي كان يستطيع في مثل ذلك الظرف العصيب من الفوضى والاختلاط تمييز الحقيقة عن الخيال؟!

أردف القائد الكبير معقبًا وقد تذكَّر لقاءه القريب مع دولوخوف، وما قصه هذا عليه من عطف الأمير باجراسيون عليه: ولا يفوتني في هذه المناسبة أنْ أُشِيد ببسالة الضابط السابق دولوخوف؛ تلك البسالة النادرة التي شهدتُها بأم عيني، لقد أسر ضابطًا فرنسيًّا يا صاحب السعادة.

وتدخَّل جركوف في الحديث قائلًا، وهو يجيل حوله نظراته القلقة: وفي تلك اللحظة يا صاحب السعادة أتيح لي أنْ أشاهد بإعجاب هجوم الفرسان؛ فرسان بافلوجراد.

كان على حق في قلقه؛ لأن في ذلك اليوم لم يلتقِ بأي فارس من الفرسان، بل كان يعتمد في حديثه بكل سذاجة على أقوال أحد ضباط المشاة. أردف يقول: لقد رأيتهم يشتتون مربعين من الأعداء.

ابتسم بعض الحاضرين عندما شرع جركوف في الحديث، متوقعين منه دعابة مستملحة يطلقها على عادته، لكنهم عندما سمعوه يعقِّب بجملته الأخيرة مضفيًا إكليل غار جديد على هامة الجيوش الروسية، عاد الاتزان إلى قسمات وجوههم رغم أنَّ معظمهم كان يعرف سلفًا أنَّ تقرير جركوف لم يكن إلَّا كذبة صارخة جريئة وقحة.

قال باجراسيون وهو يختص الكولونيل العجوز بمعظم ثنائه: أشكركم جميعًا أيها السادة، لقد تصرَّف الجنود من مختلف الأسلحة، بين مشاة وفرسان ومدفعية، تصرفًا يدل على بطولتهم.

ثمَّ أجاب الطرف حوله باحثًا عن شخصٍ ما وقال: ولكن كيف حدث أنْ تركنا قطعتين من مدفعيتنا في الجبهة الوسطى؟

لم يكن باجراسيون يستفسر عن مدافع الجناح الأيسر كلها؛ لأنه كان يعرف من قبل أنها سقطت جميعها في أيدي العدو منذ بدء المعركة؛ لذلك فقد أعقب موجهًا حديثه إلى الضابط الركن: ألم أكلفْكَ بالإشراف على انسحاب المدفعية من الجناح الأيمن؟

فأجاب الضابط الركن: لقد كان أحد المدافع معطلًا، أمَّا الآخر فإنني لا أدري على الضبط سبب تركه. لقد اتخذتُ كل الإجراءات اللازمة، ولم أترك «البطارية» إلَّا في اللحظة الأخيرة.

وأردف بشيء من التواضع: الحقيقة أنَّ المدفع كان شديد الحرارة.

فهمس بعضهم أنَّ الكابتين توشين، آمرًا المدفعية في الجناح الأيمن، يعسكر قريبًا من مركز القيادة، وأنهم أرسلوا في طلبه. وعندئذٍ قال باجراسيون للأمير آندريه: ولكن أنت؟ لقد كنتَ هناك أيضًا على ما أعتقد.

فبادر الضابط الركن يقول مشفعًا كلامه بابتسامة لطيفة وجَّهها إلى بولكونسكي: بلا ريب يا صاحب السعادة لقد مررنا ببعضنا.

فأجاب الأمير آندريه ببرودة: لم يحصل لي شرف رؤيتك.

وأعقب ذلك صمت عام، وفي تلك اللحظة ظهر توشين على عتبة الباب، فبدا شديد الاضطراب كعادته كلما التقى برؤسائه، وبينما كان يتسلل بخجل وراء الجنرالات في تلك الغرفة الضيقة، تعثَّر بسارية العلَم التي لم يكن قد لاحظ وجودها لشدة ارتباكه، فتعالت بعض الضحكات.

سأله الأمير باجراسيون وهو يقطب حاجبيه برسم الضاحكين الذين كان جركوف أشدهم ضوضاء، أكثر مما عنى توشين بذلك التقطيب: كيف حدث أن أُغفل مدفع في ساحة المعركة؟

وفي تلك اللحظة فقط — إزاء جبين القائد العام المقطب — أدرك توشين أنه ارتكب خطيئة كبرى، وأحسَّ بالعار يلحقه؛ لأنه فقد مدفعين وظلَّ بعدهما على قيد الحياة، لقد كان شديد الاضطراب، حتى إنه لم يفكر في هذا الموضوع قبل تلك اللحظة، وقد سببت ضحكات الضابط الساخرة انهيار تجلُّده التام، فلبث واقفًا دون حراك مرتجفَ الذقن ينظر إلى باجراسيون بارتباك، وأخيرًا استطاع بعد عناء شديد أنْ يغمغم: لست أدري يا صاحب السعادة، لم يبقَ لديَّ عدد كافٍ من الرجال يا صاحب السعادة.

– كان يمكنك أنْ تأخذ حاجتك من جنود التغطية.

وعلى الرغم من أنَّ الحقيقة الصارخة كانت تفسر السبب، فإن توشين لم يجرؤ على القول إنه لم يكن هناك جنود تغطيه قط، كان يخشى إذا صرَّح بتلك الحقيقة أنْ يسيء إلى بعض الرؤساء الذين أمروا بانسحاب التغطية؛ لذلك فقد راح يتأمل باجراسيون بصمت دون أنْ ينطق بحرف واحد، شأن الطالب الذي لا يعرف كيف يجيب على أسئلة فاحصة.

ران الصمت فترة غير قصيرة، كان باجراسيون — ولا شك — يتجنب الظهور بمظهر القاسي الصارم؛ لذلك فإنه لم يجد ما يقوله، وكذلك المجتمعون الآخرون فإنهم لزموا الصمت المطلق متحاشين الشروع في الحديث، وكان الأمير آندريه يختلس النظر إلى وجه توشين ويداه ترتعدان، وفجأةً شقَّ صوتُه الصارم السكون المخيم فوق الرءوس وقال: لقد تفضلتم سعادتكم بإرسالي إلى «بطارية» توشين، ولما ذهبتُ إلى هناك وجدت أنَّ ثلثَي رجاله وخيوله بين قتيل وجريح، وأنَّ مدفعين من مدافعه الأربعة كانا معطلين، ولم يكن لديه جندي واحد من جنود التغطية.

راح باجراسيون وتوشين يحدقان معًا في وجه بولكونسكي الذي كان يتكلم بحماس متئد، أردف هذا يقول: وإذا تفضلتم سعادتكم بالسماح لي بإبداء رأيي، قلت إنَّ جانبًا كبيرًا من نجاح معركة اليوم راجع إلى تدخُّل بطارية توشين، وإلى البطولة والبسالة والحزم التي أبداها الرئيس توشين ورجاله في هذا اليوم.

لم ينتظر بولكونسكي جوابًا، بل نهض واقفًا وانسحب عن المائدة، فعاد باجراسيون بأبصاره إلى توشين، ولما كان راغبًا عن إظهار تشكُّكه في حكم بولكونسكي الحاسم، فقد أشار برأسه إلى توشين وقال إنه يستطيع الانسحاب، فخرج الأمير آندريه في أعقابه.

قال له توشين: شكرًا لك يا صديقي، لقد أنقذتَني.

فشمله بولكونسكي بنظرة حالمة وغادره دون أنْ يتفوه بكلمة. كان يشعر بحزن يُوقِر صدره ويعصف بقلبه، لقد كان ما رآه وسمعه شديد الغرابة، مخالفًا كل المخالفة لآماله وأحلامه.

راح روستوف يسائل نفسه وهو يراقب الأشباح التي كانت تمر أمامه: «من هم هؤلاء الناس؟ ماذا يعملون هنا؟ ماذا يبتغون؟ ومتى ينتهي كل هذا؟» كان الألم يزداد عنفًا في ذراعه، وكان جفناه مثقلان بنعاس قاهر، فراحت عيناه تريه حلقات حمراء آخذة في الاتساع، تتراقص أمامه بين دنو وابتعاد، كانت تلك الأصوات المتلاحقة، وتلك الوجوه المختلفة، وذلك الشعور بالوحدة القاتلة، تتحد في نفسه فتزيد من آلامه وأوصابه، كان أولئك الجنود — بين جريح وسليم — هم الذين يثقلون عليه ويسحقونه، ويقطِّعون أعصابه ويرهقونها، ويحرقون بشرته بنار وئيدة تلتهم ذراعه المحطمة وكتفه، كان يشعر أنهم أسُّ البلاء، ولما كان يود من صميم نفسه الابتعاد عن ذلك الخيال المخيف الذي يعذب تنكيره، فقد ظنَّ أنَّ من الخير له أنْ يغمض عينيه.

لم يفقد حواسه إلَّا لحظة خاطفة، مع ذلك فقد حلم خلال تلك اللحظة بعدد لا يحصى من الوجوه والأشخاص؛ رأى أمه بيديها البضتين الكبيرتين، وسونيا بكفيها الناحلتين،



ألكسندر الأول قيصر روسيا.

وناتاشا بعينيها الباسمتين، ودينيسوف بصوته الخشن وشاربيه الكبيرين، وتيليانين وكل قصته الطويلة التي وقعت له مع تيليانين وبوجدانيتش. كانت تلك الحادثة اللعينة متحدة مع الجندي ذي الصوت القاسي، وذَيْنِك الشبحين اللذين حطما ذراعه دون رحمة، ولبثا يشدان عليها في اتجاه واحد، تُشكِّل معهم وحدة لا تتجزأ، بذل جهدًا خارقًا للتخلص من الجندي والشبحين الغامضين القاسيين وتلك القصة كلها، لكنهم لم يُفلتوا كتفه ولا ذراعه دقيقة واحدة، ولم يبدلوا مواقع أيديهم على تلك الذراع قيد أنملة، ولعلَّ الشفاء كان قريبًا

لولا أنهم حطموا ذراعه بتلك الوحشية، أمَا وأنهم لا زالوا يجذبونها، فإن كل أمل بالشفاء بات وهمًا، وكل محاولة للخلاص من أيديهم أصبحت فاشلة.

فتَّح عينيه وراح ينظر إلى الفضاء، كانت حلكة الليل البهيم مخيمة بشدة على المكان، حتى إنَّ النار المشبوبة ما كانت لِتُبدد من الظلمة إلَّا على ارتفاع قدمين أو ثلاثة أقدام فوقها وحولها، رأى منفذًا من الثلج تتدافع فوق تلك الشعلة الملتهبة، أمَّا توشين فإنه لم يعُد بعدُ، وكذلك الطبيب فإنه لم يصل، لم يكن أمامه إلَّا جندي واحد عارٍ عن الثياب يجففها على النار، كان شاحب الوجه هزيل البنية، ضعيف التكوين أصفر اللون.

فكَّر روستوف في سره: «لن أجد أحدًا يهتم بشأني، لا يوجد أحد يسعفني ويطببني أو يشفق على مصابي، كيف يمكن أنْ أنسى أنني منذ وقت جد قصير كنت في منزلي ممتلئًا حيوية وبِشرًا، يحبني كل من حولي!»

أطلق زفرة انقلبت بالرغم عنه إلى زمجرة قبل أنْ تتبدد في الهواء، فسأله الجندي وهو ينفض قميصه فوق النار: هل تشعر بألم؟

ولم ينتظر جوابًا إذ أضاف وهو يكح: لقد أصابوا أناسًا كثيرين اليوم! آه، يا للتعاسة!

لم يكن روستوف يصغي إلى قوله، كانت عيناه شاخصتين إلى نُتف الثلج المتراقصة فوق اللهب، فتذكَّرَ شتاء روسيا والمنزل الدافئ المضيء، والفراء الناعمة والزحافات السريعة، كان يرى نفسه بعين الخيال ممتلئًا صحة، محاطًا بالعطف والحب ورعاية أسرته، فتمتم يخاطب نفسه: «يا لها من فكرة، تلك التي قادتني إلى هنا!»

لم يجدد الفرنسيون هجومهم صبيحة اليوم التالي، وهكذا استطاع الناجون من جيش باجراسيون بلوغ مواقع كوتوزوف، والالتماق بجيشه الناجي.

الجزء الثَّالث

الفصل الأول

الكونت بيزوخوف

لم يكن الأمير بازيل من أولئك الذين يُعِدون خططًا مسبقة للمستقبل، ولا من زمرة الذين يفكرون في الإضرار بالناس لجَنْي ربح شخصي، كل ما في الأمر أنه كان من زمرة النبلاء، لاقَى نجاحًا في حياته واعتاد على النجاح في كل أعماله، لقد كانت تدابيره كلها على اختلاف ألوانها تَدين بوجودها وترتيبها للظروف الطارئة، ولِلَون العلاقات التي تربط كلًّا منها بما يجانسها، فكان مسرح الصخب والتناحر قائمًا في رأسه، فكان يتبع الظروف في اتجاهاتها غير مفكرٍ في أنَّ ذلك كان سرَّ كل وجوده، كان يحتفظ دائمًا بخطط كثيرة تهدف كلٌّ منها إلى غاية معيَّنة، وكان تفكيره لا يكاد يخلو من عشرات من هذه الخطط، فكان بعضها يخفق وبعضها ينجح، والبعض الآخر يتبخر قبل البدء في تنفيذه، لم يكن يحدِّث نفسه مثلًا: «إنَّ فلانًا أو فلانًا قد بلغ مبلغ السطوة والنفوذ، فلأكسبنَّ ثقته علَّني أصل بها إلى نفعٍ ما»، أو مثلًا: «ها إنَّ بيير قد أصبح غنيًّا، فعليَّ إذن أنْ أزوجه ابنتي؛ لأقترض منه الأربعين ألف روبل التي أنا في حاجة إليها»، لكنه ما يكاد يلتقي بتلك الشخصيَّة القويَّة صاحبة النفوذ حتى تحدِّثه غريزته بأن ذلك الرجل يمكنه أنْ يكون ذا نفع عميم له، فيربط بينهما علاقة متينة منتهزًا أول فرصة تعرض له دون تصاميم مسبقة، ويمتدحه ويرضي غروره، مستعملًا معه لهجته الأنيسة التي تُشعر السامع أنه يعتبره من أفراد أسرته، ثمَّ يلمِّح إلى غايته بكلمة عابرة.

ولما كان بيير في تلك الأثناء قريبًا من متناول يده في موسكو، فقد عمل الأمير بازيل على إبلاغه رتبةً تُعادِل رتبة مستشار دولة، وأصرَّ على أنْ يرافقه الشاب إلى بيترسبورج وأنْ يَنزل في ضيافته هناك، لم يكن الأمير بازيل قد نوَّه بغايته أمام بيير بعدُ، لكن كيانه كله وقناعته الشخصية استلزما منه ذلك التصرف، الذي كان الأمير بازيل يبذل كل استطاعته وإمكانياته ليَبلُغ به إلى نتيجة يرتضيها؛ وهي تزويج ابنته بالشاب بيير.

ولو أنه كان متدبرًا أمره من قبل لَمَا استطاع أنْ يبدو طبيعيًّا في تصرفاته إلى ذلك الحد، صريحًا في تصرفاته مع رؤسائه ومرءوسيه كما كان عليه حينذاك، لقد كان بازيل مدفوعًا بقوًى خفيَّة إلى الاحتكاك بأشخاص أوسع منه نفوذًا وغنًى، وكان يعرف بغريزته وحواسِّه الفطرية كيف يستخلص من هؤلاء مغنمًا مَهما كان تافهًا.

شعر بيير، وهو الذي أضحى بين عشية وضحاها «الكونت بيزوخوف واسع الغنى»، أنه أصبح فجأةً محاطًا بصفوف متراصة كثيفة من الناس، شديد المشاغل والأعمال، وهو الذي كان إلى أمْس القريب في عزلة حياة العزب البريئة المريحة؛ لذلك فإنه لم يكن يشعر بالراحة الحقيقية إلَّا عندما كان يأوي إلى سريره؛ حيث يجد نفسه وحيدًا مع نفسه، كان عليه أنْ يوقِّع على أوراق كثيرة وأنْ يقوم بأعمال المكتب؛ أعمال ما كان يدري عن فائدتها شيئًا، وكان عليه أنْ يحضر الحفلات الراقية المتألقة، وأنْ يهرع إلى استشارة مسجله الرئيسي، أو يزور أملاكه في ضواحي موسكو، ويستقبل عددًا لا يحصى من الناس كانوا إلى عهد قريب يتجاهلون وجوده، وأصبحوا الآن يشعرون بمرارة الخيبة إذا رفض مقابلتهم، وكان كل هؤلاء الناس — بين رجال أعمال وأقارب ومعارف عاديين — يُظهرون استعدادهم القوي لخدمة الوارث الشاب بما يشبه الإجماع، ويعلنون عن قناعتهم المتينة وإعجابهم العميق بصفاته النادرة، كان لا ينفكُّ يسمع أقوالًا تشبه: «بطيبتكم النادرة»، «نظرًا إلى قلبكم النبيل»، «أنت الذي تتمتع بروح عالية»، «لو أنه كان على قدر من ذكائكم» … إلخ. ولما كان يشعر بهاتف داخلي يؤكد له أنه شديدُ الطيبة جمُّ الذكاء، فقد راح يصدِّق ما يغدقه عليه أولئك الناس من عبارات الإطراء والمديح ويؤمن بصحتها، كما يؤمن «بطيبته النادرة وذكائه النادر»، وكان أولئك الذين كانوا من قبل يعاملونه بلامبالاة وإهمال، بل وبشيء من الشراسة، يُعرِبون له الآن عن ميلهم وشعورهم الحاني الرقيق، فكبرى الأميرات مثلًا — وهي تلك المشاكسة العابسة، ذات الجذع الطويل والشعر المنسدل الأملس كشعر اللُّعَب — جاءت إليه بُعَيد الجنازة تدخل إلى غرفته لتعلن عن أسفها الشديد لتنافرهما السابق، وهي خافضة البصر متضرجة الوجه، ولم تقف عند ذلك الحد، بل اعترفت أمامه أنه ليس من حقها منذ الآن أنْ تطلب شيئًا، لكنها تلتمس منه السماح لها فقط بالبقاء بضعة أسابيع أخرى في ذلك البيت، الذي كان عزيزًا على قلبها حتى إنها ضحَّت فيه بكل ما في طوقها، ولم تستطع الامتناع عن البكاء فانفجرت منتَحِبة، وكان ذلك التحول الغريب من جانبها كافيًا ليُحدث أثره في نفس بيير، الذي كان يعرف الأميرة شخصية باردة جامدة كالمرمر، فأمسك بيدها وسألها الصفح دون أنْ يدري عن أي شيء

يطلب إليها أنْ تصفح، وراحت كبرى الأميرات اعتبارًا من ذلك اليوم تحيك له «لفحة» مخططة من الصفوف، وتعامله معاملة مختلفة كل الاختلاف عمَّا درجَتْ عليه عادتها.

وجاء الأمير بازيل يومًا يحمل إذنًا مصرفيًّا بمبلغ ثلاثين ألف روبل بِاسم الأميرة، وطلب إلى بيير أنْ يوقِّع عليه وهو يقول: اعمل ذلك من أجلها يا «عزيزي»، ينبغي أنْ نعترف أنَّ المرحوم جعل حياتها قاسية جدًّا.

كان الأمير بازيل يخاف أنْ تفضح الأميرة الدور الذي لعبه في قضية حافظة الأوراق؛ لذلك فقد راح يسعى لإلقاء تلك العَظْمة أمام تلك الفتاة المسكينة ليشغلها بها، فوقَّع بيير على إذن الصرف المخصص للأميرة، وتظاهرَتْ هذه بالمزيد من التودد، أمَّا أختا الأميرة فإنهما لم تختلفا في سلوكهما عن سلوك شقيقتهما الكبرى، أصبحتا شديدتَي الحماسة والاندفاع في سبيل مرضاته، حتى إنَّ صغراهما — تلك التي كانت جميلة وعلى وجنتها حسنة — أقلقت بيير أكثر من مرة بابتساماتها المعبرة والارتباك الذي كانت تتظاهر به كلما وقع بصرها عليه.

وكان بيير من جانبه يعتقد أنَّ حب الناس — كل الناس له — أمر طبيعي جدًّا، وأنَّ عكس ذلك مستحيل، حتى إنه ما كان يفكر لحظة واحدة في الارتياب بإخلاص الأشخاص المحيطين به، أضف إلى ذلك أنه لم يكن يجد متسعًا من الوقت للتساؤل عن صراحة المحيطين به أو أنانيتهم، لم يكن لديه الوقت ليعمل شيئًا ما، لقد كان يعيش في لون من ثمل دائم فيه نشوة وفيه نشاط، كان يشعر أنه محور حركة عامة دائبة مهمة، وأنهم ينتظرون دائمًا معلومات جديدة عنه، ويتوقعون منه أمرًا إذا لم يفعله فإنه يسيء إلى عديد من الناس ويحزنهم ويخدعهم فيما ينتظرونه منه، وأنه إذا فعل ذلك الأمر، فإن كل شيء — على العكس — يسير في الطريق الصحيحة التي يجب أنْ يسير فيها، فتعم السعادة ويعم الرخاء.

لم يُشرف أحد على رعاية شئون بيير رعاية مستمرة متيقظة، كما أشرف عليها الأمير بازيل في بدء المرحلة، ولم يتوقف ذلك الإشراف عند حل المصالح، بل تعداه إلى بيير نفسه؛ ذلك أنه منذ أنْ توفي الكونت لم يترك بيير لحظة واحدة، كان يتظاهر بمظهر الرجل الذي تُوقِر الأعمالُ والمشاغلُ كاهِلَه، وينهكه التعب ويضنيه، ومع ذلك لا يستطيع لشدة حدبه على بيير أنْ يترك مصيره للأقدار تتلاعب به وفق هواها، ويترك ذلك الشاب البريء الطيب فريسة سهلة لكل نصاب زنيم، وهو المحروم من كل أسلحة الخبث والدهاء، خصوصًا وأنه ابن صديقه الودود، ومالك ثروة هائلة لا تُقدر. واستمرَّ طيلة الأيام التي قضاها

في موسكو عقب الجنازة، يستدعي بيير أو يذهب بنفسه إلى جناحه؛ ليشير عليه بما ينبغي عمله، وفي كل مرة كانت لهجته المعبرة عن إنهاك شديد تكاد تحدِّثه قائلة: «إنك تعرف أنني مغمور بالعمل والمشاغل، وأنني إذا كنت أهتمُّ بشئونك فما ذلك إلَّا على سبيل الإحسان الصِّرْف، ثمَّ إنك تعلم أنَّ ما أعرضه عليك هو الأمر الوحيد الذي يمكن عمله في هذه المناسبة.»

وذات يوم، أعلن الأمير بازيل قراره وهو يُرَبِّت على ذراع بيير، ويسدل جفنيه على حدقتيه: وعليه يا صديقي، سنرحل غدًا ولن يكون رحيلنا قبل أوانه.

كانت لهجته تدل على أنَّ الأمر الذي اتفقا عليه منذ أمد طويل لا يَحتمل أي اعتراض، أردف يقول: نعم، سنرحل غدًا ولسوف أحملك في عربتي، وسأكون مرتاحًا لوجودك معي، لم يعُد لدينا هنا عمل هام يستبقينا، وكان علينا أنْ نغادر موسكو منذ فترة طويلة. آه! لقد تلقيت جوابًا من مستشار الدولة الأول، لقد سُميتَ بناءً على طلبي نبيلًا إداريًّا، وستكون مرتبطًا بالسلك السياسي، لقد أصبح المستقبل مفتوحًا أمامك الآن.

وعلى الرغم من الحزم الذي كان في لهجة الأمير المنهكة المترفعة؛ تلك اللهجة التي فاهَ بها بتلك الكلمات، فإن بيير — الذي كان قد فكَّر طويلًا في مستقبله — كاد أنْ يصيح محتجًّا، غير أنَّ الأمير بازيل قاطعه ملتجئًا في تلك المرة إلى لهجته الغريدة المنخفضة؛ تلك اللهجة التي ما كان يعمد إليها إلَّا في الضرورات القصوى، عندما يريد اجتناب كل إمكانيات للرفض: ولكنني يا عزيزي لم أعمل ذلك إلَّا من أجل نفسي، من أجل إرضاء ضميري، فلا أطلب منك أنْ تشكرني على صنيعي، ثمَّ إنني لم أرَ بعدُ أحدًا يشتكي من كثرة محبة الناس له، ثمَّ إنك حر وليس هناك ما يمنعك مِن طرْد كل الناس ورفْض كل شيء منذ صباح الغد، إذا راق لك ذلك بنفسك عندما نبلغ بيترسبورج، كذلك فإنني أعتقد أنَّ الوقت قد أزف لتبتعد نهائيًّا عن هذه الذكريات الأليمة.

أنهى الأمير بازيل كلامه بتلك الجملة، وأشفعها بزفرة وأردف: لقد اتفقنا، أليس كذلك يا صديقي؟ سوف يركب تابعي في عربتك. آه! كدت أنسى؛ إنك تعلم أنني كنت على علاقات مالية مع المرحوم، ولقد قبضتُ مبلغًا على أجور أملاكك في ريازان، لستُ في حاجة إلى ذلك المبلغ، سوف نتفاهم عليه.

كان ذلك المبلغ الذي تحدَّث عنه الأمير بازيل موهمًا أنه مبلغ تافه، أجور مزارع الكونت التي تبلغ عدة آلاف من الروبلات، استملكها الأمير بازيل معتبرًا أنَّ من حقه التصرف بها.

رأى بيير نفسه في بيترسبورج قِبلة أنظار الناس، كما كان شأنه في موسكو، لم يلقَ إلَّا كل من يغدق عليه الإطراء ويمتدحه ويتدلسه، ولما كان لا يعمل شيئًا فإنه لم يستطع رفض المركز الاجتماعي الذي أوجده له الأمير بازيل، وتهافتت عليه الدعوات وكثرت واجباته الاجتماعية، حتى فاقت ما أحاطت به في موسكو؛ لذلك فإنه أحسَّ من جديد أنه يطير في دوامة هائلة تبشِّر بسعادة عميقة، تبدو قريبة منه وإنْ كانت في كل مرة تنأى عن متناول يديه.

لم يجد في بيترسبورج عددًا كبيرًا من أصدقاء مرحه السابقين، فقد كانت فرقة الحرس في جبهة القتال، وكان دولوخوف قد نُزعت رتبته وآناتول في الجيش، أمَّا في الضواحي فإن الأمير آندريه كان كذلك متغيِّبًا؛ لذلك فإن بيير لم يستطع قضاء ليالٍ جميلة كما كان يفعل عندما كان أولئك الأصدقاء مجتمعين، ولا أنْ يكشف عن دخيلة نفسه من حين لآخر لذلك الصديق الذي يكبره سنًّا، والذي كان يحترمه ويقدِّره كل التقدير، كانت كلها تتبدد بين الولائم والحفلات الراقصة، وفي معظم الأحيان لدى الأمير بازيل في صحبة الأميرة الضخمة وهيلين الجميلة.

ولم تتخلف آنا بافلوفنا شيرر عن تتبُّع الركب، فأظهرت لبيير أنَّ تحوُّلًا كليًّا قد طرأ على وجهة النظر التي كانت تتمسك بها بصدده، كان يشعر من قبل أنَّ كل ما كان يتفوَّه به في حضرتها يعوزه الإحكام وتنقصه اللباقة أو المناسبة أو التجانس، فكانت كل كلماته، رغم ما كان يحس به في قرارة نفسه من وجاهتها وإحكامها، تبدو سخيفة حالما ينطق بها بصوت مرتفع، بينما كانت بلاهات هيبوليت وحماقاته تُعتبر مقبولة ومعبِّرة عن بديهةٍ وتوقُّدِ ذكاءٍ، أمَّا الآن فقد انعكست الآية، لقد أصبحت أتفه كلمة يفوه بها «رائعة»، حتى إنَّ آنا بافلوفنا إذا لم تعرب عن ذلك بتهافت ومبادرة، فإنه كان يلاحظ أنَّ صمتها ليس إلَّا عزوفًا منها عن إخجال تواضعه.

تلقَّى بيير في مطلع شتاء عام ١٨٠٥–١٨٠٦، بطاقة آنا بافلوفنا المعهودة، تدعوه فيها إلى وليمةٍ أقامتها، وقد ذيِّلَت البطاقة بالملاحظة التالية: «لسوف ترى عندي هيلين الجميلة التي لا يملُّ أحد من طول التحديق في فتنتها.»

شعر بيير لأول مرة عند قراءته تلك الجميلة أنَّ علاقةً ما قامت بينه وبين هيلين؛ علاقةً تقبَّلها كل الناس ولكنها كانت تُرهبه وتخيفه؛ لأنها تفرض عليه التزامات لا يستطيع تأديتها، مع ذلك فإن تلك الفكرة كانت تروق له على اعتبارها طارئًا مسلِّيًا.

لم تختلف حفلة آنا بافلوفنا عن سابقتها إلَّا في الوجه الجديد الذي راحت تُفكِّه به مدعوِّيها، لم يكن في تلك الليلة مورتمارت كما كان في المرَّة السابقة، بل دبلوماسي

وصل حديثًا من برلين يحمل معه آخِر الأخبار عن إقامة الإمبراطور ألكسندر في بوتسدام وتفاصيل التحالف المتين الذي تَعاهَد عليه العاهلان الصديقان للدفاع عن قضية الإنسانية وحقوقها ضد عدو الجنس البشري، استقبلت آنا بافلوفنا بيير وعلى وجهها سحابة من الحزن سببتها — ولا شك — الخسارة القاسية التي مُني بها الشاب؛ إذ إنَّ كل الناس كانوا يتظاهرون بإيمانهم الشديد بحزن الشاب على أبيه الذي لم يعرفه، ولم يقضِ معه إلَّا طفولة قصيرة، كان ذلك الحزن البادي على وجهها يشبه إلى حد بعيد الخطورة الكئيبة التي تعلو وجهها كلما تحدثتْ عن سيدتها الجليلة الإمبراطورة ماري فيودوروفنا، فشَعَر بيير بشيء من التِّيه لهذا الاستقبال. وَزَّعَت آنا بافلوفنا ببراعتها المعهودة مدعويها على جماعات، فكانت الجماعة الرئيسية تحيط بالأمير بازيل والجنرالات الذين كانوا يتلذذون بالتندر والبحث في الشئون السياسية، وكانت جماعة أخرى تحيط بمائدة للشاي، وكان بيير يودُّ من صميم قلبه لو انضمَّ إلى جماعة المتحدثين بالسياسة، غير أنَّ آنا بافلوفنا لم تكد تراه وتقدِّر عزمه، حتى هرعت إليه مبتهجة مستبشرة وكأنها رئيس في ساحة معركة اشتهر بحسن توجيهاته ودقة آرائه، فلمستْ ذراعَه بيدها وقالت وهي تلقي نظرة إلى هيلين وتبسم له بنفس الوقت: انتظر، إنني أشملك هذا المساء بعنايتي.

وقالت تخاطب هيلين: يا هيلينتي الطيِّبة، ينبغي أنْ تكوني محسنة لـ «ماتانت»، فما قولك في الذهاب إليها والبقاء معها بضع دقائق؟ إنني أقدِّم لكِ عزيزَنا الكونت الذي لن يرفض صحبتك خلال هذا الوقت كي يُبعد عنك السأم.

مضتْ هيلين للقاء «ماتانت»، بينما أمسكت آنا بافلوفنا بذراع بيير من جديد واستبقته برهة، متظاهرة بأن عليها قبل أنْ تطلق يده أنْ تزوده بنصائحها وتوصياتها الضرورية.

قالت وهي تشير إلى الجمال الصارخ المتجسم في شخص هيلين التي كانت تتجه باعتداد ناحية «الماتانت» بخطوات جليلة مهيبة: ألستَ تراها رائعة الحسن؟ ثمَّ يا لجمال هندامها! ويا لكياستها ووفرة علمها واتزانها رغم سنها الصغيرة وشبابها المتدفق! إنَّ هذه الميزات طبيعيَّة عندها وهي تدل على جمال قلبها، كم هو سعيد ذلك الذي سيمتلكها! إنَّ أقل الأزواج خبرة في الأوساط الراقية لن يجد نفسه معها إلَّا وقد أصبح في أوج المجتمع، ألستَ من هذا الرأي؟

وأطلقتْ آنا بافلوفنا بيير الذي راح يُنعم النظر بإخلاص في مظهر هيلين الأنيق، ولهجتها الحانية المتزنة، لم يكن يفكر — إذا أراد التفكير فيها — إلَّا في جمالها فحسب،

في ذلك الفن النادر الذي تمكنتْ منه حتى راحت تتخذ مظهرًا هادئًا صامتًا ومعتدًّا في كل الأندية.

استقبلت «ماتانت» الشابين وهي في زاويتها بتصرُّف كان يوحي بشديد خوفها من ابنة أخيها آنا بافلوفنا، أكثر مما ينبئ بحبها وتقديسها لهيلين الجميلة، اختلست نظرة إلى ابنة أخيها كأنها تستشيرها في السلوك الذي يجب أنْ تسير عليه معها، ولما انسحبت آنا بافلوفنا، لمست كُم بيير من جديد، وقالت ملمحة وهي تنظر إلى هيلين: آمل أنْ تكُف عن القول بأن الإنسان يشعر بالسأم في حفلاتي!

أمَّا هيلين فقد أعربت بابتسامة وادعة عن أنها لا تتوقع ألَّا يُعجب كلُّ مَن يراها ويفتتن بجمالها، سَعَلَتْ «ماتانت» برهة وابتلعت ريقها ثمَّ أعلنت لهيلين عن سرورها لرؤيتها، ثمَّ وجهت إلى بيير مثل ذلك القول بعد أنْ سعلت وابتلعت ريقها كذلك، وسلك الثلاثة في حديث لا طائل تحته ولا معنى له، راحت هيلين خلاله تلتفت نحو بيير وتقطعه ابتسامتها المشرقة الصافية؛ تلك الابتسامة التي كان من عادتها منْحها للجميع، وكان بيير قد أَلِف تلك الابتسامة، حتى إنه لم يعُد يشعر بها؛ لأنها كانت غير معبرة بالنسبة إليه، وإذا كانت تعبِّر عن شيء، فإنما عن تفاهة لا طائل تحتها، وفي تلك اللحظة راحت الماتانت تمتدح علب السعوط التي كان الكونت بيزوخوف المرحوم يقتنيها. وبتلك المناسبة، أخرجت علبتها تعرضها على الشابين، فطلبت هيلين رؤية صورة زوج السيدة الفاضلة التي كانت منقوشة على غطاء العلبة تزينه.

قال بيير: إنها — ولا شك — من صُنع فينيس (ويقصد بذلك النقَّاش اليدوي الشهير).

وانحنى على المنضدة لالتقاط العلبة وهو يصيخ السمع إلى الحديث الدائر حول المائدة المجاورة.

همَّ بالنهوض ليدور حول المنضدة ويلتقط العلبة، غير أنَّ «ماتانت» مدت يدها بها من وراء ظهر هيلين التي رأت من واجبها — تسهيلًا لحركة العجوز — أنْ تنحني قليلًا نحو بيير، فانحنت والتفتت نحوه باسمة. كانت ترتدي ثوب سهرة حاسر العنق يُبرز الصدر وجزءًا كبيرًا من الظهر، كما كانت عليه أزياء ذلك العصر، فكان جذعها اللدن الذي كان بيير يتخيله دائمًا منحوتًا في الرخام، شديدَ القرب منه حتى إنه رغم قصر بصره لم تغب عن عينيه حركات الجِيد العاجي والكتفين المرمريتين، كان شديد القرب حتى إنه كان يكفي أنْ ينحني قليلًا حتى يلامس بشفتيه ذلك الجسد الشهي، أحسَّ بدفء ذلك

الجسد الفتي واستنشق عبيره، وأصغى إلى فرقعة حمالة النهدين الخفيفة، وبدلًا من أنْ يرى ذلك الجمال والتكوين المرمري الذي كان متحدًا مع الزينة الخارجية، أتيح لبيير بتلك الانحناءة أنْ يرى ويخمن ما تحت ذلك السِّتر الرقيق من الثياب، ويقدِّر أنَّ وراءه سحر جسد رائع شديد المفاتن، ومنذ أنْ وُفق إلى ذلك الاكتشاف، استحال عليه أنْ يرى شيئًا آخر كما يستحيل على كل إنسان التعلق بخيالٍ مرَّة ثانية بعد أنْ يكتشف حقيقته.

كان يبدو على وجه هيلين تعبير من تقول: «إنك ما كنت ترى أنني غدوت امرأة ناضجة؟ نعم، امرأة تريد أنْ تصبح مِلكًا لهذا أو لذلك، لك كما لسواك من الناس»، وعندئذٍ أحسَّ بيير أنَّ هيلين لا يمكنها أنْ تكون زوجته فحسب، بل إنها يجب أنْ تكون زوجته ولا شيء غير ذلك.

لقد أدرك ذلك منذ تلك اللحظة بمثل التأكيد والاطمئنان الذي يشعر بهما لو كان واقفًا معها بين يدي القس يبارك زواجهما، أمَّا كيف سيتحقق ذلك ومتى سيتحقق؟ فإنه كان يجهل التفاصيل، بل إنه ما كان يعرف إذا كانت تلك النهاية المنتظرة ستكون حدثًا سعيدًا أم عكس ذلك — وكان ينتظر الحل الثاني بشكل غامض مبهم — لكنه كان متأكدًا من أنَّ ذلك سيتم بالفعل.

خفض بيير أبصاره ثمَّ رفعها وهو يتمنى لو أنه رآها كتلة جمال صارخ حي ناءٍ عنه صعب المنال، كما كان يراها في الأيام السابقة، لكنه ما استطاع إقناع نفسه بوجاهة ذلك وما قنع به، بل إنه كان يستحيل عليه رؤيتها كذلك، كما يستحيل على المرء الذي ظنَّ تحت تأثير الضباب الكثيف أنَّ حزمة من الحشيش إنْ هي إلَّا شجرة سامقة، أنْ يرى بعد انقشاع الضباب الشجرةَ حزمةً من الحشيش، أو أنْ يخدعه نظره من جديد، لقد كانت شديدة القرب منه، وقد أثرت في شخصه واستولت على لُبه، فلم يبقَ بينهما منذ ذلك الحين من عقبات إلَّا ما تغرسه في طريقهما إرادته الشخصية.

ارتفع صوت آنا بافلوفنا يقول: حسنًا، سأدَعُكُما في زاويتكما، أرى أنكما على أحسن ما يرام فيها.

وعندئذٍ راح بيير يتساءل بشيء من الارتياع عمَّا إذ لم يكن قد ارتكب فعلًا مشينًا يستوجب اللوم، فاحمرَّ وجهه وراح يسرِّح الطرف حوله بنظرات مكتئبة قلقة، كان يُخيل إليه أنَّ كل المدعوين باتوا يعرفون ما وقع له في تلك اللحظة مثل معرفته تمامًا.

ولما انضمَّ بعد فترة إلى الجماعة الرئيسية قالت له آنا بافلوفنا: يقال إنك تجمِّل منزلك في بيترسبورج، وتُدخل عليه تحسينات جديدة.

والواقع كان كذلك؛ إذ إنَّ ببير — دون أنْ يعرف السبب لذلك — نزل عند رأي مهندسه الجازم، فأمر بإجراء إصلاحات وإدخال تحسينات جمَّة على قصره الفخم المنيف في بيترسبورج.

أردفت وهي تبسم: إنَّ هذا حسن، ولكن لا تترك منزل الأمير بازيل، إنَّ من الخير أنْ يكون للمرء صديق كالأمير بازيل، ألا تراني أعرف شيئًا ما؟ ثمَّ إنك شاب في مقتبل العمر ولا زلتَ بحاجة إلى النصح، أرجو ألَّا تغضب إذا كنت أسيء التصرف في الحقوق المخولة إليَّ بوصفي من العانسات المسنَّات.

وتوقفتْ قليلًا بانتظار عبارة الاحتجاج المألوفة في مثل هذا الموقف عندما تعترف سيدة بتقدمها في السن، ثمَّ أردفت: لكنك إذا تزوجت فإن الأمر يكون مختلفًا.

وأشفعت قولها بنظرة شملت الشابين معًا.

لم ينظر بيير إلى هيلين ولم تنظر هذه إليه كذلك، لكنها كانت أبدًا شديدة الالتصاق به لدرجة مرعبة، غمغم ببضع كلمات غير مفهومة وقد اندفعت الدماء إلى وجهه.

ولما عاد إلى غرفته، جفاه الكرى طويلًا ونأى النوم عن عينيه، ظلَّ يفكر فيما وقع له، تُرى ماذا حدث له ذلك المساء؟ لا شيء، لقد فهم وأدرك أنَّ تلك المرأة التي كان يعرفها منذ طفولتها، والتي كان يقول بلامبالاة كلما تحدَّث عنها أو رد على أولئك الذين يُطْرون جمالها: «آه نعم، إنها لا بأس!» أدرك أنَّ تلك المرأة يمكن أنْ تصبح له.

راح يحدِّث نفسه قائلًا: «لكنها حمقاء، لقد اعترفتُ بنفسي بذلك مرارًا، هناك شيء من الانحطاط والرداءة في الشعور الذي تلهمه، لقد زعموا أنَّ آناتول أخاها قد أُغرم بها، وأنها كانت كذلك مغرمة به تعشقه؛ وقد يكون إبعاد آناتول راجعًا إلى هذا السبب، ثمَّ هناك أخوها الآخر هيبوليت وأبوها الأمير بازيل ... هم! إنَّ كلَّ هؤلاء لا يروقون لي.»

وبينما كان يناقش نفسه على هذا النحو دون أنْ يندفع بأحكامه إلى المدى الأقصى، أحسَّ بابتسامة تلعب على شفتيه، واعترف أنَّ هناك مناقشات أخرى كانت تتغلب في نفسه على تلك الاعتراضات. لقد كان يحلم بجعل هيلين زوجة له رغم اعترافه بتفاهة شأنها ومعرفته الأكيدة لذلك؛ لعلها كانت تستطيع أنْ تحبه في المستقبل، لعلها كانت خلافًا لكل ما ظنَّ بها من سوء، ولعلَّ كل ما قيل عنها ليس مرتكزًا على أُسس متينة وتعود ابنة الأمير بازيل تخطر في خياله ليس بوصفها ابنته، بل على اعتبارها المرأة التي لا يكاد الثوب الأشهب يغطي جسدها الفاتن. «ولكن لِمَ لمْ تراودني أفكار مماثلة من قبل؟» ومن جديد راح يؤكد لنفسه استحالة ذلك، وأنَّ ذلك الزواج لن يخلو من شيء مَقيت كَريه؛

شيء ينقصه الشرف وتأباه الطبيعة، تذكَّرَ كلماتها ونظراتها كما تذكَّر كلماتِ أولئك الذين كانوا يرونهما معًا ونظراتِهم، تذكَّر عبارة آنا بافلوفنا عندما حدَّثَتْه عن منزله في بيترسبورج، وتذكَّر ألف تلميح وتلميح صدرت كلها عن الأمير بازيل في مناسبات متعددة وعن أشخاص آخرين، وعندئذٍ استولى عليه ارتياع شديد؛ أَلَمْ يقذفْ بنفسه في مغامرة تجلب عليه النقد واللوم دون شك، وعليه تحاشيها والتخلص منها؟! لكنه في ذات الوقت، في أحلامه الكثيرة تلك الليلة كانت صورتُها هي تُبعث بين ألوف الأشياء الأخرى وتطالعه بكل إغرائها الأنثوي البديع.

الفصل الثاني

خطوة مدبرة

عزم الأمير بازيل في تشرين الأول عام ١٨٠٥ على القيام بجولة تفتيشيَّة في أربع مقاطعات، وكان قد اعتزم القيام بتلك الرحلة؛ ليتسنى له زيارة ممتلكاته التي كانت أوضاعها المتزعزعة تثير قلقه باستمرار، وكان يُنتظر أنْ يصطحب ابنه آناتول من المدينة التي كانت فرقته مستقرَّة فيها لزيارة الأمير بولكونسكي العجوز، الذي كان يأمل بالفوز بِيَد ابنته، تلك الوارثة الغنية، لابنه المهتار. لكنه كان مصممًا — قبل الاندفاع في تدابيره الجديدة — على الانتهاء من مشكلة بيير، والحقيقة أنَّ هذا لم يكن يغادر مسكنه منذ أسابيع، تبدو عليه في حضرة هيلين الجميلة بوادر الاضطراب والبلاهة والحياء الشديد، وهي الصفات المعروفة عن العاشقين، لكنه ما كان بعدُ قد حزم أمره على التصريح بواقع حاله خلافًا لِمَا كان ينتظر الأمير بازيل.

وفي صباح ذات يوم، حدَّث الأمير بازيل نفسه بقوله: «إنَّ كل هذا جميل ورائع، ولكن ينبغي أنْ أفرغ منه.» وندَّت عن صدره زفرة عميقة سويداوية، والواقع أنَّ بيير ذاك، الذي كانت له عليه التزامات متعددة — ليباركه الله — لم يكن يتصرف تصرفًا سليمًا في تلك المسألة، كان يحدِّث نفسه بقوله: «الشباب ... الطيش ... ليباركه الله (ويلذ له إشعار نفسه، بطيبته المتزايدة، بتلك البركات التي يستمطرها عليه) ولكن ينبغي أنْ نفرغ من هذا، إنَّ عيد ليوليا (وهو تحريف وتدليل لاسم هيلين ابنته) سيحل بعد غد، ولسوف أدعو بعض الأشخاص، فإذا لم يفهم واجبه فإنني سأقوم بواجبي. إنني على كل حال أبوها.»

كانت ستة أسابيع قد انقضت على حفلة آنَّا بافلوفنا الأخيرة وليلة الأرق تلك، التي قرر بيير فيها أنَّ ذلك الزواج سيسبب له التعاسة، وأنَّ عليه تنكُّب سبيل هيلين والفرار منها مهما كان الثمن، لكنه مع ذلك لم ينفك عن السكنى في منزل الأمير بازيل طيلة تلك المدة، متطلعًا خلالها برعب وذعر إلى أن كل يوم يقضيه هناك يزيده تعلقًا بهيلين، وقربًا

منها في عيون الناس، وأنَّ عودته إلى نفوره السابق منها أمر مستحيل. لقد شعر بعجزه التام عن انتزاع نفسه من بين يدي هذه المرأة التي كان يَعتبر ربط مصيره بمصيرها مجازفةً خطيرة، عليه أنْ يتحاشاها، ولعله كان يستطيع رغم ذلك أنْ ينجو بنفسه من ذلك الخطر، لولا أنَّ الأمير بازيل راح يحيي كل يوم — خلافًا لجري عادته — حفلات كان على بيير الظهور فيها إلَّا إذا كان معتزمًا تشويه متعة المدعوين بتخلُّفه، وتبديد أملهم وما ينتظرون. وفي المناسبات النادرة التي كان بيير يجد نفسه فيها في منزله، كان الأمير يهرع إليه فيضغط بقوة على يده مصافحًا، ويقدِّم له وجنته المجعدة لتقبيلها وهو يقول له: «إلى الغد»، أو «تعالَ لتناول طعام الغذاء معنا، وإلَّا فلن أعود إلى رؤيتك»، أو كذلك: «إنني سأنتظرك وأبقى خصوصًا من أجله»، فإنه ما كان يوجه إلى بيير أكثر من كلمتين اثنتين خلال الجلسة كلها، ولم يكن هذا قادرًا على مشاكسته أو الصمود له. وفي كل يوم كان بيير لا يفتأ يردد في سره: «ينبغي أنْ أفهمها رغم كل ذلك، وأنْ أصل إلى حقيقتها لأعرف هل كنتُ مخدوعًا من قَبل أو أنني أخدع نفسي الآن؟ كلا، إنها ليست حمقاء، كلا، إنها فتاة رائعة، إنها لا تأتي مطلقًا أمرًا منكرًا، إنها تتكلم نادرًا، لكن ما تقوله يكون دائمًا مصيبًا وواضحًا، فهي إذن ليست غبية حمقاء، إنها ذات مزاج متزن؛ لأنني لم أرَها مرَّة مضطربة مرتبكة، فهي إذن شخصية ممتازة.» وكان غالبًا يتورط في التفكير بصوت مرتفع أمام هيلين فيلقي ببعض الآراء، فكانت تجيبه إجابة قصيرة تدل — رغم ما فيها من وفرة المعاني — على استخفافها بتلك الأمور إلَّا إذا أعربت، خلافًا لذلك بنظرة أو بابتسامة صامتة، عن تساميها وتفوُّقها، ولقد كانت على صواب إذ ماذا تُجدي تخرصات الناس وآراؤهم أمام تلك الابتسامة التي تنطق ببيان فصيح لا تعبِّر عنه الأحرف والكلمات؟!

كانت هيلين تخصه بابتسامة فريدة مرحة مطمئنة، تحمل من المعاني ما لا تحمله ابتساماتها التقليدية الفارغة التي ترسمها على شفتيها في كل المناسبات، وكان كل الناس ينتظرون أنْ ينطق بيير بكلمة، أو أنْ يتخطى حدودًا معيَّنة، وكان يَعرف ذلك تمامًا كما يعرف أنه سوف يتخطى ذلك الحد آجلًا أم عاجلًا، لكنَّ رعبًا غامضًا كان يستولي عليه لمجرد التفكير في تلك الخطوة الآتية، حدَّث بيير نفسه ألف مرة خلال تلك الأسابيع الستِّ، وهو يشعر أنه يُجذب كل يوم أكثر من اليوم الأسبق إلى تلك الهاوية الرهيبة: «ولكن عجبًا، إنَّ الأمر لا يعدو وجوب اتخاذ قرار، فهل أكون عاجزًا عن اتخاذ خطوة حاسمة؟!»

كان بيير — رغم إصراره على اتخاذ قراره النهائي — يحس دائمًا بذعر كلما رأى أنَّ التصميم، الذي كان يعتقد أنه جازم وفي طاقته التمسك به، يتبدد ويهجره في موقفه الحاضر. كذلك هو الحال لدى بعض الأشخاص الذين لا يشعرون بحقيقة قواهم الداخلية إلَّا إذا كان لهم ضمير نقي شديد الصفاء؛ لذلك فإنه منذ ذلك اليوم الذي استولت فيه الرغبة الجامحة عليه بينما كان يعاين علبة السعوط عند آنا بافلوفنا، شَلَّ الخبثُ والمقصد السيئ اللذان نبتا في ضميره كلَّ حركات إرادته.

لم يستقبل الأمير بازيل في يوم عيد هيلين إلَّا لفيفًا من الأقرباء والأصدقاء، أو بعبارة أصح «الحلقة الصغيرة» كما كانت تسمِّيهم الأميرة، وقد أشعر هؤلاء المدعوِّين بشكل غير مباشر أنَّ مصير ابنة الأمير يتوقف على تلك الحفلة، كانت الأميرة كوراجين — وهي سيدة ضخمة مهيبة الطلعة، ذات جمال لم تعصف الأيام بكل آثاره — تترأس المائدة وحولها المدعوون الأرفع شأنًا ومقامًا: جنرال عجوز وزوجته، آنا بافلوفنا شيرر ... إلخ. وعلى طرف المائدة، انتظم عدد من المدعوين ممن كانوا أقل شأنًا أو أصغر سنًّا، وكان بيير وهيلين بين هؤلاء يجلسان جنبًا إلى جنب. لم يشترك الأمير بازيل في تناول الطعام مع ضيوفه، لقد كان مزاجه شديد الصفاء، فكان يحوم حول المائدة فيجلس تارةً قرب هذا وطورًا قرب ذاك، هامسًا كلمة مجاملة في أذن هذه، أو عبارة شيقة تطري تلك، لكنه لم يقترب قط من بيير وهيلين، وكأنه لم يكن يشعر بوجودهما على الإطلاق، كان يثير حماس الموجودين وشهيتهم، وكانت الفضيات والكئوس «الكريستالية» تلتمع تحت نور الشموع القوي، وكذلك حليُّ النساء والصفائحُ الدقيقة الذهبية أو الفضية التي تزين أكتاف الرجال. وكان الخدم بأثوابهم الحمراء ناشطين في خدمة المدعوين وتلبية رغباتهم، ورنينُ السكاكين وقرع الأقداح واحتكاك الملاعق بالأطباق تختلط بالجدل. ارتفع مِن أحد أطراف المائدة صوت حاجِبٍ عجوز يوجه إلى بارونة عجوز تصريحًا منمقًا يطري جمالها بلغة البلاط؛ الأمر الذي جعلها تنفجر ضاحكة من ذلك البيان الهزلي، وفي جانب آخر كان القوم يتندرون بضائقات مَن تُدعى ماري فيكتورفنا. أمَّا في الوسط فقد كان الأمير بازيل محور الانتباه، كان يقص على السيدات تفاصيل آخر جلسة لمجلس الدولة الاستشاري وعلى شفتيه ابتسامة هازئة. قال إنَّ تلك الجلسة عُقدت يوم الأربعاء الفائت، وإن حاكم بيترسبورج العسكري الجديد، سيرج كوزميتش فيازميتينوف، قرأ خلالها «فرمانًا» بخط الإمبراطور ألكسندر، تَسلَّمه عن طريق الجيش. كان الإمبراطور في كتابته الشريفة يخاطب فيازميتينوف قائلًا إنه يتلقى من كل مكان كُتبًا تُعْرب عن ولاء مرسليها وإخلاصهم، وإنَّ تلك التي أُرسلت إليه من بيترسبورج كانت تلقى عند جلالته عناية وتقبلًا فائقين،

وإنه يحس بفخار لأنه رئيس أُمَّة عظيمة كالأمة الروسية، وإنه يعمل ما في وسعه ليكون جديرًا بها. وكان الكتاب الشريف يبدأ بهذه الكلمات:

سيرج كوزميتش، تصلني من كل مكان ...

فسألت إحدى السيدات: إذن، إنه لم يستطع الاسترسال في قراءته أبعد من عبارة «سيرج كوزميتش»؟

فأجابها الأمير ضاحكًا: كلا، بل «سيرج كوزميتش، من كل مكان ... من كل مكان، سيرج كوزميتش ...» لم يستطع التاعس الفكاك من هذه الجملة، لقد همَّ أكثر من مرَّة بمتابعة القراءة، لكنه كان في كل مرَّة لا يكاد يتفوه بكلمة «سيرج» حتى ينفجر باكيًا، وعند «كوز ... ميتش» يزداد انتحابًا، أمَّا عند «من كل مكان» فقد يختنق بالعَبرات، فيُخرج منديله من جديد ويعاود القراءة: «سيرج كوزميتش، من كل مكان»، غير أنَّ نحيبه كان لا يلبث أنْ يتعالى أكثر فأكثر، حتى إنه اضطرَّ أخيرًا إلى تكليف سواه بقراءة الكتاب الشاهاني!

كرر أحدهم ضاحكًا: كوزميتش ... من كل مكان ... وكان يبكي ويرتفع نحيبه!

فهتفت آنا بافلوفنا من الجانب الآخر من المائدة بسبَّابتها: اعقلوا، إنَّ «فيازميتينوفنا» الطيب رجل باسل ممتاز!

فعمَّ الضحك المائدة كلها؛ ذلك الضحك الذي ما كان ينفك يتردد لأتفه الأسباب، وكان بيير وهيلين الوحيدين اللذين ظلا في مكانيهما صامتين وعلى شفاههما طيف ابتسامة لم تُستكمل بعدُ، لم تكن لتلك الابتسامة أية علاقة بموضوع سيرج كوزميتش، بل كانت ابتسامة احتشام منبعثة عن عواطفهما الخاصَّة، وعلى الرغم من أنَّ المدعوين لبثوا يتحدثون ويتضاحكون ويتفكهون متلذذين بتذوق خمرة الرين وأطايب الطعام، متظاهرين بعدم الاهتمام بالشابين، فإن نظراتهم المختلسة التي كانوا يوجهونها إليهما من حين إلى آخر، كانت تدل دلالة واضحة على أنَّ فكاهة سيرج كوزميتش والضحكات المدوية والوليمة الحافلة وكل ما يحيط بها ليس إلَّا خدعة أو ظاهرة يراد بها التمويه، وأنَّ الاهتمام العام مُنصبٌّ بكليته على الشفع: هيلين وبيير. وبينما كان الأمير بازيل يقلد سيرج كوزميتش في انتحابه، شمل ابنته هيلين بنظرة محيطة، وعندما كان ينقلب على قفاه ضاحكًا مقهقهًا، كان وجهه ينطق بصراحة: «إنَّ كل شيء على ما يرام، وإنَّ كل شيء سيقرَّر هذا المساء.» وكانت آنا بافلوفنا تدافع عن «فيازميتينوفنا الطيب» وهي تتخذ

مظهر المتوعد، غير أنَّ الأمير بازيل كان يقرأ في عينيها خلال تلك النظرة الحادة التي سلطتها على بيير، إنها تهنئه بصهره الجديد المنتظر وبسعادة ابنته المرتقبة. أمَّا الأميرة، فكانت وهي تقدِّم الخمر لجاراتها تُلقي على ابنتها نظرة غاضبة وتزفر زفرة كئيبة، وكأنها تقول: «بلى يا عزيزتي، لم يبقَ لنا الآن إلَّا أنْ نشرب النبيذ الحلو؛ لأن الدور قد أصبح لهذه الشبيبة، وعليها أنْ تنشر سعادة شديدة السفاهة والوقاحة!» وكان هناك سياسي يرقب وجهَي العاشقين المشرقين ويقول لنفسه متسائلًا: «لماذا أتظاهر بالاهتمام بكل ما أروي وما أقصُّ؟ إنَّ كل هذا ليس إلَّا سخافات! والواقع أنَّ هذا وحده هو السعادة الحقيقيَّة!»

وفي غمار ذلك التشاغل التافه الحقير الذي يصطنعه الموجودون ليربط بينهم في تلك الحفلة، انبثق فجأةً شعور جديد طبيعي غريزي، كان ذلك الشعور هو الرغبة التي يحس بها أحدهما في الآخر، مخلوقان فتيَّان نبيلان! كان ذلك الشعور مهيمنًا على كل شيء، وكان متفوقًا على الثرثرات العرضية التي علت جلبتُها في ذلك المكان. فقدت الدعابات مَلَاحتها والأنباءُ الجديدة طرافتَها وأهميتها، وظهرت الحماسة العامَّة على حقيقتها مفتعَلة مصطنَعة، ولقد امتدَّ ذلك الشعور إلى الخدم أنفسهم، الذين كانوا رغم إغفالهم خدمة الشابين متعمدين، لا يَنُوا يتأملون وجه هيلين المشرق الوضَّاح، ووجْه بيير المضرَّج بالحمرة بقسماته الكبيرة التي امتزج البِشر والقلق في الظهور عليها.

كان بيير يحس أنه أضحى محط أنظار الجميع، فكان يشعر بارتياح يشوبه الاضطراب والارتباك، كان لا يصغي إلى شيء ولا يفقه أو يسمع شيئًا شأن الرجل المستغرق في مشاغله، لولا أنه من حين إلى آخر كانت بعض الفِكَر أو المشاعر البتراء الغامضة تعيده إلى الحقيقة دون سابق إنذار.

كان يفكر في سره: «إذن لقد انتهى كل شيء! ولكن كيف وقع كل هذا؟ أبِمثل هذه السرعة؟! إنني أرى الآن أنَّ هذا الأمر ينبغي أنْ يتم ليس من أجلها هي أو من أجلي أنا، بل من أجل هؤلاء جميعًا؛ لأنهم ينتظرون حدوثه بتلهُّف، إنهم ينتظرون كلُّهم حدوث «هذا الشيء» بمزيد من القناعة، حتى إنني لا أجد ما يبرر خيبة أملهم، أمَّا كيف سيتم ذلك؟ فإنني لست أدري! غير أنَّ ذلك سيتم، نعم، سيتم حتمًا.»

وبينما كان مستغرقًا في خواطره، كانت نظراته تجوب رحاب تَيْنِك الكتفين العاجيتين الرائعتين، القريبتين من عينيه النهمتين، لكن لونًا من الخجل استولى عليه فجأةً عندما

فكر في أنه يحتكر اهتمام الموجودين جميعًا، وأنه يبدو أمامهم بمظهر الرجل السعيد، وأنه بوجهه البعيد عن منازل الجمال، يلعب دور باريس[١] في غزو قلب هيلين الجميلة.

راح يحدِّث نفسه مواسيًا: «مع ذلك فإن الأمر دائمًا يبدو كذلك، ولا يمكن أنْ يكون على شكل آخر. ثمَّ إنني ماذا عملتُ في سبيل ذلك؟ متى بدأ هذا الشيء؟ إنني عندما غادرتُ موسكو مع الأمير بازيل، لم يكن في الأمر شيء من كل هذا، ثمَّ إنني — ولا شك — ما كنتُ أستطيع رفض النزول في ضيافته، ثمَّ لعبتُ معها الورق والتقطتُ حقيبة يدها مرَّة، ورافقتها في نزهة. فمتى إذن بدأ هذا؟ متى وقع كل هذا؟» وها هو الآن يجلس بقربها وكأنه خطيبها، إنه يسمعها ويراها ويحس بوجودها، يشعر بتنفسها وحركاتها وجمالها. جمالها؟ أوَليس جمالُه هو — وليس جمالها — الذي يجذب كل هذه الأنظار؟ واعتدَّ بنفسه حين بلغ من مناقشته هذا الحد، فاستوى بجذعه ورفع رأسه مغتبطًا بسعادته، وفجأةً خُيل إليه أنَّ صوتًا مألوفًا لديه ارتفع مرتين، لكنه كان مستغرقًا في أحلامه فلم يفهم ما قيل له، ولما كَرر الأمير بازيل سؤاله للمرة الثالثة قائلًا: إنني أسألك متى تسلمت رسالة بولكونسكي، كم أنت ساهم البال يا عزيزي!

وابتسم الأمير فرأى بيير أنَّ الآخرين جميعهم يشاركونه في الابتسام وعيونهم شاخصة إلى هيلين وإليه، فقال في سره: «ماذا بعدُ؟ ما دمتم أنكم جميعًا على علم بالحقيقة. ثمَّ إنها هي الحقيقة الواقعة.» وافترَّ ثغره كذلك عن ابتسامته الهادئة؛ ابتسامة الطفل البريء التي استجابت لها هيلين بابتسامة مماثلة.

ألحَّ الأمير مستفسرًا وقد بدا عليه أنه في حاجة إلى الجواب ليضع حدًّا لنقاش معين: ألا تتكلم؟! متى تلقيت تلك الرسالة؟ هل كانت واردة من أولموتز؟

فأسرَّ بيير في نفسه قوله: «كيف يمكنهم الاهتمام بتفاهات كهذه؟» وأجاب بصوت مرتفع مشفوع بزفرة: نعم، من أولموتز.

وانتهى العشاء، فرافق بيير رفيقته إلى البهو أسوة بالآخرين، وأخذ المدعوون ينسحبون تباعًا، فكان بعضهم لا يودِّع هيلين مطلقًا، والبعض الآخر يتظاهر بعزوفه عن

---

[١] باريس أو ألكسندر، هو ابن بريام وهيكوب (آخر ملوك مدينة في آسيا الصغرى، صمدت لحصار اليونان عشر سنين، وخلدها هومير في أشعاره)، وهو زوج أونيون ومغوي هيلينا زوجة مينيلاس، وهو الذي أعطى جائزة الجمال للآلهة فينوس (فاستحقت مدينته حقد الإلهتين الأخريين مينرفا وجونون). (أسرة الترجمة)

إزعاجها في انشغالاتها الجدية، فيقترب منها قليلًا ثمَّ يستأذن مسرعًا مُلْحِفًا عليها بالبقاء مكانها مُعْفِيها من واجب التشييع؛ فالسياسي انسحب انسحابًا صامتًا ضجرًا لأن حياته كلها بدت لعينيه تافهة إذا قيست بهناء بيير وسعادته، والجنرال العجوز اقتاد زوجته التي كانت تشكو ألمًا في ساقها وهو يحدِّث نفسه قائلًا: «هه! أيها الحيوان العجوز! انظر إلى هيلين فاسيلييفتا، ها هي ذي امرأة تظل محتفظة بجمالها ولو تخطَّت الخمسين!» أمَّا آنا بافلوفنا فقد همست في أذن الأميرة الأم قائلة: أعتقد أنني أستطيع تقديم تهانيَّ منذ الآن.

وانحنت عليها تعانقها وأردفت: لولا إصابتي بالبرد لبقيت وقتًا أطول.

فلم تُجِب الأميرة، لقد كانت تغبط ابنتها، بل وتحسدها على سعادتها.

وبينما كان الأمير وزوجه يقودان الضيوف الذاهبين ويشيِّعانِهم، بقي بيير منفردًا بهيلين في البهو الصغير دون رقيب، لقد ظلَّ وحيدًا معها عدة مرات خلال الأسابيع الستة المنصرمة، لكنه لم يحدثها قط عن الحب، لكنه كان يشعر أنَّ مثل هذا الحديث أصبح الآن ضرورة مُلحَّة، غير أنه ما كان يعرف كيف يبدأ الخطوة الأولى. كان يشعر بالخجل، لقد كان يرى أنه يحتل مكانًا قرب هيلين معَدًّا لغيره من الناس، وكان هاتِفٌ داخلي يهيب به قائلًا: «إنَّ هذه السعادة لم تُخلق من أجلك، إنها خُلقت لأولئك الذين لا يملكون ما تملكه في نفسك من مشاعر.»

مع ذلك فقد شعر بضرورة التحدث بشيءٍ ما — أيِّ شيء — وحزم أمره على الكلام، سألها عمَّا إذا كانت مسرورة من تلك الحفلة، فأجابته بطهرها وبراءتها المعهودين أنَّ ذلك اليوم كان أجمل أعياد الأعياد في حياتها كلها.

كان بعض الأقرباء المقربين لا زالوا يجالسون الأميرة الأم في البهو الكبير، فجاء الأمير بازيل إلى حيث جلس الشابان يسترِقُ الخطى، فنهض بيير عند قدومه، وأعرب عن تأخره لأن الوقت قد أصبح متأخرًا، غير أنَّ الأمير أظهر بنظرة قاسية مستفسرة أنَّ مثل ذلك القول غريب وفي غير محله، لكنه تمالك نفسه على الفور وأمسك بذراع بيير فأجلسه، وابتسم له ابتسامة وديعة باشَّة.

قال يسأل ابنته بلهجة ماجنة طبيعية لدى الآباء الذين أنشَئوا أولادهم في النعيم والدلال؛ لهجةٍ كانت غير واضحة لديه كما ينبغي: وإذن يا لوليا؟

ثمَّ الْتفتَ إلى بيير وقال وهو يفك أزرار صدارته: «سيرج كوزميتش، من كل مكان.»

ابتسم بيير، لكن ابتسامته — والتي تعني — للأمير على أنه يفهم تمامًا أنَّ أقصوصة سيرج كوزميتش ليست هي التي تستأثر بانتباهه إلى هذا الحد في تلك اللحظة، وفهم الأمير

كذلك أنَّ بيير لم يكن غبيًّا كما كان يعتقد، فانسحب وهو يمضغ كلمات غير مفهومة، ولم يفُت بيير اضطراب هذا النبيل العجوز ذي الوجه الجامد، وأثر ذلك الارتباك فيه، فالتفت إلى هيلين فبدت هي الأخرى مرتبكة تنظر إليه نظرة ناطقة تقول: «إنها خطيئتك على أية حال!»

خاطب بيير نفسه قائلًا: «لا شك أن عليَّ أنْ أُسرع في بلوغ النتيجة لكنني لا أستطيع، لا أستطيع.» وعاد يتحدث في أمور تافهة. سألها عن حقيقة أقصوصة سيرج كوزميتش التي لم يكن قد استوعبها، فاعترفت له هيلين باسمةً أنها هي الأخرى لا تعرف عنها أكثر مما يعرف.

ولما عاد الأمير بازيل إلى البهو الكبير، كانت الأميرة تتحدث عن بيير مع سيدة في سن ناضجة: صحيح إنها صفقة موفقة، لكن السعادة يا عزيزتي ...

فأجابتها السيدة المُسنَّة: إنَّ أمر الزواج بيد الله.

بدا على الأمير بازيل أنه لم يسمع تلك المحاورة، وراح يتهاوى على أريكة في أحد الأركان، ولم يلبث أنْ أغمض عينيه وكأنه أغفى، ولما سقط رأسه على صدره تمالك نفسه وقال لزوجته: آلين، اذهبي وانظري ماذا يفعلان.

نهضت الأميرة واجتازت الباب وعلى وجهها طابع الخطورة واللامبالاة، فألقت نظرة على البهو الصغير، حيث كان بيير وهيلين يتحدثان، فقالت لزوجها: إنهما لا زالا ينسجان على منوال واحد: الحديث!

قطب الأمير بازيل حاجبيه فتقلص جانب من فمه، واهتزت وجنتاه وانطبع وجهه بذلك الطابع البشع الفظ، وانتفض ونهض واقفًا، وألقى برأسه إلى الوراء ومرَّ بالسيدات غير عابئ بهنَّ، واتجه نحو البهو الصغير بخطوات مصممة ثابتة. مضى من فوره إلى بيير الذي ما إنْ شاهد خطورة قسمات وجهه حتى انتصب واقفًا مذعورًا.

قال الأمير: حمدًا لله، لقد حدثتني زوجتي بكل شيء.

ثمَّ طوَّق بيير بإحدى ذراعيه وهيلين بالأخرى وأعقب: ليوليا يا فتاتي، إنني سعيد، شديد السعادة ... (واختلجت نبرات صوته من الانفعال) وأنت يا بيير، لقد كنت أحب أباك ... لسوف تكون رفيقة جديرة بك ... ليبارككما الله!

وضمَّ ابنته إلى صدره ثمَّ عانق بيير الذي شعر بأنفاسه الكريهة تحجب وجهه، ومن الغريب أنَّ دموعًا حقيقيَّة كانت تبلل جفنيه.

هتف متابعًا: تعالَي يا أميرة.

وهرعت الأميرة وراحت بدورها تبكي، ثمَّ تبعتها السيدة المُسنَّة التي راحت تمسح دموعها بمنديلها أيضًا، معانقتين بيير الذي قبَّل بدوره يد هيلين أكثر من مرَّة، وبعد قليل خرجوا نساءً ورجالًا تاركين الشابين وحدهما.

راح بيير يحدِّث نفسه: «كان لا بُدَّ من وقوع هذه الكارثة، فمن العبث إذن أنْ أتساءل عمَّا إذا كان الأمر حسنًا أم سيئًا، والآن وقد حُلَّت القضية فقد تخلصتُ من شكوكي المتزايدة المقلقة، ولعلَّ في هذا وحده ربحًا كافيًا.» أمسك بيد مخطوبته بصمت وراح يمعن النظر في حنجرتها البديعة التي كانت تهتز بانتظام.

شرع يقول فجأة: هيلين.

وأُرْتِجَ عليه، راح يفكر: «إنَّ الإنسان ينبغي أنْ يقول شيئًا في مثل هذه المناسبات.» لكنه لم يتذكر كلمة واحدة من ذلك الشيء الذي يجب أنْ يقال. حدق في وجهها، فاقتربت منه متضرجة الوجه، قالت وهي تشير إلى نظارتيه: آه! ارفع هذه الـ... هذه الـ...

فأطاعها بيير ونزع نظارتيه فبدت عيناه مروعتين مستفسرتين إلى جانب التعبيرات الأخرى التي كانت مرتسمة فيهما؛ تلك التعبيرات المألوفة الأخرى التي كانت مرتسمة فيهما، تلك التعبيرات المألوفة عند الذين درجوا على استعمال النظارات عندما ينزعونها، أراد أنْ ينحني ليقبِّل يدها، لكن هيلين، بحركة عنيفة من رأسها سريعة غير منتظرة، قرَّبت شفتيها من شفتيه وضغطت بهما عليهما، انقلبت سحنتها بشكل غريب، حتى إنَّ بيير شُدِهَ لذلك التحول.

قال في نفسه: «ليكن، لقد توغلنا كثيرًا حتى تتيسر لنا العودة أو التراجع، ثمَّ إنني أُحبها بعد كل شيء»، نطق بقوله: أُحبك.

لقد تذكَّر أخيرًا أنَّ هذه الكلمة ومثيلاتها جديرة بالترديد في تلك المناسبة، لكن تلك الكلمة التي تفوَّه بها خلفت صدًى مؤثرًا مخزيًا، حتى إنه خجل من تلفُّظه بها.

وبعد ستة أسابيع أخرى تزوج بيير، لقد أصبح المالك السعيد لأجمل امرأة ولعدة ملايين — أو على الأقل هذا ما كان يشاع عنه — فانتقل إلى قصره المنيف الذي أُدخل عليه الكثير من التحسينات والإصلاحات؛ قصر كل كونت من آل بيزوخوف.

الفصل الثالث

زيارة غير منتظرة

في تشرين الثاني من عام ١٨٠٥، تلقَّى الأمير العجوز نيكولا آندريئيتش بولكونسكي رسالة من الأمير بازيل، يخطره فيها بعزمه على زيارته برفقة ابنه، كانت الرسالة تقول:

> إنني سأقوم بجولة تفتيشية، ولا شك أنَّ خمسًا وعشرين مرحلة لا تُعتبر بالنسبة إليَّ شيئًا مذكورًا إذا كان المقصودُ من قَطْعها زيارتَك يا محسني شديد النبل والاحترام. إن «آناتولي» يرافقني في هذه الزيارة، إنه سيلتحق بالجيش، وإنني آمل أن تسمح له أن يعبِّر لك شفهيًّا عن شديد الاحترام الذي يشعر به إزاءك كما يُكِنُّ مثلَه لأبيه.

ولما أُطلعَت الأميرة الصغيرة على تلك الرسالة قالت بطيش: هه، لم يعُد من حاجة لدفع ماري في الأوساط، ها إن الراغبين يتبعونها إلى حيث تقيم.

أما الأمير نيكولا آندريئيتش فقد عبس بوجهه ولم يُعقب.

وبعد خمسة عشر يومًا، جاء رجال الأمير بازيل يعلنون أن سيدهم سيصل صباح اليوم التالي.

كان بولكونسكي العجوز يشعر دائمًا بتقدير تافه لعقلية الأمير بازيل وشخصه، وقد ازدادت تلك الفكرة قوة في نفسه عندما بلغ بازيل مركزًا لامعًا على عهد العاهلَين بول وألكسندر، وقد أدرك من التلميحات التي وردت في الرسالة من التنويه الذي فاهت به «ليز» الغرضَ الذي يسعى إليه بازيل، فامتزج الحكم السيئ الذي كان يُصدره عليه بشعور بالازدراء والنفور منه، لم يكن يتحدث عنه إلا مُغَمْغِمًا مغضبًا، وبلغت شراسته ذروتها في اليوم الذي كان ينتظر فيه وصول الأمير بازيل، فهل كان سيئ المزاج لأن الأمير سيصل ذلك اليوم، أم أنه كان مستاءً بصورة خاصة من مجيء الأمير لأنه كان سيئ

المزاج؟ على كل حال، لقد كان في وضعية نفسية سيئة حتى إنَّ تيخون أشار على المهندس بعدم تقديم تقريره ذلك اليوم للأمير الغاضب الساخط.

قال له وهو يدعوه إلى الإصغاء إلى وقْع خطوات سيده: اسمعه كيف يمشي، ألَا يضرب الأرض بكعبيه؟ إننا نعرف معنى هذه المشية.

مع ذلك، فقد قام الأمير بنزهته اليومية المألوفة في الساعة التاسعة صباحًا، كان يلبس قلنسوته المعروفة وفروته المبطنة بالمخمل ذات الياقة المصنوعة من فراء السمور، وكان الثلج قد انهمر بغزارة في الليلة السابقة، لكن الممشى الذي كان الأمير يسير فيه كان خاليًا من الثلج، لقد كانت الآثار تشير إلى أن الخدم قد أزالوا الثلج عن الممشى وكنسوه، وكانت آثار المكانس والرفوش واضحة، بل إن مجرفة كانت مفروشة في مرتفعات الثلج التي تحيط بجانبَي الطريق. تجوَّل الأمير الصامت العابس في حديقة البرتغال وفي الزرائب والإصطبلات وبيوت أتباعه، وتفقَّد الأبنية والدور المشيدة، سأل وكيله الذي كان يرافقه حتى القصر: هل تستطيع الزحَّافاتُ المرورَ؟

فأجاب الوكيل، وهو رجل وقور تكاد سحنته وتصرفاته أن تكون صورة طبق الأصل عن تصرفات سيده وسحنته: هناك طبقة كثيفة من الثلج يا صاحب السعادة، لكنني أمرت بتنظيف الممر.

كان الأمير قد بلغ عتبة القصر، فأومأ برأسه إشارة على الموافقة، فهمس الوكيل في سره: «حمدًا لله، لم تهب العاصفة!»

أردف معتبًا: ولولا ذلك لَمَا كان من السهل على الزحافة أن تمر يا صاحب السعادة، ولَمَا كان هناك وزير — كما يقال — آتٍ لزيارة سعادتكم.

وهنا وقع المحذور؛ فقد التفت الأمير بغتةً وحدج وكيله بنظرة ملتهبة، وهتف بصوته القاسي الثاقب: ماذا قلت؟ وزير؟ أي وزير؟ مَن أعطاك هذه الأوامر؟ لا تنظف الأرض من أجل الأميرة ومن أجل ابنتي، ولكن من أجل وزير! أنا لا أعرف وزراء!

– كنت أعتقد يا صاحب السعادة …

فصرخ الأمير وهو يقذف بكلمات لا حصر لها بسرعة متزايدة: كنت تعتقد! كنت تعتقد! آه، أيها الحشرات، يا لكم من أوغاد! سأعلِّمك كيف تعتقد!

ورفع عصاه فوق رأس آلياتيتش وأهوى بها، فدفعت الغريزة الرجل إلى تفادي الضربة.

استرسل الأمير يقول: لقد كنتَ تعتقد إذن! أيها القذر!

وعلى الرغم من أن آلياتيتش — الذي روَّعه أن يجد في نفسه الجرأة على تفادي الضربة التي وجَّهها إليه سيده — ازداد اقترابًا من سيده وهو يحني رأسه الأصلع، فإن الأمير لم يعاود رفع عصاه ليضرب بها الرجل، ولعل اقتراب الوكيل من سيده بتذلل كان السبب في منع تلك المحاولة، غير أنه لم يتوقف عن الصراخ، وإغراق المسكين بوابل من السباب: أيها القذر السافل! دعهم يعيدوا الثلج على الطريق!

واندفع إلى الداخل مغضبًا.

وفي ساعة الغذاء انتظرت الأميرةُ ماري والآنسةُ بوريين مَقْدمَ الأمير وهما واقفتان، كانتا مطَّلعتين على حالته النفسية طيلة ذلك اليوم، كانت الآنسة بوريين مشرقة الوجه، يُخيل للناظر إليها أنها تقول: «لا أريد معرفة شيء، إنني كما أنا دائمًا.» أما الأميرة ماري فقد كانت ممتقعة الوجه خافضة البصر مروعة، كانت ماري تعرف أنه يجدر بها في مثل هذه الأزمات أن تتخذ مظهر الآنسة بوريين دريئة، فتبدو باسمة مشرقة الوجه مثلها، لكنها ما كانت لتستطيع النجاح في تصنُّع ذلك المظهر، وكان عجزها يملأ قلبها حزنًا ويأسًا، كانت تقول في سرها: «إنني إذا تظاهرت بأنني لم ألاحِظ عليه شيئًا، فإنه يظن أنني لا أعبأ به ولا أحفل بما يصيبه، وإذا عبست واكتأبت فإنه سيقول من جديد أنني حزينة كجلباب الليل!»

وما كاد الأمير يطالع سحنة ابنته المستطيلة حتى انفجر مغمغمًا: إما أنك عديمة القلب أو حمقاء!

ولما لاحظ اختفاء كَنَّتِه عن المائدة حدَّث نفسه قائلًا: «ها إنَّ الأخرى ليست هنا! لعلهم ثرثروا أمامها بحديثٍ ما!»

سأل: تُرى أين الأميرة؟ هل هي مختبئة؟

فأجابت الآنسة بوريين باسمة: إنها ليست على ما يرام؛ لذلك فقد احتجبت في حجرتها، إن مثل هذه الأمور منتظَرة لمن كانت على مثل حالها.

فغمغم الأمير وهو يجلس إلى المائدة: هم، هم!

بدت إحدى الصحاف على غير ما يشتهي، وحدَّث أنها غير مستوفية النظافة، فأشار بأصابعه إلى «المنطقة» المشبوهة وألقى بالصَّحْفة بعيدًا؛ فالتقطها تيخون قبل أن تسقط، وأعطاها لرئيس الخدم.

لم تكن الأميرة الشابة منحرفة المزاج بالفعل، لكنها أُعلمت بحالة الأمير العقلية المتوترة، ففضَّلَت الْتزام حجرتها؛ لأنها كانت تشعر برعب لا يُوصف من مقابلته، وهو في مثل تلك الحالة المعتكرة.

همست في أذن الآنسة بوريين قائلة: إنني أخاف على الطفل الذي في أحشائي؛ لأن الله وحده يعرف ماذا سيترك مثل هذا الرعب في نفسي، وماذا سيخلِّف من نتائج.

كانت منذ وصولها إلى ليسَّيياكوري تشعر بلون من الخوف من حميمها؛ خوف ممزوجٍ بنفور لم تكن تَتَبيَّنُه بوضوح لشدة ما كان الرعب مستوليًا على نفسها. أما الأمير، فإن نفوره منها انتهى بكراهية، ولما تآلفت ليز مع محيطها الجديد، خَصَّت الآنسة بوريين بكثير من عطفها ومحبتها، فلم تقنع بقضاء ساعات النهار في صحبتها، بل رَجَتها أن تنام إلى جوارها، وبذلك فإنها ما كانت توفر حماها في أحاديثها الكثيرة التي كانت تقطع الوقت بها مع الآنسة بوريين.

قالت الآنسة بوريين وهي تطوي منشفتها الناصعة البيضاء بأناملها الوردية: سوف نستقبل ضيوفًا يا أميري، إنَّ سعادة الأمير كوراجين وابنه هما اللذان سيصلان على ما نمى إليَّ، أليس كذلك؟

وعلى لهجتها الاستفسارية المرحة أجاب الأمير: هم! إن صاحب هذه «السعادة» عديم الشأن، إنني أنا الذي أدخلتُه في الوزارة! ثم إنني لست أفهم ماذا جاء يعمل عندي الابن، لست أفهم، لعل الأميرة إليزابيث كارلوفنا والأميرة ماري تعرف السبب. أما أنا، فإنني لست في حاجة إلى هذه الشخصية.

وألقى نَظَره على ابنته ماري التي تضرج وجهها فجأةً وأردف: هل أنتِ مريضة؟ لعله الخوف من الوزير كما يقول آلياتيتش السخيف!

– كلَّا يا أبي.

وعلى الرغم من أن الآنسة بوريين أثارت الحديث دون كبير مقصد، فإنها لم تقبل بالهزيمة، راحت تتحدث عن بيوت البنات الشتوية، وتبدي انشراحها وافتتانها بهزيمة تفتحتْ أكمامها مؤخرًا، حتى إنَّ الأمير لم يكد يفرغ من الحساء حتى لانت أسارير وجهه وانبسطت.

مضى إلى جناح كَنَّته يعودها قبل انتهائه من الطعام، فرآها جالسة على مقعد منخفض تثرثر مع ماشا وصيفتها، فلما وقع بصر ليز على حَمِيها، شحب وجهها، طرأ على وجهها تحوُّل كبير، فغارت وجنتاها، وبدت بشفتها الناتئة وعينيها الشاخصتين أمْيَل إلى البشاعة، أجابت على سؤال الأمير الذي جاء يستفسر عن صحتها: إنني أشعر بشيء من التثاقل فحسب.

– ألستِ في حاجة إلى شيء؟

– كلَّا، شكرًا يا أبي.

– ليكن، حسنًا.

وانسحب من الغرفة، وبينما هو يجتاز الردهة وجد آلياتيتش مُطْرِق الرأس.

– هل أعادوا الثلج على الممشى؟

لقد أعيدت يا صاحب السعادة، أرجو أن تتفضل سعادتك بالصفح عن خطيئتي، لقد تصرفتُ بحماقة.

غير أنَّ الأمير قاطعه وهو يضحك ضحكته المغتصبة: هيا، انسَ هذا، حسنًا، حسنًا.

ومدَّ يده إلى وكيله الذي هرع إليها يقبِّلها، ومضى إلى مكتبه.

وصل الأمير بازيل قبل المساء، هرع عدد من الخدم والسائقين لاستقباله عند طرف الممشى الذي نُثر عليه الثلج عمدًا، فلم يتمكنوا من إدخال زحافته وأمتعته إلى جناح القصر إلا بعد عناء شديد.

خُصص للأمير بازيل وولده غرفتان مستقلتان.

نزع آناتول سترته، وجلس إلى منضدة راح يحدق في زاويتها بعينيه الكبيرتين الجميلتين، ويداه إلى وركيه، والابتسامة مرتسمة على شفتيه. كانت حياته كلها في نظره عيدًا مستمرًّا دائمًا، يُشرف على تنسيقها منظِّمٌ خفيٌّ، تنحصر مهمته في إعدادها وترتيبها. ومن خلال هذه الزاوية، راح آناتول ينظر إلى زيارته إلى ذلك العجوز النكِد ووارثته البشعة، فكَّر في أن المهزلة قد تكون مسلية، «وما دامت هي على هذا القدر من الغنى، فلماذا لا أتزوجها؟ إنَّ المال ووفرته لا يُفسدان شيئًا.»

أزال لحيته وتَعطَّر بعناية وتدقيق باتا عادة مألوفة لديه، ثم رفع رأسه الجميل باعتداد مضفيًا على نفسه — كعادته — مظهر الفاتح الغازي والشاب الهادئ الوسيم، ودخل إلى حجرة أبيه، كان أبوه منشغلًا في زينته وحوله وصيفاه الملازمان له يستجيبان لطلباته، أجال الأب نظرة فيما حوله؛ نظرة ارتياح واطمئنان، واستقبل ابنه بحركة رشيقة من رأسه تدل على مدى سروره وانشراحه، وكأنه يقول له: «رائع، بديع، كذلك كنت أريد أن أراك اليوم!»

سأل آناتول مناقِشًا موضوعًا قَتَلَه بحثًا وتمحيصًا مع أبيه من قبلُ كما يبدو: دعك عن المزاح يا أبي، قل لي هل هي حقيقة شديدة البشاعة؟

– يا لَلغباء! المهم هو أنْ تبدو معقولًا ومحترمًا حيال الأمير العجوز.

– لكنه إذا تسبب في شيء لا يروق لي، فإنني سأنسحب على الفور، إنني شديد الخوف من مثل هؤلاء العجائز!

– فكِّر في أن مستقبلك كله متوقف على سلوكك ورضاه.

وفي تلك الأثناء، كانت الوصيفات في غرفة الخدم على علم بوصول الوزير وولده، حتى إنَّ أدق تفاصيل مَظهرَيهما بات معروفًا منهن، يتناقشن فيه ويتجادلن حوله، أما الأميرة ماري، فإنها انسحبت إلى غرفتها محاوِلة عبثًا السيطرة على أعصابها وطرْد ارتباكها، كانت تحدِّث نفسها وهي تنظر إلى وجهها في المرآة قائلة: «لماذا كتبوا لي؟ ولماذا حدثتني ليز بالأمر؟ إن ذلك لا يمكن أن يقع، ثم إنَّ عليَّ أن أظهر في بهو الاستقبال، إنني لن أستطيع الظهور أمامه على حقيقتي بعد علمي بما يُضمره حتى ولو نال إعجابي ورضاي.» كان مجرد تفكيرها في أنها قد تُضطر إلى مجابهة نظرة أبيها تَشِلُّ أطرافها من الخوف.

هرعت ماشا، وصيفة لويز، إلى سيدتها تنقل إليها وإلى الآنسة بوريين تقريرًا مفصَّلًا عن الوزير وابنه وآخر الأخبار المتعلقة بهما؛ لقد وجد الأب صعوبة تُذكر في ارتقاء السُّلم، أما الابن، وهو شاب جميل نضر الوجه أسود الحاجبين، فقد ارتقاه وراء أبيه كالنسر، وراح يتخطى كل ثلاث درجات دفعة واحدة. ولما حصلت الصديقتان على هذه المعلومات، راحتا تتناقشان حول هذا الموضوع نقاشًا حاميًا، حتى إنَّ صوتيهما كانا مسموعين من الردهة، ولما قصدتا إلى حجرة الأميرة ماري، لم تكونا قد انتهتا من الجدل.

قالت ليز وهي تتهاوى على أريكة؛ لأن انتفاخ بطنها كان يجعل مشيتها عسيرة صعبة: لقد وصلا يا ماري، هل علمتِ بذلك؟

كانت ليز قد نضَّت عن جسمها ثياب الصباح، وارتدت واحدًا من أجمل أثوابها، وعُنيتْ عناية فائقة بزينتها وشعرها، لكن انفعال وجهها ما كان يخفي التعب والشحوب القاتل المتجليين على قَسَمَاته. وكان ذلك الثوب، الذي لا ترتديه إلا إذا كانت مدعوة إلى حفلة رسمية أو اجتماع للنبلاء، يزيد في مظاهر بشاعتها. أما الآنسة بوريين، فقد كانت هي الأخرى قد أدخلَت على زينتها تجميلًا خُيل إليها أنه لن يكون واضحًا أو ظاهر الافتعال؛ ولقد بدت حينذاك أكثر جمالًا من عادتها وأشد فتنة.

قالت الآنسة بوريين: ماذا؟ هل تبقَين كما أنتِ يا أميرتي العزيزة؟ لن يلبثوا حتى يعلنوا لنا أنَّ هؤلاء السادة قد انتقلوا إلى البهو، فيجب عندئذٍ أن نلحق بهم، ومع ذلك فإنني أرى أنك لم تُصلحي شيئًا من زينتكِ!

نهضت ليز من مكانها، وقرعت الجرس تستدعي الوصيفة، وراحت تُجهد نفسها في تزيين سلفتها، كانت ماري تشعر بجرح في كبريائها؛ لأنها كانت مضطربة لمجرد

قدوم خطيب، خصوصًا وأن صديقتيها ما كانتا تعتقدان غير ذلك الاعتقاد، ولم تكن تريد الإفصاح عن مشاعرها بإظهار ارتباكها في حضرتهما، ثم إنها إذا رفضت إصلاح زينتها، فإنها ستتعرض لإلحاحهما ودعابتهما التي لا تنتهي؛ لذلك فقد انطفأ وميض عينيها الجميلتين، وتضرَّج وجهها بالاحمرار، واتخذت مسحة الضحية المستسلمة التي طالما أَلِفتها، وأسلمتْ أمرها لعناية الصديقتين؛ ليز والآنسة بوريين. وشرعت المرأتان في تجميلها «بكل إخلاص» رغم أن بشاعتها كانت تفُوق كل منافسة، راحتا إذن تنصرفان إلى عملهما بصراحة تامة تستلهمان غريزتهما النسوية الساذجة المتأصلة في نفوس كل النساء؛ تلك الغريزة التي تجعلهن يعتقدن أنَّ الزينة هي السلطة التجميلية الوحيدة!

قالت ليز جازمةً بعد أنْ تأملت جانب وجه سلفتها على مسافة معينة: كلَّا يا صديقتي الطيبة، إنَّ هذا الثوب لا يلائمك، مُرِي أن يأتوكِ بالثوب الماساكا (وهي كلمة كانت تطلق على اللون الباذنجاني الذي كان يُعتبر آخر مبتكرات ذلك العصر). إن الأمر مهمٌّ كما تقدِّرين، لعل مصيرك كله سيقرر اليوم. إنَّ لون هذا الثوب فاتح فاقع، أؤكد لكِ أنه لا يلائمك، كلَّا، لا يلائمك.

والواقع أن الثوب لم يكن غير ملائم، بل إنَّ الوجه هو الذي كان غير متجانس، وليس الوجه وحده، بل الجسد كله، جسد الأميرة ماري. غير أنَّه لا الآنسة بوريين ولا ليز كانت تعرف ذلك. كانتا تعتقدان أنهما إذا ثبَّتَتَا شريطًا سماوي اللون في شعر ماري المرجل المرفوع إلى أعلى، واحتاطتا الثوب الأسمر بِغِلالة من ذلك اللون … إلخ؛ فإن كل شيء يكون على خير ما يرام، لكنهما كانتا تنفيان من حسابهما أنَّ الوجه الهزيل لا يمكن أن يخضع لأي تحويل، بل إنهما كانتا تنسيان أنهما مهما بالَغَتَا في تجميل الإطار وتبديله، فإن ذلك الوجه سيبقى أبدًا على بشاعته تلك التي تَنتزع العَبرات والحسرات. وبعد تجربتين ثلاث تجارب استسلمتْ ماري لها بكل خضوع، وبعد أن عكفتْ ليز شعر سلفتها ورفعته إلى الأعلى — رغم أنَّ ذلك كان يشوِّه منظر وجهها — وبعد أن أثبتت أصابع الآنسة بوريين الغِلالة الزرقاء على ثوب الماساكا الجميل، حامت ليز حولها مرة أو مرتين فأصلحت ثنية هنا، وجذْب الغلالة من هناك، ثم أحنت رأسها وراحت تتأملها من جانب ثم من آخر، وأخيرًا قالت بلهجة الواثقة: كلَّا، مستحيل، كلَّا ولا شك يا ماري، إنه لا يلائمك، إنني أراكِ أكثر جمالًا في ثوبك الأشهب الذي ترتدينه كل يوم، كلَّا رحماك، اعملي ذلك من أجلي.

وضربت كفًّا بكف، وهتفت تقول للوصيفة: كاتيا، ائتيني بثوب سيدتك الأشهب.

وأردفت تُخاطب الآنسة بوريين: انظري يا آنسة بوريين كيف سأجعلها تبدو في ذلك الثوب.

وراحت تتلمظ شأن الفنان الذي يتذوق فنه سلفًا.

ولما جاءت كاتيا بالثوب، كانت ماري لا تزال جالسة دون حراك تتأمل تقاسيم وجهها، فرأت ليز في المرآة أن عينَي سلفتها ممتلئتان بالدموع، وأن رعدة خفيفة كانت تهز شفتيها شأن من كان على وشك البكاء.

قالت الآنسة بوريين: آه يا عزيزتي الأميرة، ابذلي مجهودًا صغيرًا آخر.

أخذت ليز الثوب من يدَي الوصيفة، واقتربت به من ماري، قالت: والآن، سوف نقوم بتجربة بسيطة وفتانة معًا.

واختلط صوتها بصوتَي الآنسة بوريين وكاتيا الوصيفة اللتين شاطرتاها الضحك، فتعالت ضجة مرحة مؤنسة.

قالت ماري: كلَّا، دعيني يا ليز.

كانت لهجتها شديدة الخطورة مشبعة بالألم، حتى إن زقزقة العصافير البهيجة انقطعت على الفور، ولما نظر ثلاثتهن إلى تعبير تَيْنِك العينين الكبيرتين الجميلتين المليئتين بالدموع والمقاصد، أدركْن أنَّ الإلحاح غير مُجْدٍ، هذا إذا لم يكن إغراقًا في القسوة والتجنِّي.

قالت ليز: أبدلي إذن ترتيب شعرك.

ثم خاطبت الآنسة بوريين بلهجة عتاب ولوم: لقد نبَّهْتكِ من قبل إلى أن لماري وجهًا لا يلائمه هذا النوع من «التسريحة» المرتفعة، نعم، إنها لا تلائم وجهها أبدًا أبدًا، أبدليها فديتك.

فأجابت ماري بصوت مخضل بالدموع: لا، بل اتركْنَني، اتركنني، سيان عندي ذلك.

واضطرت ليز والآنسة بوريين إلى الاعتراف في سرهما أن ماري كانت — وهي على تلك الزينة — باديةَ البشاعة، بل أكثر بشاعة من ذي قبل، لكن فات الوقت الذي يمكِّنها من تلافي الخطأ، نظرت إليهما تلك النظرة الكئيبة الحالمة، تلك النظرة التي كانتا تعرفانها لدرجة أنها ما عادت تخيفهما — رغم أنَّ ماري ما كانت تُشعر أحدًا بالرهبة أو بالخوف — والتي كانت مع ذلك تجعلهما في مثل هذه الحالة تنطويان على نفسيهما وتلتزمان الصمت.

ظلت ماري وحيدة، لم تتبع نصيحة ليز، بل إنها لم تُلقِ نظرةً واحدةً على وجهها في المرآة، لبثت كالحة الوجه صامتة مُطرِقة الرأس متصلبة اليدين، وراحت تحلم في يقظتها، أخذت تتصور زوجها المقبل شخصًا قويًّا مسيطرًا، ذا جاذبية غامضة معقدة تساعده على حملها إلى عالمه هو، عالم سعيد مختلف كل الاختلاف عن عالمها، وتتصور طفلها

«هي» شبيهًا لذلك الذي شاهدته أمس لدى ابنة مربيتها، كانت تراه مضمومًا إلى صدرها وتتصور زوجها ينظر إليهما بحنان، لكنها قالت تحدِّث نفسها فجأةً: «ولكن كلَّا، إن هذا مستحيل، إنني شديدة البشاعة!»

علا صوت الوصيفة من وراء الباب تقول: لقد أُعد الشاي يا سيدتي، وسيصل الأمير فورًا.

انتزعت ماري نفسها من أحلامها، ورُوِّعت لاستسلامها إلى مثل تلك التخيلات، وقبل أن تبارح غرفتها، عمدت إلى مصلاها حيث حدقت طويلًا في الوجه الأسود الماثل في صورة كبيرة للمخلِّص يضيئها قنديل، ويداها مضمومتان إلى صدرها، كان يعذبها شك مريع؛ تُرى هل كانت مدعوَّة إلى تذوُّق مَباهج الحب؛ الحب الأرضي المكرث لرجل؟ كانت كلما فكرَت في الزواج تخيَّلَت السعادة التي يشعر بها المرء في الأسرة، سعادة الأطفال والبيت، لكنها كانت في قرارة نفسها تشعر أنها منذورة لأشواق أرفع من مباهج الأرض، وكان ذلك الإحساس في نفسها شديد الوضوح والصخب، حتى إنها راحت تحاول إخفاءه عن عيون الآخرين بمثل القوة التي كانت تصرفها لمغالطة نفسها في هذا الصدد، تَمْتَمَتْ: «رباه! كيف أستطيع إبعاد هذه الوساوس الشيطانية، خنْق هذه الأفكار السيئة إلى الأبد، وإنجاز إرادتك المقدسة بسلام وهدوء؟» لم تَكَدْ تنتهي من هذا الابتهال حتى شعرت في قرارة نفسها بالجواب العلوي السامي: «لا ترغبي في شيء من أجل نفسكِ، لا تبحثي عن شيء ولا تُقلقي روحكِ، لا تحسدي إنسانًا، ينبغي أن يظل مستقبلك مجهولًا منكِ كما هو الحال في آخرتكِ، ولكن نظِّمي حياتكِ بشكل تكونين معه مستعدة لكل شيء، فإذا شاء الله أن يبلوك بالتزامات الزواج، فأطيعي مشيئته على الفور دون تردد.»

وإزاء هذه الفكرة المطَمْئنة — وكذلك في أملِ تَحقُّق حلمها المحرم المتعلِّق بالحب الملتهب — رسمت ماري إشارة الصليب على صدرها وهي تزفر، وهبطت السُّلم دون أن تفكر في زينتها أو في شعرها، أو أن تهتم بالطريقة التي ستسلكها للظهور في البهو، بل إنها لم تعُد تفكر كذلك في المواضيع التي قد تثار وتصبح موضوعًا للبحث؛ إذ ما معنى هذه التفاهات إذا قورنت بمشيئة الله القدير؛ ذلك الإله الذي لا يمكن أن تسقط شعرة عن رأس مخلوق إلا بإذنه؟!

الفصل الرابع

أحلام بوريين

عندما دخلت ماري إلى البهو، كان الأمير بازيل وابنه يتحدثان إلى الأميرة الصغيرة والآنسة بوريين. دخلت متمهلة بتثاقل تسير على كعبها بحكم العادة. فلما اقتربت، نهضت الآنسة بوريين وكذلك الأمير وابنه، بينما راحت ليز تهتف مشيرة إليها: «ها هي ذي ماري!» شملتهم ماري بنظرة عامة لم تترك شيئًا إلا وأحاطت به، رأت أن الأمير بازيل عاد إلى الابتسام بعد أن حافظَت قَسَمَاتُ وجهه فترة وجيزة على تعابير الخطورة المصطنعة التي أسدلها على وجهه، وأن ليز كانت تحاول أن تقرأ على وجهَي الضيفين الأثر الذي أحدثه رؤيتهما لماري على تلك الصورة، وأن الآنسة بوريين — وكانت نظرتها أكثر اتقادًا من أي وقت مضى — في أوج زينتها وبهائها، تَشْخص بأبصارها محدقة في وجهه «هو»، أما «هو» فقد كان الشخص الوحيد الذي لم تره رغم وجوده، غير أنها حدست أنه طويل القامة جميل جدًّا شديد الجاذبية، وقد تقدَّم نحوها ملاقيًا مستقبلًا.

انحنى الأمير بازيل بادئ ذي بدء فقبَّل يدها، فلمست بشفتيها جبهته الجرداء، وأجابت على عبارات المجاملة التي بادرها بها بأنها لا زالت تحتفظ له في نفسها بذكرى ممتازة، ثم أتبع آناتول أباه، لكنها لم تحدق في وجهه، شعرت بيدٍ ناعمة قوية تمسك بيدها، وأن الجبين الذي تحسسته بشفتيها كان أبيض يعلوه شعر أشقر مضمخ بشكل معقول، فلما نظرت إليه أخيرًا، أدهشها أن يكون على ذلك القدر من الجمال، كان مُحْنيًا رأسه قليلًا، واضعًا إبهام يده اليمنى في إحدى عرى سترته، عاطفًا صدره وظهره معًا، مستويًا على إحدى ساقيه، يتأمل ماري بصمت بينما كانت أفكاره منصرفة عنها بشكل واضح، وعلى الرغم من أن آناتول لم يكن حاذقًا ولا متحدثًا لبقًا ولا مؤثرًا، فإنه كان يتمتع بميزة ثمينة في المجتمع؛ هي بروده واعتداده اللذان ما كانا يزعزعهما حدث مهما كانت قوته، وقد درجت العادة على أنَّ صمت الخجول أمام شخص يقابله للمرة الأولى

وقناعته بأنه غير لبق يضفيان على المقابلة برودًا ملحوظًا، يكون خلاله مُجْهِدًا نفسه في التنقيب عن الكلمات المناسبة والعبارات المقبولة. أما آناتول فكان على العكس؛ يصمت دون أي ارتباك ويتبختر أمام ماري متفحصًا زينتها بدَعة، وكان واضحًا أنه يستطيع البقاء زمنًا غير قصير على حاله تلك، وكان سلوكه يُشعر بأنه «إذا كان سكوتي يؤملكِ، فتحدثي على هواك، أما أنا، فإنني لست راغبًا في الحديث.»

ثم إن آناتول كان يتخذ حيال النساء موقف الترفع والتكبر الذي يوقظ فيهن الفضول والانفعال بل والحب. كانت مواقفه المترفعة تنطق بصراحة قائلة: «إنني أعرفكِ، إنني أعرفك، فما الفائدة من تهافُتي على الترحيب والاهتمام بك؟ إنني لو فعلت ذلك لكنتِ شديدة السرور!» لقد كانت قَسَمَات وجهه وتصرفاته توحي بذلك حتى ولو لم يكن يفكِّر مثل هذا التفكير بالفعل، وهو الذي عُرف عنه أن التفكير ليس من مزيته وخصائصه! شعرتْ ماري بتلك المعاني والمقاصد التي تبرزها مظاهر ذلك الشابِّ وحركاته، ولكي تُشعره بأنها لا تريد احتكار صحبته، انخرطت في حديث مع الأمير العجوز، ولم يلبث ذلك الحديث أنْ أصبح عامًّا قويًّا متشعبًا بفضل ثرثرة ليز التي كانت شفتها ذات الزغب تكشف باستمرار عن أسنانها البيضاء. كانت تخاطب الأمير بازيل بتلك اللهجة الماجنة التي يستعملها الثرثارون الوادعون، والتي تقضي بإيهام المستمعين أنَّ بينهما ذكريات مشتركة لا يعرفها سواهما، والتي تكون في حقيقتها وهمًا وخيالًا مطلقَين، استطاب الأمير بازيل تلك اللعبة فاشترك فيها، وراحت ليز تقص على الحاضرين نوادر من محض ابتكارها وتُوهِمهم أنها حقائق ثابتة، وأشركت في تلك النوادر الأمير الشاب آناتول الذي لم تكن تعرفه من قبلُ إلا قليلًا، وتاهت الآنسة بوريين في تلك الذكريات المبتكرة المختلفة، حتى إنَّ ماري نفسها وجدت صعوبة في انتزاع نفسها من تيار تلك الذكريات السعيدة.

قالت ليز بالفرنسية طبعًا: هنا على الأقل يا أميري العزيز يمكننا أن ننعم بوجودك كليًّا، إنَّ الأمر يختلف عما كان عليه الحال في حفلات آنيت حيث كنتَ تنسحب فرارًا، هل تذكرها، تلك العزيزة آنيت؟

– لكنكِ لن تحدثيني في السياسة كما كانت تفعل آنيت!

– وماذا عن ذكرياتنا حول مائدة الشاي؟

– آه! نعم.

وسألتْ آناتول: لماذا لم أكنْ أراك عند آنيت؟ آه! نعم، إنني أعرف، إنني أعرف! وغمزت بعينيها وأردفت: لقد حدثني أخوك هيبوليت عن أعمالك ومشاريعك.

وهددته بسبابتها وأعقبت: إنني أعرف حتى مغامراتكَ الباريسية.

فقال الأمير بازيل لولده وهو يستوقف ليز بإمساكها من ذراعها، وكأنه يجد صعوبة في منعها عن الفرار: غير أنَّ ما لم يكن جديرًا بهيبوليت أن يحدِّثكَ به هو أنه كان يحوم حول أميرتنا الفاتنة التي طردته بلطف.

وأردف مخاطبًا ماري: آه، إنها لؤلؤة النساء يا أميرة!

أما الآنسة بوريين فإنها لم تُفلت الفرصة التي أتيحت لها عندما سمعتهم يتحدَّثون عن باريس، فانبرت تسأل آناتول عما إذا كان قد غادر تلك المدينة منذ زمن طويل، وعن الشعور الذي خلَّفَته في نفسه، فأجابها آناتول بسرور جلي وهو ينظر إليها باسمًا، وراح يحدثها عن وطنها، كان آناتول بمجرد أن وقع بصره على تلك الحسناء الفرنسية، قد حدَّث نفسه بأنه لن يسأم النزول في ليسيا جوري ما دامت هذه فيها. كان يتفحصها مدققًا ويقول لنفسه: «إنها ليست رديئة، كلَّا، في الحقيقة إنها ليست رديئة هذه الآنسة المرافقة، إنني آمل أن تحتفظ ماري بها بعد زواجنا، إن هذه الصغيرة لطيفة للغاية.»

كان الأمير العجوز في تلك الأثناء يرتدي ثيابه في مخدعه دون تعجُّل، كان يتساءل في شيء من السخط عن الخطة التي سيسلكها مع ضيفيه، لقد كان قدومهما يزعجه، كان يغمغم: «ما حاجتي إلى الأمير بازيل وفرخه؟ إنَّ الأب دعيٌّ مأفون، أما الابن فلا شك أنه سِرُّ أبيه.» لكن سبب سخطه الحقيقي إنما يرجع إلى أن تلك الزيارة تثير مسألة معينة كان يخنقها كلما انطرحت على بساط فكره؛ مسألة كان دائمًا يفكر فيها ويدرسها من كل وجوهها؛ هل يقرر ذات يوم الافتراق عن ماري بإيجاد زوج لها؟ تلك كانت المسألة التي لم يفكر مرة في حلها بصراحة أو درْسها بإقدام، خصوصًا وأنه كان يعرف سلفًا أن العدل وحده سيملي عليه الجواب، وأن العدل في هذه المسألة يتناقض وعواطفه الشخصية، بل ويتنافى مع شروط وجوده وحياته. لقد كان رغم البرود الذي يتظاهر به، لا يطيق الحياة دون وجود ماري، راح يفكر: «ولِمَ أزوجها؟ لسوف تكون تعيسة حتمًا في حياتها الزوجية؛ هذه ليز التي تزوجتْ آندريه، وهو — ولا شك — أحسن الأزواج، ومع ذلك فإنها غير راضية عن مصيرها! ثم من ذا الذي سيتزوج ماري عن حبه لها؟ إنها بشعة وغير لبقة اجتماعيًّا، لسوف يتزوجونها من أجل علاقاتها وثروتها، فهل يتعذر فعلًا بقاؤها فتاة عزباء؟ أبدًا، وإنها ستعيش بذلك في سعادة أعم وأوسع!» وبينما هو يضرب أخماسًا بأسداس ويستكمل ارتداء ثيابه، شَعَرَ أن المسألة التي ظلت متفاوتة زمنًا طويلًا لن تكون اليوم أكثر تعقيدًا، وإذا كان الأمير بازيل قد اصطحب ابنه، فما ذلك إلا ليتقدم بطلب يد ماري، ولا بد من إعطائه جوابًا نهائيًّا، سواءٌ أكان ذلك اليومَ أو غدًا. نعم، إن الاسم

والمركز مناسبان، ولكن ينبغي أن يعرف كذلك إذا كان الخطيب نفسه جديرًا بابنته؛ وهذا ما سيتأكد منه بعد حين.

وأنهى الأمير مناجاته بصوت مرتفع قائلًا: هذا ما سنراه الآن، نعم، هذا ما سنتأكد منه بعد حين.

دخل إلى البهو بخطاه السريعة الرشيقة، وشمل الحاضرين بنظرة سريعة أتاحت له ملاحظة زينة ليز المحدَثة والأشرطة التي كانت الآنسة بوريين تُثبتها في شعرها وعلى ثوبها، وابتساماتها التي كانت تتبادلها مع آناتول، وشعر ابنته في ذلك الوضع الكئيب وانطوائها وسط النقاش العام، فحدَّث نفسه بغضب قائلًا: «لقد أظهرتْ نفسها كأغبى الحمقاوات! لقد فقدتْ كل حيائها، بينما الفتى لا يعيرها التفاتًا!»

اتَّجَهَ نحو الأمير بازيل وقال له: مرحبًا، مرحبًا، سرَّتْني رؤيتك.

فأجابه الأمير بازيل بتلك اللهجة الأنيسة الفكِهة المتزنة المألوفة لديه: إن مرحلتين لا تُعتبران مشقة في سبيل لقاءِ صديقٍ طبيبٍ قديمٍ، ها هو ذا أصغر أبنائي أقدِّمه بين يديك.

تأمَّلَ الأمير نيكولا آندريئيتش وجْهَ آناتول وقال: لَعمري إنه فتًى! تعالَ وعانقني.

وأدار له خده تسهيلًا لمهمته.

عانق آناتول الأمير العجوز وهو يتأمله بفضول متحرر منتظرًا أن يبادره بإحدى ثوراته الغريبة الشاذة التي حدَّثه أبوه عنها.

جلس الأمير نيكولا في مكانه المألوف على الأريكة، وجذب إليه مقعدًا دعا الأمير بازيل إلى الجلوس عليه، وراح يستفسر منه عن الأحداث الأخيرة، وكان يتظاهر بالإصغاء للأمير، بينما كانت أبصاره لا تنفك تُلاحق ابنته وتراقبها.

قال مكررًا كلمات الأمير بازيل الأخيرة، وقد نهض فجأةً، واتجه نحو ماري مباشرةً: إذن، فإن الأخبار أصبحت تَرِد الآن من بوتسدام؟

سألها: أَمِنْ أجل الضيوف عملتِ هذه المهزلة؟ لعلكِ تريدين إظهار نفسك بمظهر الجميلة، ولما كنتِ قدَّرتِ أن من المناسب ترجيل شعرك بطريقة جديدة إكرامًا للضيوف، فإنني أُسرُّك الأمر أمامهم بألَّا تعمدي إلى تبديل «تسريحتك» بعد الآن دون موافقتي وإذني.

فتدخَّلَت الأميرة الصغيرة وقد تضرج وجهها: إنها خطيئتي يا أبي.

فأجاب العجوز: إنك حرة التصرف على هواك، أما هي، فلا حاجة بها لأن تبدو أكثر بشاعة مما هي عليه.

وعاد يجلس في مكانه دون أن يعير ابنته التفاتًا، وهي التي بلغ بها الخجل مبلغ البكاء.

قال الأمير بازيل: على العكس، إن هذه الطريقة تتلاءم تمامًا مع الأميرة.

لكن العجوز كان في تلك الأثناء ملتفتًا إلى آناتول، قال له: هيا يا فتاي، أو أيها الأمير الشاب — لست أدري على الضبط كيف ينادونك الآن — تعالَ إلى هنا، ينبغي أن نتحدث وأن نتعارف.

فجلس آناتول قرب الأمير باسمًا، وهو يفكر في سرِّه: «ها إن المهزلة قد بدأت!»

أردف الأمير العجوز: إذن يا عزيزي، لقد نشأتَ في الخارج كما قيل لي، أليس كذلك؟ طبعًا، إن أمرك يختلف عن أمرنا أنا وأبيك؛ لأننا لم نجد إلا واحدًا من جرذان الكنيسة ليعلِّمنا الكتابة والقراءة!

ثم سأله وهو يحدق في وجهه عن قرب: قل لي، هل انتظمتَ الآن في عداد الحرس الراكب؟

فقال هذا وهو يكبت ضحكته بجهد بالغ: كلَّا، بل إنني في عداد الجيش العامل.

– جميل جدًّا، آه، حسن جدًّا يا صديقي! إنك تريد خدمة القيصر والوطن؟ إننا في حالة حرب، وإن شابًّا مثلك يجب أن يساهم في الخدمة، إذن هل تذهب إلى الجبهة؟

– كلا يا أمير، إن فرقتي في الجبهة فعلًا، لكنني أشغل مركز ملحق …

وتوجه إلى أبيه بالسؤال قائلًا وهو يضحك: إنني ملحق بأي شيء يا أبي، يا للشيطان!

فتضاحك الأمير العجوز وقال: هذا ما يسمَّى خدمة الوطن! بأي شيء أنا ملحق بحق الشيطان؟! ها، ها، ها!

وانفجر آناتول ضاحكًا بكل نَفَسَه، غير أن الأمير العجوز قطَّب حاجبيه فجأةً وقال له: حسنًا، اذهب.

فمضى آناتول إلى السيدات والابتسامة لا زالت على شفتيه، بينما تَحوَّل الأمير العجوز إلى أبيه يقول: لقد أنشأتَهما نشأة ممتازة في الخارج، أليس كذلك؟

– لقد عملتُ ما في وسعي. والحق يقال؛ إنَّ الثقافة الأوروبية خيرٌ مِن ثقافتنا المحلية.

– آه لا شك، كل جديد جميل. لا مجال للبحث في هذا، إنه فتًى! هيا، لننتقلْ إلى مخدعي.

وأمسك بذراع الأمير بازيل وقاده إلى مكتبه، وما إن أصبحا وحيدين حتى أطلعه الزائر على رغبته وآماله.

قال الأمير العجوز غاضبًا: أتعتقد مثلًا أنني أعترض سبيلها، وأنني لا أستطيع الحياة بدونها؟ هراء يا عزيزي! خذها منذ الغد، فإنني لن أتصدى لها، بَيْدَ أني أريد معرفة صهري على حقيقته، إنك تعرف مبادئي؛ كلُّ شيء في وضوح كامل! سوف أطرح عليها السؤال غدًا بحضورك، فإذا وافقتْ، دعه يبقى هنا، نعم، دعه يبقى وقتًا ما هنا لأدرسه.

وأعقب بصوت ثاقب يشبه ذلك الذي صرف به آناتول عن نفسه: لتتزوجْه، لتتزوجْه، لستُ أبالي!

فقال الأمير بازيل بلهجة صريحة شأن الماكرين الذين يعرفون عقم الخداع مع مستمع نابهٍ ذكي: سأحدِّثكَ بكل صراحة، إن من السهل عليك اختراق نفوس الناس وسبر أغوارهم، وإن آناتول لم يخترع البارود، لكنه فتًى نبيل وطيب وابن ممتاز.

– حسنًا، حسنًا، سوف نرى.

وكما هي العادة لدى النساء اللواتي حُرِمنَ عِشرة الرجال زمنًا طويلًا، فإن نساء ليسيا جوري شعرن عند حلول آناتول بينهن، أن الحياة التي عشنها حتى ذلك اليوم لم تكن حياة بالمعنى الصحيح؛ لذلك فقد تضاعفت ملَكات التفكير والشعور والملاحظة في أشخاصهن حتى بلغت عشرة أضعافها، وبدت حياتُهن التي كانت حتى ذلك الحين مدفونة في الظلام، منتعشةً براقة تخطف الأبصار.

نسيت الأميرة ماري «تسريحتها» اللعينة ووجهها الهزيل. كان ذلك الشاب الجميل ذو الوجه الباشِّ، الذي قد يصبح زوجًا لها، يحتكر كل انتباهها، كانت واثقة من أنه طيب باسل كريم وثابت العزم. وراحت ألوف الأحلام، أحلام الهناءة الزوجية المقبلة التي كانت تطردها من مخيلتها عبثًا، تزدهر في خيالها.

قالت تهمس في سرها: «ألست شديدة الجمود حياله؟ إنني إذا كنتُ أبذل ما في وسعي لأسيطر على مشاعري، فما ذلك إلا لأنني أُحِس في قرارة نفسي بأنني أصبحت شديدة القرب منه، لكنه يجهل كل ما أفكر به، ولعله يعتقد أنه لم يعجبني.»

وراحت ماري تحاول الظهور بمظهر الأنيسة المرحِّبة بالقادم الجديد، بينما كان آناتول يفكِّر في نفسه: «يا للفتاة المسكينة! إنها شديدة البشاعة!»

أما الآنسة بوريين فقد نبتت في رأسها أفكار من لون آخر، لقد كانت هي الأخرى مثارة أقصى الإثارة بمَقْدم هذا الفتى الجميل، كانت تنتظر منذ وقت طويل أن يتقدم منها أمير روسي، يشعر للوهلة الأولى بتفوقها على لداتها الروسيات البشعات الغبيَّات اللواتي لا يُجدن ارتداء ثيابهن وإظهار فتنتهن، فيقع صريع غرامها للنظرة الأولى. وها إن ذلك

الأمير الفتَّان قد جاء في تلك اللحظة. كانت تعرف أن فتاة مثلها، محرومة رغم جمالها من أي مركز ممتاز في المجتمع، محرومة من الأقارب والأصدقاء حتى من الوطن، لا يمكن أن تقبل البقاء أبدًا حيث هي؛ تكرس حياتها للأمير نيكولا آندريئيتش، وأن تظل إلى الأبد رفيقة الأميرة ماري ومقرئتها، وكانت الآنسة بوريين شديدة التعلق بأقصوصة حفظتها عن عمتها، كانت قد حاكت لها نهاية من محض ابتكارها وخيالها. كانت قصة فتاة جميلة أغراها رجل، فاستسلمت له دون أن يجمعهما زواج رسمي، وكانت الآنسة بوريين تذرف الدمع السخي كلما فكرت في خيالها أنها ستروي هذه القصة بالذات للفارس الذي سيغريها في المستقبل وينالها. أما الآن فإن ذلك الفارس لم يعُد خيالًا، بل «إنه» موجود بالفعل أمامها، إنه أمير روسي عريق، ولسوف يختطفها وينالها وينتهي الأمر أخيرًا بالزواج، تلك كانت خطوط المغامرة التي كانت تبدو في الأفق أمام ناظرَي الآنسة بوريين، التي كانت تتحدث مع آناتول عن باريس، لقد انقلبت القصة الخيالية إلى حقيقة بدأت خيوطها تبزغ عند الأفق، لم تكن تخضع في نفسها لأي حسبان، وهي التي لم تفكِّر قط فيما كان يجب عليها صنعه، لكنها كانت قد رتبت أقصوصتها منذ زمن بعيد، حتى إن كل التفاصيل بدأت تجتمع تلقائيًّا في تلك اللحظة وبشكل طبيعي تمامًا، وراحت خيوطها تلتف حول آناتول، ذلك الفتى، فتى أحلامها الذي طالما تاقت إليه، والذي كانت تُبرز أمامه كل فتنتها وروعتها.

وكانت ليز، كالحصان المدرب الذي يقفز عند سماعه البوق يقرع بالنداء، متحفزة للاندفاع في سباق الرشاقة، متناسية حالتها الصحية، متجاهلة ما قد يترتب على ذلك، خصوصًا وأنها ما كانت تغذي أية فكرة أو تهدف إلى أية غاية من وراء ذلك التهافت، اللهم إلا تلك الرغبة البريئة الساذجة التي تدفعها إلى الظهور بطيش وتهور.

وكان آناتول — وهو الذي درج في حضرة النساء على اتخاذ مظهر الإنسان الذي أنهكته ملاحقاتهن وتعلقهن — يشعر بلذة فائقة وهو يرى نفسه محور التفاف كل نساء البيت ومدار اهتمامهن، أضف إلى ذلك أنه لم يلبث حتى شعر نحو بوريين الجميلة المثيرة برغبة من تلك الرغبات الهوجاء المُلحَّة التي كانت تستحوذ أحيانًا على كيانه، وتقسره على التصرف تصرفًا طائشًا، وارتكاب أقسى الخطيئات وأكثرها تهورًا.

انتقل الضيوف وصحِبَهم إلى البهو الصغير بعد تناول الشاي، وهناك طُلب إلى ماري أن تعزف على الأرغن، واتكأ آناتول بالقرب منها على مرفقيه بجانب الآنسة بوريين، وراح يصوب إلى وجهها نظرات وادعة بسامة، وكانت ماري تشعر بارتباك مصدره السرور

الذي تحس به والقلق من إحساسها المرهف بتلك النظرة المسلَّطة عليها، وكانت القطعة الموسيقية المفضلة عندها التي كانت تعزفها قد حَمَلَتها إلى عالم سري شاعري، ازداد بهاؤهُ التماعًا وفتنة بتلك النظرة المغضبة عليها، والحقيقة أنَّ تلك النظرة — رغم ما كان يبدو عليها من أنها موجَّهة إليها — لم تكن متوقفة عند ماري، بل كانت تُراقِب بدقة حركات قَدم الآنسة بوريين الصغيرة التي تعمَّد آناتول الاحتكاك بها تحت المعزف، وكانت الآنسة بوريين تنظر بدورها إلى ماري، غير أن عينيها الجميلتين كانتا تحملان مسحة واضحة من السرور الكئيب، وأملًا في ألَّا تراها ماري وهي في وضعها ذاك مع آناتول.

كانت الأميرة تفكر في سرها: «كم تحبني بوريين! كم أنا سعيدة الآن! يا للهناء الذي ينتظرني في حياتي الزوجية المقبلة مع صديقة كهذه وزوج كهذا! ولكن هل سيصبح زوجي حقيقةً؟» كانت تشعر بعيون آناتول وهي تتفحصها، لكنها ما كانت تجرؤ على اختلاس نظرة واحدة إليه.

ولما حان الوقت للافتراق بعد العشاء، قبَّل آناتول يد ماري، وبُوغِتَتْ هذه من جرأته فنظرت إلى وجهه الجميل القريب منها بعينيها الضعيفتين نظرة كلها تساؤل، وببساطة مفاجئة كان لها الأثر في تخفيف حدة تلك الحركة النابية، همَّ آناتول بتقبيل يد الآنسة بوريين أيضًا، فتضرج وجهها خجلًا وراحت تستشير ماري بنظرة ذاهلة.

حدَّثت ماري نفسها: «يا للرقة المتناهية! هل تعتقد أميلي — وهو الاسم الأول للآنسة بوريين — أنني أغار منها أو أنني لا أقدِّر حنانها وإخلاصها حق قدرهما؟» واقتربتْ منها فعانقتها بحرارة لتزيل شكوكها.

واقترب آناتول من الأميرة الصغيرة، فهتفت هذه نافرة وهي تلوِّح بإصبعها مهددة: كلا، كلا، كلا! لن أعطيكَ يدِي لتقبِّلها قبل أن يكتب لي أبوك مؤكدًا أنك أصبحت تسلك سلوكًا حسنًا، أما الآن فلا.

وأفلتت خارجة.

الفصل الخامس

جواب ماري

نام آناتول وحده نومًا هانئًا تلك الليلة، أما الآخرون، فقد قضوا جميعهم ليلةً مضطربةً قلقة.

كانت ماري لا تفتأ تتساءل: «هل سيصبح زوجي، هذا المجهولُ الذي يبدو لي شديد الطيبة، رائعَ الجمال؟» ويستولي عليها جَزَع مفاجئ، وهي التي ما كانت تشعر بالخوف من قَبل، ما كانت تجرؤ على النظر إلى زاوية حجرتها، كان يُخيل إليها أن بعضهم كامن هناك في الزاوية المعتمة وراء الحاجز، وأن ذلك المختبئ كان الشيطانَ المتقمص في جسد رجل أبيض الجبهة أسود الحاجبين قرمزي الشفتين، فقرعت الجرسَ مستدعية وصيفتها، وطلبت إليها أن تنام معها.

وظلت الآنسة بورين فترة طويلة تتنزَّه في حديقة النباتات الشتوية منتظرةً عبثًا قدومَ فارسٍ ما، فكانت تبتسم تارةً للقادم الموهوم، وأخرى يأخذها التحنان حتى تطفر دموعها من عينيها، وتتصور اللوم العنيف الذي ستتعرض له مثلما تعرضت فتاة أقصوصتها المسحورة بفتنة فارسها الجذاب.

أما الأميرة الصغيرة، فقد وجدت سريرها غير منسق كما يجب، فعنَّفَت خادمتها، لم تكن تستطيع النوم على جنبها ولا على صدرها، وكانت كل وضعية أو استلقاءة تُسبب له ألمًا وشكوى، كان حملها يبهظها ويربكها، ويزيد في إزعاجها ما أثاره مَقْدم آناتول في تلك الليلة من ذكريات عهد كانت فيه بعيدة عن مشاكل الحمل، تتذوق المتعة وهي هيفاء القد متأودة العود منشرحة الصدر، غرقت في أريكة لينة وهي في جلبابِها وقلنسوةُ النوم على رأسها، وراحت تنظر إلى وصيفتها كاتيا، التي كانت تسوِّي وتقلب الفراش الكبير الثقيل المحشوَّ بالريش للمرة الثالثة، وهي مشعثة الشعر، يثقل النوم في أجفانها.

كررت احتجاجها بصوت متهدج كالطفل الذي يهمُّ بالبكاء: لقد قلت لكِ إنه مليء بالأخاديد والنتوءات، إنني في أشد الحاجة إلى النوم، وأؤكد أنه لو كان الأمر مقتصرًا عليَّ وحدي …

أمَّا الأمير العجوز فقد ظل ساهرًا وقتًا طويلًا من الليل خلافًا لمألوف عادته. وكان تيفون الذي ينام بِعَين واحدة ويسهر بالأخرى، يسمع وقْع خطوات سيدِه الغاضبة، وتنهداته الحارة العميقة. كان الأمير يعتقد أنه أُهِين في شخص ابنته. وكانت تلك أشدَّ الإهانات وقعًا على نفسه؛ لأنها لم تكن موجَّهة إليه مباشرةً، بل كانت تستهدف شخصًا يحبه أكثر من حبه لنفسه، وعلى الرغم من أنه دأب يكرر في سرِّه أنه سيجد لهذه المسألة حلًّا مُرضيًا بالتفكير العميق فيها، فإن انفعاله كان في تزايد مستمر.

كان يغمغم قائلًا: «لا يكاد أول طالب زواج يظهر على الباب، حتى تتناسى الآنسة الفاضلة أباها وكل ما تبقَّى، فيضيع رشادها، وتهرع إلى المرآة لتتبرج وترتمي متهالكة! آه، إنها سعيدة بتركها أباها! لقد كانت تعرف أنني لن أغفل عن رؤيته؛ ذلك الغبي الذي لم يرفع أنظاره عن بوريين! هذه واحدة ينبغي طردها على الفور! كيف لم تلاحظ ماري تصرفهما؟! كان عليها أن تخجل مني إذا كانت لا تخجل من نفسها، ينبغي أن أُطْلعها على أنَّ هذا المخاتل المتصنِّع لا يفكر فيها مطلقًا، بل يفكر في بوريين. ولما كانت لا تملك شيئًا من الاعتداد والكرامة، فإن من واجبي أن أدلها على ما تعمل وأن أفتِّح عينيها …»

كان الأمير العجوز يدرك تمامًا أنه إذا أثبت لابنته أن اهتمام آناتول كان منصبًّا على الآنسة بوريين وحدها، فإنه بذلك يدمي كرامتها، وبذلك ينجح في مبتغاه، فترفض الابتعاد عنه. فلما بلغ من مناقشته هذا المبلغ، قرع الجرس مستدعيًا تيخون الذي راح يُعد له ثياب النوم.

وبينما كان تيخون يحجب جسده الأعجف النحيل ذا الصدر المغطَّى بالشعر الأشهب، كان الأمير يحدِّث نفسه: «ما كنت في حاجة إلى زيارتهما! لقد جاءا يقلبان حياتي كما لو كنت مستغنيًا عنها!»

صرخ ورأسه لا زال محجوبًا بالقميص الذي لم يتخلص منه بعد: ليذهبوا إلى جهنم وكل الشياطين!

كان يحدث أحيانًا أن يعبِّر الأمير عن آرائه بصوت مرتفع، وكان تيخون يعرف عادات سيده؛ لذلك فقد جَابَهَ نظرته المستفسرة الغضبى، التي ظهرت خلال فتحة القميص بوجه مشرق خلي.

سأل الأمير: هل ناموا؟

كان تيخون خادمًا ممتازًا، وكان يفهم مرامي سيده من كلماته الأولى؛ لذلك فقد أدرك على الفور أنه يعني بذلك السؤالِ الأميرَ بازيل وولدَه، فقال: نعم يا صاحب السعادة، وقد أطْفَئوا الأنوار في حجراتهم.

غمغم الأمير مزمجرًا: لكأنني كنت في حاجة إلى أمثالهم!

ثم انتعل خفَّه، ولبس معطفه المنزلي، ومضى يستلقي على الأريكة التي كانت تقوم عنده مقام السرير.

وعلى الرغم من أن آناتول والآنسة بوريين لم يتبادلا كلمة واحدة حول شعورهما، فقد فهم كلاهما أن لديهما كثيرًا مما يودَّان التحدث به في جلسة هادئة لا ثالث فيها. لقد أدرك كلاهما خطوط الرواية التي يفكِّر فيها الآخَر، أو على الأقل الجزءَ الأول منها؛ الإغراء والاستسلام؛ لذلك فإن الصباح التالي ما كاد يكتحل طرفُه بالضياء حتى راح كلٌّ منهما يبحث عن الآخر ليختلي به، ولما كانت ماري تذهب عادةً في ساعة معينة كل صباح لتحيِّي أباها تحية الصباح، فقد أتيح لبوريين أن تقابل آناتول في الحديقة الشتوية.

كانت ماري ترتعد ذلك الصباح لدى وُلُوجها باب غرفة أبيها أكثر من عادتها، كانت تعتقد أن كلَّ مَن حولها أصبحوا يعرفون ليس أن مصيرها على وشك التقرير فحسب، بل كذلك أفكارها الشخصية وأحلامها المكتومة. بدا وجه تيفون لعينيها يعكس تلك الأحاسيس بكل صراحة، وكذلك خُيل إليها أن خادم الأمير بازيل، الذي قابلتْه حاملًا إناءً ممتلئًا بالماء الحار ذاهبًا به إلى غرفة سيده، مطلعًا على كل شيء بدليل التحية العميقة التي ابتدرها به لمَّا مر بقربها في سبيله.

استقبل الأمير العجوز ابنته بترحاب وبشاشة تنذر — كما عرفتْ ماري لطول خبرتها — بأسوأ النتائج، كان وجْهُه منطبعًا بمثل التعابير التي كانت تقرؤها عليه إبان دروس الرياضيات، عندما كان يثيره عدم استيعابها للشروح التي كان يفسر بها الدرس اليومي، كان يُطْبق قبضته، وينهض من مكانه مبتعدًا عنها، ويكرر الكلمة نفسها مرات عديدة بصوت أجوف جامد.

هاجم الموضوع فورًا باستعماله كلمة «أنتم» بدلًا من «أنت»، قال بصوت هادئ والابتسامة المغتصبة تداعب شفتيه: لقد تقدَّم بعضهم بعرض يتعلق «بكم»، لا شك «أنكم» عرفتم أن عينيَّ الجميلتين لا وزن لهما في زيارة الأمير بازيل وقاصره (والله وحده يعرف السبب الذي من أجله وصف آناتول بكلمة قاصر!) وإذن فقد تقدَّموا إليَّ

بعرض يتعلق «بكم» كما قلت، وبما «أنكم» تعرفون مبادئي الشخصية ومُثلي، فقد عدت بالموضوع إلى «قراركم».

تمتمت ماري وهي تمتقع تارةً، ويتضرج وجهها تارةً أخرى: كيف يجب أن أفهم قولكَ يا أبي؟

فهتف الأمير مستنكرًا: كيف تفهمين؟! إن الأمير بازيل يجدك مناسبة لتكوني كنة، ويتقدم إليك بالعرض نيابة عن قاصره، هذا ما يجب أن تفهميه! كيف تفهمين؟! ولكن عليك أنتِ إعطاء الجواب.

فعادت ماري تتمتم: لست أدري يا أبي كيف تنظر ...

– كيف أنظر؟! إن الأمير غير متعلق بي! لا تهتمي بشأني، لستُ أنا الذي سأتزوج، لكن «أنتم»، ماذا «تفكرون»؟ هذا ما أريد معرفته.

فهمتْ ماري أن العرض لم يرُق لأبيها، لكنها أدركت كذلك أن مصيرها كله متوقف على هذه الدقيقة من الزمن، أطرقتْ برأسها لتتحاشى نظرة أبيها المسيطرة؛ تلك النظرة التي كانت تخنق في نفسها كل أبواب التفكير، فلا تترك لها إلا الخضوع المطلق، وقالت: إنني لا أرغب إلا في شيء واحد: تنفيذ رغبتك، وبما أنك تريد معرفة رأيي حول هذا الموضوع ...

لم تجد فرصة لإتمام حديثها؛ لأن الأمير قاطعها قائلًا: حسنًا، لسوف يأخذك أنتِ وبائنتك والآنسة بوريين «على البيعة»، إنها هي التي ستكون زوجته وليس أنتِ.

لكنه توقف عندما رأى ماري خافضة الرأس على وشك البكاء، وقد زعزعت تلك الكلمات كيانها، قال مستدركًا: لا تراعي، لقد كنت أمزح، كنت أمزح، إنك تعرفين مبدئي؛ على الفتاة أن تنتقي شريكها؛ وعلى ذلك فإنني أعطيكِ ملء الحرية، تذكَّري فقط أن سعادة حياتك كلها تتوقف على قرارك، ولا تجعلي مني حجة تقوم عليها اعتباراتك.

– لكن في الحقيقة لست أدري يا أبي ...

– إنني لا علاقة لي بهذا الأمر، أما هو فقد أُمر أن يتزوجك، وإنه لَفاعل، وإن لم يكن أنتِ فإنه لا بد وأن يتزوج أول من تُقدم له، أما أنتِ، فإنك حرة في الانتقاء، اذهبي إلى غرفتك، وفكِّري في الأمر مليًّا، ثم عودي بعد ساعة، وسوف تتحدثين أمامه إما سلبًا وإما إيجابًا، إنني أعرف أنك ستركعين مصلية فور اعتكافك، فليكن، صلِّي ولكن فكِّري كذلك، هيا اذهبي الآن.

واستمرَّ يصيح وراءها: نعم أو لا، نعم أو لا!

بينما كانت تغادر أباها، وهي تترنَّح في مِشْيتها، وكأنها تائهة في ضباب.

كان مصيرها قد تقرر، وكان ذلك القرار على خير ما يرام؛ لأنها كانت تملك ناصيته، غير أنَّ تلك الملاحظة العابرة الخشنة التي أبداها أبوها حول مسألة الآنسة بوريين وعلاقتها ما فتئت تشغل بالها. عَبَرَتِ الحديقة الشتوية على خط مستقيم دون أن ترى أو تسمع شيئًا، لكنها فجأةً سمعتْ همسات الآنسة بوريين المألوفة على سمعها، فانتشلتها من شرودها. رفعت أبصارها فَرَأَتْ على بُعد خطوتين منها الأمير آناتول ضامًّا الفرنسية بين ذراعيه، يهمس في أذنها كلامًا، ولمَّا وقعت عيناه على ماري، اكتسى وجهه الجميل بطابع الذهول الشديد وكأنه كان يقول: «ماذا؟ ماذا يريدون مني؟ انتظري لحظة.» لم يُفلت بوريين لفوره، خصوصًا وأن هذه لم تكن قد رأتها بعد، أخذت ماري تتأملها بصمت دون أن تتقبل ما ترى، أو أن تفهم ما يُراد منه، وفجأةً أطلقت الفرنسيةُ صرخة قصيرة وأفلتت هاربة، أما آناتول فقد استعاد ابتسامته، وانحنى أمامها وكأنه يدعوها إلى مشاطرته الابتسام والضحك من هذه المناسبة الفريدة، ثمَّ هزَّ كتفيه، ومضى إلى الباب المؤدي إلى الجناح الذي نزل فيه مع أبيه.

وانقضَتْ ساعة، جاء تيخون بعدها يعلن للأميرة ماري أن أباها ينتظرها وبصحبته الأمير بازيل سيرجيئيتش، وكانت هذه جالسة على أريكة تضم بين ذراعيها الآنسة بوريين، وتمر بيدها على شعرها بعطف وحنان، كانت عيناها الجميلتان على هدوئهما وإشعاعهما السابقين، وكانت تحدق في وجه الآنسة بوريين؛ ذلك الوجه الجميل الذي كان مبللًا بالدموع، كانت تنظر إلى الفرنسية ببشاشة وعطف حقيقيين، وكانت بوريين تقول: كلَّا يا أميرة، لقد هلكتُ إلى الأبد، وفقدتُ مكاني في قلبك النبيل!

فتجيبها ماري: ولماذا؟ إنني أحبك أكثر من أي وقتٍ مضى، وسأسعى بكل ما أوتيتُ من قوة في سبيل سعادتك.

– لكنك تحتقرينني، أنت الطاهرة النَّقيَّة، لا يمكنك أن تفهمي هذه الخطيئة الغريزية؛ خطيئة الرغبة! آه! إنه خيالي وأقصوصتي.

فأجابتها الأميرة بابتسامة حزينة: بل إني أفهم كل شيء، اطمئني يا صديقتي.

ثم أعقبت وهي تنهض من مكانها: ولكن يجب أن ألحق بأبي.

كان الأمير بازيل جالسًا على مقعده، وقد لفَّ ساقًا على ساق، وأمسك بعلبة سعوطه في يده وعلى وجهه آيات الهياج والانفعال، وكانت الابتسامة الحانية المطلقة على شفتيه عند دخول ماري تبدو وكأنها استخفاف بذلك الانفعال والاضطراب. بادَر إلى الهجوم، فقال وهو يستقبلها ناهضًا، ويمسك بيديها الاثنتين: آه أيتها الطيبة، أيتها الطيبة!

ثم أطلق زفرة وأردف: إن مصير وَلَدِي بين يديك، فقرِّري يا ماري، أيتها الطيبة، أيتها العزيزة الرقيقة التي أحببتك دائمًا كابنتي.

وبينما هو يفسح لها الطريق، ظهرت دمعةٌ حقيقيةٌ في زاوية عينه بين الجفن والأهداب.

هتف الأمير العجوز بعد أن أخذ نفسًا عميقًا: إن الأمير باسْم قاصره لا بل باسْم ابنه يطلب يدك للزواج، فهل تريدين أن تصبحي زوجة آناتول كوراجين؟ أجيبي بنعم أو لا، قولي نعم، أو قولي لا، وإنني أحتفظ فقط بحقي في إبداء رأيي بعد ذلك. رأيي فقط ولا … ولا شيء سواه.

وكرر هذه الجملة حينما لمس أمارات التوسل التي انطبعت على وجه الأمير بازيل وأردف: حسنًا، ما هو رأيك؟ نعم أو لا؟

فقالت ماري بثبات، وهي تنظر بشدة في عينَي الأمير بازيل، ثم تنقِّل بصرها إلى وجه أبيها: إنَّ رغبتي يا أبي هي ألَّا أفارقك أبدًا، ألَّا أفصل حياتي عن حياتك، إنني لا أريد أن أتزوج.

فغمغم الأب حانقًا وقد اكفهر وجهه: يا للغباء، يا للغباء! سخافات، سخافات!

لكنه جذب ابنته نحوه، ولامَسَ وَجْنَتَها بوجنته دون أن يقبِّلها، وضغط على يدها بشدة، حتى إنَّ ماري لم تتمالك أن أطلقت صرخة خافتة أشفعتها بحركة دالة على شدة الألم.

أما الأمير بازيل فقد نهض واقفًا وقال: يا عزيزي، أستطيع القول إنني لن أنسى هذه اللحظة أبدًا، ولكن ألا تعطين مجالًا للأمل في أن قلبَك شديدَ الطيبة شديدَ الكرم قد يعيد النظر في قراره؟ قُولي: يجوز. إن المستقبل كبير فسيح، قولي: يجوز.

– كلَّا يا أميري، لقد تحدثتُ بكل صراحة، وليس لديَّ ما أضيفه على ما قلتُ، إنني أشكرك للشرف الذي أسبغتَه عليَّ، لن أكون زوج ابنك أبدًا.

وعندئذٍ قال الأمير العجوز: حسنًا يا عزيزي بازيل، لقد انتهينا من هذا، سَرَّني أن رأيتك بعد طول فراق. سَرَّني … وأنتِ أيتها الأميرة يمكنك الانسحاب.

وعانَقَ الأميرَ بازيل للمرة الثانية وأردف: سَرَّني أن شاهدتُك يا عزيزي.

كانت ماري تُحدِّث نفسها بقولها: «إن مهمتي في الحياة تختلف عن كل هذه الأمور، إنها تنحصر في التضحية في سبيل الحياة الآخرة، ولسوف أمكِّن أميلي المسكينة من سعادتها مهما غلا الثمن، إنها تحبه بشغف، وهي آسفة شديدة الندم على زلَّتها، سأعمل

كل ما في وسعي كي يتزوجها، إنه إذا لم يكن غنيًّا، فإنني سأقدم له بائنة، سوف أبتهل إلى أبي، وأتوسل إلى أخي آندريه، سأكون شديدة السعادة عندما تصبح زوجته! إنها غريبة مسكينة لا أقرباء لها ولا سند. آه! رباه، هل كان ينبغي أن تتعلق به إلى هذا الحد حتى تنسى نفسها، وتغفل عن شأنها، فتستسلم له! لَعَلَّني كنت أتصرف على غرارها! إنها لا تُلام.»

الفصل السادس

رسالة نيكولا

مضى زمن طويل على آل روستوف، لم يتلقوا خلاله شيئًا من أخبار نيكولا، وعندما انتصف الشتاء، سُلِّم للكونت رسالة، كان العنوان مخطوطًا بخط ولده، حركت لك الرسالة عواطف الكونت وأثارتْها حتى إنه جرى على أطراف قدميه محاذرًا تنبيه أحد إليه، وأغلق على نفسه باب مكتبه ليختلي برسالة ابنه، ويكتم الخبر عن الآخرين، وكانت آنا ميخائيلوفنا — رغم تحسُّن أحوالها وانتعاش مواردها — لا تزال تقيم لدى آل روستوف، وكان من عادتها الإحاطة بكل ما يدور حولها. وهكذا فإنها لم تلبث أن اكتشفت الأمر، فتسللتْ بخطًى حذرة إلى مخدع الكونت، وهناك وجدتْه يضحك وينتحب والرسالة في يده.

سألته بلهجة فيها قلق واستفسار، وبلهفة تُتْقِن إبرازها كلما أرادت المساهمة في الاطلاع على موقف معين: ماذا يا صديقي الطيب؟

فتضاعَفَ نحيب الكونت، وتمتم خلال دموعه: رسالة ... من صغيري نيكولا ... لقد جُرح يا عزيزتي ... نعم، نعم، لقد جُرح صغيري العزيز ... ولقد بشَّروه برتبة ضابط ... حمدًا لله! ... كيف أنقل هذا الخبر ... إلى عزيزتي الكونتيس الصغيرة؟

جلستْ آنا ميخائيلوفنا قرب الكونت، وراحت تمسح عينيه بمنديلها، وتجفف الورقة التي تساقطت عليها بضع عَبرات، وأخيرًا تمسح دموعها هي الأخرى، ثم قرأت الرسالة، فطمأنت الكونت وقرَّرت أن تهيئ الكونتيس لتلقِّي النبأ قبل موعد الطعام معلنةً أنها ستنهيه إليها بعون الله ومشيئته بعد تناوُل الشاي.

ظلَّتْ آنا ميخائيلوفنا تتحدث طيلة الوقت الذي استغرقه الطعام عن الأنباء والإشاعات المتناقلة على الألسن المتعلقة بسير القتال، وعلى الرغم من إلمامها التامِّ بالوقت الذي تلقتْ فيه الأسرة آخر أنباء نيكولا، فإنها عادت تسأل عن الوقت ملمحة إلى أنه لا يُستبعد أن يصل منه كتاب في ذلك اليوم بالذات، وكانت تلك التلميحات والتنويهات تسبب للكونتيس

قلقًا واكتئابًا، فكانت تتفحص وجه زوجها بنظرة صارمة تارةً ووجه صديقتها تارةً أخرى، وعندئذٍ كانت هذه تحوِّل الحديث ببراءة وبساطة إلى موضوعات تافهة، غير أنَّ ناتاشا الحساسة المتفوقة في الحس المرهف على كل أفراد الأسرة، أدركتْ منذ أن بدأ الطعام أن في الجو شيئًا جديدًا؛ لذلك فقد راحت تصغي بانتباه عميق إلى كلِّ التنويهات، وتسجِّل كل التحولات التي تطرأ على قَسَمَات وجوه الجالسين، محاوِلة اختراق الستور ومعرفة ما وراء تلك النفحات الصوتية الغامضة، فهمتْ بسرعة أن هناك سرًّا، وأن ذلك السر يتعلق بنيكولا، وأنه كامن بين أبيها وبين آنا ميخائيلوفنا، بل وأدركت أن هذه تمهِّد السبيل للإفضاء بذلك السر، ولما كانت تعلم أن كل ما يتعلق بنيكولا يثير أمها ويزعجها، فإنها لم تجرؤ — رغم جرأتها وطيشها — على طرح أي سؤال، لكنها كانت في غمار لهفتها ناسية الطعام الذي بين يديها، فلم تُصِب منه إلا قليلًا. لم تكن لتستقرَّ على كرسيها متجاهلةً ملاحظات مربِّيَتِها، وما إن نهض أفراد الأسرة عن المائدة حتى هرعت إلى آنا ميخائيلوفنا كالمجنونة، فلحقتْ بها قرب المخدع، وهناك قفزت إلى عنقها، فتعلقت به وهتفت: يا عمتاه، يا عمتي الصغيرة العزيزة، نبِّئيني بالخبر!

– ليس من خبر يا عزيزتي.

– بلى، بلى، إنني واثقة من أنك تلقيت شيئًا جديدًا، آه يا عزيزتي، يا جميلتي، يا معبودتي، قولي لي فورًا ما الخبر وأسرعي؛ لأنني لن أُفلتك قبل أن تُنْهِيَه إليَّ.

فقالت السيدة الطيبة وهي تهز رأسها: إنك مرهفة الحس يا طفلتي.

فهتفت ناتاشا: إنها رسالة من نيكولا، أليس كذلك؟

ولما قرأتْ على وجه آنا ميخائيلوفنا ما يَدْعم هذا الرأي أردفت: بلى، رسالة من نيكولا، بالتأكيد!

– كوني حكيمة بحق السماء، إنك تعرفين مبلغ ما يعتري أمك من انفعال لهذا النبأ.

– نعم، نعم، ولكن نبئيني بالخبر، حدِّثيني، ألا تريدين؟ حسنًا، إنني ذاهبة من فوري إلى أمي أخبرها ...

فاضطرتْ آنا ميخائيلوفنا إلى إيجاز فحوى الرسالة الواردة في بضع كلمات، وناشدتها أن تكتم الخبر عن الجميع، فقالت ناتاشا وهي ترسم إشارة الصليب على صدرها: أعدك وَعْدَ شرف ألَّا أقول ذلك لأحد!

وهرعت لفورها إلى سونيا، وقالت لها وهي تكاد تطير من الفرح: سونيا، إن نيكولا ... جريح ... هناك رسالة منه.

فامتقع وجه سونيا، ولم تستطع النطق إلا بكلمة واحدة: نيكولا!

وأدركت ناتاشا من اضطراب ابنة عمها مبلغ ما في الخبر الذي وافتها به من شَجَنٍ وحزن، فارتمت على عنقها، وذابت في دموعها.

راحت تُطَمْئنها خلال نحيبها بقولها: لقد جُرح جرحًا خفيفًا، وسيصبح ضابطًا بعد قليل، إن حاله بتحسن مستمر، ولقد كَتَبَ الرسالة بنفسه وبخطِّ يده.

وهنا أعلن بيتيا، الأخُ الصغير وله من العمر تسع سنين، وكان يذرع الغرفة بخطوات ثابتة: إنَّ كل النساء — ولا شك — لَسْنَ إلا نائحات منتحبات، أما أنا، فإنني سعيد جدًّا؛ نعم سعيد حقًّا أن يكون أخي قد أبرز شجاعته على هذا الشكل، إنكن نائحات سخيفات، لا تفقهن شيئًا من شيء.

فابتسمتْ ناتاشا رغم دموعها بينما سألتها سونيا: هل قرأتِ الرسالة؟

– كلَّا، لكنها أنبأتني بأنه شُفي تمامًا، وأنهم رقَّوْه إلى رتبة ضابط.

فقالت سونيا وهي ترسم إشارة الصليب على صدرها: حمدًا لله! ولكن لعلها لم تنبئك بالصدق، هيا بنا إلى «ماما».

وكان بيتيا لا يزال في تجواله صامتًا، قال: لو أنني كنت بدلًا من نيكولا، لقَتلتُ مزيدًا من أولئك الفرنسيين، يا للأوباش! كنت قتلت منهم عددًا كبيرًا، وكتلت جثثهم حتى يبلغ ارتفاعها هكذا!

وأشفع ذلك بإشارة من يده مبيِّنًا الارتفاع المنشود.

قالت أخته: حقًّا يا بيتيا، يا لك من غبي!

– لستُ أنا الغبيَّ بل أنتن، يا مَن تبكين لأتْفه الحماقات.

سألت ناتاشا بعد فترة صمت: هل تذكرينه يا سونيا؟

فقالت سونيا باسمةً: تسألينني إذا كنت أتذكر نيكولا؟!

فألَحَّتْ ناتاشا وهي تؤيد خطورة سؤالها بحركة من يدها: كلَّا يا سونيا، هل تذكرينه بشكل يجعلك تذكرين كل شيء؟ إنني أتذكر كل تقاسيمه، أما بوريس فقد نسيتُه تمامًا.

فهتفت سونيا مذهولة: كيف؟! أنسيت بوريس؟!

– أقصد أنني لم أنْسَهُ كما تدل الكلمة عليه، إنني أعرف كل تقاطيعه بالطبع، لكنني لا أذكره كما أذكر نيكولا، إنني عندما أغمض عينيَّ (وأغمضتْهما فعلًا) أراه أمامي، أما بوريس، فعلى العكس، إنني لا أراه أبدًا.

قالت ناتاشا وهي تنظر إلى صديقتها بخطورة وجلال، وكأنها قدَّرت أنها لا تستحق الإصغاء إلى ما تقول، فراحت تخاطب شخصًا آخر، لم يكن دأبه المزاح والهذر: آه ناتاشا، آه ناتاشا! إنني أحب أخاك، ومهما حصل له أو لي، فإنني لن أنقطع عن حبه طيلة أيامي.

أُرْتِج على ناتاشا، وحارت في الجواب الذي تقدمه، فاكتفتْ بالتحديق في وجه ابنة عمها بنظرة حافلة بمعاني الدهشة، كانت تشك وترتاب في صدق قول سونيا، وفي إمكانية وجود غرام من هذا النوع، ولكنها لم تجد مندوحة عن الاعتراف بجواز مثل هذا الأمر، خصوصًا وأنها لم تكن بعدُ قد شعرت بشيء من هذا القبيل، واجتازت اختبارًا من هذا النوع، وأخيرًا سألت: هل ستكتبين له؟

استغرقتْ سونيا في التفكير، كانت منذ وقت طويل تتساءل بقلق عما إذا لم يكن من الواجب عليها أن تكتب لنيكولا، وعن العبارات التي تتلاءم مع هذه الغاية، أما الآن وقد غدا بطلًا، وأصبح ينتظر ترقيته إلى رتبة ضابط، فهل من النبل في شيء أن تعيد إلى ذاكرة الفتى ذكراها؟ ألن يفسر رسالتها بأنها نداء وتذكير بالعلاقة والالتزام الذي تعهَّد به حيالها؟

قالت وقد تضرَّج وجهها خجلًا: في الحقيقة لستُ أدري، ولكن يبدو لي أنني أستطيع أن أكتب له طالما أنه يكتب لنا بدوره.

– وهل ستشعرين بالخجل إن أنتِ كتبتِ؟

فقالت سونيا باسمة: ابدأ، لماذا أخجل؟

– لست أدري، هكذا … إن ذلك قمين بارتباكي.

وهنا تدخَّل بيتيا من جديد، وقال وهو شديد الألم لملاحظة أخته الأخيرة: أما أنا فأعرف لماذا تشعر بالخجل؛ ذلك لأنها بعد أن أحبت بوريس وتعلَّقت به، عادت تعشق ذلك الضخم ذا النظارات (ويقصد به الكونت بيزوخوف الجديد الذي لم يجد بيتيا وصفًا آخر ينطبق على مظهره الطيب الساذج) وها هي الآن مفتونة بالمغني (وكان يقصد ذلك الإيطالي الذي يقوم بدور أستاذ الموسيقى بالنسبة لناتاشا) هذا هو سبب خجلها.

قالت ناتاشا: كم أنت غبي يا بيتيا!

– لستُ أكثر غباءً منكِ يا صديقتي الطيبة!

نَطَقَ الطفل بهذه الجملة بثبات الكهل المحنَّك الخبير.

تذكرت الكونتيس وهي في غرفتها بعد الطعام إلى التلميحات التي فاهت بها آنا ميخائيلوفنا على المائدة، فغرقت في أريكتها، واستغرقت في تأمل صورة ابنها الصغيرة

المنقوشة على غطاء علبة سعوطها، تلألأت الدموع في عينيها، وطفرت تبلل أهدابها، وفي تلك اللحظة، كانت آنا ميخائيلوفنا تقترب من غرفة صديقتها بخطوات متسللة والرسالة في جيبها، قالت للكونت الذي كان يريد اللحاق بها: كلَّا، لا تدخل. انتظر برهة.

وأغلقت الباب وراءها.

ألصق الكونت أذنه بثقب الباب منصتًا، وانتظر اللحظة المناسبة لدخوله.

لم يسمع بادئ الأمر إلا موضوعات تافهة، ثم خطبة مطولة من آنا ميخائيلوفنا، أعقبتها صرخة وبعدها سكون، ولم يلبث ذلك السكون أن مزقته هتافات البِشر والفرح المتبادَلة بين الصديقتين، وعلى وقْع خطوات ظهرت آنا ميخائيلوفنا تدعوه إلى الدخول، كانت تعابير وجهها تشبه تعابير الجرَّاح الماهر، الذي جاء يفتح الباب للجمهور الراغب في عيادة المريض بعد أن فرغ من إجراء عملية خطيرة له بنجاح خارق، استحق عليها الثناء والتقريظ.

قالت للكونت بفخار، وهي تشير إلى الكونتيس التي كانت ممسكة بعلبة السعوط في يدٍ ورسالة نيكولا في الأخرى، تقرؤها بشغف وتقبِّلهما دوريًّا بتحنان: لقد انتهى الأمر.

ولما وقع بصر الكونتيس على الكونت، مدَّت ذراعيها نحوه، وأحاطت بها رأسَه الأصلع، وقدَّرت أنها مستطيعة إعادة تلاوة الرسالة، وهي على ذلك الوضع والتأمل في الصورة المنقوشة على غطاء علبة السعوط، بل إنها اضطرت إلى تضييق الخناق على الرأس وصاحبه؛ ليتسنى لها تقبيل تلك الأشياء بكل راحة. ودخل الأولاد؛ فيرا، ناتاشا، سونيا وبيتيا بدورهم، وأعيدتْ تلاوة الرسالة على مسامعهم أيضًا، كان نيكولا يورد في رسالته وصفًا موجزًا للجبهة والمعركتين اللتين اشترك فيهما، ثم يخبر ذويه أنه رُفع لرتبة ضابط، وأخيرًا قال في رسالته إنه يقبِّل يديْ ماما وبابا، ويلتمس بركاتهما ودعاءهما، ويقبِّل وَجَنَات فيرا وناتاشا وبيتيا، ويبعث بتحياته إلى السيد شيللنج والسيدة شوس وإلى المربية، ويطلب إليهم أن يقبِّلوا سونيا العزيزة نيابةً عنه مؤكدًا أنه لا زال يحبها كسابق عهده، ويحتفظ بذكراها بكل إخلاص، ولما بلغت الكونتيس في القراءة هذا المقطع اندفعت الدماء في وجنتَي سونيا، وتلألأت الدموع في عينيها، ولما أخفقت في الصمود للنظرات التي راحت تحدق في وجهها، جرت هاربةً بكل قواها، فدخلَت البهو الكبير، واستدارت حول نفسها من الفرح، فانتفخ ذيل ثوبها، وغدا كالكرة الضخمة، وجلست على الأرض مضرجة الوجه باسمة الثغر.

كانت الكونتيس تبكي لذكرى ابنها، فقالت لها فيرا: لماذا تبكين يا أماه؟ إن رسالته تستحق أن يفرح الإنسان لها بدلًا من البكاء.

كانت الملاحظة في محلها، مع ذلك فقد راح الكونت والكونتيس وناتاشا والآخرون يحدجونها بنظرات اللوم والعتاب، كانت أمها تتساءل: «بمن هي متعلقة إذن؟»

تُليت رسالة نيكولا مرات ومرات، غير أن أولئك الذين رُؤي أنهم يستحقون الإصغاء إلى ما جاء فيها، كانوا يحضرون إلى حيث كانت الكونتيس لتقرأها عليها؛ لأنها ما كانت توافق على التخلي عن رسالة ابنها، وهكذا فقد مرَّ أمامها رؤساء الخدم والمربية وميتانكا وعدد من الأصدقاء، وفي كل مرة كانت الكونتيس تعيد التلاوة بشغف جديد، وبعد كل تلاوة جديدة، كانت تكتشف في نيكولا من الصفات ما فاتها إدراكه في المرة السالفة. وهكذا فإن ذلك الابن، الذي كان في أحشائها قبل عشرين عامًا يتحرك بجسده الضئيل الضعيف، ذلك الابن الذي تشاجرت بسببه مع الكونت الذي كان يُدَلِّلُــه بكثرة، ذلك الابن الذي كان أول ما نطق به من الكلام هو: «إجاصة»، ثم تعلَّم بعدها كلمة «سيدة»؛ ذلك الابن بالذات قد أصبح الآن بعيدًا عنها في بلاد غريبة، وحيدًا دون مساعدة ولا دليل، يقوم بأعمال الرجال، يا لها من فرحة! لكن الموضوع يستوجب كذلك الدهشة والذهول، أصحيح أن العالم كان لا يكاد يجهل أنَّ الأطفال يصبحون بالتدريج رجالًا وربما أبطالًا! غير أنَّ هذا التدرج الطبيعي العامَّ، الذي ينطبق على كل البشر، ما كان معروفًا من الكونتيس قبل ذلك اليوم. نسيَت الكونتيس أنَّ الملايين من البشر قد مروا في هذه المراحل من التطور، فراحتْ ترفض الاقتناع بأن ولدها «ذاك» قد بلغ مبلغ الرجال. منذ عشرين عامًا، عندما كانت تحمل هذا الصغير قرب قلبها، ما كانت تصدِّق أنه سيرضع ثديها يومًا، ويتعلم الكلام بعد ذلك. وكذلك الآن، فإنها لا تصدق أن ذلك الصغير بالذات قد أصبح — كما كانت تنبئ رسالته — رجلًا باسلًا جديرًا بأن يكون مثالًا يقتدي به الأبناء كلهم، بل والجنس البشري بكامله!

كانت تقول وهي تعيد تلاوة المقاطع الإنشائية الوصفية في الرسالة: يا له من أسلوب جميل! يا للبراعة في وصف الأشياء! ثم يا لله من قلب الذي له! إنه لم يتحدث بكلمة واحدة عن آماله، ولا همسة! إنه لا يتحدَّث إلا عن واحد اسمه دينيسوف، مع ذلك فإنني واثقة من أنه أشدهم بسالة وأكثرهم إقدامًا، ثم إنه يهمس بكلمة واحدة عن العنت الذي لاقاه والمشقة التي احتملها، يا لَقلبه الكبير! إنني أتعرف على ذلك القلب من خلال الأسطر! ثم إنه عُني عناية خاصة بإبلاغ تحياته وتمنياته للجميع، فلم ينسَ أحدًا ولم يستثنِ أحدًا! لقد كنت أقول دائمًا أنه نبيل كبير القلب، نعم، منذ أن كان هكذا في طوله!

وانقضتْ ثمانية أيام لم يكن للأسرة من همٍّ خلالها إلا كتابة الرسائل، ثم تمزيقها لعدم صلاحيتها، ثمَّ إعادة كتابتها من جديد.

هيَّأ الكونت تحت إشراف الكونتيس كلَّ التجهيزات اللازمة للضابط الجديد، ولما كانت آنا ميخائيلوفنا قد أحاطت ابنها بكثير من الرعاية وأسلمت أمره إلى عدد من المتنفذين، فإن الأسرة استطاعت بفضل هذه التدابير المسبقة أن تتصل بابن آنا بكل سهولة، خلافًا لِما كان عليه حال نيكولا، وهكذا فقد كان رسول الغراندوق كونستانتان بافلوفيتش، قائد الحرس العام، يتعهد إيصال الرسائل بأمانة، وبدت عبارة: «الحرس الروسي في الخارج» المطبوعة على الأوراق والغلافات كافية بنظر آل روستوف لتكون عنوانًا مضمونًا. كانوا يقولون: طالما البريد يصل إلى يديَ الغراندوق قائد الحرس العام، فإنه ليس هناك ما يبرر عدم وصوله إلى سرية بافلوجراد التي ينبغي ألَّا تكون بعيدة جدًّا عن مكان وجوده، وهكذا قرروا إرسال ما ينبغي من المال مع رسالة في بريد الغراندوق باسْم بوريس وتكليفه بتسليمها: المال والرسالة إلى نيكولا. وجُمعت الرسائل من الكونت والكونتيس وبيتيا وفيرا وناتاشا وسونيا، وأضيف إليها مبلغ ستة آلاف روبل قُدرت أنها كافية لشراء التجهيزات اللازمة، وأُرسلتْ جميعُها في البريد، بريد الغراندوق، مع عدد من الأشياء المختلفة التي قدَّر الكونت العجوز أنها ضرورية يجب إيصالها لولده نيكولا.

الفصل السابع

نقولا في الحرس الإمبراطوري

في الثاني عشر من تشرين الثاني، كان جيش كوتوزوف الذي كان معسكرًا في ضواحي أولموتز، يستعد للقيام باستعراض كبير غداة اليوم التالي أمام الإمبراطورين الروسي والنمسوي، وكان الحرس الروسي، الذي وصل مؤخرًا، يقضي الليل على بُعد أربعة أميال من المدينة، وكان عليه الظهور في ساحة العرض في الساعة العاشرة صباحًا.

في ذلك اليوم بالذات، تلقَّى نيكولا روستوف كلمة من بوريس يُنبئه فيها بأن فيلق إسماعيل مُعَسْكِر على مسافة أربعة أميال خارج أولموتز، وأنه ينتظر قدومه إليه ليسلِّمه رسالة ومبلغًا من المال أرسلهما ذووه، وكان نيكولا في مسيس الحاجة إلى المال؛ لأن معسكره كان محاصرًا بعدد كبير من الباعة اليهود النمساويين الذين كانوا يقدِّمون للضباط والجنود سلعًا مختلفة مغرية ومتاعًا وتسلية، وكانت أيام ضباط بافلوجراد تمضي في سلسلة متصلة من الولائم والحفلات والشرب، وهي ميزات خُصصت لهم إبان انتقالهم، فكانوا لا يفتَئُون يترددون إلى أولموتز، إلى حانة أسستها امرأة اسمها كارولين الهنغارية، جعلت مستخدميها كلهم من الجنس الناعم، وكان روستوف قد احتفل منذ أيام بترقيته الجديدة، واشترى حصان دينيسوف (بيروان)، فتورَّط في ديون كثيرة موزعة في غير عدل بين الباعة وزملائه؛ لذلك فإنه ما كاد يتلقى كتاب بوريس حتى بادر إلى الذهاب إلى أولموتز، وهناك تناول طعامه، وجرع زجاجة من الخمر بصحبة زميل، وراح يبحث عن صديق طفولته، لم يكن قد أتم تجهيزاته بعد؛ لذلك فقد كان ممتطيًا صهوة جواد روسي استعاره من أحد القوقازيين، ومرتديًا سترة الجندي القذرة، وقد الْتمع عليها صليب يُمنح للجنود، وسراويل ركوب مرقَّعة، وتَمَنْطَقَ بحسام ضابط في فرسان الدراجون، وغطَّى رأسه بقلنسوة مشوهة أمالها على أذنه بمجون، ولما اقترب من معسكر

الحرس، راح يفكِّر في الأثر الذي سيُحدثه مظهره العسكري وحركاتُه التي انطبعت بطابع فرسان الجيش على بوريس والسادة أفراد الحرس.

والحقيقة أن فرقة الحرس كانت قد التحقت بالجيش المحارب، وكأنها ذاهبة إلى نزهة خلوية، لقد كان أفرادها على أوفر حظ من التنظيم وشموخ الأنف، وألْبِسَتُهم نظيفة أنيقة لا تقبل النقد، ولقد كانت المراحل الذي قطفها رجال الحرس قصيرة جدًّا والأمتعة والمهمات والأكياس وما إليها كانت تُنقل على عربات، أضف إلى ذلك أنهم في كل مراحل الطريق كانوا يُطعَمون أفخر الطعام الذي كانت السلطات النمساوية تجهِّزه خصيصًا من أجلهم، فكانت السرايا عند دخولها إلى المدن، تسير على إيقاع الموسيقى وصداحها، وتَخْرج منها على تلك الحال. وكان مقررًا أن يقطع رجال الحرس تلك المراحلَ بنظام السير الإيقاعي؛ الأمر الذي كان يجعل الأفراد شديدي الفخار والاعتداد، فكان الضباط في أماكنهم المقررة بين الصفوف وإلى جانبَيها، يتيهون في أثوابهم الأنيقة. وكان بوريس قد قطع المرحلة كلها إلى جانب بيرج الذي أصبح قائد سرية بفضل دقَّته وعقليَّته النظامية، وكان يتمتع بكل ثقة رؤسائه بوصفه من النوع الذي لا يجب أن يُهمَل شأنه، وكان بوريس من جانبه قد ارتبط بعلاقات مُجدية نافعة؛ نذكر منها تعرُّفه إلى الأمير آندريه بولكونسكي، الذي تلقَّى من بيير بيزوخوف توصية خاصة تدعوه للعناية ببوريس، وكان يعتمد على دعم الأمير وحمايته؛ ليلتحق بأركان حرب القائد العام كوتوزوف.

كان بيرج وبوريس في أبهى زينتهما، يَنْعمان بالراحة بعد المرحلة الأخيرة، ويقضيان الوقت بلعب الشطرنج حول مائدة مستديرة في النُّزُل المريح الذي عُيِّن لهما، وكان بيرج مودعًا غليونه المشتعل بين ركبتيه، بينما كان بوريس يبني أهرامات بالبيادق التي ربحها من صديقه، منصرفًا إليها باهتمامه على عادته، يسويها بيديه الناصعتين الدقيقتين، وهو لا يني يراقب زميله الذي كان عليه أن يجيب على حركته، وكان بيرج — وهو المخْلص لمبدئه القاضي بعدم الاهتمام إلا بعمل واحد حتى إنجازه — منصرفًا بكليته إلى اللعبة غافلًا عن كل ما حوله.

سأله بوريس: هيا، دُلَّني على المخرج الذي ستجده لورطتك الآن.

فأجاب بيرج وهو يلمس بيدقًا لا يلبث حتى يُفلته: سوف نعمل ما في وسعنا.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب، هتف روستوف: آه، ها هو ذا أخيرًا! ها إن بيرج موجود كذلك!

وأردف مقلِّدًا لهجةَ مربيِّتهم العجوز التي كانت كثيرًا ما تُضحكهم من قبلُ: هيا يا أطفالي، اذهبوا لتستلقوا وتناموا!

ونهض بوريس لاستقبال روستوف وهو يقول: رباه، كم تبدلت!

تخلَّص من وراء المائدة وهو يسعى بإبقاء أهراماته على حالها، واندفع يريد معانقة روستوف، غير أنَّ هذا تنحَّى عن طريقه ممتنعًا، لقد درج الفتيان الشباب على تنكُّب العادات المألوفة؛ لأنهم يفضِّلون اللجوء إلى أساليبهم الخاصة التي لا تتفق غالبًا مع ما هو مألوف بين الكبار من عادات، لعلها لا تخلو أحيانًا من الأنانية والاصطلاح، وهكذا فضَّل نيكولا أن يحيِّي رفيق صباه على طريقتهما السالفة، معربًا له عن سروره بلقائه؛ تلك الطريقة التي درجا عليها، والتي لا تخرج عن نَكْعة أو قرصة في الأذن. أما بوريس فعلى العكس، لقد اندفع نحوه وقبَّله ثلاثًا دون خجل مصطنع، وبمحبة قلبية واضحة.

لقد مضى على افتراقهما أكثر من ستة أشهر؛ لذلك فقد راح كلٌّ منهما يتأمل التغييرات التي نالت من رفيقه، تلك التغيرات التي يعود الفضل فيها للوسط الذي عاش فيه كلٌّ منهما، وأخذ كلٌّ منهما يبيِّن للآخر المعالم البارزة في تلك التغيرات الجديدة.

قال روستوف بصوته الذي لم يألفه بوريس، وبلهجة عسكرية صحيحة، وهو يشير إلى سراويله: إه أيها الملاعين، ها إنكما على أجمل زينة، وكأنكما في نزهة، خلافًا لحالنا نحن جنودَ الجبهة التعساء!

وأطلَّت صاحبة المسكن الألمانية خلال الباب الموارب مستغربة مثل هذه الصيحات، فغمز لها نيكولا بعينه وقال: ماذا هناك يا جميلتي؟

فقال بوريس: لا تصرخ هكذا، سوف تخيفهم، في الحقيقة إنني ما كنت أنتظر قدومك اليوم؛ لأنني لم أرسل إليك رقعتي إلا البارحة بواسطة أحد ضباط كوتوزوف المساعدين الذي عرفه، إن اسمه بولكونسكي، وما كنت أظن أنك ستتلقى الرقعة بمثل هذه السرعة. ليكن، كيف حالك؟ لقد بلوتَ القتال إذن، أليس كذلك؟

فحرك روستوف صليب سان جورج المعلق فوق سترته العسكرية المخرجة، وأبرز ذراعه المعلقة إلى عنقه، ونظر إلى بيرج باسمًا دون أن يجيب، وأخيرًا قال: أظن أنْ نعم!

فاستطرد بوريس وهو يبسم بدوره: طبعًا، طبعًا، بديع! أما نحن، فإننا قمنا كذلك برحلة بديعة، إنك تعرف أن سُموَّه ظل يقطع الطرق تواكبه كَتيبتنا، وبذلك أتيحت لنا كل أنواع المتعة؛ ففي بولونيا لم نشعر بالوقت يمضي ونحن نتنقل من حفلة راقصة إلى وليمة حافلة إلى حفلات استقبال فخمة، ولقد كان التسيزاريفيتش — لقب يعطى رسميًّا لابن القيصر البكر الذي سيخلفه في تسلُّم العرش — شديدَ العطف على الضباط جميعًا.

وراح الصديقان يطريان أعمالهما؛ الأول يمتدح الفرسان، ويطنب في وصف شجاعتهم في الحرب، ويثني على حياة التقشف التي يحيونها، والآخر يعدد الميزات

والاعتبارات الكثيرة التي يَنعم بها أولئك المنتسبون إلى سلاحٍ يكون قواده محط أنظار الناس واحترامهم.

قال روستوف: آه، إننا نعرفكم معشرَ رجال الحرس! ماذا يا عزيزي لو أرسلتَ من يأتينا بزجاجة؟

فعبس بوريس ثم قال: إذا كنتَ تُصرُّ، فلا بأس.

وأخرج كيس نقوده المخبأ تحت الوسائد النظيفة، وأصدر أمْره بإحضار الشراب وقال: وبهذه المناسبة، سأعطيك الرسالة الواردة باسْمك والمال.

أخذ روستوف الرزمة، فألقى بكيس النقود على الأريكة، واتكأ بمرفقيه على الطاولة، وراح يقرأ الرسالة، ولم يكد يطالع الأسطر الأولى حتى راح يحدق ببيرج بنظرات التضجر، لقد شعر أنَّ عيون بيرج شاخصة إليه، فجعل من الرسالة ستارًا يحجب نفْسه وراءه.

قال بيرج وهو ينظر إلى كيس النقود الفارغ في الأريكة: إنهم أرسلوا إليك مبلغًا كبيرًا على ما يبدو، مساكين نحن يا كونت؛ لأننا لا نملك إلا راتبنا الحقير نتبلغ به، وأنا من أفراد هذا الحرس.

فهتف روستوف: اسمع يا بيرج، إذا وقع لك أن تسلَّمتَ أمامي رسالة من ذويك، وكان إلى جانبك أحد المقرَّبين إليك يرغب في أن يطرح عليك ألف سؤال وسؤال، فَثِقْ بأنني أكفيك مئونة التخلص من بقائي، فاعمل إذن كما كنتُ سأعمل لو كنتُ في مثل موقفك، واذهب إلى حيث تشاء. وليكن إلى الشيطان!

وعلى حين فجأةً استدرك نفسه، وخفض صوته، وقام إلى بيرج يمسك بذراعه، ويُصلح بنظرة متورِّدة ما أفسده بكلماته القاسية، أردف بلطف: لا تغضب يا عزيزي، أرجو أن تعذر صراحتي، لكنني أعاملك معاملة الصديق القديم الودود.

فقال بيرج بصوت محتبس وهو ينهض: لا تبتئس يا كونت، إنني أفهم شعورك.

وقال بوريس من جانبه: أتدري أن مضيفينا دعَوْك إلى البقاء؟

حمل بيرج سترته النظيفة الخالية من كل شائبة، وأصلح شعره أمام المرآة، وسوَّاه فوق صدغيه على طريقة الإمبراطور ألكسندر، وخرَج باسمًا راضيًا بعد أن دَلَّتْه نظرة ألقاها على روستوف أن مظهر ثوبه الأنيق قد أحدث الأثر المطلوب في نفس الفارس المخشوش.

تنهَّد روستوف وهو يعود إلى قراءة رسالته: آه! يا لي من حيوان!

– كيف؟ ماذا هناك؟

فكرَّر مزمجرًا، وقد احمر وجهه بغتة: آه! يا لي من حيوان إذ لم أكتب لهم مرة من قبلِ أن أسبب لهم كل هذا الخوف! آه! يا لي من حيوان! ولكن أيها الغليون المحترق، هل أرسلتَ تابعك يأتينا بالخمر؟

– نعم.

– إذن من الخير أن نتناول قدحًا.

كانت الكونتيس روستوف قد أضافت إلى رسالتها الشخصية إلى ابنها رسالةَ توصية للأمير باجراسيون، حصلت عليها بواسطة صديقتها آنا ميخائيلوفنا، وكانت تتوسل إلى ابنها أن يستفيد منها إلى أقصى حدود الفائدة.

هتف روستوف وهو يلقي بكتاب التوصية أسفل المائدة: يا للغباء! لست في حاجة إلى مثل هذا أبدًا!

سأله بوريس: لماذا ألقيتَ بهذه الرسالة؟

– إنها كتاب توصية! يا لَلوسيلة المناسبة! لست أبالي بها!

فقال بوريس وهو يلمُّ الرسالة، ويقرأ ما جاء فيها: كيف لا تبالي؟! يمكن أن تفيدك هذه الرسالة كثيرًا.

– لن تفيدَني في شيء؛ فلن أكون ضابطًا مساعدًا لأحد.

– ولماذا من فضلك؟

– لأن هذا مِن عمل الخدم لا الجنود!

فقال بوريس وهو يهزُّ رأسه: لا زلتَ ذلك الحالم الساهم كما أرى.

– وإنك لا زلت ذلك «الدبلوماسي» المعهود، ولكن دعنا من هذا، قل ماذا أصبحتَ وما هي أخبارك؟

– الواقع أنني بخير حتى الآن، لكنني أعترف لك بأنني لا أرغب في البقاء في الجيش العامل لفترة طويلة، لك أن تثق بأنني لن أخجل أبدًا لو أصبحتُ ضابطًا مساعدًا.

– ولماذا؟

– لأنني إذا كنتُ اخترت الجندية سبيلًا، فما ذلك إلَّا لأخلق لنفسي مركزًا لامعًا.

فقال نيكولا الذي كانت أفكاره تبدو في مكان آخر: صحيح!

كانت عيناه تحدقان في عينَي صديقه، وكأنه يبحث عبثًا عن جواب لسؤال معين.

وجاء التابع العجوز بالخمر، فقال بوريس: لعلَّنا نستطيع استدعاء ألفونس كارليتش، سوف تفرغ الزجاجة معه؛ لأنني امتنعت عن الشراب أخيرًا.

فسأل نيكولا مشفعًا سؤاله بضحكة مزدرية: لا بأس، لا بأس. قل لي أيُّ نوع من الناس هو هذا الألماني؟

– إنه فتًى باسل لطيف جدًّا وعظيم الاستقامة.

حدج روستوف صديقه بوريس فترة، وأطلق زفرة طويلة.

لم يلبث بيرج أن عاد، وكانت الخمر قد حلَّت عُقد اللسان، فراح الحديث يتشعب بحماسة، أخذ ضابطا الحرس يرويان لروستوف الحوادث التي وقعت لهم خلال الطريق، وينهيان إليه تفاصيل الاستقبالات التي نُظمت لهم في روسيا وبولونيا والخارج، وَصَفَا له تصرفات رؤسائهم وحركاتهم وبصورة خاصة تصرفات الغراندوق، وقصَّا عليه عديدًا من النوادر والفكاهات حول سلامة طويَّته وثورات غضبه. ومن الطبيعي أن بيرج لم يكن يتحدث إلا إذا كان الموضوع يتعلق بشخصه بالذات، ولكن ما إن دار البحث حول الغراندوق ونوبات غضبه، أعرب عن فخاره؛ إذ استطاع أن يتحدث معه في جاليسيا،[1] خلال جولة تفتيشية قام بها سُموه للقطعات في الميدان، وبدا عليه أنه غير راضٍ عن تحرُّكات الجنود. قال بيرج موضحًا وعلى شفتيه ابتسامة منتصرة إن التسيزاريفيتش اندفع بحصانه نحوهم وصاح: «يا لكم من عصبة باشيبوزوك!» — وهي السبة المفضلة لدى سُموه عندما يكون غاضبًا — وسأل بإلحاح أن يتقدم قائد السرية منه، وأردف: لَعمري أيها الكونت، إنني لم أشعر قط بالخوف؛ لأنني كنت أعرف عدم مسئوليتي في الأمر، أنا لا أمتدح نفسي يا كونت، لكنني أؤكد لك أنني أحفظ عن ظهر قلبٍ كلَّ الأوامر اليومية الصادرة وأتمسك بها، كما أحفظ عن ظهر قلبٍ صلاةَ «أبانا الذي …» وهكذا فإنني في سريتي لا أتحول قطُّ عن النظام؛ ولهذا السبب كنت دائمًا مرتاح الضمير هادئ البال؛ وإذن فقد تقدمتُ ممتثلًا (ونهض بيرج يُمثل حركاته، حينما تقدَّم من الغراندوق رافعًا يده بالتحية إلى حافة خوذته، فاتخذ وجهُه طابعًا امتزجت فيه اللامبالاة بالاعتداد بالنفس والرضى عنها إلى أقصى حدودهما) فبدأ يشتمني ويكيل لي السباب حتى غسلني فيها غسلًا كما يقال، وتحدَّث فوصفَني بكل الصفات، وأدرجني في كل الفئات: «منحط، باشيبوزوك، طريدة سيبيريا!» فلم يترك كلمة إلا وقالها.

---

[1] جاليسيا: مقاطعة بولونيَّة، كانت حتى عام ١٩١٨ جزءًا من النمسا، وكانت مركز الحكومة، وتضم كراكوفيا ولوو Lwow وستانيسلا وو وتاررنوبول، وعدد سكانها ٨ ملايين نسمة، وقد أصبح الجزء الشرقي: لوو Lwow، تابعًا لأوكرانيا عام ١٩٤٥. (المترجم)

وهنا ابتسم بيرج وأعقب: ولما كنتُ واثقًا من براءتي مما يُنسب إليَّ، فإنني لم أتفوَّه بكلمة، ألستُ على صواب يا كونت؟ فصرخ لي: «هل أنت أبكم يا هذا؟» لكنني لبثتُ صامتًا لا أجيب، لك أن تصدقني إذا شئتَ يا كونت، حينما أقول لك إنه في صباح اليوم التالي عند اجتماع الصباح لم يُذكر شيء عن حادثة أمس في التقرير اليومي ولم أعاقَب، وهذا يرجع إلى تمالكي أعصابي في ذلك الموقف.

وجذب مِن غليونه نَفَسًا عميقًا، وراح يطلق حلقات الدخان من فمه بانتظام، وابتسامةُ الظفر لا تفارق شفتيه.

قال روستوف مبتسمًا ابتسامةً غامضة: نعم، هذا عين الصواب وفيه كل الكمال!

شعر بوريس أن روستوف على وشْك جعْل بيرج هدفًا لسخريته وهَزْئه، فقطع عليهما الطريق بمهارة بأن سأله أين ومتى وكيف جُرح، وكان هذا الموضوع طليًّا، وعلى روستوف الذي راح يتحدث بحماس آخذ في التزايد كلما أوغل في سرد التفاصيل، قصَّ عليهما مسألة شوينجرابن كما درج الجنود عادةً على التحدث عن مجيد الأفعال التي قاموا بها؛ أي واضعًا الأمور كما كان يريدها أن تكون لا كما كانت في واقع الأمر، أو كما سمعوا غيرهم يصفها، ولا شكَّ أن روستوف — وهو الذي تُعتبر الصراحة جزءًا من طبعه — كان يتحاشى تشويه الحقيقة، ومع ذلك، فإن روايته التي بدأت صحيحة تمامًا، لم تلبث أن اختلطت، وتداخلت تدريجيًّا دون أن يشعر حتى أصبحت ادعاءً واضحًا ومبالغات تبهر العيون، كان يتعذر عليه التصرف على غير ذلك الشكل، وكان رفيقاه قد سمعا من قبلُ وصفًا لبعض المعارك، وكوَّنا على ضوء ما سمعا فكرةً حول الموضوع، فباتا ينتظران منه أن يأتي وضعه مصداقًا لفكرتهما، فلو أنه لم يُوشِّ قصته ولم يزينها؛ لاعْتقد كلاهما أنها بعيدة عن الحقيقة أو — وهنا أخطر ما في الأمر — لَعَزَوْا إلى خطيئةٍ ما صادرة عنه بالذات تلك المخالفات الواضحة في روايته عن حملةٍ يقوم بها سلاح الفرسان؛ لذلك فإنه ما كان يستطيع القول إن سريته قنعت بالأدباء بأقصى ما في طاقة الخيل، وأنه سقط عن جواده أثناء الجري، فتحطمت ذراعه، وفر بعدها بكل ما أوتيَتْ ساقاه من قوة هربًا من الفرنسيين.

ثم إنه لا يمكن في سرد قصة طويلة أن يتحاشى المتحدثُ الخروج عن جادة الصدق إلا إذا بذل مجهودًا خارقًا لكبْتِ عواطفه؛ الأمر الذي قلَّ أن استطاعه شابٌّ حديث العهد بالجندية، كان بيرج وبوريس ينتظران منه أن يحدثهما بأنه انقضَّ على فيلق كامل من فيالق العدو، وهو يتقد حماسًا واندفاعًا فراح يفتك بهم، ويضرب بحسامه يمينًا وشمالًا،

والأشلاء تتناثر في كل حدب وصوب حتى أعياه التعب فسقط أخيرًا … إلخ … إلخ. وقد رسم لهما روستوف لوحة مماثلة تقريبًا عن بطولته وسبب جرحه.

وبينما كان في غمرة تحمُّسه لحديثه يقول: «لا يمكنك أن تتصوَّرَ السعار الغريب الذي يصيب المرء خلال الهجوم.» دخل الأمير آندريه بولكونسكي الذي كان بوريس ينتظره، وكان بولكونسكي يحمي الشباب الجدد مُرضيًا بذلك نزعته الشخصية التي كان يُرضيها لجوء هؤلاء إلى حمايته، خصوصًا وأنه كان على أتم استعداد لخدمة بوريس الذي راق له أمسِ واستلطف صحبته، فلما كلَّفه كوتوزوف أن يحمل أوراقًا معينة إلى التسيزاريفيتش، انتهز الفرصة لزيارة بوريس، وهو يعتقد أنه سيجده على انفراد، غير أنه انزعج عندما شاهد فارسًا يتبجح ويروي طرائف شجاعته؛ وهو الأمر الذي ما كان يطيق احتمال، فابتسم ببشاشة لبوريس وحيًّا روستوف بتقطيبة خفيفة مشفعة بطرفة من عينيه، أعقبهما سلام مقتضب، ومضى يجلس بإرهاق على الأريكة، كان يخشى أن يحتكَّ مع أشخاص ويتناقش معهم بلغة غير مناسبة، وقد حدس روستوف ما في خاطره، فتضرج وجهه خجلًا، لكنه ما عتم أن حدَّث نفسه قائلًا: «ولكن ماذا يهمني منه؟ إنني لا أعرف هذا المخلوق!» مع ذلك فإنه ما كاد يرفع أنظاره إلى بوريس حتى شعر أنه هو الآخر مرتبك من تصرفاته المقتبسة عن فرسان الجيش. وعلى الرغم من أنْ مظهر الأمير آندريه الفاتر المتهكم، وعلى الرغم من ازدرائه الشخصي العميق الذي يحس به بوصفه من الجنود المحاربين حيال كل هؤلاء الأدنياء الحقيرين التابعين للأركان، والذي لا بدَّ أن يكون هذا الوافد الجديد منهم؛ فإن روستوف لم يتمالك نفسه عن الاضطراب، أو يكبح اندفاع الدم الغزير إلى وجهه. وهكذا فقد صمت مرغمًا، وعندئذٍ استفسر بوريس عن حوادث الأركان العامة وأخبارها، غير أنَّ الأمير بولكونسكي ما كان يستطيع التصريح أمام هؤلاء الغرباء بأمور على جانب كبير من الخطورة والأهمية؛ لذلك فقد أجاب: أعتقد أننا سنسير إلى الأمام.

وامتنع عن التعقيب على هذا القول بأية كلمة.

وانتهز بيرج الفرصة ليسأل بلهجة ملؤها الاحترام عما إذا كانت النية منصرفة حقًّا إلى زيادة العلف ومضاعفته لرؤساء السرايا كما كان يشاع، فأجاب بولكونسكي بأنه لا يستطيع احتمال البت في أمور على مثل هذه الأهمية؛ مما جعل بيرج يتقبَّل هذا الرد بضحكة مرحة.

وقال بولكونسكي لبوريس وهو يختلس نظرة إلى حيث جلس روستوف: أما قضيتك أنت، فسنتحدث فيها في مناسبة أخرى، لاقِنِي بعد العرض، ولسوف نعمل جاهدين على إرضائك.

وأجَالَ بصره في أنحاء الغرفة، ثم أوقفه على روستوف متظاهرًا بأنه لم يدرك بلباله وارتباكه الصبوي المشوب بالغيظ، وقال له: أعتقد أنك كنت تتحدث عن مسألة شوينجرابن، فهل كنت هناك؟

فأجاب روستوف معتقدًا أنه سيجرح شعور الضابط المساعد بإجابته: نعم، لقد اشتركت فيها.

لكن ذلك الجواب لم يأتِ بالمفعول المنتظر، لقد تلقَّاه الأمير بابتسامة ساخرة، كان يجد متعةً في مراقبة مزاج هذا الفارس الشاب، قال معقبًا: نعم، ثم إنهم يروُون عن هذه الموقعة صنوفًا من الروايات.

فهتف روستوف وهو يلقي على بولكونسكي تارةً، وعلى بوريس تارةً أخرى، نظرة نارية مشتعلة بغضبة مفاجئة: صنوفًا من الروايات! نعم، بالطبع، لكن روايتنا نحن الذين بلونا نار العدو هي وحدها الحقيقة، وليس الأمر كذلك بالنسبة لهؤلاء السادة الأنيقين الذين يَحشرون أنفسهم في زوايا الأركان والقيادة وينالون الأوسمة وهم مكتوفو الأيدي.

فأعقب بولكونسكي بلهجته الهادئة وابتسامته الوديعة متممًا: والذين تعتبرني واحدًا منهم، أليس كذلك؟

خلق ذلك الهدوءُ الذي اتَّسم به بولكونسكي احترامًا في نفس روستوف نحوه رغم أنه ضاعَف سخطه وغضبه، فقال: إنني لا أقول هذا عنك، إنني لا أعرفك، ولا أريد بكل صراحة أن أتعرف عليك، إنني أتحدث عن رجال القيادة العامة بصورة عامة.

فأجاب بولكونسكي بثبات وبلهجة حازمة: وأنا أقول لك ببساطة إنك تهدف إلى إثارتي وإهانتي؛ الأمر الذي لن يعييك فعله إذا توقفتَ عن احترام نفسك، ولكن اعترفْ معي أن المكان والزمان غيرَ ملائمَين لمثل هذا العمل، لسوف ندخل جميعًا بعد أيام قريبة آتية في مبارزة جدية من نوع آخر، ومن جهة أخرى إذا كان وجهي لم يرُق لك — وهذا من سوء حظي — فإن دروبتسكوي، الذي يدَّعي أنه من أصدقائك القدماء، لا دخل له في الموضوع.

وأردف وهو ينهض واقفًا: ثم إنك تعرف اسمي، وتعرف أين تجدني، مع ذلك حاذر أن تعتقد بأنني أعتبرك مهانًا أكثر مما تقدِّر أنت نفسك الموضوع. اتفقنا، أليس كذلك يا دروبتسكوي؟ إنني أنتظرك يوم الجمعة بعد العرض.

وانسحب بعد أن حيَّا الشابين.

لبث روستوف مذهولًا فترةً ما، ولما وجب الجواب المناسب كان الآخر قد خرج؛ الأمر الذي ضاعف غضبه الجامع، فاستقدم جواده، وسلَّم على بوريس بلهجة جافَّة تقريبًا، وعاد إلى معسكره، كان صراع داخلي مرير يستعِرُ في نفسه طيلة الرحلة، كان يتساءل: هل يجب عليه الذهاب في الغد إلى مقر القيادة ليتحدى ذلك الصعلوك؟ هل كان من الأفضل الامتناع عن مثل هذا الأمر؟ كان يتذوق أحيانًا اللذة التي تنتظره لرؤية ذلك الدعي مذهولًا أمام فوهة مسدسه المصوَّب إلى صدره، وأحيانًا أخرى كان يعترف، رغم كل ما في نفسه، أنه لم يجد بين كل معارفه، رجلًا جديرًا بصداقته كهذا الضابط المساعد الهزيل اللعين.

الفصل الثامن

الاستعراض الحماسي

غداة اليوم الذي جرت فيه المقابلة بين روستوف وبوريس، كان الجيشان الحليفان، وتعدادهما ثمانون ألف رجل — لأن فرقًا جديدة مرسلة من روسيا التحقت مؤخرًا بجيوش كوتوزوف العائدة من حملتها الأوروبية — يقومان باستعراضٍ ضخم يشاهده العاهلان. كان إمبراطور روسيا مصحوبًا بوليِّ عهده التسيزاريفيتش والإمبراطور النمساوي يصحبه الأرشيدوق.

ولم يكد يبزغ فجر ذلك النهار، حتى أخذت القطعات تنتظم صفوفًا في ساحة القلعة، وهي على أحسن حال، فكانت ألوف من الأقدام والحراب تمرُّ حينًا وأعلامها خافقة، فتقف تحت إمرة ضباطها، وتتراصَّ شاغلة كل فراغ مقام بين كتل أخرى من المشاة، في أثواب مختلفة، وأحيانًا يمر ألوف الفرسان على إيقاع سنابك الخيل وقعقعة السلاح وصليل السيوف، فيخطرون على خيول زرقاء وحمراء وخضراء، تسبقهم موسيقاهم الصداحة، يعزفها موسيقيون على صهوات جياد دهماء أو صهباء أو شهباء، وأحيانًا، كانت المدفعية تدرج بجلبتها المعهودة، تنبعث رائحة المشاعل المضاءة في الجو، بوحداتها البرَّاقة اللامعة تقطرها الجياد، فتختلط في صفوف المشاة والفرسان. وكان الجنرالات، وكلهم في أبهى زينة وعلى صدورهم الأوسمة والأوشحة، مضرجو الوجوه لاحتقان أعناقهم — الهزيلة منها والضخمة — في الياقات القاسية، والضباط المعطرون المضمخون، والجنود وقد اغتسلوا حديثًا وعُنُوا بألبستهم عنايةً فائقةً وأجهزتهم وعتادهم نظيفة ولامعة، والخيول نفسها وقد نُظفت وغُسلت حتى راحت أعناقها وقوائمها تلتمع تحت إشعاع الشمس، وكأنها عُويِنَت شعرة فشعرة، كانوا كلهم يشعرون بخطورة موقفهم، ويدركون أهمية تلك الساعة الرهيبة الجليلة. وكان كلٌّ من المحتشدين، من الجنرال وحتى الجندي البسيط،

يحسُّ بأنه ذرة من الرمل في صحراء أو محيط من البشر، لكنه كان معتدًّا بنفوذه وسطوته وسلطانه؛ نظرًا إلى أنه جزء لا يتجزأ عن هذا المجموع الجبار الهائل.

كانت الاستعدادات قد بدأت منذ الفجر، فلمْ تبلغ الساعةُ العاشرةَ تمامًا حتى كانت كل الأمور على أهبةٍ تامَّةٍ. فالجيش كله، الفرسان في الطليعة والمدفعية في الوسط والمشاة في المؤخرة، كان منتظمًا في ثلاثة صفوف ضخمة متراصة على الساحة الكبرى الفسيحة، وكان يفصل بين كل قطعة وقطعة فراغ على شكل شارع فسيح مستوٍ، كانت تلك الكتلة الهائلة المؤلفة من عناصرها الثلاثة الهامة، تشمل على قطعات كوتوزوف التي خاضت الحرب، وفي مقدمتها فيلق بافلوجراد في ثياب العرض، ثم القطعات التابعة للحرس أو للجيش التي وصلت حديثًا من روسيا وأخيرًا الوحدات النمساوية، وكانت هذه الكتل البشرية كلها محتشدة على صفٍّ واحد وَفْقَ تشكيل موحد، تخضع في قيادها لقائد واحد.

وارتعشت الشفاه بدمدمة هاتفة: «ها هم، ها هم!» وسَرَت تلك الدمدمة في الصفوف سريان النار في الهشيم والريح بين الأغصان، وقام الجنود بحركتهم الأخيرة استعدادًا للساعة الحاسمة، فكانت تلك الحركة أشبه بموجة هادئة اجتاحت أديم محيط زاخر.

ظهر موكب مقبل عند أبواب أولموتز، وفي تلك اللحظة، مرت نسمة خفيفة فوق رءوس الجند رغم السكون المطبق الشامل، فتدبدبت نيران المشاعل، وارتعشت الأعلام في أعلى صارياتها، خُيل للناظر أن انتفاضة عامة شملت الجنود كلهم سرورًا لمقدم العاهلين، وردد الصدى صيحة مدوية تكررتْ منطلقة بالترتيب من أفواه مسئولة متعددة، كصياح الديك عند الفجر: اسـ...تعد!

تلك كانت الصيحة، فأعقبها سكون القبور.

لم تعُد الأسماع تصغي إلا لوقْع أقدام الجياد القادمة، ولما وصل العاهلان إلى الحشد، صدحت موسيقى فيالق الفرسان الأولى منبهة، وبدت تلك الأصوات الموسيقية صادرة عن الجيش كله، وليس عن فرقة موسيقية بعينها، كانت موسيقى معبرة عن سعادة الجند وفرحهم بالاحتفال والحفاوة بمقدم العاهلين الفجائي، مع ذلك، فإن الصخب الموسيقي لم يحجب صوت الإمبراطور ألكسندر، الفتي الجياش، الذي كان يرد التحية للجنود، وأجاب الفيلق الأول على التحية بنداء راعد: «هورا!» طويلة تُصم الآذان، «هورا» أخافت الجنود أنفسهم مبيِّنةً لهم كبير عددهم وعظيم قوتهم وبأسهم.

استعرض الإمبراطور بادئ الأمر جيش كوتوزوف، وكان روستوف واقفًا في الصفوف الأولى، فشعر شعور كل الجنود الآخرين: إنكار للذات، وإيمان عنيف بقوته، وحماس

منقطع النظير لبطل تلك اللحظة. كان يدرك أن كلمة واحدة من هذا البطل تكفي لكي تتحرك هذه الكتلة الهائلة من البشر الذي لم يكن بنفسه إلا ذرة حقيرة من ذراتها، فتُلقي بنفسها إلى الماء أو إلى النار، وتندفع نحو الموت، وتجري وراء الجريمة أو الأفعال الأكثر بطولة وتمجيدًا، وعلى ذلك فقد شعر أنه على وشك السقوط عندما اقترب الرجل صاحب تلك الكلمة.

ترددتْ صيحات «الهورا» من كل مكان تختلط بأصداء الموسيقى، واستقبلت الفيالقُ، الواحد تلو الآخر، الإمبراطورَ بالهتاف وقرع الطبول التي تراجعت أصداؤها على شكل زمجرة هائلة مريعة متداخلة مشوشة، تصمُّ الآذان، وتخبل العقول.

كان كل فيلق — قبل وصول الإمبراطور — يبدو جامدًا وكأنه لا حياة فيه. حتى إذا اقترب منه، وبات على حدود جناحه، دبَّت الحياة فيه على أعنف الصور وأقواها، فيُلحق صيحاته وهتافاته بصيحات الآخرين وهتافاتهم المدوية. وفي جحيم تلك الأصوات المرعدة وذلك الصخب العنيف، وفي وسط ذلك البحر الزاخر من الجنود؛ كانت بضع مئات من خيول الحرس المواكب تبدو أقل الجميع مبالاة بالنظام وقد روَّعتها الصيحات، لكن فرسانها كانوا قادرين أبدًا على كبح جماحها دون ارتباك، بل وفي شيء من اللامبالاة، وجعلها تقف متباعدة حسب ترتيبها الأصيل. وكان فارسان اثنان — الإمبراطوران — يسيران في مقدمة الموكب وقد تعلَّقت فيهما أبصار جميع الجنود دون استثناء.

كان الإمبراطور ألكسندر الجميل الشاب يرتدي ثياب الحرس الراكب، وقد أحال قبعته المثلثةِ الأطرافِ قليلًا على أذنه، وكان يستأثر بالاهتمام العام بوجهه الوديع المشرق وصوته الداوي القوي في غير قسوة.

استطاع روستوف في مكانه قرب فصيلة الموسيقى، أن يتعرف على الإمبراطور عن بُعد، فراح يتابع حركاته كلها بعينيه الحادتين، فلما أضحى ألكسندر على بُعد عشرين خطوة، لم يعُد يرى شيئًا أو يميز تقاطيع ذلك الوجه الفتي الجميل البشير. لقد استسلم لشعور لم يشعر بمثله من قبل؛ شعور امتزج فيه الحنان بالحماس والاندفاع، بدا له ذلك الرجل — في كل حركة من حركاته وكل قسمة من قسمات وجهه — جذابًا يأخذ بمجامع القلوب.

توقف ألكسندر أمام فيلق بافلوجراد، وتحدَّث إلى الإمبراطور النمسوي ببضع كلمات بالفرنسية ثم أخذ يبتسم، أثارت تلك الابتسامةُ ابتسامةً مماثلة على شفتَي روستوف الذي أخفق في كَبْتِها، وازداد تعلقه وحنينه حتى إنه شعر برغبة لا تُوصف في أن يعرب

لإمبراطوره عن حبه العميق وإخلاصه، ولما أدرك عقم تلك الرغبة واستحالة تنفيذها، شعر بحزن عميق كاد أن يفجر الدمع من مآقيه.

وفي تلك الأثناء، استدعى الإمبراطورُ قائدَ الفيلق، وراح العاهلان يتحدَّثان معه فترة من الزمن.

أخذ روستوف يناجي نفسه قائلًا: «رباه!» ماذا يكون حالي لو أنهما تحدثا معي أنا؟ إنني سأموت حتمًا!

لم ينسَ ألكسندر ضباط الفيلق مَن شكره فقال لهم: أيها السادة، إنني أشكركم من أعماقي.

وكانت كل كلمة من هذه الكلمات تبدو لروستوف لحنًا صادرًا عن السماء باتجاه الأرض، آه، كم كان سيشعر بالسرور لو أنه مات في تلك اللحظة في سبيل القيصر!

كان الإمبراطور يقول مسترسلًا: لقد استحققتم بنود القديس جورج ولسوف تُظهرون جدارتكم بها.

ففكر روستوف: «نعم الموت، الموت من أجله، هو أقصى ما أتمناه!»

وأضاف ألكسندر كلمات أخرى لم يتبيَّنْها روستوف، ولم يلبث الجنود أن هتفوا ملء حناجرهم: هورا!

انحنى روستوف على سرج جواده وراح يهتف كالجنود. كان مستعدًّا لتفجير رئتيه إذا كان في ذلك دليل كافٍ على حبه للإمبراطور!

لبث ألكسندر كالحائر فترة أمام فيلق الفرسان لا يتحرك، فتساءل روستوف: «كيف يمكن أن يحار الإمبراطور؟» ولكن تلك الحيرة لم تلبث أن بدت لناظريه — لكل حركات العاهل وتصرفاته — مليئةً بالجلال والعظمة والوقار.

غير أنَّ ذلك التردد لم يدُمْ إلا لحظةً سرعان ما تبددت، تحركت قدم الإمبراطور المغيبة في أحذية ضيقة عالية الساق دقيقة المقدمة، كالتي كانت سائدة في ذلك العصر، فمسَّت برفق كشح الفرس المحجل القوائم المولَّد من عِرق إنجليزي، وجمعت يده المقفزة الصروع، وعاد إلى سيره يتبعه سيل زاخر من الضباط المساعدين، راح يبتعد أكثر فأكثر ليتوقف أمام فيالق أخرى، حتى لم يعُد يرى منه أخيرًا إلا الريشة البيضاء التي تزين قبعته، طافية فوق ذلك المحيط المتلاطم من البشر.

شاهد روستوف بين المواكبين للإمبراطور الأمير بولكونسكي يختال على جواده بمرونة ووقار، وعادت إلى ذاكرته حوادث البارحة وتصور خصامهما بالأمس فعاد

السؤال الذي ظل دون جواب يراود مخيِّلَته: «هل أتحداه؟» وأخيرًا قرر في سره: «أبدًا، إن الوقت في الواقع لا يسمح بمثل هذه الأمور، ثم ما قيمة خصوماتنا الصغيرة في هذا الظرف الحافل بالإخلاص والحماس والتضحيات؟ نعم، ما قيمة التوعُّك الذي يصيب كراماتنا في مثل هذا الظرف؟ إنني أحب كل الناس الآن، وأصفح عن الجميع!»

وبعد أنَّ استعرضَ الإمبراطورُ كلَّ الفيالق تقريبًا، راحت الصفوف تمرُّ أمامه بخطوات الاستعراضات الموزونة، كان روستوف ممتطيًا صهوة حصان «بيدوان» الذي عاد فاشتراه من دينيسوف، يسير وحيدًا في مؤخرة كوكبته؛ أيْ إنه كان وحيدًا يلفت أنظار العاهل، وقبل أن يصل إلى حيث كان الإمبراطور، همز روستوف — وهو الفارس البارع — بيدوان عدَّة مرات، ونجح في جعْله يسير بذلك الجنب الهائج الذي كان مشهورًا به عندما يثار ويغضب، خفض فمه المكسو بالزَّبَد حتى كاد أن يلامس جؤشوشه، ونصب ذيله، وراح يطرح قوائمه على التوالي على ارتفاع متناسق، وكأنه يطير في الفضاء دون أن تطأ قوائمه الأرض، وهكذا مرَّ بيدوان الذي أحس بأنظار العاهل تتعلق به أمام الإمبراطور بفارسه الشاب على ذلك النمط الرائع البديع، حتى إنَّ روستوف نفسه، الذي كان ضامر البطن مضموم الساقين مبعدهما إلى الخلف متقلص الوجه منشرح الخاطر، بدا كأنه قطعة لا تنفصل عن حصانه الأهوج، فمرَّ به أمام الإمبراطور، وكأنه «شيطان من الجحيم»، على حدِّ قول دينيسوف.

قال الإمبراطور: مرحى يا فرسان بافلوجراد!

فناجى روستوف نفسه بقوله: رباه! بأية سعادة ألقي بنفسي إلى النار لو أمرني بذلك في هذه اللحظة!

ولما انتهى العرض، اجتمع الضباط الروسيون: ضباط كوتوزوف والوافدون حديثًا من روسيا، في حلقات متفرقة، واستغرقوا في الحديث الذي كان يدور بصورة خاصة حول المكافآت المنتظرة والنمساويين وألْبِسَتهم، وحول بونابرت الذي كان موقفه الخطِر قد ازداد خطورة بعد وصول فيالق إيسِّن Essen وانضمام بروسيا إلى الحلف، غير أن الحديث كان يدور حول الإمبراطور ألكسندر بصورة عامة، فكانت كل حركة من حركاته أو إشارة من إشاراته تفسر بحماس وتوقُّد، كانوا جميعًا لا يطلبون إلا أمرًا واحدًا: الهجوم على العدو. كان روستوف ومعظم الضباط يفكِّرون في أنه من المستحيل أن يُهزم جيش يأتمر بإمرة عاهل كهذا القيصر، فكانوا يشعرون بدنوِّ النصر المبين، ويؤمنون به إيمانًا يتوافر مثله عقب معركتين ظافرتين متتاليتين.

الفصل التاسع

طموح بوريس

غداة اليوم التالي للعرض، ارتدى بوريس أجمل ثيابه، ومضى إلى أولموتز ترافقه تمنيات صديقه بيرج الطيبة، كان يهدف إلى الإفادة من مركز بولكونسكي ليصل إلى خير المراكز وأحسنها، وكان المركز الذي يهدف إليه ويتمناه هو أن يكون ضابطًا مساعدًا لشخصية قوية واسعة النفوذ، يغبطه الآخرون على سطوته ويحسدونه على قوته. كان يناجي نفسه بقوله: يستطيع روستوف، الذي يرسل له أبوه كل مرة عشرة آلاف روبل، أن يترفع ويأبى الانحناءات والاحترامات، أما أنا — الذي لا أملك شيئًا باستثناء نفسي — فإنني مرغم على شق طريقي والإطباق على الفرصة بأيدٍ قوية.

لم يجد الأمير آندريه في أولموتز ذلك اليوم، غير أن معالم المدينة، حيث أقيم فيها مركز القيادة العامة والسلك السياسي وأقام فيها الإمبراطوران مع حاشيتيهما بين مقربين وأقرباء؛ كل هذه الأشياء زادت في نفسه لهيبَ الشوق إلى المركز المنشود استِعارًا، وحببت إليه الدخول في ذلك العالم الجديد الرفيع، ما كان يعرف أحدًا في المدينة، وأحسَّ — رغم ثوبه الأنيق — أن كل هؤلاء الرجال العسكريين، المزوَّقةِ قلنسواتُهم بالريش، المزيَّنة أثوابُهم بالصفائح الذهبية والخرج، الذين يخطرون بِتِيهٍ وترفُّع في صخب وضجيج، يَبْدون أرفع منه مقامًا وقدرًا، حتى إنه لم يتفكَّر لوجوده فحسب، بل شعر أنه لا يستطيع إلا أن يتنكر لذلك الوجود التافه؛ ففي مركز القيادة، حيث استعلم عن الأمير بولكونسكي، شعر من لقاء الضباط المساعدين والحُجَّاب أيضًا الذين عاملوه بلامبالاة أنهم يستقبلون كل يوم عشرات من أمثاله، حتى إنهم متبرمون من كثرتهم. وفي اليوم التالي، رجع بوريس إلى أولموتز مرة ثانية، ولعل لقاء الأمس والمهانة التي شعر بها كانا الدافع المحفز له على معاودة الكرَّة، مضى إلى الفندق الذي ينزل فيه كوتوزوف وضباطه التابعون له، وكان ذلك بعد ظهر يوم ١٥ تشرين الثاني. قيل له إنَّ الأمير موجود،

وأدخَلوه إلى حجرة فسيحة كانت من قبلُ صالة للرقص، كما بدت لبوريس الذي شاهد «بيانًا» باقيًا في ركن فيها إلى جانب خمسة أسرَّة، مؤسسة إلى جانب أسرَّة بمائدة وبعض المقاعد، وكان أحد الضباط المساعدين جالسًا قرب الباب في معطف منزلي فارسي يكتب. وكان آخَر، وهو نيسفيتسكي الضخم الأحمر الوجه، مكوَّمًا على أحد الأسرَّة معتمدًا رأسه على يديه المضمومتين، يمازح زميلًا له جالسًا بالقرب منه. وثالث يوقع على «البيانو» لحن فالس شاع عن فيينا. بينما انحنى الرابع على الآلة الموسيقية، يرافق العازف بالغناء. لم يبدل أحد من الأربعة من سلوكه لدى رؤيتهم بوريس. استدار الذي كان يكتب، والذي سأله بوريس عن بولكونسكي، باستياء واضح وأفْهَمَه أن بولكونسكي كان يؤدي وظيفة معينة، وأنه إذا كان يرغب في لقائه حقًّا، فعليه أن يذهب إلى قاعة الاستقبال مارًّا بالباب الذي إلى اليسار! فشكره بوريس، ومضى إلى القاعة التي عيَّنها له الضابط، فرأى فيها عددًا من الأشخاص بين ضباط وجنرالات ينتظرون.

شاهد عند دخوله جنرالًا روسيًّا تملأ الأوسمة صدره، واقفًا في وضعية أقرب إلى وضعية الاستعداد العسكريَّة، ينهي تقريره إلى بولكونسكي وعلى وجهه الناطق بالتبرم أماراتُ الإكرام المعروفة عند الجنود، وكان الأمير يصغي إليه، وعلى وجهه أمارات الإرهاق المهذب، وفي عينيه وَمْضَة ساخرة، توحي للآخرين أنه لولا مستلزمات الواجب وضروراتها لما أصاخ السمع لحظة إلى كل ما يقولون، وسمع الأمير يقول له: حسن جدًّا، حسن، تفضَّل بالانتظار.

وكانت لهجته وأسلوب نطقه باللغة الروسية على الطريقة الفرنسية توحي بالسخرية والتهكم.

وقعت عيناه في تلك اللحظة على بوريس، فأغفل شأن الجنرال الذي راح يلاحقه ويتابعه، متوسلًا إليه أن ينصت إلى ما يقول، واتَّجه نحو الشابِّ يخصه على البُعد ببسمة بهيجة وبإيماءة من رأسه.

فهِم بوريس عندئذٍ بجلاءٍ ما توقعه من قبل دون أن يلمسه تمامًا؛ وأعني أن في الجيش شيئًا اسمه درجات التسلسل، وأن هذا الشيء أكثر أهمية جوهرية من الطاعة الواردة في الأنظمة والمعروفة منه، كما هي معروفة من كل رفاقه. وكان ذلك الشيء الجوهري هو الذي كان يضيِّق على الجنرال ذي الوجه القرمزي المحشور في ثوبه العسكري، أن ينتظر بكل احترام أن يَفْرغ الرئيس الأمير بولكونسكي من محادثة حامل العلَم دروبتسكوي على حديثه هو، وأن يصفو مزاجه ليصغي إليه. أحس بوريس أكثر

من كل مرة سبقت أنه ينبغي له أن يخضع لذلك الترتيب الضمني أكثر من خضوعه للنظم المدونة؛ ذلك أنه رأى بنفسه أن مجرد حصوله على توصية لدى الأمير بولكونسكي جعله — وهو حامل العلَم البسيط في فيلق الحرس — يتفوَّق دفعةً واحدةً على جنرال قادر على مَحْقه في الصف وسحقه.

قال الأمير وهو يمسك بذراع بوريس: إنني آسف لأنك لم تجدني أمس؛ لقد ذهبنا باتجاه فيرورهر نُعاين الأوضاع ونتفحصها، لقد أضاع هؤلاء الألمان عليَّ كل يومي، إنهم عندما يتوخون التدقيق والتمحيص لا ينتهون بسهولة!

عَلَتْ شفتَيْ بوريس ابتسامةُ العارف بالأمر، رغم أنه لم يسمع بذلك الاسم إلا لأول مرة، بل ولم يسمع كلمة «أوضاع» كذلك إلا للمرة الأولى، أردف بولكونسكي: إذن يا عزيزي، إنك لا زلت ترغب في أن تكون ضابطًا مساعدًا، أليس كذلك؟ لقد فكرتُ فيك خلال هذا الوقت.

فأجاب بوريس، وقد تضرج وجهه بحمرة شديدة دون أن يعرف السبب: نعم، إنني عازم على تقديم طلب للجنرال القائد الأعلى الذي أوصاه لي الأمير كوراجين.

وأضاف وكأنه ينتحل عذرًا لسلوكه: إنني إذا كنت أنهج على هذا النحو، فما ذلك إلَّا لخوفي من ألَّا يخوض فيلق الحرس في معركة حقيقية.

قال الأمير: جميل جدًّا! سوف نتحدث عن كل هذا، لكن اسمح لي الآن أن أُدخل هذا السيد، ولسوف أكون بعد ذلك رهن تصرُّفك.

وبينما مضى بولكونسكي ليعلن عن وجود الجنرال ذي اللون القرمزي، راح هذا — وهو الذي لم يكن (ولا شكَّ) يشاطر بوريس رأيه حول تفوُّق الترتيب النظامي لاستثناءات بروتوكولية — يحدج بإلحاح مرير ذلك الصعلوك، حامل العلَم البسيط، الذي حرمه متعة التحدث براحة إلى الضابط المساعد، وشعر بوريس بالارتباك، فأشاع بنظره، وراح ينتظر عودة الأمير بفارغ صبر.

قال الأمير وهو يقوده إلى البهو ذي الأسرَّة والآلة الموسيقية «الأرغن»: إليك يا عزيزي الفكرة التي خطرت لي: أعتقد أنه من العبث تقديم طلب إلى القائد الأعلى، إنه سيُسمعك ألف مجاملة ومجاملة، ولعله يدعوك أيضًا إلى تناول الطعام على مائدته.

فكَّر بوريس في سرِّه معقبًا: «الأمر الذي لن يكون تافهًا إذا قورن بفروض الاحترام لدرجات التسلسل»، بينما استرسل الأمير: غير أنَّ هذا لن يبدل من الأمر شيئًا؛ لأننا

— معشرَ الضباط المساعدين والأتباع — أصبحنا طابورًا كبيرًا، إليك إذن ما سنعمله: لي صديق، وهو الأمير دولجوروكوف، وهو فتًى رائع يشغل مركز ضابط مساعد عام لجلالته، ولعلك تجهل أننا أصبحنا جميعًا؛ كوتوزوف وهيئة أركانه ونحن معهم، عديمي النفوذ الآن؛ لأن كل شيء أصبح الآن منوطًا بجلالة الإمبراطور؛ لذلك فإنني سأقابل دولجوروكوف هذا، فهيا رافقني إليه، لقد حدثتُه من قبلُ عنك، ولعله قادر على أخذك في معيته، أو إيجاد مركز مناسب لك حول الشمس.

كان حماس الأمير آندريه يزداد تباعًا كلما أُتيحت له الفرصة لحماية شاب ناشئ ودعمه وتقويم خطاه الأولى وتوجيهها في الحياة، وكانت تلك الحجة، حجة مساعدة الآخرين التي لم يسمح له كبرياؤه قط باستثمارها في سبيل نفسه، كان بولكونسكي يختلط بالأوساط الرفيعة التي تؤمِّن النجاح وتمهِّد له، ويتقرب من المتنفذين؛ لذلك فقد اعتبر أن مصالح بوريس التي أُوكلت إليه، بادرة طيبة ترضي نزعته، وهكذا اصطحبه معه لزيارة الأمير دولجوروكوف بكلِّ طِيبَةِ خاطر.

عندما دخل الصديقان قصر أولموتز، كان الليل قد أفنى جانبًا من عمره، وغطى الظلامُ ذلك المكانَ الذي يقيم فيه الإمبراطوران وحاشيتهما.

أقيم ذلك اليوم مجلس حربي، حضره الإمبراطوران وكلُّ أعضاء القيادة النمساوية والروسية، وقرر المجتمعون — خلافًا لآراء العجوزَين كوتوزوف وشوارزنبرج[١] — المبادرة إلى شنِّ هجوم عام ضد بونابرت، وكان المجلس قد أنهى اجتماعه توًّا حينما دخل بولكونسكي ورفيقه يستفسران عن دولجوروكوف، كان أولئك السادة — سادة المجلس الحربي — في حبور كبير بسبب الفوز الذي أحرزه حزب «الشباب» على الكهول في ذلك الاجتماع. لقد خنقوا أصوات المستمهلين المسوِّفين بإجماع رائع، وأحبطوا كل اعتراضاتهم بمنطق بليغ سديد، حتى إنَّ المعركة أو بالأحرى النصر المنتظر الذي توقعوا الحصول عليه أثناء مناقشاتهم في المجلس الحربي، بدا وكأنه وقع وانطوى في صفحات الماضي، كانت كفة الحلفاء — الروس والنمسويين والألمانيين — هي الراجحة؛ فقواتهم هائلة متفوقة

---

[١] شوارزنبرج، وتُلفظ شواتزنبرج، اسمه الكامل شارل فيليب أمير شواتزنبرج، وهو جنرال وسياسي ألماني، كان على رأس الجيش الذي داهم فرنسا عام ١٨١٤ واكتسحها، وُلد في فيينا عام ١٧٧١، وتوفي عام ١٨٢٠. (أسرة الترجمة)

بالعدد — دون أدنى شك — على قوات بونابرت، وهي جميعها متمركزة في نقطة واحدة، وكان الجنود قد أنشطهم وَدَبَّ العزيمة في نفوسهم وجودُ الإمبراطورَين، يتحرقون شوقًا إلى القتال، والأرض التي تقرر شنَّ الهجوم عليها أرض معروفة مدروسة يعرف الجنرال فيروزر كل التفاصيل المتعلقة بها حتى أقلها شأنًا، وهذا الجنرال هو الذي أوحى بفكرة الهجوم؛ لأن الجيش النمساوي كان أجرى في العام الأسبق مناورات كبيرة في تلك البقعة بالذات التي تقرر لقاء الفرنسيين عليها، وحدَّد على خرائط حديثة الوضع كل الأماكن والمرتفعات والمنحدرات. أضف إلى ذلك أن بونابرت كان — ولا شك — ضعيفًا، بل وعاجزًا عن خوض معركة كبيرة.

كان دولجوروكوف — وهو أكثر المتشيعين لفكرة شنِّ الهجوم حماسة، يخرج في تلك اللحظة من قاعة الاجتماع منهوك القوى على آخر رمق من الجَلد. لكنه كان كذلك ممتلئًا حماسة واندفاعًا، فخورًا بالنصر الذي أحرزه فريقه منذ قليل، قدَّم له بولكونسكي «محميه» الذي اكتفى دولجوروكوف بأن شد على يده بتأدب دون أن يوجِّه إليه كلمة، لكنه لم يلبث أن وهنتْ عزائمه أمام رغبته المُلحة في الإعراب عما يجيش في صدره، فالتفتَ إلى الأمير آندريه وقال له بالفرنسية بلهجة عنيفة متهدجة: آه يا عزيزي! يا لها من معركة تلك التي شنَنَّاها منذ حين! عسى أن يريد الله أن تكون المعركة التي ستنشأ عنها قريبًا مكللة بالظفر! أتدري يا عزيزي أنني كنت مؤيِّدًا مشرفًا للنمساويين، وخصوصًا فيروزر؟ يا للدقة! يا للإحكام! يا للمعرفة التامة بالأرض! ويا للخبرة المستَبِقة بكل الإمكانيات! بل يا للعلم المفرط بكل التفاصيل! صدقني يا عزيزي، إنه لا يمكن أن يتصور المرء مناسبة أكثر ملاءمة من التي نحن في صدرها، لقد اجتمعت الشجاعة الروسية بالدقة والإحكام النمساويين، فماذا تريد خيرًا من ذلك؟!

فسأله بولكونسكي: إذن فقد تقرر الهجوم بالفعل؟

فأجاب دولجوروكوف بابتسامة هازئة: وخسر بونابرته (تسمية ساخرة لبونابرت) كلَّ شيء، هل تعرف أن الإمبراطور قد تلقَّى أخيرًا رسالة منه؟

– حقًّا! وماذا جاء فيها؟

– ماذا تريده أن يكتب؟ ترهات بقصد كسب الوقت. إننا نتحكم الآن في مقدراته، ثِقْ بقولي.

ثم أضاف ضاحكًا بطيبة قلب: غير أنَّ ما يثير الفضول في الموضوع هو أن أحدًا حتى الآن لم يوفق في تدبيج الجواب على تلك الرسالة بسبب العنوان، إنَّ النِّيَّة منصرفة إلى عدم استعمال كلمة «قنصل»،[٢] فكيف بكلمة «إمبراطور»!

ولقد اقترحت أن يرسل الجواب باسم «الجنرال بونابرته»!

فقال بولكونسكي: اسمح لي، يجوز ألَّا يُعترف به كإمبراطور، ولكن تسميته «بالجنرال بونابرته»!

فقاطعه دولجوروكوف ضاحكًا: تمامًا، وقد أصبح الأمر أكثر تسلية. إنك تعرف بيليبين ولا شك، أليس كذلك؟ حسنًا، لقد اقترح هذا الساخر الصامت أن نُعَنْوِن الرسالة إلى «المعتدي عدو الجنس البشري»!

واستغرق دولجوروكوف في قهقهة مدوية، سأله بولكونسكي: أهذا كل شيء؟

– كلَّا، لقد أوجَد بيليبين أخيرًا اللقب المناسب، إن هذا الساخر يتمتع كذلك بذكاء ألمعي.

– وماذا كان ذلك اللقب؟

فقال دولجوروكوف بلهجة جدية رزينة: إلى رئيس الدولة الفرنسية، أليس لك مخرج لهذه الورطة؟

فأجاب بولكونسكي: رائع! ولكنه لن يروق له.

– بل على العكس، إنَّ أخي يعرفه، نعم إنه يعرف ذلك الإمبراطور المرتجل، لقد تناول الطعام معه مرة في باريس، وأنبأني بأن لم يرَ في حياته دبلوماسيًّا أريبًا داهية مثله، لقد اجتمع فيه الدأب الإيطالي بالرقة الفرنسية، هل تعرف الأقاصيص التي تشاع حول علاقاته بالكونت ماركوف؛ الرجل الوحيد الذي عرف كيف يتصرف معه بجدارة وحق؟ هل تعرف قصة المنديل مثلًا؟ إنها رائعة.

وراح دولجوروكوف يتبسط في سرد الأحدوثة ملتفتًا تارةً إلى بولكونسكي وأخرى إلى بوريس، قال إن بونابرت كان مرة مع سفيرنا ماركوف في مقابلة رسمية، فأراد أن يختبره ليعرف قيمه الشخصية.

---

[٢] المعروف أن بونابرت سمَّى نفسه قنصلًا عامًّا لفرنسا قبل أن يصبح إمبراطورًا لها؛ وهو الأمر الذي ما كان أعداؤه يعترفون به رسميًّا. (المترجم)

وبينما هما واقفان، ترك بونابرت منديله يسقط على الأرض، وراح ينظر إلى الكونت ماركوف نظرات ملؤها الأمل في أن يبادر هذا إلى التقاط المنديل وإعادته إليه، فما كان من سفيرنا إلا أن ألقى منديله بجانب منديل بونابرت وانحنى فالتقطه دون أن يحس منديل هذا الأخير.

قال بولكونسكي: رائع! ولكن اسمح لي يا أميري، لقد جئتك ملتمسًا أمرًا، إنه يتعلق بهذا الشاب الذي …

لم يتمم حديثه؛ ذلك أن أحد الضباط المساعدين جاء يسأل عن دولجوروكوف ليسأله المثول بين يدَيِ الإمبراطور.

قال الأمير وهو ينهض بنشاط، ويضغط على يدَيْ بولكونسكي وبوريس مصافحًا: آه، يا لها من مضايقة! كنت سأكون سعيدًا بتلبية كل رغباتك يا أمير في كل ما يتعلق بك وبهذا الشاب الجميل، وإنك تعرف حقيقة مشاعري نحوك.

وعاد يضغط على يديهما، ويخص بوريس بابتسامة مرحِّبة لم يكن الإخلاص فيها إلا طلاءً ظاهريًّا، وأردف: لكنك ترى بنفسك … فإلى المرة القادمة.

كانت مجاورة بوريس للسلطة العليا تحرِّك مشاعره بانفعال، كان يشعر في قرارة نفسه أنه في تلك اللحظة قريب من تلك السلطة التي تستطيع تحريك الكتلة الهائلة من البشر التي كان في عدادها صباح ذلك اليوم، والذي لم يكن فيها إلا ذرة طيِّعة سَلِسَة القياد، تبع مع بولكونسكي الممشى الذي سار فيه دولجوروكوف، وعندما بلغا مكتب الإمبراطور الذي دخل إليه المساعد العام، التقيا برجل قصير القامة في ثوب مدني ذي ذقن ناتئة، تضفي على مظهره لونًا من الحيوية الماكرة دون أن تُكسب وجهه بشاعة، كان خارجًا من حضرة الإمبراطور، شاهَدَا ذلك الرجل يومئ برأسه للأمير دولجوروكوف وكأنه من معارفه، ثم يصوب إلى بولكونسكي نظرة باردة منتظرًا، ولا شك، أن يبادره هذا بالتحية أو يتنحى عن طريقه، لكن بولكونسكي خيَّب أمله، وعبس وقطب حاجبيه؛ مما جعل ذلك المدني يستدير متابعًا طريقه.

سأل بوريس: مَن هذا؟

– إنه من أكثر الرجال رفعة في المركز وخطورة في الدولة، لكنه مِن أشدهم مقتًا في نفسي، إنه الأمير آدم تزارتوريسكي وزير الخارجية، إن أمثال هذا الرجل يقررون مصير الشعوب.

وبينما كانا خارجَين من القصر، ندَّت عن صدر بولكونسكي زفرة عميقة لم يستطع كتمانها.

وفي اليوم التالي، زحفت الجيوش، ولما لم يستطع بوريس لقاء بولكونسكي أو دولجوروكوف قبل معركة أوسترليتز، فإن بقاءه في فيلق «إسماعيل» كان يمضُّه ويُضْنِيه.

الفصل العاشر

أفراح النصر

في فجر اليوم السادس عشر من تشرين الثاني، بارح نيكولا روستوف الذي كان في عداد كوكبة الفرسان التي يقودها دينيسوف والمربوطة بجيش باجراسيون، الثكنة مع كوكبته للدخول في العمليات المدبرة، أو على الأقل هذا ما كان يشاع حينذاك، ولكن لم تكد الفرقة تقطع ربع مرحلة حتى صدر إليها الأمر بالتوقف حيث هي على الطريق، رأى روستوف الجنود القوقاز يمرون أمامه، ثم الكوكبتين الأولى والثانية للفرسان، ففيالق كاملة من المشاة مصحوبة بعدد من المدافع، وأخيرًا الجنرالان باجراسيون ودولجوروكوف يتبعهما الضباط المساعدون، وفي تلك المرة أيضًا، بذل روستوف — الذي شعر بالخوف يتسرب إلى نفسه — جهدًا جبَّارًا للتغلب على مخاوفه، لقد حلم للمرة الثانية في أن يتصرف تصرُّف الأبطال؛ تصرُّفَ الفرسان الحقيقيين، لكن حلمه تبدد؛ لأن كوكبته تُركت لتكون في عداد الاحتياطي من الجيوش؛ لذلك فقد قضى سحابة يومه في قلق واكتئاب عميق.

وفي الساعة التاسعة، ترامى إلى سمعه صوت طلقات نارية حامية أعقبها هتاف مدوٍّ، ولم تلبث أن مرت مراكب الجرحى عائدة إلى الصفوف الخلفية، وفي أعقابها كوكبة من القوقاز تعدادها مائة فارس، تحيط بحشد من الفرسان الفرنسيين الأسرى، وبدا أنَّ المسألة قد انتهت نهاية سعيدة تتناسب مع أهميتها، كان العائدون إلى الصفوف الخلفية ينبِّئون زملاءهم بأخبار الانتصارات الرائعة التي أحرزتها القوات الروسية التي احتلت ويسشو، وأَسَرَت كوكبة كاملة من الفرسان، وكان الصقيع الذي كسا الأرض خلال الليل بدثاره اللامع ينعكس بريقه تحت إشعاع شمس الخريف الخابية، فيزيد في ضياء ذلك الإصباح الجميل متناسقًا مع النصر السعيد الذي أحرزته القوات الروسية، والذي لم تقتصر الروايات وحدها على تمجيده، بل أعرب عنه كذلك كافة الوجوه؛ وجوه الجنود والضباط والجنرالات التي كانت تفيض بِشرًا وحبورًا كلما خطر أصحابها تحت أبصار

روستوف الملتاع. وإزاء تلك المظاهرة البراقة المُغْرِية، ازدادت نفس نيكولا اكتئابًا وغمًّا، واشتد سخطه لقضائه يومًا آخر في جمود مزعج وهو الذي كان يَتُوق للقتال.

هتف دينيسوف يحدِّثه: تعالَ يا روستوف نُغرق أحزاننا في الخمر.

وكان دينيسوف مقيمًا على جانب الطريق، وأمامه إناءٌ وبعض الأرزاق.

راح ضباط الكوكبة يشكِّلون حلقةً حول صندوق دينيسوف الحافل بالأرزاق، يتبادلون الحديث وهم يتناولون طعام الإفطار.

هتف أحدهم مشيرًا إلى أحد فرسان الدراجون الفرنسيين الذي كان يسير على قدميه بين اثنين من القوقازيين: هه، ها هو ذا آخر يعودون به من جديد.

كان حصان الأسير، وهو حصان ضخم جميل التكوين، يسير في أعقاب صاحبه، وقد أمسك القوقازي بأعنَّته.

قال دينيسوف للقوقازي: هل تبيع الحصان يا هذا؟

– قد أبيعه يا صاحب النبالة.

تهافت الضباط حول القوقازيين وأسيرهما، كان هذا الإلزاسي الشاب، تكاد الدماء تنفجر من وجهه من شدة انفعاله، فلما سمع الضباط يتحدثون باللغة الفرنسية، راح يحدثهم بطلاقة واندفاع شديدين، متوجهًا تارةً إلى هذا وأخرى إلى ذلك، معلنًا أنه لولا عناد العريف قائد مفرزته، لَمَا وقع في الأسر، قال إنه أخطر رئيسه مرارًا بأن الروسيين قد احتلُّوا المدينة، مع ذلك فإن ذاك أرسله للبحث عن لبد أُغفلت هناك، وكان بعد كل جملة يلاطف عنق جواده ويقول متوسلًا: لكن أرجو ألَّا تسيئوا إلى جوادي المسكين. كان يبدو على ذلك الرجل أنه لا يدري عن أمره شيئًا، فكان يعتذر أحيانًا لأنه استسلم وأُسِر، وأحيانًا أخرى يعتقد أنه في حضرة رؤسائه، فيتبجح أمامهم مبينًا غيرته ودأبه في الخدمة، وبفضله أمكن للقوات الروسية المرابطة في الصفوف الخلفية أن تفهم الجو الذي يعيش فيه الجيش الفرنسي بكل تفاصيله؛ ذلك الجو الذي لم تكن لديهم أية فكرة عن حقيقته.

باع القوقازيان الحصان لقاء قطعتين ذهبيتين إلى روستوف الذي كان أكثر زملائه ثروة، فقال الأسير الإلزاسي لروستوف الذي قَبض على أعنَّة الحصان: أرجو ألَّا يعامَل حصاني الصغير معاملة سيئة.

ابتسم روستوف، وطَمْأن الأسير، ثم أعطاه بعض المال، وهتف أحد القوقازيين بالأسير وهو يدفعه إلى الأمام: هيا، هيا، تقدم.

وفجأةً صاح أحدهم: الإمبراطور، الإمبراطور!

هرع الجميع لهذا النداء، واستدار روستوف فوقعت أبصاره على بعض الفرسان القادمين وعلى قلنسواتهم الريش الأبيض. وفي طرفة عين، كان كلٌّ في مكانه من الصف ينتظر القادمين.

مضى روستوف كذلك إلى مركزه، واعتلى صهوة جواده دون أن يشعر بما يفعل. تَبَدَّد أسفه العميق لعدم اشتراكه في المعركة، وتَبخَّر اشمئزازه العنيف من اللفظ اليومي الوتير الذي كان يطالعه أبدًا على تلك الوجوه المعروفة منه، وأصبح لا يشعر حتى في وجوده. لقد كان الفرح الذي شمله عند سماعه بأن الإمبراطور بات قريبًا منه يستأثر بكل اهتمامه. كان سعيدًا كالعاشق الذي ينتظر لقاء حبيبته للمرة الأولى، مع ذلك فإنه لم يَنسَ مقتضيات النظام الذي تَفرض عليه عدم الالتفات، لكنه لم يكن في حاجة للالتفاف ليعرف «أنه» اقترب، ولم يكن اقتراب الإمبراطور يُعلَن بارتفاع أصوات سنابك الخيل وتقدُّمها فحسب، بل بالإشراقة التي أحسَّ بها روستوف تغمر الجوَّ والجلال الذي راح يستولي على النفوس، وكانت تلك الشمس التي أَضْفَت ذلك النور الرائع الهادئ تقترب تدريجيًّا وتلف روستوف بإشعاعاتها الدافئة المهدهدة، وتبينتْ أذنه ذلك الصوت الجليل الهادئ الدافئ البسيط، الذي راح يتعالى كلما ازداد صاحبه قربًا.

لم تخدع روستوف إحساساتُه؛ لأن سكونًا مطبقًا شمل المكان فجأةً، وتردد صوت الإمبراطور يمزق ستره بقوله: فرسان بافلوجراد!

فأجابه صوتٌ بدا لسمع روستوف أن لهجته تدل على أن صاحبه ليس إلا من بني البشر بقدر ما كان الصوت الأول ملائكيًّا علويًّا: الاحتياط من الفرقة يا صاحب الجلالة.

توقف ألكسندر أمام روستوف الذي شعر أنَّ وجهه أشد جمالًا مما بدا له في الاستعراض العام قبل ثلاثة أيام، كان ذلك الوجه يطفح بالشباب والوداعة؛ شباب بريء، جعله يبدو — رغم جلاله وهيبته — أشبه بوجه وديع بهيٍّ لطفل في الرابعة عشرة من عمره، وبينما كان يجيل بصره في وجوه فرسان الكوكبة، التقتْ أنظاره فترة بأنظار روستوف وتوقفتْ برهة معها، فهل تراه فهِم ما كان يجول في خاطره كما توقع روستوف؟ المهم أنه تأمَّله حوالي ثانيتين بعينيه الزرقاوين اللتين ينبعث منهما نور حانٍ وديع، وفجأةً، رفع حاجبه وهمز جواده بمهمازه الأيسر، واستمر في طريقه هدبًا.

تصامم الإمبراطور الشاب عن رجاء أتباعه وأفراد حاشيته، ولم ينجح في التخلي عن رغبته في المساهمة في الهجوم، حتى إنه حوالي الظهر، انفصل عن الصف الثالث من الجيش، وهرع إلى الصفوف الأولى، لكنه لم يكد يصل إلى حيث كان الفرسان منقضِّين على العدو حتى أبلغه ضباطه المساعدون بنبأ النصر الذي أحرزوه.

كان ذلك النجاح، الذي لم يكن إلا أَسْر كوكبة فرسان فرنسية فحسب، قد رُسم للإمبراطور الشابِّ على لوحة تُظهره بمظهر النصر الرائع، حتى إن الإمبراطور والجيش كله — كما أشيع في حينه — ظنوا أن الفرنسيين قد دُحروا، وأنهم يتراجعون مرغَمين، وكان الدخان الكثيف الذي غطى ساحة المعركة يكاد هو الآخر يثني على ذلك. ولم تمضِ دقائق على مرور الإمبراطور، حتى صدرت الأوامر للجيش الذي كان الاحتياطيُّ من فرسان بافلوجراد تابعًا له بالحركة، وقد قُدر لروستوف أن يشاهد الإمبراطور مرة ثانية في مدينة ويسشو، وكانت بعض الجثث — جثث الجرحى والقتلى — لا زالت في مكانها في ساحة تلك المدينة التي لعلع الرصاص فيها منذ حين خلال المعركة، لم تُرفع بعد. وكان الإمبراطور ممتطيًا صهوة جواد آخر غير ذلك الذي استعرض القطعات على صهوته، لكنه كان مولَّدًا أيضًا من أصل إنجليزي ومحجَّل الأطراف، وكانت حاشية كبيرة تحيط به. كان منحنيًا على جنبه حاملًا بيده عوينته الذهبية، ينظر إلى جندي مستلقٍ على صدره مضرج بالدماء التي تخضب رأسه وسترته. كان ذلك الجريح كريهَ المنظر منفرَه، شديدَ القذارة؛ حتى إن روستوف شعر بألم شديد لوجود الإمبراطور بالقرب منه. اجتاحت قشعريرة ظاهرة كَتِفَي العاهل المحنيَّين قليلًا، فهمز جواده بعصبية بساقه اليسرى، غير أن الفرس المطهمة المدربة تدريبًا ممتازًا، لَوَتْ عنقها بشيء من اللامبالاة، ولم تتقدَّم خطوة واحدة، وكان روستوف يراقب كل حركات الإمبراطور حتى أتفهها شأنًا. وأخيرًا، ترجل أحد الضباط المساعدين، فحمل الجريح من تحت إبطيه، ووضعه على نقالة جيء بها في تلك اللحظة، فأطلق الجريحُ زمجرةً.

وقال الإمبراطور الذي كان يتنفس بصعوبة أكثر من المحتضَر نفسه: رويدكما، احْمِلاه بلطف، ألا يمكن نقله بعناية أكثر وهدوء أشد؟!

شاهد روستوف الدموع تملأ عيني مليكه، وسمعه يقول لكزاركوريسكي وهو يبتعد: يا لها من أمر مروع هذه الحرب! يا لها من أمر مريع!

كانت مقدمة الجيش تحتلُّ مراكزها خارج المدينة تلقاء العدو الذي ما فتئ إزاء أحقر هجوم، ويتخلى عن مساحات من الأرض. أعرب الإمبراطور عن شكره للقطعات المحاربة ووعد بمكافآت، وفي ذلك النهار وُزعت على الجنود جراية مضاعفة من العرق، كانت نيران المعسكرات أكثر بهجة في تلك الليالي عن الليالي السابقة، وكذلك أغنيات الجنود فإنها كانت أشد حماسة، واحتفل دينيسوف تلك الليلة بترقيته إلى رتبة ماجور. وقبل نهاية الحفل، رفع روستوف يده بقدحه وكان قد ثمل لكثرة ما عب من شراب، واقترح

أن يشربوا نخب الإمبراطور. قال مفسرًا: أصغوا إليَّ لتفقهوا غايتي، إنني لا أقترح أن نشرب نخب «صحة الإمبراطور» كما درجت عليه العادة في الحفلات الرسمية، بل أطلب أن نشرب نخب الإمبراطور ألكسندر، الرجل الطيب الفتان الرائع، نخب صحته إذن، نخب انتصارنا على الفرنسيين، إنَّ النصر أكيد أيها السادة، فنحن الذين حاربنا ببسالة من قبل، وطوَّحنا بالفرنسيين في شوينجرابن، ماذا يكون موقفنا اليوم والإمبراطور على رأسنا؟ سوف نموت جميعًا وبسرور بالغ، أليس كذلك أيها السادة؟ لعلني لم أنجح في التعبير عن شعوري وعواطفي كما يجب، لكنني أوْجزتُ في ذكر إحساساتي وإحساساتكم أيضًا، فاشربوا نخب صحة ألكسندر الأول، هورًّا!

وردَّدَتِ الحناجر صيحة هورًّا، حتى إنَّ الرئيس العجوز كيرستن أودع في تلك الصيحة من الحماس الساذج مثل ما أودعها روستوف.

وبعد أنْ أفرغ الضباط أقداحهم وحطموها، ملأ كيرستن أقداحًا أخرى، حمل كأسه وراح يلوِّح بها، وتقدَّم — وهو في قميصه الأبيض — إلى حيث يعسكر الجنود، وتوقف أمامهم وقفة جليلة قريبًا من المعسكر، وشارباه الأشهبان الطويلان، وصدره الأبيض البارز خلال فتحة قميصه، بارزة واضحة تحت أضواء النيران.

هتف بصوته الأجش الخطير، صوت الفارس العجوز المحنك: هيا أيها الفتيان، اشربوا نخب صحة جلالة الإمبراطور، ونخب انتصارنا على العدو! هورًّا!

والتفتت الفرسان حوله، وراحوا يرددون بأصواتهم القوية هتافاته المدوية: هورًّا!

وفي ساعة متأخرة من الليل، حان وقت الانفصال، فربَّتَ دينيسوف بيده الصغيرة على كتف روستوف صفيه وقال: إذن، إنك لم تجد من تتعلق به في السرية، فانصرفت إلى عشق الإمبراطور!

– آه يا دينيسوف! لا تمزح هكذا، إنه شعور جميل رفيع شديد التسامي شديد …

– لا شك، لا شك، وإنني أشاطرك هذا الشعور وأؤيده.

– كلَّا، بل إنك لا تفهمني.

ونهض روستوف وراح تيَّاهًا بين المعسكرات، يحلم في السعادة التي ينشدها في الموت ليس في سبيل إنقاذ حياة الإمبراطور، التي كان يؤمن أنه غير جدير في نيل شرف إنقاذها، بل في الموت تحت أبصاره. كان مأخوذًا بمليكه وبعظمة الجيوش الروسية، يسمو ويحلِّق مع الأمل في إحراز نصر قريب، ولم يكن روستوف وحده يحس هذا الإحساس في تلك الأيام الخالدة التي سبقتْ معركة أوسترليتز، بل إنَّ تسعة أعشار الجنود على الأقل كانوا مثله مأخوذين بروعة شخصية مليكهم وبعظمة الجيوش الروسية.

الفصل الحادي عشر

مفاوضات فاشلة

أقام ألكسندر في اليوم الثاني في مدينة فيسشو، وأمر باستدعاء طبيب جلالته المرافق فيلبير، فشاع خبر الوعكة الصحية التي ألَمَّت بالإمبراطور في القيادة العامة وبين الوحدات القريبة من المكان، كان خُلَّص العاهل الروسي يزعمون أن روحه الحساسة المرهقة تأثرتْ بمشاهد القتلى والجرحى، فضعفت شهيته إلى الطعام، وأمضى ليلة شديدة الإزعاج.

وفي فجر اليوم السابع عشر،[1] تقدَّم ضابط فرنسي، يحميه علَم أبيض، إلى الخطوط الروسية الأمامية، وطلب مقابلة الإمبراطور، فنُقل إلى فيسشو. ولما كان الإمبراطور نائمًا، فقد اضطر ذلك الضابط الذي لم يكن إلا سفاري،[2] أن ينتظر حتى يستيقظ جلالته. وحوالي الظهر، مَثُلَ بين يدي الإمبراطور حيث لبث ساعة كاملة، خرج بعدها يصحبه الأمير دولجوروكوف، وسرت بين الصفوف شائعةٌ مفادُها أن نابليون أرسل يلتمس مقابلة الإمبراطور ألكسندر الذي رفض الذهاب بنفسه، وأناب عنه الأمير دولجوروكوف، المنتصر في معركة فيسشو؛ ليبحث مع نابليون في شئون السلام إذا رغب هذا، خلافًا لِما كان يُنتظر منه، وقد قوبل رفض العاهل ألكسندر من قِبل الجنود بسرور بالغ، وأثار في الجيش روح الكرامة والاعتداد.

[1] ينبغي ألَّا يغرب عن البال أن التقويم الروسي تقويم شرقي، وهو يتأخر عن التقويم الميلادي الغربي بثلاثة عشر يومًا؛ لذلك إذا شاء القرَّاء تتبُّع هذه الحوادث حسب التقويم الشائع عندنا، فعليهم أن يضيفوا هذا الفرق، وعلى هذا الأساس فإن السابع عشر من تشرين الثاني حسب التقويم الشرقي يوافق الثلاثين منه عندنا وهكذا … (المترجم)

[2] رونيه سافاري، دوق دو روفيجو، جنرال فرنسي وُلد عام ١٧٧٤ وتوفي عام ١٨٣٣، ظهرت مواهبه في معركة أوسترولنكا، وتقلَّد منصب وزير البوليس في عهد بونابرت. (المترجم)

وحوالي المساء، عاد دولجوروكوف، فمضى قُدمًا إلى مكتب الإمبراطور؛ حيث لبث في حضرته على انفراد وقتًا طويلًا.

وفي يومي ١٨ و١٩ (أيْ ١ و٢ كانون الأول كما أسلفنا) ظلَّت الوحدات الروسية تتقدم والخطوط الأمامية للعدو تتراجع إثر مناوشات بسيطة تافهة، غير أن حركة كبيرة دبَّت في الصفوف اعتبارًا من بعد ظهر يوم ١٩ (٢ / ١٢ / ١٨٠٥)، حركة هائلة بلغت في مداها إلى أعلى مراتب الجيش، واستمرت دائبة حتى صباح يوم ٢٠ تشرين الثاني؛ وهو اليوم الذي وقعت فيه معركة أوسترليتز التاريخية[٣] الخالدة.

كانت الحركة الصاخبة والأحاديث الحارَّة والسعي الدائب، ومهام الضباط المساعدين، محصورةً كلها حتى ذلك اليوم بين حدود مركز القيادة العامة الإمبراطورية. أما في يوم ١٩ تشرين الثاني، فقد تعدَّت الحركة تلك الحدود، فبلغت مركز قيادة كوتوزوف ومركز أركان حرب قوَّاد الكتائب والوحدات. ولم يحلَّ المساء إلا وكانت الصفوف كلها في شغل شاغل بفضل مساعي الضباط التابعين. وفي ليل ١٩–٢٠ تشرين الثاني، اهتزت الكتلة الهائلة التي كان قوامها ثمانين ألف رجل، والتي كانت تنبسط على جبهة طولها يناهز العشرة كيلومترات.

كانت الحركة المركزية التي بدأت ذلك الصباح من مركز القيادة الإمبراطوري، والتي دبَّ بسببها النشاط في كل القطعات، تُذكِّر المرء بالعجلة المحركة التابعة لساعة جبارة كبيرة. بدأت إحدى العجلات تدور ببطء، ثم أعقبتها ثانية فثالثة، ولم تلبث حتى استجابت لها المشابك والعجلات الفرعية وما إليها، فراحت تهتز بدورها، تزداد مشيتها سرعةً دقيقةً بعد دقيقة، فيدوي الجرس وتتحرك التماثيل الصغيرة، وتتقدم الإبر بانتظام إلى الأمام كما هي النتيجة المحتومة للعملية كلها.

كذلك كانت الآلة العسكرية تشبه آلة الساعة في كل شيء، حتى في الغاية، فإذا ما قامت الحركة الأولى، لبثت كل الآلات الأخرى جامدة حتى يصل إليها النشاط الدوري

---

[٣] Austerlitz مدينة في مورافيا، اسمها بالتشيكية: سلافكوف. هَزم نابليون النمساويين والروس فيها يوم ٢ / ١٢ / ١٨٠٥ هزيمة منكرة، وقد ظل ذلك الانتصار أروع نصر حصل عليه نابليون في حياته العسكرية، حتى ظل ذِكر تلك المعركة يواكب اسم نابليون حتى اليوم. ومما يروى عنها، أن نابليون صاح بجنوده صبيحة يوم معركة موسكوفا التي وقعت عام ١٨١٢: «أيها الجنود، إنها شمس أوسترليتز!» وقد سُميت تلك المعركة أيضًا بمعركة الأباطرة الثلاث. (المترجم)

الرتيب، فتصر العجلات على الحوامل، وتتشابك أسنانها، وتتحرك المشابك بفعل السرعة والروتين، بينما تظل العجلة المجاورة ساكنة بانتظار دورها في الحركة، وكأنها تستطيع البقاء في سكونها وجمودها مئات السنين، ولكن عندما تحين اللحظة المواتية، وتشتبك أطرافها في مخلبٍ مشرشر مدبب، تخضع لنظام الحركة فورًا، فتدور ويرتفع صريرها هي الأخرى متماشية مع الحركة العمومية، التي تبقى النتائج المرجوة مجهولة منها.

وكما أنَّ الحركة المعقدة في الساعة لا تنتهي إلا بانتقال الإبرة المشيرة إلى الوقت من مكانها على الميناء ببطء وانتظام، فإن النشاط الذي دبَّ في أعصاب مائة وستين ألف رجل بين روسي وفرنسي، واصطدام تلك الرغبات واختلاط تلك الشهوات، والحسرات والمخاوف والآلام، وبوادر الكبرياء والذعر والحماس؛ لم يكن لها من نتيجة إلا خسارة معركة أوسترليتز بالنسبة إلى أحد الجانبين المتحاربين؛ تلك المعركة التي أُطلق عليها اسم معركة الأباطرة الثلاثة: إمبراطور روسيا والنمسا وفرنسا؛ وبمعنًى أصح، لقد كانت حركة إبرة التاريخ العام على ميناء تاريخ الإنسانية.

كان الأمير آندريه في الخدمة ذلك اليوم، فلم يفارق الجنرال الأعلى كوتوزوف لحظة واحدة. وفي الساعة السادسة مساءً، وصل كوتوزوف إلى مقر القيادة الإمبراطورية، وبعد لقاء قصير مع الإمبراطور، قصد إلى الكونت تولستوي، الذي كان ماريشال البلاط الأكبر. شعر بولكونسكي أن كوتوزوف لم يكن على ما يرام، بل إنه لاحظ عليه الاغتمام والاستفزاز اللذين كان مردهما الاستقبال الفاتر الذي قُوبل به من قِبل السادة أعضاء الحاشية في القيادة العامة، واللهجة التي يخاطبونه بها، والتي توحي بأنهم يعرفون أشياء يجهلها الآخرون. وأراد بولكونسكي معرفة كلمة السر في هذه المعضلة، فمضى إلى دولجوروكوف منتهزًا فرصة الفراغ القصير الذي عرض له أثناء مقابلة كوتوزوف للكونت تولستوي.

قال له الأمير، وكان يتناول الشاي مع بيليبين: إه! مرحبًا يا عزيزي، نعم إن غدًا موعد العيد، تُرى ماذا يقول عجوزك؟ إنه ليس حسن المزاج أليس كذلك؟

– ليس الأمر مقتصرًا على مسألة مزاج، إنني أعتقد أن الجنرال يطلب أن يُصغى إلى ما يقول.

– لقد أصغينا إليه عندما انعقد المجلس الحربي، ولسوف نصغي إليه كلما عزم على التحدث بتعقل، أما أن نتمهل في حين أن بونابرت لا يخشى شيئًا مثل خوفه من معركة عامة لتُشن على قواته، فذلك مستحيل.

– صحيح، بمناسبة الحديث عن بونابرت، حدِّثني عن انطباعاتك، لقد رأيتَه وتحدثتَ معه، ماذا وجدتَ فيه؟

– لقد رأيتُه واستخلصت من تلك المقابلة أنه ما من شيء يخيفه أكثر من معركة عامة تُشنُّ عليه.

كرَّر دولجوروكوف هذا القول وهو شديد الفخار؛ إذ استطاع استخلاص ذلك الرأي. أردف يقول: لو أنه لم يكن خائفًا من المعركة، فلماذا أثار هذه المباحثات، ورغِبَ في المفاوضة؟ ثم لماذا يتراجع باستمرار، وهو الذي عُرف عنه أن التراجع ليس في برامجه؟ صدِّقْني إنه خائف، إنه يخاف المعركة العامة، لقد دقت ساعته أؤكد لك، فثقْ في قولي.

لكن بولكونسكي ألحَّ يسأله: لكن خَبِّرني، كيف وجدتَه؟

– إنه رجل يرتدي «الرودنجوت» الرمادي، ويرغب من كل قلبه أن يناديه الناس ب «يا صاحب الجلالة»، لكنني — لِشديد حزنه واكتئابه — لم أطلق عليه أيَّ لقب، هذا هو الرجل ولا شيء أكثر من هذا.

وابتسم دولجوروكوف لبيليبين ابتسامة شيقة، وأردف: إنني مع مزيد احترامي لكوتوزوف العجوز، أعتقد أننا لو تمهَّلنا وترددنا، فإننا نعطي فرصة كبيرة لنابليون تُمكِّنه من الإفلات، وبذلك نكون من أكرم المحسنين! إنه الآن بين أيدينا، لا تنسَ مبدأ سوفوروف العتيد: «لا تسمح لخصمك بمهاجمتك، بل كن أنت المهاجم»، صدقني يا عزيزي إنَّ حيوية الشباب في الحرب تمتاز ببُعد نظرٍ يفوق خبرةَ المخضرمين العجائز.

فقال بولكونسكي معترضًا على نظريةٍ دولجوروكوف، راجيًا أن تتاح له في هذه المناسبة فرصة عرض خطته الشخصية التي وَضَعَها لذلك الهجوم: ولكن في أيِّ اتجاه سنهاجم، وعلى أية وضعية؟ لقد ذهبتُ بنفسي منذ حين إلى خطوطنا الأمامية، وتأكدت من استحالة تحديد مركز قواته الرئيسية.

فأجابه الأمير وهو ينهض واقفًا، ويبسط خريطة على المائدة: وماذا يهمُّ ذلك إذا كانت في برونُّو؟

وراح دولجوروكوف يشرح بسرعة وبوضوح حركة الالتفاف التي وضع خطوطها فيروذر.

شرح بولكونسكي اعتراضاته، وعرض خطته الشخصية التي كانت تبدو في مثل قيمة الخطط التي وضعها فيروذر، مع فارق واحد في غير صفه، وهو أنها جاءت متأخرة، ومنذ أن حاول إبراز محاسن خطته ومساوئ الأخرى، توقف دولجوروكوف عن الإصغاء إليه، فلم يعُد يلقي إليه إلا بنظرة ساهمة دون أن ينظر إلى شروحه على الخريطة.

وأخيرًا قال له: حسنًا، سيقام هذا المساءَ مجلسٌ حربي في مكتب كوتوزوف، وبإمكانك الدفاع عن وجهة نظرك هناك.

فقال بولكونسكي وهو يبتعد عن الخريطة: وهذا ما أنوي عمله.

وهنا تدخَّل بيليبين الذي ظل صامتًا حتى تلك اللحظة، ينظر إلى المتحدثين بهدوء مترقبًا الفرصة الملائمة للإلقاء بإحدى كلماته المأثورة: ماذا يفيدكم مثل هذا القلق الذي تسومونه أنفسكم أيها السادة؟! سواء جاءنا الغد بالهزيمة أو بالنصر، فإن عظمة الجيوش الروسية لا يمكن أن تُمس، إننا إذا استثنينا كوتوزوف، فإننا لن نجد قادة روسيين على رأس جيوشنا، إن القواد هم كالتالي: هر جنرال ويمبفن، الكونت دولانجيرون، الأمير دوليشتنشتاين، الأمير دو هوهنلوه، وأخيرًا برشد ... برشد ... وهلم جرًّا، كما هو حال كل الأسماء البولانية.

فصاح به دولجوروكوف: اصمت يا لسان السوء! ثم إن هذا غير صحيح؛ فهناك قائدان روسيان هما ميلورادوفيتش ودوختوروف، وكان يمكن أن يكون هناك ثالث أيضًا؛ وهو آراكتشيئيف لكن أعصابه ضعيفة قليلًا.

قال بولكونسكي: أعتقد أن مقابلة ميخائيل لاريونوفيتش قد بلغت نهايتها، فإلى اللقاء أيها السادة، وحظًّا سعيدًا.

وصافحهما وخرج.

وبينما كان عائدًا بصحبة كوتوزوف إلى مقر القيادة العامة دون أن ينطق هذا بكلمة، لم يستطع كبح جماح نفسه، فألقى عليه سؤالًا ينشد رأيه في معركة صبيحة الغد.

فحدجه كوتوزوف بنظرة صارمةٍ، وأجابه بعد لحظة صمت: إنني أعتقد أننا سنخسر المعركة، وهذا ما قلته للكونت تولستوي راجيًا أن يُبلغ الإمبراطور رأيي، فهل تَعْرِف ماذا كان جوابه؟ لقد قال لي: «إيه يا عزيزي الجنرال، إنني لا أهتم إلا بالرز والضلع المحشي، فاهتموا أنتم بالحرب»، نعم هذا هو الجواب الذي حصلتُ عليه منه!

الفصل الثاني عشر

اجتماع القادة

انتقل فيروذر حوالي الساعة العاشرة مساءً إلى مسكن كوتوزوف، حاملًا معه أوراقه ومخططاته؛ حيث كان مقررًا أن يعقد هناك جلسة أخيرة مع قُوَّاد الجيوش قبل الشروع في المعركة، ولقد دُعي إلى ذلك الاجتماع كلُّ القواد، فحضروا باستثناء الأمير باجراسيون.

كان فيروذر — وهو صاحب الخطة التي ستسير على هداها المعركة المقبلة — على نقيض كوتوزوف من حيث المظهر والمزاج؛ كان الأول شديد الحماس والاندفاع على نقيض كوتوزوف العابس المتشائم، الذي كان يقوم بدور الحَكم، ومدير الجلسة رغم نفوره من تلك المهمة، وكان من الواضح أن فيروذر كان يشعر بأنه يرأس عملية من أخطر العمليات وأوسعها، كان أشبه بالحصان الذي ينحدر من علٍ، لا فرق لديه بين أن يكون هناك مَن يدفعه، أو أن يكون مدفوعًا بثقل عربة يجرُّها وراءه، بل إن همه كله كان محصورًا في الانحدار، وتخطي المسافة بسرعة، بصرف النظر عما يمكن أن يكون فيها من أخاديد وحُفَر قد تُورِدُه مورد الهلاك بسبب سرعته الجنونية. مضى ذلك المساء مرتين يتفقد شخصيًّا مراكز الجيش الأمامية؛ عله يستكشف مواقع العدو، وفي كل مرة، كان يقدِّم لكلٍّ من الإمبراطورين تقريرًا ضافيًا، ثم مضى بعد ذلك إلى مكتبه؛ حيث عكف على وضع خطته باللغة الألمانية، فلما بلغ إلى مسكن كوتوزوف لِعَقد المؤتمر الأخير، كان يقف على قدميه بصعوبة لفرط تعبه وحاجته إلى الراحة. لقد كان مشغولَ الفكر لدرجةٍ أنْسَتْه واجبَ الاحترام حيال الجبراليسيم. لقد كان يقاطعه، ويتحدث بسرعة وبشكل غير واضح دون أن ينظر إليه، أو أن يجيب على الأسئلة الموجهة إليه، لقد كانت الأحوال تغطي ثوبه، وكان مظهره يوحي بشرود ذهنه ونفاد جَلده، مع ذلك فقد كان ممتلئًا اعتدادًا واستعدادًا وتجهمًا.

كان كوتوزوف يَشْغل قصرًا صغيرًا بجوار أوسترالتز، وكان الضباط المدعوون إلى ذلك المجلس العسكري مجتمعين في البهو الكبير يتناولون الشاي، وكان المجتمعون ينتظرون وصول الأمير باجراسيون لتُفتح الجلسة، ولم تنقضِ دقائق بعد الساعة السابعة، حتى وفد أحد ضباط باجراسيون يقدِّم اعتذارات الأمير لعجزه عن حضور الاجتماع، وحمل الأمير آندريه اعتذارات باجراسيون إلى القائد الأعلى كوتوزوف، واستغلَّ فرصة وجوده في البهو لحضور اجتماع القادة مستندًا إلى رغبة كوتوزوف بالذات في إبقائه بقربه.

قال فيروذر وهو ينهض، وكأنه آلة تدفعها قوة رافعة: بما أنَّ الأمير باجراسيون لن يستطيع حضور الاجتماع، فإننا نستطيع البدء فيما نحن بصدده.

واقترب من المائدة وبَسَطَ فوقها خريطة ضخمة تبيِّن ضواحي برونُّو بتفصيل دقيق.

كان كوتوزوف، ذو العنق الضخم البارز خلال فتحة الثوب العسكري، جالسًا على مقعد من طراز «فولتير»، ويداه السمينتان مرتكزتان على ذراعيه في وضع متناسق، وكان النعاس يداعب عينيه، فلما علا صوت فيروذر، فتح عينه الوحيدة بعناء وقال: نعم، نعم، لا شك أنَّ الوقت متأخر.

وأومأ برأسه دلالة على الموافقة، ثم عاد يغمض عينيه، ويترك رأسه يسقط على صدره.

ولو أن أعضاء المؤتمر العسكري اعتقدوا للوهلة الأولى أن كوتوزوف يتظاهر بالنوم استخفافًا بما يدور، فإن شخيره الذي علا بعد لحظات بدَّدَ الظنون والريب، وأكد أنَّ الجنراليسيم لم يكن يتعمد إظهار الاحتقار بما يدور، أو بالخطة الموضوعة أو بأي شيء آخر، بل إنه كان يُرضي حاجة قاهرة غريزية في النفس البشرية؛ وأعني النوم الذي كان في نظره لا يقل أهمية وخطورة عما هو بصدده، لقد كان نائمًا تمامًا، فألقى فيروذر نظرة على كوتوزوف ليتأكد من أنه نائم فعلًا، ثم أتى بحركة تُشعر أنه لا يستطيع إضاعة دقيقة واحدة في أمر خارج عن موضوع الخطة، وأخذ ورقة راح يقرأ ما فيها بصوت رتيب قوي، تفاصيلَ الخطة العتيدة، دون أن ينوه إلى أي فضل أو مساعدة لزملائه.

كانت الورقة مُعَنْوَنة كالآتي: «خطة الهجوم على موقع العدو وراء كوبيلينتز وسوكولينتز في العشرين من تشرين الثاني عام ١٨٠٥.»

وكانت الخطة شديدةَ التعقيد صعبةَ الفهم تبدأ كالآتي: «لما كان العدو يرتكز بجناحه الأيسر على هضبة حرش، ويمتد بجناحه الأيمن على طول كوبيلينتز وسوكولينتز، وراء المستنقعات الموجودة هناك، وكنا نحن على العكس، نتجاوز بجناحنا الأيسر امتداد

جناحه الأيمن تجاوزًا كبيرًا، فمن الأرجح بالنسبة إلينا أن نهاجم جناح العدو الأيمن، خصوصًا إذا احتللنا القريتين: سوكولينتز وكوبيلينتز؛ الأمر الذي سيسمح لنا الانقضاض على جانب العدو ومطاردته في السهل بين شلابانيتز وغابة توارس، متحاشين بذلك قوات شلابانيتز نفسها والقوات المعسكرة في بلوتيز، التي تغطي جبهة العدو، وللوصول إلى هذا الهدف النهائي، من الضروري ... إلخ، تمشي الفرقة الأولى، وتمشي الفرقة الثانية ... إلخ.»

كان الجنرالات غير مبتهجين لسماع تلك الجمل المركَّبة المعقدة، فالجنرال بوكسووفدن — وهو طويل القامة أشقر اللون — كان واقفًا قرب الجدار يحدق في شمعة، وكأنه لا يصغي أو حتى لا يُرِيد أن يُعتقد أنه يصغي إلى ذلك الشرح، والجنرال ميلورادوفيتش — وهو أحمر الوجه ضخم الشاربين معقوفهما متهدل الكتفين — جالس قبالة فيروذر جلسة عسكرية مهيبة، ويداه على ركبتيه ومرفقاه إلى الجانبين، يحدق في وجه بعينين شاخصتين، وهو صامت بعناد واضح. ولما انتهى رئيس الأركان النمساوي من تلاوة التفاصيل، نقَّل ميلورادوفيتش نظره بين زملائه، غير أن أحدًا منهم لم يستطع أن يتبين شيئًا في تلك النظرة المفعمة بالخطورة، أو أن يخمن لونها: أهي تحمل معنى الموافقة على الخطة أو الاعتراض عليها. وكان الكونت دولانجيرون — الجالس إلى جانب فيروذر مباشرةً — يتأمل أصابعه الطويلة الأنيقة التي كانت تداعب علبة السعوط الذهبية ذات الصورة اليدوية التي تزين غطاءها، وكانت الابتسامة مطلة على وجهه الفرنسي الذي يشهد بأنه من أهل الجنوب، والعلبة الأنيقة ترسم حلقات مركزية بين أصابعه. وفي أحد المواقف الدقيقة الشديدة التعقيد، أوقف حركة علبته الرتيبة ونصب رأسه، ثم انفرجت شفتاه الرقيقتان عن اعتراض بلهجة مهذبة باردة، غير أن الجنرال النمساوي لم يتوقف عن القراءة، بل قطَّب حاجبيه بغضب وحرك مرفقيه حركة تشبه القول: «بعد حين، بعد حين، سوف تحدِّثني بكل رأيك، أما الآن، فأرجو أن تصغي إلى الشرح وأن تتتبع المراحل على الخريطة»، فرفع لانجيرون رأسه، وقد حملت عيناه تعبيرًا حائرًا مضطربًا، وتطلَّع إلى وجه ميلورادوفيتش، وكأنه يسأله شرحًا وتفسيرًا، لكنه لما تقابلَت نظرته بنظرة الجنرال الروسي الخطيرة الخالية من كل معنًى، أطرق بعينيه بكآبة وعاد إلى علبته يديرها بين أنامله.

غمغم بصوت مرتفع متعمدًا إسماعه للآخرين: درس جغرافيا!

وكان برزيبيسزوسكي، يوجه صيوان أذنه بيده، بحركة مهذبة وقورة، نحو فيروذر، شأن الرجل المستغرق في الإصغاء إلى محاضرة ممتعة يخشى أن تفوته كلمة منها، أما

دوختوروف القصير فكان منحنيًا فوق الخريطة قبالة فيروذر، يدرس بدقة مشروع الهجوم والمواقع التي يجهلها، وعلى وجهه آيات الاهتمام والتواضع، وبَلَغَ من شديد عنايته أنْ قاطَع زميله النمساوي مرارًا طالبًا إليه أن يتفضل بإعادة جملة لم يستوعبها أو مقطع لم يسمعه جيدًا، أو بعض أسماء القرى الصعبة، فكان فيروذر يستجيب لرغباته ودوختوروف يسجل ملاحظاته في دفيتره.

ولما انتهت القراءة بعد ساعة على البدء فيها، أوقف لانجيرون دوران علبة سعوطه وأعرب — دون أن ينظر إلى فيروذر أو إلى أحد زملائه بصورة خاصة — عن رأيه قائلًا إنه سيكون من الصعوبة بمكان القيام بمثل هذه المناورة التي ترتكز أُسسها على معرفة مواقع العدو، بينما أنَّ الحقيقة لا تؤيد هذه المعرفة؛ لأن تحركات هذا العدو مجهولة منا لا تسمح لنا بمعرفة مواقعه، وكان ذلك الاعتراض — رغم وجاهته — يهدف إلى إشعار فيروذر الدعيِّ المتبجح، بأن هؤلاء العسكريين المحترفين الذين يعاملهم معاملة الجهلة الحمقى، على استعداد لتلقينه دروسًا في فنون القتال. وفي تلك الأثناء، فتح كوتوزوف عينه الوحيدة بعد أن انقطع صوت فيروذر الرتيب، وكأنه طحان نام على صوت مطحنته الممل الرتيب؛ ليستيقظ فجأةً عند توقف الصوت، أصغى بشرود إلى وجهة نظر لانجيرون، وبادر إلى إغلاق عينه وكأنه يقول: «باه! ألا زلتم تناقشون هذه التفاهات!» وعاد رأسه يسقط على صدره مثقلًا بالنعاس.

كان لانجيرون يرغب في النيل من شعور فيروذر والحط من كبريائه وغروره الذي يصور له أنه يستطيع وضع الخطط المنسقة الموفقة؛ لذلك فقد راح يبيِّن أن بونابرت يستطيع أن يتحول بسهولة إلى الهجوم بدلًا من أن يكون مهاجمًا؛ الأمر الذي يجعل تلك الخطة عديمةَ الفائدة، غير أنَّ فيروذر ما كان يجيب على كل تلك الانتقادات إلا بابتسامة ملؤها السخرية؛ ابتسامة مهيَّأة من قبلُ، ولا شك، لتجيب على كل الاعتراضات من أي نوع كانت.

قال مؤيدًا رأيه: لو كان قادرًا على مهاجمتنا، لَقام بذلك اليوم.

فاعترض لانجيرون بقوله: هل أنت واثق من عجزه؟

فأجاب فيروذر جازمًا وعلى شفتيه ابتسامة الطبيب الذي يُطالب باستعمال علاج النساء المخرفات: إنه لا يملك أكثر من أربعين ألف رجُل على أبعد تقدير.

فابتسم لانجيرون ابتسامةً ساخرةً وقال معقبًا: إنه إذن يسعى إلى حتفه بظلفه!

وعاد من جديد يبحث بنظره عن تأييد جاره ميلورادوفيتش، غير أن هذا — كما كان واضحًا — لم يكن قط يفكر في الموضوعات التي يناقشها زملاؤه.

قال: لعمري، إنَّ كل هذا سيقرَّر في ساحة المعركة.

عاد فيروذر يدلل بابتسامة جديدة على وقاحة هؤلاء الجنرالات الروسيين وسفاهتهم، الذين يسمحون لأنفسهم بمعارضته — هو — ومطالبته ببراهين حول أمور لم يكن مقتنعًا من وجاهتها قناعة تامة فحسب، بل إنه كذلك أقنع الإمبراطورين بتلك الوجهة، قال: لقد أطفأ العدو نيرانه والجلبة المستمرة ترتفع من معسكره دون انقطاع، فماذا يعني ذلك؟ هل يبتعد أم يحول مراكزه؟ إن الاحتمال الأول هو وحده الذي نخشاه.

ثم أعقب وابتسامتُه تلك لا تفارق شفتيه: فإذا افترضنا جدلًا أنه يبتعد، وأنه سيتمركز في توراس، فإنه سيوفر علينا كثيرًا من المتاعب، على كل حال، فإن تفاصيل خطتنا — حتى أصغر خطوطها وأتفهها — تبقى نافذة بدقة.

فسأل الأمير آندريه الذي كان يتحيَّن منذ زمن طويل فرصة إظهار مخاوفه وشكوكه: كيف ذلك؟

وفي تلك اللحظة، استيقظ كوتوزوف فسعل، وأجال حوله نظرة دائرية استعرض فيها وجوه الجنرالات، وقال: أيها السادة، إن خطة غد، أو على الأحرى اليوم؛ لأن الساعة قد جاوزت منتصف الليل؛ لا يمكن تعديلها، لقد سمعتم تلاوتها، وعلينا أن نقوم بواجبنا.

وصمت فترة ثم أعقب: غير أن لا شيء يضاهي النوم في أهميته قبل أية معركة. فاذهبوا إلى أسرتكم.

وتَنَاهض فحذا المجتمعون حذوه وانسحبوا، وتبعهم الأمير آندريه، وكانت الساعة تشرف على الواحدة.

لم يستطع الأمير آندريه الإفصاح عن رأيه في المؤتمر الحربي الذي عُقد قبل بدء المعركة؛ الأمر الذي تَرك في نفسه شعورًا عميقًا بالانزعاج والقلق. تُرى من كان على حق؟ أكان دولجوروكوف وفيروذر اللذين كانا يحملان لواء فكرة الهجوم ويمتدحانها، أم كوتوزوف ولانجيرون والآخرون الذين كانوا ينتقدون الفكرة وينادون بعدم ملاءمتها؟ ما كان يعرف! ولكن، أمَا كان كوتوزوف قادرًا على إطلاع الإمبراطور مباشرةً على تلك الخطة؟ ألم يكن ذلك التصرف قمينًا بتبديل الأمور؟

كان يحدِّث نفسه بقوله: «هل من الواجب التضحية بعشرات الألوف من البشَر، ولعله يكون في عدادهم، لإرضاء حفنة من أفراد بطانته المتملقين؟! نعم، حياتي أنا أيضًا؛ لأنه لا يسترغب أن أُقتل غدًا.» وفجأةً اكتسح مخيلته فيض من الذكريات إزاء فكرة الموت التي واتَتْه؛ ذكريات بعيدة حبيبة، أخذت تمرُّ في خياله. رأى نفسه بعين الخيال يودِّع أباه

الوداع الأخير ويترك زوجه، وتذكَّر ليز الحبلى واستعاد فترات غرامها الأولى فشعر بعطف وإشفاق عليها وعلى نفسه. كان فريسة اضطراب عنيف لا يستطيع الاستقرار؛ لذلك فقد خرج من مسكنه الذي كان يشغله مع نيسفيتسكي وراح يذرع الطريق.

كان الضباب الخفيف يلف القرية في ردائه الشفاف الرقيق، وإشعاع هزيل من القمر يخترق ذلك الحجاب، فيضفي على الجو طابعًا غامضًا. راح يحدِّث نفسه: «نعم، غدًا، غدًا ... غدًا قد ينتهي كل شيء من جانبي، غدًا ولا شك، بل وبالتأكيد؛ لأن هاتفًا خفيًّا يؤكد لي ذلك، سيتسنى لي أن أُظهر كفاءتي وقدرتي.» تصوَّرَ المعركةَ واحتدامَها وامتدادَها المحزنَ، وارتكازَ القتال في نقطة واحدة، وبلبالَ الرؤساء كلِّهم وتشوُّشَ القادةِ. وعندئذٍ، تَعْرِضُ له الفرصة الذهبية لتحقيق «طولونه»[1] المنشود، عَرَضَ على كوتوزوف بصوت واضح حازم تفاصيل خطته وكذلك على فيروذر، ثم على أسماع الإمبراطورين، وذهل هؤلاء جميعًا بدقة خطته وحُسن سبكها ووضعها، لكنهم لم يتعهدوا مجتمعين أو فرادى باحتمال نتائجها وتطبيقها؛ وعندئذٍ، وبعد أن تأكد من أن أحدًا لن يتدخل في خطته، فيعترض عليها أو يدعمها، ترأس سريةً، بل جيشًا، وقاده إلى حيث كانت المعركة في أدق المراحل وأخطرها، فأنقذ الموقف وانتصر. وهنا اعترض صوت داخلي قائلًا: «والموت والآلام؟» لكن الأمير آندريه لم يتعشم مشقة الجواب، لقد كان يتتبع خطوط فوزه وخُطَى انتصاراته، لقد وضع بمفرده خطة المعركة المقبلة، رغم أنه لم يكن يحمل أي لقب باستثناء لقب الملحق العسكري بقيادة كوتوزوف، وكان هذا المركز هو كل ذخر لديه؛ فقد قاد العملية الناجحة، ثم إنه هو نفسه ووحده الذي سينتزع النصر من براثن الهزيمة، وعندئذٍ يقال كوتوزوف من مركز القيادة وتُسند هذه إليه، فيصبح القائد هو بولكونسكي، واعترض الصوت مرة ثانية قائلًا: «وبعدئذٍ؟ هذا على فرض أنك لم تُقتل أو تُجرح عشرات المرات، أو تُمنى بخيانة منتظرة، وبعدئذٍ؟ ماذا سيكون؟»

فأجاب الأمير آندريه: «وبعدئذٍ؟ حسنًا، وبعدئذٍ! لست أدري ماذا سيحدث بعدئذٍ، لا أستطيع ولا أريد معرفة ما يأتي بعدئذٍ، لكنني إذا كنت حقيقةً أسعى وراء هذا الشيء الذي يطلق عليه اسم المجد أو الشهرة، أو ... فإنني لا أُدَان لأنني أردته وعملت من أجله، نعم من أجل هذا وحده! لن أعترف لأحد بهذه الحقيقة، ولكن، رباه! ماذا أستطيع أن أفعل إذا

---

[1] سبق أن بيَّنَّا المقصود بهذا التعبير عند البحث عن نفسية بولكونسكي في الفصول السابقة. (المترجم)

كنتُ لا أُحب إلا هذا المجد والشهرة العظيمة بين الرجال؟ إن الموت والجرح وفقْد أسرتي، كل هذه المصائب لا تخيفني، صحيح أنَّ لدي عددًا كبيرًا من الأعزَّاء؛ وعلى رأسهم أبي وأختي وزوجتي، مع ذلك فإنني مهما بدوْتُ مخيفًا ومنافيًا في تفكيري للطبائع البشرية، فإنني على استعداد للتضحية بهم دون تردد في سبيل دقيقةِ مجدٍ ولحظةِ فوزٍ، وفي سبيل حبِّ الأشخاص الذين لا أعرفهم والذين لن أعرفهم قط وسلامتِهم ... أشخاص مثلهم!» وأصاخ السمع إلى لغط أصوات كان يرتفع في تلك اللحظة من فناء مسكن الجنراليسيم، فأعقب قائلًا: «أشخاص مثل هؤلاء!»

كان التابعون والخدم في قصر كوتوزوف يتأهبون — ولا شك — للنوم، وكان أحدهم — ولعله الحوذي — يريد إثارة «تيت» طاهي كوتوزوف، الذي كان آندريه يعرفه حق المعرفة. سمع السائق يقول: تيت، هه، تيت!

فأجاب الرجل مستفسرًا: ماذا تريد؟

فعاد الأول يقول مازحًا: امضِ إلى صغيرتك الفتانة!

فأرعد الصوت الآخر، وقد طَغَتْ عليه أصداء الضحكات المتعالية: ليحملْك الشيطان!

وأعقب آندريه في سرِّه: «رغم كل ذلك، فإنني أتعلق برغبة الفوز من أجلهم جميعًا، إنني لا أمجِّد إلا هذه القوة الغامضة، هذا المجد الذي أشعر به محلقًا فوق رأسي في هذا الضباب!»

الفصل الثالث عشر

أحلام روستوف

كانت كوكبة روستوف تستكشف ذلك المساء لصالح جيش باجراسيون، كان الفرسان مقسَّمين إلى فصيلتين ومنتشرِين على طول خطوط الجيش الأمامية. وكان روستوف يطوف على فرسانه مفتشًا، يغالب النعاسَ الذي يُثقل جفنيه ورأسه، كان يميِّز في الفراغ الشاسع الممتد أمامه أضواءَ الجيش الروسي الخافتة، لكنه ما كان يرى في الرقعة التي يشغلها العدو إلا الظلام الدامس، لم يستطع اختراق تلك الحجب المُدْلهِمَّة الصفيقة بنظراته، لقد كان يظن تارةً أنه رأى أشكالًا سوداء تتحرك، وأحيانًا يعتقد أنه طالع بنظره نيران العدو المخيفة بإحكام، لكنه كان يُقنع نفسه بأن هذه المرئيات ليست إلا أوهامًا خُدع بها خياله. أطبق جفناه من التعب، وصوَّر له خياله الإمبراطور تارةً ودينيسوف وذكريات موسكو تارةً أخرى، فكان يفتح عينيه بسرعة، فلا يرى إلا رأس جواده وأذنيه وأحيانًا أشباح الخيالة عندما كان يقترب من بعضهم، بينما ظل الظلام الكثيف يخيِّم على الأبعاد التي يربض فيها العدو.

راح يفكر في سرِّه: «لِمَ لا؟ لعلني إذا قابلت الإمبراطور حصلتُ منه على إحدى المهام التي يسندها إلى الآخرين، لعله يقول لي مثلًا: «اذهب واستطلع ما يحدث هناك»، إنه كما يبدو، كثيرًا ما يقع بصره على أحد الضباط فيُلحقه بخدمته، ولكن ماذا لو حصل لي مثل ذلك؟ أواه! كم سأضحي في سبيل حمايته، كما سأبذل لأحدِّثه بالحقائق، وكم سأعمل لأفضح الخونة وأكشف عن المارقين!» ويجسد له الخيال هذه الآمال، فيرى نفسه بعين الواقع مشتبكًا مع عدوٍّ أو خائن ألماني، فيطرحه أرضًا ويضربه ويصفعه في حضرة معبوده الإمبراطور ليبيِّن له مبلغ حبه وتفانيه في سبيل شخصه المبجل، وفجأةً أعادتْه صرخة ثاقبة بعيدة إلى الحقيقة، فانتفض وفتح عينيه.

تساءل: «أين أنا؟ آه! نعم، في الخطوط الأمامية، إن كلمة السر هي تيمون، أولموتز ... يا للضنك ببقاء كوكبتنا في عداد الاحتياط غدًا! سأطلب الاشتراك في العمليات، لعل بذلك فرصتي الوحيدة لرؤية الإمبراطور، لقد أزفتْ ساعة تبديل الحرس، سأقوم الآن بجولة جديدة، وبعدها أقدِّم ملتمسي للجنرال.» انتصب على ظهر جواده، وهمز كشح الجواد للقيام بجولته الأخيرة. بدا له الظلام أقل حلكة، فاستطاع أن يرى إلى يساره منحدَرًا خفيفًا مضيئًا، ومن الجانب الآخر تلًّا مظلمًا، بدا لعينيه منتصبًا كالجدار القائم، شاهد على ذلك التل بقعة بيضاء لم يتمكن من تحديد نوعها ومَنشئها، تُرى هل كانت بقعة جرداء يُضيئها القمر، أم ذراعًا من الثلج أم صفًّا من المنازل؟ خُيل إليه أنه يرى تلك البقعة تتحرك، راح يحلم: «ينبغي أن تكون هذه البقعة كتلة من الثلج. بقعة، البقعة، بقعتي ... آه، نعم، ناتاشا، أختي وعينيها السوداوين ... هل ستدهش عندما أروي لها أنني شاهدت الإمبراطور؟ ... ناتاشا ... حاولي ألَّا تسقطي ...»

هتف أحد الفرسان إلى يمينه فجأةً، وكان روستوف قد مرَّ به وهو بين النوم واليقظة: احذر نبالتك من الأدغال.

استيقظَ من حلمه، فرأى أن رأسه كان يتهدهد فوق ذؤابة الجواد، انتصب على السرج، وتوقف قرب الفارس. لقد كان النوم، النوم البريء الذي يُثقل عيون الأطفال، يطغى على حواسه.

عاد يحدِّث نفسه: «هيا، بماذا كنت أفكر؟ لا، لا ينبغي أن أنسى، آه، نعم، كنت أفكر فيما سأقوله للإمبراطور أليس كذلك؟ كلَّا، إن هذا لن يكون إلا غدًا. آه، نعم، كنت أفكر في ناتاشا ... بقعة، بقعة، بقعة ... أية مهمة[١] تنتظرنا غدًا؟ ... من هذا؟ الفرسان؟ ... آه، نعم الفرسان ذوو الشوارب، أين يا تُرى شاهدت واحدًا من هؤلاء الفرسان ذوي الشوارب؟ آه، نعم، لقد كان ذلك في شارع تفير Tver قبالة منزل العجوز جورييف ... يا له من باسل هذا الدينيسوف! ... لكن هذه الأفكار كلها ليست إلا حماقات، المهم هو أن الإمبراطور موجود هنا! ... عندما نظر إليَّ، خُيل إليَّ أنه أراد أن يقول شيئًا، لكنه لم يجرؤ

[١] إن كلمتَي بقعة ومهمة تتشابهان من حيث النطق بهما باللغة الفرنسية، ولا تختلفان كتابةً إلا بإشارة A تضاف إلى الثانية، ومن هنا كان انتقال أفكار الضابط التعس من إحداهما إلى الأخرى رغم تباين المعنى Têche, Tache. (المترجم)

على قوله ... كلَّا، بالطبع إنه لم يجرؤ ... حماقات كل هذه أيضًا! المهم هو ألَّا أنسى ... تُرى ماذا كان ذلك الشيء المهم الذي كنت أريده؟ ... ناتاش، لطخة، لطخة ... بقعة ...»

ومن جديد عاد رأسه إلى الانحناء فوق حارك الجواد، وفجأةً خُيل إليه أنَّ هناك مَن يطلق النار عليه، فهتف منتفضًا: ما هذا؟ ماذا هناك؟ اعمل السيف، اعمل السيف!

وفي تلك اللحظة التي فتح فيها روستوف عينيه، سمع من جانب العدو جلبة طويلة صادرة عن ألوف من الأصوات، فنصب جواده وجواد الفارس القريب منه آذانهما، وفجأةً أُضيء نور على المرتفع وأعقبه آخر، ولم تلبث النيران أن التمعت على طول الجبهة الفرنسية، بينما ظلت الجلبة تزداد امتدادًا واتساعًا. وعلى الرغم من أن روستوف لم يستطع أن يميز تلك الأصوات لسبب وفرة عددها وكثرتها، فإن الأحرف التي التقطها أكدت له أنها صادرة عن خناجر الفرنسيين.

سأل الفارس الذي كان إلى جانبه: ما معنى هذا؟ ماذا تظن؟ إنه صادر عن معسكر العدو، أليس كذلك؟

فلم يُجِب الفارس، وعاد روستوف يسأله بعد أن انتظر جوابه عبثًا: ماذا؟ ألا تسمع؟

فأجابه الفارس بتذمُّر: الله يعرف ما الخبر يا صاحب النبالة.

قال روستوف فلحًا: إذا استهدينا بموقع العدو، فإن هذه الأصوات صادرة، ولا شك، عنه!

فقال الفارس بلغته الرعاعية: قد يكون كذلك وقد لا يكون، ليس من السهل معرفة ذلك في الظلام.

وأردف يهيب بجواده — الذي حاول التراجع — أن يقف: هه، كفاكَ حماقة، قفْ!

كان حصان روستوف أيضًا نافد الصبر، لا يكاد يستقر على الأرض المغطاة بالجمد، كان ينصب أذنيه ويضرب بقوائمه الأرض، ويميل نحو الأضواء، أما الصيحات فقد أخذت تزداد وتتعالى وتذوب في جلبة عامة، لا تستطيع القيام بمثلها إلا الألوف المؤلفة من الرجال، وكانت النيران منتشرة في تلك اللحظة على طول خط متناهٍ في البعد، لا شك أنه كان خط العدو الأمامي، واتضحتْ أخيرًا معالم الأصوات، واستطاع روستوف أن يتبين فيها هتافًا مؤداه: «ليحيَ الإمبراطور، الإمبراطور!» فشعر كأن ذلك الهتاف سوط ينهال على جلده.

قال يحدِّث الفارس: لا يمكن أنْ يكون هذا بعيدًا، لعله على الجانب الآخر من النهير، أليس كذلك؟

فسعل الفارس بعد أن زفر زفرة غاضبة، وكان هذا كل الجواب، وفجأةً علا وقْع حوافر جياد قادمة، وانبعث من ذلك الضباب الليلي شبح وكيل ضابط ما زال يقترب، حتى وصل إلى حيث كان روستوف، قال القادم: يا صاحب النبالة، لقد قدم الجنرالات.

تبع روستوف وكيل الضابط وأذنُه تُصغي إلى الهتافات والصيحات، واستطاع رؤية مفرزة من الفرسان تقترب؛ ورأى أن أحدهم يمتطي جوادًا أبيضَ كان القادمون هم الأمراء: باجراسيون ودولجوروكوف ومعهما أفراد حاشيتيهما. لقد جاء الأميران يستطلعان سبب تلك البادرة الغريبة؛ النيران والأصوات بعد الظلام والصمت المُطبِق. قدَّم روستوف تقريره لباجراسيون، وانتظم في عداد الضباط المساعدين، يصغي بشغف إلى ما يقوله الجنرالان.

قال دولجوروكوف بتأكيدٍ: صدِّقْني إنها مجرد خدعة حربية، إنه بينما ينسحب متراجعًا، يضع جنود المؤخرة، ويأمرهم بإبقاء النيران والهتاف على هذا الشكل؛ لإيهامنا بأنه في مكانه، إنها خدعة.

فأجابه باجراسيون: إنني أشك في هذا القول، لقد رأيتهم هذا المساء فوق هذا النتوء، لا شك أن جيشهم لو كان ينسحب كما تقول، لَمَا ظل هؤلاء فوق التل.

وأضاف يسأل روستوف: يا سيدي الضابط، هل لا زال مُشاتُهم المكلفون بحماية الجناحين في أمكنتهم؟

– لقد كانوا هناك هذا المساء، أما الآن فلا أستطيع الجزم، فإذا أصدرتم لي سعادتكم الأمرَ، مضيتُ مع فرساني لمعرفة ذلك.

توقف باجراسيون محاولًا تمييز وجه روستوف وسط الضباب، وأخيرًا قال: حسنًا، اذهب واستطلع.

– كما تأمرون سعادتكم.

همز روستوف كشح جواده واستوقف وكيل الضباط فدتشنكو واثنين من رجاله، وأصدر إليهم الأمر بمواكبته، وانحدر عن المرتفع، وراح يقطع المسافة باتجاه الأصوات بأقصى ما تستطيعه الخيول من جري. كان يشعر بقلق مشوب بالسرور لذهابه وحيدًا مع ثلاثة من الفرسان نحو ذلك الأفق المليء بالضباب؛ حيث يكمن السر الرهيب والخطر الجسيم الذي لم يستطلعه قبله إنسان. ومن أعلى المرتفَع، صاح به باجراسيون يأمره ألَّا يتجاوز النهير، لكنه تصامم عن الأمر وأوغل في جريه رغم العوائق الكثيرة والأخطاء التي كان يقع فيها، لقد كان يرى الدغل أشجارًا والحفر رجالًا. ولما بلغ أسفل المنحدر، لم يعُد

يرى نارًا، سواءٌ أكانت النار الروسية أو نيران العدو. لكن الأصوات أخذت تزداد اقترابًا ودويًّا ووضوحًا، خُيِّل إليه أنه يرى نهير أسفل الوادي لكنه لَمَّا اقترب منه، رأى أنه كان طريقًا ممهدة، فأوقف جواده وهو لا يدري أيتبع الطريق أم يسير في الاتجاه المعاكس، أيخترق الحقول التي تحاذي الطريق في ذلك الظلام أم يعود إلى نقطة انطلاق أخرى. وأخيرًا قدَّر أن سلوك الطريق كان أقل خطرًا؛ لأنه كان أشبه باللطخة المضاءة وسط ذلك الضباب، فكان يمكن تمييز الأشباح عليها بأكثر سهولة، هتف بفرسانه: «اتبعوني»، وعبر الطريق محاولًا تسلُّق التل الذي شاهد الرقباء الفرنسيين فوقه مساء ذلك اليوم هدبًا.

قال أحد فرسان دينيسوف: ها هو ذا يا صاحب النبالة!

انتصب ظِلٌّ في ذلك الضباب، ولم يجد روستوف وقتًا كافيًا لتبيُّنه؛ إذ الْتمع شهابٌ ناري أعقبه دوي طلقة نارية، ومرت الرصاصة تشق الضباب فوق رءوس الفرسان الأربعة بزمجرة صاخبة. لم تنطلق رصاصة ثانية، لكن وميض «الكبسولة» فضح رغبة صاحبها. لوى روستوف عنان جواده، وجرى بأقصى سرعة عائدًا من حيث أتى. دوت أربع طلقات أخرى خلال فترات متقطعة وعلى أبعاد مختلفة، ومرت الرصاصات تصفر وسط الضباب، فأوقف روستوف حصانه الذي كان شديد الانفعال كفارسه، وراح يسيِّره الهوينا بخطوات وئيدة، كان صوتٌ بهيج يغمغم في أعماقه: «هيا، طلقة أخرى!» غير أنَّ الرصاص توقف.

وقبل أن يصل روستوف إلى حيث كان باجراسيون ببضع خطوات، هدب حصانه، ورفع يده اليمنى إلى حافة خوذته بالتحية. كان دولجوروكوف لا يزال يصر على أنَّ الفرنسيين ينسحبون وأن تلك الأصوات ليست إلا خدعة حرب. كان يقول: علامَ تدل هذه النيران؟ إنهم يستطيعون ترك بعض الحراس حتى بعد انسحابهم لمجرد الخداع.

فيجيبه باجراسيون: صدِّقني يا أمير إنهم لم يذهبوا جميعًا، سوف تتأكد من ذلك غدًا صباحًا.

وكان روستوف قد وصل فقال: لا يزال هناك نقط مراقبة على التل يا صاحب السعادة، إنهم لا زالوا حيث رأيتهم هذا المساء.

كان منحنِيًا إلى الأمام ويدُه إلى قبعته بالتحية، يستخفه الفرح الذي أحدثتْه تلك المهمة في نفسه، وخصوصًا لعلعة الرصاص الذي تطاير فوق رأسه، فما كان يستطيع كتمان ابتسامته المشرقة.

قال باجراسيون: حسن، حسن جدًّا، أشكرك يا سيدي الضابط.

قال روستوف: هل تسمحون لي سعادتكم بتقديم ملتمَس؟

– ما موضوعه؟

– إن كوكبتنا ستبقى غدًا في عداد الاحتياط، وإنني أرغب في الالتحاق بالكوكبة الأولى.

– ما اسمك؟

– كونت روستوف.

– آه، حسنًا، ابقَ معي كضابط تابع.

وسأله دولجوروكوف: أأنت ابن إيليا آندريئيتش؟

غير أنَّ روستوف لم يُجِب على هذا السؤال بعد أن خاطب باجراسيون قائلًا: إذن، هل آمل أن يحقق ملتمسي؟

– سأصدر أوامري.

فقال روستوف في سرِّه: «غدًا، يجوز أن أكلف بحمل رسالة أو تقرير إلى الإمبراطور، حمدًا لله وشكرًا!»

كان سبب تلك النيران المشتعلة في صفوف العدو وتلك الهتافات المدوية في معسكراته، حضور نابليون بنفسه؛ الذي راح يستعرض القطعات على ظهر جواده، بينما كان القواد يقرءون على الجنود الكلمة التي وجَّهها إليهم، فلما وقعت أعين الجنود عليه، أشعلوا النيران؛ نيران مشاعل من التبن، وراحوا يَجْرون وراءه هاتفين: «يحيا الإمبراطور!» أما الكلمة التي وجَّهها إليهم فكانت كما يلي:

أيها الجنود

إن الجيش الروسي ينتصب الآن أمامنا؛ لينتقمَ لهزيمة حلفائه النمساويين في أُولم، إن وحداته هي نفسها التي هزمتموها في هولَّا برونُّو، والتي ما فتئتم تتأثرون خطاها في هزيمتها منذ ذلك اليوم.

إن المواقع التي نحتلها رائعة ممتازة، سوف يكشفون لي عن جانبهم حين التفافهم حول جناحي الأيمن. أيها الجنود، سوف أدير بنفسي كتائبكم، وسأظل بعيدًا عن خطوط النار إذا قَدَرْتم بشجاعتكم المعهودة أن تزرعوا الفوضى والارتباك في صفوف العدو، ولكن إذا رأيتُ أن النصر بات مهددًا في أية لحظة، فسترون إمبراطوركم يعرِّض نفسه للرصاصات الأولى؛ لأن النصر لن يعرف التردد، خصوصًا في هذا اليوم الذي يتوقف فيه شرف الجيش الفرنسي على الانتصار؛ ذلك الشرف الذي يدعم شرف الأمة الفرنسية بأسْرها.

لا يجب أن تفرغ الصفوف بحجة إبعاد الجرحى، وليكن نُصْب عين كلٍّ منكم أنه يجب إلحاق الهزيمة بأُجَرَاء الإنجليز هؤلاء، الذين يُضمرون حقدًا هائلًا على أمتنا.

إن هذا النصر سيُنهي هذه الحملة، وسنستطيع بعدها إقامة معسكرات الشتاء، وستَلحق بنا القطعات الجديدة التي تُشكَّل الآن في فرنسا؛ وعندئذٍ سيكون الصلح الذي أعقده جديرًا بشعبنا وبكم وبي كذلك.

الفصل الرابع عشر

نابليون

كان الظلام لا زال مخيمًا رغم أن الساعة كانت قد جاوزت الخامسة، وكان جناح باجراسيون الأيمن والوسط والقوات الاحتياطية لا زالت في مواقعها لم تتحرك. أما الجناح الأيسر، فقد كان موجوده من المشاة والفرسان والمدفعية — الذين كان عليهم الهبوط أولًا ومهاجمة جناح العدو الأيمن، حسب الخطة المرسومة، والإلقاء به باتجاه جبال بوهيميا — على أتم استعداد للعمل، يجهزون آخر ما هم في حاجة إليه. وكان دخان المهاجع، التي كانت النار تلتهم فيها كل ما كان يُلقى إليها به من أشياء غير ذات أهمية، يُمض العيون ويحرقها، والوقت مظلمًا باردًا، وكان الضباط يتناولون طعامهم على عجل ويشربون الشاي، والجنود يلتهمون قطع البسكويت، ويضربون الأرض بأقدامهم استجلابًا للدفء، أو يحيطون بالمواقد التي كانت تغذي نيرانَها أخشابُ جدران المهاجع والكراسي والموائد والعجلات والعلب، وكل ما كان يتعذر حمله ونقله. ولما وصل الأدلة النمساويون الذين كان عليهم إرشاد الوحدات الروسية في زحفها، كان وصولهم إيذانًا ببدء الحركة.

ما كان واحد من أولئك الضباط يمثُل أمام أحد قواد الكتائب أو السرايا، حتى كانت تلك الكتيبة تتحرك وَفْقَ الخطة المرسومة. فالجنود يغادرون مضاجعهم مسرعين، فيحشرون غلايينهم في سوق أحذيتهم العالية، ويلقون بأجربتهم في العربات، ثم يتنكبون بنادقهم، ويقفون في صفوف منظمة، والضباط يزرون ستراتهم، ويربطون نُطُقهم وخرجهم، ويطوفون بالصفوف ليصدروا أوامرهم، والخفراء والتابعون يَقطرون الخيول إلى العربات، ويكدسون الأمتعة عليها ويشدون السيور، والزعماء «كولونيل» والعقداء والضباط الملحقون يمتطون خيولهم، ويرسمون إشارات الصليب على صدورهم، ويعطون تعليماتهم الأخيرة للحوذيين والخفراء الذين سيمكثون في الخطوط الخلفية احتياطًا. ولم يلبث الصوت الرتيب — صوت ألوف الأقدام التي تقرع الأرض — حتى علا. كانت

الصفوف تسير دون أن تعرف الهدف أو أن تميز طبيعة الأرض التي كان الازدحام والدخان والضباب المتكاثف تتحد لإخفائها وحجب الهدف الذي تسعى تلك الصفوف إليه عن الأبصار.

إن الجندي في تسياره محاط ومُساق في صفوف وحدته كالبحَّار السجين في حدود زورقه. إنه مهما توغل وابتعد، ومهما ازداد الخطر المحدق به وتعاظم، فإن عينيه تقعان أبدًا على رؤسائه أنفسهم وزملائهم أنفسهم، وعلى الرقيب الأول إيفان ميتريش «إياه» وكلب السرية «نوارو»، تميمة الفرقة، وكذلك البحَّار الذي يجد نفسه أبدًا يواجه الصاريات ذاتها والحبال ذاتها والمنظر المألوف دون تبديل، إن الجنود لا يطلبون معرفة الامتداد الذي يجري فيه زورقهم إلا نادرًا، لكنهم في يوم المعركة يشعرون جميعهم في قرارة نفوسهم بصوت خطير؛ بهاتف لا يعرف إلا مصدره، يوقظ فضولهم السادر، وينبئهم بقرب حلول لحظة حاسمة رهيبة، وعندئذٍ يحاولون اختراق أفقهم المحدود، فيصفون الهمسات ويراقبون الحركات ويطرحون الأسئلة تلو الأسئلة، وهُم في مزيد الشوق إلى معرفة ما يدور حولهم.

أصبح الضباب شديد الكثافة، حتى إنَّ الجندي ما كان يستطيع رؤيةَ أبعد من عشر خطوات أمامه، رغم أن النهار كان قد انبلج. كانت الأدغال ونباتات العوسج تبدو للنظر أشبه بأشجار ضخمة شامخة، والأخاديد المتقاربة أودية سحيقة. وكان خطر الاحتكاك بالعدوِّ والاصطدام به كامنًا في كل مكان من على اليمين وعلى الشمال. وكانت الرؤية المحدودة تزيد في وقع ذلك الخطر، مع ذلك فقد راحت الوحدات تتسلل عبر ذلك الضباب الكثيف فترة طويلة، وسط تلك الأراضي المجهولة، فتنحدر إلى الأودية، أو تتسلق المرتفعات، وتسير بحذاء الأسوار والحظائر والبساتين، دون أن تلتقي بالفرنسيين. بينما كانت الوحدات الروسية تتبع ذلك الاتجاه آتية من كل حدب وصوب، تطالع العين صفوفها في كل لحظة. وكانت تلك البادرة وحدها تُطمئن الجندي الذي يرى أن عددًا كبيرًا من بني قومه وزملائه يتقدمون معه نحو هدف واحد؛ هدف مجهول منهم جميعًا.

كانوا يتحدثون بين الصفوف قائلين: هه، ها هم أولاء جنود روسيون من كورشك.[١]

---

[١] كورشك مدينة روسية تقع جنوبي الأورال، سكانها ١٢٠٠٠٠ نسمة. (المركز الإداري لمقاطعة تيريت.) (المترجم)

فيجيب مغضبًا: ذلك أنهم كُثر، إنهم يعدون الألوف المؤلفة يا أخي، لم أجد وسيلة للإحاطة بعددهم أمس عندما أُوقدت النيران. حقيقةً يمكن القول إن المرء لَيَخَال نفسه في موسكو!

كان رؤساء الوحدات متأخرين قليلًا عن وحداتهم، لقد كان هؤلاء السادة — كما نَوَّهْنَا في جلسة المؤتمر الحزبي — على أسوأ مزاج، وكانوا شديدي الاستياء لرؤيتهم العمليات في بدايتها؛ فكانوا ينفِّذون الأوامر بإخلاص، ولكن لا يبالون بمعنويات الجنود، وكان هؤلاء يسيرون بوداعة وابتهاج شأنهم كلما مضوا إلى المعركة، وخصوصًا في حالات الهجوم. غير أن معظم القطعات اضطرت إلى التوقف بعد مسير ساعة كاملة في ذلك الضباب الكثيف، واكتسحت الصفوفَ إحساساتٌ مؤلمة بالفوضى والبلبال. صحيح أنَّ الإنسان لَيعجز عن تبيان الأسلوب الذي تتصل فيه تلك المشاعر، وتنتقل من فرد إلى آخر، غير أن امتدادها بسرعة مدمرة هائلة، وانتشارها — كما تكتسح المياه أرضًا منخفضة — أمر مؤكد ثابت. ولو أن الجيش الروسي كان وحيدًا لا يعضده حلفاء، لكان ممكنًا أن يمر وقت طويل قبل أن يصبح ذلك الشعور مؤكَّدًا محققًا وعامًّا شاملًا، أو في تلك الأثناء، فقد راح كلٌّ من القادة والجنود، على السواء، يُلقون تبعة هذا الأمر على عاتق أولئك «الألمان البلهاء» وأولئك الملاعين «أكَلَة النقانق»، بمكر وتشفٍّ مألوفَين عند البشر.

– هه ماذا؟ ألا نتحرك؟ هل الطريق مقطوع؟ أم تُرانا وقعنا على فرنسيين؟

– كلَّا، لو كان كذلك لأطلقوا النار علينا، ونحن لم نسمع بعدُ شيئًا.

– وإذن، أَلِكَي يوقفونا في العراء جروا بنا ركضًا منذ الصباح؟ إن كل هذا نتيجة خطأ أولئك الألمان الملاعين، عصبة الحمقى!

– لو أن الأمر كان راجعًا إليَّ لأرغمتهم على السير في الطليعة، وها ها! لا شك أنهم في أحسن حال في المؤخرة، يلتهمون ما يشاءون، بينما أوقعونا هنا ومَعِدُنا فارغة خاوية!

وزمجر ضابط: اللعنة! ألن ننتهي من هذا؟ إنهم يزعمون أن الفرسان يقطعون الطريق.

فأجابه آخر: ماذا تعمل بمثل هؤلاء الألمان الأغبياء؟ إنهم لا يعرفون حتى بلادهم.

وهتف أحد الضباط المساعدين، وكان وصل لتوه: مِن أية فرقة أنت؟

– من الثامنة عشرة.

– إذن ماذا تفعل هنا؟ كان ينبغي أن تكون في الطليعة منذ زمن طويل، أما الآن فإنك تتعرض للانتظار حتى المساء.

فقال الضابط وهو يبتعد: هل الأمر على مثل هذا السخف! إنهم لا يعرفون أنفسُهم ماذا يعملون!

ووصل جنرال بعد ذلك، وصاح بصوت مرتفع بلغة أجنبية، فقال أحد الجنود، وهو يشير إلى الجنرال الذي كان يبتعد: تافا، لافا! ماذا يُغني؟ إننا لا نفقه شيئًا، كان يجب قتل هؤلاء السفلة رميًا بالرصاص!

ومِن كل مكان كان هناك مَن يزمجر: كان علينا أن نحتل مواقعنا قبل الساعة التاسعة، مع ذلك فإننا حتى الآن لم نقطع نصف الطريق! ألا ترى مبلغ العظمة في ترتيبهم وإعدادهم!

حلَّ الخور محل العزيمة التي بدأ الجنود بها يومهم، وتطور إلى لونٍ مِن الغضب القاصر عن بلوغ مداه؛ غضبٍ على سخف الأساليب المتبعة وخطيئة الألمان الفادحة.

وكان سبب ذلك البلبالِ مردُّه قرارٌ اتخذته القيادة العليا: لقد وجدت أن وسط الجيوش قد أصبح متباعدًا عن الجناح الأيمن، فأصدرت الأوامر بإيقاف زحف المشاة، وانتقال الفرسان النمساويين الذين كانوا حتى ذلك الوقت يحمون الجناح الأيسر، إلى الجناح الأيمن لحمايته؛ الأمر الذي جعل المشاة يتوقفون وقتًا طويلًا ريثما تمرُّ تلك الموجة الزاخرة من الفرسان الذين يعدون بالألوف.

وفي تلك الأثناء، كان الجنرال الروسي ثائرًا على الدليل النمساوي في مقدمة الجيوش. كان الروسي يرغي ويزبد مطالبًا بإيقاف الفرسان ليعود المشاة إلى سيرهم، بينما كان النمساوي يحتمي وراء أوامر القيادة العليا، وخلال ذلك، كانت القطعات متوقفة مغيظة تفقد شجاعتها وحماسها، وانقضَتْ ساعة كاملة قبل أن تعاود المشي والنزول إلى أعماق الوادي؛ حيث الضباب الذي كان قد انجاب فوق المرتفعات لا يزال كثيفًا مظللًا. أزَّت طلقتان ناريتان في مقدمة الجنود، وسط ذلك الضباب، ثم تبعتها طلقات أخرى بدأت غير متتابعة أول الأمر، وما لبثت أن زادت حدةً على ضفاف جولدباخ.

وكان الجنود الروسيون لا يتوقعون الالتحام مع العدو هنا؛ لذلك فقد أُخذوا على حين غِرة، دون أن يسمعوا عبارة تشجيع واحدة. والأدهى في الأمر أنهم ما كانوا يرون شيئًا أمامهم أو حولهم، اقتنعوا في تلك اللحظة أنهم وصلوا متأخرين، فراحوا يجيبون على نيران العدو بتراخٍ؛ فيتقدَّمون تارةً ثم يتوقفون، دون أن يتلقوا أي أمر من القوَّاد الكبار أو بواسطة ضباطهم الملحقين الذين كانوا يضلون في ذلك الضباب دون التعرف على الوحدات التي يريدون الاتصال بها. وهكذا بدأت المعركة بالنسبة للفيالق الأول والثاني

والثالث، التي انحدرت من هضبة براتزن التي لم يبقَ فوقها إلا الفيلق الرابع الذي يقوده كوتوزوف بالذات.

وفي الأعماق — حيث بدأت العمليات — كان الضباب كثيفًا، أما على المرتفعات فقد باتت الرؤية ميسورة، حتى إنَّ المرء كان يستطيع معرفة ما يدور أمامه، لم يكن أحد يعرف إذا كانت قوات العدو الرئيسية كامنة على بُعد ميلين أو ثلاثة أميال كما كان الروسيون يتوقعون، أم أنها تنتظرهم وراء هذا الخط من الضباب الكثيف، نعم، لم يكن أحد يستطيع تحديد ذلك.

بلغت الساعة التاسعة، وبحر الضباب ما زال متلاطمًا في الأعماق ممتدًّا على مسافات شاسعة، أما باتجاه قرية شلابايننتز؛ حيث كان نابليون يرقب على مرتفع هناك، محاطًا بماريشالاته، فقد كان منقشعًا تمامًا، لقد كانت السماء الزرقاء الصافية المشرقة تمتد فوقه، وقرص الشمس الأحمر يغمر بإشعاعاته الوردية الفاقعة سطح ذلك البحر الأبيض من الدجنة. لم يكن الجيش الفرنسي بكامله، ونابليون بالذات مع كامل أركان حربه على الطرف الآخر من النهير وفي تخوم مستنقعات سوكولينتز وشلابايننتز؛ حيث كان يزمع الجيش الروسي وحلفاؤه مهاجمتَه هناك، بعد أن يُعدوا له العدَّةَ اللازمة، بل كان هنا، على هذا الجانب من الضابط النهير، شديد القرب من القطعات الروسية، حتى إنَّ نابليون كان يستطيع بعينه المجردة أن يفرِّق بين الضابط والجندي، وبين الفارس والراجل.

كان الإمبراطور متقدمًا ماريشالاته قليلًا ممتطيًا صهوة جواد عربي أشهب، مرتديًا المعطف الأزرق الداكن الذي خاض به حملة إيطاليا. كان يراقب بصمت المرتفعات التي كانت تبدو كأنها ناتئة من خضم من الضباب، والتي كانت القطعات الروسية تتحرك فوقها على البُعد. وكان يصيخ السمع إلى لعلعة الرصاص التي انفجرت فجأةً في الوادي. لم تتحرك عضلة واحدة من وجهه الذي كان لا يزال هزيلًا حينذاك، بل ظلت عيناه اللامعتان تحدِّقان في نقطة واحدة، لقد صدق حدسه، ووقع ما كان ينتظره، كان جزء من القطعات الروسية قد انحدر إلى الوادي باتجاه المستنقعات، بينما راح الجزء الآخر يتهيأ لإخلاء مرتفع براتزن، الذي كان يريد مهاجمته والاستيلاء عليه. لقد كان يتطلع إلى ذلك المرتفع تطلُّعَه إلى مفتاح العملية الحقة، كان يرى الوحدات الروسية تسير خلال الضباب شاكية الحراب، فتختفي إحداها في أثر الأخرى في محيط الدجنة الكثيف الرابض في أعماق المنحدر الذي كان يفصل بين المرتفعين المجاورين لقرية براتزن، لقد كانت المعلومات التي تلقَّاها مساء أمس، والضجة التي أطلعه خفراؤه في الخطوط الأولى عليها،

وقعقعة العجلات التي سمعها جنوده خلال الليل والحركات الكثيرة المتداخلة التي أمكن تمييزها في صفوف الروسيين، كل ذلك كان يؤكد له بأن الحلفاء يعتقدون أنه بعيد عنهم، ويثبت أن الفيلق الذي كان يتحرك قرب براتزن إنْ هو إلَّا وسط الجيش الروسي، فتأكد من أنَّ هذا الوسط كان شديد الضعف حتى لَيعجز عن مهاجمته بنجاح، مع ذلك فقد ظل لا يوعز بالبدء بالهجوم.

كان ذلك اليوم بالنسبة إليه يومًا جليلًا مجيدًا؛ لقد كان عيد تنصيبه الأول إمبراطورًا لفرنسا، لقد اختلس سويعات نوم قليلة كَفَتْهُ، فنهض بعدها نشيطًا خفيف الحركة. وفي مثل ذلك الاستعداد الفكري المشرق، الذي بدا له فيه كل شيء ممكنًا وكل شيء ناجحًا، اعتلى بونابرت صهوة جواده وقصد إلى ساحة القتال. أمَّا الآن، فقد كان جامدًا شاخص العينين إلى تلك المرتفعات التي كانت ظاهرة وراء الضباب وفوقه، ووجْهه الجامد يشع بالسعادة والاطمئنان؛ سعادة العشاق الشباب عندما يجدون تشجيعًا من عشيقاتهم. وكان ماريشالاته منتظمين صفًّا وراءه لا يجرءون على تعكير سكونه. كان ينظر إلى هضبة براتزن تارةً، وتارةً أخرى إلى الشمس التي كانت تخترق الضباب.

ولما انقشع الضباب عن الشمس تمامًا، وأنارت هذه البرية بضيائها الوضاء، خلع نابليون قفازه عن يده البيضاء الرقيقة، وكأنه كان ينتظر تلك اللحظة بالذات، لإصدار الأمر إلى ماريشالاته ببدء الهجوم. وجرى هؤلاء وضباطهم المساعدون في أنحاء مختلفة لإدارة العمليات، فلم تمضِ دقائق معدودة، حتى كانت قوى الجيش الفرنسي الرئيسية تتجه بسرعة نحو هضبة براتزن التي كانت الوحدات الروسية تخليها باستمرار لتنحدر إلى أعماق الوادي ونحو اليسار.

الفصل الخامس عشر

الإمبراطوران

امتطى كوتوزوف جواده في الساعة الثامنة واتجه نحو براتزن، ولما بلغ الفيلق الرابع — الذي يقوده ميلورادوفيتش الذي جاء يحل محل فيلقَي برزيبيسزوسكي ولانجيرون اللذين كانا في سيرهما المقررة — تبادل التحية النظامية مع جنود اللواء، وأعطى الأمر بالمسير دلالة على أنْ سيقود هذا الفيلق بنفسه، ولما وصل قرية براتزن توقف. كان الأمير آندريه في عداد الضباط المساعدين، وكان فريسة ذلك النوع من الانفعال المكبوت الذي يستحوذ على كل من يرى أخيرًا أنَّ الفرصة التي كان ينتظرها بفارغ صبر باتت على وشك السنوح، كان قانعًا بأن يوم «طولونه» قد أزف أو يوم «جسر آركول»،[1] ما كان يعرف كيف سيقع ذلك الحدث الذي سيحقق حلمه، لكنه ما كان يشك قط في وقوعه، نسي خطته الاستراتيجية الخاصة التي أصبح تحقيقها ضربًا من المستحيل، وتبنى خطة فيروذر، وهو الذي يعرف المواقع أكثر من أي آخر من مواطنيه الروسيين، كان في تلك اللحظة يفكر في الصُّدَف التي يمكن أن تَعْرض، وفي مختلف الخطط التي ستساعده على التحقق من وجهة نظره وسرعة تقديره ودقته.

كان الرصاص يلعلع بين فرق غير منظورة في أعماق الوادي إلى اليسار بين ستر الضباب الكثيفة، ففكر بولكونسكي في سره: «إن المعركة كلها سوف تتركز هناك، فليظهر أي عائق ولأُرسل على رأس وحدة أو جيش، وعندئذٍ سوف أندفع على رأس الجيش والعلَم

[1] Areole ضاحية إيطالية قائمة على شاطئ نهر آلبون Alpone الذي يصب في نهر آديج، سكانها ٣٦٦٠ نسمة، كان نابليون قد هزم النمساويين هناك عندما استولى على جسر آركول، وكان ذلك يوم ١٧ / ١١ / ١٧٩٦، معرِّضًا نفسه للخطر، ومتقدمًا قناصته حاملًا العلَم. (المترجم)

في يدي، وسأحطم كل ما يظهر أو يقوم في سبيلي.» لبهجته رؤية الأعلام ترفرف في مقدمة كل قطعة سائرة، غمغم وعينه تحصي الأعلام التي راحت تترى: «لعلني سأرسل حاملًا هذا العلَم، وسيتاح لي أن أقود الوحدات تحت لوائه.»

خلَّف الضباب الليلي على المرتفعات صقيعًا راح يتحول إلى ندًى تحت وطأة الحرارة، أما في الوادي، فقد كان البحر الأبيض الكثيف على حاله يعرقل السير، ويعترض نطاق الرؤية؛ مما جعل القوات الروسية لا تعرف العدد الذي يهاجمها وموقع المهاجمين على الضبط، وفي أعلى الهضبة، كانت السماء زرقاء داكنة، أما إلى اليمين فقد كان قرص الشمس الضخم واضحًا مرئيًا، وإلى الأمام — على الشاطئ الآخر من خضم الضباب — كانت تقوم هضاب محرشة تُشكل مشارف مناسبة تصلح لاختباء العدو فيها، وقد أيَّد هذا الظن الأشباح التي كانت تُرى بشكل غامض نظرًا إلى بُعد المسافة. أمَّا إلى اليمين، فقد كانت قعقعة العجلات وصدى الخطى الكثيرة المتزاحمة ووقْع حوافر الجياد وبعض الانعكاسات الضوئية على الحراب؛ تدل على أنَّ الحرس يشق عباب الضباب التي كانت سرايا كاملة من الفرسان تسير فيه على اليسار وراء القرية. أما في المقدمة وفي المؤخرة فقد كانت التحركات مقتصرة على المشاة، كان كوتوزوف يراقب زحف القطعات وهو في مكانه عند مخرج القرية، كان يبدو متعبًا منهوكًا سيء المزاج مغضبًا، ولما رأى أن المشاة، التي اعترضها — ولا شك — معترضٌ، توقف زحفهم دون أن يصدر إليهم الأمر بالتوقف، راح كوتوزوف يناقش الحساب، الجنرال الذي كان يقود فرق المشاة، هتف به: ماذا تنتظر بالله لترتب صفوف لوائك، وتجعله يدور حول القرية؟! هيا يا سيدي العزيز، أقصد يا صاحب السعادة، هل يتمدَّد الجنود على هذا الشكل على طول طريق عندما يسيرون نحو العدو؟!

فأجابه الجنرال: لتعذرني سعادتكم العليَّة، لقد كنت أفكر في تنظيم الصفوف عند الجانب الآخر للقرية.

هتف كوتوزوف وهو يضحك ضحكة خشنة: حقًّا؟! إنك تريد أن تكشف جبهتك على مرأًى من العدو؟! لعمري إن هذا جميل!

– ما زال العدو بعيدًا يا صاحب السعادة العليَّة، إن الخطة ...

قال كوتوزوف مستنكرًا بلهجة غاضبة: الخطة! من الذي قال لك هذا؟ تفضَّل بالتقيُّد بما تؤمر به.

– كما تأمرون.

وهمس نيسفيتسكي في أذن الأمير آندريه قائلًا: إن العجوز يا عزيزي متعكر المزاج مُخيفُه.

وفي تلك الأثناء، اقترب ضابط نمساوي في حُلة بيضاء، والريشة الخضراء مغروسة في قبعته، ليقول لكوتوزوف على لسان الإمبراطور إن جلالته يسأل عمَّا إذا كان الفيلق الرابع قد دخل في الحركة.

فالتفتَ كوتوزوف دون أن يجيب، ووقع بصره صدفة على الأمير آندريه، فهدأت ثائرته وخفَّت حدته، وكأنه أدرك أن ضابطه المساعد لم يكن على علاقة بكل تلك الحماقات التي تُرتكب. قال لبولكونسكي بلهجة هادئة وهو يُغفل عامدًا الضابط النمساوي: اذهب يا عزيزي، وانظر إذا كان الفيلق الثالث قد اجتاز القرية أم لا، قُل لضباطه أن يتوقفوا بانتظار أوامري.

ولم يكد الأمير آندريه يتحرك نحو الوجهة التي أوفده إليها حتى عاد فاستوقفه ليضيف مزمجرًا بين أسنانه مغفلًا النمساوي دائمًا: واسألهم إذا كان الرماة قد احتلُّوا مراكزهم، استعلم عما يفعلون، عما يفعلون!

هرع الأمير آندريه لأداء مهمته، ولما تخطى الألوية السائرة، استوقف الفيلق الثالث، ولاحظ أن أيَّ خط من خطوط القناصة لم يقم بعدُ على طول جبهته ولا لحماية الفيالق السائرة. أظهر الكولونيل الذي يقود الفيلق الثالث بليغَ دهشته للأمر الذي يحمله الأمير، كان يعتقد جازمًا أن قطعات أخرى كان ينبغي أن تتقدمه، وأن مرحلتين أو ثلاث مراحل على الأقل تفصله عن العدو، وكان محقًّا في وجهة نظره؛ لأنه لم يكن يرى أمامه إلا امتدادًا شاسعًا للسهل المقفر الذي يسبح في الضباب. وبعد أن أوعز إليه باسم الجنرال القائد الأعلى بتلافي الخطأ الواقع، عاد الأمير آندريه إلى مركزه. كان كوتوزوف في مكانه ذاك لم يبرحه، وقد استرخى جسمه الضخم على سرج الجواد، وكان يتثاءب مغمض العينين، أما القطعات فقد كانت هناك متوقفة وأسلحتها عند أقدامها.

قال كوتوزوف وهو يلتفت نحو الجنرال، الذي كانت ساعته مفتوحة في يده يتطلع إليها وكأنه يلمِّح إلى أن لحظة الزحف قد أزفت: حسن، حسن، لدينا الوقت الكافي يا صاحب السعادة، لدينا الوقت الكافي.

وعاد يتثاءب من جديد، كانت وحدات الجناح الأيسر كلها قد انحدرت إلى الوادي حسب الخطة المرسومة.

وفي تلك اللحظة، تجاوبتْ وراء كوتوزوف هتافاتُ تحيةٍ تُردِّدُها أصواتٌ بعيدة، أخذت تقترب شيئًا فشيئًا، فاستدل من ذلك على أن الذي تُوجَّه إليه تلك التحيات يتحرك بسرعة نحوه مستعرضًا الفيالق هدبًا، فلما راح جنود كوتوزوف على رأسهم يرددون الهتاف، تراجع هذا قليلًا إلى الوراء، وألقى نظرة مستفسرة. شاهد كوكبة كاملة من الفرسان تتَّجه نحوه مسرعة قادمة من براتزن، ورأى أن ألْبِسَةَ أولئك الفرسان غير موحدة، وكان فارسان يهدبان في المقدمة؛ أحدهما يرتدي حُلَّة سوداء، وفي قبعته ريشةٌ بيضاء، يمتطي جوادًا محجَّلًا مستولدًا من أصل إنجليزي، والآخر في زيٍّ أبيض معتليًا صهوة جواد أدهم، كان الإمبراطوران قادمَين مع أفراد حاشيتهما، أسبغ كوتوزوف على وجهه قسمات الجندي العجوز الذي يخضع للقوانين والأنظمة العسكرية، وصرخ يأمر الجنود الواقفين: استـ...عد!

تبدلتْ وضعيته، وتبدلت أساليبه، فغدتْ في طرفة عين أساليب المرءوس الذي لا يفكر ولكن يطيع. وباحترام واضح متزايد، اقترب من الإمبراطور يحيِّيه.

بدتْ تلك الحفاوة البالغة على غير ما يتمنى الإمبراطور، لكن ذلك الشعور المقبض لم يكن إلا سحابة عابرة ظللت وجهه فترة وجيزة ثم تبددت، أشبه ببقية من ضباب خفيف في سماء شديدة الإشراق. كان الإمبراطور يبدو في ذلك الصباح أكثر نحولًا من مألوف عادته، ولعل لانحراف صحته في الأيام الأخيرة دخْلًا كبيرًا في هذا الشأن. لقد رآه بولكونسكي يوم استعراض «أولموتز»، وكان على حال أحسن من حاله اليوم، مع ذلك فقدْ كان ذلك المزيج من الفتنة الطاغية والجلال والعظمة متركزًا في عينيه الجميلتين الشهلاوين، وذلك الأسلوب المعبِّر مرتسمًا على شفتيه الرقيقتين، وكان شبابه يطغى على كل هذه الصفات؛ ذلك الشباب البريء النبيل. صحيح أنه كان أقل هيبة مما كان عليه في أولموتز؛ فقد كان أكثر ابتهاجًا وحيوية.

كان وجهه متضرجًا بتأثير تلك الرحلة القصيرة على الجياد، فاستردَّ أنفاسه، والتفت يتفحص وجوه بِطانته التي كانت تضم كل شابٍّ متوقِّد الوجه مضرجِه مثله، وكان هؤلاء يتحدثون فيما بينهم بَاسمين، وكان بينهم كزارتوريسكي ونوفوسيلتسوف، والأمير فولكونسكي وستروجانوف، وعدد آخر؛ وكل منهم طَلْق المحيَّا مرتدٍ ثيابًا فاخرة، تفصح عن شرف محتده، وكلهم مبتهجون، على صهوات جياد مطهمة، مجهزة بسخاء وإسراف، ونظيفة كل النظافة. توقف أفراد الحاشية على مبعدة من الإمبراطور الذي لبث وحده إلى جانب زميله النمساوي الإمبراطور فرانسوا، وكان هذا شابًّا ذا وجه طويل مشرَّب

بالحمرة، منتصبًا فوق صهوة جواده الأدهم الأصيل، يسرِّح الطرف ببطء حوله وعيناه تشعان بنظرات قلقة. نادى أحد مساعديه — وكان مثله في ثياب بيضاء — وطرح عليه سؤالًا، فقال الأمير آندريه في سره: «لا شك أنه يسأله عن ساعة مغادرتهم القصر»، ولم يستطع كتمان ابتسامة طافت على شفتيه حينما تذكَّر مقابلته الشخصية معه. كان أفراد حاشية الإمبراطورَين منتخبِين من أشهُرِ الفرسانَ الروسيين والنمساويين المنخرطين في أسلحة الجيش، وكان بعض فرسان الركاب ممسكين بأعنَّة خيول البدل، وهي من صافنات الجياد التي تحفل بمثلها إصطبلات الإمبراطور.

كانت تلك الكوكبة المتألفة من الفرسان الأنيقين، أشبه بالنفحة المنعشة التي تهبُّ على الحقول وتدخل إلى غرفة كئيبة عبر النافذة المفتوحة. لقد كان لها أثر عميق في نفس أعضاء حزب كوتوزوف المتطيرين، الذين شعروا بنفحة من الشباب والحيوية والثقة في النجاح تتغلل في دمائهم.

سأل الإمبراطور ألكسندر والجنراليسيم كوتوزوف بصوت حيٍّ، وهو يلقي نظرة امتثال على الإمبراطور فرانسوا: هه يا ميخائيل لاريونوفيتش، ألا تشرع؟

فأجاب كوتوزوف وهو يحيِّيه تحية عميقة: إنني أنتظر يا صاحب الجلالة.

قطَّب ألكسندر حاجبه، وانحنى فوق الجواد مدللًا على أنه لم يسمع الجواب، فكرَّر كوتوزوف الذي كانت شفته السفلى ترتعد بشكل غير مألوف، لم يغب عن دقة ملاحظة الأمير آندريه: إنني أنتظر يا صاحب الجلالة، إن تركيز القطعات لم ينتهِ بعدُ يا صاحب الجلالة.

فهم الإمبراطور، لكن الجواب بدا على غير ما كان ينتظر، فهز كتفيه المقوستين، وألقى نظرةً على نوفوسيلتسوف، وكأنه يشكو إليه كوتوزوف. أردف: ولكن يا ميخائيل لاريونوفيتش، لسنا في ساحة المناورات في تساريتسينو؛ حيث ينتظر المرء هناك إن لم يتم تجهيز كل القطعات لبدء العرض.

ومن جديد عاد ألكسندر يختلس النظر إلى الإمبراطور فرانسوا، وكأنه يدعوه للانتباه على الأقل إذا كان لا يرغب في المشاركة في الحديث. غير أن الإمبراطور فرانسوا كان يجيل أبصاره بشرود دون أن يسمع شيئًا.

قال كوتوزوف بصوت قويٍّ رزين يبلغ مسامع الإمبراطور: إنني إذا كنت لا أبدأ يا صاحب الجلالة، فذلك لأنني في الحقيقة لست في ساحة المناورات، ولا في عرض عسكري.

ومن جديد عادت الرعدة الخفيفة تقلِّص تقاطيع وجهه.

تبادَل ضباط البطانة نظراتٍ تنبئ باللوم والانزعاج. كانت وجوههم تنطق قائلة: «مهما كان عجوزًا مسنًّا، فإنه ما كان يجوز له أن يتحدث بهذه اللهجة، كلَّا، ما كان يجوز له ذلك.»

راح الإمبراطور يتفحص وجه كوتوزوف بدقة وعناية، منتظرًا منه المزيد من التفسير، لكن هذا كان منحنيًا بكل احترام، يبدو وكأنه ينتظر بدوره، وَرَان الصمت حوالي دقيقة.

أردف كوتوزوف بعد أن استعاد طابع الجندي القديم الذي لا يعرف غير الطاعة دون مناقشة ولا سؤال: على كل حال، إذا كنتم جلالتكم تأمرون …

وهمز جواده ليصدر الأمر بالهجوم إلى سيلورادوفيتش.

ومن جديد تحركت الكتل البشرية؛ تحرك لواءان من فيلق نوفوجورود لِيَمُرَّ أمام الإمبراطور، وما لبث أن تبعه لواء من فيلق آبشيرون. وبينما كان هذا اللواء يسير تحت أنظار الإمبراطور وحاشيته، انقضَّ ميلورادوفيتش على صهوة جواده، بوجهه القرمزي، دون معطف، تُزيِّن صدرَه الأوسمةُ الكثيرة، والريشة الفاخرة الضخمة تَنبت من قبعته، وأوقفه فجأةً أمام الإمبراطور وهو ينحني محيِّيًا بحركة رشيقة عريضة واسعة.

قال له ألكسندر: ليحفظْك الله يا جنرال!

فأجاب هذا بمرح واتزان لم يمنع أفراد الحاشية الابتسام ضاحكين من ركاكة لغته الفرنسية: لعمري يا صاحب الجلالة، سنعمل كل ما سيكون في وسعنا يا صاحب الجلالة.

لوى ميلورادوفيتش عنان جواده بحركة فجائية، وتوقف وراء الإمبراطور على بُعد عدة خطوات. أما لواء الجنود، فقد مر أمام العاهل يستخف أفراده الفرح لوجوده، وهم يخطرون بخطوات عسكرية جبارة تدعو للإعجاب.

نسي ميلورادوفيتش وجود الإمبراطور وهتف بجنوده: هيا يا شجعاني، أبرزوا مقدرتكم من جديد، إنها ليست أول مرة!

كان صوت الرصاص المتطاير وقرب وقوع المعركة، بالإضافة إلى جنوده البواسل الذين خاض معهم معارك سوفوروف من قبلُ، قد أثارت حميَّته واندفاعه حتى غفل عن كل ما حوله.

وهتف الجنود يرددون: سنعمل ما في وسعنا.

شبَّ حصان الإمبراطور أثر ذلك الهتاف المدوي غير المنتظر الذي انبعث من مئات الحناجر. كان هذا الحصان الذي درج الإمبراطورُ على امتطائه في الاستعراضات في روسيا، يحمل سيده الآن إلى ساحة المعركة، ويحتمل لكز مهماز قدمه اليسرى، فينصِب أذنيه عند سماع أصوات العيارات النارية كما كان يفعل في ساحة مارس — ساحة العرض — دون

أن يدري شيئًا عما تعنيه تلك الطلقات وجواره مع حصان الإمبراطور فرانسوا الأدهم. كذلك فقد كان كل ما كان فارسه يفكر فيه ذلك اليومَ أو يقوله أو يشعر به، غيرَ ذي أهمية بالنسبة إليه.

التفتَ ألكسندر نحو أحد خلصائه، وأشار إلى لواء آبشيرون الباسل، وأسرَّ له شيئًا وهو يبتسم.

الفصل السادس عشر

تولون بولكونسكي

راح كوتوزوف وضباطه المساعدون يتبعون الفيلق مشيًا على أقدامهم، يتقدمهم حاملو الغدَّارات، فلما قطع خمسمائة متر، توقف قرب منزل منعزل مهجور، يبدو أنه كان خانًا قبل أن يهجره أصحابه. وكان ذلك المنزل قائمًا عند ملتقى طريقين ينحدر كلاهما من الهضبة، وتغطيهما الفرق الزاحفة في تلك الأثناء.

كان الضباب قد أخذ ينقشع، وأصبح بالإمكان رؤية قطعات عدوة على التل المقابل في غير وضوح، على بُعد نصف مرحلة. وكانت طلقات البنادق تزداد وضوحًا في الجهة اليسرى المطروقة من قِبل الجنود السائرين إلى الهدف المقرر. تبادل كوتوزوف بضع كلمات مع الجنرال النمساوي، وكان الأمير آندريه متخلفًا قليلًا يرقبهما بانتباه. طلب من أحد زملائه الضباط أن يعيرَه منظاره، هتف: انظروا، انظروا!

وأشار بيده، ليس إلى الأبعاد البعيدة، بل إلى أسفل الهضبة التي كانوا عليها، وأضاف: ها هم الفرنسيون!

تنازع المنظارَ جنرالان وعدد من الضباط المساعدين، وكلهم تبدلت أسارير وجوههم، وعلا الخوفُ قسماتِهم. لقد كان العدو الذي اعتقدوا أنه بعيد عنهم منتصبًا أمامهم بغتة، كانت الأصوات المتداخلة تقول: أهو العدو؟ ... مستحيل! ... لكن بلى، انظر، إنه هو ... ما معنى هذا؟ ...

استطاع الأمير آندريه أن يرى بعينه المجردة فيلقًا كبيرًا من الفرنسيين، يتقدَّم لِلِقاء لواء آبشيرون على أقل من خمسمائة خطوة من المكان الذي وقف فيه كوتوزوف.

قال الأمير آندريه في سرِّه: «ها إن الدقيقة الحاسمة قد أزفت!» همز حصانه، واقترب من كوتوزوف، هتف: يا صاحب السعادة العلية، ينبغي إيقاف لواء آبشيرون.

لكن المشهد كله في تلك اللحظة وسط سحابة كبيرة من دخان البارود، ولعلع الرصاص قريبًا جدًّا، وفجأةً ارتفع صوت على بُعد خطوتين من الأمير آندريه يهتف بذعر: لقد قضي عليها أيها الفتيان!

كان ذلك الصوت أشبه بالأمر، حتى إنَّ كلَّ مَن سمعه لم يلبثْ حتى لاذ بالفرار.

وقع ازدحام متزايد عكسيٌّ، متجه إلى حيث استعرض الإمبراطور الجنود الذين مرُّوا أمامه منذ خمس دقائق. وكان يستحيل إيقاف ذلك السيل العَرِم، بل ويستحيل كذلك أن يتفادى المرءُ الانقيادَ إليه. أما بولكونسكي فكان يجهد على عدم البقاء في المؤخرة، ويجيل حوله نظرات حيرى دون أن يفقه ما يجري. أما نيسفيتسكي، فقد كان غاضبًا ملتهب الوجه خارجًا عن طوره، يصيح بكوتوزوف قائلًا إنه إذا لم يتراجع فإنه سيسقط في يد العدو. غير أن كوتوزوف لم يبارح موقفه ولم يُجِب، بل أخرج منديله من جيبه ليمسح الدماء التي كانت تلطخ وجهه، فشق الأمير آندريه لنفسه طريقًا محاولًا الوصول إليه.

سأله وهو لا يكاد يسيطر على ارتعاد ذقنه من العصبية والانفعال: هل أنت جريح؟

فأجاب كوتوزوف: إن الجرح ليس في وجهي بل هنا!

وأشار بيده إلى الجنود الفارين، بينما كانت يده الأخرى تمسح الدم بالمنديل، هتف: أوقفوهم!

لكنه اقتنع على الفور باستحالة تنفيذ ذلك الأمر وبطلانه، فهمز جواده محاولًا بلوغ الجانب الأيمن، غير أن موجةً أخرى من الهاربين اكتسحته وأجبرته على العودة إلى الوراء.

كان الجنود يفرون جماعات جماعات، بلغ من كثافتها وشدة اندفاعها أن كل من يقع في سبيلها كان مصيره السحق إذا حاول المقاومة. كان أحدهم يصيح: «انجُ بنفسك، أسرِع، تحركْ، ماذا تنتظر؟!» وآخر يطلق النار في الفضاء وهو مولٍّ الأدبارَ، وثالث يضرب حصان كوتوزوف. فلما استطاع كوتوزوف ومن بقي معه من معاونيه — وكان عددهم قد تقلص إلى أقل من النصف — بمعجزة خارقة أن يتخلصوا من ذلك السيل الجارف، راحوا يستهدون بقصف المدافع القريب الذي كان يدوِّي في الجانب الأيسر، وكان بولكونسكي يسعى بكل ما أوتي من قوة أن يلحق بكوتوزوف. لاحَظَ وهو في سبيل التخلص من الازدحام مدفعية روسية تقصف حشدًا فرنسيًّا لا يني يهاجم مواقعها. كان عش المدفعية مقامًا في منتصف المسافة بين السفح والقمة، وكان الدخان يعلو في السماء كثيفًا. وفي الأعلى، شاهد فيلقًا من المشاة متوقفًا لا يحاول مدَّ يد العون إلى المدفعية، ولا يلتحق بالهاربين إلى المؤخرة. دفع الجنرال الذي كان يقود ذلك الفيلق حصانه نحو

كوتوزوف الذي كان مساعدوه لا يتجاوز عددهم الأربعة، وكلهم ممتقعو الوجوه ينظرون إلى بعضهم بصمتٍ.

هتف كوتوزوف بإعياء وهو في أقصى درجات الإعياء: أوقِفْ هؤلاء السفلة!

وأشار بيده إلى الهاربين، غير أن بَرَدًا من الرصاص تساقط في تلك اللحظة على الفيلق الجامد، وعلى كوتوزوف وحاشيته، وكأن الغاية منه الاستهزاء بالأمر الصادر. كان الفرنسيون الذين يهاجمون عش المدفعية، قد شاهدوا ذلك الفيلق وهم في هجومهم، فجعلوا منه هدفًا لنيران بنادقهم. قبض الجنرال على فخذه، وتساقط عدد من الجنود، أما حامل العلَم، فقد أفلت العلَم من يديه، فتأرجح هذا وهوى فوق بنادق الجنود الذين حوله، وانطلقت رصاصات أخرى دون أن يُصدر أيَّ أمر إلى الفيلق المنتظر.

زمجر كوتوزوف بلهجة يأس: آوه، آوه!

ثم أدار بصره حوله، وهمس بصوت مرتعد متهدِّج صادر عن قناعته بعجزه وهو في شيخوخته: بولكونسكي، بولكونسكي، ما معنى هذا؟!

وأشار بإصبعه إلى الفيلق المبعثر والعدو المتقدم الزاحف.

لم يكد كوتوزوف ينهي جملته حتى كان بولكونسكي يقفز على ظهر جواده، وقد جرض بدموع الخجل والغضب، فاندفع نحو العلَم يحمله، وصاح ملء رئتيه: إلى الأمام أيها الفتيان!

فكَّرَ وهو يمسك بصارية العلَم: «ها هي ذي اللحظة الحاسمة!» كان يسمع صفير الرصاص وأزيزه حول رأسه بغبطة حقيقية وابتهاج.

هتف من جديد: هورَّا!

وعلى الرغم من ثقل العلَم الخفاق الذي كان يُرْبكه، فقد كان متأكدًا من أن الفيلق كله سيتبعه.

والواقع أنه لم يكد يقطع بضع خطوات منفردًا حتى لحق به جنديٌّ، ثم تبعه آخر، وبعدئذٍ انحدر الفيلق كله وكأنه سيل يصخب منحدرًا نحو الأعماق. أخذ الجنود يُلقون صرخات الحرب ويعدون. ولم يلبثوا أن تجاوزوه، ولما كان العلَم يترنح بين يديه، فقد اقترب أحد صف الضباط ليأخذه منه، غير أنه قُتل على الفور، فعاد الأمير يجر العلَم من صاريته، ويتابع الزحف مع الفيلق. كان يرى المدفعيين الروسيين أمامه وقد ترك بعضهم مدافعه، بينما استمر الآخرون يطلقونها، ورأى الفرنسيين يستولون على المدافع، فيحوِّلون اتجاهها ليطلقوها على رجاله، لم يبقَ بينه وبين عش المدفعية إلا عشرون خطوة، والرصاص يتطاير حوله رأسه دون هوادة، بينما الجنود يزمجرون حوله ويسقطون،

لكنه لم يكن مباليًا بكل هذا، كان كل همه منصرفًا إلى المدفعية. تبيَّن مدفعيًّا أحمر الوجه وعلى رأسه قلنسوة مائلة إلى الجانب، يتنازع ملكية جهاز تفريغ المدفع مع جنديٍّ مِن الأعداء، كانا كلاهما بادِيًا الغضب والزيغ، لا يدركان شيئًا مما يعملان.

تساءل الأمير آندريه: «ماذا يعملان؟ لماذا لا يفر «الأحمر» طالما أنه لم يعُد يملك سلاحًا؟ ولماذا لا يخرق الفرنسي صدره بحربته؟ لو أن الفرنسي فكَّر في حربته لَمَا وجد الآخر متسعًا للفرار.»

وفي تلك اللحظة، أقبل فرنسي آخر وحربته على فوهة بندقيته، واقترب من المتخاصمين، كان مصير «الأحمر» الذي لم يكن حتى تلك اللحظة مدركًا ما يفعل، يحاول بكل طاقته تخليص الجهاز من يَد خصمه، غير أنَّ الأمير آندريه لم يرَ كيف انتهى النزاع، أحسَّ بأنه تلقَّى على رأسه ضربة من عصًا أهوى بها بعض من حوله بكل ما في طاقة البشر من قوة. لم يكن الألم شديدًا، لكن ما أثاره وأزعجه كان انصرافه بسبب تلك الضربة عن متابعة المشهد الذي كان يرقبه.

قال يحدِّث نفسه: «ما هذا؟ أأسقط؟ أتخونني ساقاي؟» وهو على ظهره من فوق الحصان. عاد ففتَّح عينيه آملًا أن يتابع النظر إلى العراك العنيف الدائر بين الفرنسيين والمدفعيين، متعطشًا لمعرفة ما إذا كان «الأحمر» قد قُتل واستُولي على «البطارية» أم لا، لكنه لم يعُد يرى شيئًا، لم يكن فوق رأسه إلَّا السماء، سماء غائمة، ولكن شديدة الارتفاع والتسامي، تخفق على أديمها غيوم قاتمة، فكَّر في نفسه: «يا للهدوء! يا للجلال! يا للسلام! يا له من فرق شاسع بين جَرْيِنا المجنون وسط الهتافات والمعركة، والغضبة السخيفة التي كانت مستولية على رجُلين يتنازعان عصَا تنظيف المدفع، وبين مشيةِ هذه الغيوم البطيئة على أديم هذه السماء العالية اللامتناهية! كيف لم ألاحظ هذا حتى اليوم؟ كم أنا سعيد لأنني اكتشفت ذلك أخيرًا! نعم، إن كل شيء غرور وعدم، كان كذبًا ونفاقًا باستثناء هذه السماء التي لا تحدُّها حدود. لا يوجد شيء مطلقًا، أيُّ شيء، باستثناء هذا ... ولعل هذا المشهد أيضًا ومضة خداعة، لعله لا يوجد شيء إطلاقًا، باستثناء السكون والراحة، والحمد لله العظيم!»

الفصل السابع عشر

مهمة روستوف

بلغت الساعة التاسعة والجناح الأيمن لم يدخل بعدُ في القتال رغم إلحاح دولجوروكوف ومطالباته. كان باجراسيون لا يشاطره الرأي، لكنه كان يريد نزع المسئولية عن كاهله؛ لذلك فقد عرض عليه أن يرسل مَن يأتي بالأوامر من لَدُن القائد الأعلى، وكانت تفصل بين الجناحين مسافةٌ لا تقل عن ثلاثة أميال، فإذا لم يُقتل الرسول — وهو احتمال ممكن — وإذا استطاع بلوغَ مكان الجنرال القائد الأعلى — وهو أمر شديد الصعوبة — فإنه لا يمكن أن يعود إلى حيث كان الجناح الأيمن إلا حوالي المساء، ولم يكن باجراسيون يجهل ذلك.

راح يجيل في ضباط حاشيته نظرات كئيبة نعسة، فاجتذب انتباهه وجه روستوف الصبياني المشع بالانفعال والأمل؛ فانتقاه ليقوم بالمهمة المطلوبة.

سأل روستوف ويده لا زالت على حافة خوذته بالسلام: وإذا لاقيتُ صاحب الجلالة قبل التقائي بالجنرال القائد الأعلى؟

فأجابه دولجوروكوف دون أن يتيح لباجراسيون مجالًا للرد: يمكنك أخذ الأوامر من جلالته.

كان روستوف قد نال قسطه من الراحة، حينما انتهت نوبته حوالي منتصف ليلة أمس، فكان يشعر بالراحة والدَّعَة والاطمئنان، ممتلئًا حماسة مؤمنًا في حسن مصيره، وباختصارٍ لقد كان في عقليةٍ تجعل كل شيء هينًا وميسورًا في نظره.

وكانت كل رغباته تتحقق ذلك الصباح، فهناك معركة كبيرة على وشك النشوب، وسوف يساهم في خوضها، وها هو ذا تابعًا لواحد من أكثر الجنرالات بسالة وشجاعة، وأخيرًا ها إنه يكلَّف بمهمة إلى كوتوزوف، لعله يقابِل فيها الإمبراطور كذلك. كانت الصبحية جميلة وحصانه ممتاز، وروحه مبتهجة نشيطة، فما إن تلقَّى الأمر، حتى اندفع

بحصانه مبتعدًا، وبعد أن حاذى في جريه جيش باجراسيون الجامد، بلغ المكان الذي كان فرسان أوفاروف يرابطون فيه استعدادًا لاشتراكهم في العمليات العامة. ولما تخطى هؤلاء، طرقتْ أسماعَه ضجةٌ غير واضحة، لم تلبث أن وضحت، فإذا هي قصف عنيف من المدفعية تصحبه فرقعة عالية تُحْدثها طلقات البنادق، وكان القصف والرصاص يزدادان وضوحًا كلما ازداد اقترابًا.

كان جوُّ الصباح المنعش الهادئ الذي لم يكن يعكره منذ حين إلا صوت انفجارات متباعدة منفردة، وقد استحال في تلك اللحظة إلى إرعادٍ مستمر يتعالى فوق منحدرات براتزن؛ إرعاد مخيف تساهم فيه المدافع والبنادق، فتجعل من الجو جحيمًا، وكانت أدخنة الانفجارات تتوالى على طول سفح الهضبة، بينما كانت الغيوم الكثيفة التي تخلِّفها طلقات المدافع تتناثر وتختلط بعضها ببعض، كان لمعان الحراب وسط ذلك الدخان يدل على كتل المشاة المتحركة، أما الخطوط الدقيقة التي كانت تتخللها، فقد كانت تدلُّ على مكان المدفعيين وصناديق ذخيرتهم الخضراء.

أوقف روستوف حِصَانه برهةً ليكوِّن لنفسه فكرة عن المعركة الدائرة، لكنه أخفق في مسعاه، كانت كتل المخلوقات تتحرك وسط الأدخنة وستائر من الفرق تنتشر في الأمام وفي المؤخرة، ولكن مَن كان أولئك الجنود؟ وإلى أين كانوا ذاهبين؟ ماذا كانت نواياهم؟ يستحيل معرفة ذلك. غير أن هذا المشهد لم يثبِّط عزيمته، بل على العكس، لقد أضفى عليه مزيدًا من الشجاعة والعزم، كان يهيب بالانفجارات قائلًا: «كرِّر، كرِّر! بمزيد من القوة، بمزيد من القوة!»

همز جواده، فبلغ به جانب الجبهة الذي كان الجنود فيه قد بدءوا في المساهمة في المعركة.

راح يتساءل: «ماذا سيحدث هناك؟ لستُ أدري، مع ذلك فإنني واثق من أن كل شيء سيكون على ما يرام.»

تجاوز فيلقًا نمساويًّا، وبلغ المراكز التي يشغلها جنود الحرس، غير أنَّ هؤلاء كانوا يخوضون المعركة عند وصوله.

فكَّرَ في سِرِّه: «ذلك أحسن! سوف أشاهد المسألة عن قرب.»

كان يسير في محاذاة الخط الأول تقريبًا، فوقعت أبصاره على عدد من الفرسان ظهروا في تلك اللحظة، تبيَّن أنهم كانوا بعض رماحي الحرس الذين كانوا عائدين من المعركة مفكَّكِي الصفوف. ولما مرُّوا بجانبه، رأى بوضوحٍ أن أحدهم كان مغطًّى بالدم،

فقال يحدِّث نفسه: «ماذا يهم!» ولما قطع بضع مئات من الخطوات، شاهد مفرزة كبيرة من الفرسان، كانت ثيابهم البيضاء تتعارض بشدة مع لون جيادهم الدهماء. بدأ ظهور تلك المفرزة على يساره، وقد انتشر أفرادها على خطٍّ طويل يقطع الاتجاه الخلوي الذي كان يسير فيه، ولم يلبثوا أن اندفعوا نحوه هادبين، وكان روستوف يرغب في تحاشي الاصطدامات والاشتباكات ليقوم بمهمته؛ لذلك فقد أرخى لجواده العنان، فراح هذا يسابق الريح، لكن الفرسان بدورهم قاموا بحركة مماثلة، حتى إن بعضهم راح ينهب الأرض نهبًا بجواده يطارده، وأصبح وقْع الحوافر أكثر وضوحًا وصليل الأسلحة قريبًا وراءه، بل إنه أخذ يتبين أشكال الفرسان، وأصبحت معالم وجوههم تتضح، عرف فيهم فرسان الحرس الذين كانوا يقومون بهجوم معاكس ضد الفرسان الفرنسيين.

ازدادت سرعتهم رغم أنَّ جيادهم ما كانت مطلقة الأعنة، سمع روستوف ضابطًا يصيح: «هدبًا سر!» ورأى الفرسان يطلقون الأعنَّة لخيولهم الأصيلة، فتندفع هذه وكأن بطونها تلامس الأرض، وخشي روستوف أن تطأه سنابك الخيل أو أن تقتحمه في هجومها، فراح يحث جواده على طول امتداد خط هجومهم، حتى إنه لم ينجُ من الاصطدام بهم إلا بأعجوبة.

كان آخر فارس من الحرس الراكب، وهو عملاق ذو وجه منقوش بالجدري، يعلو وجهَه الغضبُ لمرأى هذا الفارس الغرير الذي جاء يعرِّض نفسه للسقوط بين حوافر جواده، وكانت نهاية روستوف محتومة — وقد شعر بنفسه بضآلته إزاء هؤلاء الفرسان العمالقة — لولا أنه ظلَّ محتفظًا ببداهته، فأهوى بسوطه بضربة قوية على وجه الجواد الهائج المندفع الذي يعتليه العملاق، فشب الحيوان على قائمتيه، وأرخى أذنه وأدار وجهه، لكن الفارس لم يمهله، بل همزه بشدة، فعاد على أحسن ما كان عدْوًا، ممدود العنق مشرع الذيل، لكن روستوف كان قد نجا.

لم يكن فرسان الحرس يبتعدون عن روستوف حتى سمع هذا هتافات قريبة، ولما استدار رأى أن صفوفهم الأولى قد اشتبكت بصفوف العدو، ذوي شعارات الكتف الحمراء، ودَّ لو يتابع مشهد المعركة، لكن مدفعًا انطلق في تلك اللحظة وتبِعه آخرُ، وعَلَت سحب الدخان، فحجبت الفرسانَ عن أنظاره، تردَّد فترة وهو بين راغب في الانضمام إلى ذلك الهجوم ومُحجِم عنه، لقد كان هجومًا عنيفًا مستميتًا، تجلَّت فيه البسالة النادرة، حتى إنَّ الفرنسيين أنفسهم لم يسعهم إلا الإعجاب بأعدائهم الفرسان، ولقد علم بعدئذٍ أن كل أولئك الميامين الأبطال، زهرة الفرسان وزينتهم، كل أولئك الشبان المتأججة حماستهم؛ قد هلكوا في تلك المعركة باستثناء ثمانية عشر فارسًا نَجَوا.

فكر روستوف: «لِمَ أغبطهم؟ سوف يأتي دوري، ولعلني أجد فرصة مواتية أشاهد فيها الإمبراطور لِلَحظة خاطفة!»

تابع طريقه، فلما اقترب من الحرس الراجل، لاحظ من تعابير وجوه الضباط التي يمتزج فيها الجلال بالعطف والخشونة العسكرية، أنهم كانوا هدفًا لنيران مدفعية العدو الهائجة، لقد كانت تعابير الوجوه أبلغ في معانيها ومراميها من أصوات القنابل وأزيز الرصاص المتطاير فوق الرءوس.

وبينما كان يمر خلف أحد الفرق، سمع بعضهم يناديه: روستوف!

أجاب دون أن يعرف صوت بوريس: ماذا هناك؟

فقال بوريس وابتسامةُ السعادة التي تنطبع على وجوه الشبان الذين خاضوا نيران المعركة للمرة الأولى، مرتسمة على وجهه: هه، ها نحن أولاء في الخطوط الأولى!

توقف روستوف وقال: حقًّا! وماذا بعد؟

فقال بوريس وهو شديد الانفعال: لقد دحرناهم!

وفجأةً حلا له أن يثرثر، فراح يقص عليه نبأ فيلق الحرس الذي ما كاد رجاله يبلغون الأماكن المخصصة لهم حتى شاهدوا جنودًا آخرين كانوا يحتلونها، لقد ظنوا بادئ الأمر أنهم النمساويون، غير أن أولئك الجنود الغرباء أمطروهم وابلًا من قذائف المدفعية، وعندئذٍ أدركوا أنهم إزاء العدو، ورأوا أنفسهم بغتةً في الخطوط الأولى وهم الذين ما كانوا يتوقعون لقاء العدو. غير أنَّ روستوف لم ينتظر نهاية القصة، بل همز جواده ومضى، صاح به بوريس: أين تقصد؟

– عندي مهمة إلى جلالته.

وخُيل لبوريس أنه يقول إلى سعادته،[1] فقال: ها هو ذا!

وأشار إلى الغراندوق الذي كان على بُعد مائة خطوة منهما، مرتديًا خوذة الفرسان وسترتهم، مقطب الحاجبين، مرفوع الكتف، يصرخ محدثًا أحد الضباط النمساويين الذي كان شاحب الوجه في ثوبه الأبيض.

– لكن هذا هو الغراندوق! إن مهمتي محصورة بين الإمبراطور والجنرال القائد الأعلى.

[1] أورد المترجم عن اللغة الروسية ملاحظة حول هذا الالتباس فقال إن كلمتي جلالته وسعادته متقاربتان لفظًا في اللغة الروسية، وهما: Vysstchestvo, Vélitchestvo.

وهمَّ بالابتعاد، لولا أن هرع بيرج من الجانب الآخر، وكان على مثل انفعال بوريس وحماسه، هتف وهو يريه رسغه الملفوف بمنديل تَخضَّب بالدم: كونت، كونت، لقد جُرحتُ في يدي اليمنى، مع ذلك فقد لبثت في الصف، إنني أمسك سيفي بيدي اليسرى يا كونت، لقد كان كل آل «فون بيرج» أبطالًا في أسرتي.

أضاف بيرج كلمات أخرى، لكن روستوف لم يسمعها؛ لأنه كان قد ابتعد فعلًا.

وبعد أن قطع قفرًا خاليًا، قرر الابتعاد عن الصفوف الأولى ليتجنب الوقوع في طريق هجوم جديد، راح يسير على طول جبهة الاحتياطي من القطعات، مبتعدًا أكثر فأكثر عن المكان الذي كانت المعركة فيه على أشدها، وفجأةً رأى أمامه على مؤخرة الفرق الروسية، في المكان الذي لم يكن يحلم أن يجد فيه العدو، رأى العدو يُصْلِي الجنود الروسيين نارًا حامية، تساءل: «ما معنى هذا؟ هل التفَّ العدو حولنا؟ مستحيل!» وارتعد فجأةً خوفًا على مصير المعركة. أردف يقول لنفسه: «مهما بلغ الأمر، لا يمكن الإفلات منه! ينبغي أن أكتشف الجنرال القائد الأعلى هنا، وإذا كان كل شيء قد فُقد وانتهى، فإن واجبي يدعوني إلى الموت مع الآخرين.»

كان في تلك اللحظة قد بلغ حدود قرية براتزان؛ حيث كانت تتزاحم أعداد هائلة مختلطة من مختلف القطعات الفارة المتقهقرة دون نظام ولا ترتيب. وكلما توغل في السير، ازداد شعوره القاتم بالنهاية المحزنة.

سأل في طريقه بعضَ الجنود الروسيين والنمساويين الذين كانوا يقطعون الطريق لكثافة أعدادهم: ماذا هناك؟ ماذا حدث؟ على من تطلق النار؟

فأجابه الفارُّون بالروسية والألمانية والتشيكية، وهم لا يدرون من أمرهم شيئًا: الشيطان وحده يعرف! لقد قُضِي علينا! لقد فقدنا كل شيء!

وصاح أحدهم: الموت للألمان!

– ليحملْهم الشيطان، أولئك الخونة!

بينما غمغم ألماني في لغته: إلى الشيطان هؤلاء الروس!

كان بعض الجرحى يجرُّون أنفسهم على جوانب الطريق. الشتائم والصيحات والزمجرات تُخلط في بعضها، فترتفع عنها جلبة هوجاء تُصم الآذان، وكان صوت البنادق قد خبا. وقد فهم روستوف أخيرًا أن تلك الطلقات الكثيرة كانت متبادَلة بين الروسيين والنمساويين حلفائهم!

فكَّرَ روستوف: «رباه، ما معنى كل هذا؟ وهنا، حيث يمكن للإمبراطور أن يراهم بين لحظة وأخرى؟ لا يمكن أن يكون ذلك ... إن هؤلاء ليسوا إلا عصبة من السفلة. لِأُسرِعْ في الابتعاد عنهم.»

لم يفكِّر قط في هزيمة ساحقة يصاب بها الروسيون، لقد شاهد القطعات الفرنسية متمركزة على هضبة براتزن، ورأى المدفعية العدوة منصوبة تَصُبُّ وابل قذائفها على مواطنيه، لكنه لم يفكر في الهزيمة، كانت مهمته محصورة في إيجاد القائد الأعلى، فكان كلُّ همِّه منحصرًا في تلك المهمة، ولم يكن مباحًا له أن يقدِّر الواقع، بل إن ما كان يريد — ولا يستطيع — مجابهةُ ذلك الواقع.

الفصل الثامن عشر

هزيمة منكرة

كان روستوف يتوقَّع إيجاد الإمبراطور والقائد الأعلى كوتوزوف في جوار براتزن، حسب المعلومات التي حصل عليها أثناء الطريق، لكنه لم يعثر على هذا ولا على ذاك، بل إنه لم يجد هناك أي قائد مسئول. اندفع بحِصَانه الذي بدأتْ حوافره تؤلمه، محاولًا تَخَطِّي زُمَر الفارين من مختلف الأسلحة والجنسيات، لكنه كلما توغل في سيره، ازدادت الوحدات الهاربة كثافة. شاهد على الطريق الأيسر الذي استطاع بلوغه عددًا من العربات بين كبيرة وصغيرة ومن كل الأنواع، وحولها جنود روسيون ونمساويون بين سليمين من الجراح ومصابين، وكان هذا الحشر المخيف الذي تَمُوج فوقه الأصواتُ والصرخات المتنافرة في صخب مريع، يختلط مع مشهد العدوِّ المتمركز فوق هضبة بارتزن وسفوحها، الذي يمطر الروسيين وحلفاءَهم وابلًا من حممه، فيعطي صورةً تحطِّم المعنويات، وتَغمر النفوس باليأس.

كان روستوف يسأل الجنود عبثًا: أين الإمبراطور؟ أين كوتوزوف؟

وأخيرًا استطاع أن يُطْبق على ياقة أحد الجنود ليرغمه على الجواب، فقال الجندي مازحًا، وهو يحاول التملص من قبضته: آه يا أخ! لقد كانت اللعبة حامية حتى إنهم هربوا جميعًا!

شعر روستوف أن ذلك الجندي كان ثملًا، فتركه ليتصدى لفارسٍ كان يبدو عليه أنه تابع أو خفير في خدمة إحدى الشخصيات البارزة. ضيَّق عليه روستوف بالأسئلة، فأجاب الفارس أنَّ الإمبراطور قد جُرح جرحًا بليغًا أدَّى إلى حمله في عربة أُسجيَ فيها على صدره، وأنَّ العربة درجَتْ على هذا الطريق منذ ساعة كاملة.

فقال روستوف معترضًا: إنك مخطئ، إنك الجريح ليس الإمبراطور ولا شك.

فقال الرجل وعلى شفتيه ابتسامة الواثق: كيف أُخدع، وقد شهدته بنفسي، أتعتقد أنني لا أعرف الإمبراطور! لقد شهدته مرات عديدة في بيترسبورج على ما أعتقد، لقد كان شاحبًا كالأموات، لقد مرَّت العربة أمامنا يقطرها أربعة أجياد دهماء، كان ينبغي أن ترى ذلك. إنني أعرف خيول القيصر، وأعرف سائق عربته إيليا إيفانيتش على ما أعتقد، لعل إيليا هذا يقود عربة غير عربة القيصر، أو يحمل في عربة القيصر شخصًا آخر غيره.

أفلتتْ يد روستوف عنان الجواد، راح يتابع طريقه، وفجأةً ناداه أحد الضباط الجرحى وقال له: عمن تبحث؟ عن القائد الأعلى؟ لقد قُتل. نعم لقد أصابته القذيفة ملء صدره وهو على رأس فيلقنا.

فصحح ضابط آخر قول زميله: لم يُقتل بل جُرح.

فسأل روستوف: لكن من الذي قُتل أو جُرح؟ أهو كوتوزوف؟

– كلَّا، ليس كوتوزوف، بل الآخر ... آه، لقد نسيت اسمه ... على كلٍّ هذا غير مهم؛ إذ لم يبقَ منه إلا الأشْلاء. هل ترى تلك القرية هناك؟ اذهب إلى هناك وستجد القادة كلهم مجتمعين.

وأشار الضابط إلى قرية جوستييراديك وابتعد.

سار روستوف الهوينا على حِصَانه وهو مرتبك متردد، تُرى هل جُرح الإمبراطور؟ هل خسرنا المعركة؟ ما كان يصدق كل هذه الأقوال، وراح يسير نحو القرية التي كان جرس كنيستها يرتفع فوق الأبنية على البُعد، ما فائدة العجلة؟ ماذا كان يستطيع أن يقوله الآن للإمبراطور أو لكوتوزوف؟ هذا إذا افترضنا جدلًا أنهما كانا سليمين!

هتف به أحد الجنود: انعطِف من هنا نبالتك، إن المكان خطير حيث تسير، وستُقتل حتمًا.

فقاطعه آخر: ماذا تقول؟ أين يقود هذا الطريق؟ إن هذا الذي يسلكه أقرب من ذاك!

وبعد فترة تردد، توغل روستوف في الطريق الذي أنبأه الجندي بأنه سيُقتل إذا سار عليه، قال يحدِّث نفسه: «ماذا يهمني أنْ أُقتل الآن؟ إذا كان الإمبراطور جريحًا، فلِمَ أُوَفِّر نفسي وأحميها؟»

كانت الأرض التي يجتازها في تلك اللحظة، هي التي مُني عليها الفارُّون من جبهة بارتزن بأفدح الخسائر، ولم يكن الفرنسيون يحتلونها بعد، رغم أن الروسيين، أو على الأصح، الأحياء من الروسيين والجرحى الذين سمحتْ لهم جراحهم بالانتقال، قد أخلَوْها منذ زمن طويل. كانت جُثث القتلى مبعثرة على عشرة أو خمسة عشر مترًا على سفح

الهضبة، وكأنها حشائش نابتة في أرض خصبة، وكان الجرحى الخطيرون يزحفون مَثنى أو ثُلاث وهم يطلِقون زمجرات وصيحات مصطنعة أحيانًا، كانت تترك في نفس روستوف أسوأ الأثر. دفع جواده إلى السير خببًا ليتفادى رؤية هؤلاء المصابين المتألمين، وشَعَرَ بالخوف يستولي على فؤاده؛ لقد كان يخشى على شجاعته أكثر مما كان يخاف على حياته. كان في حاجة ماسَّة إلى تلك الشجاعة التي كانت تزايله كلما وقع بصره على جماعة من أولئك المناكيد.

عَزَفَ الفرنسيون عن قصف ذلك الحقل المغطَّى بالجثث بعد أن خلا من كل ما يستحق القصف والضرب، لكنهم ما إنْ رأوا الضابط المساعد حتى سدَّدوا نحوه أحد المدافع، وأطلقوا عليه عددًا من القذائف. أحدثَ صفيرُ القنابل ورؤية الجثث المبعثرة لونًا من الذعر في نفس روستوف الذي أحسَّ بإشفاق على نفسه، تذكَّر رسالته الأخيرة إلى أمه وجوابها عليها، فكَّرَ في نفسه: «تُرى ماذا كانت تقول لو شاهدتني هدفًا لهذه المدافع؟!»

كانت القطعات الروسية التي شاهدها في «جوستييراديك» تفر كغيرها من ساحة المعركة، ولكن في شيء من النظام. وكانت قنابل الفرنسيين لا تصل إلى هناك، وأصوات البنادق تصل مكتوفة مختلطة، كان كل المحتشدين هناك على مختلف رتبهم يعلنون بصوت مرتفع أن المعركة قد انتهت بخسرانهم، ولم يستطع أحد أن يعيِّن لروستوف مكان كوتوزوف ولا مقام الإمبراطور. كان بعضهم يؤكد له أنَّ الإمبراطور جريح، والبعض الآخر يكذِّبون تلك الشائعة قائلين إنَّ الرجل الشاحب الذي حملته عربة الإمبراطور لم يكن إلا الكونت تولستوي، ماريشال الحاشية الملكية الأكبر الذي رافق سيده إلى ساحة المعركة. وزعم أحد الضباط أنه شاهد شخصية كبيرة على يسار القرية، فاتجه روستوف حيث أشار الضابط ليريح ضميره. ولما قطع مرحلة صغيرة، وتجاوز آخر فلول الجنود الروسيين، شاهد فارسين يقفان قرب حفرة تحد بستان خضار. كان أحدهما يضع على رأسه قبعة غُرست فيها ريشة بيضاء، بدت أليفة في نظر روستوف، والآخر كان مجهولًا منه، يمتطي صهوة جواده محجل القوائم بديع الشكل، خُيل لروستوف أنه شاهده من قبل في مكانٍ ما. لكز هذا الأخير جواده، فقفز فوق الحفرة بسهولة، وإن كانت قائمتاه الخلفيتان قد احتكَّتا قليلًا بحافتها، ثم استدار إلى حيث كان ذو الريشة البيضاء، واجتاز الخندق من جديد ليحدِّثه بلهجة شديدة الاحترام، قدَّر روستوف أنه يدعوه إلى تخطي الخندق، غير أنَّ هذا — وكان روستوف شاخصًا بأبصاره إليه بدافع غريزي — أبدى إشارة من يده ورأسه تدل على رفضه الدعوة. وعندئذٍ فقط، أدرك روستوف أنه إزاء

إمبراطوره المعبود، الذي كان يحس بألم شديد للمصير السيئ الذي بلغت إليه قواته في هذه المعركة.



قد جُرح الأمير آندرو.

لكنه عاد يقول لنفسه: «ولكن مستحيل، كلا، لا يمكن أن يكون الإمبراطور وحيدًا هنا، في هذا السهل المقفر!» وفي تلك اللحظة، أدار ألكسندر رأسه، فشاهد روستوف تقاطيع وجهه النبيل، المنقوشة على صفحة ذهبية، وعرفها. لقد كان الإمبراطور ممتقع الوجه، لكن شحوبه وخديه الغائرين وعينيه الخابيتين؛ كانت تجعل وجهه أشد فتنة، وأكثر وداعة ورأفة. ورأى روستوف بسرور بالغ أنه لم يكن جريحًا، فكان سعيدًا برؤيته سليمًا. شعر أنه يستطيع أن يخاطبه مباشرةً، بل إنه يجب أن يخاطبه ليحمل إليه رسالة دولجوروكوف.

ولكن كما أنَّ العاشق يرتعد ساعة اللقاء، ويغلبه الخوف فيطغى على إحساساته الحادَّة الجارفة التي طالما استقرت في أعماق نفسه، ويجعله يلقي حوله نظرات مذعورة شاردة، باحثًا عمن يساعده ويدعمه ويمنحه فرصة يسترد فيها روعه، كذلك كان روستوف

في تلك اللحظة التي تحقَّقت فيها أغلى أمنياته وأعزها على نفسه، لقد كان يخشى الاقتراب من الإمبراطور، ويقنع نفسه بألف حجة وحجة أن سلوكه سيكون معيبًا غير صحيح، بل ويستحيل تقبُّله.

كان يهمس لنفسه: «هه! ماذا؟ إنني سأبدو أشبه بذلك الذي استغل فرصة وجوده وحيدًا محطَّم المعنويات! لا شك أنه سيتألم لرؤية غريب يقترب منه في هذه اللحظات الكئيبة، ثم ماذا أستطيع أن أقول له، وأنا الذي تكفيني نظرةٌ منه لتسلبني القدرة على النطق والسلطة على الأعصاب؟!»

لم تحضره جملة واحدة من الجمل التي هيأها من قبل لمثل هذه المناسبة، عندما كان يفكر في لقاء الإمبراطور وتوجيه الكلام إليه، خصوصًا وأن معظم تلك الجمل كانت موضوعة لتلائم مناسبات تختلف عن هذه كل الاختلاف، كانت متعلقة بساعات النصر والمجد، وبصورة خاصة باللحظات التي سيتقبل فيها تهانيَ مليكِهِ، وهو جريح تحت أقدامه جرحًا بليغًا، فيعرب له بدوره عن حبه العميق وتعلُّقه الشديد الذي برهن عليه بالتضحية بحياته.

وأردف يقول: «ثم ما هي الأوامر التي سأطلب إليه إصدارها بخصوص الجناح الأيمن والساعةُ الآن الرابعة مساءً والمعركة قد ضاعت؟! كلَّا، لا يجب أن أقترب، ليس من حقي أن أُقلق تأملاته وتفكيره، إنني أفضِّل الموت ألف مرة على أن أوحي إليه فكرة سيئة عني، أو أن أراه يصوب إليَّ نظرةَ عدم رضاء.» فلما بلغ روستوف هذا الحد من تقريره، ابتعد واليأسُ يملأ قلبه، وهو يلتفت بين الحين والآخر إلى حيث كان يقف إمبراطوره المفدَّى وهو لا يزال مترددًا جامدًا في موقفه.

وبينما كان روستوف يعود كَسِيرَ الفؤاد حزين النفس وهو يفكر على ذلك الشكل، مرَّ من هناك رئيسٌ يُدعى فون تول، فاقترب من الإمبراطور عارضًا عليه خدماته، وساعده على تخطي الخندق راجلًا، وكان ألكسندر مرغمًا — بسبب انحراف صحته — على نيل قسط من الراحة، فجلس في ظلال شجرة تفاح، بينما لبث فون تول واقفًا بالقرب منه، شاهد روستوف كلَّ هذه الحركات عن بُعد والمرارةُ ملء حنجرته، ورأى فون تول يحدِّث الإمبراطور بحرارة وطلاقة، ورأى هذا الأخيرَ يمدُّ إليه إحدى يديه، بينما حجب بالأخرى وجهه؛ ليخفي عن عينيه مرأى الدموع التي سالت على خديه ولا شك.

فكر روستوف: «تأمل، إنني كنت سأحل محل هذا في أداء هذه الخدمة!» كان الغضب يعصف بكيانه، حتى إنه كان على وشك البكاء تحنانًا على الإمبراطور المرزوء، تابَع طريقه

وهو لا يدري إلى أين يتجه، كان يأسه يزداد عمقًا كلما اعترف بينه وبين نفسه بأن ضعفه الشخصي أدَّى إلى فقدان الفرصة الجوهرية التي كان يتلهف إليها.

كان يستطيع أن يقترب من الإمبراطور، بل كان يجب عليه أن يقترب منه، لقد كانت تلك هي المناسبة الفريدة التي تمكِّنه من إظهار تفانيه في سبيل مليكه، لكنه أفلت الفرصة من يده. قال يحدِّث نفسه: «ماذا عملت؟!» لوى عنان جواده وعاد هدبًا إلى حيث وجد الإمبراطور، لكنه لم يرَ هناك أحدًا قرب الخندق ولا حوله، كانت عربات النقل والأمتعة والمهمات تملأ الطريق على رحبه، أنبأه أحد الجنود أن كوتوزوف وأركان حربه كان على مقربة من القرية التي يسيرون بحذائها، فتبع روستوف الموكبَ الزاحف.

كان «سائس» كوتوزوف يقود خيولًا مسرجة، ويسير في طليعة الموكب، وكان عجوز من الخدم يسير وراءه على ساقيه الملتويتين، لا يفصل بينهما إلا عربة نقل.

هتف السائس: تيت، هه، تيت!

فأجابه الرجل العجوز ذو القبعةِ الوحيدة الجانب والسترةِ المبطنة بالفراء والساقين الملتويتين، ببساطة وسلامة طوية: ماذا تريد؟

– اذهب للقاء حبيبتك!

فزمجر العجوز وهو يبصق من الغيظ: أيها الغبي!

وراحا يتابعان طريقهما صامتين، ولكن الدعابة عادت تتكرر والعجوز يؤخذ بالنداء، فلا يتحاشى الجواب.

لَمَّا بلغت الساعةُ الخامسةَ مساءً، كانت المعركة قد ضاعت على كل النقاط والجبهات، استولى الفرنسيون على أكثر من مائة قطعة من قطع المدفعية، واستسلم «برزيبيسزوسكي» وفيلقه، وخسرت الفيالق الأخرى أكثر من نصف رجالها، فراحت تنسحب بفوضى وصخب، بينما كانت بقايا فيالق لانجيرون ودوختوروف تتزاحم بجنون واضطراب على شواطئ مستنقعات أوجويزد وعلى مداخل السدود.

ولم تمضِ ساعة أخرى، حتى كانت المدفعية الفرنسية تستهدف هذا المكان وحده، كان الفرنسيون حينذاك يقصفون الجيوش الروسية المنهزمة من أعشاش مدفعيتهم التي نصبوها على مرتفعات هضبة براتزن.

وفي الخطوط الخلفية، كان دوختوروف وآخرون يحاولون إعادة ترتيب بعض الألوية ليوقفوا قصف مدفعية العدو ومطاردة الفرسان الفرنسيين الفلول الهاربة، وكان الظلام قد أقبل. وعلى السد الضيق؛ سد أوجويزد، حيث أمضى الطحان العجوز ذو القلنسوة القطنية سنوات طويلة يصطاد السمك بهدوءٍ بسنارته، بينما كان حفيده يداعب الأسماك

الفضية الحبيسة في صفيحة من التنك، وهو حاسر الكم، على ذلك السَّدِّ الذي عَبَرَ فوقه المورافيون بستراتهم الزرقاء وقلنسواتهم المصنوعة من القطيفة، طيلة أعوام طويلة، يقودون عرباتهم المحملة بالقمح الذي كانوا يعيدونه وقد استحال دقيقًا أبيض، وعَلَتْ أثوابَهم طبقةٌ خفيفة من الطحين بالمثل غَطَّتْ رءوسَهم وأقدامَهم؛ على ذلك السد بالذات، كانت تتزاحم في تلك الساعة عشراتٌ من عربات النقل وجرِّ المدافع، تسحق عجلاتها الصماء رجالًا شوَّه الرعب وجوههم وشل حركتهم، وتعجن سنابكُ الخيول جثثَ القتلى والمحتضرين، ويتقاتل الجنود فيما بينهم سعيًا وراء الفوز بالعبور، الذي ما كان يتم قط؛ لأن القتلة كانوا بدورهم يقتلون، ولَمَا يتجاوزوا بعدُ خطوات معدودات.

وبين كل عشر ثوانٍ، كانت قذيفة تشق الفضاء لتتفجر وسط ذلك الازدحام المخيف، فتقتل وتجرح وتُبعثر مئات من الأنفس وتُلطخ بالدماء ثياب العشرات من الناجين، كان دولوخوف — وقد أعيدت إليه رتبته السابقة — يسير على قدميه على رأس قبضة من رجاله الناجين، والكولونيل قائد السرية على صهوة جواده، وكان هذا النفر القليل هو كل مَن بقي على قيد الحياة من فيلق دولوخوف. كانوا يُدفعون دفعًا من قِبل كتل الفارِّين نحو مدخل السد، اضطروا إلى التوقف؛ لأن حصانًا كان قد سقط تحت عجلات عربة مدفع، وكان الجنود المذعورون يحاولون إخراجه ليفسح لهم طريق العبور، فسقطت قذيفة وراءهم، فقتلت رجلًا وجرحت آخر، فسقط هذا إلى الأمام، فتَخضَّبت ثياب دولوخوف بالدماء، واندفعت الزمر بمجهود خارق خطوات إلى الأمام، لكنها لم تلبث أن توقفت.

كان كلٌّ منهم يقول لنفسه: «مائة خطوة أخرى وبعدها الخلاص، لكننا إذا لبثنا هنا دقيقتين ضعنا!»

استطاع دولوخوف المحصور في صميم الازدحام وسط السد، أن يصل إلى الجانب الآخر بعد أن طرح جنديين أرضًا، وهناك تزحلق على جليد المستنقع الذي كان يغطي معظم سطحه.

صرخ وهو يقفز قفزات خفيفة فوق الجليد الذي كان يتحطم تحت وطأة أقدامه: هاتوا المدفع إلى هنا، إن الجليد هنا يحتمل الثقل، هاتوه!

كان سطح المستنقع يحمل ثقل جسمه، لكنه كان واضحًا أنه سيتحطم تحت ثقله بعد قليل، فكيف إذا أضيف إليه ثقل مدفع وعدد كبير من الجنود! راح الجنود المجتمعون قرب الشاطئ ينظرون إليه دون أن يستجيبوا لأمره، وكان الجنرال منتصبًا عند مدخل السد فوق صهوة جواده، فرفع يده يحيط بها فمه محاولًا التحدث إليه، غير أن قذيفة

مرت فجأةً على ارتفاع خفيض، حتى إن كل الموجودين اضطروا إلى إحناء رءوسهم لتفاديها، وارتفع صوت تخبُّط مكتوم، وشُوهد الجنرال يسقط مع حِصَانه في بحيرة من الدم، لم يقلعه أحد نظرة، ولم يفكر أحد في رفعه.

صاحت ألوف الأصوات بعد إصابة الجنرال دون أن يعي أصحابُها شيئًا مما يقولون: على الجليد، على الجليد! هاتوا المدافع! هل أنت أصم؟! إلى الأمام، إلى الأمام، فوق الجليد!

وكان المدفع الذي يطلب الجنود المخبولون من الذعر سحبه فوق الجليد، قد وصل إلى مدخل السد، وكان الجندي الذي يقود عربته محجِمًا عن تلك المغامرة، غير أن الجنود الفارين كانوا متجمهرين بالمئات على ضفاف المستنقع المتجمد، اندفع أحدهم فوق الجليد، فتحطم تحت وطأة قدمه، ولما حاول تخليصها، سقط حتى وسطه في الماء المتجمد، وتوقف الصف الأول مترددًا، لكن الأصوات ظلت تصيح من الوراء قائلة: «على الجليد! لماذا تتوقفون؟ إلى الأمام!» وهكذا لم يجد سائق عربة المدفع بدًّا من السير، خصوصًا وأن مئات الأيدي أخذت تلوِّح، وتحث الجواد على السير، مصحوبة بزمجرات الفزع والرعب العنيف الذي كان مستوليًا على كل النفوس، جَلَدَ الجنودُ الأقربون جوادَ العربةِ ليرغموه على التقدم، وقرَّروا أخيرًا مغادرة الضفة والسير فوق الجمد، فتقدموا ولكن لم تلبث أن ارتفعت فرقعة هائلة مكتومة، ندت عن الجليد المتحطم، وسقط أربعون رجلًا في الماء وهم يجرُّون معهم إلى الهاوية رفاقَهم الذين تشبثوا بهم؛ ليستعينوا بهم على النجاة من الغرق.

وراحت قذائف المدفعية تَتْرى وتسقط على الجليد وفي الماء، وغالبًا على الكتل البشرية المتزاحمة فوق السدِّ وعلى ضفاف المستنقع وجوانبه.

الفصل التاسع عشر

بعد المعركة

لبث الأمير آندريه ملقًى فوق هضبة بارتزن في المكان الذي سقط فيه والعلَم في يده، وكان الدم ينزف من جراحه بغزارة، وهو يزمجر متألمًا بصوت ضعيف ناحب دون أن يعي.

توقفَ عن الأنين مساءً، وفقدَ رشده، لكن ألمًا حادًّا في رأسه ما لبث أن أعاده إلى الصواب، وأخرجه من خدره.

كانت أول فكرة واتَتْه عند يقظته هي: «أين تلك السماء العميقة البعيدة التي لم أكن أعرفها من قبل والتي اكتشفتُها اليوم؟» ثم تساءل: «وهذا الألم أيضًا، أمَا كنتُ أجهله؟ نعم، لقد كنت أجهل كلَّ شيء حتى الآن، إطلاقًا كل شيء. لكن أين أنا؟»

تناهى إلى سمعه وقْع حوافر جياد مقتربة فأصغى، وصكت أذنه عبارات فرنسية، ففتح عينيه، كانت تلك العميقة التي تسبح الغيوم العالية فوق صفحتها، وتضفي على الجو لونًا لازورديًّا ممتعًا، قائمةً فوق رأسه، لم يُدِر رأسه ليرى نوع الأشخاص الذين كانوا يقتربون من مكانه، رغم أنَّ أصواتهم كانت تدل على أنهم توقفوا قريبًا منه.

كان أولئك الفرسان هم الإمبراطور نابليون واثنان من ضباطه المساعدين، وكان يقوم بجولة في ساحة المعركة متفقدًا، وبعد أن أعطى أوامره بدعم المدفعية التي كانت تقصف السد والجنود المتراصين حوله، راح يتفحص وجوه القتلى والجرحى الذين تُركوا في ساحة المعركة.

قال وهو يرى أحد القناصة الروسيين ملقًى على الأرض ووجهه إلى الأسفل، مسودَّ العنق وأحد ذراعيه ممتدٌّ قليلًا ومتصلِّب: إنهم من أجمل الرجال!

وجاء أحد الضباط المساعدين مُوفَدًا من قِبل قيادة المدفعية التي تقصف أوجويزد، فقال: إنَّ ذخيرة المدافع قد نفدت هناك يا صاحب الجلالة.

فأجابه نابليون: قدِّموا مدافع الاحتياط.

خطا بضع خطوات وتوقف قرب الأمير آندريه، الذي كان ممددًا على ظهره قرب صارية العلَم الذي أخذ الفرنسيون القماش عنها، وقال وهو يتأمل وجه بولكونسكي: إنها مِيتة جميلة!

فَهِمَ بولكونسكي أنَّ الأمر متعلق به، وأن نابليون يتحدث عنه، لقد سمع منذ حينٍ صوت أحدهم يخاطب المتكلم الحالي بلقب «صاحب الجلالة»، لكن الكلمات كانت تصل إلى أذنيه على شكل دندنة خافتة، أو طنين ذبابة، لم يُلقِ بالًا إليها، ولم يهتم بفهم ما يقال ومعرفة ما يدور حوله، بل إنه فقد قوة الذاكرة بعد حين، كان يحس بنار تلتهب في رأسه، ويشعر أن الدم يغادر جسمه، ويتأمل السماء المرتفعة البعيدة، العالية المتسامية الخالدة، كان يعرف أن نابليون — بطله المفضل — موجود بالقرب منه، لكن نابليون بدا له في تلك اللحظة شديدَ الضآلة، شديد التفاهة، إذا قيس بالمأساة الصاخبة الأليمة التي كانت تمثُل في أعماق روحه، بين روحه والسماء الصافية ذات الغيوم السابحة. لم يعُد يهتم لمعرفة أولئك الذين كانوا مُنْحَنِين فوقه يتحدثون عنه، لكنه كان مسرورًا لأنهم لم يتجاوزوه، كان يرغب في أن يُمدوه بعون وغوث ليعيدوه إلى تلك الحياة التي بدت له رائعة الجمال، منذ أن اكتشف أخيرًا عقيدته الجديدة، جمع قواه — أو على الأصح ما تبقَّى من قواه — فاستطاع تحريك ساقه، وانطلقت أنَّة خافتة ملأ صوتُها الناحب نفْسَه تحنانًا.

قال نابليون: آه إنه حي! لِيُحملْ هذا الشاب وليودعْ في عربة الإسعاف.

واستمر الإمبراطور في سيره ليستقبل الماريشال؛ لان Lanes الذي كان يتجه نحوه باسمًا وقبعته في يده، هنأه الإمبراطور بفوزه وانتصاره الساحق.

لم يحتفظ الأمير آندريه بذكرياتِ ما حصل له بعد أن أمر نابليون بنقله على عربة الإسعاف. لقد سبَّب له نقلُه على المحفة واختبارُ عمق جراحه إغماءً طويلًا، فلم يعُد إلى وعيه إلا عند المساء، عندما كانوا ينقلونه إلى المستشفى في صحبة عدد آخر من الضباط الروسيين الجرحى. شعر خلال الرحلة أنه أحسنُ حالًا، واستطاع أن يجيل بصره حوله، وأن يتلفظ ببعض الكلمات.

قال أحد الضباط الفرنسيين، وكان يرافق موكب الجرحى: ينبغي التوقف هنا.

فكانت هذه أولى الكلمات التي سمعها بولكونسكي بعد أن استعاد الوعي، أضاف الضابط: سيمرُّ الإمبراطور من هنا بعد حين، ولا شك أنه سيُسرُّ لرؤية هؤلاء الأسرى من الجرحى البارزين.

فقال ضابط آخر: إنَّ لدينا الآن المزيد من الأسرى، حتى إن الإمبراطور سيتذمر لكثرتهم؛ لدينا كل الجيش الروسي تقريبًا.

فأجاب الضابط الأول: صحيح، لكن هذا (وأشار إلى ضابط في ثوب أبيض تابع للحرس الراكب) كان يقود — على ما نمى إلينا — فيلق حرس الإمبراطور ألكسندر كله.

عرف بولكونسكي أن ذلك الضابط الجريح كان ربنين الذي كان قد صدفه مرات في الأوساط الراقية، وكان إلى جانبه ضابط آخر من سلاح الحرس في العشرين من العمر أو تنقص قليلًا.

اقترب نابليون هدبًا، وأوقف جواده بالقرب منهم، سأل عندما وقع بصره على السجناء الجرحى: من هو الأرفع رتبة؟

فأجيب أن الزعيم الأمير ربنين.

سأله نابليون وهو يلتف نحوه: أأنت رئيس الحرس الراكب التابع للإمبراطور ألكسندر؟

– لقد كنتُ أقود كوكبة من ذلك الحرس.

– لقد قام فيلقُك بواجبه كاملًا.

– إن ثناءَ عسكريٍّ كبيرٍ خيرُ مكافأة للجندي الصغير!

– إنني أمنحك إعجابي عن طيبة خاطر. لكن من هو هذا الشاب الراقد بالقرب منك؟

فأجابه الأمير ربنين أنه الملازم سوختلن. نظر إليه نابليون وقال وهو يبتسم: لقد جاء يحتكُّ بنا وهو ما زال فتًى يافعًا!

فأجاب سوختلين بصوت متهدج: إنَّ صِغَر السن لا يمنع المرء أن يكون شجاعًا.

– جواب بديع أيها الشاب، سوف تبلغ مرتبة سامية!

كان الأمير آندريه قد وُضع في الصف الأول من الجرحى ليُكمل اللوحة التي شاء الضباط الفرنسيون رسمها لإمبراطورهم، ووقعت أنظار الإمبراطور عليه بالطبع، واجتذبت هيأته انتباهه، تذكَّر أنه رآه من قبل في ساحة المعركة، فسأله وهو يناديه بعبارة «أيها الشاب» التي احتفظ بذكراه في مخيلته مقرونًا بها: وأنت أيها الشاب؟ كيف تشعر الآن أيها الباسل؟

ظلت عينا الأمير آندريه، الذي استطاع منذ حينٍ أن يوجه بضع كلمات إلى الجنود المرافقين، شاخصتَين إلى وجه الإمبراطور، وقد غرق في الذهول والسكون. شعر بأن الأهداف التي تشغل بال نابليون تافهةٌ حقيرة، وأحسَّ بأن بطله بالذات شديد الضآلة في

حمى انتصاره الحقير، إذا قيس إلى جلال السماء وعظمتها؛ تلك السماء الحافلة بالعدالة والخير، والتي اكتشفَت حقيقتها في اللحظة الأخيرة؛ لذلك فإنه لم يجد عبارة يحسُن به أن يوجهها إليه.

كان كل شيء يبدو لناظرَيه فانيًا حقيرًا إذا قورن بالأفكار القاتمة الصارمة السامية التي خلَفها في نفسه نزيفُ الدماء من جسده، والألم الحاد الذي أحسَّ به، وانتظار الموت البطيء الذي تعرَّض له. ظلت نظرته غارقة في أعماق عينَي نابليون، يفكر في غرور العظمة وبطلانها، وفي تفاهة الحياة الزائلة الفانية، التي لا يمكن لأحد أن يدرك معناها ومرماها، وبطلان الموت نفسه الذي كان مدلوله مغلقًا أبدًا على مفاهيم الأحياء.

ولما لم يتلقَّ الإمبراطور جوابًا من الأمير آندريه، استدار نحو رجاله وقال لهم آمِرًا: أريد أن يُعنَى بهؤلاء السادة وأن يُنقلوا إلى مركزي، اطلبوا إليَّ طبيبي لأرى أن يفحص جراحهم.

وهمز جواده بساقيه معًا، واندفع ووجهه مشرق بالسعادة والرضى.

لما شاهد جنودُ النقلات مدى عناية الإمبراطور بالجرحى، هرع الذي سلب الأمير آندريه الصورة المقدسة الذهبية يعيدها إليه، ولم يرَ الأمير آندريه ذلك الذي أعادها إليه، كما لم يشعر كيف وقع ذلك، لكنه فجأةً شاهد الصورة فوق ثوبه العسكري ملقاة على صدره، ورأى سلسلتها الذهبية التي أحاطت أختُه ماري عنقَه بها بخشوع ورهبة وانفعال.

تساءل آندريه وهو يتأمل الصورة: «لماذا لا يبدو كل شيء نيِّرًا واضحًا بسيطًا كما تؤمن به ماري؟ يا له من عزاء إذا عَرف المرء أين نجد العون في هذه الحياة، وأدرك ما ينتظره فيما وراء القبر! يا للسرور! ويا للهدوء الذي سأُحِسُّ به لو استطعت القول: مولاي، رحمة بي! ولكن لمن أتقدم بهذا الابتهال؟ أَلِتِلْك القوة غير المحدودة، غير الملموسة، التي لا أستطيع توجيه الكلام إليها، ولا أقدر على التعبير عن أفكاري بكلمات في وصفها؟ وهل هي العدم أو كل شيء؟ أم تُرى لهذا الله الذي أراه هنا مؤطرًا في هذه الصورة التي صنعتها يد ماري؟ لا يوجد شيء ثابت، إلا إذا اعتبرنا أن ما أعرفه ضئيل وأن ما أجهله جليل كبير عظيم، وهذا الجزء الهائل غير مفهوم مني، ولكنه مع ذلك عظيم الأهمية.»

عاد حاملو النقالات إلى سيرهم، كان بولكونسكي يشعر بآلام هائلة إثر كل رجة أو صدمة، ازدادت وطأة الحُمى عليه وأخذ يهذي، كان خياله الملتهب بالحمى حافلًا بشتى الذكريات، كانت صورة أبيه وزوجه وأخته، وذكرى تحنانه تلك الليلة الفائتة، ووجْه

نابليون الصغير الضئيل المتناهي في الصفار، ومشهد السماء اللامتناهية الصافية؛ كل هذه المرئيات كانت تدوِّي، وتصطخب في رأسه وتفكيره.

كان يرى نفسه في ليسيا جوري، يعيش حياته بهدوء وسكون، لكنه ما يكاد ينعم بتلك الحياة البيتية الهانئة حتى ينتصب وجه نابليون، ذو النظرة القاسية الباردة، وعلى سيمائه أمارات الاغتباط لتعاسة الآخرين، فيعيده إلى مهاوي الشك والريب والألم، وعندئذٍ يلقي نظرة إلى السماء — السماء الصافية — فتلهمه السلوان، وحوالي صباح اليوم التالي، كانت هذه الأحلام لا تزال تعتلج وتتزاحم في خياله المحموم، حتى إنَّ الطبيب لاري أكد أنَّ الظلمات الفكرية التي غرق فيها بولكونسكي والانحلال الكلي في قواه، لا تُبْرئه الحياة، كما يشفيه الموت نفسه!

أكد الطبيب قائلًا: إنه شخص عصبي سوداوي، لن ينجو من الموت.

وهكذا تُرك بولكونسكي لعناية سكان المنطقة أسوةً بجرحى آخرين رُؤي أن شفاءهم لا أمل فيه.


هنداوي